١١٩٦
رواية

غوزيل ياخينا

أبنائي

ترجمة: تحسين رزاق عزيز

مكتبة

أبنـائي

رواية

Author: **Гузель Шамилевна Яхина** | اسم المؤلف: غوزيل ياخينا

Title: **Дети мои** | عنوان الكتاب: أبنـائي

Translated by: **Tahseen Razzaq Aziz** | ترجمة: تحسين رزاق عزيز

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2021** | الطبعة الأولى: 2021

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Guzel Yakhina,

all rights reserved.

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 | +964 (0) 780 808 0800 | +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 706 15017 | +961 175 2617 | +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2275 | +963 11 232 2276 | +963 11 232 2289

ص.ب: 8272

7 6 2023

مكتبة

t.me/soramnqraa

غوزيل ياخينا

مكتبة | 1196

أبنـائي

ترجمة : تحسين رزاق عزيز

ИНСТИТУТ ПЕРЕВОДА

ينشر هذا الكتاب بدعم من
معهد الترجمة بموسكو - روسيا الاتحادية

Published with the support

of the Institute for Literary Translation (Russia)

المحتويات

نحو العمق كلّه.. 7

الزوجة.. 11

الابنة.. 147

التلميذ.. 243

الابن.. 335

الأبناء.. 457

الخاتمة.. 525

تقويم ياكوب إيفانوفيتش باخ........................ 529

شكر وتقدير.. 531

مكتبة
t.me/soramnqraa

نحو العمق كلّه

هذه التفاصيل كلّها - من أين أتيتَ بها؟! فقد تشنّجت معدتي تقريباً بسببها. هذا كلّه - كأنّي أراه بأم عيني، أنت ابن كلب! أنت شكسبير أشعث! شيللر مغبّر! ما الذي يحدث هناك - في هذا الرأس الأصمّ المُوْبِر، ها، قل؟ أيّ شياطين موجودة في داخلك؟ - وبعد أنْ قفز إلى باخ، قَرَّب هوفمان منه حسب العادة وجهه الجميل كثيراً وهزَّ منخريه فجأة وخفق برموشه.

هذه هي المرة الثانية التي نقول فيها هذا بأعلى أصواتنا لغوزيل ياخينا، ونحن نقرِّب حسب العادة وجوهنا الجميلة إلى السطور التي كتبَتْها. ولا يمكننا التوقف عن القراءة. وكلّما نقرأ أكثر نندهش أكثر. في الرواية الأولى[1]، التي اشتهرت بسرعة بعد عام واحد من ظهورها لأول مرة، والتي صدرت في ثلاثين ترجمة ونالت أفضل الجوائز الأدبية العالمية، أخذتنا ياخينا إلى سيبيريا وفي الوقت نفسه أظهرت لنا الروحية التترية في داخلها، وفي روسيا، ويمكن للمرء أن يقول في داخلنا جميعاً. والآن تغمر القارئ في ماء نهر الفولغا البارد، في الطحلب الجليدي والخث، وفي التماوج والوحل، في إتيل - بولغو - سو[2]، و«فكره الشعبي»، إنها مثل نهر الفولغا، العميق، تتلمَّس أيضاً الروحية الألمانية في داخلها وفي روسيا، ويمكن أنْ نقول، في داخلنا جميعاً.

1- رواية غوزيل ياخينا «زوليخا تفتح عينيها» صدرت عام 2015 ونالت الكاتبة العديد من الجوائز. (المترجم).

2- إتيل وبولغو وسو، أسماء مختلفة لنهر الفولغا في لغات سكان الفولغا الأصليين. (المترجم)

في حبكة الحوادث، في المقام الأول عموماً، الحب والموت والولادة والحضانة والتاريخ والسياسة والحرب والإبداع. خطوط حياة الأبطال – ألمان الفولغا، وهي تتشابك مع حياة الطاغية الذي دمَّرهم، قاتل العجول التي لم تولد بعد والجرارات التي لم تكتَمل – تختلط وتثير فينا البهجة والخوف. وهذا التشابك مليء بالخيال الأصيل. فيودّ المرء اكتشاف التفاصيل.

هل هذه، مثل قصة غابرييل غارثيا ماركيث، قصة دورية؟ هل هي سحرية؟ لماذا تتحقق حكايات باخ؟ ستالين وكلماته «أيها الإخوة والأخوات» – هل هي تكرار للإمبراطورة الألمانية (الأصل) يكاتيرينا، التي خاطبت المستوطنين الألمان الذين أحضرتهم: «يا أبنائي»؟ هل من هناك، كما يبدو، جاء اسم الرواية؟

تشمخ الإمبراطورة في أحد المَشاهِد على شكل تمثال من النحاس، كأنها فارس نحاسي وهي تمسك بيدها وعْدَها الرنّانَ الذي لم يُنجَز بـ «تطويرٍ مختلفٍ» للتاريخ الروسي، ثم تُسحَب، هي ووعدها وتُسلَّم بالوزن وتوضع في الفرن، ويُعاد صهرها إلى قطَعٍ للجرارات – الدبابات. والطاغية الذي كبر في الوقت ذاته ليصل إلى حجم العمالقة يمشي بثقل في شوارع المدينة وينظر من خلال نوافذ الطوابق الثانية. وبعد أنْ دحرج بيده الجدة (الإمبراطورة) النحاسية التي أعيد صبّها إلى حلقات ذهبية اللون، ألقى بها في أعماق الفولغا.

إنَّ الرواية الثانية هي اختبار ناجح، بل وحتى أكثر إشراقاً ومتعة وصدقاً من الرواية الأولى. مع أنَّ العادة أنْ يحدث العكس. ولكن ها هي ياخينا تُدهشنا مرة أخرى.

يلينا كوستيوكوفيتش[1]

1– يلينا ألكسندروفنا كوستيوكوفيتش (مواليد 1958، كييف) كاتبة روسية ومترجمة عن اللغة الإيطالية وإليها، وأستاذة اللسانيات ونظرية الترجمة الأدبية وممارستها في العديد من الجامعات الروسية والإيطالية. (المترجم).

الإهداء:

إلى جدي،

معلم اللغة الألمانية

في القرية

الزوجة

-1-

مكتبة
t.me/soramnqraa

نهر الفولغا يقسم العالم إلى قسمين.

الضفة اليسرى منخفضة وصفراء، تمتد مستوية وتحولت إلى سهب تشرق الشمس من تحته كلّ صباح. التربة هنا مرّة الطعم وقد حفرتها السناجب الأرضية، والحشائش سميكة وطويلة، والأشجار مجحدرة[1] وقليلة. وقد طفحت خلف الأفقِ حقولٌ ومزارعُ بطيخ وقرعيات مرقشة مثل دثارٍ باشكيريٍّ. والتصقت قرى على طول حافة الماء. وهبّ من السهب نسيم صحراء تركمانيا وبحر قزوين المالح ساخناً ومُتَبَّلاً.

لم يعلم أحد كيف كانت تبدو أرض الضفة الأخــرى. فقد تراكم الجانب الأيمن فوق النهر بالجبال المَهيبة وانحدرَ في الماء عموديّاً كأنما قُطِعَ بسكين. وانهمرت الرمال في موضع القَطْعِ بين الأحجار، لكن الجبال لم تتضاءل قَط، بل أصبحت مع كلّ عام أكثر انحداراً وثَباتاً: في فصل الصيف بدت خضراء مائلة للزرقة من جرّاء الغابات التي تغطيها، وفي الشتاء بيضاء. كانت الشمس تغرب خلف هذه الجبال. وفي مكان ما، وراء الجبال امتدت غابات أيضاً، وأجَماتُ صنوبرٍ وشوحٍ معتدلة البرودة وكثيفة ذات أوراق مصقولة شائكة الأطراف، ومدنٌ روسية كبيرة ذات قلاع من الحجر الأبيض، ومستنقعات وبحيراتٌ مياهها جليدية زرقاء صافية. وكان البرد يتسلّل

1- مجحدرة – قصيرة وغليظة. (المترجم).

من الضفة اليمنى على الدوام – فمن خلف الجبال يتنفس بحر الشمال البعيد. كان بعض الناس يدعونها حسب الذاكرة القديمة الضفة الألمانية الكبرى.

شعر ناظر المدرسة ياكوب إيفانوفيتش باخ بهذا القِسم غير المرئي في الوسط تماماً من سطح الفولغا الهادئ، حيث الموجةُ الضارب لونها إلى لون الفولاذ والفضة السوداء. غير أنَّ أولئك القلة الذين تبادل معهم أفكاره الغريبة الأطوار، أصابهم الذهول، لهذا كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأنَّ بلدتهم غنادينتال[1] هي مركز كونهم الصغير المحاط بسهوب الفولغا أكثر مما هي مركز حدوديّ. كان باخ يفضِّل عدم المجادلة: فأيّ تعبير عن الخلاف كان يسبب له ألماً روحيّاً. لقد عانى حتى وهو يعنِّف تلميذاً مهمِلاً في الفصل. ربما، لهذا السبب اعتُبِر مدرساً محدود التفكير: كان صوت باخ هادئاً، وبنيته الجسدية نحيلة، أما مظهره الخارجي فزهيد لدرجة أنه لم يكن ثمة أيّ شيء يمكن أنْ يُقال عنه أبداً. وهذا الأمر ينطبق كذلك على حياته كلّها على العموم.

كان باخ يستيقظ كلّ صباح، قبل أن يُبدّد الفجر ضوء النجوم، ويصغي إلى صوت العالم وهو مستلقٍ تحت غطائه المحشوّ بريش البط. فالأصوات الهادئة والمتنافرة لحياة الآخرين الجارية في مكان ما حوله وفوقه تُشعره بالطمأنينة. كانت الرياح تجول على الأسطح في الشتاء ثقيلة ومختلطة بكثافة مع الثلج وحبيبات الجليد، وفي الربيع مرنةً ومشبعة بالرطوبة وبزرقة السماء، وفي الصيف خاملة وجافة ومختلطة بالغبار وبذور الأعشاب البرية الخفيفة. كانت الكلاب تنبح وهي تُحيّي أصحابها الذين يخرجون إلى الرواق. وقطيع الماشية يخور بصوت عميق وجهير في طريقه إلى مكان الإرواء (المستوطن المجتهد لا يورد أبداً الثور أو الجمل الماءَ البائت من دلو أو من ثلج ذائب، بل حتماً يأخذه

1- Gnadental – تعني في الترجمة عن اللغة الألمانية: الوادي المبارك. (الملاحظة من الكاتبة).

أولاً إلى نهر الفولغا ليرتوي قبل أنْ يجلس لتناول الفطور ويبدأ الأعمال المنزلية الأخرى). وتأخذ النسوة في أفنية الدور يُنشِدن بحماس ويكرّرنَ الأغاني الممدودة إمّا لتزيين الصباح البارد، أو لمجرد عدم النوم. كان العالم يتنفس ويفرقع ويصفّر ويرغي ويطقطق بالحوافر ويرنّ ويغني بأصوات مختلفة.

كانت أصوات حياته الخاصة شحيحة وضئيلة لدرجة أنَّ باخ نسي كيف يسمعها. النافذة الوحيدة في الغرفة كانت ترتجّ تحت عصف الرياح (وجبَ عليه من العام الماضي أنْ يُركِّبَ زجاجاً أفضل في الإطار ويسدّ شقّ النافذة بوبَر الإبل). تصدَّعت منذ زمن بعيد المدخنة غير المنظَّفة. ومن حين إلى آخر كان فأر رمادي يصفر من مكان ما خلف الموقد (على الرغم من أنه من المحتمل أنَّ تيار الهواء كان يجول ببساطة بين ألواح الأرضية، أما الفأر فقد نفقَ من مدة طويلة وصار طعاماً للديدان). ربما، هذا كلّ شيء. كان الاستماع إلى الحياة *الكبيرة* أكثر متعة. فأحياناً عندما كان باخ يصغي بسمعه ينسى حتى أنه هو نفسه جزء من هذا العالم؛ وأنَّ بإمكانه بعد أن يخرج إلى الرواق أنْ ينضم إلى تعدّد الأصوات هذا: وينشِد أغنية ما عالية ومرحة من قبيل «يا فولغا، يا فولغا»، أو يصفق الباب الأمامي، وفي أسوأ الأحوال أن يعطس فحسب. لكن باخ كان يفضل الاستماع.

في الساعة السادسة صباحاً تجده، مرتدياً ملابسه وممشطاً شعره، يقف عند جرس المدرسة ممسكاً بساعة الجيب في يديه. منتظراً متى ينطبق مؤشّرا الساعة كلاهما في خط واحد، مؤشر الساعات على الرقم ستة ومؤشر الدقائق على الرقم اثني عشر فيسحب الحبل بكلّ قوته: يدقّ الجرس البرونزي بصوت عالٍ. على مرّ السنين حقق باخ في هذا التمرين مهارة عالية لدرجة أنَّ الرنين كان يصدح تماماً في اللحظة التي يلامس فيها مؤشر الدقائق ذروة قرص الساعة. وبعد ذلك بلحظة (عرف باخ هذا) كان كلّ واحد من سكان المستوطَنة يلتفت إلى الصوت ويخلع طاقيته أو قبعته ويهمس بصلاة قصيرة. فقد حلَّ في غنادينتال يوم جديد.

شملتْ مَهام ناظر المدرسة دقّ الجرس ثلاث مرات: في الساعة السادسة وعند منتصف النهار وفي التاسعة مساءً. حسِبَ باخ أنَّ صوت رنين الجرس هو مساهمته القيمة الوحيدة في سيمفونية الحياة التي تصدح من حوله.

وبعد أن ينتظر حتى تنساب الذبذبة الأخيرة الأدق من طرف الجرس يعود باخ مسرعاً إلى بناية المدرسة. أُكمِل بناء المدرسة من عوارض خشب الشمال الرباعية العالية الجودة (فقد اشترى المستوطنون الخشب المُعَوَّم المنحدر إلى الأسفل على نهر الفولغا من جبال جيغوليوفسكيي أو حتى من محافظة كازانسكايا). كان الأساس من الحجر ومطيّن بالطوب من أجل الصلابة، أما السقف فمبني من الصفيح حسب التقليعة الجديدة التي حلّت مؤخراً محل اللوح المتشقق. وكان باخ يصبغ الإطارات الخشبية والباب كلّ ربيع باللون الأزرق الزاهي.

كان المبنى طويلاً، وفيه ست نوافذ كبيرة على كلّ جانب شغلَت المساحةَ الداخلية بأكملها تقريباً غرفة الفصل الدراسي الذي يقع في طرفه مطبخ المعلمين وغرفة نومهم. وعلى ذلك الجانب نفسه انتصب الموقد الرئيس. لم يكفِ ما يعطيه من الحرارة لتدفئة الغرفة الفسيحة، فعُلِّقَتْ ثلاثة مواقد حديدية صغيرة أخرى على الجدران ولهذا تفوح من الفصل الدراسي دائماً رائحة الحديد الساخن في الشتاء والرطب في الصيف. وفي الطرف المقابل تنتصب منصّة ناظر المدرسة وأمامها تمتد صفوف مقاعد التلاميذ. كان يجلس في الصف الأول التلاميذ الأصغر سنّاً وأولئك الذين اهتم المعلمون بسلوكهم أو اجتهادهم؛ ثم يجلس التلاميذ الأكبر سنّاً. بالإضافة إلى ذلك احتوت قاعة الفصل على: سبورة كبيرة وخزانة مليئة بورق الكتابة والخرائط والعديد من المساطر الثقيلة (التي عادة ما تستخدم ليس للغرض المقصود ولكن لأغراض التربية) وصورة الإمبراطور الروسي التي ظهرت هنا حصريّاً بناءً على طلب هيئة التفتيش التعليمية. لا بدّ من القول إنَّ هذه الصورة لم تجلب سوى متاعب

لا لزوم لها: فبعد امتلاكها اضطر مختار القرية بيتر ديتريخ أن يسجل اشتراكاً في الجريدة، حتى لا سامح الله! لا يفوته خبر تبديل الإمبراطور في بطرسبورغ البعيدة ولا يُحرَج أمام اللجنة القادمة. في السابق، كانت الأخبار تصل من المركز الذي يقطنه الروس فقط إلى المستوطنة متأخرة وكأنها لم تكن في قلب حوض الفولغا، بل في مكان مقفر في أطراف الإمبراطورية، لذا، فإنَّ الالتباس يمكن أنْ يحصل تماماً.

كان باخ يحلم يوماً ما بتزيين الجدار بصور غوته العظيم، لكن لم يتحقق شيء من هذا المشروع. وعد الطحان يوليوس فانغير، الذي طالما زار ساراتوف في قضايا عمل، أن يفعل ذلك «ويبحث عن الكاتب هناك، فلا بدّ أن يكون موجوداً في المتاجر». ولكن بما أنَّ الطحان لم يكن لديه أيّ ولع بالشعر، وكان يتخيل بشكل غامض صورة ابن وطنه الألمعي، فقد خُدِع غدراً: إذ دسّ له عتّاقٌ محتال بدلاً من غوته صورة أرستقراطي كثيف الشارب وحادّ اللحية كأنه مصاب بفقر الدم ذي ياقة خرقاء مخرمة بالدانتيل، ربما، قريب الشبه من ثيربانتس، وبالإضافة إلى ذلك إضاءتها خافتة. اقترح رسام غنادينتال أنطون فروم الذي اشتهر بزخرفة الصناديق ورفوف الأطباق تغطية شاربه ولحيته ووضع كتابة «Goethe» (غوته) في الجزء السفلي من الصورة تحت ياقة الدانتيل بالضبط باللون الأبيض وبحجم أكبر، لكن باخ لم يوافق على التزوير. وهكذا بقيت المدرسة من دون غوته، وأُعطيَت الصورة المشؤومة للفنان بناءً على طلبه المُلِحّ، «حتى تثير فيه الإلهام».

... بعد تأديته لواجبه بخصوص الجرس يوقد باخ المواقد لتدفئة الفصل قبَيل وصول الطلاب ويسرع إلى ركنه لتناول الإفطار. الحقيقة ليس بوسعي أنْ أقول ماذا كان يأكل في الصباح وماذا يشرب معه لأنه لم يُولِ ذلك أيَّ اهتمام. هناك شيء واحد يمكن قوله على وجه اليقين: بدلاً من القهوة، كان باخ يتناول «شراباً أحمر شبيهاً ببول الإبل». هكذا قال المختار ديتريخ الذي مرَّ قبل خمس أو ست سنوات بناظر المدرسة في

وقت مبكر في مسألة مهمة وشاركه مائدة الصباح. ومنذ ذلك الحين لم يذهب المختار مرة أخرى لتناول وجبة الإفطار معه (ولا بدّ من الاعتراف أنَ أحداً غيره لم يأتِ أيضاً)، لكن باخ لم ينسَ تلك الكلمات. ومع ذلك، فإن هذه الذكرى لم تزعجه على الإطلاق: فقد كان لديه ميل صادق نحو الإبل.

يصل الأطفال إلى المدرسة قُبيل الساعة الثامنة. يحملون في يدٍ رزمة الكتب وفي اليد الأخرى حزمة من الحطب أو كيساً فيه أقراص الروث الجافة (بالإضافة إلى أجور الدراسة ساهم المستوطنون بدعم تعليم الأطفال بالمنتج الطبيعي من الوقود لمواقد المدرسة). كانوا يدرسون أربع ساعات قبل استراحة الظهيرة وساعتين بعدها. ويثابرون في الحضور إلى المدرسة بشكل منتظم: إذ كانت عائلة المتغيّب عن أيّ نصف من اليوم الدراسي تدفع غرامة قدرها ثلاث كوبيكات. كان التلاميذ يدرسون اللغتين الألمانية والروسية والكتابة والقراءة والحساب. ويأتي قس مستوطنة غنادينتال آدم هاندل لتدريس التعاليم المسيحية والتاريخ التوراتي. لم يكن ثمة تقسيم إلى فصول، فقد جلس التلامذة جميعهم معاً: في بعض الأعوام كانوا خمسين وفي أعوام أخرى وصل عددهم إلى سبعين. في بعض الأحيان يقسمهم ناظر المدرسة إلى مجموعات، وتؤدي كلّ مجموعة منهم مهمة منفصلة، وأحياناً يقرؤون وينشدون في جوقة. كان الحفظ الجماعي هو الطريقة التربوية الأساسية الأكثر فعالية بالنسبة للجمهور الواسع والمزعِج في مدرسة غنادينتال.

اعتاد باخ على مدار سنوات التدريس، التي كانت كلّ سنة منها تشبه السنة السابقة ولم تتميَّز عنها بشيء خاص (باستثناء أنَّ السقف جُدِّدَ في العام الماضي والآن لم يعد يقطر الماء منه على كرسي ناظر المدرسة)، أنْ يكرّر قول الكلمات نفسها وقراءة المسائل نفسها من المقرّرات إلى درجة أنه اعتاد أن ينقسم ذهنيّاً داخل جسده. كان لسانه يتلو القاعدة النحوية اللاحقة، ويده تصفع بالمسطرة صفعاً خفيفاً تلميذاً كثير الثرثرة

على قفاه، وساقاه تحملان جسده في الفصل بخطوات موزونة، أما ذهنه... ذهن باخ كان يغفو متأرجحاً بصوته واهتزاز رأسه الرتيب على وقع خطواته المُتأَنية. وبعد مرور بعض الوقت ينظر وإذا بيده ليس كتاب «اللغة الروسية» من تأليف فولنير، بل كتاب مسائل غولدينبيرغ. وشفتاهُ لا تتمتمان حول الأسماء والصفات والأفعال، بل حول قواعد الحساب. ولم يبقَ حتى نهاية الدرس سوى القليل، ربع ساعة فحسب. حسناً، أليس هذا جيّداً؟...

كانت المادة الوحيدة التي يستعيد فيها ذهنه طراوته ونشاطه السابقَين هي اللغة الألمانية. لم يكن باخ يحب أنْ يدقق كثيراً في الخط وجماله؛ وكان يوجّه الدرس على عجل نحو القسم الشعري: نوفاليس وشيللر وهاين - فتنصَبُّ أبيات الشعر بسخاء على رؤوس الصِّبْيَة الشُّعْث، كما ينصَبّ الماء عليها في يوم الاستحمام.

اكتوى باخ بحب الشعر منذ نعومة أظفاره. فقد بدا أنه لم يكن يتغذى على كعك البطاطس وهلام البطيخ، بل على القصائد الأسطورية والأناشيد. وبدا له أنه يستطيع إطعام جميع مَن حوله منها، ولهذا بالذات صار معلماً. وحتى الآن، عندما يتلو باخ المقاطع المفضلة لديه في الفصل يشعر ببهجة غامرة تجتاح صدره، في مكان ما في منطقة تحت القلب. أثناء قراءة «أغنية الجوّاب الليلية» للمرة الألف كان باخ يلقي نظرة من نافذة المدرسة فيجد ثمة كلّ شيء كتب عنه غوته العظيم: الجبال المعتمة العظيمة على الضفة اليمنى من نهر الفولغا والطمأنينة الأبدية التي تغمر السهب على الضفة اليسرى. أما هو نفسه، ناظر المدرسة ياكوب إيفانوفيتش باخ، البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، في معطفه الرسمي البالي من قِدَم الاستعمال والمرقوع عند المرفقين وذي الأزرار المتنوعة، وقد غزا رأسه الصلع وبدأت التجاعيد تتغضن على بشرته بسبب الشيخوخة الوشيكة، فمَن يكون يا تُرى، إنْ لم يكن هو نفسه عابر السبيل الجوّاب ذلك، الذي أضناه الإعياء والذي صار بائساً في خوفه أمام الخلود؟...

لم يشارك الأطفال شغف المعلم: فوجوههم المرحة أو المركزة، تبعاً لمزاجهم، كانت تتخذ من بداية أبيات القصيدة الأولى هيئة الرباص[1]. لقد أثَّرَت رومانسية يينا[2] ومدرسة هايدلبرغ[3] على الفصل أفضل من الحبوب المنومة؛ ربما، يمكن استخدام قراءة الشعر لتهدئة التلاميذ بدلاً من الصياح والضرب بالمسطرة المعتاد عليهما. ومع أنَّ حكايات ليسينغ[4] التي وصفت مغامرات الأبطال المألوفين منذ الطفولة: الخنازير والثعالب والذئاب والقُبَّرات تثير الاهتمام لدى أكثر الناس فضولاً. لكن حتى أولئك سرعان ما كانوا يضيِّعون حبكة السرد المروي بلغة *ألمانية* رفيعة صحيحة ومُفخَّمة.

جلب المستوطنون معهم لغاتهم في منتصف القرن الثامن عشر من أوطانهم التاريخية البعيدة من ويستفاليا وساكسونيا وبافاريا وتيرول وفورتمبيرغ وألزاس ولورين وبادن وهِسِّن. لقد انصهرت اللهجات في صهريج واحد في ألمانيا نفسها، التي توحَّدت منذ مدة طويلة وصارت الآن تسمي نفسها بفخر إمبراطورية، كما تُسلَق الخضروات في المَرَق وأعدَّ منها الطهاة المَهَرة: غوتشِد وغوته والأخوين غريم في النهاية

1- الرباص – السير أثناء النوم. (المترجم).

2- نسبة إلى جماعة يينا. وهي حركة أدبية رومانسية، يعدّها مؤرخو الفن أول الجماعات الرومانسية التي استطاعت إحداث تغيير جذري في الأدب الأوروبي، ظهرت في ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر، وسمّيت بهذا الاسم لأن روادها كانوا يمارسون نشاطهم في جامعة يينا التي استقطبت أشهر فلاسفة ذلك العصر مثل هيغل وفريدريك شيلنغ وجوهان جوتليب فيخته. (المترجم. من ويكيبيديا بتصرف).

3- مدرسة هايدلبرغ – من مدارس علم النفس، وهي منبثقة عن المدرسة الكانطية الحديثة في علم النفس، واشتهرت هذه المدرسة في الدراسات النفسية بأنها تقع بين المنهج النوموتاوي الكاشف للقوانين والمبادئ العامة؛ أي إنه يبحث في النشاط النفسي ككل، وبين المنهج الإيديوغرافي الذي يستخدم في دراسة الحالات الفردية. (المترجم. من ويكيبيديا بتصرف).

4- غوتهولد إفرايم ليسينغ – كاتب وفيلسوف ومسرحي وناقد فني ألماني (1729–1781) هو أحد أهم ممثلي عصر التنوير، مسرحياته وكتاباته النظرية أثرت بصورة كبيرة في تطور الأدب الألماني. (المترجم. من ويكيبيديا بتصرف).

طبقاً لذيذاً: هو اللغة الألمانية الأدبية. أما في مستوطنات الفولغا فَلم يكن ثمة مَن يُزاول «الطبخ الراقي» إذ اختلطت اللهجات المحلية مكوّنةً لغة واحدة، بسيطة ونقية، مثل حساء البصل مع قشور الخبز. لقد فهم المستوطنون اللغة الروسية بصعوبة: لم يكن في غنادينتال بأكملها ثمة أكثر من مئة كلمة روسية معروفة، وقد حُفظَت عن ظهر قلب بطريقة ما في دروس المدرسة. ومع ذلك، كانت هذه المئة من الكلمات كافية لبيع البضائع في سوق بوكروفسكايا[1].

... بعد انتهاء الدروس يغلق باخ على نفسه حجرته الصغيرة ويلتهِم غداءه على عَجل. كان بإمكانه أنْ يتناول الطعام حتى في حالة عدم غلق الباب، لكن المزلاج المنسحب لسبب ما حسَّن من استساغة الطعام الذي عادة ما يكون قد بردَ، بل في الحقيقة تجمَّد. كانت أمّ أحد التلاميذ تجلب لباخ مقابل أجر زهيد للغاية إما صحناً من عصيدة الفول أو جفنة من المعكرونة بالحليب بقايا وجبة الأمس من عائلة كبيرة. كان ينبغي، بالطبع، أنْ يتحدث مع المرأة الطيبة ويطلب منها تقديم الطعام، إنْ لم يكن حارّاً فعلى الأقل دافئاً، لكن لسبب ما لم يكن لديه الوقت الكافي. وهو نفسه لم يكن لديه وقت لتسخين الطعام – إذ يحين الوقت الأكثر إرهاقاً في اليوم: *ساعة الزيارات*.

كان باخ ينزل، بعد أن يمشط شعره ويغتسل مرة أخرى، من شرفة بناية المدرسة ويجد نفسه في الساحة المركزية في غنادينتال، عند جدار الكنيسة اللوثرية المهيبة المبنية من الحجر الرماديّ اللون ذات قاعة الصلاة الواسعة والنوافذ الكبيرة وبرج الجرس الذي يشبه قلم رصاص مبريٍّ بشكل حادّ. ويختار وجهته في الأيام الشفعية باتجاه نهر الفولغا وفي الأيام الوترية نحو الجهة المعاكسة للنهر ويسير بخطى سريعة

1- بوكروفسكايا سلوبودا، وبوكروفسك – تسميات قديمة لمدينة إنجلس. من 1922 إلى 1941 كانت عاصمة منطقة الحكم الذاتي الألمانية. عُدِّلَت تسميتها في عام 1931 تكريماً للفيلسوف الألماني فريدريش إنجلس. (الملاحظة من الكاتبة).

على طول الشارع الرئيس، العريض والمستقيم كقطعة مبسوطة من قماش الجوخ الجيد، من جانب المنازل الخشبية الأنيقة ذات الشرفات العالية وإطارات النوافذ والأبواب الأنيقة (الحقيقة، أنَّ الإطارات في منازل أهالي غنادينتال كانت تبدو دائماً جديدة ومفعمة بالبهجة بألوانها الشبيهة بزرقة السماء وحمرة التوت وصفرة الذّرة). ومن جانب الأسيجة المقشوطة ذات البوابات الواسعة (لمرور العربات والزلاجات) والأبواب المنخفضة الارتفاع (لمرور الناس). ومن جانب القوارب المقلوبة تحسباً للفيضانات. ومن جانب النساء وهنَّ يحملن نير الدلاء عند البئر. ومن جانب الإبل المعقولة[1] عند متجر بيع الكيروسين (النفط الأبيض). ومن جانب ساحة السوق التي في وسطها ثلاث من أشجار الدردار الضخمة. كان باخ يمشي سريعاً مخشخشاً بحذائه اللباد بصوت عالٍ في الثلج أو يصفق بقبقابه على طين الربيع بشكل يعتقد معه المرء أنَّ لديه عشر قضايا لا تقبل التأجيل ولا بدّ له أنْ يسوّي كلّ واحدة منها اليوم. وهكذا هي الحال بالفعل.

أولاً، أنْ يمتطي سنام الجمل ويُلقي نظرة إلى امتداد نهر الفولغا وراء الأفق: ليرى ما هو لون الموجة وشفافيتها الآن؟ ألا يوجد ثمة ضباب فوق الماء؟ هل عدد النوارس التي تحوم كثير؟ هل يضرب السمك ذيله في العمق أم في مكان أقرب إلى الشاطئ؟ هذا إذا كان أوان الدفء. أما إذا كان أوان البرد: ما هي سماكة الغطاء الثلجي على النهر ألا يذوب الجليد المتلألئ وهو مكشوف أمام الشمس؟

وبعد ذلك يجب عليه أن يجتاز الوادي الجاف وأن يعبر جسر البطاطا ليصل إلى جدول الجنود الذي لا يتجمد حتى في الصقيع الشديد ويتناول رشفة منه: ألم يتغير طعم الماء؟ ويعرِّج إلى ثقوب الخنازير التي يُستَخرَج منها الطين ليُصنع منه طوب غنادينتال الشهير. (في البداية كان ذلك الطين

1- من عَقَلَ الدَّابَّةَ: ضَمَّ رُسْغَها إِلَى عَضُدِها ورَبَطَهُما معاً بِالعِقالِ لِتَبْقى بارِكَة. (المترجم من معجم المعاني).

يُمزَج ببساطة مع القش. وذات مرة، من أجل المزاح قرّر بعضهم إضافة روث البقر إلى الخليط ووجدوا أنَّ هذه التركيبة تعطي الطوب قوة الحجر حقّاً. وهذا الاكتشاف بالذات هو الذي وضع الأساس للمثل المحلي الشهير «القليل من القذارة لا يضرّ»). ويتمشى على طول ضفة عرق السوس حتى يصل إلى مَسيل الثيران الثلاثة الضيِّق، حيث تقع منطقة طمر الماشية النافقة في القرية. ثم يواصل السير مسرعاً عبر حفرة العلّيق ووهدة البعوض وبحيرة القَسّ وقبر الشيطان الواقع إلى جنبها...

إذا ما لاحظ باخ خلال بعض *الجولات* نوعاً من الاضطراب: شواخص قد دمرتها العاصفة الثلجية على طريق الزلاجات أو دعامة من دعامات الجسر انحرفت إلى أحد الجوانب يبدأ في الحال يعاني من هذه المعرفة. إنَّ الانتباه الشديد جعل حياة باخ مؤلمة، لأنَّ أيَّ تشويهٍ للعالم الذي اعتاد عليه يثير قلقه: فبقدر ما كانت روحه غير مكترثة بالتلامذة في دروس المدرسة، كانت متفاعلة ومتحمسة إلى أشياء وتفاصيل المكان المحيط به خلال ساعات تجواله. لم يخبر باخ أيَّ شخص عن ملاحظاته، لكن كلّ يوم كان ينتظر بفارغ الصبر أنْ يُصَحَّح الخطأ ويعود العالَم إلى حالته الأصلية الصحيحة. وبعدها يهدأ.

وعندما يرى المستوطنون ناظرَ المدرسة بركبتيه المثنيَّتين إلى الأبد وظهره المتصلِّب ورأسه الداخل في كتفيه المُحدَودبَتيْن، أحياناً ينادونه ويدخلون في الحديث عن نجاحات أطفالهم في المدرسة. ولكن باخ الذي يلهث من جرّاء المشي السريع كان دائماً يجيب على مضض وبجمل قصيرة لأنَّ وقته ضيّق. وتأكيداً على ذلك، يخرج ساعته من جيبه ويلقي عليها نظرة رثاءٍ ويهزّ رأسه ويواصل سيره السريع بعد أنْ يكمل الحديث الذي بدأه على عَجَل.

يجب أنْ أقول، إنَّ ثمة سبباً آخر لاستعجاله: فقد كان باخ يتلعثم. ظهرت هذه العلّة لديه منذ عدة سنوات، وتعرّض لها الناظر خارج المدرسة حصراً. لقد عمل لسان باخ المُدرَّب بلا عيب أثناء الدروس،

إذ كان ينطق بسلاسة ومن دون عثرةٍ واحدةٍ كلمات اللغة الألمانية الرفيعة المتعدّدة المكونات ويعطي بسهولة الانعطافات لدرجة أنَّ تلميذاً غيره قد ينسى البداية أثناء الاستماع إلى نهايتها. وهذا اللسان نفسه صار يخذل صاحبه فجأة عندما يتحول باخ إلى اللهجة في الكلام مع أهل قريته. كان لسانه يشتهي أنْ يقرأ عن ظهر قلب مَقاطع من الجزء الثاني من «فاوست»، على سبيل المثال. لكنه لا يرغب مطلقاً أنْ يقول لأرملة كوخ «ابنكِ القليل الفهم ما زال يتسكع ثانيةً!» ويتوقَّف عند كلّ مقطع ويلتصق بحنكه مثل زلابية كبيرة مطبوخة بشكل سيئ. بدا لباخ أنَّ التأتأة ازدادت على مرّ السنين، لكن فحص الشكوك كان أمراً صعباً: فصار يتحدث إلى الناس أقل وأقل.

وبعد جولاته (أحياناً قُبيلَ غروب الشمس، وأحياناً في وقت الغَسَق الكثيف)، يعود إلى البيت بخطى بطيئة مُتعَباً ومُفْعَماً بالرضا. غالباً ما كانت رجلاه مبلّلَتين، وخداه قد لفحتهما الريح، وقلبه ينبض بالفرح: فقد حصل على مكافأة يومية مقابل عمله ساعة من *القراءة المسائية*. فبعد أنْ أنجز الواجب الأخير لذلك اليوم (دقَّ الجرس في تمام الساعة التاسعة مساءً) يخلع باخ ملابسه المبلّلة على الموقد ويدفّئ قدميه في طست من الزعتر والماء الساخن، وبعد أن يشرب ماءً مغليّاً لتجنب نزلات البرد يجلس في السرير ومعه كتاب مجلد قديم بغلاف من الورق المقوى فيه نصف اسم المؤلف ممسوح.

روت سجلاتُ هجرة الفلاحين الألمان إلى روسيا عن الأيام التي وصل فيها، بناءً على دعوة من الإمبراطورة يكاتيرينا، أوائل المستوطنين إلى ميناء كرونستادت على متن السفن[1]. قرأ باخ بالفعل اللحظة التي جاءت

1- في الأعوام 1762-1763، وقعت يكاتيرينا الثانية على بيانين يدعوان الأجانب إلى الاستيطان في المناطق المقفرة من السكان في الإمبراطورية الروسية. وفي المدة من عام 1764 إلى عام 1773 أُنشئت 105 مستوطنات في منطقة الفولغا السفلى، والتي وضعت الأساس لمنطقة الفولغا الألمانية. (الملاحظة من الكاتبة).

فيها الإمبراطورة شخصياً إلى المرسى لتحية المواطنين الشجعان، ونادت بصوت عالٍ وهي تتقدّم على صهوة الجواد أمام صفوف المهاجرين الذين تجمدوا في طريقهم: «أبنائي! أبناء وبنات روسيا الجدد! إننا نستقبلكم بحفاوة تحت ظِلِّ جناحنا الوثيق ونعذكم بالحماية والرعاية الأبوية! في المقابل ننتظر منكم طاعةً وحرصاً ومثابرة منقطعة النظير، وخدمة بلا هوادة للوطن الجديد! ومن لا يوافق لينصرف الآن وليعد مِن حيث أتى! فلا حاجة للدولة الروسية بالمنخورة قلوبهم وبالضعيفة أياديهم!...

ومع ذلك، لم ينجح باخ مطلَقاً في تجاوز هذا المشهد الذي يرفع المعنويات: فقد تراخى جسده، الذي أرهقته النزهة، تحت غطاء الريش كما تتراخى حبة البطاطا المسلوقة عندما يُسكَب عليها الزيت الساخن؛ وتدلَّت ببطء يداه اللتان كانتا تمسكان الكتاب، وانطبق جفناه وهوى ذقنه على صدره. طافت السطور التي قرأها في مكان ما في ضوء مصباح الكيروسين الأصفر، وصدحت بأصوات مختلفة وسرعان ما خفتتْ واستحالتْ إلى نوم عميق. انزلق الكتاب من أصابعه وتزحلق ببطء على الغطاء المحشوّ الريش؛ لكن قرقعة الشيء الساقط على الأرض لم تُفلِح في إيقاظ باخ. سيُدهَش للغاية لو علم أنه يقرأ هذه المدوّنات التاريخية للسنة الثالثة بالكمال والتمام.

هكذا جرت الحياة هادئةً ومليئة بالمسرات الزهيدة والمشاكل الصغيرة ومُرضِية للغاية. وبشكل ما سعيدة، بل حتى يمكن أنْ تُسَمّى حياة كريمة لو لم يكن ثمة ظرف واحد. كان لدى باخ ناظر المدرسة ولع مهلِك، ربما، لم يعد قادراً على التخلص منه: لقد أحب العواصف. لم يحبها، مثل رسام وديع أو شاعر فاضل، يراقب من نافذة منزله صخب عناصر الطبيعة ويغذي الإلهام في الأصوات العالية والألوان الزاهية للطقس الماطر. آه، كلّا! لقد أحبَّ باخ العواصف، مثلما يحب أسوأ سكيرٍ مدمنٍ الفودكا على قشور البطاطا، وكما يحب المتعاطي المورفين.

في كلّ مرة عندما كانت القبة السماوية فوق غنادينتال تطفح بثقل

أرجواني (عادة ما يحدث هذا مرتين أو ثلاث مرات في السنة في الربيع وأوائل الصيف) ويكون الهواء مشبعاً بالشحنات الكهربائية بكثافة لدرجة أنَّ إغلاق الرموش كأنما يثير شرارات زرقاء، كان باخ يشعر في جسده بهيجان غريب متراكم. لم يعرف باخ ما إذا كان هذا هو الدم، بسبب تركيبته الكيميائية الخاصة التي تتفاعل بحدّة مع اضطرابات المجالات المغناطيسية، أو تقلّصات العضلات الخفيفة الناتجة عن الثمَل من الأوزون. لكن فجأة يصبح جسده غريباً: ويبدو أنَّ الهيكل العظمي والعضلات لم يسعهما المكان تحت الجلد فمزقاه وهدَّدا باختراقه، وصار قلبه ينبض في حنجرته وفي أطراف أصابعه، وطنَّ شيء في دماغه ودوّى. وبعد أنْ يترك باب المدرسة مفتوحاً يمشي باخ متثاقلاً باتجاه هذا الرنين إلى العشب وإلى السهب. وفي الوقت الذي يقود فيه المستوطنون قطعان الماشية على عَجَلٍ ويؤوونها في الحظائر وتهرب فيه النسوة من العاصفة الرعدية إلى القريةِ وهنَّ يحتضنَّ إلى صدورهِنَّ أطفالهن وحُزَم البوط[1] الذي جمَعنَه، كان باخ يسير لملاقاة العاصفة ببطء. كانت السماء، المنتفخة من الغيوم والتي لهذا تبدو وكأنها تكاد تسقط على الأرض، تخشخِش وتُفرقِع وتَئزّ أزيزاً عالياً؛ ثم تومض فجأة وميضاً أبيض وتتأوَّه بلهفة وانخفاض وتسقط على السهب كتلة ضخمة وباردة من الماء ويبدأ وابل غزير من المطر. يمزق باخ طوق القميص وبعد أن يكشف صدره النحيف يلقي بوجهه إلى الأعلى ويفتح فمه. فينهمر الوابل على جسده ويتدفق من خلاله، وتحسُّ ساقاه بارتعاش الأرض مع كلّ ضربة رعد جديدة. والصواعق الصفراء والزرقاء والأرجوانية الداكنة تتوهَّج أكثر فأكثر، لا هي أعلى الرأس ولا هي داخله. ويبلغ الهيجان في العضلات ذروته بالضربة التالية من السماء فيتمزق جسم باخ إلى آلاف الأجزاء الصغيرة وينتثر عبر السهب.

1- بُوط: من نبات المستنقعات المعمرة من جِنْس تيفا. (المترجم. من قاموس المعجم الوسيط، اللغة العربية المعاصرة).

يعود إلى وعيه بعد ذلك بوقت طويل، وهو راقد في الوحل ووجهه تعلوه الخدوش وأشواك القرطب في شعره. وظهره يؤلمه كالمضروب. فينهض ويسير متثاقلاً إلى المنزل، مكتشفاً كالعادة أنَّ جميع الأزرار على طوق قميصه قد اقتلعت. ويشعّ خلفه قوس قزح بألوانه الزاهية، بل حتى ليس قوساً واحداً وإنما قوسان اثنان، وزرقة السماء سرت من خلال ثقوب السحب العائمة عبر نهر الفولغا. لكن روحه كانت مُنْهَكة للغاية إلى درجة لا تستطيع الاستمتاع بهذا الجمال المهدّئ للخواطر. وبعد أنْ يغطي باخ بيديه الثقوب التي على ركبتيه ويحاول تجنب نظرات الآخرين، يسرع نحو مبنى المدرسة، متأسفاً من ولعه الذي لا طائل منه وخجِلاً بسببه. لم تكن نزوته الغريبة مخجِلَةً فحسب، بل وخطيرة أيضاً: ذات مرة قتلتْ صاعقةٌ بالقرب منه بقرةً كانت تائهة عن القطيع، وفي مرة أخرى حرقت شجرة بلوط وحيدة. وحتى إنَّ ولعه هذا يوقعه في الإفلاس: فضياع الأزرار وحدها خلال الصيف هو إنفاق كبير! لكن باخ لم يكن يعرف مطلقاً كيف يكبح جماح نفسه ويكتفي بالاستمتاع بالنظر إلى العاصفة الرعدية من المنزل أو من شرفة مدخل المدرسة. لقد عرف أهالي قرية غنادينتال عن غرابة أطوار ناظر المدرسة في الربيع، واتخذوا منها موقفاً متسامحاً: «حسناً، ماذا تأخذ منه، من رجل متعلم!...».

-2-

بيد أنَّ حياة باخ ذات يوم تغيَّرت تغيّراً كبيراً.

فقد استيقظ في صباح ذلك اليوم ومزاجه الروحي على أحسن حال. كان سبب مزاجه الممتاز هو زرقة سماء شهر مايو (أيار) الساطعة التي تبدو من خلال النافذة عبر الستائر المُنسدلَة، وخفة حركة الغيوم المضطربة في هذه السماء، بالإضافة إلى حقيقة بداية أيام الربيع وحلول العطلة المدرسية.

بدأت الدراسة في غنادينتال قبل عيد الفصح. فبعد أن أنهى المستوطنون وقفة القدّاس في الكنيسة اللوثرية التي زُيِّنَتْ زينة احتفالٍ واستمتعوا بمشاهدة توهّج شموع العيد وأهدى بعضهم بعضاً الحلويات والبيض المسلوق، وزاروا أقاربهم المتوفين في المقبرة وأقاربهم الأحياء في القرى المجاورة، وشبعوا من تناول الجبن «الجامد كالزجاج» والزبد الأصفر الكهرماني شدّوا حيوانات الجرِّ لديهم كلّها وتوجهوا إلى الحراثة مع جميع أفراد الأسرة. لم يبقَ في المنازل إلّا العجائز الساقطة أسنانهنَّ والأطفال الصغار والنسوة اللاتي كانت أعمالهنَّ المنزلية كبيرة للغاية لدرجة أنها تتطلب حضوراً دائماً بلا انقطاع. يبقى المستوطنون عدة أسابيع من الفجر قبل أنْ تزول النجوم الأخيرة وحتى ظهور أوائل نجوم الليل يعملون على شقّ السهوب بالمحاريث. وعند الظهيرة يجتمعون حول نار المشعل يرتشفون شوربة البطاطا ويحتسون شاي السهوب اللافح المعمول من جذر عرق السوس المغلي في الماء ثلاث مرّات مع قليل من الزعتر وحفنة من الأعشاب الطازجة.

صباح يوم أمس علِمَ باخ، وهو يرنّ جرس المدرسة، أنه لا يسمعه سوى عدد قليل من الناس: فقد خرجت العربات المحمَّلة بالفلاحين الحارثين إلى السهوب منذ الليل على ضوء القمر المزعزع. وفرغت غناديتتال من سكانها. ومع ذلك، لم يؤثر غياب الناس البتة على دقة إشارات باخ؛ بل العكس، شعر بمسؤولية أكبر في الحرص على أنْ يسير الوقت ومعه ترتيب الأشياء بالقدر والثبات نفسيهما.

كان باخ على وشك أن يُخرجَ قدميه من تحت غطائه الريشي ويتلمَّس على الأرضية جزمته المريحة المصنوعة من جلد نعجة قديم، عندما سقط فجأةً ظلٌّ على الوسادة. ألقى نظرة فرأى أحدهم يقف على الجانب الآخر من النافذة يعتمرُ قبعة مثلثة غريبة ووجهه على الزجاج. إنه ينظر. صرخ باخ من المفاجأة وقفز ورمى عنه الغطاء. لكن الشخص المجهول اختفى بالسرعة نفسها التي ظهر بها. لم يسعف الوقتُ باخ لرؤية وجهه لأن النور كان يسقط نحو الخارج. اندفع بسرعة إلى النافذة: رأى على الزجاج أثراً داخناً يذوب ما تبقى من أنفاس الغريب. تحرك بضجيج باتجاه الإطار محاولاً فتحه ولكن المزلاج الحديدي بدا وكأنه قد انغرس في لبّ الخشبة خلال فصل الشتاء ولم يُفتَح. ألقى معطفاً قصيراً من فرو الغنم على كتفيه وقفز إلى شرفة المدخل وركض حول المدرسة، لا أحد، لا في الحديقة الأمامية ولا في الفناء الخلفي. شعر كيف سرت في رجليه برودة وقرف؛ نظر نحو الأسفل فاكتشف أنه يركض في الطين بجزمته المنزلية. فعاد مسرعاً إلى بناية المدرسة وهو يهزّ برأسه خائرَ النفْس.

أثارت الزيارة الغريبة قلق باخ بشكل غير عادي. ولم يكن ذلك عبثاً: فقد استحالت بداية اليوم إلى سلسلة من العلامات المشبوهة والحوادث التي تثير الشكوك.

عندما كان باخ يقَشِّر بسكين كلِيلةٍ حراشفَ طلاء العام الماضي من إطارات نوافذ المدرسة لكي يمكن فيما بعد صبغها من جديد، نظر صدفة إلى السماء ورأى سحابة في السماء كانت لها ملامح واضحة لوجه إنسانٍ، لوجه أنثى على

التحديد. نفخَ الوجه خديه وزمَّ شفتيه كالأنبوب وأغمض عينيه الداكنتين وذاب في السماء. وبعد ذلك، بينما كان يمرّر الفرشاة على رفوف النوافذ الخشبية سمع ثغاء عنزة مرّت من جانبه كان الحيوان يزعق بشدة كما لو أنه أحسَّ بقرب حدوث شيء فظيع. التفت برأسه: لم تكن ثمة عنزة على الإطلاق، بل خنزير سمين أرقط، وحتى إنَّ إحدى أذنيه مقطوعة، بالإضافة إلى ذلك كان ذا تكشيرة مقززة ومثيرة للاشمئزاز على خطمه لم يرَ باخ مثلها في حياته.

كلّا، لم يكن باخ يؤمن بالخرافات، مثل معظم أهالي غنادينتال. إذ من المستحيل أنْ يصدِّق المرء جديّاً أنه بسبب عش السنونو الذي تعرَّض للإزعاج صدفة، ستبدأ البقرة تحلب دماً؛ أو أنَّ العقعق الذي ينظف ريشه على السطح يُنذر بإصابة شخص من المنزل بعاهة. ولكن ثمة أمر مختلف بين خرافة العقعق وهذا الخنزير. لذلك، بعد أنْ قرّر أنه لا توجد حاجة إلى مزيد من الحوادث المشؤومة لهذا اليوم، أغلق بإحكام دلو الطلاء وذهب إلى غرفته ولم يعد ينظر لما يحدث من حوله ولا يهتم بالأصوات ونوى أنْ يقضي اليوم كلّه في العزلة داخل غرفته ويشغل نفسه بإصلاح الملابس والتفكير في نوفاليس[1].

أغلق باب المدرسة بإحكام، ودفع المزلاج. ثم أغلق باب غرفته الصغيرة. وأسدل ستارة النافذة بعناية. وشعر بالرضا داخل نفسه والتفت إلى الطاولة فرأى عليها مستطيلاً أبيض طويلاً: رسالةً مختومةً.

نظر باخ مِن حوله بخوف، ألّا يكون ساعي البريد المجهول مختبئاً في الغرفة؟ وعندما لم يعثر على أحد، هوى على الكرسي وبدأ ينظر إلى الظرف الممدود أمامه الذي يحمل كتابة غير مستوية «السيد باخ ناظر المدرسة». وجد في عبارة «ناظر المرسة» ثمة خطأين إملائيين.

1- نوفاليس – واسمه الحقيقي فريدريش فرايهير فون هاردنبرغ. فيلسوف وشاعر وكاتب ألماني (1772–1801). درس نوفاليس الفلسفة والحقوق وعلوم المناجم. وأثّر فيه موت خطيبته صوفي كون وهي في الخامسة عشرة من عمرها تأثيراً كبيراً. وكان نوفاليس من الشعراء الذين تجمعوا في يينا في بداية عصر الرومانسية حول فيشته وأوغوست فلهلم شليغل وفريدريش شليغل، وكان على صلة بكل من تيك وشيللر. (المترجم).

باخ لم يكتب أو يستلم رسائل في حياته مطلقاً. الفكرة الأولى التي تبادرت إلى ذهنه أنْ يحرق الرسالة: إذ لا يمكن أنْ يوجد أيُّ شيء جيد في الرسالة التي تصل بهذه الطريقة المثيرة للشك. تناول الظرف بعناية بيديه: إنه خفيف (على ما يبدو يحتوي بداخله على ورقة واحدة فقط). تمعَّن في الخط: إنه سيئ ويعود إلى شخص من الواضح أنه غير معتاد على الاستخدام المتكرّر للقلم. رفع الرسالة إلى وجهه وشمَّها: فوجدها تفوح برائحة تفاح خفيفة بالكاد يمكن شمها. وضعها مرة أخرى على الطاولة، وألقى عليها كتاباً. أدار كرسيه إلى النافذة، وجلس واضعاً رجلاً على رجل، ولفَّ ذراعيه حوله وضيَّقَ عينيه. وبعد أن بقي جالساً بهذا الشكل لمدة ربع ساعة تقريباً، تنهد متحسِّراً وفتح الظرف وهو يغضن جبينه من نذير الشؤم.

عزيزي باخ ناظر المدرسة،

أحييك من القلب وأدعوك لتناول العشاء لمناقشة قضية صغيرة. إذا ما وافقت، تعال اليوم في الساعة الخامسة بعد الظهر إلى مرفأ غنادينتال، سيكون هناك شخص بانتظارك.

مع خالص التمنيات الودية،

المخلص، أودو غريم.

نعم، ثمة شيء آخر: لا تخف من الشخص الذي أرسله لك. مظهره سيئ، لكنه طيب القلب.

عند التوقيع، ضغط كاتب الرسالة بشدة على طرف القلم في الورقة فاخترقها.

شعر باخ أنه تعرَّق. فخلع ملابسه، وبقيَ بالملابس الداخلية وحدها. وسحب زجاجة الحبر من الرفّ، وجعل يشطب بلامبالاة ويصحح الأخطاء الموجودة في النص، وقد عثر على ثمانية منها؛ عملت يده بنشاط، وكانت ريشة القلم الحديدية تصرّ وتنثر الحبر. ثم دعك الرسالة المُصحَّحَة وألقاها في سلّة المهملات. واستلقى تحت غطائه المعبَّأ بريش البط وقرّر عدم مغادرة المنزل حتى موعد جرس المساء.

لو لم تكن المستوطَنَة فارغة لاستطاع باخ أن يستفسر عن غريم هذا عند المختار ديتريخ أو غيره من الرجال، أو لربما، يطلب من أحدهم أن يرافقه أثناء الزيارة. يبدو أنَّ كاتب الرسالة لا يسكن بعيداً، في إحدى المستوطنات المجاورة الواقعة إلى الأعلى أو إلى الأسفل على طول مجرى النهر، طالما أنه دعاه إلى ركوب القارب لزيارته. إنَّ الذهاب بمفرده هو ارتكاب فعل طائش، بل وحتى فعل غبي. وهذه حقيقة لا غبار عليها.

ولكن إما لأنَّ أوائل جزيئات كهرباء ما قبل الرعد انتشرت في الهواء، أو كانت ثمة أسباب أخرى شعر باخ فجأة بداخله علامات تلك الإثارة التي لا تقاوم التي جعلته يتسكع تحت وابل المطر المنهمر بشدة بحثاً عن مركز العاصفة الرعدية. بدا وكأنه يشعر بأنَّ التيار الذي يمرّ عبر جسده والذي لا يمكن كبح جماحه يجرّه إلى مكان ما رغم إرادته. هذا الأمر أفزعه وهيَّجَه في الوقت نفسه لم تكن لديه ثمة قوة ولا رغبة لمقاومة هذا التيار القوي: وكأنَّ كلّ شيء قد قُرِّرَ تحديده من دون تدخله ومن أجله، ولم يبقَ إلّا أنْ يُنفِّذ ما حُدِّدَ له.

* * *

وبحلول الموعد المحدّد، وقف باخ في المرفأ ممشَّط الشعر ويحمل منديلاً جديداً في جيب صدرية الجوخ التي يرتديها. كان قلب ناظر المدرسة ينبض بشدة لدرجة أنَّ جانبَي سترته الملوّثين يرتجفان بشكل ملحوظ؛ كان يمسك في يده العصا التي يأخذها معه خلال *الجولات* قد تكون مناسبة تماماً حتى للدفاع.

يتألف مرفأ غنادنتال من رصيف خشبي صغير يمتدّ بطول عشرين أرشين[1] تقريباً في نهر الفولغا. التصقت على طول الرصيف الطوافات والزوارق الصغيرة والعبّارات، وفي النهاية يقع المرسى: إنه عبارة عن

1- أرشين – مقياس طول روسي قديم يساوي 71 سنتمتراً. (المترجم).

منصة مستطيلة الشكل ذات أطراف من جذوع الأشجار بارزة إلى الأعلى مطلية باللون الأبيض لتثبيت حبال الربط. وفقاً لذاكرة باخ لم تتوقف سفن كبيرة في غنادينتال أبداً. ربما، رُبِطَت الحملان بجذوع المرسى فحسب قبل تحميلها في القوارب ونقلها إلى السوق الدورية في بوكروفسك.

تمشّى باخ جيئة وذهاباً على الرصيف الصرّار، على أمل أن تهدّئ الحركةُ الرجفةَ الخفيفة في ركبتيه. جلس على ركيزة لربط المراكب وتطلَّع إلى سطح الفولغا الهادئ المقفر. ثم أخرجَ ساعته: إنها الساعة الخامسة تماماً. تنهّد بارتياح وكان على وشك العودة إلى المنزل عندما انزلق زورق صغير من مكان ما من تحت قدميه أو بالأحرى من تحت ألواح الرصيف المشقَّقة محدثاً طبطبة طفيفة. نهض منه رجل، كأنه شخصية من الورق المقوى في أبجدية قابلة للطيّ، وأمسك بمهارة حافة المرسى بيده، وجعل يحدق إلى باخ بترقّب وهو يربط القارب.

إنه ضيف الصباح بعينه: قرغيزي طويل القامة، يرتدي على جسده العاري كنزة من الفرو ذات صفين من الأزرار بدون أكمام ويعتمر قبعة من اللباد مثلَّثة بدت من تحتها بتيقّظ عيناه الضيقتان والمرتفعتان إلى صدغيه. التصق جلده الأصفر المسامي بإحكام على العظام الموجودة في وجهه إلى درجة كان يمكن معها تتبع أصغر الانحناءات في عظام الوجنتين أو الذقن المغطى بشعر أسود خشن قليل الكثافة. الجزء الوحيد من وجهه الممتلئ باللحم كان أنفه الكبير المُفَلْطَح بشدة ذا القصبة المائلة جانباً: من الواضح أنه تعرَّض للضرب ذات مرة في عِراك. ولسبب ما، تذكر باخ كيف كانت والدته تخيفه وهو طفل قائلةً: «ها هو القرغيزي سيأتي ويأخذك!»[1].

قال القرغيزي أو تمتم: «إحم! استعجلتَ الجلوس».

1- في السنوات الأولى من وجودها، تعرضت المستوطنات الألمانية للهجوم المستمر من جانب القبائل القرغيزية – الكايزاكية البدوية. كانت تُطلق في ذلك الزمان تسمية القرغيزيين والقرغيزيين – الكايزاكيين على أسلاف الكازاخيين الحاليين. وبفضل حماية السلطات الروسية، توقفت الغارات. (الملاحظة من الكاتبة).

أراد باخ أن يردّ عليه ويقول: «ألا تعتقد أنني جُننت؟! وهل تعتقد أني سأذهب معك؟».

لكن جسده، الذي لا يصغي اليوم إلى صوت العقل كثيراً، استند بالقدم على حافة الرصيف واندفع بارتباك وقفز إلى القارب المتأرجح. سقطت العصا في هذه الأثناء وخبطت في الماء واختفت في مكان ما تحت الرصيف.

أطلق القرغيزي يده فاستدار الزورق وسحبه التيار معه بسرعة. جلس على مقعد المُجَذف مقابل باخ وتولى المجاذيف وجذَّف مبتعداً عن الشاطئ. وبدأت ذراعاه ذواتا العروق النافرة تارة ترتفعان وتنتفخ عضلاتهما، وتارة تهويان إلى الأسفل مرة أخرى، ووجهه المنغولي المسطح يقترب ثم يبتعد. وعيناه الثاقبتان تحدقان إلى باخ من دون انقطاع.

أما باخ فقد جلس متململاً محاولاً تفادي النظرة المزعجة، لكن لم يكن ثمة مكان للذهاب إليه على مركب صغير. فقرّر أن يطمئن نفسه من خلال مراقبة المناظر الطبيعية على الشاطئ وعندها فقط اكتشف أنَّ القارب يتحرك ليس على طول الساحل، ولكن عبر نهر الفولغا.

سمعَ باخ عن المستوطنات التي تقع على الضفة اليمنى: بالتسير، كوتر، ميسر، شيلينغ، شفاب جميعها كانت تتوزع إلى الأعلى وإلى الأسفل من مجرى النهر في الأماكن التي لم تكن فيها التضاريس الطبيعية الجبلية تشكل عقبة للوصول إلى النهر. ولكن لم يسبق لباخ أنْ زار الجانب الجبلي. فبالقرب من غنادينتال، كانت الضفة اليمنى شديدة الانحدار ولا يمكن الوصول إليها إلى درجة أنَّ في فصل الشتاء لم يمشِ أحد قَط إلى هناك على الجليد الصلب. وذات مرة حدَّثَت الأرملة كوتش (عرفت ذلك على وجه اليقين عن الجدة المرحومة فيشر، وهي عرفته عن زوجة غاوف قصّاب الخنازير، عن أخت زوجة القس هاندل) أنَّ تلك الأراضي إما كانت أو لا تزال ملكاً لأحد الأديرة الكهنوتية ووصول الناس العاديين إلى هناك حسب الطلب.

تمتمَ باخ بصوتٍ ضعيف وهو يفتح الأزرار الموجودة على سترته:

- ألا تتفضل وتقول، إلى أين أنت؟... إلى أين نحن ذاهبون؟...

جعل القرغيزي يجذف بصمت ويحدق إلى وجه ناظر المدرسة. كانت شفرتا المجذافين تقطعان الموجة الثقيلة البنية الضاربة إلى اللون الأخضر قرب الشاطئ والتي تتحول في العمق تدريجيّاً إلى اللون الأزرق. جرى القارب بدفعات قوية من دون أنْ يبطئ للحظة ولم ينحرف ذراعاً واحدة عن المسار المقصود. وكتلة الشاطئ المقابل الضخمة (الجدار الحجري الضارب إلى البياض، الذي تغطيه بكثافة من الأعلى غابة خضراء داكنة ويبدو من بعيد مثل ثعبان عملاق ذي متن مسنَّن يرقد في الماء) تتحرك أيضاً بدفعات بلا هوادة. وفي لحظة ما بدا لباخ أنَّ القارب لا يسير بمجهود يدي القرغيزي، بل يسير بقوة الجاذبية المنبثقة من كتلة الأحجار العملاقة. السفح من الأعلى إلى الأسفل (من المتن إلى القاع) قطَّعته شقوق متعرجة عميقة. وانهمر الغبار الرملي على طول قاعها هارباً إلى المياه، وقد أعطت هذه الحركة للسطح الصخري شكلاً حيّاً تماماً: الجبال تتنفَّس. وتعزز هذا الانطباع من خلال لمعان أشعة الشمس التي كانت تختفي من وقت إلى آخر خلف الغيوم، والشقوق تارة تطفح بظلال بنفسجية وتتعمّق وتارة تَتَلأْلأ وتصبح بالكاد ملحوظة.

سرعان ما اصطدم القاع الخشبي بالحجارة فاهتزَّ القارب بحدّة، وانغرزت مقدمته بالحصى المكسوّ بالنخامة الخضراء. لم يكن ثمة أيّ شاطئ تقريباً: فقد ارتفع الجدار الحجري نحو مكان ما تحت السماء وانتهى بجرف منحدر. خرج القرغيزي من القارب وأومأ برأسه ودعاه لأن يتبعه. اختلج قلب باخ الذي أضناه القلق لكن بتعبٍ وعلى مضض، وكأنه يسلِّم باستحالة ما كان يحدث؛ نظر حوله في ذهولٍ وخرج بصعوبة إلى اليابسة، متزحلقاً بحذائه فوق خليط من طحالب الطَّمي. سحب القرغيزي القارب من الماء (تعجب باخ من قوة جسده الهزيل) وأخفاه وراء صخرة ملساء بنية كبيرة.

ليس بعيداً عن الشاطئ، على طول قاع أحد الشقوق التي قطعت الجبل من الأعلى إلى الأسفل، كان ثمة مسار ضيق بالكاد يمكن أنْ يُلاحَظ. تسلّق القرغيزي عليه بسهولة وبسرعة، كما لو كان يركض ليس إلى الأعلى، بل إلى أسفل المنحدر الذي لم يكن حادّاً كما كان يبدو من بعيد. سار باخ على أثره مجرجراً بقدميه، وهو يوبّخ نفسه على مشاركته في مغامرة مريبة، ومتشبثاً بيديه بالشجيرات القليلة. تسلّق بصعوبة ولمدة طويلة، ومن حين إلى آخر يسقط على ركبتيه ويبتلع الرمال المتطايرة من قدمي القرغيزي النشيطتين. وأخيراً، صعد إلى حافة الجرف المنحدِر وهو يتصبب عرقاً (وقد خلع السترة والصدرية في الطريق وحملها بيديه) بوجهٍ مُسْتَعِرٍ وركبتين مرتجفتين.

على حدود الغابة، فقدَ الجبل انحداره واستحال، ربما، إلى سهل أو تلال منحدرة تدريجيّاً. ولكن لا يمكن للمرء إلّا أنْ يخمن ذلك، فقد كانت الغابة كثيفة للغاية. كان على باخ أن يستعجل حتى يتمكن من رؤية ظهر القرغيزي: سيكون من الصعب عليه العثور على الطريق بمفرده في أجمةِ القيقب والبلوط والحور الرجراج المظلمة التي نمت فيها بكثرة في الأسفل أعشاب المُضاض والورد الجوري البري. ومع ذلك، بعد بضع دقائق، صارت الأشجار تفترق وبدت أرض بور واسعة انبسط عليها منزل ريفي كبير منعزل.

لاحَ منزل المُضيف في المرج كالسفينة: ضخماً طويلاً، مبنيّاً على أساس من الصخور الثقيلة ذات جدران من جذوع الأخشاب السميكة التي لم يرَ باخ مثلها في حياته. على مرّ السنين اسوَدَّ الهيكل الخشبي وتعرّضَ لتأثير الرياح وبدت فيه كالشامات شقوقٌ سوداء ملطَّخةٌ بالراتنج. كانت المصاريع المقَشَّطة مفتوحة في بعض النوافذ فقط، والباقية أُغلقَتْ بإحكام. أما السقف العالي فبدا أشعث بالقش الذي نتأت من خلاله مدخنتان حجريتان ضخمتان.

كانت المباني الإضافية (الملحقة) الأخرى متوارية في الخلف: عنابر

خزن الحبوب وسقائف وحظيرة واسعة وكوخُ مَثلَجَةٍ[1] صغير منخفض وخرزة بئر. وفي الفناء الخلفي نفسه، ارتفعت أكوام من الصناديق وعربات خفيفة وعربات يد وبراميل، وتراكمَ الحطب والأخشاب المنشورة؛ يبدو أنَّ بستاناً قد بدأ - فقد لاحت الأشجار الموجودة خلف المنزل أقصر وعددها أقل وتراءت بجذوعها المبيضَّة المنسَّقة. لم يكن للمنزل سياج كانت حوافّ المرج بمثابة حدود له. ولم يكن ثمة ناس أيضاً. حتى القرغيزي الصموت توارى إلى مكان ما، عندما أشاح باخ بوجهه للحظة.

بدا كلّ شيء كما لو أنَّ الحياة كانت لا تزال موجودة منذ دقيقة: برزت من جرنٍ فأسٌ بمقبض طويل وانتثر إلى جانبها حطب مُكَسَّر؛ وكان ثمة دلو بالقرب من الشرفة فيه بخار يتصاعد، وفي المكان نفسه كان ثمة خفّ ممزق لأحدهم؛ من صفيحة قُمعٍ مقلوبة يتدفق الماء على الأرض؛ ودخَّنت بقايا فحم في موقد المطبخ الصيفي. ولكن لا صوت ولا حركة، سوى على حافة المرج رفرفت في الريح بياضات منشورة كانت تنتفخ على الحبل مطلقةً صفقات قصيرة من حين إلى آخر.

اقترب باخ من باب المنزل المفتوح قليلاً، وفتح بصعوبة شفتيه اللتين جفّتا من القلق وقال:

- طاب نهارك، أودّ التحدث إلى السيد أودو غريم.

بعد الانتظار قليلاً، صعد إلى الشرفة. جرَّ قدميه طويلاً وبصوت عالٍ متعمَّد على حافة لوحة العتبة، لكي يزيل الطين من نعل الحذاء. ثم سحب يد الباب على نفسه ودخل في الظلام الصامت.

فاحت من المكان رائحة الطعام الساخن والدسم: فقد دخل باخ إلى المطبخ. يرتفع عند الحائط فرن مبيَّض تكتظّ فوقه الغلايات والقدور النحاسية والأواني الفخارية والمناخل والبراميل الصغيرة والمكاوي

1- المجلَدَة: بناء من الخشب يوضع في داخله الثلج لخزن المواد الغذائية التي تتلف من دون التجميد، كاللحوم والأسماك، يشبه عمل المجمدة. (المترجم).

وأباريق القهوة والصواني ومحاقن النقانق وغيرها من اللوازم. وإلى جواره، عُلِّقَ على حائط من جذوع الأشجارِ رفٌّ للأطباق غير مصبوغ تراءت عليه بلونها الغامق صفوف من الأطباق الرديئة الصنع وحزَمٌ من الملاعق والمغارف ومنحنى من مقصات الحديد. في كلّ مكان على طاولة التقطيع وعلى المقاعد وحتى على عتبات النوافذ وضِعَ ثمة شيء: قدور ومقالٍ مختلفة الألوان وأكواز[1] للحليب والعسل وألواح التصقت عليها عجينة الزلابية وعلَتها سحابة خفيفة من غبار الدقيق وفرّامات لحم تتدلى منها أشرطة اللحم المفروم وفُرَش مسح الزبدة وقرّاضات الخضر ورؤوس الأسماك وقشور البيض. ولم يكن ثمة أحد هنا أيضاً. ولكن سمع قرقعة عالية صادرة من الغرفة المجاورة المعزولة عن المطبخ ليس بباب، بل بستارة من خرقة خفيفة.

ذهب باخ باتجاه الصوت: احتكَّ بخفة بجذوع المدخل الضخمة لم يردّ أحد عليه؛ دفع الستارة جانباً ووجد نفسه في غرفة ضيوف واسعة، كأنها عنبر لخزن الحبوب. احتلّت وسطها كلّه طاولة خشبية امتلأت بكمية كبيرة من أطباق الأطعمة الفاخرة التي تكفي، حقّاً، لإطعام عملاق أوسلنغ في الأسطورة السكسونية القديمة. كان يجلس إلى المائدة رجل ضخم الجسم ويتناول الطعام بنهم ويضعه في فمه بأصابعه من دون أنْ يقيّد نفسه باستخدام الأدوات النظيفة الموجودة بجانب الصحن. وكانت تصدر طقطقة عالية من فكَّيه القويين اللذين يطحنان الطعام.

لم يكن ثمة شيء بشع في المشهد بهذه الصورة المدهشة، بل على العكس، كان مظهر المضيف البهيّ الذي يتوقّد طاقةً يتماشى مع هذه المائدة الوفيرة ومع كلّ طبق موضوع عليها إلى درجة أنَّ التشكيلة بأكملها بدت من إبداع خيال فنان مُبْتكَرٍ: فرأسُ الرجل الحليق حتّى الصَّلَع كان يلمع تماماً مثل كعكة الكلاتش المكتنزة المدهونة بصفار البيض والمحمَّرة في الفرن، الموجودة في وسط المائدة؛ وبدا خدّاه الممتلئان ورديين مثل لحم الخنزير

1- الكُوزُ: إناءٌ بعُرْوة من فخّار أو غيره له أذن يشرب فيه أو يُصَبُّ منه. (المترجم).

المقدّد الموضوع على الطبق بشرائح سميكة ورطبة؛ وكانت عيناه الداكنتان الصغيرتان باللون نفسه تماماً مع توت النبيذ الموجود في القارورة مع الخمر؛ وأذناه الكبيرتان والبيضاوان البارزتان على الجانبين بشكل عِدائي تشبهان بشكل لافت الفطائر المحشوّة المتراكمة في الوعاء الخزفي العميق. كان الرجل يتناول بأصابعه السمينة التي تشبه النقانق مخلّل الملفوف من برميل صغير ويضعه في فمه، في حين إن شاربه ولحيته الأشعثين يشبهان هذا الملفوف إلى درجة أنَّ باخ في البداية ضيَّق عينيه من الهوس.

قال الرجل بدلاً من التحية، وهو يواصل المضغ ومن دون أنْ يكلِّف نفسه بدعوة باخ إلى المائدة:

- ابنتي حمقاء. تصرَّف وكأنّكَ لم ترَ هذا.

لاحظ باخ أنَّ المائدة أُعِدَّت لشخصين، لكنه لم يجرؤ على الجلوس. تنحنح وعدَّلَ سترته، وشعر كيف اختلجَتْ معدته الفارغة وانقبضت: فقد انشغل ناظر المدرسة بالتفكير بالرسالة الغامضة ولم يتناول الغداء اليوم على الإطلاق.

أراد باخ التأكد على كلّ حال، فقال:

- هل حضرتك، أودو غريم؟

- نعم، لستُ الله، أكد الرجل، وأخذ من المقلاة قطعاً من البطاطا المقلية بقشرة دهن الخنزير المقدّد؛ فأزّت المقلاة وفرقَعَت، لكن أصابع غريم لم تهتزّ.

- كم عمر ابنتك - سأل باخ ولاحظ على المائدة عدة أنواع من السجق (سجق المعلاق البارد الضارب إلى اللون الأرجواني؛ والسجق الذهبي اللون الساخن المقلي في قشرة دهن الخنزير؛ والسجق المُدخّن) ولسبب ما سال ريقه في فمه.

- ستبلغ السابعة عشرة في عيد الثالوث المقدس.

انتهى غريم من تناول أطباق اللحوم وتحول إلى الحساء الحلو مع

عسل البطيخ الذي تطفو فيه جزر من الإجاص المجففة والتفاح والكرز والزبيب. وفي هذه الحالة كذلك بقيت الملعقة على الطاولة: فقد ارتشف غريم الحساء من الحافة ممسكاً بالطبق بأصابعه المنتشرة كما يُمسَك صحن الشاي على الطريقة التترية.

– وهي، كما وصفتموها... (قال باخ وابتلع ريقه الوفير الذي منعه من الكلام)... إنها لا تتميز بعقل حادّ. إلى أيّ مدى واضح هذا المرض؟

– قلتُ لك: حمقاء! (وبصق غريم بتذوّقٍ نواةَ كرزٍ وقعت بين أسنانه فاختلج باخ من وقعِ المفاجأة، لكنَّ النواة صفرت من جانبه وقفزت على الأرضية الطينيةَ في مكان ما في الزاوية البعيدة.) لديها دخان في رأسها! حكايات المربية ودلع النساء. مَن يتزوج بمثلها؟ المغفلون في هذه المنطقة يتزوجونها لو أعطيتهم الشراب، لكن في الرايخ لا يأخذها أحد، لا يتزوجها أحد حتى لو دفعتُ صداقَها. كلّا، في الرايخ، لن أتمكن من التخلص منها وهي في هذه الحالة...

كان المستوطنون يطلقون على ألمانيا كلمة الرايخ على الطريقة الألمانية.

– هل تنوي الهجرة عن قريب؟ سأل باخ بحذر.

– هل أنت معلم؟ إذن، علِّمها! (وضعَ غريم صحناً فارغاً على الطاولة محدِثاً طرقاً، فاختلَجَ باخ مرة أخرى.) أما الأسئلة، يا سيد، فأنا مَن يوجهها! علِّم ابنتي أنْ تتكلم بشكل جميل وبسلاسة! لا أنْ تتحدث، بل أنْ تفهم على الأقل! فالزوجة الصامتة هي الأفضل. دعها على الأقل أنْ تعي بشكل صحيح ويكفي. وبهذا تكون قد خفّفتَ من حملي، وكسبتَ القليل من المال في جيبك!

أمسك غريم قطعة من البسكويت الرقيق الهشّ وغمسها في وعاء من العسل وحشاها في فمه ومسح بيده خيوط العسل اللزجة عن شفتيه.

«أرجوك أنْ تتصرف بشكل مناسب، أيها السيد الفظّ، وإلّا سيكون حديثنا قد انتهى!» أراد باخ أنْ يصرخ، بل وحتى أن يطرق بيده قليلاً على

الطاولة؛ ولكن بدلاً من ذلك اكتفى بأنْ أسبلَ عينيه وبدأ يحرك يديه على سرواله، وهو يصرع السخط الذي يغلي في داخله.

– هكذا إذن، إنك ترغب أنْ أعلِّم ابنتك اللغة الألمانية السامية، (وبعد دقيقة قال بصوت مرتجفٍ قليلاً). – هل من الممكن في هذه الحالة أنْ أتعرَّف على التلميذة؟

– بل تعالَ غداً مع متاعك: الكتب وأقلام الرصاص (أو ما توسخ به أنفك في الفصل من سقط المتاع؟). ستبدأ الدرس وستتعرف عليها. قال غريم وسكب لنفسه من قنينة ثقيلة من الزجاج الأبيض في كأسٍ من خمر التوت الداكن؛ ثم نظر إلى باخ عن كثب وعبَّ الكأس الثانية. – هل توافق؟

– أيها السيد غريم، إننا لم نتعرف بعضنا على بعض بما فيه الكفاية حتى أطلب منك أنْ ترفع التكلّف وتناديني بـ...

– هل أنت موافق؟ قاطعه غريم ونهض وناول باخ الكأس.

أخذ باخ الكأس (آه، رائحة الخمر تنبعث منه بقوة! استنشق واحتسِ!)، هزَّ كتفه وعقفَ حاجبيه من دون تحديد؛ أخيراً، لم يعد قادراً على الصمود أمام نظرة غريم، ورغبةً منه في إنهاء هذا اللقاء غير السارّ في أسرع وقت ممكن حرَّك ذقنه كما لو كان يريد تحرير رقبته من بوابة ضيقة للغاية. يمكن تفسير هذه الحركة إلى جانب الكآبة الأليمة على وجهه بتفسيرات مختلفة، لكن غريم الذي لم يكن ميالاً لكثرة التفكير أخذها بمعنى واحد هو الردّ الإيجابي الذي لا لبس فيه: رنَّت الكؤوس بصوت عالٍ توثيقاً للاتفاق. ورفع باخ، الذي أذهله هذا التطور السريع للأحداث، كأسه إلى شفتيه وسكب بشراهة السائل البارد في حلقه الجافّ.

وفي تلك اللحظة تغيّر شيء ما. كان إما أنَّ الخمر كان مُسكِراً جدّاً أو أنَّ باخ، الذي تضور جوعاً وغير المعتاد على تناول المشروبات المُبهِجة، ضعيف جدّاً، لكن المنزل الذي كان قبل هذا متجهماً وقاتماً استيقظ فجأة وامتلأ بالحياة: فقد لاحتْ خلف النافذة ظهور قوية لبعض الناس وصدح من الفناء طَرْق فأسٍ وثغاء أغنام، طُرِقَ الباب الأمامي

سار أحدهم عبر المطبخ يجرّ قدميه بتثاقل، وسأل مشاكساً بصوت امرأة عجوز مبحوح:

- هل أجلب السماور؟[1]

أجاب غريم: في وقت لاحق.

أخذ غريم غليوناً منحنياً طويلاً من الحائط وجلس في مواجهة النافذة وبدأ يملؤه بالتبغ. ففهم باخ أنَّ اللقاء قد انتهى وخرج من دون أنْ يشعر بالامتعاض على الإطلاق من سلوك المضيف غير العادي: فالناس والأصوات العائدة إلى العالم ملأت روحه بالبهجة وبدت له مخاوفه سخيفة ومثيرة للسخرية، وحتى الجوع الذي عذبه بقسوة في الساعة الأخيرة اختفى في مكان ما تاركاً محلّه إلى أعذب شعور ومتعة جسدية.

المرأة العجوز التي اشتغلت طويلاً في المطبخ، النحيفة كشجيرة نبق خريفية، لم تُلقِ على باخ حتى نظرة واحدة، وقد عزا هذا الأمر إلى لُطفها. وصاحبه القرغيزي، الذي كان ينتظره عند المدخل، تبيَّنَ له الآن أقل إثارة للرعب، وبدا المنزل مريحاً: كان العاملون يسعون بجدٍّ في فناء المنزل جيئة وذهاباً من دون أن يرفعوا عيونهم أو يفغروا أفواههم (كان الجميع متشابهين، وجوههم لها ملامح منغولية صارمة، وبالكاد يمكن تمييز بعضهم عن بعض)؛ وتشابكت تحت أقدامهم الدواجن، المرقش منها والصاخب، الإوز والبط وحتى زوج من الدراج بذيول طويلة مخططة؛ وكانت الخيول تقرع بحوافرها في الحظيرة سمينة من العلف الجيد ولها رقاب لامعة مصقولة. أما الأشجار الموجودة في الحديقة خلف المنزل فقد ترصَّعَتْ بأزهار وردية وبيضاء كبيرة بحجم قبضة اليد، وفاحت رائحة قوية إلى درجة يشعر المرء معها بطعم عسل التفاح المستقبلي على لسانه.

لم تعد الغابة، التي عاد باخ والقرغيزي من خلالها، تبدو الآن أجمةً برية،

1- السَّماوَر - وعاء إعْدَاد الشَّاي. وعاء معدني يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي، يُستعمل في روسيا وأوروبا الشرقية وبلدان الشرق الأوسط. (المترجم).

بل مرجاً مضيئاً كما في الربيع. كان السير عبرها وحده يمثل متعة، وعزّزت الأفكار المشجعة هذه المتعة عدة مرات: الدروس القادمة مع الآنسة غريم بدت عملاً ليس صعباً، بل وحتى مفيداً ويتجاوب مع مهمة التدريس المقدسة، كما أنه مُغْرٍ من الناحية المالية. وسرعان ما لاحظ باخ أنَّ ساقيه تحملانه على طول الدرب الضيِّق بصورة مدهشة فكلّ خطوة تغطي مسافة خمسة أو حتى عشرة أرشين بحيث وصل إلى متن المنحدر في غضون دقائق.

المنظر المنبسط من الأعلى كان مذهلاً للغاية، وقد تجمّد باخ، متناسياً نفسه: فقد امتدّ نهر الفولغا أمامه أزرق يخلب الألباب ولامعاً يغمره بريق شمس الظهيرة من الأفق إلى الأفق. ها هو لأول مرة يشاهد مثل هذه الامتدادات البعيدة. ترامى العالم في الأسفل كلّه، كاملاً: كلا الضفتين والسهب المغمورة بالضباب الأخضر للعشب الطري، والجداول الصغيرة المتدفقة على طول السهب، والمدى الأزرق الغامق على طول حوافّ الأفق، والنسر الرمادي الغامق الذي يحوم فوق النهر بحثاً عن فريسة. نشرَ باخ ذراعيه لمعانقة هذا الامتداد، ودفع نفسه بعيداً عن حافة المنحدر، لم يستطع أن يتذكر تلك اللحظة بالضبط إما أنه طار بعيداً مثل الطير أو جرى مثل الزوبعة على طول الدرب الضيق متبعاً خطى القرغيزي السريع المشي...

***

بعد أن استيقظ باخ في صباح اليوم التالي تذكّر التعارف القادم مع التلميذة وشعر بضعف مزعج: فقد آلمته أسنانه بلا رحمة وانتابها نوع من البرودة (الصليل) المؤلمة وكأنَّ تياراً من الهواء يهبُّ في فكّه؛ وهاجت مثل هذه البرودة البغيضة نفسها داخل معدته. فكَّر باخ أنه سيقول إنه مريض ويتملَّص من المغامرة المثيرة للشكوك، لكنه وجد بشكل غير متوقع نقوداً في جيب سترته وكانت النقود كثيرة على ما يبدو قدّمها غريم يوم أمس بمثابة عربون، على الرغم من أنَّ لحظة التسليم سقطت تماماً من ذاكرة ناظر المدرسة. فلم يكن الرفض ممكناً.

وفي الوقت المتفق عليه، كان باخ ينتظر على الرصيف، يضنيه القلق

بشأن الدرس القادم، متأبّطاً مجلد أعمال غوته وكتاب اللغة الألمانية المدرسي ورزمة من الورق للتمرين على الكتابة. وقرّر أنْ يرتدي تحت سترته قميصاً نظيفاً، بل وحتى مكويّاً، فبغضّ النظر عن غرابة أطوار والدها، ربما، تكون البنت أكثر تطلّباً لمعايير اللياقة المقبولة في المجتمع.

لم يحصل لباخ من قبل مطلقاً أنْ أعطى دروساً خصوصية لفتياتٍ بالغاتٍ. لقد كان يخشى من أنْ توجه له الآنسة غريم نظرة ساخرة أو كلمة هوجاء قد تسببان له الإحراج فيحمرّ خدّاه بشكل مفرط من الخجل أو تستولي عليه التأتأة، ولهذا قرّر أنْ يكون صارماً مع التلميذة. وقرّر أيضاً ألّا ينظر إلى عينيها أثناء الدرس (فعيون الفتيات في بعض الأحيان تثير الرعب!)، بل وحتى ألّا ينظر إليها مطلقاً، وأنْ يركّز تفكيره حصريّاً على المنظر خارج النافذة، أو ينظر إلى السقف في أسوأ الحالات. ومن الأفضل له أن ينظر ببرود ومن دون مبالاة، من أنْ ينظر على نحو مضحك. وحضَّرَ عدة عبارات كان الغرض منها خلق جوّ صارم للدرس برغم جميع وسائل الراحة المنزلية: لم يخترعها بنفسه، بل استعارها من قاموس القس هاندل. وهكذا جلس في قارب القرغيزي الذي وصل، وهو يتمتم بهذه العبارات مع نفسه بصوتٍ منخفض بطرق مختلفة، محاولاً اختيار النغمات الأكثر تأثيراً.

لم يلاحظ الطريق فقد كان مأخوذاً بالتحضير للقاء. وعندما تسلّق السفح كان يلهث أقل منه يوم أمس. أجل، وحتى الغابة بدت اليوم على وئام. والمنزل كذلك وجده ودوداً ومزدحماً بالناس. لم يكن صاحب المنزل موجوداً على ما يبدو. فقد قاد القرغيزي باخ إلى غرفة الضيوف، التي بدت مختلفة تماماً لدرجة أنه كان من الصعب أنْ يُقال إنها هي نفسها غرفة طعام الأمس.

اختفت مائدة الطعام الجبّارة في مكان ما (وقد أدهش باخ كيف تمكنوا من إخراج شيء فاق بوضوح حجم فتحات الباب والنافذة). وبدلاً من الطاولة عُلِّقَتْ ستارة من الكتان حجبت النصف الأكبر من المكان. وأمامها كرسي خشبي بظهر منقوش. جلست طباخة الأمس العجوز في

المكان نفسه على يمين النافذة متكئةً بشكل مريح على مقعد منخفض وتضع أمامها دولاب غزْل مصبوغ بلون الفراولة كانت عجَلته تدور وتطنٍّ وهي تطشّ بقع الضوء الحمراء على الجدران المبنية من الجذوع. كانت العجوز تشبث بالمسامير الطويلةِ حزمةً من ألياف الكتان من سلة كبيرة الحجم بجانبها، وتقرِّب من بكرة قرنية مبرومة أمام أنفها خيطاً رفيعاً بالكاد يُرى وتفركه، وكانت في الحال تبلّل سبابتها من ريقها. وفي بعض الأحيان يتساقط مسيل لعابها الفضي من فمها المفتوح على المِئزَر المخطط، ويبدو أنَّ الغزل لا يُبرَم من الصوف، بل من لعاب العجوز فقط. عملت الغزّالة من دون حذاء فقد كانت قدمها الحافية المتدلية من تحت التنورة الصوفية الزرقاء تضغط بحماس على دواسة عجلة المغزل (دولاب النول). بدا لباخ أنَّ أصابع المرأة العجوز أكثر من خمس كما هو المُفترَض، لكن قدمها العظمية كانت تتحرك بنشاط شديد إلى درجة لم يكن بمقدوره معها أنْ يتأكد من ذلك. ألقى التحية، لكن العجوز بالكاد سمعته بسبب صرير العجلة: وحتى إنها لم تستدر نحوه برأسها المغطى بقلنسوة صغيرة بيضاء اللون.

ومن دون أنْ يقرّر النظر خلف الستارة التي من الواضح أنها قد نُصِبَتْ بقصد معيَّن، وضعَ باخ كتبه على كرسي وجعل ينتظر، وهو ينظر إلى واجهة عَرضٍ واسعة معلقة على الحائط تحمل دزينة من غَلايين صاحب المنزل: الصفراء الكهرمانية من خشب شجر التفاح، والوردية الغامقة من خشب الكمثرى والبرقوق، الرمادية الداكنة من خشب الزان. طول كلّ واحد منها لا يقل عن ذراع.

– جئتَ لكي تُعَلِّم لذلك علِّم، لا تتقاعس – صدح أحدهم من الخلف بصوت عالٍ فجأة.

جفِلَ باخ واستدار بوجهه: كان يمكن أنْ يقْسِم أنَّ الصوت الغاضب يعود للمرأة العجوز، لكنها كانت تواصل العمل وهي مستغرقة في النظر إلى البكرة التي تدور أمامها.

ومع ذلك وجَّه خطابه لها:

– عفواً، أنا مستعدّ. ولكن المعلم وحده لا يكفي للتدريس. يتطلب الأمر التلميذة أيضاً. أين هي؟

– أنا هنا، صدحَ صوتٌ من خلف الستارة بالكاد يمكن تمييزه رفيعاً لدرجة أنه يمكن بسهولة أنْ يُقال عنه إنه صوت طفل.

– عفواً يا آنسة، هل تمزحين؟ اقترب باخ جدّاً من الستارة ونظر بعناية إلى الإطار الضخم الذي شُدَّتْ عليه قطعة قماش غير مبيضة مُثبَّتة حول المحيط بمسامير صغيرة. – آمل أنْ تفهمي: مثل هذا العبث غير مقبول في مسألة جدية كالتعليم. اخرجي على الفور ولنبدأ الدرس.

– لا أستطيع الخروج – هبط الصوت إلى الهمس بسبب الاضطراب.
– لا يُسمَح لي.

– في هذه الحالة، سأضطر إلى دعوة والدك إلى هنا وأخبره عن هذه الحيل. حسب معرفتي به القريبة العهد يمكنني أنْ أقول إنه رجل حاسم ولن يتسامح مع المماطلة... ماذا تعنين بعبارة – لا يُسمَح لكِ؟ مَنْ هذا الذي لا يَسمَح؟ قال باخ ذلك وسار على طول الستارة (ثلاث خطوات ذهاباً وثلاث خطوات جيئة) وهو يفكر، ألّا يدفعها ببساطة جانباً ويقطع عليها بذلك الاستمرار بلعبة الغميضة.

– أبي، قال الصوت بعناية، بل وحتى بتوجّس. – أبي لا يسمح.

– اسمعيني... قرَّبَ باخ وجهه من الستارة الكتان، وبدا له أنَّ على الجانب الآخر يُسمَع تنفّس خفيف متكرّر. – ما اسمكِ؟

– كلارا.

– اسمعي، يا آنسة كلارا. أنتِ فتاة بالغة ومن المفترض أنكِ تفهمين أنَّ التعليم عملية كثيرة التعقيد. ولا يمكن للمرء أنْ يمارسها من خلف الستارة، أو وهو يسبح في نهر الفولغا، أو واقفاً على رأسه أو بأيّ طريقة غريبة أخرى! إذ لا أستطيع تعليمكِ *اللغة الألمانية السامية* بوجود هذا

الحاجز بيننا! ووضعَ باخ راحة يده على الإطار ومسكه بشدة وحاول رفع الستارة عازماً على تحريكها إلى زاوية الغرفة لكنه لم يستطع، فقد تبين أنّ الهيكل كان ثقيلاً بشكل غير متوقع تماماً، ولم يتزحزح، بل اهتزّ قليلاً، وبقي باخ بالكاد ثابتاً على قدميه.

تأوَّه أحدهم خلف الستارة في حالة من الخوف، وهدأ أزيز عجلة الغزْل. استدار باخ المرتبك بسبب حماقته وركَّز بصره على العجوز: كانت عيناها، الذابلتان بسبب الشيخوخة اللتان تصعب رؤيتهما تحت الرموش الشيِّبَة واللتان تشبهان حبّتين من الكفتة تطفوان في حساء الحليب، تنظران بتركيز ومن دون اكتراث؛ واصلت أصابعها الملتوية الفتلَ بصمتٍ ولكن ليس فتل الخيط الذي سقط منها، بل فتل الهواء. شعر باخ بعدم الارتياح. رفع يديه من الستارة ومسح راحته بسترته، وتراجعَ خطوة. وفي هذه الأثناء التقطت المرأة العجوز الخيط الفالت بأصابعها ثم ركلت قدمها مرة أخرى على الدواسة لتدير عجلة الغزل.

أمسكَ باخ بظهر الكرسي ووقف بهذا الشكل لمدة دقيقة محوِّلاً بصره عن وجه العجوز الشاحب والمتغضِّن مثل جلد سحلية إلى الستارة المشؤومة وبالعكس. وتناهى له صوت خفيف من وراء مصاريع الباب إما حفيف أوراقٍ متقطِّع أو نشيج.

– حسناً، حسناً... صفق باخ يديه على شرائح ظهر الكرسي. – هل هناك تفسير لمثل هذه الطريقة الغريبة في الدراسة؟ ربما لديك مظهر غير اعتيادي؟ هل ثمة إعاقة جسدية أم نقص؟ الحقيقة، إني لا أستغل هذا النقص على الإطلاق. والمسألة لا تكمن في التسامح المسيحي الملازم لكلّ شخص متعلِّم فحسب. صدقيني، أنا أعرف المعاناة بشكل مباشر ولن أسمح لنفسي مطلقاً بإيذاء شخص آخر!

أدرك باخ فجأة أنه كان يتحدث بصراحة شديدة: لأنه حُرِم من فرصة رؤية كلارا، فتكلَّم كما لو كان يخاطب نفسه.

صمتٌ خلف الستارة.

– لربما، أنتِ بطريقة أو بأخرى خجولة كثيراً؟ لذلك، أعدكِ ألّا أنظر إليكِ على الإطلاق، فقد اعتدتُ خلال الدرس على النظر إلى الكتب والدفاتر وليس إلى التلاميذ. وإذا أردت سأبقى من بداية حديثنا إلى نهايته أنظر باتجاه النافذة. نعم باتجاه النافذة فقط! وشيئاً فشيئاً بدأ باخ يغضب؛ وبسبب غياب محاور مرئي طفح سخطه إلى الخارج.

– صدِّقيني، أنا لا أهتم بشكلكِ ولا بلون عينيكِ ووجنتيكِ ولا بملابسكِ أو بحذائكِ! إنَّ ما يهمني في شخصكِ حصراً هي قابليتكِ على استعمال الماضي التام وتصريف الأزمان القواعدية بشكل صحيح!

استمرّ الصمت خلف الستارة.

أزيز عجلة الغزل صار في ظلّ الصمت عالياً للغاية إلى درجة أنَّ باخ أراد أن يقذفها بالكرسي.

– آنسة غريم، قال باخ بأشد لهجة. – أنا معلمكِ وأطالبكِ بتقديم تفسير للسبب الذي يستوجب أن تكون دروسنا في مثل هذه الظروف الغريبة.

جلجلتْ من الطرف الآخر تنهدات.

– أبي يخشى عليَّ... أخيراً تحدثت كلارا، لكنها صمتت من جديد، ثم انتقت الكلمات بصعوبة... أنْ أنظر إلى رجل غريب فأصبح وعاءً للخطيئة.

– عندما تنظرين إليَّ؟ لم يجد باخ من هول المفاجأة ما يجيب به. – إليَّ؟!

نظر إلى أصابعه المُلطَّخة بالحبر منذ صباح يوم أمس عندما خربش بالقلم على رسالة أودو غريم، وفجأة انتابه هذا الشعور الذي لا يمكن السيطرة عليه، فارتفعت وتيرة تنفسه في البداية كثيراً ثم ضحك مستهزئاً بصمتٍ وشفتاه مغلَقَتان، وكأنه يكتم الضحك داخله من الخجل، ولكن مع كلّ ثانية يستسلم له أكثر فأكثر، وأخيراً ضحك بصوتٍ عالٍ ملء شدقيه.

– عندما تنظرين إليَّ! قهقه وسقط على الكرسي مباشرة على كتاب

اللغة الألمانيةِ وهو يمسح الدموع عن عينيه بيده. - أنْ تنظري إليّ... في وعاء الخطيئة!

وبعد أن ضحكَ باخ طويلاً، إلى أنْ أحسَّ بألم بسيط في أسفل بطنه، أخذ نفساً عميقاً وأدرك أنه لم يستمتع هكذا بصدق ولمدة طويلة من قَبل، ربما، طوال حياته كلّها. ثم نهض وأخذ كتبه، وأخرج من جيبه النقود التي تلقاها يوم أمس ووضعها على الكرسي وخرج (وهو مندهش من القرار الذي اتخذه) للبحث عن أودو غريم لكي يخبره أنه لا يوافق على خوض هذه التجربة التربوية.

طافَ في الفناء واستوقف العاملين الذين قابلهم وسألهم عن صاحب الدار. غير أنَّ القرغيزيين إما أنهم لم يفهموا اللغة الألمانية أو كانوا مذعورين أو حتى بكماً تماماً: فقد ألقوا على باخ نظرة مُتَجَهِّمة من تحت جفونهم المنفوخة وواصلوا شغلهم من دون أن يقولوا كلمة واحدة. وأثناء ذلك بقيت وجوههم غير المبالية بلا حراك: شفاههم الرفيعة التي يبَّسَتها الرياح لم تنفرج، ولم ترتعش التجاعيد على جباههم السمراء.

- يا سيد غريم! صاح باخ، الذي أغضبه البحث الطويل وأخرجه عن طوره، بصوت عالٍ لدرجة أنه هو نفسه فزِعَ من قوة صوته. - يا سيد أودو غريم، سأُغادِر! ابحث لابنتك عن معلم آخر!

لم تجبه سوى الخراف من الحظيرة بثغائها غير المتناسِق. ولمّا لم يجد باخ بين العاملين مَنْ يدلَّه قرّر الذهاب إلى الشاطئ والانتظار هناك: لم يرِد البقاء أكثر في المنزل الغريب. فتأبَّط مجلَّد أشعار غوته وضغط عليه بشكل أوثق، وركل بغضب قرمة من الخشب كانت ملقاة تحت قدميه (وتبيَّنَ أنها كانت ثقيلة للغاية فبقيت رجله تألمه لمدة طويلة) وتوجه في الدرب الضيِّق إلى الغابة.

كان الطريق مألوفاً له. انتصبت فيه شجيرات المُضاض (قبعة الراهب) كالقنافذ. واحتضنت أشجار البلوط الغليظة أنفسها، فقد التفَّت أغصانها على الجذوع. لاحت له في بعض الأماكن في الجذوع تجاويف سوداء

كأنها أفواه مفتوحة تنطلق منها ظلال سريعة الحركة من حين إلى آخر: لا هي سناجب ولا دلق[1] ولا حيوان آخر... كان باخ يعرف كلّ منعطف في مسار الدرب، ولكن مع ذلك سار لسبب ما مدة طويلة ربما، نصف ساعة أو ساعة، وهذا ما أثار دهشته.

ارتاب من وجود شيء ما خطأ. في البداية طمأنَ نفسه بفكرة أنَّ الطريق مع الدليل يبدو دائماً أقصر وأسهل. ثم أقرَّ بأنه انحرف قليلاً: فليسَ من المستغرب أنْ يُخدَع المرء في مكان غير مألوف له. ومهما يكن الأمر، فمن المؤكد أنه خلال الدقائق القليلة التالية سيخرج بالتأكيد ويصل إلى الماء الذي تفصله عنه مسافة قصيرة شريط رفيع من الدغل الساحلي.

سرّع خطاهُ. ثم دسَّ الكُتب في عبِّه وركضَ متزحلقاً فوق الأرض الدهنية. كانت الصور المألوفة لا تزال تتسارع من جانبه كما في السابق. فقد عرف شجيرات نبتة شيح الشفاء المنفوشة على طول حوافّ المسار. وعرف كذلك أشجار الزيزفون الكبيرة المُنشطِرة من أعلى الرأس إلى الجذر. وعرف الجذمور المتعفّن الغارق في كتلة شعثاء من عش النمل، ولعنه! وعرفَ شجرة البتولا المتيبسة حتى آخر عقدة في الجذمور! لكن مع هذا لا وجود للشاطئ بعد! ولا ثمة شمس في السماء أيضاً: لقد شدّ حجاب السحب الأفق، وصار من المستحيل تحديد موقع الجرم السماوي، وبالتالي، لا يمكن تحديد الوقت.

أثناء الجري أخرج الساعة من جيب الصدرية فوجدها متوقِّفة. لأول مرة تتوقف من اليوم الذي اشتراها فيه. توقف للحظة، وهزّ رأسها النحاسي ورفعها إلى أذنه فشعر أنها لا تتحرك. ولا يُسمع سوى أنين الأغصان حوله مضطرِباً وطويلاً. ألقى نظرة من حوله: إنَّ الغابة غريبة. وقد بدت له هذه الغابة الكثيفة الغريبة بلون أغبر من جرّاء تكوّم سيقان الأشجار التي تصدعت وانتشرت كأنها ثملة في جميع الاتجاهات. قاعها يعجّ بإبر العليق

1- الدَّلَقُ: دُوَيْبَّة بحجم الهرَّة، طويلة الظهر، يُعْمَل منها الفَرْو. (المترجم، من معجم المعاني الجامع).

الكثيف، وعلى الفروع بقايا حشائش الجنجل من العام الماضي. يشبه أحد جذوعها القبيحة المرأة العجوز الجالسة خلف عجَلة الغزل. رفع باخ بصره بجهد عن الجذع العجوز وانطلق راكضاً لكن هذه المرة لم يعد ينظر إلى الجانبين، بل كان يغطي وجهه بيديه عن الأغصان المتجهة نحوه ويشعر بمدى الغثيان الشديد الذي كان يخرج من أعماق بطنه ويقترب من حلقه.

ركض ما دام ثمة ما يكفي من الهواء في صدره. توهَّج حلقه، وصار كلّ نفَسٍ يقطعه إلى نصفين. وجعل يسرع في تحريك ساقيه الضعيفتين بصعوبة وهما تعجنان الطين الرطب. وفجأة علِقَت إحداها من أطراف الأصابع بعقدة ظاهرة من جذر شجرة فطار جسد باخ، المُلْتَهِب والمختنق تقريباً، إلى الأمام. وارتطمَ جبينه بشيء بارد وزلق؛ ودقَّ حجر صلب وكبير صدره والوركين؛ وكأنَّ مرفقيه وركبتيه قد انسلخت عن جسمه في وقت واحد.

– آآآه! صرخ ناظر المدرسة سعياً منه إلى وقف الألم المبرح الذي قطَّعَ جسمه إلى أجزاء.

فتح عينيه وهو مستلقٍ ووجهه منغمر في حجر مسطح في وادٍ. لقد هوى في القاع وسط كومة كبيرة من جذوع الأشجار والجذامير. كان سطح الحجر لزجاً من الطحلب الأخضر ومن الدم الذي نزف من أنف باخ. أمسك بسيقان طويلة من خمائل العلّيق وسحب نفسه، والأشواك نابتة في كفّيه؛ زحف برجليه مستنداً على بعض الأغصان، وفي هذه الحال اشتدَّ عليه الألم في ساقيه بشكل لا يطاق وكأنهما مكسَّرتان. ما أشده مِن ألمٍ، ألم مبرح للغاية.

عندما شعر باخ بضربات قلبه القوية والمتكرّرة تحت أضلاعه، لعن هذه الغابة كلّها ولعن هذه الحفرة وهذه الجذوع التي كان اجتيازها عذاباً له، وضغط بجبهته على طبقة طحلب الحجر البارد. وفجأة شعر أنَّ الطحلب صار أكثر ليونة. كلّا، إنه ليس طحلباً، فالسطح الحجري يتغضّن ببطء تحت ثقل رأسه مثل الوسادة ليصبح أكثر ليونة كلّ ثانية؛ والآن صار ملمس الحجر مثل فراش من الريش الناعم المغطى ليس بالطحالب، بل

بالمخمل الناعم. أراد باخ أنْ ينهض، وشدّ يديه، لكن لم يكن ثمة شيء يسند عليه كفّيه فمرَّتا عبر الأرض المغمورة بالأوراق المُتَعَفِّنة، ومن خلال الجذامير المنخورة وكأنهما مرّتا من خلال رمال متحركة. أراد أن يتَنكَّب عن جذوع الأشجار التي ألحقت به مؤخراً الألمَ بصلابتها وبحدّة أغصانها، فتعثرت قدماه بشيء كثيف ودَبق وكأنه يطفو على بحر من الهلام.

استدار برأسه، غير مصدق ما يراه: العالم من حوله كان يذوب مثل الدهن في المقلاة. لقد فقدت الأشياء شكلها وذابت وهي تسيل على منحدرات الوادي: كتل الخشب الضخمة والصخور والجذوع المُفَتَّتة وحُزَم الجذور وعفن أوراق الأشجار المتساقطة. تداخلت الألوان وانصهرت بعضها في بعض: سواد الأرض وحمرة الأوراق، غبرة الأخشاب وخضار الطحلب كلّ شيء كان يتدفق ببطء إلى الأسفل. تحرَّك باخ مضطرباً بيأسٍ محاولاً أن يلمس على الأقل شيئاً في هذا الهيجان المحيط به لا شيء صلباً، عجينة ناعمة ومتماسكة من جذوع الأشجار والأحجار والجذامير. لقد غرق في الأشجار الساقطة، غرق بشكل حتمي ومريع كما تغرق الذبابة في العسل وكما تغرق الفراشة في الشمع الذائب.

– هيّا! اتركني، أرجوك! صرخ وهو يمدّ رقبته إلى الأعلى ولديه إحساس بأنَّ أيّ حركة ستغمسه إلى الأسفل أكثر؛ وفي النهاية نسي كلّ الكلمات وبدأ يئنُّ مثل حيوان.

تمايلت في عينيه السماء المنخفضة والمُختَرَقَة بفروع الأشجار. وقد ذابت هي كذلك وطفتْ على الجذوع، وغمرت العالم من فوق: تيارات الضوء تتدفق في العلاء فوق أشجار البلوط والقيقب وتصبغها باللون الأبيض. ركّز باخ بصره على هذا البعد الأبيض الذي بالكاد يُرى والمُغطّى بسياج من الخوازيق الخشبية البنية اللون وتمسَّكَ مثل الخطاف، لأنه لم يكن ثمة شيء آخر يمكن له التمسك به. واندفع إليه بكلّ قوته وأخذ يقرع بكوعيه وركبتيه راغباً بشدة في شيء واحد فقط أنْ يشعر مرة أخرى بصلابة اللمس وألم الضرب.

فجأة وقع شيء له حراشف تحت راحة يده اليمنى (إما كوز أو قطعة من لحاء شجرة) سقط ثم اختفى مرة أخرى في مكان ما في أعماق الهلام. وبعد لحظة، خدش شيء ما رقبته: ربما، جذر؟ أو غصن من شُجيرة علّيق؟ ووخزه شيء في معدته... خفقَ باخ بيأس مثل سمكة وقعت في شبكة (وبالتدريج ظهر الشيء المفقود في العالم على الهلام المحيط) وببطء مثلما يظهر عشب العام الماضي من خلال رُكَام الجليد الذائب في شهر أبريل (نيسان). عُقَد الخشَب والجذوع المقطوعة وبعدهما التربة والحجارة اكتسبت صلابتها السابقة وحِدَّتها. أمسك باخ بشيء واستند إلى شيء واشتغل بيديه ورجليه وجعل يزحف ويزحف مستمتعاً بالألم من كلّ ضربة ومن كلّ عقدةٍ طعَنَته على فخذه أو شوكة وخَزَته في جبينه. كان لا يزال يمدّ عنقه نحو الأعلى وينظر إلى ذلك الشيء الأبيض، المنقِذ. ضربَ شعاعُ الشمس الذي اخترق الغيوم وجهَه وكوى عينيه اللتين اعتادتا على غَلَسِ الوادي، لكن باخ حتى لم يضيِّق عينيه، فقد كان يخشى أن يفوته مشهد الشيء الأبيض. وواصل الزحف، وسرعان ما وجد نفسه بجوار ساق شجرة تفاح كساه الكلس بياضاً.

ارتمى بخدّه على اللحاء الخشن بتغضناته الكلسية وفرك نفسه به حتى فرقع الجير على أسنانه. جلس بجانب الشجرة وانحنى بظهره عليها وبلع ريقه وأخذ نفساً. ورأى حوله في المكان أشجار تفاح أخرى: سيقانها مصبوغة، مثل الشموع على خلفية أرض سوداء. وامتد أمامه بستان كبير وبَهِيج؛ واهتزَّت فوق رأسه أغصان وأوراق الأشجار مثل الغيوم التي تمطر زهوراً بيضاء ووريقات غضة خضراء طرية.

نهض باخ على مضض. وجعل يتسكع في البستان وهو يضرب بخفة على الجذوع المبيَّضة براحَتَي يديه المتقرِّحتين وقد أدرك كلّ شيء. وسرعان ما وصل إلى منزل السيد من الجهة الأخرى. لم ينادِه أحد، فمشى عبر المنزل وصعد إلى الشرفة.

* * *

كانت العجَلة الحمراء لا تزال تدور، والمرأة العجوز تفتل الغَزل. اجتاز باخ وسط غرفة الضيوف وهو يصفع بقدميه من دون أن يمسحهما. رأى الأوراق النقدية التي وضعها على الكرسي ولوَّحَ بيده فتناثرت النقود ببطء على الأرض. ثم جلس على كرسي.

– أما زلتِ هنا، يا كلارا؟ سألها بصوت متعَب.

– هنا – صدح صوتٌ هادئ من وراء الستارة.

– دعيني أذهب. خرجتْ كلّ كلمة من باخ بصعوبة: لسانه وشفتاه بالكاد كانا يتحركان، وكان عليه أن يجهد نفسه كي يغطّي صوته على أزيز عجلة الغزل. – إني أسمعكِ، يا كلارا، وأعرف من خلال صوتكِ أنكِ فتاة طيبة. ارحميني، ولا تحمِّلي روحكِ خطيئة. فأمامكِ عمر طويل، سيكون من الصعب عليكِ أنْ تسيري في الحياة وأنتِ تحملين خطيئة...

– أنا لا أفهمكَ – همستْ بصوت مرعوب بالكاد يمكن تمييزه.

– كلّا، أنا مَنْ لا يفهم! لأول مرة يرفع باخ صوته إلى حدّ الصراخ، بشكل غير متوقع له نفسه. – أنا لا أفهم ما يعني هذا كلّه! كلّ هذه السفالة الغريبة التي تملأ منزلكم! هؤلاء القرغيزيون البُكم ذوو العيون الجوفاء! والنقود التي ظهرت في جيبي بنفسها، على الرغم من أنني لم أقبضها! والدروب الضيقة التي تمتد على شكل دوائر! والأشجار المتلاشية! الساحرات ذوات عجلات الغزل! قال باخ ذلك ونظر بحذر إلى المرأة العجوز، لكنها واصلت العمل بهدوء. – وهذه الألعاب السحرية الملعونة كلّها والألغاز الشريرة. الفتيات المختبئات خلف الستائر... وإذا ما أسقطتها الآن؟ استولت على باخ فجأة فكرة شريرة. – سأركل برجلي حاجزكِ اللعين وأقلبه!

قالت كلارا بكلّ بساطة:

– حينها سوف يقتلك والدي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

– يا إلهي، يا ضابط الكل! خفض باخ رأسه ووضع وجهه في راحة يده

وجلس هكذا لمدة طويلة مستمعاً إلى أزيز عجلة العجوز؛ ولسبب ما لم يكن لديه شكّ في أنَّ كلارا كانت تقول الحقيقة.

– ما حاجتُكِ بي؟ رفع أخيراً رأسه. كان صوته أبحّ وكأنما تلاشى في لحظات الصمت هذه. – أنا في الثانية والثلاثين من عمري، ولا أمتلك أيَّ شيء. ليس لديَّ ثمة ما يؤخَذ مني، وليس لديَّ ما يمكن أنْ أُعطيه أيضاً. اختاري لكِ شخصاً آخر أصغر سناً منّي، أجمل، أكثر ثراء، لقد تعبتُ من ذلك. أنا لا أؤمن بالله، ولا حاجة لكِ بروحي العديمة الجدوى. لكن لا تخبري القس هاندل. ومع ذلك، يمكنكِ أنْ تخبريه، لا يهمني... لذلك، أنت مخطئة في اختياركِ إيّايَ لتجاربكِ. إني لا أعرف كيف تقومين بذلك، والأكثر من ذلك، أنني لا أستطيع تخمين السبب. أرجوكِ فقط: فكّري في الأمر. إنَّ من السهل أن تجعليني أعاني، لكن ذلك لن يجلب لك الكثير من السعادة: أنا ضعيف الجسم وخائِر تماماً من الناحية الروحية. ما الفائدة من تعذيب فأر مريض؟ فهو على كلّ حال سرعان ما سيموت. الأفضل اختيار وحش قوي للتضحية به، فهو سيقاوم لمدة طويلة وبشراسة. أليس هذا بالذات ما أنتِ بحاجة إليه؟ أما أنا فسوف أنسى كلّ شيء، أقسم لكِ. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، ليس لديَّ أحد لأخبره عنك، فدائرة التواصل الخاصة بي تتكون منّي وحدي. لن آتي إلى هذا الشاطئ مرة أخرى، وحتى لن أنظر إليه، وإذا صحّ التعبير، لن أخرج لأتنزّه عند نهر الفولغا ولو مرة واحدة...

– على أيّ حال، إني لا أفهم...

– ماذا تريدين؟ قولي، أخيراً، مباشرة، ارحميني. ماذا تريدين مني بحق الجحيم؟!

– أريد أن أدرس. لا شيء سوى ذلك...

– لا شيء سوى ذلك! كرّر كلامها وهو يتفحَّص راحَتَي يديه الملطختين بالدم والطين والجير. – حسناً إذن. وإذا ما أعطيتك درساً، هل تعديني بأنْ تسمحي لي أنْ أغادر في المساء؟

– أمِنَ المعقولِ أنْ يمسك بك أحدٌ بالقوة؟

نفض باخ عن يديه التراب وغبار الجير وهو يتغضَّن من الألم.

– إذا ما أعطيتكِ درساً، هل تعدينني أنْ تستدعي ذلك القرغيزي وتأمريه بصرامة أن ينقلني إلى منزلي؟

– بالطبع. هذا بالذات ما أُمِرَ به.

– أمرَ بهذا والدكِ – فهمَ باخ من دون إيحاء؛ سوّى شعره الأشعث، ووجد غُصيناً قد علق به، فرماه تحت قدميه؛ ومسح وجهه بكُمّ سترته. – حسناً، يا آنسة، اسمحي لي أنْ أبدأ الدرس...

وبدآ فعلاً. بادئ ذي بدء، قرّر باخ فحص معارف كلارا غريم وتوصل إلى استنتاج مفاده أنها ضئيلة جدّاً. فبرغم رقة صوتها كلّها ووداعتها في الحوار كانت الفتاة جاهلة مثل متوحش أفريقي. من الجغرافيا كلّها كانت تعرف تمام المعرفة بوجود بلدين فقط، روسيا وألمانيا، وكذلك نهر واحد، هو نهر الفولغا؛ علاوة على ذلك، فإنَّ هذا النهر، وفقاً لفهم كلارا، يربط الدولتين كلتيهما، بحيث من الممكن تماماً الانتقال من دولة إلى أخرى بمساعدة وسائط النقل المائي. وبدا العالم المتبقي لكلارا سحابة مظلمة تحيط بالأراضي المعروفة، فمعلومات الفتاة لم تتجاوز إلى ما وراء شاطئ موطنها الفولغا. وفهمها عن بنية جوف الأرض والمعادن الموجودة فيها قريب جدّاً من فهمها عن القبة السماوية، سواءً بالمعنى العلمي أو بالمعنى الديني. أما من الناحية الروحية فكانت مهذبة، لكنها لم تكن تعلم إلّا القليل عن تعاليم الكنيسة (كان القس هاندل سيصاب بالذعر لو سمع عرضها الساذج لقصص مغامرات آدم وحواء أو عن معاناة نوح). وكانت تسمّي النجوم والأبراج على طريقة الفلاحين: الدب الأكبر – *الميزان*، الجوزاء – *المدمَّة*، والكوكبة الثريا *الدجاجة الأم*. أما مسألة شكل الأرض ووجود كواكب أخرى في العلاء الكوني فقد قادت كلارا إلى ارتباك كامل، إذ لم يسمع أحد في منزل عائلة غريم شيئاً عن علم الفلك. وكذلك لم يسمعوا عن غوته وشيللر.

مع كلّ سؤال جديد كانت الدهشة في قلب باخ من افتقار الصبية الصارخ للتنوير. وبالتدريج، نسي قراره الأخير وشغل نفسه بالبحث عن أصغر أجزاء المعرفة التي تمتلكها كلارا على كلّ حال: لقد شعر وكأنه منقِّب يغسل أطناناً من الصخور من أجل العثور على بضع حبات من الذهب. كانت كلارا تجيب عن طيب خاطر، لم تخفِ شيئاً، لكنها كانت قادرة على أن تخبِر عن حياتها القصيرة غير المعقدة فحسب، التي جرت جميعها من أول يوم إلى آخر يوم في منزل غريم.

منذ طفولتها، بعد أن فقدت والدتها وخسرت التعاطف النسوي، نشأت كلارا، المرعوبة من والدها الغليظ والتي لم يكن لديها حميم مقرَّب سوى مربيتها شبه الصماء، كمخلوق وجِلٍ ورقيق على نحو مثير للعواطف. فالكلمة غير المحتاط منها تسبب لها الإحراج والذكرى الحزينة تثير فيها البكاء، وتبقى صامتة لمدة طويلة خلف ستارتها، تنشج بأنفها وتتنهد بارتعاش. لأول مرة يصادف باخ في حياته إنساناً حساساً ورقيقاً أكثر منه نفسه. فهو عادة ما ينغلق على نفسه في المجتمع (كما تسحب السلحفاة رأسها وبراثنها تحت درعها القوي) حتى لا يتعرض للإهانة عن غير قصد. والآن اضطرَّ إلى أداء الدور المعاكس: أنْ يستمع إلى أدنى ظلال نغمات كلام كلارا، مميِّزاً فيها في الوقت المناسب علامات الذهول أو الحزن الأولى؛ وأنْ يتمعَّن جيداً في الأسئلة مستحضراً لذلك براعته كلّها ولطفه الطبيعي كلّه.

وبعد أن حُرِمَ من فرصة مراقبة وجه الفتاة، ركَّز على صوتها (الهادئ والرقيق والذي يبدأ بالارتعاش في كثير من الأحيان) الذي أخبره خلال بضع ساعات عن صاحبته أكثر مما عرفه باخ عن نساء قريته. لقد تغلب الحماس لاستكشاف روح شخص آخر على تعب وخوف المدة الفائتة: لم يلاحظ باخ كيف غيرت الظلال في الغرفة الاتجاه، فتحوَّلَ سخطه من الامتعاض من تخلف الآنسة غريم البربري إلى التعاطف معها.

وقُبيل نهاية الدرس، عندما دسَّ تحت الستارة مجلَّد الأشعار لفحص

مهارات القراءة جعل يحدق بثبات: هل ستظهر أصابعها الرقيقة أسفل الإطار؟ ولسبب ما، بدا هذا مهمّاً له. كلّا، لم يحدث ذلك: اختفى الكتاب في الجانب الآخر، وكأنَّ تياراً قويّاً من الهواء قد سحبه. للأسف.

قرأت كلارا قراءة سيئة للغاية. في البداية، سمع باخ حفيف الصفحات لمدة طويلة، ثم سمع تنفساً مضطرباً، ثم قراءة غير مترابطة، بطيئة ومؤلمة، مثل قراءة تلميذ في المراحل الأولى من المدرسة. لم يُسعفها الوقت لقراءة حتى سطرين، فقد لاحَ وجه داكن في النافذة وظهرت قامة القرغيزي المرافق على العتبة.

– هل ستأتي غداً؟ سألته كلارا، وهي تدفع الكتاب إلى الخارج من تحت الستارة.

التقط باخ المجلد بدا أنَّ الجلد لا يزال يحتفظ بدفء أصابع الفتاة. وعندما نهض من الكرسي، شعر بألم ساقيه. الآن فقط أدرك فجأة أنه طوال بضع ساعات لم يتذكر أبداً لا تيهه في الغابة ولا مستنقع الوادي الخبيث ولا الخلاص في بستان التفاح. هل حدث له ثمة شيء مماثل اليوم؟ وإذا ما حدثَ فما هو؟

أدرك أنه صرخ اليوم من الغضب وضحك وخاف وكان صريحاً بشكل لم يحدث له من قبل في حياته. ومع هذا لم يتلعثم مرة واحدة كذلك.

وأدرك أنه يريد رؤية وجه كلارا.

– إلى اللقاء يا آنسة غريم، قال هذا فقط وهو يتوجه نحو الباب.

كانت ركبتاه وكوعاه تؤلمه إيلاماً شديداً وعظام وجهه تحرقه من الخدوش، لكنه لسبب ما أصبح غير مبالٍ بالألم. لقد تعبَ تعباً لا يُعقل ولا يطاق.

وكرّرت كلارا مرة ثانية:

– هل ستأتي؟

ولأنه لا يجرؤ على الوعد بأيّ شيء محدّد، فقد انحنى وداعاً للمرأة العجوز صاحبة عجَلة الغزل وترك المنزل.

عندما سار باخ وراء قامة القرغيزي الطويلة النحيفة في الغابة كان ينظر من حوله والحيرة تعذبه: كيف يمكن أن يتيه في مثل هذا المكان المفهوم والبسيط؟ فها هي ذي أشجار البلوط والقيقب الخشنة الملمس، وها هي الجذوع التي تفوح برائحة الربيع الرطبة واللحاء المتغضِّن الذي تخترقه في بعض الأماكن الأوراق الخضراء. ها هو ذا مسار الدرب الضيّق الذي لا يزال يحتفظ بآثارهما منذ الصباح مستقيمٌ ويؤدي إلى الشاطئ. نعم، ونهر الفولغا نفسه هو ذا، في لمحة بصر وإذا به يلمع من بين متون الأشجار البنيَّة. هل يمكن لعالم ملموس وعبق، حقيقي إلى حدّ ما ومألوف أنْ يفقد ثباته لبعض الوقت ويتحول إلى مستنقع متقلقِل أم أنَّ هذا كلّه مجرد نسج من الخيال؟ وهنا استحوذ عليه التعب وأعاقه عن التفكير.

– هل هذا صحيح؟ سأل وهو ينظر في عينَي القرغيزي عندما دفع قدمه من الشاطئ وأخذ المجاذيف. لم يكن يأمل بالحصول على إجابة، سأل هكذا ببساطة من أجل السؤال فحسب، لأنه لم يعد يملك المزيد من القوة للاحتفاظ في داخله بالسؤال الذي عذَّبه. كلّ ما حدث معي اليوم صحيح؟

شقَّ الزورق الماء، وابتعد بدفعات عن الشاطئ. انعكس لمعان الأمواج على عينَي القرغيزي السوداوَيْن المفلطَحَتين إلى الأعلى والأسفل من خلال الجفون المثنية. وطارت قطرات كبيرة من شفرتَي المجذافَيْن إلى ذراعيه وكتفيه العارية وتدحرجت على تجاويف النتوءات بين العضلات. وكانت مساند المجاذيف تصرّ بوئام.

أشاح باخ بوجهه. وانتابته الرغبة فجأة أن يلامس مرة أخرى الصفحات التي قلَّبتها قبل قليل يد كلارا غريم. ففتح المجلد ما زالت الأوراق تفوح بَعْد بشكل محسوس برائحة منعشة وغير مألوفة ووجد القصيدة اللازمة. فوق اسم القصيدة، مكتوب بحروف معوجّة بشكل مائل ومن دون علامات تنقيط: «لا تتركني أرجوك».

-3-

بدأ باخ يذهب إلى منزل غريم كلّ يوم، بعد جرس منتصف النهار. لم يلعب الخيال معه بمزحة سيئة ولا مرة واحدة بعد ذلك اليوم: فقد تقبَّلت الضفة اليمنى هذا الغريب. وكثيراً ما كان باخ يذهب في الجوار بحثاً عن المرج المذكور ذي الجذع الشبيه بالعجوز والمسيل الملْيء بالأشجار التي أسقطتها الرياح، لكنه لم يجده. كانت الغابة كثيفة لكن يمكن اجتيازها وأشجارها صلبة وخشنة كما كانت، والحجارة ثقيلة، والمسارات فيها موثوقة. وتبين أنَّ المنزل وقاطنيه عند التعارف الوثيق ليسوا سوى بشر عاديّين.

وقد تبينَ أنَّ العاملين القرغيزيين، في الحقيقة، لم يفهموا اللغة الألمانية بشكل جيد: كانوا يتحدثون بعضهم مع بعض بلغتهم غير المترابطة والخشنة. وحتى إنَّ باخ تعلَّم بضع كلمات منها، متعجباً من نفسه من كيفية اختلاف أسماء الأشياء والظواهر نفسها في اللغات المختلفة. خذ على سبيل المثال أبسط الحقائق: السماء والشمس. في Himmel (السماء) الألمانية الخفيفة مثل التنفس والمُشرقة مثل زُرقة ما وراء الغيوم تُضيء Sonne (الشمس) بألوان قوس قزح، التي يرنّ شعاعها بخيوط ذهبية وينسكب بلطف. بينما عند القرغيزيين كلّ شيء مختلف: فالكوك[1] مرصوصة ومحدبة مثل غطاء القدر الكبير تضرب المرء من الأعلى ولن ينجو منها؛ وكُـون[2] حمراء نحاسية مدقوقة في السقف

1- көк – كوك – باللغة القرغيزية تعني أزرق وسماء. (المترجم).

2- Күн – كون – باللغة القرغيزية تعني شمس. (المترجم).

بمسمار حام لدرجة الاحمرار. إذن، لا ينبغي التعجّب من أنَّ وجوه الناس الذين يتحدثّون هذه اللغة الخشنة يحملون بصمتها القاسية. وعلى الرغم من أنَّ القرغيزيين أنفسهم ربما يتصورون عكس كلّ شيء تماماً، إلّا أنَّ اللغة الألمانية المتعدّدة المقاطع كانت تثقل كاهل آذانهم المعتادة على الصوت القصير والواضح.

كانت العجوز تيلدا، التي أصابها الصمم تقريباً بسبب عمرها الطويل والتي احتفظت بقوة بصر عينيها وخفة أصابعها، تفضِّل أنْ تقضي الوقت خلف عجلة الغزل ومنول النسج أكثر من أنْ تقضيه في الحديث مع الناس. كان الخيط الذي يخرج من تحت أصابعها التي مَجَلَتْ رقيقاً على نحو غير عادي (ليس عبثاً أنْ قال المستوطنون: «كلما كان الشَّعر أكثر مشيباً كان الغزل أكثر رقة»)، والقماشُ ناعماً مثل قماش المصنع. كانت جميع الملابس في المنزل، الشتوية منها والصيفية، مِن نَسجِها وخياطتها بالإضافة إلى مفارش المائدة الأنيقة التي تشبه شبكة عنكبوت سوداء مليئة بالورود الحمراء والزرقاء؛ وكذلك الشراشف وأغطية الوسادات وأغطية الأسرّة الدانتيل. في بعض الأحيان، كان باخ ينظر بعناية إلى قدمَي العجوز الحافيَتَين: فيجد لكلّ قدم منهما خمس أصابع، ولا شيء آخر.

نادراً ما ظهر صاحب المنزل، أودو غريم، النهِم فقد كان غائباً باستمرار، وأحياناً لأسابيع. لاحظ باخ عدة مرات كيف يصحب المراكبيّ القرغيزي الطويلُ والنحيلُ السيّدَ في الزورق الصغير إلى ساراتوف: كان غريم يفضل السفر في الوسائط المائية ونادراً ما شدَّ حصانه في عربة أو ركب على متنه.

المراكبي القرغيزي يدعى قيصر، كان يعرف كيف يتكلم، لكن لم يعجبه: لم يسمع باخ القرغيزي يتكلم طوال الصيف سوى مرة واحدة بدأ فيها يسبّ لمدة وجيزة عندما وقعتْ في وسط الفولغا تحت المجذاف جثةُ سمكة حفشٍ طويلة مقلوبة على بطنها الصَّدَفية المنتفخة، غير أنَّ هذا الفأل السيئ لم يجرَّ خلفه عواقب مشؤومة.

وفي الأمسيات، عندما يعبر باخ إلى ضفته كان يندهش من أنَّه لم يلاحظ من قَبْل زورق قيصر السريع الحركة الذي يظهر بين الحين والآخر عند سفح الجبال. ومع ذلك، لم يكن ثمة شيء غريب في ذلك: إذ إنَّ نهر الفولغا في هذه الأجزاء عريض جدّاً إلى درجة تبدو معها حتى المنازل الحسنة البناء في قرية غناديتال من الضفة اليمنى مثل مجموعة متناثرة من الأزرار الملونة وفي وسطها برج الجرس بارز كالدبّوس.

تدفقت الحياة في المزرعة بشكل منعزل. وأصبح كلّ سَفَر وعودة للسيد حادثةً يبدأ منها حساب الزمن اللاحق. لم يغِب عن المنزل أيّ فرد من أفراده سوى غريم: كلارا لم تسافر بعد في دنيا الله، أما تيلدا فبسبب شيخوختها قد نسيت متى كانت هناك آخر مرة. أما القرغيزيون (كان عددهم بين الخمسة والسبعة، لأنَّ باخ لم يتعلم كيف يميزهم حتى يمكنه عدّهم بدقة) فبدا أنهم راضون تماماً بعزلة وجودهم في الغابة. ارتاب باخ في أنّ لدى البعض، إن لم يكن لدى الجميع، في الماضي ثمة أسرار التي من السهل إخفاؤها في مكان هادئ، مخفيّ عن أعين البشر. ومهما كان الأمر، لم يلاحظ مرة واحدة أنَّ أحد العاملين قد نظر بشوق عبر النهر إلى سهوب مسقط رأسه. علاوة على ذلك، كان أحد القرغيزيين صياداً حقيقيّاً وكان يذهب إلى الغابات كلّ يوم ويأخذ معه بندقية مزدوجة، أما قيصر فكان صيادَ أسماك ماهراً يجلب في أيام الحظ ما يقرب من نصف بود[1] من سمك الزانتر وسمك الشبوط للعشاء. لم يسبق لباخ مطلقاً أن التقى من قبل مع قرغيزيين يستطيعون صيد الحيوانات البرية أو صيد الأسماك. كان المستوطنون يحسبون دائماً أنَّ تربية الماشية هي مهنتهم الأصلية والوحيدة. ورغماً عن هذا الرأي كان الصيد البري والأسماك متوفرة في مزرعة غريم بما فيه الكفاية. وعدا ذلك فقد عاشوا عيشة اقتصاد الكفاف: فقد كانت وفرة في الماشية والدواجن والحديقة تُنتِج الخضروات. أما محصول التفاح فكان يكفي لمدة عام تقريباً، حتى الربيع المقبل.

1- البود - وحدة وزن روسية قديمة زنتها 16.38 كيلو غراماً. (المترجم).

وسرعان ما أُدرِجَ باخ في هذه الحياة الرتيبة. لقد انسلَّ إلى المنزل، صغيراً وغير مَلحوظٍ، من دون أنْ يجذب الانتباه ولم يُثِر امتعاض أحد بنظرة غريبة أو سؤال مزعج. في المطبخ، عادة ما كان بانتظاره الغداء (بالمناسبة، حارّاً وطيب المذاق للغاية) وفي غرفة الضيوف خلف الستارة التي اعتاد عليها كانت بانتظاره التلميذة برفقة دائمة من العجوز الحارسة الصامتة مع عجلة غزلها.

بدآ بالشيء الرئيس بالخطاب الشفهي. فقد اقترح باخ أنْ تقول كلارا شيئاً ما فيستمع إليها ويترجم أي يقلب التراكيب العاميّة القصيرة إلى عبارات أنيقة من *اللغة الألمانية السامية*. وكانت التلميذة تكرّر بعد المعلم. تقدَّما ببطء، جملة بعدِ جملة، وكلمة بعد كلمة، كما لو كانا يسيران إلى مكان ما في الثلج العميق، الأثر على الأثر.

في البداية، ارتبكت كلارا، ولم تتمكن من العثور على مواضيع للمحادثة: كانت حياتها تفتقر للحوادث، أما عن مصائر الآخرين فلم تسمع أيَّ شيء على الإطلاق. ولكن سرعان ما عُثِرَ على الحل: بدآ في سرد الحكايات. منذ الطفولة، كانت المربية تيلدا تسلّي ربيبتها بقصص مخيفة: عن العمالقة العميان الذين يرعون الخراف؛ وعن الفئران التي أماتت الأسقف الشرير عضّاً (بالقرض) في زمان المجاعة الكبرى؛ وعن القلاع، التي تصعد من قاع البحيرات والأنهار تحت إنشاد المزامير لكي تغطس عائدة عند الفجر مرة أخرى إلى أعماق المياه؛ وعن الأقزام الأشرار الذين يطرقون الفضة في الكهوف تحت الأرض؛ وعن الآباء الذين يقطعون أيدي بناتهم، وعن البنات اللائي يجبرنَ الأمهات أنْ يرقصنَ على الجمر؛ وعن الصياد القاسي المحكوم عليه بعد الموت بأن يجري عبر الغابة تحيط به زمرة من كلاب الصيد خلف أشباح الحيوانات التي عذَّبها على أنْ يركض خلفها ولا يلحق بها أبداً... عرفت كلارا الكثير من الأساطير عن ظهر قلب، وأعادت سردها بشغف.

كم كانت مختلفة عن حكايات الكتب التي عرفها باخ! إنَّ هذه

الحكايات المعروضة باللهجة الدارجة الساذجة والمُفتَقِرة إلى رشاقة وصقل اللغة *الألمانية السامية* وغير الخاضعة لرقابة المعدّين الدقيقة بدت كأحاديث يومية اعتيادية حول حوادث وقعت في مزرعة مجاوِرة، مثل مقالات الصحيفة قصيرة وشحيحة عن جرائم عاديّة. وربما، جُلبت هذه القصص من الوطن الألماني منذ زمن يكاتيرينا الكبرى ومنذ ذلك الحين تغيرت قليلاً أو لم تتغير على الإطلاق، ونقلتها بجدٍّ من فم إلى فم أجيال من النساء أمثال تيلدا، القليلات الكلام واللائي لا يمِلنَ نحو الخيال. لم يكن ثمة سحر وجمال في هذه الحكايات، إلّا الحياة المادية. وكلارا كانت تصدّق بهذه الحياة، كما تصدِّق بأن الملفوف الحامض الذي يوضَع على الجبين يخفف من الصداع وأنَّ روث الثيران الكثير يبشِّر بحصاد جيد. لم ترَ فرقاً كبيراً بين مغامرات أبطال الحكايات الخرافية وتطواف النبي موسى، وبين حملات الفرسان المسحورين وعصيان إميلكا بوغاتشيف الرهيب،[1] وبين نار الطاعون الزرقاء التي تطوف في العالم والحريق الكبير الذي حدث قبل مدة قصيرة في مدينة ساراتوف الذي وصلت أخباره إلى أقصى زوايا منطقة فولغا. وجميع الحوادث الأولى والثانية والثالثة، بلا شك، كان يمكن أن تحدث يوماً ما، وعلى الأرجح، قد حدثت فعلاً في تلك السحابة المظلمة التي لا حدود لها، والتي تمثل العالم حول مزرعة غريم الصغيرة. ومن يستطيع أنْ يثبت خلاف ذلك؟

وبعد أنْ تحدثا كثيراً، تحوّلا إلى الكتابة: الخط، الإملاء، إعادة إنشاء كلام المعلم. أحب باخ هذه الساعة أقلَّ من غيرها بدلاً من صوت كلارا، لم يسمع سوى صرير قلمها الذي سرعان ما تعلم أن يميزه من خلال صرير عجلة غزل العجوز.

1- عانت المستوطنات الألمانية المسالمة بشكل كبير خلال انتفاضة بوغاتشيف في عام 1774: استولى جيش الفلاحين على ساراتوف ونهبَ مدينة يكاتيرينشتات (ماركسشتات الحديثة)، وضاحية بوكروفسكايا سلوبودا وساريبتا والعديد من المستوطنات الأخرى. (الملاحظة من الكاتبة).

ولكن بعد ذلك جاء الدرس الثالث، ساعة باخ المفضلة، ذروة اليوم القراءة. سلَّم للتلميذة الكتاب الذي أحضره معه. وكما هو معتاد بالنسبة لهما، دسَّه لها من تحت الستارة. وبدأت كلارا تقرأ ببطء حسب المقاطع بصوت طفولي هادئ. اكتسبت قصائد غوته وشيللر على شفتيها البريئتَين صدى غريباً: النغمة الملائكية التي قُرئت بها أبياتُ الحب الملتهِبة أضفَتْ عليها بشكل عجيب ظلالاً من المُجُون، أما الوداعة النقيّة عند وصف حتى أكثر المَشاهد فظاعةً فقد عزّزت بشكل كبير معانيها القاتمة.

... الخيّالُ مُنْذَعِرٌ... لا يعدو، بل يطير...
المَوْلُودُ مُكْتَئِبٌ... المَوْلُودُ يصرخ...
الخيّالُ يُسرِع... بلغَ الخيّالُ مبتغاه...
يرقدُ على يديه وليدٌ ميّت...[1]

استمع باخ إلى الأبيات التي يعرفها منذ شبابه، فهزَّت جسده قشعريرة، فجأة بدت له قراءة كلارا معبرة للغاية. صحَّح نطقها، ومن أجل التظاهر تمتمَ بشيء من الهراء التوجيهي، لكنه كان يتمنّى شيئاً واحداً فقط: أن تستمرّ كلارا بالقراءة. وقرأت بالفعل أشعاراً ألمانية تراجيدية نشأت عن الحكايات القاسية والأساطير القاتمة: الصيادون غرقوا في الأمواج بعد أن جذبتهم أصوات عذارى البحر العَذبَة؛ سقط الملوك مغمياً عليهم في الولائم المرحة؛ جاءت العرائس الموتى ليتقاسمنَ السرير مع العرسان الذين لا ما زالوا أحياءً وشربوا دماءهم...

في بعض الأحيان، كان صوت كلارا المذهل يؤثِّر على المعاني بشكل معاكس: اليأس الظاهر الذي أُنشِدَت فيه الأبيات ذاب في التنغيم الرقيق تاركاً المحلَّ للأمل.

قممُ الجبالِ تغفو في عتمة الليل...

1- مقتطف من حكاية غوته الشعرية «فارس الغابات» التي ترجمها إلى اللغة الروسية فاسيلي أندريفيتش جوكوفسكي. (الملاحظة من الكاتبة).

الوديانُ الهامِدة مترعةٌ بالضباب الطري...
الطريق لا يثيرُ الغبار... وأوراق الأشجار ساكنةٌ...
انتظر قليلاً، توقَّفْ... واسترح أنت كذلك...[1]

استمع باخ إلى «أنشودة الليل» ولأول مرة في حياته صدَّق أنَّ الجوّاب الوحيد لا تنتظره الأبدية الجليدية في مهاوي الجبال، بل ينتظره الصباح ومعه الضوء والدفء وأنَّ الشمس على وشك البزوغ خلف الجبل البعيد، وسوف ينهض عابر السبيل ويواصل السير...

كان باخ على استعداد لأن يستمع إلى كلارا لساعات. أرادت هي أنْ تستمع إليه كذلك، بعد أنْ تعبتْ من القراءة، فسألته أن يحكي لها شيئاً «إرشاديّاً» (من علوم الجغرافية أو التاريخ)، أو «ممتعاً» (من سجل حوادث غنادينتال التي بدت لها محور الحياة العامة العاصفة). فرضخ لها باخ، ولكن لأنه أحسَّ بقرب نهاية الدرس أمرها مرة أخرى بحسم بعد بضع دقائق: اِقْرَئِي!

وسرعان ما ملأ صوت كلارا الهادئ حياة باخ، كما يملأُ الهواءُ الوعاءَ المجوف. كان يتبادل التحية مع هذا الصوت في الصباح عندما يستيقظ. وهذا الصوت، الذي يصدح داخل باخ بشكل يصعب تمييزه، غطّى على تعدّد الأصوات الذي اعتاد عليه في الصباح: ثغاء الماشية وصياح الديكة وأغاني ربات بيوت غنادينتال الصارخة وحتى على رنين جرس المدرسة المدوّي. كان هذا الصوت يتراءى له أحياناً قبل أنْ يخلد إلى النوم من مكان ما من خلف النافذة المغلقة، فكان باخ يقفز بسرعة إلى الشارع، وهو يلعن خياله الشرير ولا يأمل في شيء، شبه عارٍ وينظر من حوله مضطرباً، ثم يجرّ رجليه راجعاً ويسرع إلى النوم حتى يقرِّب قدوم يوم الغد.

أحلام باخ، التي كانت في السابق عبارة عن صور حية، تحوَّلت الآن

1- قصيدة غوته، ترجمها إلى اللغة الروسية الشاعر ميخائيل يوريفيتش ليرمونتوف. (الملاحظة من الكاتبة).

إلى قصص شفهية: اندمجت جميع الصور العديدة في صوت واحد مألوف لم يكن باخ يرى الأحلامَ، بل يسمعها. كان يستمع بفرح إذا كان الصوت هادئاً ورقيقاً؛ ويستمع بقلق إذا ارتعد الصوت باضطراب؛ وفي بعض الأحيان... آه، في بعض الأحيان يصدح هذا الصوت أقل قليلاً من المعتاد، وتتسلل فيه بحة خفيفة وبعض التنغيم الغريب والمتعب. في تلك اللحظات كان باخ يقفز في السرير، مختنقاً من رعب غير مفهوم وصدغاه يتصببان عرقاً. وآنذاك لا يستطع النوم حتى الصباح.

تساءل باخ في نفسه في كثير من الأحيان عما يمكن أن يحدث إذا ما سقطت الستارة التي تفصله عن كلارا من تلقاء نفسها، من جرّاء تيار هواء عرضي على سبيل المثال. لقد تخيل (بأدقّ التفاصيل) كيف يصرّ الباب الأمامي الذي يفتحه أحدهم. وبِهَبَّةٍ من الريح تُفتَح النافذة، وتُصفَق بصوت عالٍ، حتى يرتجّ الزجاج؛ وبعد أن يخفق شطرا القماش لمدة وجيزة وينتفخان كالأشرعة تسقط الستارة على الأرض بقعقعةٍ. أما هو، ياكوب إيفانوفيتش باخ، ماذا سيفعل؟ لكانَ سيضَيِّق عينيه، هكذا. ولأغمَضَ عينيه بيديه، بإحكام، ولَضَمَّ وجهه في ركبتيه ولجلس هكذا حتى تعيد تيلدا الحاجز إلى وضعه السابق وتصفعه على كتفه: خلاص، انهض، يمكنك النظَر. باخ لا يريد هذا، وبالإضافة إلى ذلك كان يخشى أن تسقط الستارة. إنه يخشى رؤية وجه كلارا.

كلّا، في البداية كان يرغب في ذلك، ويتوق إليه بحماس. حاول طويلاً أنْ يتخيل ملامحها عندما يستلقي قبل النوم كان يصنِّف خيارات: يمكن أن تكون البنت حسناء أو فتاة ساذجة أو ربما حتى غير جميلة. إنه، بالطبع، يفضل أنْ يكون وجهها بسيطاً وجذاباً من دون أيّ علامات واضحة على الجمال: ممتلئاً أو شاحباً وهزيلاً، ذا أنف أفطس أو أرقط، لا تكاد تُرى الحواجب عليه من شدة شقار الشعر أو ذا بشرة داكنة كبشرة الغجريات... ثم خشي فجأة من أنْ تكون كلارا قبيحة مشوَّهَة: لديها فجوة بدلاً من الأنف أو ذات جبهة منحدِرة. أو كسيحة: جسمها

مسفوع في النار أثناء حريق، مبتورة اليد أو القدم. عمياء، عرجاء أو عوجاء الساقين. عضباء، حدباء، قزمة. والأسوأ من ذلك كلّه، أنْ تكون لا شائبة عليها وذات جمال باهر... هذه الأفكار كانت مؤلمة وعذبت روح باخ لدرجة أنه منع نفسه من تخيّل مظهر التلميذة: كان يكفيه تماماً صوتها الآسر. حكيمٌ، يا له من حكيم أودو غريم عندما أقام حائط إنقاذٍ بينهما!

ومع ذلك، سعى الجزء الأكثر يأساً من روح باخ لمعرفة المزيد عن كلارا رغماً عن الحظر المعقول الذي فرضه على نفسه. فمثلاً في يوم تعارفهما جعل يسترق النظر إلى أطراف أصابع كلارا في الفجوة الموجودة أسفل الستارة عندما ناولها كتاب القراءة أو ورقة الإملاء؛ وأحياناً كان يلاحظ نصف دائرة من أظافرها الوردية وقد أربكه هذا بشكل غير عادي؛ وفي بعض الأحيان، في الأمسيات الصافية كانت شمس الأصيل تنفذ بأشعتها إلى الغرفة فتظهر بقعة رمادية غير واضحة على قماش الستارة، وكأنها على شاشة: إنه ظلّ كلارا. وبين الفينة والفينة (وهذه اللحظات تذكَّرَها بشكل خاص) كانت كلارا، عندما يهيمن عليها الحديث أو التفكير، تنهض وتتمشى على طول الستارة (ثلاث خطوات إلى جهة وثلاث إلى الجهة الأخرى)، وفي هذا الوقت يخفق شطرا القماش قليلاً؛ فيحوِّل باخ وجهه نحو صوت الخُطى ويأخذ شهيقاً بعمق وبصمت: يبدو له أنّ خياشيمه شعرت بعطر جسم عذراء خفيف. لم يكن هذا يليق به، فيشعر بالخجل. ويوبخ نفسه، ويعد بالكفّ عن ذلك، ولكن لسبب ما لم يكفّ.

وفي الوقت نفسه سعت كلارا ذاتها إلى التقارب. فسرعان ما اكتست جميع الصفحات في مجلد غوته برسائلها القصيرة والساذجة، لقد كانت تسجلها بعناية بقلم الرصاص على الهامش في كلّ مرة تتلقى فيها الكتاب. من خلال التقليب في المجلد الذي هو أداة المراسلات السرية الخاصة بينه وبين كلارا تمكّنَ باخ أن يتابع التقدم الذي أحرزته في دراستها: فقد

أصبحت الحروف بالتدريج أقل اعوجاجاً واختفت الأخطاء من الكلمات بينما، على العكس من ذلك، ظهرت علامات التنقيط.

حلمت اليوم بسمكة كراكي سوداء،

عينايَ زرقاوان، وأنت؟

ماذا يرتدي الناس في غنادينتال؟

أنا لا أجيد السباحة،

في طفولتك، هل كنت تخاف من الكلاب أيضاً؟

تيلدا تتظاهر بأنها صماء، لكنها تسمع كلّ شيء.

احكِ لي قصة مضحكة أخرى عن المختار ديتريخ.

حلمت اليوم بذئب أبيض.

لماذا لديك صوت حزين؟

لا أريد الذهاب إلى ألمانيا ولا أريد الزواج.

في البداية، لم يعرف باخ ما إذا كان يجب الردّ على الرسائل السرية وبالتالي تشجيع المراسلات الخطيرة: فإذا ما لاحظت تيلدا شيئاً وأبلغت السيد، لربما ستتوقف الدروس. ثم قرّر الردّ مع ذلك، ولكن بطريقة مبهمة يكون من المستحيل معها على المراقب الخارجي فهم أيّ شيء. فقد كان يحشر في نصوص الإملاء اليومية إجابات عن تساؤلات كلارا (*اكتبي الجملة الآتية، يا كلارا، لا تصرفي انتباهك. «لديَّ عيون بنية فاتحة». فكِّري جيداً قبل كتابة كلمة «بنّية فاتحة». وتذكّري قاعدة الأمس حول كتابة الكلمات المركَّبة*...). وعندما يتحدث عن حياة الشعراء والقادة كان يضيف إليه تفاصيل من سيرته الذاتية (... *قلة من الناس يعرفون ذلك، ولكن غوته كان يخاف الكلاب طوال حياته، ولم يعرف السباحة أيضاً، على الرغم من أنه ولد قرب نهر كبير يُدعى ماين، انظري، يا كلارا: ليس ثمة مَن وصل إلى حدّ الكمال، حتى العباقرة المعترف بهم*...). بعض ردوده ينسبها كذلك إلى الشعراء والسياسيين والفلاسفة والملوك (...

وقالت يكاتيرينا لنفسها، قبل أنْ تصبح حاكمة لروسيا وتُسمّى يكاتيرينا الكبرى، بل مجرد أميرة ألمانية شابة غير معروفة: «تاج الزفاف ثقيل، ولكن لا مفرّ منه»...). وكان متأكداً من أنَّ كلارا ستفهم وستفكّ تشفير أيّ كود وتخمِّن مضمون رسالة.

جميع ما صار يفعله باخ الآن وما يفكّر فيه ويتأمَّل به، موجَّه إليها. فقد جعل يحضِّر للدرس سَلَفاً، من المساء: ينتقي الموضوعات للمحادثة؛ وينقِّب في ذاكرته ويبحث عن قصة أخرى تجعل كلارا تضحك أو تتنهد من الخوف. وبدأ يتطلَّع في نساء غنادينتال بحثاً عن شيء مثير للاهتمام أو مضحك في مظهرهنَّ، ويتذكر الحكايات التي حدثت في المستوطنة. وما أكثر الأشياء المضحكة التي بدت من حوله! فلأول مرة في حياته، لاحظ، على سبيل المثال، أنَّ وجه الرسام فروم المتغَضّن يشبه بشكل لافت للنظر بوز السنجاب الأرضي، وإنَّ قامة إمّي بيول السمينة، التي لم يسمِّها أحد بغير اسم إمّي البطيخة الحمراء (الرَّقّية)، كانت في الواقع تشبه كومة من البطيخ الأحمر.

– لدينا في غنادينتال امرأة بدينة بشكل لا يصدق، قال باخ في اليوم التالي وهو يتمشى على طول الستارة ويداه خلف ظهره ويسترق النظر خِلسة من بين فواصل القماش. – إنها إمّي البطيخة الحمراء (الرَّقيّة). لم تُلَقَّب مطلقاً بهذه الكنية بسبب خديها اللذين يمكن رؤية احمرارهما حتى في اليوم الغائم من على بعد فرسخ. وليس بسبب عينيها الصغيرتين اللتين تلمعان على وجهها كبزرتين سوداوين. القضية تكمن في شيء آخر!

– إذن، في أيّ شيء؟ ردّت كلارا بهدوء، وسُمِع في تنهداتها الترقب.

لم يجيب باخ على الفور، بل دوَّر في رأسه قصةً ببطء وكأنَّ الأمر مقصود.

– ماذا تقول النسوة في غنادينتال وفي أيّ مستوطَنة لائقة: في زيوريخ وبازل شانخين[1] وحتى في بالتسر عند زراعة الخضروات والتوت؟

1- أسماء مستوطنات ألمانية في محافظة ساراتوفسكايا. (المترجم).

– «انبتْ باسم الرب»، أجابت كلارا التي اعتادت على العمل في الحديقة.

– حسناً، أو في بعض الأحيان «انبت تحت السماء وتعالَ إلى مائدتنا»، – وافق باخ. فماذا تقول إمّي؟

– ماذا؟

توقف باخ وقفة طويلة انتظر حتى وصل صبر كلارا إلى الحدّ الأقصى وسألت مرة أخرى بشكل مزعج:

– ماذا بعد؟ ماذا تقول؟

– تدفن بذور البطيخ الأحمر (الرقّي) في الأرض المبتلة وتهمس عديمة الخجل لكلّ بذرة... خفَّض باخ صوته وبطَّأَ الوتيرة، وكأنه يحكي شيئاً مأساويّاً... «انبتْ من مؤخرتي المحصول سيكون وفيراً!».

تُسمَع ضحكة مكبوتة خجولة خلف الستارة.

– وتقول لبذور البطيخ الأصفر (الشمام)...

– ماذا؟

– «انبتْ من صدري وكن حلواً جدّاً!»

تحولت الضحكة المكبوتة إلى قهقهة عالية.

– وتنبت فعلاً! امتلأ صوت باخ مرة أخرى بالقوة، ودوّى في غرفة الضيوف. – أما في الحقول الأخرى فتخرج ثمار البطيخ الأحمر صغيرة وحامضة. ولكن عند إمّي كبيرة إلى درجة لا يمكن للمرء أنْ يحضنها وكأنَّ قوة تتفجَّر فيها من الداخل! ونشر ذراعيه على الجانبين، مثل الممثل على خشبة المسرح في نوبة من الإلهام.

ازداد الضحك خلف الستارة وصدَحَت قهقهة.

– عندما تشتغل إمّي في أيام شهر تموز (يوليو) في الحقل بين ثمار البطيخ الجميلة، الكبيرة المخططة، وهي منحنية بظهرها إلى الأرض

ومُعرِّضَةً لأشعة الشمس الحارقةِ مؤخّرَتها الشهيرة المغطاة بتنورة خضراء، في بعض الأحيان لا يمكن للمرء أنْ يميِّز على الفور المرأة عن البطيخة. رفع باخ حواجبه بارتباك وهزّ كتفيه استخفافاً. - والأمر ينطبق كذلك على البطيخ الأصفر (الشمام) في حقل إمّي: ثقيلة ومنتفخة قليلاً من أحد الطرفين وذات مؤخّرة بارزة على نحو مشاكس. ينظر المرء المحترم فيحمرّ وجهه خجلاً على الفور...

حاولت كلارا أنْ تقول شيئاً (احتجت على التفاصيل المثيرة للفضول) لكن نوبات الضحك لم تسمح لها أنْ تنطق بكلمة واحدة. فشجَّعها باخ، المتحمس ذو الرأس المائل إلى الوراء والشعر المنفوش.

- يُقال إنَّ طالباً من نصف المتعلمين من عائلة ديورار، اجتذبه الاهتمام العلمي حصريّاً، وتتبع إمّي ذات مرة أثناء السباحة في نهر الفولغا من أجل مقارنة شكل جسمها والثمار. وهكذا، تأكد أنَّ التشابه كان مطلقاً: كأنَّ البطيخ الأحمر (الرقي) والشمام (البطيخ الأصفر) قد تكوّن من أجزاء هذا الشكل الذي تكونت منه المرأة نفسها!

وكان باخ يصف تلك الأشكال ذاتها بيديه في الهواء، متناسياً أنَّ كلارا لا تراه. بينما هي تشتكي فحسب من خلف الستارة في حالة من الإعياء، إذ لم تعد قادرة على الضحك أكثر.

- حاولت ربات البيوت الأخريات، وهنَّ يشعرنَ بالخجل من الإحراج ويُخفين ذلك بعناية بعضهنَّ عن بعض، أنْ يُكرِّرنَ أقوال إمّي في حدائقهن، ولكن لم يعُد ذلك عليهنَّ بأيّ منفعة. وفي بعض الأحيان تعفن المحصول كلّه في الأرض. فتأسفت النسوة وتخلَّيْنَ عن هذا الفعل. وهذا صحيح: فإمّي البطيخة ليس لها مثيل! الشكر للنبوءة التي أرسلتها لتولد في غنادينتال! أمسك باخ الكرسي المنحوت الذي اعتاد الجلوس عليه، ووضعه على الأرض بنَقرة معبِّرة، معلناً نهاية القصة، بصوت عالٍ لدرجة أنَّ تيلدا الرزينة الهادئة الأعصاب ارتجفت وغفلت عن رؤية بكرة الغزل التي كانت تدور أمام أنفها.

- يا إلهي القدير، همست كلازا، بعد أن كفَّت عن الضحك وكتمت أنفاسها المضطربة؛ وسُمِعَ في صوتها، الذي كان قبل قليل مرحاً، بوضوح مسحة من الألم الروحي. - هل ستُتاح لي الفرصة ذات مرة لزيارة غنادينتال الرائعة هذه؟

إنَّ وجود كلارا إلى جانب باخ قد فَعلَ حقّاً أشياء رائعة. فحتى العواصف الرعدية (عواصف حوض نهر الفولغا الرعدية القوية ذات السحب الزرقاء الكثيفة في منتصف الأفق التي يومض برقها في كبد السماء) فقدت أمامهما كلّ سلطتها. وصارت دماء باخ الآن تهيج ليس بسبب سطوة قوى ظواهر السماء، بل بسبب الأحاديث الهادئة مع الصبية الصغيرة المُستَتِرة خلف ستارة من القماش. صار كلّ يوم بالنسبة إليه مثل عاصفة رعدية مرحب بها، وكلّ كلمة من كلمات كلارا كصاعقة رعدية طال انتظارها. نظر باخ بتسامح إلى العواصف التي كانت تنشب من وقت إلى آخر في السهوب، وإلى أمطار الربيع الغزيرة العنيفة التي تصبّ في نهر الفولغا أصبح الآن مليئاً بالشحنات الكهربائية، مثل أقوى السحب التي تطفو في السماء.

هكذا مرّت الأسابيع والشهور.

في شهر أيار (مايو)، عندما كان أهالي غنادينتال العائدون من الحرث يزرعون حقول القرعيات بالبطيخ والشمام والقرع ويزرعون الحدائق القريبة من منازلهم بالبطاطا، كان باخ وكلارا يقرآن غوته.

في شهر يونيو (حزيران)، عندما كان الفلاحون يجزّون صوف الأغنام ويَحِشّون القش (على عَجَل قبل أنْ تُلهِبَ شمس السهوب الحارقة العشبَ)، تحولا إلى شيللر.

في شهر يوليو (تموز)، عندما حُصِدَ الشَّيْلَمُ (في الليل، حتى لا تسقط البذور من السنابل في قيظ النهار الشديد) ونُحِرَت الحملان الصغيرة، التي كان صوفها أكثر نعومة من زغب الريش ولحمها أرقّ من لبّ التوت، أكملا شيللر وتوجّها إلى نوفاليس.

في شهر أغسطس (آب) عندما مُلئت مخازن الحبوب بالقمح المطحون والشوفان، ثم أعدَّت المستوطنة كلّها عسل البطيخ الأحمر (سيشربونه طوال العام، ويخفِّفونه بقليل من الجليد من مَجلَدَة[1] المنزل ويضيفون إليه بضع حبات من توت برقوق السياج) تحوّلا إلى ليسينغ[2].

في شهر سبتمبر (أيلول)، عندما جُمِعَ محصول البطاطا والشلغم، وعندما حُرِثَ السهب على الثيران في الأرض المُراحة السوداء، عندما أُحضِرَت الماشية من المراعي الصيفية وصُلِّحَ بناء المنازل والحظائر بالطوب المصنوع من اللّبِن المتحجر في شمس الصيف عادا ثانيةً إلى غوته.

وعندما بقيت بضعة أيام قصيرة حتى بداية شهر أكتوبر (تشرين الأول) ومعه بداية السنة الدراسية الجديدة، كتبت كلارا في كتاب المتطلبات الأساسية، بالضبط فوق قصيدة «أنشودة الليل»: «غداً سنسافر إلى ألمانيا».

قرأ باخ الرسالة، وهو لم يزل بعدُ جالساً في قارب قيصر الصموت. قرأها ولم يصدِّق في البداية: لا يمكن لحياة، وفيرة للغاية ووطيدة، أنْ تُقلَع من مكانها بين ليلة وضحاها وتُنقَل إلى بلد آخر. إلى أين سيُذهب بكلّ هذه الأغنام مع الحملان والديكة الرومية والإوز والخيول والعربات وأرطال التفاح في الصناديق المُشَقَّقة وبراميل الخمر والقلائد الطوال التي تحمل الأسماك المجففة والأكوام من الشراشف ومن أغطية الوسائد غير المفروشة والرفوف من الأطباق والعارضات المليئة بغلايين التبغ... وبكلّ هؤلاء القرغيزيين المتجهمين، وبقيصر وزورقه وتيلدا وعجلة غزلها. وكلارا.

ثم تذكر: نعم، يبدو أنَّ ثمة بالفعل بعض الصناديق في الفناء الخلفي، وبعد ذلك حُمِلَتْ في عربات ورُبِطَت بأشرطة. يبدو أنَّ الدجاج والإوز

1- المجلَدَة: بناء من الخشب يوضع في داخله الثلج لخزن المواد الغذائية التي تتلف من دون التجميد، كاللحوم والأسماك، يشبه عمل المجمدة. (المترجم).

2- غوتهولد إفرايم ليسينغ - كاتب، وفيلسوف، وكاتب مسرحي، وناقد فني ألماني (1729-1781) هو أحد أهم ممثلي عصر التنوير، مسرحياته وكتاباته النظرية أثرت بصورة كبيرة في تطور الأدب الألماني. (المترجم. من ويكيبيديا بتصرّف).

في الأيام الأخيرة لم يتشابك تحت الأقدام، وكأنه قد اختفى من المزرعة. وجذوع أشجار التفاح في الحديقة قد لُفَّتْ بالخيش بالرغم من أنّ الأشجار عادة ما تُلَفّ في فصل الشتاء عندما تتساقط الثلوج...مكتبة

– توقَّف! صاح بقيصر. – كفّ عن التجذيف! هل سيغادر أسيادك غداً؟

ولمّا تذكر أنَّ الرجل لا يفهم اللغة الألمانية حاول التحدث باللغة القرغيزية الكلمات العشر التي تعلمها خلال فصل الصيف ولكن لم يأتِ أيّ شيء منها: جعل يتمتم وهو ينتقي الكلمات ويلوِّح بيديه بحماس مشيراً إلى جبال الشاطئ أو إلى الغرب، باتجاه مدينة ساراتوف؛ وبطريق الخطأ أسقط أوراق إملاء اليوم في نهر الفولغا وتناثرت عبر المياه واختفت في مكان ما وراء مؤخرة الزورق. بدا قيصر خائراً وكَئِيباً وكأنه كان ينظر إلى سمكة تنبض في تشنجاتها الأخيرة. وواصل التجذيف.

– كفَّ عن هذا! أمسك باخ المجاذيف. – دعنا نعود إلى المزرعة!

توقف الرجل للحظة ودفع عنه يدَي الآخر (شعر باخ لأول مرة بمدى قوة قبضة القرغيزي) وتولى المجاذيف مرة أخرى.

شاهد باخ، وهو يلهث بسبب القلق والأفكار التي جاشت لديه، كيف تبتعد عنه بدفعاتٍ سلسلةُ التلال الصخرية الضاربة إلى البياض وكأنَّ القارب يندفع من دون اكتراث وبعناد شديد. هزّت الرياح الأشجار في الأعلى وساقتْ موجةً كبيرة في الأوراق التي اصفرَّت في بعض الأماكن من عهد قريب وفي مياه أيلول (سبتمبر) الكثيفة على حدّ سواء. وانسابت مئات من الموجات البيضاء المتكسرة على طول نهر الفولغا وكأنها قطيع من الضأن لا نهاية له على طول حقل هائل. كان القارب يتأرجح لكنَّ قيصر وجَّهه بيده الماهرة وقطعَ بالعارضة كلّ موجة تُقابله إلى نصفين. نزل باخ إلى الضفة بعد أنْ ضمَّ مجلَّد غوته إلى صدره، وهو غير عارفٍ ما إنْ كان شعوره بالبرد بسبب الريح أم بسبب إحساسه بالوحشة، ومن دون أنْ يلاحظ وجود رذاذ الرغوة الذي تناثر على وجهه وعلى كتفيه...

***

لم ينم الليل، كان يفكّر. وفي الصباح أسرعَ راكضاً مباشرة بعد أنْ دقَّ جرس الساعة السادسة إلى ديتريخ المختار ليطلب منه قارباً مع المراكبي. وبدلاً من الإجابة قاد ديتريخ ناظر المدرسة إلى النافذة وفتح الستائر بصمت فبدا الجوّ السيئ من خلف الزجاج المغطى برذاذ كثيف: فقد تراكمت السحب المشبعة برطوبة باردة على طول النهر، وكادت تتشبث به من خلال ذيولها الشعثاء، وكان المدّ عالياً ومتوتّراً إلى درجة لا يمكن معها أيّ كلام عن الخروج إلى نهر الفولغا. كان على باخ أنْ يشرح كلّ شيء بوضوح وأنْ يتكلَّم ويتوسل ويطلب في نهاية المطاف، لكنه لم يفعل شيئاً سوى أنْ تمتمَ بشيء ما من قبيل التوسل وتلعثم وبلع الكلمات. وعاد أدراجه خالي الوفاض.

ركض عبر الأفنية وحده، من دون المختار. طلب من كلّ شخص لديه حتى قارب صغير بسيط: من غاوف جزّار الخنازير وفاغنير الطحّان وابن الأرملة كوخ البدين وزوج إمّي البطيخة ومن بيول الحليق الشارب النحيل (كان ثمة بيول ذو الشارب أيضاً لكنه شرير للغاية إلى درجة يخشى المرء أنْ يحشر نفسه في شؤونه) وطلب من الكثيرين غيرهم. وكان يكرّر الكلمات نفسها ويضمِ يديه إلى صدره، كما لو كان يرغب في الضغط عليه حتى العمود الفقري نفسه، ويومئ برأسه قليلاً ويتطلع بعينيه ويبتسم بذلّةٍ. وكان كلّ واحد منهم يرفض طلبه قائلاً: «من الأفضل، يا ناظر المدرسة، ألّا تتحامق، واحترس لتُبقي نفسك لأطفالنا. لو غرقتَ هل ستعلِّم السمك في الأعماق القراءة والكتابة! هكذا!».

مشى متثاقلاً إلى المرسى وجلس هناك، وحده، غير آبهٍ بالرياح والرذاذ المتزايد. وشاهد كيف تضرب الموجات الرمادية الجبّارة الرصيف وكيف تغمره برغوة صفراء قذرة. وبسبب المطر والعتمة لم يرَ الشاطئ الآخر على الإطلاق.

لقد سُحِبت القوارب منذ الليلة الماضية إلى اليابسة والآن هي مطروحة على الرمال الرمادية وقيعانها إلى الأعلى. وعندما أصبحت القطرات

المتساقطة من السماء أثقل وبدأت تضرب على الخدين، ثاب باخ إلى نفسه وتسلّل تحت قارب مسطَّح القاع يعود لأحدهم مغطى بوفرة من الطحالب على الجانبين. جلس على الأرض محنيّ الظهر ومستنداً بقفاه على القعر. كان يستمع إلى ضرب المطر على الخشب ويعبثُ بأصابعه إلى ما لانهاية في الرمال الرطبة. ماذا سيحدث لو نقله الآن رجل جَسور إلى الضفة اليمنى؟ ماذا عساه أنْ يقول لأودو غريم وهو ينظر إلى الأعلى والأسفل نحو لحيته الضخمة وشاربه الكثّ؟ لم يجد باخ جواباً لذلك. ولكن لم يكن لديه القوة لمغادرة الشاطئ.

لم تهدأ الرياح لمدة يومين وخلال هذين اليومين كان باخ يذهب إلى غنادينتال من أجل دقّ الجرس فحسب. ويقضي بقية الوقت جالساً على الشاطئ ملتحفاً من البرد بمعطف قديم قصير من جلد الغنم. كان من الممكن خلال اليومين الوصول إلى ساراتوف، وركوب القطار والمغادرة إلى موسكو للتوجه فيما بعد إلى ألمانيا البعيدة.

وفي مساء اليوم الثالث، عندما أصبحت الأمواج أصغر وحركتها أقل عنفاً وتركتها الرغوة، وأطلَّت الشمس الشحيحة تتلألأ في السماء من بين الغيوم جاء بعض الصيادين إلى باخ المنحني على قارب مقلوب وقالوا له إنَّهم موافقون على أنْ «ينقلوا ناظر المدرسة إلى الجانب الآخر، طالما أنه مصرّ على الذهاب إلى هناك، ولكن غداً فقط، عندما تهدأ أمّنا الفولغا تماماً». لم يفعل باخ شيئاً سوى أنْ نظر إليهم فقط بعينيه الحزينتين وهزّ رأسه بصمت. فنظر الصيادون بعضهم إلى بعض، وهزّوا أكتافهم بلامبالاة، وذهبوا مبتعدين.

واصل الجلوس طويلاً، وهو ينظر إلى النهر (وشاهد الشريط الوردي الفاتح الذي ظهر على الضفة المقابلة في البُعد الرمادي) وإلى أشباح الجبال. وتذكر أنه لم ينَم من مدة طويلة. وأنَّ يوم غدٍ هو أول يوم من شهر أكتوبر (تشرين الأول)، بداية العام الدراسي. فنزل من جانب القارب ومشى إلى المنزل. خلال الأيام القليلة الماضية، أصابته القشعريرة

وارتجف كثيراً من البرد؛ فقد عانى من الحمى لساعات طوال، ولكن لم يكن لديه ما يدفّئ به الشقة سيجلب التلامذة الروثَ والحطبَ غداً وليس قبله.

وعندما اقترب من مبنى المدرسة لاحظ شخصاً عند المدخل كان أحدهم يجلس على الدرجات، صغيراً بلا حراك. وفجأة أصبح الجوّ حارّاً، ولكن لسبب ما لم تترك الرجفة جسمه، بل اشتدت.

وبعد أنْ سمع الشخص الخطوات في الظلام اختلجَ، وكأنه استيقظ، ونهضَ ببطء.

توقف باخ، قبل أنْ يصل إلى المدخل ببضع خطوات بعد أنْ أحسَّ بقطرة حارة تتدحرج إلى الأسفل على عموده الفقري. كان من غير الممكن في الظلام الدامس تمييز زائر الليل لم يُسمع منه إلّا التنفس، الخفيف والمتقطع، كما لو كان خائفاً.

– قيل لي إنَّ باخ ناظر المدرسة يسكن هنا. قال صوت مألوف بهدوء.

– مرحباً، يا كلارا، أجاب بشفتيه الجافّتين اللتَين لم تطاوعاه.

فتح الباب، فدخلت كلارا إلى المنزل.

-4-

في تلك الليلة، كذب عليها قائلاً إنَّ المصباح النفطي (الكيروسين) فارغ. لم يكن ثمة ضرورة لأن يشعل النور ويرى وجهها؛ فهذا ما لا يمكن أنْ يتحمله قلب باخ المتعب.

بإصرار من باخ خلعت كلارا ملابسها ونامت في الفراش تحت الغطاء الريشي الوحيد الموجود. وبينما استقرت كلارا في الغرفة، ذهب باخ إلى غرفة الصف وجعل يمشي جيئةً وذهاباً، متصوِّراً مغامراتها ومآسيها كلّها في هذا اليوم. لقد أخبرته كيف تركت والدها: في المحطة الأولى من طريق ساراتوف، انسلَّت من المقصورة التي أُمرت أنْ تمكث فيها طوال الطريق إلى موسكو (تيلدا نامت، بعد أنْ أرهقها اهتزاز القاطرة)، وغادرت العربة، من دون أنْ يناديها أحد. وسارت بسرعة إلى مكان ما، من دون أنْ تنظر إلى الخلف ولا أنْ ترفع عينيها، حتى وجدت نفسها بين العديد من أروقة التسوق والعربات والخيول والأشخاص الذين يتحدثون بلغة غير مألوفة. وبدأت تسأل عن الطريق المؤدي إلى غنادينتال، لم يفهمها أحد لمدة طويلة. وفي نهاية المطاف فهم رجل ذو لحية حمراء اسم المستوطنة في كلامها وتطوع لأخذها. لم يخدعها، لقد أوصَلَها: أولاً، بالعبّارة عبر نهر الفولغا، ثم في عربة على الضفة اليسرى إلى غنادينتال. وأخذ منها بدل أجرة النقل كيس السفر الخفيف الذي شدّته تيلدا الحريصة على حزام كلارا (لم تعرف كلارا مقدار النقود التي كانت فيه لأنها لم تنظر إلى داخله أبداً).

وبعد أنْ مشى في الفصل لمدة ساعة كاملة، أو ربما حتى ساعتين، وجد باخ أنَّ القشعريرة والإرهاق قد ذهبا من دون أثر. خلع حذاءه وشقّ طريقه إلى الغرفة، محاولاً عدم الصرير على ألواح الأرضية. لم يسمع نفس كلارا. وخشيةً من أنْ تكون قد اختفت أو لم تأتِ إلى غرفته الصغيرة المظلمة، بل تراءى له ذلك بسبب الحمى، اندفع سريعاً إلى النافذة، تعثر وأسقط الكرسي، فتح الستائر... هنا! لقد كانت هنا بالفعل قامتها بالكاد تُلاحَظ تحت الغطاء المندوف بالريش، وشعرها منشور على الوسادة، ووجها الذي لا يمكن تمييزه في عتمة الليل. اختلجت بسبب الضوضاء، وقلبت رأسها إلى الحائط، ونامت مجدّداً.

لم يدفع باخ الستارة. ورفع الكرسي بلطف ووضعه قرب السرير وجلس عليه. أسند كوعيه إلى ركبتيه ووضع ذقنه على راحتَي يديه المفتوحتين وبدأ ينظر إلى كلارا. لم يُرِد النوم، ولم يلاحظ أيّ إزعاج من جلسته الملتوية.

استُبدِلَ بالليلة السوداء غير المُقمِرَة صباحٌ معتِم. تشكّلت ملامح كلارا ببطء من الهواء الأزرق الكثيف: جعدة أذن صغيرة، مخطَّط إجمالي للخدّ، طرف الحاجب. هذه الملامح غير الواضحة، التي لم تُحَدَّد معالمها بسبب العتمة، كانت تثير الاضطراب أكثر مما تثيره الصورة الواضحة إذ يمكن رسم أيّ صورة منها. يتمنى باخ أنْ تطول لحظات عدم التكامل وعدم الإدراك، وتتأخر لحظة اللقاء إلى أقصى حدّ ممكن، وحتى إنه تذكر ببعض الارتياح أنه قد حان وقت قرع جرس الساعة السادسة.

لحسن الحظ، لم تستيقظ كلارا من الرنين، فجلس باخ إلى جانبها مدة أخرى. لقد دفَّأه القرب منها بشكل يثير الدهشة وحتى إنه فكَّ ياقة معطفه الرسمي. وفجأة لاحظ أنَّ القماش على الجانبين قد تآكل بالكامل، والأكمام تتطلب إصلاحاً آخَر. وحتى إنه جعل ينظر من حوله إلى شقته الآن، وكأنه يفعل ذلك بعيون غريب: الجدران التي لم تُبيَّض من مدة طويلة ظهرت فيها تشققات، هيكل الموقد المتكرش قد قسم المكان،

الخزانة التبنية المليئة بالكتب مركونة في الزاوية برجل مكسورة، وبدلاً عن الرِّجل وضِعَ حجر... الحق، إنَّ المرء ليخجل من مثل هذا السكن، وكان هو سيخجل بالتأكيد في غير هذه الحال، وسيخجل من معطفه الرسمي الرثّ، لكن الآن لم يكن ثمة مجال في روحه للإحراج، بل كان يقلقه اللقاء القادم.

لم تستيقظ كلارا في الساعة الثامنة، فذهب باخ إلى جناح التدريس من دون أن يرى وجهها. في استراحة الظهيرة لم يعد إلى الشقة فقد وجد لنفسه الكثير من الأشغال في غرفة الفصل: أنْ يشعل المواقد التي بردت، ويتحدث مع التلاميذ، ويلصق الكتب المدرسية الممزقة... أصلحت يداه أشياء لا نهاية لها، ونطقت شفتاه بآلاف الكلمات وكانت أذناه تسترقان السمع على نحو مرهف إلى ما كان يحدث خلف الجدار. كان ثمة هدوء.

بعد الدروس، وبعد أن شيّعَ آخِر تلميذ وأغلق باب مبنى المدرسة خلفه، أراد باخ في نهاية المطاف أنْ يذهب إلى منزله، ولكن بدلاً من ذلك، لسبب ما، جلس على مقعد التلاميذ في صف «الحمير» الأول، وجلس هكذا، بكلّ قوته يمسد براحتيه العرقتين القماش، حتى فتح الباب من النصف السكني: خرجت كلارا إليه بنفسها.

كانت جميلة جمالاً باهراً، جميلة، جمالها يتجاوز جميع حدود القياس. لا يمكن أنْ يكون باخ قد تصوَّر ملامحها، بفضل الخيال فقط، خاليةً من العيوب: رقة البشرة، ونعومة الشعر، وزرقة العينين، وبعثرة النمش على خديها. جلس على مقعد، مقوَّس الظَّهر، مصعوقاً من هذا الجمال، ولا يعرف ماذا يقول. فاقتربتْ منه وجلست إلى جانبه. جعلته نظرتها المتفحِّصة يشعر بعدم الارتياح والإحراج فتوقَّد خداه وبُصَيلات شعره وأحسَّ فجأة بالخجل: ليس بسبب معطفه الرسمي البائس وشقته المُعِيبة، بل بسبب الأسوأ من ذلك بكثير بسبب هشاشة ملامحه وقلة تعبيرها، وندرة الشعر على رأسه وارتخاء رقبته، ونظرة الالتماس المتكرّرة في عينيه التي تشبه نظرة الكلب. أراد باخ أنْ يغطي وجهه المُحمَرّ من

الخجل بيديه لكنه تذكر أظافره القذرة التي لم ينظفها لمدة ثلاثة أيام فحَطَّ يديه على عجل.

- ما العمل الآن؟ سألها عاجزاً، وهو يشيح بوجهه عنها.

- ألستُ أنا الآن زوجتك، أيها السيد ناظر المدرسة؟

استدار باخ بحدة، وكأنَّ أحدهم جَلَده بمسطرة الفصل على ظهره.

«لا تضحكي منّي يا كلارا! أراد أن يصرخ. - انظري إليَّ، انظري بعناية! وإنَّ شيئاً دفعه إلى أنْ يقفز إلى الأعلى ويمسكها من يديها ويسحبها إلى النافذة. - انظري وقولي الحق: هل حقّاً هذا الزوج الذي كنتِ تحلمين به؟»

وبدلاً من ذلك، لم يفعل شيئاً سوى أنه فتح فمه وأغلقه، تماماً مثل سمكة شبوط أُخرجت من الماء. الصحيح، أنه كان من المفترض أن يجثو على ركبتيه أو أنْ يقبِّل يدها أو أنْ يقوم بحركة لطيفة أخرى ولكن بدلاً من ذلك، ابتسم ابتسامة وجلةً، ثم تغضَّنَ، وبدأ يتمتم بشيء مشوَّش بالكاد يُسمَع وأومأ برأسه وتراجَع نحو الباب. واستند بظهره إليه، ودفعه بمؤخرته وقفز خارجاً للبحث عن القس هاندل.

* * *

غير أنَّ القس آدم هاندل رفض تزويج الشابَّين. فالصبيّة التي أتت من مكان ما إلى شقة ناظر المدرسة كانت صغيرة جدّاً لدرجة أن هناك شكوكاً حول أهليتها القانونية: هل بلغتْ حقّاً سنّ السابعة عشرة، كما زعمت؟ إذ لم يكن بحوزتها أيّ مستندات رسمية أو أوراق أخرى تثبت سنّها. والأهم من ذلك، لم يكن لديها شهادة سرّ التثبيت التي يحصل عليها كلّ مستوطن شاب، ولم يكن من الممكن التحقق من الجوهر المسيحي الخالص للفتاة. أجرى القس محادثة طويلة مع كلارا، واختبر معرفتها بالتعاليم المسيحية؛ خرج من الامتحان شاحباً وهو يعضّ على شفتيه بعناد شديد. وأوصى بالبحث على الفور عن والديها وتسليمهما «طفلتهما الطائشة».

وأمر بأنْ تنتقل كلارا مؤقتاً إلى المكتب الرعوي وتسكن هناك تحت إشراف زوجة القس العجوز حتى يُعثَر على والديها أو أيّ دليل آخر على حياتها السابقة.

للمرة الأولى في حياته قرّر باخ الاعتراض على هاندل، بعد أن احمرّ وجهه ورقبته وجعل يتلعثم على نحو مريع ومن دون أنْ يدرك ما الذي يحدث له، وأعلن أنَّ كلارا ستبقى في مبنى المدرسة. واقترح عليه الذهاب إلى الضفة اليمنى قبل أنْ يتغطى النهر بالجليد والتأكّد من وجود مزرعة عائلة كلارا، وربما العثور على آثار لأودو غريم. ومع ذلك، رفض المختار ديتريخ ذلك: فالجميع يعلمون أنَّ دخول أراضي الدير الكهنوتي لا يجوز، وأنّ تلال الضفة اليمنى منيعة تماماً، وأنه لم يكن هناك شيء سوى غابة كثيفة لا نهاية لها. ويعلم الجميع أيضاً أنَّ باخ ناظر المدرسة لديه تصرفات غريبة وأحياناً تصرفاته تشبه التهور، وبالتالي لا يمكن الوثوق بكلامه.

إنَّ خبر الآنسة الشابة، التي ظهرت في الليل بشكل مثير للعجب في مبنى المدرسة وسحرت باخ إلى حدّ جعلته يتخذ قراراً يتعارض مع قرار القس نفسه، قد أثار غضب أهالي غنادينتال الفضلاء. فذكّروا ناظر المدرسة في تلك اللحظة بكلّ شيء: المشي بدون هدف في المساء، والميل المستمرّ إلى الشعور بالوحدة، والنزهات الطائشة أثناء العواصف الرعدية كلّ ما تسامحوا معه ونسوه في الماضي انتُشِلَ الآن من أسفل الذاكرة وذُكِّرَ به: «كنتَ دائماً أحمق، والآن جُنِنْتَ تماماً!». إنَّ فكرة كون صبية في سنّ غير محدّد، ربما في سنّ بنات باخ لو كان له بنات، تقضي ليلة بعد ليلة في شقته، أصابت نساء غاندينتال بالغضب: وبدأت المستوطنة تعجّ بالحديث عن الآنسة المشكوك فيها وعن ناظر المدرسة العديم الأخلاق الذي خدع أهالي غنادينتال الفضلاء بحسن سريرته لسنوات عديدة.

في اليوم التالي، بعد الاختبار الذي أجراه القس هاندل، أخذ باخ كلارا

في نزهة ليريها غناديتال والأماكن المفضلة لديه في المنطقة. انتهت هذه المغامرة بشكل حزين: فكلّ من قابلهما ما إنْ يشاهدهما حتى يعبر إلى الجانب الآخر من الشارع بعيداً عن الزوجين المُتَهَتِّكَيْن ويتوقف وينظر إليهما نظرة ازدراء وفضول شديد، كما لو كان ينظر إلى سحلية برأسين أو سلطعون لديه أرجل حيوانية بدلاً من الملاقط. وتجمعت النسوة على شكل زمرٍ وكنَّ يحنينَ رؤوسهن ويلامسنَ خدود بعضهن بعضاً بأهداب قبعاتهنَّ ويهمسن بشيء ما ويلقينَ نظرة معبِّرة على الزوجين. وقبل أنْ يتجاوزا بعض الأفنية عن مبنى المدرسة، طلبت كلارا أنْ يعودا.

منذ ذلك اليوم، لم تغادر مبنى المدرسة: وأمضتْ أياماً طوالاً جالسة في غرفة باخ الصغيرة، تستمع إلى ما كان يحدث في الشارع. عندما كانت تسمع قرقعة عربة تقترب أو جَلَبَةَ أصوات أناس، تخبّئ وجهها براحتَي يديها؛ وعندما كانت العربة تبتعد ويمرّ الناس تنهض. شحُبَ خداها وذبلا، ورقَّت شفتاها واكتسبتا مسحة حزينة؛ والعكس من ذلك، ظهر في عينيها شيء ما بارد ورزين، وكأنهما تعيشان منفصلَتَيْن عن جسمها وتعودان إلى شخص آخر، أكبر سنّاً من كلارا وأكثر حكمة منها.

عندما قرّر أحد الحمقى، من أجل المزاح، أنْ يحدِّق من النافذة ويلقي نظرة فاحصة على «الآنسة الشهيرة»، توقف باخ عن سحب الستائر في الصباح. وعندما ألقى أحدهم كتلة من الطين من النافذة أغلق المصاريع، والآن في الغرفة شبه ظلام باستمرار. ومن المثير للدهشة أنَّ باخ أحب هذه الوضعية: فقد ذكّرته العتمة بالليلة الأولى مع كلارا.

في البداية، حاول أن يسليها بالأحاديث عن الكتب التي قرأها وعن الشخصيات التاريخية وعن طرائق نظم الشعر المعروفة للعلم. ولكنه ما إن لاحظ باخ نظرتها المتسائلة والحزينة والتي تُقرأ فيها الكآبة والأمل وبعض الطموح الخجول، حتى توقفت الأصوات في حلقه، وتعثَّرت الكلمات في فمه والأفكار في رأسه. تشوَّش وجعل يتمتم ثم صمتَ. ولم تعد الكتب والقادة مع الملوك وحتى أجمل القصائد الآن في وقتها ولا

في محلّها؛ لم يعرف باخ الحديث عن أيّ شيء آخر. بالإضافة إلى ذلك، كان لديه ثمة شعور بأنّ أحدهم قد كمن على الجانب الآخر من النافذة ملصقاً أذنه الفضولية على فجوة الدّرَف ووقف ساكناً. وهكذا خمدت قليلاً ثرثرته المشوَّشة لتحلّ محلّها الأحاديث الموجَزة الاعتيادية. وهَدَّأَ من روعه أنَّ ثمة الكثير من الكتب في المنزل إذ بإمكان كلارا أنْ تأخذ أيَّ كتاب منها وتسلّي نفسها بالقراءة: سواءً في الصباح عندما يكون مع تلاميذه في النصف الدراسي من مبنى المدرسة، أو في المساء عندما كان يعود إلى الشقة ويجلس، بعد أنْ يسند ظهره برفق إلى الموقد، ويتطلع إلى المرأة الحبيبة بهيامٍ.

اغتمَّ كثيراً لآمال كلارا التي خابت. شعر باخ بالذنب، وشعر في الوقت نفسه بأنه سعيد، سعيد للغاية: لأنه يمكن أن يراها ويسمع صوتها، بل وحتى أحياناً (عندما يساعدها في رفع القدر من الفرن أو كتاب من خزانة الكتب) يلمس كوعها. كان يؤلِمه أنْ يرى كلارا جالسة لعدة ساعات على السرير منقبضة الصدر ذابلة العينين، لكن بعضاً من روحه كان فرِحاً بسجنها لأنه يستأثر بها وحده فقط. كان يؤلمه سماع مَلامَة أهالي غنادينتال، كان ينكمش تحت نظراتهم التأنيبية ويذبل، مدركاً عدم وضوح سلوكه وتضايقه منه؛ ولكن بمجرد أنْ يفتح الباب ويدخل إلى الغرفة المشبعة بشذا شَعر كلارا الذي بالكاد يُلاحَظ ويَسمع حفيف ثوبها ويرى ملامحها التي يسترها الظلام حتى تختفي من دون أثر فكرةُ شعوره بالذنب وتفسح المجال للبهجة والإلهام: فقد شَعرَ بجانب كلارا بالقوة والهيمنة، كما لو كان في وسط عاصفة رعدية، كما لو كان دمه مليئاً بشحنات كهرباء الربيع المُحرِقة. وقد أدركَ أنَّ كلارا لا تشاركه بهجته هذه. وأدركَ أيضاً أنها لم تعد قادرة على الاستمرار بهذه الطريقة لا بدّ من أنْ يكسر شيء ما من هذه الحكاية العبثية التي طالت.

لقد تفاقمت الشائعات وازداد حجمها كالعجين المختمر. سواء أشاعتها روح شخص ما شريرة عن قصد، أو أنها نشأت من تلقاء نفسها،

مثلما يظهر في بعض الأحيان حتى لدى المسيحي الفاضل قمل بَغِيض كما يُقال. كانت الشائعات كثيرة ومتنوعة وتحتوي على تفاصيل موثوقة لا يمكن إلّا أنْ تُصَدَّق! همسَ بعضهم أنَّ اسم الصبية ليس كلارا، بل كونيغوندا. وأنها ليست سوى ابنة باخ السرية التي أهلكَ أمها الجميلة في البداية، ويريد الآن الزواج من ابنته الفعلية؛ وأنها جميلة من هامة رأسها إلى سرّتها، ومن السرّة إلى الكعبين مغطاة بشعر أسود خشن مثل أشواك القنفذ؛ وأنَّ اسمها على الإطلاق ليس كونيغوندا، بل كاكيليّا؛ وأنها تحمل في جورب ساقها اليمنى باستمرار غصن صفصاف مقطوعاً حديثاً ولا أحد يعرف السبب؛ وأنَّ اسمها ليس كاكيليّا على الإطلاق، إذ لم يُطلِق عليها أحد أيّ اسم على العموم، وعاشت البنت حتى هذا الخريف بلا اسم، مقيدةً بالسلاسل إلى بئر في أسفل وادٍ بعيد.

وقالوا عن ناظر المدرسة إنه خلال جولاته المسائية يقف على ركبتيه عند ساقية الجندي، ويخفض وجهه إلى الماء ويلعق بنهم مثل الكلب؛ وإنه يحفر الأرض بيديه في مدفن الماشية بالقرب من واديً الثيران الثلاثة وبهذه التربة يمسح جدران شقته؛ وإنه يعرف اللغة التركية (هذه الحقيقة بدت مثيرة للشك للغاية)؛ وإنه ظلّ لسنوات عديدة يحتفظ بأسيرة في مخبأ محفور في أرض السهب والآن يريد أن يتزوجها ويهاجر إلى البرازيل.

وفي حالات منفردة كان بعضهم، عندما يُخرِجون الأطفال من المنزل وبعد أنْ يخفضوا أصواتهم إلى الهمس الساخن، يتحدثون عن البذاءات التي تحدث في مبنى المدرسة في الليل؛ وبحلول نهاية الخريف، وصلت هذه الشائعات إلى الذروة وأُشبِعَت بتفاصيل متنوِّعَة لدرجة أنَّ القس هاندل، الذي سمعها عن غير قصد، خصص ثلاثاً من خطَب الأحد على التوالي لخطيئة الغيبة وتشويه السمعة.

* * *

أول مَن رفض أنْ يأخذ أطفاله إلى المدرسة هي إمّي البطيخة. وبعد ثلاثة أيام، لم يحضر أيّ طفل إلى الفصل في الصباح. وبعد أسبوع، بعد أن

انتهى الرجال من ذبح الخنازير وصنع النقانق لفصل الشتاء وبعد أنْ ذبحوا معظم الدواجن ووضعوا بعناية الذبائح التي نُتِفَت ونُظِّفَت من الأحشاء في المجلدات المنزلية، تجمهروا في محل تجمع فلّاحي القرية، الذي كان يحدث عادةً في مبنى المدرسة، وطالبوا المختار ديتريخ بمعلم جديد لمدرسة غنادينتال.

حلَّت أيام نهاية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) صقيعيّة وكثيرة الثلج. كانت الطرق مغطاة بالثلج والشوارع مهجورة، وكانت زلاجات قليلة تغادر المستوطنات وتجمدت القرى قرب حلول عيد الميلاد. وفي هذا الوقت، كان العثور على ناظر جديد للمدرسة أمراً ميئوساً منه، ومع ذلك، بدأت مناقشة ساخنة. إما أن موضوع النقاش قد سخَّن دماء الرجال أو المعرفة بوجود ثمة موضوع للنقاش (الصبية النمشاء ذات العيون البريئة والأنف الأفطس) خلف الجدار في الشقة الصغيرة، وبدت أصواتهم في ذلك المساء وكأنها تصم الآذان مما حدا بالمختار إلى أنْ يطرق بالمسطرة على الكرسي ثلاث مرات، داعياً إلى الهدوء.

– لقد قتلت الحرب ابننا البكر ووقع الأوسطان في الأسر، أما الأصغر فلا يمكننا حتى أنْ نعلمه بشكل متحضر في المدرسة: زوجتي تخشى أن تتركه يذهب إلى المدرسة في الصباح! هل ينبغي السكوت عن هذا الأمر؟ صاح كول الصغير النحيف.

وقال بيول ذو الشوارب المتجهِّم: – ليجتمع أهل القرية كلّهم وليُحضروا البنت من المدرسة، بالقوة! وليُزَجّ بها في القبو عند القس ولا تُعطى أكلاً لمدة ثلاثة أيام لتسهيل توبتها! أما ناظر المدرسة فلنطلِقه يركض حافي القدمين حول غنادينتال ليلاً! وننظر هل سيغيّر رأيه!

– أنْ يُنفيا كلاهما! أنْ يُطرَدا إلى ثلج نهر الفولغا مع حاجياتهما وليذهبا أينما يريدان! وليكن حتى إلى مستوطنة مجاورة أو حتى إلى البرازيل نفسها! قال غاوس الذي يجيب بالإيجاب إلى الأبد.

– أين يمكنني أنْ أعثر لكم على ناظر مدرسة جديد في منتصف فصل

الشتاء؟ هل أصنعه من الثلج؟! عندما كان باخ يعيش وحده كان يعرف عمله. دعوه يستمرّ في العيش وحده. ودعوه يعلم الأطفال! أما بخصوص المعتوهة ذات القبعة السوداء الشبيهة بالقدر فلا يهمّ وجودها. القليل من القذارة لن يضرّ! قال المختار ديتريخ.

وقرّروا أن يطلبوا من القس هاندل تولي التدريس في المدرسة قبل عيد الميلاد، وأن يُطلب من ناظر المدرسة الضال لآخر مرة أنْ يغيّر آراءه وأنْ يعود إلى كنف المجتمع، وأنْ يسلِّم البنت كلارا إلى أيدي الكنيسة، ويستأنف مهامه مرة أخرى من بداية شهر يناير (كانون الثاني).

جلس باخ إلى جانب الموقد الصغير بلامبالاة طوال المساء: كان يسمع كلام المتجمعين، لكن عينيه لم تنظرا إلّا إلى وميض النار. وعندما سُئِل عن ردّه على الكلام الذي طُرِحَ في الاجتماع، تغضَّن وهزَّ كتفيه تجاهلاً وقال: «ليس لديَّ شيء أقوله». فذهب المجتمعون، وبقي هو وحده.

عاد إلى الشقة. كانت كلارا واقفة بجانب الموقد، وقد ضغطت بخدها عليه. فهي، بالطبع، سمعت كلّ شيء، حتى آخر كلمة، فقد كان الجدار الفاصل بين نصفي مبنى المدرسة السكني والدراسي رقيقاً مبنيّاً من الخشب.

«ماذا عسانا أنْ نعمل الآن؟» أراد أنْ يسألها، كما فعل قبل عدة أسابيع، لكنه لم يجرؤ.

حاول ألّا يثير ضجة، وألقى معطفه الفرو القصير القديم على الموقد (كان قد تنازل عن السرير لكلارا منذ اليوم الأول) واستلقى ولفَّ نفسه مثل الكعكة المبرومة. وحتى هو نفسه لم يلاحظ كيف غفا.

استيقظ بسبب إحساسه: أنَّ كلارا لم تكن في الغرفة.

– كلارا!

قفز، ونظر حوله: مصباح الكيروسين ينير الغرفة الفارغة. كاد أنْ يقع على الموقد، لكنه استدار بحركة معوجَّة فسقط ورضَّ مرفقه.

– كلارا!

اندفع متخبِّطاً وراء الموقد لم يرَ أحداً.

نظرَ في الفصل لم يرَ أحداً.

ركض إلى المدخل: لم يرَ أحداً.

- كلارا!

ضربته الريح في صدره، وخدشت نُتفُ الثلج كالإبر جبهته. وبعد أن اقشعرَّ جسمه من البرد عاد باخ مسرعاً إلى الشقة، ونظر إلى المسمار عند الباب فوجده فارغاً: فأيقنَ أنَّ كلارا قد غادرت مرتديةً كنزتها (بدون أكمام) الوحيدة الكتانية المبطَّنة بقطن خفيف. ارتدى معطفه الفرو القصير واعتمر بإهمال قبعته الفرو المتدلية على الأذنين ودسَّ قدميه في حذائه اللباد وأمسك بسرعة في حضنه الغطاء المحشوّ بريش البط (لكي يدثِّر به كلارا) وخرج راكضاً في الليل.

ارتفع القمر في السماء أصفَرَ خافِتاً وبدا الثلج على ضوئه وكأنه كتل من الزبدة. امتدَّ بانحرافٍ عبر الساحة كلّها، ظلُّ برج جرس الكنيسة كشريط أسود. وتناثرت من مدخل مبنى المدرسة آثارٌ كثيرة وفي جميع الاتجاهات: فقد زار نصف سكان القرية التجمعَ اليوم. تجمد باخ للحظة، ثم تحول نحو نهر الفولغا. لم يعرف السبب، لكن بدا له أنَّ هذا هو التصرف الصحيح.

سار باخ ممسكاً بالغطاء الريشي الضخم الذي حجب رؤية الطريق عنه ومبتلعاً الثلج الوخّاز ومتعثراً بين الحين والآخر بحافّات الغطاء الريشي التي تسقط من يديه، حتى تجاوز بصعوبة المنازل المظلمة المغطّاة بركام الثلج وساحة السوق ذات أشجار الدردار العالية الثلاث والدكاكين المنزوية تحتها وخرزة البئر وحانوتَي بيع الشموع والكيروسين (النفط الأبيض) وأخيراً وجد نفسه على الشاطئ.

نظر حوله: نصف العالم سماء خضراء داكنة، والنصف الآخر غطاء ثلجي أصفر على النهر. ورأى ظِلّاً بالكاد يمكن ملاحظته مغموراً بالثلج إلى الخصر ويمشي متثاقلاً: إنها كلارا.

مشى على آثار خطواتها. فلحقها بسرعة: فهو لا زال أقوى منها قليلاً.

وبعد أن لحق بها، ألقى الغطاء على متنها. لم تقاوم كلارا. وسارا معاً إلى الأمام. قال لها إنه سيمشي أولاً، إذ إنَّ تمهيد الطريق في كثبان الثلج أصعب من السير على آثار الأقدام. فلم تعارضه كلارا.

كان يمشي على الثلج الموحِل ويشعر بجسمه كيف بدأ يدفأ بسبب الجهد وكيف تسخن يداه. لم يسأل إلى أين هما ذاهبان؟ فقد عرف: إنهما يذهبان إلى الضفة اليمنى إلى المزرعة، إلى المنزل.

لقد بقي في مكان ما على الضفة اليسرى ثمة فصل دراسي، لا زال مليئاً بأنفاس الرجال الغاضبين الثقيلة، وشقة غير مقفلة وخشب في الموقد لم يحترق بعد، وكتاب صغير في غلاف من الورق المقوى لم تكتمل قراءته، ومعطف رسمي غير مكتمل الرَّفْو، وبقعة طينية على الزجاج يغطيها الندى المُثلِج، وبقايا من عصيدة في القِدر وملعقتان من الكيروسين في المصباح ربما هذا كلّ شيء.

-5-

لقد كانت المزرعة تنتظرهما: المنزل الغارق في الثلج حتى النوافذ، أطلَّ كئيباً بمصاريعٍ مغلقةٍ، وتطاولت أشجارُ التفاح مستغيثةً من تحت الركام بغصونٍ مكسوّة بالثلج. أوقد باخ وكلارا على ضوء النجومِ النارَ في الموقد (بقيت بعض قرم الخشب في عنبر الحطب) وقاما بغلي الثلج في إبريق الشاي وارتويا من الماء الساخن وناما قليلاً من الوقت بالقرب من النار مُنهَكين من التعب.

استيقظ باخ من الضوء الساطع: اخترقت أشعة الشمس المنزل (من غرفة نوم الصبية عبر غرفة الضيوف إلى المطبخ الصغير الضيق ذي الموقد الضخم في الوسط) وكانت كلارا قد استيقظت قبل هذا الوقت وفتحت جميع المصاريع. وهكذا، بدأ باخ وكلارا يعيشان في هذا المنزل بعد أن دفآه حجرةً بعد حجرة وشبراً بعد شبر.

لم يكن هذا المنزل الضخم من الخارج فسيحاً للغاية من الداخل، وكأنَّ المساحة بأكملها التهمها السُّمْك غير العادي لجذوع الجدران التي كان كلّ جذع منها أوسع من باخ الخائر ومن كلارا الهزيلة معاً. كانت الغرفة الكبيرة الوحيدة هي غرفة الضيوف التي تشعبت منها على الجوانب ثلاث غرف نوم: غرفة الصبية وغرفة غريم وغرفة تيلدا (كان الخدم القرغيزيون ينامون في الحظيرة، حيث لديهم ثمة موقد خاص بهم). أُطِّرَتْ بستائرٍ من القطن الأبيضِ نوافذُ غرفة الضيوف التي تغطَّت بطبقة سميكة بيضاء من الندى المتجمّد. وتراءت على عتبات النوافذ الفسيحة الشمعدانات

المعتمة. وفي الزوايا كانت ثمة مساند من الحديد الزهر لأعواد الإشعال، ومقاعد ظهورها منحوتة وكراسي من القش ذات مَساند، ومقعد طويل غير مصبوغ مغطى بحصيرة من القنب ممدود على جدار الموقد (يُشعَل الموقد من المطبخ ويطلّ جانبه العريض على الغرفة ملتصقاً بالبلاط الأحمر، ويبدو أشبه بكعكة العسل). وعلى الجدران الخشبية توزعت بألوان مختلفةٍ أكياسٌ حيكتْ على شكل جيوب للمقاصّ وللكتاب المقدس وبساط حريري مطرَّز عليه بمهارة القول المأثور «العمل زينة الحياة». كانت الأرضية الترابية قد كُنِسَتْ بعناية ونُثِرَت بالرمال، كما لو أنَّ مكنسة تيلدا المتمرسة مرَّت عليها بالأمس.

كانت غرفة نوم تيلدا ضيقة للغاية لدرجة أنَّها لا تتسع إلّا لشخص هزيل جدّاً وحذرٍ في الحركة. لقد شغلَ المساحةَ كلّها تقريباً سريرٌ ضخم ذو مساند من شرائح خشبية وأرجل مقوّسَة بشدَّة. وضِع تحته اثنان من الصناديق الضخمة فيهما ملابس قديمة مخزَّنة بعناية وأشياء أخرى من سقط المتاع؛ ولكي يمكن سحبها إلى النور، كان على المرء أن يجثو على ركبتيه وأنْ يجرّ بكلّ ما أوتي من قوة الحلقات الحديدية المثبّتَة بالمسامير على جوانب الصندوقين المنتفخة، وبمجرَّد أن يفعل ذلك حتى تدبّ الكائنات المستوطنة تحت السرير لتخرج على مضض وهي تصرّ صريراً خافتاً وتترك خلفها أخاديد طويلة على الأرض الترابية. ولا يمكن فتح الصناديق إلّا بعد الصعود على السرير، أصبحت الغرفة مزدحمة جدّاً بوجودهما. اندهش باخ من شدة حرص الخادمة: كانت في خزانتها ثمة وفرة من تلك الملابس التي يمكن أن تكفي، في الواقع، لجميع نساء غنادينتال تماماً. ووضِعَت مع الملابس في الصندوق أكياس صغيرة مليئة بنبات الشيح المرّ طبقة تلو طبقة وذلك لتجنب حشرة العثّة المنزلية الشرهة: وشملت الملابس سراويل كتانية قصيرة ذات أربطة جلدية تحت الركبة؛ وسترات صوفية بصدرَين رجالية ونسائية ذات صفَّيْن من الأزرار المعدنية والعاجية والزجاجية؛ وكنزات (من دون أكمام) قطنية

ومبطَّنة بالقطن وذات ياقات من القطيفة؛ وجوارب مخططة ذات ألوان ساطعة متنوعة؛ وقلنسوات من قماش البازة سميكة وخفيفة ذات حواف من الدانتيل وشرائط طويلة؛ وتنانير من الصوف ومن القطن الرديء متعدّدة الطبقات مطرزة بالدانتيل الملون... كانت هذه الأشياء من الطراز القديم الذي يصلح لتمثيليات عيد الميلاد أكثر منه للاستعمال اليومي: لأنها كانت قديمة جدّاً ومخيطة وفقاً للنمط القديم. كان سرير تيلدا مغطًى بفراش أسود خفيف من الدانتيل الخيطي، وارتفعت على شكل أهرام أكداسٌ من وسائد لا تعدّ ولا تحصى مكسوَّة بأكياس ملوَّنة مطرَّزة بصلبان. وقد رُكِنَ عند مدخل الغرفة المقعدُ ذو المسند المنحوت وعجلة الغزل الحمراء المألوفَان لباخ، وعُلِّقَت بمسامير نحاسية على الجدران مثل زينة الأعياد الأدواتُ الأخرى: مغازل لتجديل الدانتيل، وحزم من إبر الحياكة والسنانير، وفرش للصوف لا حصر لها، وأمشاط وبكرات من جميع الأحجام الممكنة. في كلّ مرة يدخل فيها باخ إلى غرفة نوم تيلدا، يبدو له أنَّ الغرفة أصبحت أضيق بنصف شبر، وأقصر بشبر.

وعلى النقيض من ذلك، كانت غرفة كلارا مضاءة وواسعة فالمساحة الخالية من الألوان الزاهية كانت نظيفة ومرتَّبة، مثل صاحبتها: سرير من دون أيّ تجعّد مركون إلى أحد الجدران، وخزانة ذات أدراج للبياضات إلى الجدار الآخر، وحصيرة من القش على الأرض بينهما هذا هو الوضع برمّته. كان باخ في البداية محرجاً من الدخول إلى هنا. ومن ثمَّ، بعد أن اعتاد وتشجَّع، رأى على الجدران الخشبية المعالَجة بالصنفَرَة جيّداً شيئاً جعله يجثو على ركبتيه ويقضي نصف اليوم زحفاً حول الغرفة من زاوية إلى أخرى داسّاً أنفه في كلّ جذع. كانت جميع الجذوع مغطاة بكتابات فقد خدشت كلارا بظفرها الرقيق آلاف الكلمات على الخشب الذي جعل الزمنُ لونَه داكناً: وجد باخ من بينها مقاطع شعرية وكلمات مركّبة من الإملاءات وبعض الأسئلة التي كتبتها كلارا له في مجلّد غوته، وعبارات من حوارات الصيف، واسمه الشخصي مكرَّراً مئة مرة كاملة.

غطّت الكلمات والحروف جميع الجدران، من الأرض وحتى السقف تقريباً. كانت ثمة أخطاء قليلة على الأرجح، كتبت كلارا «مذكراتها» المشوّشة طوال الصيف الماضي: لم تكن ثمة أوراق للكتابة في المزرعة، ولم يخطر ببال باخ أن يترك لتلميذته بعض الأوراق للتمارين الذاتية. لهذا السبب كتبت على الجدران. كان هذا النقش الباهت لا يُرى إلّا بوجود الإنارة الجيدة ومن مسافة قريبة جدّاً؛ ومن غير المحتمل أن يكون كلّ من تيلدا الكئيبة أو أودو غريم المشغول دائماً قد لاحظ تلك الكتابات.

غريم نفسه كان يسكن خلف الجدار. فقد كان يدفّئ غرفته وغرفة كلارا من خلال موقد آخر يوقَد من جانب غرفة نوم الوالد. حاول باخ أن يتواجد هناك أقلَّ ما يمكن عندما يضع الحطب في الموقد أو عندما يأخذ شيئاً ضروريّاً من خزانة الملابس الضخمة فحسب. أثارَ الأثاث الثقيل والداكن في غرفة السيد (السجاد التتري الأخضر الغامق على الجدران، والسرير تحت مظلة نسيج النُّجود، والسماور النحاسي الأحمر الضخم على حافة النافذة) لدى باخ، شعوراً بخجل غريب، وكأنَّ هذا ليس سجاداً أو سماوراً، بل أودو غريم نفسه وهو ينظر إليه نظرة امتعاض وعتاب. لذلك، نام باخ على دكةٍ في غرفة الضيوف، منعزلاً في الليل من أجل الحشمة بالستارة المألوفة له.

بقي كلّ شيء في المنزل على حاله كما يتذكره باخ من زياراته الصيفية، ربما، باستثناء اختفاء العارضة التي كانت تحتوي على غلايين السيد وصورتين بإطارات سوداء مطلية بالورنيش من على الجدران. بدا المنزل مسكوناً، كما لو أنَّ أصحابه لم يتركوه مطلقاً. فسَّرت كلارا ذلك: لم يُسمح لها هي وتيلدا إلّا بأخذ الأشياء الضرورية والعزيزة على القلب، لذا، بقيت في المنزل معظم الأمتعة، بما في ذلك الملابس والأواني والأثاث. قبل مغادرته، كلّف والدها أحد سكان ساراتوف برعاية المزرعة، الذي تعهد بزيارتها والاهتمام بتدبير شؤونها إلى أنْ تستقر أمور غريم في ألمانيا ثم يبيعها مع جميع الأثاث والمعدات المنزلية وغيرها من الممتلكات. في

البداية، كان باخ وكلارا ينتظران ذلك الرجل من يومٍ إلى آخر، لكن لسبب ما لم تكن ثمة أخبار منه. مرّ الشتاء، ثم الربيع، وحلَّ الصيف لكن الرجل لم يأتِ أبداً لزيارة المزرعة الموكلة إليه. ثم توقفا عن الانتظار. ولم يعلن أودو غريم عن البحث عن ابنته المفقودة. «ربما، أطلقَ اللعنات»، علَّقت كلارا على الأمر ذات مرة.

بدت وكأنها قبلت بهدوء العودة إلى المزرعة وظلّ وجهها يحتفظ بهذا التعبير الغامض الذي لاحظه فيها خلال الشهرين اللذين قضاهما قابعاً في مبنى المدرسة. طمأن باخ نفسَه: ربما، كان هذا تعبيرها المعتاد. لكن الحسّ المرهَف والارتجاف بصوتها اللذين أسراه في البداية، كانا منسجمَيْن مع الحزم في الشخصية والإرادة القوية: لم تتذمّر أبداً، ولم تعاتِب على أيّ شيء، على الرغم من أنه كان مستعِدّاً للّوم ويتوقَّعه، بل كان يودّ لو يسأل المغفرة، بعد أنْ يقبِّل يديها ويدسّ بخجلٍ جبهته في المريول المخطط الذي ورثه عن العجوز تيلدا. لكن كلارا كانت صامتة. وتفوّهت مرة واحدة وقالت: «كم أنا آسفة لأنني لم أفكر آنذاك في كلّ شيء كما ينبغي: في المحطة والسوق والناس الغرباء والرجل ذي اللحية الحمراء...». وبعد ذلك لم تذكر هذا الأمر مطلقاً.

ثم جعلا يتحدثان قليلاً. فكلّ شيء لا يتطلب كلمات كانا يفعلانه بصمت: من خلال نظرة أو إشارة من الرأس. إذ ليس ثمة مسوّغ للقول، على سبيل المثال، إنَّ صيد الأسماك اليوم كان ناجحاً وعاد علينا بشبّوطين كبيرين، إذا كان هذان الشبوطان هنا، مطروحَين في السلة، تتلألأ قشورهما؟ أو أنه ينبغي جمع التفاح الذي تساقط أثناء الليل قبل أنْ تقرضه الفئران إذا كان هذا التفاح يزهو أحمر من خلال العشب، وبالإمكان رؤيته من الشرفة؟ أو دَبَّ النخر في سقف مخزن الحبوب؟ وأنه ينبغي رتق سروال باخ الذي تآكل عند الركبتين؟ وأنه هو نفسه قد تعافى من نزلة البرد الأخيرة؟ وأنه رأى كلارا اليوم في الحلم كما البارحة وقبل عدة أيام في تنورتها الصوفية المعتادة ذات الحياكة المنزلية وقلنسوتها البيضاء،

وإنه سعيد بهذا الحلم؟ كانت الحياة واضحة وبسيطة وبمتناول اليد. إنها حياة صافية وملموسة ومليئة بالألوان والروائح. فالشّح بالكلام، الذي اتفق عليه باخ وكلارا فيما بينهما صمتاً، جعل هذه الحياة أكثر واقعية، وأعطى الكلمات نفسها ثقلاً.

والغريب في الأمر أنَّ الكلمات نفسها صارت تُسمَع بشكل مختلف الآن. فالقصائد التي كان باخ يقرؤها أحياناً في المساء، وهو يقف بجانب كلارا على الجرف وينظر إلى موجات الفولغا التي تضرب في الأسفل بعيداً، صدحت واضحة وقوية للغاية وكأنه كتبها بالحبر الأسود على سماء الغروب المتوهِّجة، وكأنه طرَّزها بالذهب والأحجار الكريمة على كتان خشن. ونصوص الأغاني القصيرة والأناشيد التي غنّتها كلارا وجميع الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة والطرائف والمأثورات العامية التي كانت تردّدها، عكس ذلك، كانت قريبة ومتلائمة مع المزرعة مثل الأعشاب أو خيوط العنكبوت الموجودة في كلّ مكان، ومثل رائحة الماء والحجارة؛ فقد جرت على إيقاع هذه الحياة المنعزلة ونشأت منها، لذلك لم يرغب بتصحيح كلام كلارا. أحبَّ باخ الاستماع إليها كالسابق، لكنه يستمع إليها الآن من دون مقاطعة وحتى إنه اعتاد على أنْ يجد جمالاً معيناً في اللهجة. وجعل يطلب من كلارا، كما فعل من قبل، أن تحكي له حكايات وقد حكت له باجتهاد، للمرة الأولى والثانية والعاشرة: عن الحطابين وصيّادي الأسماك، وعن منظِّفي المداخن والبساتنة، وعن التفاح الذهبي والأسماك الفضية التي تتكلم... وفي بعض الأحيان كان يبدو له أنها تتحدث عن المزرعة وعنهما نفسيهما.

وكان باخ الآن هو الحطاب وصيّاد السمك ومنظِّف المداخن والبستاني. لقد تعلم كلّ شيء: تقطيع الأشجار واصطياد الأرانب في الشَّرَك وغلي القار وسكب ذلك المغلي منه على الأجزاء المثقوبة والتالفة في قاع القارب، وترقيع السقف بالقش، وسدَّ التشققات في الأرضية بالطين، وتنظيف البئر، وتبييض سيقان أشجار التفاح بالجير

في بداية العام وتغطيتها بالخِرَق والقَصَب في نهايته. لقد تعلَّمَ كلّ ما هو مطلوب حقّاً للحياة. بعض الأشياء تعلَّمَها بنفسه، وعلَّمَته كلارا أشياءَ أخرى كثيرة. وإنْ كانت يداه غير بارعتين وحركاته خرقاء وأصابعه ضعيفة، ولكن كلّ عمل ينجزه يجلب معه فرحة، كما لو أنَّ باخ لم يكن رجلاً بالغاً، بل طفلاً يتعلم لأول مرة كيفية صنع منازل من الطين للجنود الدمى أو يبني لهم قلاعاً منيعة من القش. لم تكن في البدء الكلمة، بل كان العمل ربما أدركَ ذلك الآن.

سرعان ما تهرّأت السترة البالية والسروال الرَّث اللذان جاء فيهما باخ إلى المزرعة بسبب أعمال الفلاحة. ضيَّقت له كلارا بالخياطة العديد من الملابس البسيطة من صناديق تيلدا العميقة: قمصان عريضة من الكتان غير المبيض ذات ياقات مقلوبة وأكمام واسعة متغضِّنة (مُكَشْكَشَة) عند الرسغ؛ وسراويل واسعة من دون أزرار وذات أربطة. صار باخ، في جميع الأجواء المناخية، يرتدي فوقه سترةً من الفرو بلا أكمام ذات صفين من الأزرار تركها أحد القرغيزيين كان عندما يرتديها يشعر بالدفء حتى في أشد الرياح؛ وكان ينزعها عنه في الصيف فقط، في الحَرّ. لقد أحبَّ باخ هذه الملابس المتنوعة الألوان والأنواع والمعَدَّلَة بطريقة ما وفقاً لحجمه الضئيل، وكان فيها ثمة معنى عميق مخفيّ: الآن صار هو نفسه في المزرعة أودو غريم وقيصر وجميع القرغيزيين الآخرين مجتمعين. لقد كان هو السيد والعامل وصياد السمك. والحقيقة، أنه لم يصبح قنّاصاً يصيد الحيوانات البرية، وذلك لعدم وجود بندقية في المنزل، ولكن هذا من حسن حظّه إذ من المستبعد أنْ يتعلّم باخ إطلاق النار.

وسرعان ما تخشّنت يداه، وزاد حجم كفّيه قليلاً وأصبحتا أثقل؛ ولم يعد يشعر بالحرج من أظافره المتكسرة ومن التراب الداخل في جلده. وطالَ شعر لحيته خفيفاً وناعماً مثل ذيل العجل، لأنه لم يجد ثمة شفرات حلاقة في المزرعة. لعلّ اللحية لم تلبَق له، لكنه ربما لم يكن يعرف ذلك: فهو لم يرَ انعكاس صورته إلّا في دلو الماء إذ لم يكن ثمة مرايا في

المزرعة. وعندما غطى الشعر غير المحلوق أذنيه ورقبته، بدأ يَشدّه على ظهره كالحبل حتى لا يعيق حركته أثناء العمل، وعندما غطى كتفيه جَمَعَه على شكل جديلة، على الطريقة القرغيزية.

لقد فقد ساعة الجيب بسبب الإهمال (سقطت منه في نهر الفولغا أثناء صيد الأسماك)، ولهذا بدأ يقيس الوقت الآن ليس بالدقائق، بل بسقوط الندى الصباحي والندى المسائي، وبحركة النجوم في السماء ومراحل القمر وبالثلج المتساقط وبسُمْك طبقة الجليد في النهر، وبظهور الأزهار في أشجار التفاح وبطيران أسراب الطيور فوق السهب. والوقت نفسه بدا له أنه يجري بشكل مختلف في المزرعة. ربما، كان جريانه في الأماكن الأخرى في مكان ما في بطرسبورغ أو في ساراتوف، بل وحتى في غنادينتال نفسها لا زال سريعاً وحيويّاً. أما هنا، في بيئة أشجار البلوط التي عمرها مئة عام، وفي ظلّ أشجار التفاح المثمرة دائماً، وفي جدران المنزل المتين غير المُعَرَّض لتأثير الرياح والأمطار المدمِّر، لم يتباطأ هذا الجريان، بل صار بالكاد يمكن ملاحظته، واختفى تقريباً كما يختفي حتى جريان الماء السريع في الخور (الخليج النهري الصغير) العميق عندما يكون مكتظّاً بالطحلب البطّي والقصب.

استيقظ باخ في الساعة نفسها فقد حافظ على عادة النهوض قُبيل الساعة السادسة. وبعد أن يفتح عينيه كان يتذكر في بعض الأحيان أنَّ في تلك اللحظات يدقّ جرس المدرسة في غنادينتال؛ لكن هذه الفكرة لم تُثِر فيه أيّ شيء سوى لامبالاة بسيطة. وكان يذهب إلى السرير عندما يشعر بالتعب. أصبح جسد باخ بالنسبة له ساعةً أفضل بكثير من الساعة الميكانيكية التي فقدها بين الأمواج. ولاحظ أنه أصبح ينام نوماً عميقاً أكثر بكثير مما كان عليه في السابق، ويأكل بسرعة أكبر وبرغبة أكثر، وأحياناً كان يفضل أن يأخذ قطعة شهية بأصابعه، وصار فجأة يشعر بلذة الطعام القوية. الحقيقة، أن المسألة كلّها تكمن في كون كلارا هي من تطهو الطعام.

كانت كلارا رائعة دائماً، في أيّ طقس وفي أيّ وقت من اليوم. رائعة بأنفها المحمَرّ في الصقيع ورموشها المكسوّة بالثلج. وبخدَّيْها المُقَشَّرَيْن من السَّفع. وبشفتيها اللتين لفحتهما الريح في الخريف وقشّبهما ظهور الفقاعات. وبجبينها الساخن من المرض. وبأصابعها المتشققة من العمل وبالمجل على راحَتَي يديها. وبالتجاعيد الرقيقة الأولى التي بالكاد تُلاحَظ والتي شقّقَت وجهها الرقيق. إنها رائعة وجميلة بأحوالها كلّها. وكم لبقت لها ثياب تيلدا القديمة الطراز! كلّ هذه التنانير الصوفية التي لا تعدّ ولا تحصى، الزرقاء والحمراء والسوداء، والتي وجبَ عليها أن ترتديها في فصل الشتاء واحدة فوق الأخرى؛ والقمصان من الخرز الأصفر حول الرقبة؛ والصدارات ذات النتوءات على الخصر والأزرار اللامعة على الحزام؛ والمآزر القطنية الناعمة المخططة والمُبَقَّعة؛ والثياب الخفيفة المبقعة بزهور كبيرة... كانت تزين نفسها بأيّ شيء من الملابس. وكانت تعطي معنى لكلّ فعل. فلو وقفت على رأسها ذات صباح لنهض باخ على الفور ووقف إلى جانبها رأساً على عقب هكذا طوال اليوم، مبتهجاً من دون أنْ يسأل عن السبب.

أدارت كلارا حيازتهما البسيطة بهدوء وثبات. فكانت تقوم بتنظيف الأسماك وانتزاع أحشائها (من أجل الحساء) وجمع الأوراق الخضراء الأولى الغضة (للشاي)، وتجفيف البراعم والفروع الجديدة (لعلاج نزلات البرد)، وتذهب إلى المروج البعيدة بحثاً عن عصارة أشجار البتولا (لاكتساب القوة البدنية في الربيع)، وتذهب إلى المروج المجاورة من أجل جلب الطين لتعزيز الأرضية. وتقوم بعزق تربة حديقة الخضروات، وتقرأ الصلوات كلّ صباح وهي واقفة على المغارس باتجاه الشمس المشرقة طلباً لمحصول جيد. ثم سرعان ما تذهب إلى البستان وتصلّي مرة أخرى وتدعو بشكل خاص لأشجار التفاح. وكانت تطعم باخ وتعالجه وتعلمه. وترتق الملابس. وبدأت تغزل وتنسج: مع أنَّ ما لديهما من احتياطي الملابس ما زال كافياً، لكنها كانت تفكّر في المستقبل.

ووجدا في مخزن الحبوب عدة بالات من الصوف غير المنفوش، على ما يبدو كان مُعَدّاً للبيع، وذات مرة في إحدى الليالي المظلمة الباردة، أزَّت عجلة الغزل الحمراء من جديد، ودارت في غرفة الضيوف حلقات بقع الضوء المتوهِّجة راقصةً. كانت كلارا تعمل حافية القدمين، كما ينبغي أن تكون الغزّالة الحقيقية. وعندما كان باخ ينظر إلى قدمها السريعة التي تضغط على الدواسة تنتابه الرغبة بأنْ يستلقي على الأرضية الترابية أسفل عجلة الغزل ويرقد هناك من دون أن يتحرك، بل يستمع ويشاهد فقط.

كان يريد في كثير من الأحيان أن يستلقي عند قدمَي كلارا. لم يحلم بأكثر من ذلك، بل حتى لم يجرؤ على التفكير، إذ كان يشعر بالخجل ويطرد جميع الأفكار. وجاءت كلارا إليه بنفسها فجأة، ذات ليلة حدث ذلك في السنة الأولى، قُبَيلَ الربيع. كان بإمكانها أنْ تناديه فحسب. لكنها خرجت من غرفتها إلى غرفة الضيوف التي كان باخ ينام فيها على الدكة الخشبية، تلمَّسَتْ في الظلام يده التي خَشُنَت من العمل وسحبتها حولها. لم يفهم شيئاً وهو بين النوم واليقظة، وسمح لنفسه بنقلها إلى مكان ما، ووضْعِها وعندما شعر بجسد كلارا الدافئ بجانبه فهم فجأة كلّ شيء، واختلج كما لو كان يختلج مِن حرقٍ ثم قفز واندفع إلى النافذة. لو قالت كلمة واحدة، لكان قد صرخ بكلّ تأكيد جواباً عليها، فكلّ شيء فيه كان يرنّ ويرتعش. ولكن الغرفة كانت هادئة ومظلِمة. لم يسمع باخ سوى تنفسه العالي. وبعد مدة قصيرة عاد إلى سرير كلارا، استلقى تحت غطائه المحشوّ بريش البط... ومن ذلك اليوم بدآ في النوم معاً جنباً إلى جنب.

خلال زياراته الليلية القصيرة لم يفارقه الإحساس بأنَّ كلارا تنتظر باستمرار شيئاً ما؛ وأنَّ عينيها المفتوحتين لا تنظران إلى السقف المبني بجذوع الأشجار، بل تنظران إلى مكان ما أعلى، وبالتحديد إلى المستقبل وتريان هناك صوراً جميلة وجذابة يتعذر على باخ الوصول إليها. وخلال النهار لاحظ أحياناً كيف أنها عندما تقلِّم أغصان التفاح في البستان أو تقشر البطاطا كانت تتسمَّر فجأة، كما لو كانت تستمع إلى شيء ما

بداخلها، وتترك العمل وتذهب إلى الشاطئ، وتجلس هناك لمدة طويلة ناظرةً إلى النهر؛ وتعود متوردة الخدين ومتلألئة العينين. ومن ثم عندما تأتي أيام مرض النساء الثابتة كانت تشحَب وتبدو مذهولة وحزينة.

كان يثير فزع باخ مجرد التفكير بالطفل الذي بمجيئه إلى العالم سيدمّر وجودهما الهادئ لكنه لم يجرؤ على مخالفة كلارا وحاول أن يعطيها ما كانت تنتظره روحها. لقد بذل قصارى جهده وفي كلّ مرة عندما يرى عينيها الكامدتين أثناء الوعكة الصحية الدورية كان يدرك بحزن: لم يحدث الحمل إنه لم يستطع منح كلارا حتى هذا الشيء القليل. وسرعان ما أصبح واضحاً: إنَّ ارتباطهما هو وكلارا غير المكلل (كنَسيّاً) غير مثمر.

كثيراً ما سأل نفسه: ماذا يمكن أن يعطي كلارا؟ إنها أعطته كلّ شيء: مزرعة أبيها المليئة بالأشياء الضرورية للحياة مع منزل وَثِير وبستان مثمر؛ والعزلة الأثيرة على قلبه؛ ومنحته القدرة على العمل والإحساس بالحياة. وأخيراً، أعطته كلارا نفسها. وفي المقابل، لم يمنحها هو سوى القليل: لا الفرحة بوجود زوج وسيم وجدير، ولا مجتمع لطيف في المستوطنة، ولا يد قوية في المزرعة. أما القصص كلّها التي رواها ذات مرة عن غنادينتال الفاضلة وسكانها الرائعين فقد تحوّلت إلى حكايات فارغة، إنْ لم نقُل إلى خداع. واستحالت إلى صنارة اصطادت السمكة المسكينة، كلارا. وماذا عنه؟ هل كان هو حقّاً، يا ترى، مجرد طعم ابتُلِعَ بنهَمٍ في نوبة من الجوع؟ لقد عذَّبه الشعور بالذنب. كان يحاول يائساً أنْ يجد ما يعطيه لكلارا حتى لو كان شيئاً ضئيلاً وبائساً ولكنه لم يجد.

كان بإمكانه إعطاء كلارا آخر تفاحة في أوان المجاعة ولكن في المزرعة ثمة ما يكفي من الطعام. وبإمكانه أنْ يدثّرها بآخر شيء دافئ في برد الشتاء لكن الصناديق في المنزل كانت مليئة بالملابس والأغطية. وكان يمكن أن يعمل من أجلها وقد عمل بالفعل بلا كلل، من الصباح الباكر إلى الغروب؛ لكنها عملت أيضاً على قدم المساواة معه، بل في كثير من الأحيان أكثر منه وأسرع وأدقّ. لم يستطع باخ منح كلارا شيئاً صغيراً

مما كان لديه أو مما قدرَ عليه أو مما عرفه. الهدية الوحيدة والصغيرة للغاية كانت هي نفسه: جسده الواهن وروحه المُفْعَمة بالعشق الخفي وبوفاء الكلاب.

أنْ يدافع عن كلارا وينقذها من الخطر هذا ما أراده باخ حقّاً. لكن الدببة والذئاب لم تخرج من الغابة، أما المغتابون الذين يذكرونها بالسوء فقد ظلّوا على الجانب الآخر من نهر الفولغا. وعلى كلّ حال، كان باخ يغلق المصاريع بإحكام كلّ مساء ويقفل الأبواب، وأسندَ مذراة كبيرة عند المدخل. نظرت كلارا إلى استعداداته بعينين حزينتين. وقد خمن باخ في سريرته: إنها بحاجة إلى شيء آخر، لا إلى أن يغلق عليها ويحميها من العالم، بل تحتاج إلى الاندماج في هذا العالم؛ وإلى جعل رباطهما مقدساً في الكنيسة، وإلى التصالح مع المجتمع، وأن تذهب إلى غناديتال لحضور قداس يوم الأحد، ثم تتطلع إلى الذهاب إلى بوكروفسك إلى سوق عيد الفصح. لكنه لم يستطع التغلب على نفسه وترك نافذة واحدة على الأقل مفتوحة طوال الليل: فقد كان خائفاً.

استولى على روحه الخوف من فقدان المرأة الحبيبة منذ زمن بعيد. لم يستطع باخ حتى أنْ يتذكر متى ظهر هذا الخوف لأول مرة فيّ كيانه. لكن في كلّ مرة، عندما يتصور بإسهابٍ ضياع كلارا، يشعر باخ كيف تستولي القشعريرة على بدنه: وكأنَّ عضلاته ومفاصله قد تغطَّت ببطء بطبقة من الندى المتجمِّد وفقدت القابلية للإحساس. لم يبقَ من بين جميع الأحاسيس، سوى ثمة إحساس واحد فقط هو البرد. نفَذَ هذا البرد إلى جسم باخ النحيف وجعله يرتجف (في معطفه الفرو القصير أو تحت الغطاء الريشي الساخن) وهو ينضح عرَقاً وتغشاه القشعريرة. توالى عليه هذا البرد بشكل غير متوقع، في أوقات مختلفة: عندما يغرس شتلات التفاح أو عندما يطرق ألواح السياج المتخلخِلَة، وأثناء صيد أسماك القطّان من نهر الفولغا أو رشّ الملح على قشّ السقف. كان باخ يترك كلّ شيء: الشتلات وأسماك القطّان والملح ويركض للبحث عن كلارا.

ويجدها وهو يلهث ووجه مبلل من العرق؛ فيقف إلى جانبها ويتطلَّع في وجهها، غير قادر على أنْ ينطق كلمة واحدة. لم توبِّخه، بل تبتسم ردّاً عليه. ولولا تلك الابتسامة الهادئة والحكيمة، لكان قلب باخ قد بليَ من الخوف منذ زمن بعيد، كما يبلى أقوى حذاء من طول مدة الاستعمال.

***

في إحدى الليالي خطرت بباله فكرة: جعلته مثل القزم الجشع الذي يرتجف أمام الذهب. إنه مثل أودو غريم الذي حاول أنْ يعزل ابنته بستارةٍ عن العالم بأسره. وبسبب هذا الفكرة، لم يستطع النوم لوقت طويل. وعندما أصبحت أنفاس كلارا الخفيفة على الوسادة المجاورة بطيئةً وعميقةً انسلَّ خارجاً من تحت الغطاء الريشي واحتضن تحت إبطه ملابسه وخرج في ليلة صقيعية صافية. قرّر الذهاب إلى غنادينتال وحده، ومن دون هدف ثابت أو نية. لقد مرّ عام على حياتهما الانفرادية في المزرعة وحان الوقت للخروج بحذر إلى العالم ومحاولة جسِّه: هل تغير شيء فيه؟ هل من الممكن إحضار كلارا إلى هناك على الأقل ليوم واحد؟

مشى عبر نهر الفولغا مدة طويلة على ضوء القمر الأبيض والنجوم البيضاء بدا له أنَّ النهر أصبح أوسع، على الرغم من أنَّ هذا بالتأكيد لا يمكن أن يحصل. لقد لاحظ أنَّ طريق الزلّاجات الذي يُشَقُّ عادةً في فصل الشتاء على جليد الفولغا، كان في هذا العام مطروقاً بشكل جيد وصلباً فقد سار عليه الكثير من العربات في كلا الاتجاهين، صعوداً وهبوطاً في النهر.

سار باخ وكأنَّ حذاءه الثلجي يخطو عبر الركام الثلجي من تلقاء نفسه، ولم يتوقف عن النظر إلى غنادينتال التي تقترب منه. امتدت المستوطنة أمامه كلّها، من المنزل الأول على المشارف إلى آخر المنازل الذي بدا معلَّقاً في السماء ببرج الجرس الأسود. كانت المنازل مظلمة نائمة. والحظائر كلّها والبساتين نائمة؛ وحدها أعمدة الدخان المنبثق من المداخِن التي بالكاد تُرى كانت تنحني وتنعطف نحو مكان ما على اليمين، وكأنها انعكاسات مشوّهة في مرآة المسخرة. كانت هذه الصورة

النائمة معروفة له ومألوفة باستثناء أنّ المداخن أصبحت أصغر من المعتاد: ولسبب ما لم توقَد المدافئ في جميع المنازل. خلع باخ حذاءه الثلجي وخبّأه في ركام ثلج قرب المرسى، ودخل إلى القرية النائمة.

كان كلّ شيء هنا، كما يتذكره من أيام شبابه: الأسيجة الخشبية متسقة والواجهات المبيَّضة نظيفة والأطر الخشبية والأبواب أنيقة. ما عدا منزل كبير في الشارع الرئيس هو «قصر» فاغنير الطحان المبني من قرميد ساراتوف المطلي (ليس من طوب اللبن الرخيص، بل من طابوق المعامل الغالي) تحت سقف قرميدي مدهِش، وقد بدا هذا المنزل غريباً: جميع الزجاج الموجود في النوافذ كان مكسَّراً، وتلألأت الثقوب كالنجوم السوداء. اقترب باخ أكثر. اختفى سياج الحديقة الأمامية، وأزيلَت شجيرات الغبيراء ذات الثمار السوداء. رأى حبال اللبلاب الشجري الرثة تتدلى على الحائط بنهايات متشابكة؛ ودرابزين الشرفة الحديدي مغطى بطبقة من شيء رمادي اللون: بدا كالعفن، لكن اتضح أنه ندى متجمد. كان ثمة ركام ثلجي كبير قد دفع الباب المفتوح قليلاً.

مشى باخ في البيت المهجور وهو يطقطق على الزجاج المنثور على الأرض. لقد كان هنا أكثر من مرة ويتذكر الحالة التي لم يبقَ منها شيء تقريباً: الجدران العارية تجعَّد عليها ورق الحائط المتيبِّس (لم يكن ثمة ورق جدران في أيّ منزل آخر في غنادينتال، وكان القرويون يحبون المجيء إلى منزل فاغنير للتمتع بمشاهدة «صور الحائط») وألواح الأرضية الخشبية اقتُلِعَتْ، واختفى السجاد والأثاث. وقد فغَرَت فاهها الأدرد آلةُ الهارمونيكا القَدَمِيَّة الهوائية[1] الكبيرة التي وضعها أحد العابثين على مؤخرتها. وتناثرت بين الأقدام مختلطةً بعضها ببعض ومع حطام الزجاج الصورُ وكِسَرُ الأواني وريشُ الطيور وشظايا من تماثيل الجبس

1- الهارمونيكا القَدَمِيَّة – هي آلة موسيقية هوائية ذات لوحة مفاتيح، يتمّ إصدار الصوت فيها بواسطة ألسنة مزمارية مختلفة الطول، حيث إنها تهتزّ لما يمرّ الهواء منها. (المترجم من ويكيبيديا بتصرف).

التي كان لدى المالك ولعٌ مميَّز نحوها. التقط باخ إحدى الصور الشمسية ونفضَ الثلج الخفيف بأصابعه عرف أم فاغنير في الصورة. ولمَحَ في كومة النفايات يداً كاملة من الجبس، كفَّ امرأة ذات خنصر مسحوبة بدلال، بحجم كفّ الإنسان الاعتيادي التقطها ووضعها على حافة النافذة. حَدَّقَ إلى المواقد العديدة المغطاة بالبلاط الأزرق المجلوب من بلدة سفياج: كانت فوهاتها مغطاة بطبقة سميكة من الندى المتجمِّد.

خرج إلى الفناء. وجد جميع الأبواب في المباني الإضافية (لوضع اللوازم) مفتوحة على مصاريعها. لقد نُقِلَ كلّ شيء حتى آخر مسمار: المحاريث ووسائل شدّ الدواب وأدوات وسم الماشية والمقاشِط والمناجل وأذرع حمل الدلاء والأزاميل والفوانيس والمبارِش ومراجل غلي عسل البطيخ ومِخَضّات الزبد والرُّحِي[1] ومفارِم اللحم. ووجد الأشجار في الحديقة مكسَّرة، والموقد الحجري في المطبخ الصيفي مهدم، وكأنَّ عملاقاً حقوداً قد هاج وعربد هنا...

أحصى باخ خمسة منازل أخرى مدمَّرة في تلك الليلة في غناديتال كان كلّ واحد منها فارغاً وخامداً ومغطى بطبقة من الندى المتجمد ومحاطاً بالجليد. مرَّ باخ عليها بصمتٍ وجعل يتفحَّص في ضوء القمر الأبيضِ المَخَادِعَ الهامدة. أيّ إرادة شريرة دمّرتها تاركةً أصحابها بلا مأوى؟ هل طال المجرمين القصاص؟ أين ذهب أصحاب الدور؟ وهل حملوا معهم الأمتعة واقتادوا الماشية؟ كم كان قاسياً هذا العام الذي فقدتْ فيه مستوطنة صغيرة من مستوطنات الفولغا دفعةً واحدةً أفخم منازلها وأكثرها غنى؟

عامُ المنازلِ المدمَّرة[2] دعاه باخ مع نفسه، واستعجل بالعودة لكي

1- جمع رَحى: وهي أداة يُطحن بها، وهما حجران مستديران يُوضع أحدهما على الآخر ويُدار الأعلى على قُطب حجر الرَّحى. (المترجم).

2- كتبت آنا يانيكي في كتاب المذكرات حول نهب ممتلكات المستوطنين الألمان الميسورين. انظر: يانكي آنا. قدر ألمان الفولغا. لايبزيغ. 1937. (الملاحظة من الكاتبة)

يصل إلى المزرعة عند الفجر. لم يُحدّث كلارا بأيّ شيء لم يُرِد إزعاجها. حدثت أمور غريبة في العالم وكان الخروج يشكّل خطراً.

* * *

كم كان محقّاً إلى أقصى حدّ! ففي أقل من ستة أشهر، ما إنْ تحولت السهوب على الضفة اليسرى إلى اللون القاني من زهور الأقحوان والخشخاش، وما إنْ تكشَّفت سماء الربيع الشفافة إلى الأعلى، لأبعد الكواكب والنجوم، حتى اجتاحت تدفّقات غير محدودة من الغرباء هذا السهب، واجتاحت السماء أسراب من الطيور الحديدية. وفي بعض الأحيان كانت تدفقات الناس تتقاطع وتتصاعد منها عند التقاطع أعمدة الدخان الأبيض والغبار الأحمر؛ ثم تفترق مرة أخرى تاركةً وراءها على الأرض المسحوقة كتلاً متناثرة من أجساد البشر والخيل والأسلحة والعربات المحترقة. لم تُسمَع الأصوات، ولم يصل سوى شَهِيق الانفجارات إلى الضفة اليمنى بعد وقت طويل من ارتفاع سحب البارود واندماجها مع السماء. وكانت الطائرات تارة تنخفض حتى تكاد تعزق الأرض المحروثة ببطونها المُكرِشَة، وتارة ترتفع أعلى من النسور والعُقبان الذهبية؛ وفي بعض الأحيان، كانت تنقضّ نحو الأسفل على أحد الأجنحة صارخةً بأصوات ميكانيكية ثم تسقط في مكان ما وراء الأفق...

في الخريف، عندما بهتت السهوب وتحول لونها إلى الرمادي من أشعة الشمس ومن الانفجارات التي مزَّقتها، وعندما توهَّجَت الغابات على الضفة اليمنى باللون الأحمر والقرمزي، امتدت على طول نهر الفولغا أساطيل من القوارب والزوارق الحربية المليئة بفوهات السلاح، وسارت ببطء، منهكة، على طول النهر أسراب الأسماك الحديدية الكالحة. بعض منها كان مصاباً بجوانب مبقورة وبمتون مهشَّمة. رُقِّعَ أحدها لوقت طويل بعد أنْ رسا في مرفأ غنادينتال. وغرق زورق آخر قبالة غنادينتال مباشرة بعد أنْ غطس بسرعة وبدون ضجة في الماء بكلّ بدنه المُسنَّن.

راقب باخ وكلارا هذه الصور من الجرف المنحدِر. لم يتمكنا من فهم

أيّ شيء. ربما كانت هذه الحرب. ربما، تمكن أهالي غنادينتال من إنقاذ جزء صغير على الأقل من القمح المزروع. وربما، لا، إذا ما أُخِذَ جميع الرجال للقتال، كما أُخِذوا مِن قبْل إلى غاليسيا وبولندا حين تقاتلت هناك الإمبراطورية الروسية مع الإمبراطورية الألمانية لعدة سنوات. ربما، اجتازت تلك الحرب البعيدة الحدود حتى اجتاحت السهوب الجنوبية وسهول كالميكا ووصلت إلى حوض نهر الفولغا الخامل... كلّ واحد من هذه الافتراضات كان يثير فيهما الفزع. بدأت كلارا تصلّي طويلاً: أنْ تبقى مزرعتهما محتجبةً عن أعين البشر على الربوة الكثيفة الأشجار ولا يلاحظها أحد. وفجأة اعتقدت أنَّ الله لم يهبهما إلى الآن طفلاً لكي يصونه من رعب الحرب، وبعد انتهائها سيحدث الحمل بكلّ تأكيد. باخ لم يُثنَ عن اعتقاده.

استمرّت الحرب أكثر من عام. أطلق عليه باخ في نفسه اسم *عام الجنون*[1]: في الصور الصامتة لهلاك الكثير من الناس والآلات، كان بلا شك، ثمة شيء غريب خارج حدود الفهم.

* * *

في نهاية الخريف التالي، أصبحت التدفقات البشرية أقل، ثم اختفت. ظهر الجليد على النهر في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ولم تُثِره أجرام السفن الحربية الصلبة: الأسماك والطيور الحديدية إما تقاتلت والتهمت بعضها بعضاً أو عادت من حيث أتت. أما نهر الفولغا الثلجي والسماء التي فوقه فقد امتدّا نظيفَين وهادئَين. وأطلّت ليلة عيد الميلاد في هذا العام هادئة: لم تنطلق عبر الجليد عربات الترويكا البهية المليئة بالشبان المخمورين والمرحين؛ لم تمتدّ أرتال العربات الرزينة التي تقلّ المستوطنين الذين

1- ظهر في العامين 1918-1919 العديد من أهم حوادث الحرب الأهلية في منطقة حوض الفولغا. إذ نشط في منطقة الفولغا السفلى أسطول الفولغا وبحر قزوين الحربي بوصفه أحد تشكيلات الجيش الأحمر والذي ضم أكثر من 200 سفينة، وكذلك لواء جوّي. (الملاحظة من الكاتبة).

كانوا يذهبون إلى القرية المجاورة لزيارة الأقارب. في إحدى هذه الليالي الصامتة، قرّر باخ أنْ يقوم مرة أخرى بزيارة إلى غنادينتال. لم يرِد الذهاب لكنه أرغمَ نفسه من أجل كلارا التي فقدت الكثير من الوزن في ذلك الوقت وشحبتْ كثيراً وانكبّت في صلوات متواصلة من أجل الحمل حتى أصبحت تبدو وكأنها عذراء الجليد وليست امرأة شابة. ربما هدأ العالم الغاضب قليلاً واستعدَّ الآن لمنح كلارا ما تستحقه الزفاف الكنسي وفرحة الظهور العلني أمام الناس؟ وربما، سيصرفها الذهاب إلى غنادينتال عن أفكارها حول الطفل؟

إمّا أنَّ الثلوج المتساقطة كانت موحِلة وكثيرة، أو أنَّ جسد باخ قد خار وتراخى، لذا مشى عبر النهر لمدة أطول مما في المرة الأخيرة. كان القمر شاحباً وباهتاً كأنه قطعة من السكر المحروق، كانت السماء مظلمة وخالية من النجوم. التصقت منازل غنادينتال بالأفق كفقاعات رغوة القهوة. ومرة أخرى بدا أنَّ أعمدة الدخان، التي امتدّت من الأسطح إلى الأعلى، قد تلاشت.

المنازل نفسها فقدت جمالها وبدت قـذرة: هنا مصراع البوابة الخارجية مائلٌ، وهناك انتُزِعَت الإطارات من النافذة، وهنا اقتُلِعَ صفّ من طوب السياج؛ نافذة مكسورة دُقَّت بألواح وسُدَّتْ شقوقها بخِرقةٍ تراءى له هذا في الظلام على الواجهة؛ وواجهة الدار نفسها مكسورة أيضاً، طلاء الجص في شبكة من الشقوق متساقِط على شكل قطع. عينا باخ اللتان اعتادتا في المزرعة منذ مدة طويلة على ضوء عيدان الإشعال والشموع الشحيح كانتا تريان ببصر حادّ وعندما دقق النظر اكتشف أنَّ هذا الدمار ليس بفعل الزمن، بل هو مِن أثر الحرب التي دارت رحاها هنا: فالنوافذ والجدران والأسوار قد تصدَّعَتْ بفعل الرصاص والقذائف.

لم يعد ثمة المزيد من المنازل المدمرة، لكن بدلاً من ذلك ظهرت منازل مهجورة: بأبواب ومصاريع مغلَقَة تماماً وبوابات مقفلة بإحكام وبوسائد من الثلوج على مَيل السقوف والأساسات. «قصر» فاغنير أصبح

غير صالح للسكن تماماً، وتحول إلى هيكل من الطوب من دون نوافذ وأبواب وقرميدِ سقفٍ. الزهورُ المصنوعة من الحديد التي تطوق الشرفة لا زالت تذكّر بالفخامة السابقة فحسب.

تمشّى باخ على طول الشارع الرئيس في غنادينتال، مندهشاً من مدى عرض الشارع وصلابته في هذا الشتاء كما لو سار وركب هنا على الزلاجات ليس بضع مئات من المستوطنين، بل آلاف من الناس والماشية. وبعد أنْ دخل إلى ساحة السوق لاحظ أنَّ الطريق أصبح وسِخاً فقد اسْوَدَّ الجليد تحت الأقدام.

نظر حوله. لم يرَ الطاولات الخشبية المنخفضة التي كانت تُباع عليها في الصيف كلّ أنواع الطعام الذي أعدته نساء غنادينتال، والتي كان الأطفال يلعبون عندها في فصل الشتاء. وبين أشجار الدردار الثلاث الضخمة التي كانت تشغل وسط الساحة وضِعَت بطول اليد المرفوعة قضبان طويلة وسميكة مشَكِّلَةً ما يشبه المثلث الضخم. وقد دُقَّت على طول القُضبان كلّه خَطاطيفُ حديدية ولا زالت تتدلّى من بعضها قطَع من حبال متجمِّدة. هل هي مشنقة؟

كان الثلج تحت القضبان أسود، كما لو أنَّ شخصاً سكبَ هنا دلاءً من الحبر. وكانت ثمة عدة جِران ثقيلة مقطَّعة من الأعلى ومغطاة بالجليد الأسود نفسه ملقاة في مكان قريب. ولاح سكين كبير نسيه أحدهم في جذع واحدة من شجرات الدردار. وبدت هنا وهناك في الثلج بقع بنية من أقراص روث البقر. كلّا، إنها ليست مشنقة، بل مسلخ.

مشى باخ ببطء في الساحة، محاولاً إعادة إنشاء الصورة. على ما يبدو، في البداية اقتيدَت الماشية إلى البئر وصُبَّ عليها الماء حتى تنظّفَت جلودها من الأوساخ: كانت خرزة البئر مغطاة بالجليد، كما يُغطي عشّ النمل الجذع؛ والجليد نفسه داست عليه مئات الحوافر.

ثم كانوا يقتادونها إلى الأشجار ويقتلونها برصاصة في الأذن وقد تجمدت ظروف الإطلاقات واسودَّ لونها في الثلج. من الغريب أنهم

هدروا الإطلاقات. عادة ما تكون ضربة بمطرقة ثقيلة كافية لكي تصعق حتى الثور؛ وخلال الثواني القليلة التالية كان الجزار المتمرس يتمكن من تلمّس الشريان في رقبة الحيوان وقطعه. ربما، في البداية فعلوا ذلك، وبعد ذلك حدث شيء ما: رفض الجزار العمل (لأنه تعبَ؟) أو اهتاجت الماشية، وصار من الخطر الاقتراب من الثيران. أم أن الجزّارين الماهرين لم يرغبوا نهائيّاً في المشاركة في المشروع، وبالتالي كان عليهم قتل الماشية، كما يُقتَل العدو في الحرب، برصاصة في الرأس؟

بعد إطلاق النار، كانوا يفصلون رقاب الحيوانات ويعلقونها بين أشجار الدردار على القضبان لاستنزال الدم. لماذا لم يضعوا تحت الذبائح طُسُوتاً أو دلاءً من أجل صنع نقانق لحم البقر في وقت لاحق؟ أو أنهم وضعوها، ولكن لم تكفِ الحاويات، وبالتالي سكبوا الدم مباشرة على الثلج؟ أو، لربما، أنهم كانوا في عجلة من أمرهم إلى درجة أنهم لم يفكروا بموضوع النقانق؟ انحنى باخ وكسر قطعة من الجليد تحت قدميه لونها بني غامق مع بقع قرمزية ساطعة عند الكسر. مجزرة غريبة حدثت قبل مدة قصيرة جدّاً: الساحة لم يتح لها الوقت حتى تتغطى بطبقة رقيقة من الثلج.

ومن ثمَّ كانوا يُنزِلون الذبائح الخالية من الدم على الأرض ويسلخون جلودها في هذا المكان بالذات، على عَجلٍ بعضها على بعض. وهنا كذلك يستخرجون أحشاءها الداخلية ويقطّعونها فوق الجِران. ومن غير المحتمل أنهم علَّقوا الذبائح الرطبة مرة ثانية لتجفيفها؛ فعلى كلّ حال يبدو أنهم كانوا في عَجلة من أمرهم وعملوا كيفما اتفق: فقد تناثرت في الجوار قطع ممزقة من الأحشاء وشظايا من الحوافر وكتل متجمدة من الذيول وأسنان أبقار مكسَّرة. التقط باخ واحدة منها، فوجدها صفراء وصلبة ومحفورة قليلاً من الأعلى ربما، كانت من عِجلة صغيرة أو عِجلٍ حوليّ.

أُلقيت هُبَر اللحم المقطَّع على زلاجة ونُقِلَت إلى مجرى الفولغا: كان

خط مسار الزلاجات عريضاً ومُداساً قد تجمد الجليد عليه كالحَجَر وكان ملطخاً بكثافة ببقع الدم، إذ نُقِلَ لحم البقر وهو بعد طازج ولا بدّ أنه تجمَّد في الطريق على شكل كُتَلٍ كبيرة. كان بإمكانهم السير على طول المجرى على اليسار إلى تسوغ وبازِل وغلاروس، أو، على الأرجح، إلى اليمين إلى بوكروفسك ومنها يمكنهم الوصول بسهولة بعد مسافة قصيرة إلى ساراتوف. على جانب الطريق لاحظ باخ العديد من الجثث الصغيرة فالكلاب، على ما يبدو، أرادت أنْ تتلذذ بأكل الأحشاء، ولكن أُطلِقَ عليها النار.

احتشدت الأسئلة في رأس باخ. وحاول أنْ يجد على الأقل تفسيراً واحداً معقولاً، لكنه لم يعرف كيف: فكلّ افتراض كان يثير أسئلة أخرى والتي تجرّ خلفها تخمينات جديدة، أكثر خيالاً وأكثر استحالة.

كم من الأبقار ذُبِحَت هنا عدة مئات؟ ألف؟ لم يكن ثمة مثل هذا القطيع الكبير في غنادينتال قط. إذن، اقتادوها من المستوطنات المجاورة، ولا بدّ أنهم اقتادوا الكثير.

من ذا الذي احتاج إلى مثل هذا الكمّ الهائل من اللحوم؟ أيّ عملاق نهم؟ وهل سيكون لديه الوقت لابتلاع كلّ شيء معدّ قبل بداية حرارة الربيع؟

أيّ تهوّر انتحاري استحوذ على المستوطنين، فقرّروا بيع كلّ ماشيتهم تقريباً لشخص ما دفعةً واحدة؟ أم أنَّ هذا لم يحدث بإرادتهم الحرة، بل بالقوة؟ من يستطيع إجبار الفلاح على أنْ يقود ثوره الحبيب أو بقرته طواعية إلى مثل هذا الموت القاسي؟

لماذا قُرِّرَ ذبح الماشية في غنادينتال بالذات؟ ربما لم يعد بالإمكان اقتياد الأبقار إلى أبعد من ذلك لقد استنفدت. أو لم يكن ثمة ما تُعلَف به في الطريق. من أين اقتيدَت، من أيّ مناطق بعيدة جُلِبَتْ؟ وأيّ برابرة اقتادوا قطعان الحيوانات للمسير في الصقيع والثلج في فصل الشتاء الذي تتمخَّض فيه معظم الأبقار؟ وعلاوة على ذلك، من دون إمداد أعلاف؟

لم يعثر على إجابات.

رأى باخ كتلة كبيرة داكنة معلَّقة بين أشجار الدردار، في وسط المثلث الذي شكَّلَته. بدت من بعيد: أحشاء طير جامدة. اقترب منها أكثر، وجلس القرفصاء وهنا ارتجف وسقط ثم زحف على ركبتيه. اهتاجت حموضة في معدته وارتفعت إلى أسنانه فبصقها على الثلج.

إنها عجول (أجِنَّة) لم تولَد بعد. فقد استُخرِجَت خلال عملية الجزْر من رحم الأبقار وأُلقيَ بها في كومة منفصلة على ما يبدو، لم يتمكنوا من تحديد ما إذا كانت تُنسَب إلى اللحوم الصحية فتُنقَل على الزلاجات أو تُنسَب إلى المخلفات غير الضرورية. لم يكن لديهم وقت لاتخاذ القرار: سرعان ما أُلقي بالعجول في الصقيع على كتلة ضخمة من الرؤوس القبيحة الكبيرة الجبهات، وذات الآذان الجنينية والأرجل الطويلة ذات الحوافر الصغيرة المتباعدة، والضلوع الرقيقة تحت الجلد الوردي المبقّع ببقع زرقاء من الأوردة، والعيون السوداء الكبيرة والشفاه التي تشبه شفاه الإنسان تقريباً. لا يمكن للمرء تفتيت مثل هذه الكتلة حتى لو دقّها بقضيب حديدي. وهكذا تُرِكَت في الثلج حتى تذوب في فصل الربيع.

نهض باخ من جلسته على ركبتيه وأسرع عائداً من الساحة، من الشارع، ومن غنادينتال. كلّا، لا يجوز اصطحاب كلارا إلى هذا العالم. ولم يكن الأمر يستحق أن يأتي هو نفسه إلى هنا أيضاً. والعام المنصرم سمّاه باخ في نفسه أيضاً *عام العجول التي لم تولد*[1].

لقد رأى تلك العجول مرة أخرى: في فصل الربيع، أثناء الفيضان، لاحظ البقايا التي حملتها الموجة على الحجارة، ذوات أرجل قصيرة وبُتَيْلات آذان صغيرة على رؤوس ضخمة. لم يتمكن من جلبها من الشاطئ المقابل

1- نظام إلزام الفلاحين بتسليم المحاصيل الذي أُقِرَّ في الإمبراطورية الروسية في كانون الأول (ديسمبر) من عام 1916 - أعادت الحكومة السوفيتية العمل بموجبه في أوائل شهر كانون الثاني (يناير) من عام 1919 في ظروف الحرب الأهلية والدمار. وقد شملت حملة التموين لعام 1920، بالإضافة إلى الحبوب، اللحوم وغيرها من المنتجات. يستند المشهد إلى مذكرات آنا يانكي. (الملاحظة من الكاتبة)

على الأرجح، العجول الصغيرة جاءت طافية من مستوطنة مجاورة تقع إلى الأعلى من التيار: عندما ارتفعت درجة الحرارة، لم يُتعِب الناس أنفسهم بدفن المخلفات المتجمدة في الأرض، بل بكلٍّ ببساطة رموها في النهر. وفي اليوم التالي، أراد باخ إلقاءها مرة أخرى في الماء، ولكن بعد أن وصل إلى الشاطئ لم يجد شيئاً منها: فقد جرف نهر الفولغا العجول في الليل.

***

لم يخرج إلى العالم لمدة عام كامل لا يوجد سبب يدفعه لذلك. كان في بعض الأحيان يقف في المساء على الجرف وينظر إلى غنادينتال. لم يَرَ أعمدة دخان فوق الأسطح: إما أنَّ بصره ازداد سوءاً على مرّ السنين، أو لم يكن ثمة دخان حقّاً. توقفت كلارا عن الذهاب إلى الشاطئ. وتوقفت أيضاً عن الأمل بالحمل. أخبرها باخ عن جولاته الليلية استمعت إليه وتنهدت تنهدات بالكاد مسموعة. ومنذ ذلك الحين توقفت عن الصلوات الطويلة كذلك.

أما هي فقد بدت في السنوات الأخيرة وكأنها أقصر في الطول وأصغر في الجسم، لقد ذابت. أصبح معصماها نحيفين وبرزا كالغصنين، وأصابعها صارت تشبه سيقان الأعشاب البرية تماماً. عندما ينظر إليها المرء من الخلف يتصوَّرها صبية مراهقة. فكان باخ يتساءل في نفسه، كيف يمكن لمثل هذا القشر الهشّ أن يستوعب هذا المحتوى القوي: الكدّ الذي لا يكلّ، والهدوء الحجري، والشجاعة في التسليم لعدم الإنجاب. المرة الوحيدة التي رأى فيها باخ (نظر إليها من غير قصد) كيف أنَّ كلارا الباردة الأعصاب في العادة لم تعد تسيطر على نفسها. كانت آنذاك تُشذِّب أغصان أشجار التفاح في البستان. بعد أن عاد باخ من الشاطئ قبل موعده سار باتجاهها بين الأشجار من دون أن يتخفّى، لكن الرياح القوية أحدثت ضجيجاً بالأغصان فلم تسمع كلارا خطواته. كانت قد بدأت للتوّ تعمل بالمقص بدقة وبسرعة، وفجأة أسقطته على الأرض، واستندت بيدها على الجذع، وقفت هكذا لمدة نصف دقيقة، وبدأت تضرب بقبضة يدها الأخرى بطنها. وفي هذه الأثناء ظلّ وجهها خاملاً وجامداً، وأغمضت عينيها إما من الألم أو من الشعور

بالخجل. جعلت تضرب نفسها لمدة طويلة وبعنف. وطوال هذا الوقت وقف باخ مذهولاً ومصدوماً وهو مختبئ خلف الأشجار غير عارف ما إذا كان يجب عليه أن يركض إليها أم يركض مولياً عنها. ثم فتحت قبضتها ورفعت المقص وواصلت العمل. أما هو فقد غادر البستان، من دون أنْ يكشف عن نفسه مطلَقاً. وبعد ذلك لم يلاحظ عليها أيّ شيء من هذا القبيل. لكن في الصيف الماضي رأى للمرة الأولى كلارا تقطع تفاحة كبيرة جدّاً من أحد الفروع وتمسِّد عليها خِلسةً قبل أنْ تضعها في السلة، كما لو أنها لم تكن ثمرة، بل رأس طفل أملس.

في فصل الشتاء التالي، لم تسِر زلاجة واحدة على جليد الفولغا: كان النهر فارغاً، أبيض، ليس عليه سوى الآثار المتعرجة لمسارات الذئاب. ومن الأعلى بدت قبة السماء مخيِّمة عليه. أحياناً تظهر في هذا البياض الذي لا نهاية له فجأة نقطة داكنة أو اثنتان لعابري سبيل: لم يأتِ عابرو السبيل هؤلاء من أيّ مكان محدَّد وكانوا يسيرون على طول نهر الفولغا ببطء وبارتباك، كما لو أنهم ليس لديهم هدف نهائي؛ ربما تقاربت مسارات اثنين يسيران لملاقاة بعضهما بعضاً، لكنها لم تتقاطع قط وكأنَّ الناس لا يرون بعضهم بعضاً ويمشون متثاقلين من دون توقف وبلا بصيرة.

عادة ما يفضّل المستوطنون في فصل الشتاء الجلوس في المنازل، وحتى إذا ما خرجوا، فإنَّهم يخرجون على ظهور الخيل أو في العربات؛ أما الآن، لا يمرّ يوم على باخ إلّا ويلاحظ متجولاً راجلاً على متن النهر اللامتناهي. في البداية، لم يستطع أن يفهم ما هي القوة التي تدفع أولئك البائسين للخروج من المنازل الدافئة وتسوقهم إلى مكان ما بملابس لا تكاد تقي من البرد وهم يسيرون على ركام الثلج على مدى فراسخ عديدة. ثم أدرك: أنَّ الناس دفعهم الجوع إلى الخروج. كان بعضهم منهكاً لدرجة أنَّ أيديهم وأرجلهم الظاهرة من الأسمال التي تغطي أجسادهم يبست كالعصي، وكانت وجوههم مثل الأقنعة الكئيبة. وكان بعضهم مجانين. وبعضهم عندما كانوا يمرّون من جانب غناديننتال يسقطون في الثلج ولم

ينهضوا مطلقاً. وإذا ما لاحظ باخ ذلك كان ينتعل حذاءه الثلجي ويأخذ زلاجة وفأساً ويمشي متثاقلاً عبر النهر. ويصل بعد بضع ساعات. وخلال ذلك الوقت يكون المسكين قد مات. فيضعه باخ على الزلاجة ويربطه فيها ثم يسحبه إلى أقرب فتحة في الجليد. ويقوم بتكسير الجليد المتراكم بالفأس ويتمتم بصلاة قصيرة ويلقي الجثة التي يَبسَت في هذا الوقت في نهر الفولغا. في البداية كان يتردّد فيما إذا كان يستحق الأمر لرجل مثله، بلا إيمان صادق في قلبه، أنْ يتلو الصلاة على المتوفين. وقرّر، نعم يستحق: إنهم أنفسهم، في الواقع، سيغتبطون بالصلاة من أيّ فم. كما شكَّ كذلك في إمكانية تحديد دين المتوفى. وقرّر أنَّ الصلاة اللوثرية المقروءة على الكاثوليكي أو الأرثوذكسي أو المحمدي، هي على كلّ حال أفضل من لا شيء. وهكذا قرأ على الجميع، حتى على التتار والقرغيزيين. لم يكن بإمكانه إطعام الجياع، لكنه استطاع أنْ يدفن أجسادهم حتى لا تلتهمها الذئاب. كم دفن لم يحسب. وسمّى هذه السَّنَة الرهيبة *عام الجياع*[1].

اعتقدَ أنَّ لا شيء يمكن أن يكون أسوأ من هذه الحال. ولكن اتضح، أنَّ ذلك يمكن: فبعد مرور عام، اختفى عابرو السبيل الكبار واندفع الأطفال على جليد نهر الفولغا. وجوه عجائز صغيرة؛ وعيون وحشية متجهمة؛ وأسنان سوداء من الإسقربوط؛ وأقْفِيَة كجلود الكلاب الجرباء؛ والأيدي كمخالب طيور عظميّة. في يوم واحد، دفن باخ ثلاثة من هؤلاء. وقرّر ألّا يذهب إلى الشاطئ بعد ذلك لم تكن لديه أيّ قوة لمشاهدة *عام الأطفال الموتى*[2] من الجرف. لقد عاد إلى المنزل، واستلقى تحت الغطاء المحشوّ بريش البط، وأغمض عينيه وانتظر قدوم الربيع.

1- تعرف مجاعة العامين 1921-1922 التي شملت 35 مقاطعة من روسيا السوفيتية، باسم مجاعة حوض *الفولغا*: فقد لوحظت هنا آثارها الأكثر قسوة. إذ اختطفت أرواح ما يقارب 5 ملايين شخص. (الملاحظة من الكاتبة).

2- نتيجة للمجاعة، فقدَ ما يقرب من 1.5 مليون من أطفال الفلاحين آباءهم وتحولوا إلى أطفال مشردين. كانوا يطوفون في الآفاق ويقتاتون بالسرقة والصدقات؛ ومات منهم كثيرون. (الملاحظة من الكاتبة).

مكتبة
t.me/soramnqraa

-6-

قعقعة قوية وعنيفة، مثل الصاعقة.

رمى باخ غطاء الريش، وجلس في السرير. أعاصفة رعدية في أوائل شهر أبريل (نيسان)، والثلج لا زال يغطي الحقول بعد؟ هزّ رأسه، ونظر حوله. لم يرَ سوى ظلام الصباح البارد. وضباب الفجر الشحيح يخترق فجوة المصاريع المغلقة. ربما، تراءى له الصوت؟ تحركت بجانبه كلارا النائمة.

قعقعة أخرى. بل، الصحيح، إنه طَرقٌ شديد وطويل علي الباب الأمامي وعلى نوافذ المطبخ. لقد طرق أحدهم بشدة لدرجة أنَّ الطرق سُمِعَ بوضوح حتى في غرفة النوم.

قفزت كلارا، وتأوَّهَت بصوتٍ بالكاد يُسمَع. تلمَّسَ باخ يدها في الظلام وعصرها وقال: اصمتي! ربما، سيحتك الضيوف غير المدعوين عند الباب، ويولون أدبارهم. على الرغم من أنَّ الأمل بنتيجة سعيدة ضَئيل جدّاً.

دوَّت من الخارج ضربة خفيفة، ثم قرع على الزجاج دفع أحدهم القفل من المصراع وحطَّم النافذة. لقد حطَّمَها بمهارة، بيد صلبة ومعتادة.

– يا أهل الدار، هل أنتم موجودون؟ قال أحدهم بصوت سليط وبوقاحة؛ إنه يتحدث باللغة الروسية ولكن ليس بهدوء وبطلاقة كما يتكلم الناس في القرى المجاورة، بل بسرعة، وكأنه في عَجَلة من أمره.

– كيف لا يكونون موجودين... وهذا الدخان الكثيف يخرج من المدخنة؟ قال الثاني بصوتٍ آمرٍ وهادئ.

كان باب غرفة النوم مفتوحاً قليلاً فسمع باخ بوضوح كلّ عبارة. ومع أنَّ الكلمات الروسية التي كان يعرفها بالكاد تكفيه لفهم كلّ شيء، لكن الخطر زاد من استيعابه: لقد أدرك وفهم الشيء الرئيس وهو التهديد المخفي في الكلام.

اهتزَّ إطار النافذة من الضَّرب ورنَّت الشظايا وهي تتساقط وجعلت تُقرقِع تحت ثقل جسد كبير، أحدهم تسلقَ من النافذة، كبير وثقيل؛ جُرِحَ بالزجاج وتمتم بصوت منخفض بشتائم لا يفهمها باخ لكنه خمن معناها.

في محاولة للتحرك بصمت، زحف باخ إلى الأرض ونهض على ركبتيه وسحب خلفه كلارا التي ذُهِلَت. وعندما صحت ووجدت نفسها بقربه (وهي تتنفس بسرعة وبشكل متقطع من خلال أسنانها، كما لو كانت ترتجف في الصقيع) أحنى رأسها نحو الأرضية الترابية ودفعها في ظهرها: بسرعة، تحت السرير! لقد فهمت الأمر وتوغَّلت على عَجَل في الفجوة المُتربة وسحبت حواف قميص النوم خلفها. أخرج باخ بقية الملابس من متن السرير باللمس ودفعها إليها. اختبأت كلارا ولم يَعُد يُسمَع حتى تنفسها.

وكان الشخص الموجود في المطبخ، صاحب الصوت السليط والجسم الثقيل، قد قفز إلى الأرض (طقطَقَ الزجاج تحت جزمته) ودفع الترباس إلى الخلف وفتح الباب الأمامي:

– ادخلوا «Entrez»[1] أيها السادة! أو ماذا ستُدعَون هناك الآن بالطريقة الجديدة...

– لا تهذر، يا أحمق! قال صاحب الصوت الآمر والهادئ، وقد أصبح داخل المنزل. – الآن سيرتب المالك هذا «الأنتريه» من أجلك بإطلاقة بين عينيك من بندقية بسبطانتين...

لم يعرف باخ ماذا يجب عليه أن يفعل. فكلّ ما يمكن الدفاع به

1- Entrez – وردت الكلمة بالنص الأصلي باللغة الفرنسية وتعني «ادخل». (المترجم).

السكاكين والمطارق والمقالي والأواني الأخرى كان في المطبخ. والمذراة التي كان يسندها كلّ ليلة على عضادة الباب أيضاً هناك. والمناجل والمعاول والسواطير في العنبر. لم تكن ثمة بندقية في المزرعة. وفي غرفة النوم لم يكن هناك شيء على الإطلاق باستثناء السرير وخزانة الملابس وزوج من الكراسي. انسلَّ باخ على أطراف أصابعه إلى النافذة وتلمَّس المقعد الصغير عند الحائط الذي كانت تيلدا ذات مرة تحب الجلوس عليه خلف عجَلة الغزل، والآن تجلس عليه كلارا في المساء تحلّ الأربطة عن حذائها. أمسك المقعد من الأرجل المنحوتة ورفعه فوق رأسه وتجمد عند الباب: سوف يُسقِط الرجل الأول، الوقح، بضربة. سيحاول إصابته في يافوخ رأسه. كما اعتاد غاوف جزار الخنازير أن يقول، «اضرب الثور والخنزير في الجبهة، واضرب الرجل على يافوخه». إذا حالفه الحظ، فسوف يسقط الرجل على الأرض. ثم ما العمل، بعد ذلك؟

– ولربما، فجأة لا نجد هنا صاحباً للدار على الإطلاق، بل صاحبة الدار؟ طحّانة مليحة؟ قال صاحب الصوت السليط وهو يتمشّى بسرعة في غرفة الضيوف، من الجدار إلى الجدار. فرقع بويبُ الموقد، وأضاء الشق الموجود أسفل الباب بلون أصفر رقيق على ما يبدو، أشعلوا شمعة في الغرفة. – آه، أيها السادة؟! قلنسوة نسائية خفيفة من الدانتيل. أظافر نظيفة وردية، وتتوهج. غمازات على الخدين. ورائحتها مثل... ماء الخزامى من متجر كونتورين، القارورة بروبل وعشرين (كوبيك)...

– تبّاً، يا لها من قذارة، لقد أثرتَني! قال صاحب الصوت الآمر مرة أخرى. – اذهب تحقق من المنزل، يا «خشخيشة الأطفال». كيف كان عقيدك يتحمَّلك... وأنت لماذا تجمدتَ أيها الصغير؟ فتش الخزائن، تحت الأرض، العلية. ابحث عن مواد غذائية وعن عيدان ثقاب وأسلحة. هيّا!

إذن، هناك أيضاً شخص ثالث. كم مِن الضيوف غير المدعوين باغتونا؟

انفتح الباب فجأة رُفِسَ بجزمةٍ. تبيَّن أنَّ أحدهم ضربه بوجهه بشدة لكنَّ ذلك كان مجرد ضوء خافت. لم يكن لدى باخ الوقت الكافي لفعل أيّ شيء، ولم يتمكن حتى من أخذ نَفَس، وهكذا تجمَّدَ من دون أنْ يتنفس، وبقي ممسكاً بالمقعد بيديه الممدودتين.

نظر أحد الرجال إلى باخ من غرفة الضيوف كان ذا شعر قصير كثيف يغطي وجهه على طول عظام وجنتيه، ويرتدي معطفاً رسمياً قذراً فقدَ من زمن بعيد لونه وكتّافياته وسائر علامات الرُّتَب الأخرى. وعيناه طائشتان شبه مغمضتين إغماضة حقد تحدقان بوقاحة من تحت قبعة الفرو الرثّة. أدرك باخ أنه ذلك الوقح السليط. وقد حمل شمعة مشتعلة في يد ومسدساً في اليد الأخرى.

* * *

«ضع المقعد على الأرض»، قال وهو يؤشِّر بماسورة المسدس. هزّ باخ رأسه ببطء: لن أضعه. لكن يديه، اللتين ارتجفتا من التوتر، وكأنهما تحملان طاولة أو خزانة ذات أدراج بالكامل، فجأة ضَعُفتا لدرجة أنهما انحنيتا من المرفقين ووضعتا المقعد على الأرض بالضبط قرب الحائط حيث كانت مركونة من قَبْل. فأومأ الرجل برأسه مستحسناً.

«اجلس عليه الآن»، أشار مرة أخرى بالماسورة. أراد باخ أن يظلّ واقفاً مستنداً بكعبيه الحافيتين على الأرض لكنَّ ساقيه بدتا وكأنها تنحنيان من جرّاء حركات فوهة ماسورة المسدس الدوار السوداء المتمهلَة، ارتجفتا رجفةً قصيرة وبشكل مقرف وبعد لحظة أسقطتا الجسد المتجمد على المقعد. وفجأة أدرك أنه يشعر بالبرد، وكأنه لا يجلس في غرفة دافئة، بل في مكان ما على جرف نهر الفولغا. لفّ ذراعيه حوله لكي يكبح الرجفة.

– تعرَّفوا، أيها السادة! صاح السليط، وهو لا زال مسدِّداً مسدسه إلى باخ. – صاحب الدار المضياف! يبدو مظهره متوحشاً قليلاً، ولكن لطيف المعشر!

كان عدد الضيوف غير المدعوين ثلاثة فقط. بالإضافة إلى الرجل

السليط، ثمة رجل فظّ قوي البنية: وجهه كالميكي[1] عريض ذو لحية مُنْفَرِجة وعينين ضيقتين تختبئان تحت جفنين متورمين وأنف قصير بشكل غير اعتيادي يعطيه مظهراً يشبه مظهر الحيوان، قريباً بالشكلِ من الخفافيش أو من القطط البرية. وصبي يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، ذو جبهة كبيرة وعينين برّاقتين ورقبة ذات حرقدة كبيرة منتصبة بشكل عمودي بارزة من الكنزة الكبيرة الحجم التي لا تتناسب مع حجمه. تَجَمَّعوا حول باخ وهم يبحلقون في وجهه. لاحظ باخ في يد الرجل الفظّ مذراته وخلف ظهره بندقية.

– ألمان، قال الرجل الفظّ بثقة وهو يحملق في باخ. – بالتأكيد يجب أن يكون عند هذا الشخص ما يخفيه في المنزل. الألمان شعب مُدَّخِر.

– ليتنا نبقى في ضيافته بضعة أيام – ألقى السليط نظرة حالمة حول غرفة النوم، ونَكَشَ بماسورة المسدس الغطاء المحشوّ بريش البط المتدلّي على الأرض. – ونحصل على قسط كافٍ من النوم ونأكل حتى نشبع من حساء الضأن الألماني. فليس كلّ ما في الغابة ذئاب.

– ابقَ في ضيافته، وافق الرجل الفظّ بسهولة. – وسيوقظكَ المفوَّض الأحمر[2] عندما تضطجع في الفراش الريشي الناعم بعد حساء الضأن وتبدأ تحكّ القمل على بطنك. وبحلول ذلك الوقت، سنقترب أنا والصبي من الوصول إلى مدينة فولسك.

وبعد أنْ أدار باخ رأسه إلى الحائط نظرَ شَزَراً ليتحقق: إنْ كان يبدو طرف قميص نوم كلارا من تحت السرير؟ كلّا، إنه لا يُرى: فالفجوة تحت

1- نسبة إلى كالميكيا، الكالميكيّون هم من شعوب روسيا الذين هاجر أسلافهم من منغوليا في القرن السابع عشر. وقد أنشؤوا خانات الكالميك في 1630–1724 في منطقة شمال القوقاز الروسية. ويشكلون اليوم الأغلبية في جمهورية كالميكيا ذات الحكم الذاتي على الساحل الغربي من بحر قزوين. (المترجم).

2- الأحمر نسبة إلى الحمر – وهي تسمية أُطلقت على أنصار الثورة الاشتراكية خلال الحرب الأهلية في روسيا السوفيتية مقابل البِيض – مؤيدي النظام القيصري القديم. (المترجم).

السرير سوداء تماماً. وأدارَ بصره على عجل حتى لا يلاحظه الضيوف، وجعلَ ينظر إلى السقف.

– لمن قيل فتّش المنزل! ألقى الرجل الفظّ نظرة سريعة على الصبي، فهرع هذا إلى المطبخ وهو يجرّ خفّيه الصغيرين ويخلع حقيبة القماش الكبيرة من كتفيه أثناء السير. ثم وجَّهَ خطابه إلى السليط: – أنت راقب صاحب الدار. أما أنا فسأتجول في الفناء، وألقي نظرة على مزرعة الألماني المتبجح. وخرج، مستنداً على المِذراة كما يستند على عصا.

– أعطاني الله رفاقاً، تمتم السليط بصوتٍ خافت مع نفسه. – إما أنْ تُجهِز عليهم، أو أنْ تواصل الصداقة معهم...

طقطقت الأواني في مكان ما في المطبخ ورنَّ الزجاج وقعقعت أغطية القدور فتَّش الصبي جاهداً في المطبخ.

وضع السليط الشمعة على صندوق الأدراج من دون أنْ يحوِّل ماسورة المسدس (بمذخر البكرة) عن باخ وجلس على السرير. جلس لمدة قصيرة من الوقت وهو يمسِّد بتلذّذ الفراش الناعم بيده القذرة.

– انظر لديَّ هذا! حذَّره مهدّداً إياه بالمسدس كما يُهدَّد الأطفال الصغار بالإصبع، ثم استلقى على ظهره إلى السحابة الوثيرة من الوسائد والشراشف مطلقاً أنيناً طويلاً ومتواصلاً.

بانت فوهة المسدس من كومة القماش وطيات الريش فقد وجَّهَ السليط سلاحه إلى باخ واستلقى هناك، ناظراً إليه بعينين خَدِرَتين.

جلس باخ على المقعد وما زال يلفّ يديه على نفسه. لم يتركه الارتعاش في الجسم: لم ترتعش ذراعاه وساقاه فحسب، بل أعضاؤه الداخلية كلّها فقد خفقت ضلوعه وبطنه وقلبه وبقية أحشائه خفقاناً خفيفاً، كلّ عضو على حدة، مثل نوى الخوخ الشوكي في خَشخيشة الأطفال. سوف يغادر الضيوف قريباً. وسيأخذون معهم الطعام. كيس الحمّص وسمك الفرخ المجفف ودقيق الجزر والتفاح المجفف... ليكن ذلك. لا توجد عيدان

ثقاب في المنزل منذ سنوات. وليس ثمة أسلحة. لن يجدوا سوى الطعام. وسوف يأخذون الطعام ويغادرون. سوف يغادرون. سوف يغادرون.

– أجل، إنكم تعرفون كيف تنامون، نهض السليط من الفراش متحسِّراً، وبقي أثر تقعّرٍ على الشرشف المفتول.

اقترب من خزانة الثياب ذات الأدراج، ونظر بلامبالاة إلى الغطاء الخيطي الذي يزينها، والذي طُرِحَ فوقه مجلد غوته من مدة سبع سنوات. وسحب الدرج العلوي: قمصان رجالية، جوارب صوفية مخططة، قفازات محاكة بوشي ناعم. حاول ارتداء القفازات تبين أنها صغيرة. بحثَ في القاع لم يجد سوى بضعة أزرار من العظام.

نظر باخ إلى حركات السليط البطيئة والمملّة ولم يستطع أن يتذكر على أيّ من الرفوف وضِعَت ملابس كلارا. القشعريرة منعته من أنْ يتذكر فقد انتابت جسدَه الرجفةُ إلى درجة خاف معها أنْ يسقط من على المقعد.

سحب السليط الدُّرج الثاني: أكوام مُرَتَّبة من الشراشف وأغطية الوسائد ذات شرائط مطرزة بخطوط رقيقة؛ وزوج من المفارش المرقعة من قطع قماش مختلف الألوان والأشكال. ومفرش مائدة ذو رسوم مربّعة. وهنا كذلك – لا شيء.

أمسك بمقبض الدُّرج الثالث، لكن في تلك اللحظة انهار باخ من المقعد إلى الأرض واندفع خارجاً من غرفة النوم في وضعية القرفصاء.

– أيها الفتى! صرخ السليط وهو يهرع على أثره. – أمسكه!

لم يكن لدى باخ خطة أراد ببساطة إخراج الغرباء من المنزل. وأثناء السير قفز على قدميه واندفع نحو الباب، ولكن انقضَّ على ركبته ثمة شيء عظمي وسريع الحركة إنه الصبي. فسقطا معاً، وجعلا يدوران متشابِكَيْن. ثم ارتمى فوقهما جسد السليط الثقيل.

تشبَّثَ شيء ما بباخ وضربه ودوَّره وجرَّه. فتخلَّص منه وهرع إلى الباب وركله. أحسَّ بأنفاس أحدهم من جميع الجهات. حلَّت الحمى

محل القشعريرة على الفور، وكأنه أُلقيَ به في فرن مشتعل. شعر بحرارة في العمود الفقري والرقبة، ونضح وجهه بالعرق. وضرب جبهته بالحائط وكتفه بساق الطاولة. طقطقت الأواني ورنَّت المَغارف الساقِطة. وخشخَشَتْ قطع زجاج النافذة المكسورة وانغرزتْ بضع شظايا في ظهره. وفي تلك اللحظة أصدر أحدهم فحيحاً من الألم، قريباً جدّاً منه وخفَّت القبضة الماسكة بباخ، فزحف إلى الباب على راحَتَي كفّيه فوق كسَرِ الزجاج. ثم دفع الباب بجبهته، واستدار نحو ذَيْنِكَ الشخصين ليتأكد: هل يزحفان نحوه؟ لقد أراد اجتياز العتبة فاصطدم رأسه بجزمة قذرة ومتينة.

رفع عينيه فرأى الرجل الفظّ ذا الوجه الكالميكي - لقدْ تمشّى في الفناء وعاد إلى المنزل. وعلى ما يبدو، تجول في جميع أرجاء المزرعة وهو يحمل المذراة في وضعية الاستعداد. وبهذه المذراة نفسها دفع باخ برفق في ظهره: عُدْ ثانيةً إلى المنزل. فبدأ باخ يزحف، وشعر أنّ يديه المخدوشتَين الداميتَين تحرقانه. وقد جُرِحَ الرجل السليط أيضاً، على ما يبدو، إذ جعل يهزّ يده في الهواء بجزع وقطّبَ وجهه.

- ألم تألفا بعضكما بعضاً؟ ضحك الرجل ضحكة ساخرة، وهو يمسك باخ بالمِذراة على الأرض، كما تُمسَك السمكة بحربة الصيد. - إذن، فكيف سنحلُّ ضيوفاً؟ وكيف سنأكل؟

ألقى السليط نظرة من دون أن يردّ وذهب إلى غرفة النوم. وقعقعَ هناك في أدراج الخزانة ويبدو أنه كان يبحث عن شيء يمكن أنْ يضمِّد به يده.

- فيما بعد سنأكل، فتح الصبي بفخر حقيبة الظهر الملآنة بالطعام الذي عثر عليه في المنزل.

أومأ الرجل الفظّ برأسه استحساناً.

فجأة، عمَّ الهدوء في غرفة النوم، وبعد لحظات دوَّت قهقهة بصوت عالٍ في جميع أنحاء المنزل. وظهر السليط في المدخل، ووجهه أحمر من الضحك، ممسكاً في يده التي ضمَّدها كيف ما اتفق بشيء أبيض صغير قلنسوة نسائية.

– الطحّانة المليحة، أيها السادة! أعلن بصوت عالٍ.

ارتجف باخ، ولكن حراب المذراة الحديدية الأربع ضغطته بقوة على الأرض.

– إنه ليس وقت التصرفات الدنيئة، لقد بدأ نور الصباح يتكشَّف، قال الرجل الفظّ وهو يضغط أسنان المذراة بشدة على ظهر باخ إلى درجة لم يعد قادراً معها على التنفس. – من يدري، أيّ ضيوف يمكن أن يقدِموا إلى هذه المزرعة في النهار. سنوثِق رباط صاحب الدار حتى لا يبوح بسرّنا ويُخبر عنا في وقت مبكر، ونمضي مسرعين من هنا. هيّا يا فتى، ابحث لي عن حبل!

فتَّش الصبي في المطبخ وفي غرفة الضيوف؛ ولأنه لم يعثر على حبل قرَّر أن يشقّ الشرشف إلى قصاصات.

– وإذا ما أفشَتْ سرَّنا؟ قال السليط من دون أنْ يرفع بصره عن النظر إلى القلنسوة من جميع الجهات، وكأنه لم يرَ شيئاً أكثر إثارة للاهتمام منها، بل وحتى إنه قلَبَها على البطانة. – قبل أنْ نتخطّى عتبة الباب، تكون هي في أقرب قرية تضرب الأرض بقدميها السريعتين – توب توب توب؟ وتحكي عنّا بشفتيها الحمراوين – وش وش وش؟

تنهد الرجل الفظّ تنهّداً طويلاً وبكآبة. وصمتَ لمدة من الوقت.

– حسناً، ابحث عن امرأتك، ولكن أسرِع.

– كيف يمكن أنْ أبحث عنها؟ ألقى السليط القلنسوة في الهواء والتقطها بأسنانه، مثل جرو مُرَوَّض؛ وزمجرَ قليلاً وهو يتحامق ويهزّ برأسه ثم بصق القلنسوة على الأرض. – إنها في غرفة النوم، تحت السرير. ليس عبثاً أنَّ صاحب الدار أراد إخراجنا من هناك.

ضغطَ باخ وجهه على الأرض بكلّ ما أوتيَ من قوة حتى شعر بغبار الزجاج المؤذي ينغرز في جبهته، وبشيء كثيف وأسود يسدّ عينيه. سرَت أمواج ساخنة عبر بدنه من بطنه إلى حلقه؛ وجعل يجأر وهو يتلوى

متناسياً المذراة المغروزة في ظهره. ولكن جثة ثقيلة جثمت عليه من فوق ودحرجته على الأرض مثل العجينة واعتصرت الهواء من رئتيه: الرجل الفظّ انكبَّ على باخ والتفّ الصبي حوله وربط ذراعيه وساقيه وراء ظهره. وبسبب الضجة لم يسمع ما كان يحدث في غرفة النوم. لقد عقفا ذراعيه بإحكام حتى التقى عظما كتفه معاً ولفّا كوعيه وركبتيه في عقدة واحدة كبيرة؛ وتركاه وحده. تمكّنَ بطريقة ما من رفع رأسه: لا شيء سوى الظلام، ظلام مُطبِق تماماً. وفي هذه الحال داهمه ألمٌ في كتفيه المخلوعتين، لكنه استمرّ في مدّ رقبته والتدحرج على الأرض ورأى أخيراً مثلثاً ساطعاً في الظلام المحيط شطراً صغيراً من غرفة النوم: زاوية السرير مع غطاء الريش المتدلّي وساقَي شخص ما وعدد لا يُحصى من الأرجل بأحذية عسكرية فضفاضة وبجزمات طويلة وبأَخفاف ممزقة. وعندما أومض شيء ساطع مألوف (طرف ثوب كلارا) بين أرجل الآخرين بدأ يصرخ. صرخ بصوت عالٍ لدرجة أنه نفسه قد صمَّ من صراخه. ثم شعر بضربة على جنبه التفَّ العالم من حوله، وانغرزت في فمه كتلة مشدودة من القماش ذات جُلَفٍ من الدانتيل إنها القلنسوة. وضِعت له بدلاً من الكمّامة. ومن مكان ما في الأعلى، انحدرت سحابة كثيفة خانقة وسقطت وغطَّت رأسه.

ارتعش تحت هذه السحابة غير مُدرِك أين يوجد الجزء العلوي منها وأين الجزء السفلي، وأين اختفت يداه ورجلاه وهل ما زالت موجودة لديه، وأيّان ينتهي هذا الظلام الخانق، لقد طال على ما يبدو حتى استنزف كلّ قطرة عرق في جبينه وخديه. فاحت من السحابة رائحة مألوفة، بل حتى إنها رائحة من خاصَّته. وأدركَ فجأة: إنها ليست سحابة على الإطلاق، بل غطاء الريش، والأدقّ غطاؤه المحشوّ بريش البط (الذي أصبح رقيقاً على مدار سنوات عديدة لكنه ما زال دافئاً ويُذكّره برطوبة الشقة الحكومية في مبنى المدرسة وبفصول الشتاء القارسة التي قضاها في المزرعة) المشبَّع برائحته ورائحة امرأته الحبيبة. والمرأة نفسها المليحة وذات اليدين النحيفتين والشعر الناعم موجودة الآن على الجانب الآخر، من الخارج.

كان لا بدّ من الوصول إليها وإنقاذها. لكن مِمَّن ينقذها، نسي باخ لمدة وجيزة. ونسي كذلك ما اسم تلك المرأة. وقد نسي أيضاً كيف انتهى به الأمر إلى هنا، تحت غطاء الريش...

* * *

عندما تمكن من الخروج، كان قد حلَّ الصباح. إذ انساب ضوء الصباح الوردي من خلال شقوق المصاريع الموصدة. كانت إحدى النوافذ في المطبخ مكسورة. والبابُ مغلَقاً. وتناثر على الأرض الحمّص المُبَعثَر المختلط مع كسرِ الزجاج. وعند الباب انتصبت المذراة مستندة بإحكام إلى العضادة.

تورَّم وجهه واحمَرَّ. وعلى ما يبدو، يداه أيضاً، لكن باخ لم يكن متأكداً: شعر بألم في يديه ورجليه. تحرَّك بصعوبة مرتكزاً على ذراعيه وركبتيه المخدرة وزحف كالدودة إلى فوهة الفرن التي كانت قد دُقَّت تحتها صفيحة حديدية كبيرة من أجل الجمر المتساقط. وتقلَّبَ وهو يحكّ العقدة المربوطة على ظهره بحافة الصفيحة إلى أنْ قطعها. وبعد أنْ أطلقَ يديه، جلس، وفكَّ وثاق رجليه كيفما اتفق. فجرى الدم بدفعات في راحَتَي يديه اللتين كانتا قد تورمتا وازرقَّتا، وفي قدميه وفي رأسه. وعادت ذاكرته بالطريقة نفسها على شكل دفعات.

في بادئ الأمر ومضتْ، بشكل واضح ومكبَّر، أمام عينيه وجوه السليط والصبي والرجل الفَظّ ذي العينين الكالميكيّتين. ثم تذكَّر كيف تسلَّلوا إلى المنزل. وكيف تصرَّفوا كما يحلو لهم في المطبخ. وكيف عثروا على باخ.

نهضَ على قدميه. وبعد أنْ تمسَّكَ بالحائط مشى متعثِّراً عبر غرفة الضيوف إلى غرفة النوم. وظلَّ واقفاً لمدة طويلة عند كوَّة الباب تنصَّتَ إلى الصمت في الداخل، من دون أنْ يجرؤ على الدخول. وأخيراً دفع الباب المفتوح قليلاً.

كانت جالسة عند النافذة، في مواجهة الضوء، على كرسي لم يرَ باخ سوى هالة من الشعر المسدول اخترقتها أشعة الشمس. كانت الأرضية

مملوءة بالشراشف والوسائد وأغطية الوسائد الممزقة والتنانير والقمصان وبخيوط الخرز المقطوعة وأكوام البياضات من الخزانة ذات الأدراج. ومشى على هذه الملابس وهذه البياضات متمرِّغاً بقدميه الحافيتين على قطع القماش الأبيض والناعم متجهاً نحوها.

مشى وأراد بتَوَجُّعٍ أنْ يناديها باسمها، لأن الكلمات الأخرى كلّها أصبحت الآن زائدة عنً الحاجة، بل وحتى تجديفية. لكن اسمها الخفيف النقي والشفّاف، مثل مياه النهر، أبحرَ نحو مكان ما، وتفتَّتَ إلى حروف منفصلة. فتمسك بهذه الحروف، لكنها أفلَتَتْ منه وذابت في هواء الصباح الشفاف. كان واثقاً من أنه سيتذكره، وحتماً سيتذكر الاسم بمجرد أنْ يرى وجهها المألوف. عرجَ نحو النافذة مستَتراً من الوهج الذهبي، وكأنه يخشى أنْ يُصابَ بالعمى. وأخيراً استدار عن الضوء ونظر إلى المرأة.

كانت عارية. لأول مرة، رآها باخ هكذا مخلوقة من حليب وعسل، من نور رقيق وظلٍّ مخملي. كانت يداها الهزيلتان على بطنها المستديرة، تغطيانها وتحميانها. وعيناها مغمضتين، وملامح وجهها جامدةً إنها نائمة. وكانت شفتاها مبتسمتين.

أراد أنْ يغمض عينيه وأنْ يشيح بوجهه حتى لا يرى هذا الابتسامة الحكيمة والوديعة، وأنْ يصرخ ويوقِظ المرأة أو يلطمها بشدة على هاتين الشفتَين الباسمتين، أو أنْ يعمى هو نفسه لكنه لم يستطع فعل أيّ شيء من ذاك، وجعل ينظر، فحَسْب... لقد عمَّ السكون؛ وبالكاد يُسمَع أزيز الرياح ليس في الخارج، بل في مكان ما داخل رأس باخ، ويزداد تدريجيّاً، ويتحول في بعض الأحيان إلى صفير يهبّ ويحمل اسم المرأة والأسماء الأخرى وكلمات غيرها والحروف نفسها بعيداً إلى مكان ما...

* * *

منذ ذلك اليوم توقف عن الكلام. إنَّ الأسماء والكلمات والأصوات سرعان ما عادت إليه، لكن لسبب غريب كانت خفيفة وفارغة مثل قشور عباد الشمس. صحيح، كان بإمكانه أنْ يشدّ شفتيه ويحرّك لسانه وأنْ

يسنده إلى حنكه وأنْ يلفظ شيئاً ما لا معنى له بصوت عالٍ، كأن يقول: حمّص أو زجاج أو مذراة أو كلارا. كان بإمكانه أن يفعل، لكنه لم يعرف ما إذا كان يريد ذلك. ولهذا فضَّلَ أنْ يبقى صامتاً. لم تتفاجأ كلارا، وإنْ تفاجأت بالفعل فهي لم تقل شيئاً. عندما أدركت أنَّ أسئلتها القليلة التي وجهتها لباخ ظلّت من دون إجابة، توقفت عن طرحها على الإطلاق. ولو امتعضت من صمته وصرخت وضربت صدرها غضباً ربما لم يستطع باخ أن يقاوم، ولكان فرجَ شَفَتَيْهِ وصفعَ لسانه. لكن كلارا كانت هادئة، كما لو أنَّ الصمت لم يزعجها على الإطلاق. وهكذا أدرك أنّ الأفضل أن تبقى الحال كما هي.

لم يستذكرا ما حدث. قاما بغسل جميع الملابس والبياضات ليس بماء البئر المالح، بل بالماء المتدفق في نهر الفولغا: قاد باخ الزورق الصغير إلى الأعماق بعد أن دفع بالمِجذاف قِطَع الجليد التي كانت لا تزال ثقيلة من فصل الشتاء، وشَرَعَت كلارا، منحنيةً على متن الزورق، بغسلها وشطفها لمدة طويلة، من دون أنْ ترأف بيديها اللتَين احمرَّتا من البرد. ورتقا جميع الشراشف وأغطية الوسادات الممزقة ورقّعاها. ونظّفا الغطاء المحشوّ بريش البط ونفَضاهُ في مهب الريح. وسدّا النافذة المكسورة بالخِرَق. وكنسا المنزل، وطمرا الأرض برمل جديد. ووضَعا المذراة في سقيفة التخزين.

رجعَ باخ مرة أخرى ينام على الدكة بجوار الموقد. لم تعترض كلارا عليه. ولو جاء إلى غرفة نومها ليلاً لسبب ما، فآنذاك لن تمانع بالتأكيد لا يعني ذلك أنها لم تعد تبالي بالعالم المحيط بها أو لا تبالي بباخ نفسه، بل إنها اعتزلت إلى حدّ ما: وصارت تُسلِّم بالرضا نفسه للطقس الجيد والطقس السيئ وللصيد الوفير وللصيد الشحيح.

وبالإضافة إلى هذا غدت كلارا ودودة. إنَّ هذا الودّ الذي ظهر فجأة في صوتها قد أربك باخ بشكل غير عادي وذكّره بالأشهر الأولى من تعارفهما، وبالدروس «العمياء» التي جرت من خلال الستارة. عندما كان

باخ يفكر في أسباب هذا الودّ تنتابه الرغبة بأن ينهض ويخرج من المنزل وألّا يعود إليه أبداً: وأن يسير، يسير بسرعة، عبر الغابة على طول الطريق في السهب وألّا يأكل ولا ينام، بل أنْ يهرب بعيداً ويغور عن الأنظار. وعندما لا يفكر في تلك الأسباب تنتابه الرغبة بأن يغمض جفنيه ويستمع إلى كلارا، أنْ يستمع إليها إلى ما لانهاية. ولكن إلى أين كان سيولي وجه؟ وليس ثمة مكان يذهب إليه: إنَّ كلارا تعيش هنا، في المزرعة. ولكن كلارا هذه جديدة وغير مألوفة بالنسبة إليه.

جمالها، الذي كان قبل هذا رقيقاً وحاسماً، طفحَ فجأة بقوة من نوع خاص: بدت عيناها أغمق وأكثر تعبيراً، وأصبحت شفتاها أكثر اكتنازاً وإشراقاً، وشحوبها الأبدي تحوَّل إلى حمرة غامقة ووردية مثيرة. لم يعد أحدٌ الآن يحسبها مراهقة عندما يراها من الخلف فكلّ حركة من حركاتها توحي أنها امرأة. كان باخ يخشى هذه المرأة الجديدة، الجميلة واللامبالية، ويخشى أنها جاءت لتحلّ إلى الأبد محلّ كلارا القديمة التي يفهمها ويعزّها. لم يدرك من أين جاءت هذه المرأة الجديدة إلّا في عِزّ الصيف: حينما تَفَطَّنَ إلى أنَّ كلارا تنتظر مولوداً.

حدث هذا في شهر تموز (يوليو). كان باخ آنذاك جالساً على الشاطئ، وخرجت كلارا، التي أَعْياها طول مدة السباحة في نهر الفولغا، من الماء بصعوبة ومشت على الأحجار الكبيرة. ابتسمت له ابتسامتها الجديدة، الوديعة والرزينة، بعد أنْ مالت برأسها قليلاً إلى الجانب وعصرت شعرها المبلل. كانت الشمس تضيء جسدها الذي التصق عليه القميص التحتي المُبْتَل، فتذكَّر باخ فجأة أحد تماثيل الجبس في منزل فاغنير الطحان. وجعل يديم النَّظَرَ إلى الخطوط الدائرية الناعمة التي تنساب من صدر المرأة إلى بطنها الممتلئة ووركيها، وتجمَّدَ ببطء من الداخل: فقد أدرك أخيراً ما حدث لهما آنذاك، في ذلك الصباح من أيام شهر نيسان (أبريل) الذي أرادا نسيانه ونَفضه في الريح وغسله في نهر الفولغا، والذي عاد إليهما الآن كما يعود إلى الشاطئ مع المدِّ الشيءُ الذي أُلقي في الأمواج.

أما كلارا فقد ابتسمت برباطة جأش، مثل التمثال، غير مبالية بما إذا كان باخ يراها أم لا، وبما سيكون شعوره لو رآها. ابتسمت مثل ابتسامتها ذلك الصباح الرهيب. ابتسمت فاهمةً ومدركةً كلّ شيء منذ زمن بعيد. ابتسمت، كما هي الحال دائماً الآن...

* * *

سيحين موعد ولادتها في نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر)، بحلول عيد الميلاد. جاءت الآلام الأولى عشية عيد الميلاد، لكن مع بداية الفجر اختفت. ومن ذلك اليوم كانت الآلام تأتي كلّ ليلة، مع النجوم، بدلاً من الأحلام قبل أنْ يحل شهر كانون الثاني (يناير). كانت كلارا، الشاحبة ذات الشفتين المنتفختين والبطن الكبير، تَتَمَشَّى باستمرار في المنزل: من المطبخ إلى غرفة الضيوف ثم إلى مهجعها وبعدها إلى غرفة والدها وغرفة تيلدا الفارغتين، ومن ثمّ إلى المطبخ مرة أخرى. وكانت تنام قليلاً وتأكل أقل. وكانت تجلس أحياناً على الكرسي وعلى السرير وبطنها الضخم أمامها بعد أن تحني ظهرها وتلقي برأسها الأشعث إلى الوراء ولكن بعد دقيقة تنهض مرة أخرى وتمشي على طول المسار الذي سارت فيه مثل السجين في الزنزانة. ما تذكر باخ في تلك الأسابيع سوى جرّ القدمين الذي لا نهاية له على الأرضية الترابية وعواء العاصفة الثلجية خارج النافذة.

كان الشتاء كثير الثلج، وقد طُمِرَ المنزل إلى حدّ النوافذ وصار يتعذر المرور. ولم يكن لدى كلارا من الملابس ما يمكن أنْ تخرج به إذ لم يكن أيّ معطف من معاطف الفرو القصيرة ولا أيّ كنزة صوفية يتلاءم مع حجم بطنها. ولهذا بقيت حبيسة المنزل. في شهر ديسمبر (كانون الأول) استمرّ باخ في العمل على إصلاح بعض الأشياء: كان ينظف الفناء من الثلج ويزيح تراكماته من السطح. ولكنه مع بداية شهر يناير (كانون الثاني) صار يخشى أنْ يترك كلارا وحدها لمدة طويلة لا يفارقها متوقعاً ولادتها في اليوم الأول من العام، وفي اليوم الثاني، وفي اليوم الثالث...

وقد أضنى طول الانتظار الاثنين كليهما. تحولت الدوائر الموجودة تحت عيني كلارا إلى اللون الأزرق، وعيناها نفساهما تعكّرتا من التعب وبهت لونهما؛ وشعرها، الذي عادة ما كان ناعماً ولامعاً ومضفوراً في جدائل وملفوفاً على شكل كعكة مبرومة، فقدَ الآن لمعانه ولم يعد مسرَّحاً كالسابق انحلَّ بلا ترتيب فوق صدغيها وجبينها. لم يكن بإمكان باخ رؤية نفسه، لكن في إحدى الأمسيات، بعد أنْ أسبل عينيه، لاحظ في لحيته الخفيفة كثيراً من الشعر الشائب الذي باغته على حين غفلة.

خلال الأشهر الستة الماضية، فكَّر باخ كثيراً في كلارا والطفل الذي ينمو في بطنها، إلى درجة أنه الآن، عندما حان الوقت الذي سيستقبله فيه في العالم، سئم بالفعل من التفكير والإحساس. في البداية، لم يكن ثمة شيء في روحه سوى الرعب من فكرة أنَّ بذرة شخص آخر نُقِلَت بوحشية إلى رحم امرأته الحبيبة واستقرت فيه ونبتت هناك وتعيش الآن وتتغذى على عصارتها وتكتسب القوة منها، إنَّ هذه الفكرة جعلته يلهث طوال الوقت وبصوت عالٍ، ويتصبب عرقاً لزجاً على صدغيه وكفّيه. كان باخ يستلقي ليلاً على الدكة من دون أنْ يغفو، شابكاً ذراعيه على صدره ومتوتراً لكي يكبح جماح الرعاش الشديد الذي أنهك جسده. كان يستمع إلى تنفس كلارا المنتظم في الغرفة المجاورة وينضح عرقاً بارداً. ويتمنى أنْ يسقط من الدكة إلى الأرضية الطينية ويتحطم رأسه الغبي الذي لا قيمة له حتى الموت.

ثم جاء وقت الاشمئزاز. إذ بدأ يتخيّل قطعة صغيرة من بدنٍ بحجم حبة البازلاء ثم بحجم قرن الفاصوليا ثم بحجم أصبع الإنسان تنضج داخل بطن كلارا وتتمدّد وتتغطى باللحم وتُقطّب وجهها وتفتل بدايات الذراعين والساقين، تشبه القزم القبيح والرجل الفظ صاحب عظام الخدّ الكالميكية وعيني الحيوان. وتشبه السليط شبيه الخنزير والصبي النحيف صاحب وجه النغل والرقبة ذات الحرقدة الكبيرة. وشبيهة بالعجول التي لم تولد بعد والتي رآها باخ في غنادينتال. كان شعور الازدراء لا يقاوم حتى إنَّ باخ توقف عن النظر إلى كلارا: كان مشهد بطنها الضخم غير

الطبيعي وثدييها السمينين يصيبه بالغثيان. وتمنّى أن تستيقظ ذات صباح وتجد جلطة من الدم على السرير جنينها المولود قبل الأوان.

عندما استُصعِب المشي على كلارا وصارت سرعان ما تتعب، وتلهث من الصعود من شاطئ نهر الفولغا جثم عليها الأسى فجأة. نظر إليها باخ ذات مرة في شهر سبتمبر (أيلول)، عندما كانت تشطف الملابس في النهر وهي تقف على الحجارة وترفع أطراف تنورتها إلى الأعلى وشاهد: ساقين طويلتين ويدين هزيلتين وعنقاً نحيفاً فقراته بارزة كلّ شيء على شكل زوايا، حاداً ونحيلاً، البطن وحده تكوَّر بمرونة، آنذاك استجمعَ في نفسه كلّ القوة وكلّ الجمال. وصار يخجل من أفكاره الدنيئة وأوهامه المقيتة. وفكَّر في نفسه، ليكن، ليكن هذا الطفل غريباً وغير معروف ابن مَن. ولكنه جلب لكلارا السعادة وهذا أمر حسن. فَلْيَكُنْ.

وبحلول فصل الشتاء سئم باخ من الأفكار والمشاعر والشكوك وتوبيخ الذات. لم يبقَ من الأفكار شيء، سوى قلق الانتظار. لقد كان ينتظر قدوم هذا الطفل أشد تقريباً من انتظار كلارا نفسها من دون أنْ يفهم ما يشعر به الآن، ولا يستطيع أنْ يتصور كيف يكون شعوره عندما يرى الطفل، متمنياً شيئاً واحداً فقط: أنْ ينتهي أخيراً هذا العذاب الذي دام شهوراً.

في اليوم السادس من العام استيقظت كلارا في فراشها المبلل، الجنين على أهبة الاستعداد للخروج إلى العالم. بدأت تجول في المنزل بسرعة. وكانت في بعض الأحيان تتوقف وتمسك بظهر الكرسي وتنفخ بصوت عالٍ في السقف كاشفةً عن أسنانها حتى اللثة. تصوَّرَ باخ أنها تريد أنْ تصرخ.

عند الظهر قرَّرَت أنْ تكنس الأرضية. إذ من المعروف أنَّ الشبيه يُعالَج بالشبيه: اليرقان باللفت؛ والصداع المُقرِف بالجبنة ذات الرائحة الكريهة؛ وعند الأم التي تعمل بجدّ الطفل أيضاً سيعمل بضمير، ويمهد طريقه للخروج إلى العالم. فغسلت المنزل كلّه ونظفت الأطباق وفركت السماور بالرمل. وقد تعبت عند الغروب إلى درجة الرجفة في الظهر.

وفي الليل جاءت الآلام لكنها ليست ضعيفة من ذلك النوع الذي

اعتادت عليه في الأيام الأخيرة، بل آلام حقيقية. فوضعت سكين مطبخ على الأرض بجانب السرير عرفت من تيلدا أنَّ هذا سيزيل الألم. ووقفت على قدميها عند ظهر السرير وبجانب الطاولة وقرب الكرسي. وجلست القرفصاء ممسكة تارة بالموقد وتارةً بالخزانة ذات الأدراج وتارة أخرى بالمقعد المنخفض. استلقت على السرير وعلى الدكة. لم تصرخ. كانت تخشى أنْ تثير فزع الطفل؛ ولكنها كانت تنفخ بشدة وتضغط على أسنانها. اصرخي، أراد باخ أنْ يأمرها، لكن لم تطعه شفتاه اللتان اعتادتا على الصمت لشهور طويلة وفقدتا القدرة على نطق الكلمات.

بحلول صباح اليوم خارت قواها واستلقت على السرير من دون أن تتحرك، حتى إنها توقفت عن الأنين. وألقت برأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها. فصفعها باخ على خدّها لأول مرة في حياته لكي يوقظها. فاستعادت وعيها وبعد لحظة تقوست وجحظت عيناها وأخذت شهيقاً عميقاً: وخرج الطفل إلى الدنيا.

سقط الطفل مباشرة في يدَي باخ: أولاً، رأسه الكبير الساخن المغطى بزغب دَبق وببقعة اليافوخ الخافقة على الهامة؛ ثم الكتفان الصغيرتان واليدان الحمراوان بقبضتيهما المشدودتين؛ والبطن المستدير مع الحبل السري الرمادي؛ والرِّجلان الشبيهتان بأصابع البازلاء.

إنها بنت.

أمسكها باخ بكفَّيه مبتلةً وزلقةً وكثيرة الحركة خائفاً أنْ تسقط من يديه من دون أنْ يعرف أين يضعها وكيف يضعها. نظر إلى كلارا إنها ترقد بلا حراك وذراعاها هامدتان تتدليان من السرير. فوضع الوليدة على الفراش المجعَّد. مزق بضع قصاصات ولفّ بها الحبل السري. وجد السكين على الأرض وبطريقة ما اجتزّ الحبل، مضيِّقاً عينيه من رذاذ الدم. وفي تلك اللحظة فتحت المولودة فمها الصغير وبدأت تصرخ وترفس برجليها الملتويتين في الهواء.

استيقظت كلارا، وأدارت رأسها نحو الصراخ، لكنها لم تتمكن في فتح عينيها حتى النهاية. لفَّ باخ الرضيعة بمنشفة جافة ووضعها بجانبها تنهدت

بامتنان ودسَّت وجهها المبلل بالعرق في اللفة. فدثرَهما كلتيهما بغطاء ريش البط وخرج في الصباح البارد.

خرج من المنزل، واجتاز الفناء. وعندما وصل إلى الغابة توقَّف وأخذ بكفّه حفنة من الثلج وبدأ يفرك جاهداً وجهه ولحيته وصدره وكفّيه ليمسح الدم المتناثر من الحبل السري، وهو يلهث تارة من الاضطراب وتارة من التقزز الأخير. وبعد أن اغتسل، شعر فجأة بعطش غير مسبوق فبدأ يأكل الثلج، ملتهماً على عجل كتل الجليد التي قرقشت في أسنانه من دون أنْ يشعر بالبرد في حلقه. وكان بكاء الطفلة لا يزال يرنّ في أذنه. مشى ببطء مبتعداً عن هذا البكاء عبر ركام الثلج إلى النهر من غير أن يلاحظ أنه لا يرتدي سوى القميص وسترة القرغيزي الخالية من الأكمام.

قادته رِجلاه إلى الجرف. وهبطتا في الدرب الضيّق. وسارتا على جليد نهر الفولغا وهما غارقتان إلى الركبتين في الثلج الصَّلد. توقفتا في منتصف النهر غير عارفتين هل تسيران قُدُماً أم تعودان إلى الخلف. ربما، أنهما خدرتا فحسب. ألقى باخ برأسه نحو السماء الرمادية المتلبّدة بالغيوم البيضاء وأدرك بارتياح أنه لا يسمع البكاء: إنما هذه الريح تصفر في أذنيه، وصدح بعيداً رنين ناعم متنقّل من طبقة صوتية إلى أخرى. أجراس (صغيرة)؟

إنه صوت من الماضي البعيد الذي كانت فيه الزلاجات البهيّة المليئة بالمستوطنين الثملين والمرحين تندفع على طول نهر الفولغا المتجمد بالجليد، قُبَيل قدوم فرحة العيد وفي أسبوع عيد الميلاد وحتى في أيّ يوم أحد من أيام الشتاء عندما تريد الروح البهجة والسرور من خلال ركوب العجلات السريعة. اقترب الصوت وازداد؛ تداخلت معه أصوات بشرية مضطربة وصراخ امرأة ونثار من ضحكات وغناء. لقد ظهرت في غبش الفجر زلاجة تجرها ثلاثة جياد: إنها تندفع بسرعة كأنها تطير نحو باخ وهي ترشّ الثلج من تحت المزلقات.

وقف من دون حراك وجعل يراقب هذه السحابة الصاخبة والمتعدّدة الأصوات وهي تقترب منه. لاحظه مَن في الزلاجة وصفَّروا تحية له.

وعندما اقتربت الزلاجة خفَّفَت سرعتها قليلاً وقفز منها شابّ متورّد الخدين أبيض الأسنان وهرول نحو باخ غارقاً في الثلج وملوِّحاً بقبعة فرو. ابتسم ابتسامة عريضة نابعة من القلب كأنه يبتسم لشخص قريب منه وعزيز عليه؛ وبعد هُنَيْهَة، على ما يبدو انفجر ضاحكاً بفرح. وأثناء الركض، أراد أنْ يقول شيئاً، وفتح فمه، لكنه اختنق بسروره ضحك بسعادة وعانق باخ عناقاً حميماً وربَّت على ظهره كانت تفوح منه رائحة عرق الشباب الصحي والتبغ والفودكا وخبز الشيلم ثم انطلق عائداً على الفور ليلتحق بالرَّكب.

– ابتهج، يا عم! صاح في النهاية وهو يستدير. – وإلّا سوف تموت من دون أنْ تعلم! لقد وُلِدت الجمهورية الآن الجمهورية السوفيتية لألمان منطقة الفولغا![1]

وقف باخ بلا حراك في الثلج. نظر إلى الأشخاص غير المفهومين، واستمع إلى الكلمات غير المفهومة التي أصبحت أكثر هدوءاً مع كلّ ثانية ثم ابتعدت الزلاجة بسرعة.

– يعيش! صاح أحدهم من بعيد، بصوتٍ بالكاد يُسمَع. يعيش اليوم السادس من شهر كانون الثاني (يناير) من عام ألف وتسع مئة وأربعة وعشرين! تعيش الجمهورية الجديدة! يعيش فلاديمير لينين – زعيمنا العظيم والخالد!...

1– في 19 تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1918 تشكلت في منطقة حوض الفولغا أول منطقة حكم ذاتي تابعة لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية – كومونة العمال لألمان الفولغا. وفي 13 تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1923 وقع ستالين على مرسوم «تحويل تنظيم الكومونة الألمانية إلى جمهورية ألمان الفولغا ذات الحكم الذاتي». وفي 6 كانون الثاني (يناير) من عام 1924 اعتمد المؤتمر الإقليمي الحادي عشر لمجلس السوفييت في بوكروفسك قراراً «بشأن إعلان جمهورية ألمان الفولغا الاشتراكية السوفيتية ذاتية الحكم». (الملاحظة من الكاتبة).

-7-

الزعيم كان يحتضر. وانساب ضوء شمس يناير (كانون الثاني) الشاحب على وجهه الشمعي العريض الجامد بحفرتَي محاجر عينيه المستديرتين. وبحلول المساء، عندما أصبح الهواء كثيفاً وزحفت الظلال الزرقاء من أسفل الأشياء، سمح الأطباء بفتح الستائر فامتلأت الغرفة بأشعة شمس الأصيل الفاترة.

اللحية الحمراء الباهتة، التي رقَّت كثافتها بشكل ملحوظ خلال عام ونصف بسبب مَرضٍ منهك ومُسْتَعْصٍ، برزت فوق الشرشف الممدود تحت الذقن. تجمَّع الجلد الخفيف في ثنايا خشنة كبيرة على طول عظام الخدّ وحول العينين والأذنين وعلى درنات الجمجمة. والجفنان المُغمَضان متجعدَان ومن دون رموش تقريباً. كان بالكاد يمكن التخمين بأنَّ تحت الشرشف ثمة جسد مسطح ومنعدم الوزن. الصدر ساكن ولا يُسمَع منه إلّا في بعض الأحيان تنفس أجشّ ضعيف.

غفت الممرضة، ذات المريول الأبيض الذي تجعَّد قليلاً خلال الخفارة (المناوبة) التي استمرت يوماً وليلة، بعد أنْ أمالت رأسها بشكل غير مريح إلى الوراء على مسند الكرسي المرتفع المغلّف بغطاء من الكتان، وبسبب شعورها بالبرد شبكت قدميها المنتعلتين بحذاء من اللباد المُشذَّب. المكان في بلدة غوركي[1] مدفَّأ جيداً فالتدفئة بالبخار تعمل بشكل مثالي

1- عزبة «غوركي» في ضواحي موسكو هي مقرّ إقامة فلاديمير لينين الريفية. (الملاحظة من الكاتبة).

من دون انقطاع منذ زمن مالك الضيعة السابق اللواء (الجنرال ميجور) رينبوت؛ ولكن وصِفَ للمريض الهواء المنعش، فكانت الممرضة كلّ ساعة تفتح كوّة التهوية في النافذة بعد أن تضع وشاحاً من الوبر على كتفيها، تاركةً دوامات الهواء البارد المختلطة بحبات الثلج الصغيرة تدخل إلى غرفة النوم، ولهذا كانت الغرفة باردة دائماً.

في مكان ما في أعماق المنزل دقَّت ساعة بقوة فاستيقظت الممرضة. كانت تفوح رائحة اليود والحليب المغلي ورائحة الجسد المتوجع البالغ من العمر 53 عاماً وقد حان الوقت لتهوية غرفة النوم. فنهضت؛ وذهبت نحو النافذة وهي تخطو بحذر على أرضية البارْكيه الصرّار غير المسحوقة منذ مدة طويلة. وبجهد سحبت إليها الإطار الخشبي السميك: نَفَحَت رائحة الثلج الطازج بقوة. سُمِعَ صوت ضجيج محرك بوضوح، وسرعان ما توقفت سيارة عند المدخل الرئيس. قفز من السيارة شخص ذو قامة قصيرة مرصوصة وحشر قبعة فرو على أذنيه واندفع إلى المنزل.

نكَصَت الممرضة من النافذة. ورسمت شارة الصليب خلسة بعد أنْ ألقت نظرة سريعة من وراء كتفها على المريض النائم. ثبَّتَت العارضة الأفقية على الخطاف الحديدي ثم قفزت إلى الكرسي؛ وفي الطريق سقط منها شالها فتعلَّق على منضدة الزهور التي تحمل شجيرة خطمي ناعمة لكنها خافت أنْ تعود وتأخذه. وهكذا تسمَّرَت في مكانها، بعد أن ضغطت عمودها الفقري على مسند الكرسي الصلب وشعرت تحت الغطاء بالانتفاخات الكثيرة للزخرفة المنحوتة.

لقد عرفَت: قريباً سيُفتح أحد الأبواب الجانبية قليلاً كما هي الحال دائماً، إلى حدّ ما، بمقدار نصف شبر. سيكون هذا هو باب مكتب المالك السابق، والذي أُعطِيَ الآن بمثابة غرفة للملاك الطبي. تذكرت الممرضة، التي تجمدت من الإحراج، أنَّ هناك على الطاولة حقيبتها اليدوية الصغيرة المفتوحة مع غيارات من ملابس داخلية وجوارب، وعلى الأريكة ثمة مريول يوم أمس الذي حضَّرته لتسلمه للمغْسَل، والذي سُكِب عليه حساء

الدجاج الذي لم تتمكن من إطعامه للمريض. ولسبب ما أحبَّ زائر المساء خلال عياداته غير المتوقعة أنْ يأتي إلى تلك الغرفة بالذات.

كان يجيء قُبيل غروب الشمس، أو حتى في الليل قاطعاً مسافة ثلاثين فيرست من موسكو في الأيام الدافئة بسيارة عادية، وفي أيام البرد وتساقط الثلوج على مجنزر غريب لكي يقف صامتاً بضع دقائق في الغرفة المجاورة ثم يغادر، من دون أنْ يلقي نظرة على الزعيم ومن دون أنْ يتحدث إلى الأطباء أو إلى زوجته التي شاب شعرها على مرأى منه والتي أنهكها انتظار النهاية. لماذا جاء، وما يريد؟ «لتأخذه الشياطين»، غمغمت الطباخة متذمرةً ذات مرة في نفسها وسدَّت فمها بيدها ونظرت حولها في حالة من الفزع وتمتمت بصلاة. وبقي الآخرون في المنزل صامتين: فقد أوحى الضيف برغبته بغضّ البصر ومسك اللسان والابتعاد عن الطريق والاختباء.

أما اليوم، بمجرد أنْ ظهرَ على عتبة العزبة حتى امتدّت يدا أحدهم من الظلام ونزعت عن كتفيه بعناية المعطف الرسمي الثقيل الممسوح عند المرفقين من كثرة الاستعمال، وأخذتا القبعة ذات الفراء الطويل المتهدل على الأذنين، ومسحت الثلج من حذائه اللباد. فُتِحَت الأبواب واحداً تلو الآخر، وطرقت جزمات ذات حَدَوات حديدية بوقار في الإضاءة الخافتة على الأرضية الرخامية، ومَرقَ ظهرُ أحدهم إلى الأمام اندفاعاً للخدمة وهو يشير إلى الطريق. وظهرت حمالة قدح لا يُعرَف من أين، ثم رنَّت ملعقة بهدوء على الزجاج فدارت في دوامة الماء المغلي رواسبُ أوراق الشاي المنتفخة المختلطة مع قِطَع السُّكَّر. انطفأت الأنوار في المكتب السابق للزعيم (لقد عرف مَن في المنزل أنَّ الضيف يفضل الظلام)، وفي تلك اللحظة بالذات اختفت الأيدي والأظْهُر والرؤوس المحترمة وبقي الضيف وحده. دفع بيده الباب المؤدي إلى غرفة النوم فُتِحَ الباب قليلاً فانحنى بظهره المتجمد على أنبوب التدفئة الساخن.

لم يُسمَع إلّا تنفس المريض الضئيل ثقيلاً وأجشّ كأنَّ حجر طاحونة

كبيراً يجثم على صدره. ثمة شيء في أعماق جسمه يبقبق، في بعض الأحيان، وينعق ويغلي ويتدحرج مقترباً من حلقه ويهدّد بأن ينسكب إلى الخارج على شكل سعال أو وخزة خفيفة، ثم يعود من حيث أتى. وقف الضيف ونظر من النافذة إلى غروب الشمس الخافت وجعل يستمع. لقد جاء من أجل هذا لكي يستمع إلى الزعيم كيف يحتضر.

بعض مَن في المكتب السياسي يعتقد أنَّ الألمان قتلوا الزعيم. جميع هؤلاء الأفراد الذين يحملون ألقاب عائلات فيرستير وكليمبيرير ونونيه وبورخاردت وشترومبيل وبومكيه[1] السرب الهائج والناعق الذي طار من ألمانيا مع أول نداء للمريض صاحب السيادة. فهو نفسه كان يقول: الفرد الروسي لا يطيق الأطباء الألمان. ولكنه تحدث ودعاهم والتقى بهم ودفع لهم أجوراً كبيرة لا يصدِّقها العقل، وكان ينظر في عيونهم بأمل، وتمدّد على طاولة العمليات وابتلع الدواء مطيعاً... لقد اختار لنفسه الموت تحت الرعاية الألمانية الموثوقة. سنة ونصف من الإغماء والكوابيس الليلية والتشنجات الشديدة ومن الضعف المتزايد والتقلصات ومن التشخيصات الخاطئة. وهكذا فشل الأطباء في تحديد السبب الحقيقي لهذا المرض. أطباء الراين الفاشلون، أولاد الكلبة.

أغمض الضيف عينيه. صار صوت شخير الزعيم يرتفع قليلاً ثم يخفت أكثر وفي هذه التذبذبات يمكن للمرء أن يقتنص ما يشبه اللحن الحزين.

كلّا، الأطباء ليسوا مسؤولين. إنهم محدَّدون بمعرفتهم الخاصة،

1- أوتفريد فيرستير - طبيب أعصاب، أحد مؤسسي جراحة الأعصاب في العالم، الطبيب المعالج للينين من عام 1922 إلى عام 1924؛ جورج كليمبيرير - طبيب باطني، عالج لينين في 1922-1923؛ ماكس نونيه - طبيب أعصاب، استشاري صحي للينين في عام 1923؛ موريتز بورخاردت - جراح، استدعي من ألمانيا عام 1922 لإخراج رصاصة من لينين في موضع فوق الترقوة؛ أدولف فون شترومبيل - طبيب أمراض الأعصاب، استشاري الحالة الصحية للينين في عام 1923؛ أوزوالد بومكيه - طبيب نفسي واختصاصي أمراض عصبية، استشاري الحالة الصحية للينين عام 1923. (الملاحظة من الكاتبة).

يتحركون فيها مثل ما تتحرك الخراف في الحظيرة؛ ونظرتهم ضيقة ودنيوية، مقيدة بجسم الإنسان ومحكوم عليها بفحصه دائماً، كليّاً أو جزئيّاً، من الخارج أو من الداخل: بالنظارات الأنفية وتحت العدسة المكبرة وتحت المجهر وتحت زجاجة مكبرة على طاولة العمليات؛ إنَّ نظرتهم معتادة على الاختراق والتعمّق، ولكن ليس على التسامي. لفهم ما يحدث هنا، لا يحتاج المرء إلى نظارات، بل يحتاج إلى زبلين[1] أو، الأفضل، إلى طائرة. فلو ارتفعتَ إلى الأعلى يمكنكَ أنْ ترى شيئاً ما: أنْ تشاهد هذا القصر ذا الأعمدة الكلاسيكية الذي بقي سالماً بأعجوبة خلال الحرب الأهلية، والغرفة ذات النافذة الكبيرة المشرفة، والأثاث والطلاء الذهبي الصناعي الذي يغلفها باستحياءٍ بالأغطية المغبرة، والسرير ذا اللوح الأمامي المنحوت المنقوع بالعرق، وترى أنَّ الذي يحتضر وسط هذا الروعة الرخيصة ليس الزعيم على الإطلاق، بل *فكرة الثورة العالمية* هي التي ترقد الآن تحت الشرشف الأبيض الذي صار يشبه شرشف الجنازة؛ وهي التي تتأوَّه وتئنّ بإعياءٍ، ولا تستطيع حتى أنْ تقلب جسدها المنهك على جانبها.

لقد وُلِدَت فكرة الثورة العالمية من عبقرية ماركس، وهيَّجَت أوروبا ثم قلبت روسيا. العقول المحدودة فقط يمكنها أنْ تعتقد أنَّ الحوادث التاريخية تهيمن على الفرد. كلّا، التاريخ تحركه الأفكار. إنها لا تستحوذ على الجماهير فحسب، وتكتسب الوزن الاجتماعي اللازم؛ إنها تتجسَّد في لحم ودماء أشخاص محدّدين لا يكونون مناسبين دائماً لهذا الغرض. فالثورة في روسيا نَفَّذها الفكر، بعد أنْ تجسَّد، عن طريق اجتماع الظروف، في رجل صغير ليس بصحة جيدة وذي قدرة عالية على العمل، وذي موهبة خطابية فائقة، وقد حملها مثل المذنَّب خلال جميع الصعوبات

1- زبلين – هو منطاد ألماني كان يستخدم في الحرب العالمية الأولى بصفته قناصاً وأداة استطلاع، أطلق اسم «زبلين» على المنطاد نسبة إلى اسم أحد مصمميه. ونظراً للنجاح المتميز لتصميم زبلين، صار مصطلح زبلين يستخدم عفويّاً للإشارة إلى جميع السفن الهوائية الجامدة. (المترجم من ويكيبيديا بتصرف).

والمخاطر: المتمثلة بالاعتقالات والنفي والخيانة ومحاولات الاغتيال. لو لم يكن موجوداً لكان لدى البلاد قائد آخر، أطول أو أقصر منه، ذو شعر فاتح أو غامق. اليوم، بالنسبة لأولئك الذين يعرفون كيف ينظرون إلى العالم من ارتفاع الطائرة رجال الدين والشعراء والفلاسفة (لقد ربط الضيف نفسه في مراحل مختلفة من حياته بالصنف الأول والثاني والثالث) صار واضحاً: إنَّ الفكرة العبقرية غير مُقَدَّر لها أنْ تتحقق. ولهذا فإن الشخص الذي عاشت فيه يموت. لم يعد التاريخ بحاجة إليه. وإنَّ زجاجات الدواء هذه كلّها التي تقف في صفوف متراصَّة على الطاولة اللماعة الملصقة بجانب السرير، والأطباء الذين استوطنوا المنزل، والممرضة التي حشرت نفسها مذعورةً في الكرسي والتي تعتقد أنَّ زائر المساء لم يلاحظها، هذا كلّه ليس سوى بهرجة وزينة دعامة ما قبل الموت وجهود غير مجدية لتنقية ضمير رفاق السلاح والأقارب.

... شاهدت الممرضة كيف تطير حبات الثلج البطيئة والخفيفة وتدخل في عارضة النافذة المفتوحة وتذوب في دفء الغرفة. قعقعت السيارة بإيقاع رتيب أسفل النافذة. لم يُطفئ السائق المحركَ وكان ينتظر راكبه، الذي عادةً لا يتأخَّر طويلاً. اليوم، لسبب ما، طالت الزيارة. لقد حان الوقت لإغلاق فتحة التهوية في النافذة، لكن الممرضة لم ترغب في أنْ يكتشف الضيف وجودها، فبقيت جالسة بلا حراك، وشعرت كيف يملأ بردُ الشارعِ غرفةَ النوم. تجمّدت أصابعها على مساند ذراعَي الكرسي وطرف أنفها أيَضاً. والأشد من ذلك كلّه، تجمَّد ظهرها وكتفاها، وبدأت رجفة خفيفة في مكان ما في أعماق عمودها الفقري. وتغطى بالبياض شالها الذي بقي مُلقى على الأرض.

... لبعض الوقت، ستظل الفكرة تُعَدُّ حيَّةً وتُقَدَّس وتُشَدّ الرحال إلى نورها الخافت. يجوز للجماهير وينبغي لها أنْ تنشد أناشيد الثناء عليها، وأنْ تبقى أكثر إلهاماً وإثارة للمشاعر من غيرها. الآن، عندما يرتفع مارد الدولة السوفيتية، التي تعافت لتوّها من آلام التكوين والدمار والحرب

الأهلية والمجاعة تسمو في العالم بِعَدّها الجزيرة الأولى والحصن الوحيد للثورة العالمية، وتبقى عائمةً في الإيمان بهذه الفكرة، ولهذا لا يجوز القيام بحركات مفاجئة. دعِ المارد يعتقد أنه يتحرك نحو هدفه السابق. لكن فكرة جديدة متجسدةً في وجهٍ وجسم بشريين مختلفين يجب أن تبزغ عند حافة الوعي الاجتماعي العام في البداية بشكل بسيط، ثم تصبح أكثر سطوعاً، ونتيجة لذلك سيحل أحد الأضواء محلِ الضوء الآخر بشكل غير محسوس. وفي غضون ذلك، ينبغي التظاهر بأنّ الزعيم حيّ. وحتى عندما يتوقف جسمه عن أداء وظائفه تبقى صورته الساطعة حية بالذكرى البشرية وبأفعال الرُّسُل. وسيتعيَّن أنْ تتجسد في الحياة العشرات من البدايات، من خلال إدراك عبثية الجهود ومن خلال جرّ الدولة خِلسَة وبعناية إلى مسارات جديدة تقود في اتجاه مختلف. وأنْ يُتَّخذ من أولئك الألمان مثالاً يُحتذى به.

أحب الزعيم ألمانيا بشغف، وعَدَّ تحولها إلى الجمهورية السوفيتية الألمانية «سيحدث في الأيام القريبة القادمة». وحتى محادثات السلام في بريست ليتوفسك[1] جرت، كما هو معروف جيداً، ببطء متعمَّد بانتظار الثورة العالمية التي كانت ستثب من روسيا إلى ألمانيا من يوم إلى آخر ثم ستجتاح أوروبا كلّها. ولكنها لا وثبت ولا اجتاحت. وقد وجدت ألمانيا القيصرية، خلال المفاوضات الطويلة والمتوترة، بشكل غير متوقع سواء بالنسبة لها أو بالنسبة لروسيا السوفيتية موضِع ألم جديد فيها: هو مسألة ألمان روسيا. لم يكن المستوطنون من ألمانيا موضوعاً جديّاً في العلاقات بين البلدين؛ وإذا به فجأة يبرز للعيان! مثل ورقة صغيرة رابحة في القمار ضاعت في الأكمام، ثم سقطت هذه البطاقة التي تبدو للوهلة الأولى غير مهمة على طاولة اللعب. فقد طالب الجانب الألماني بالحق للمستوطنين

1- اتفاقية بريست ليتوفسك السلمية التي وضعت حدّاً لمشاركة روسيا في الحرب العالمية الأولى والتي وقِّع عليها بين روسيا السوفيتية ودول التحالف الرباعي (ألمانيا والنمسا – المجر والإمبراطورية العثمانية وبلغاريا) في 3 آذار (مارس) من عام 1918 بعد مفاوضات مطولة امتدت ثلاثة أشهر ونصفاً. (الملاحظة من الكاتبة).

في إعادة الهجرة من دون عوائق (مع إمكانية سحب رؤوس الأموال، بالطبع، وإلّا، لماذا يبدأ اللعب؟). اندهش الجانب الروسي من محاولة التدخل في الشؤون الداخلية وتحيَّر وغضب في نهاية المطاف. ولم تُفضِ المناورات السياسية الطويلة التي لا معنى لها إلى أيّ شيء: فقد تنازلت روسيا السوفيتية، ومُنح للمستوطنين حق المغادرة إلى وطنهم التاريخي. واتخذ موضوع المستوطنين الألمان شكل بطاقة منفصلة. تحولت الورقة الرابحة الصغيرة في عيونهم إلى ورقة كبيرة.

لم يكن لدى الزعيم أيُّ شكّ في أنَّ هذه كانت ورقة رابحة: بدا أنَّ ألمان روسيا هم الأداة التي يمكن من خلالها، ويجب، توجيه الثورة الاشتراكية في ألمانيا البعيدة. وقد أُرسِل العشرات من الألمان (هانز وبيتر) الشيوعيين المخلصين من مستوطنات حوض الفولغا سرّاً إلى ضفاف نهرَي الراين وسبري من أجل تفكيك النظام الإمبريالي من الداخل. ولمكافحة الهجرة التي بدأت من منطقة الفولغا، فقد تقرّر أنْ يمنح الألمان السوفيتيين حكماً ذاتياً. والأصح أن يُقال، مظهراً شكليّاً للحكم الذاتي.

أسندَ الضيف ظهره بسرور إلى أنبوب التدفئة الساخن سرَت الحرارة إلى جسمه. ولاحظ أنه يتنفس بشكل أضعف وأعمق على إيقاع تنفّس الزعيم. وبدا له تحت تأثير فحيح تنفّس الرجل المُحتضِر أنه أفضل من أيّ وقت مضى.

كان يعرف حكاية مستوطنات منطقة الفولغا من الداخل: فقد انخرط آنذاك في شؤون القوميات، حتى إنَّ أحدهم في المكتب السياسي وصفه مازحاً بأنه «راعي الشعوب». إنه نفسه مَن التقى بوفد منطقة الفولغا الذي جاء «من أجل الحكم الذاتي»؛ وهو بنفسه قدَّم تقريراً للزعيم عن اللقاء؛ وهو بنفسه بعثَ برقية إلى ساراتوف حول «موافقة الحكومة على الحكم الذاتي للجماهير الألمانية الكادحة على أساس اشتراكي». وبيديه أنشأ على ضفاف نهر الفولغا كومونة ألمانية نوع من ألمانيا مُدَجَّنة صغيرة تابعة مباشرة للحكومة في موسكو. يمكن القول، إلى حدّ ما، إنه قد جسَّد حلم الزعيم.

ولكن بعد بضع سنوات، أصبح من الواضح لأكثر الناس فطنة وإدراكاً: أنَّ الألمان الذين أُرسلوا إلى معسكر العدوّ لم يتمكنوا من تدبير أمرهم. وبقي تصدير الثورة حلماً (أولاً وقبل كلّ شيء، حلم الزعيم الذي شعر في ذلك الوقت ببوادر المرض الوشيك). وتَبيَّن أنَّ دور «ألمانيا» منطقة الفولغا أكثر تواضعاً، برغم أنه لا يزال جديراً بالاستحقاق: إنْ لم تكن أداة لبناء الشيوعية فلتكن واجهة دعائية لها أمام ألمانيا فايمار[1]. وقد كانت زينة هذه الواجهة نفيسةً، ألا وهي صفة الجمهورية المستقلة. لغتها الرسمية الخاصة بها ودستورها الخاص ألا يُعَدّ هذا سخاءً يوهَبُ لشعب متخلف[2] صغير اقتُطِعَ عن وطنه القديم ولكنه لا يزال غير قادر على الاندماج في البلد الجديد، والذي ما زال يحافظ على طريقة حياة القرن الثامن عشر ولا يمكنه أنْ يركِّب كلمتين باللغة الروسية؟

قبل أسبوعين، عقد الضيف نفسه جلسةً مغلقة للمكتب السياسي، نوقشَت خلالها مسألة إعادة تنظيم الكومونة الألمانية في الجمهورية واتُّخِذَ قرار بالموافقة على ذلك. وهو نفسه وقَّع القرار المعني. لقد وقّع من دون رغبة: فهو لا يزال لا يستطيع أن يقرّر بنفسه ما إذا كان تشكيل الجمهورية الاشتراكية الألمانية نتيجةً للجمود السياسي أم تنازلاً من الزعيم المصاب بمرض عضال، أم بمثابة ذكرى لإرادته أم إنها خطوة ضرورية فعلاً. بمعنى آخر، هل كانت وليداً ميتاً أم كان لديها فرصة للعيش؟ مهما كان الأمر، فقد أصبح عراباً لهذا الوليد غير المرغوب فيه. أما أبوه الحقيقي فهو الذي يرقد في الغرفة المجاورة؛ والذي ينبض قلبه المُستَهلَك النبضات المتعَبة الأخيرة...

1- جمهورية فايمار – هي الجمهورية التي نشأت في ألمانيا في المدة من عام 1919 إلى عام 1933 نتيجةً للحرب العالمية الأولى وخسارة ألمانيا الحرب. سمِّيت الجمهورية الناشئة باسم مدينة فايمار الواقعة في وسط ألمانيا والتي اجتمع فيها ممثلو الشعب الألماني في العام 1919 لصياغة الدستور الجديد للجمهورية والذي اتبعته الجمهورية حتى العام 1933. (المترجم من ويكيبيديا بتصرف).

2- تقصد الكاتبة هنا الألمان الذين استوطنوا روسيا. (المترجم).

انتابت الممرضة التي ما زالت جالسة على الكرسي رجفة كبيرة؛ لقد خدرت رجلاها، على الرغم من أنهما تنتعلان حذاء اللباد. وشعرت كيف يتحول كلّ زفير إلى تكثّف سميك من البخار الأبيض، لكنها لم تستطع رؤية ذلك فقد كانت الغرفة مظلمة. وتوقعت أنْ تكون أنفاس زفير الرجل المُحتَضر المبحوحة والضعيفة ذات لون أبيض أيضاً.

كان باب المكتب السابق لا يزال مفتوحاً قليلاً، فالضيف لا يزال هناك. وخلف سواد النافذة، قعقعت السيارة بصبرٍ.

الابنة

-8-

عندما توقفت الجلاجل عن الرنين، وتوارى غبار الثلج الذي أثارته الزلاجات في الهواء، لاحظ باخ أنَّ الغيوم فوق نهر الفولغا انتثرت على شكل قِطَع شفافة تبدو من خلالها الشمس البرتقالية الكثيفة. وشقَّت الأشعة الحادة السماء الرمادية الضاربة إلى الزرقة، وأظهرت منازل غنادينتال القليلة المزرقة في البعد والغطاء الثلجي اللامتناهي على النهر الذي لا يزال أزرق غامقاً ولكن الآن صار دائماً ما تتخلَّله شرارات حمراء وصفراء.

تخيَّل باخ كيف ستستيقظ كلارا في القميص التحتي المبلل من العرق وماء الولادة، في الغرفة الباردة، ترتجف من التعب والقشعريرة: إذ لم يخطر على باله أن يشعل النار في الموقد قبل أنْ يخرج. وقف لبعض الوقت، يصغي إلى الصمت ويشاهد كيف ينسكب الضوء الوردي المشعّ على كثبان الجليد. استدار ومشى نحو المنزل وهو يدوس على ظلّه البنفسجي الطويل في منتصف النهر.

تسلَّق المسار الضيّق متمسكاً بالأحجار المتجمّدة وبفروع الشجيرات المغطاة بالصقيع، وسار عبر الغابة بين أشجار البلوط المثلِجة وشقّ طريقه عبر الفناء الذي لم يُنَظَّف منذ مدة طويلة إلى شرفة المدخل وتفاجأ بأنه لم يُصبه البرد. احمَرَّت يداه، وصار لا يقدر أنْ يحني أصابعه إلّا بصعوبة ولكن لسبب ما لم تتحسس أصابعه البرد القارس، وكذلك رأسه الحاسر ورقبته المكشوفة وصدره الظاهر من كنزة الفرو (التي بلا أكمام). ربما،

فقدَ جسده الإحساس بالبرد مثلما فقدت شفتاه القدرة على نطق الكلمات. ربما، خذلته حواسّه بالتدريج الواحدة تلو الأخرى كما خذله لسانه. وربما، هذا كلّه أفضل بالنسبة له: الآن سيكون قادراً على العيش في الحظيرة أو في سقيفة التخزين، بعد أن يترك للأم وللوليدة المنزل بأكمله. إنَّ المبيت معهما تحت سقف واحد وسماع تهويدات كلارا الرقيقة وهي تردّ على بكاء الرضيعة وحفيف ثوبها عندما تسحب ثديها للرضاعة سيكون مؤلماً له بشكل لا يطاق. قرّر: أنه سيعتني بالمنزل والبستان ويقوم بصيد السمك وجمع الحطب وتقطيعه وجلب الطعام لكلارا، باختصار، يعيش كما كان من قبل، وفي الوقت نفسه يحاول تجنب رؤية ساكنة المزرعة الجديدة أو سماع صوتها وألّا يلاحظ وجودها. سيكون الأمر سهلاً عليه في السنة الأولى، قبل أن تقف الطفلة على قدميها. وسيخبرنا الزمن بما سيحدث بعد ذلك هل سيتمكن باخ من التغلب على ألمه أم سيغادر المزرعة.

قرّر الانتقال إلى الحظيرة على الفور، بمجرد أن يلقي بضع قرمات من الخشب في الفرن، ويغلي دلواً من الثلج المذاب ويبلل بالماء الساخن حساء الصباح من دقيق الجزر المخلوط بالشوفان: لا بدّ أنَّ كلارا ستستيقظ جائعة وترغب في محو آثار الليلة الثقيلة كلّها. تسلّل إلى المنزل بحذر حتى لا يصرّ الباب وأشعل النار التي خمدت في الفرن. وضع على الموقد الدلو المملوء بالثلج وغلاية فيها ماء للشرب. جعل يتحرك بسرعة واهتياج عند الطاولة لكي يُعِدّ الإفطار. سارع بفعل كلّ شيء على عَجل محاولاً عدم إحداث ضوضاء، إذ لم يرغب في إيقاظ كلارا.

كانت الغرفة هادئة، لا يُسمَع فيها إلّا صوت صرير ضعيف إما جذع شجرة صلَّدها الصقيع، أو مصراع حركته الرياح. وعندما كان يخلط دقيق الجزر في الوعاء الخزفي بالملعقة الخشبية أدرك فجأة أنه ليس صوت مصراع ولا صوت جذع شجرة، بل الرضيع يئنّ في خمول كأنه يشكو. غطى باخ الوعاء الخزفي بطبق، وغطّى الطبق بمنشفة حتى ينقع الحساء أفضل. ورفع عن الموقد الدلو الذي بقبَق فيه الماء المغلي ووضعه على

الطاولة (لا بدّ أنْ يكون المقبض المعدني قد سخن، لكن أصابعه لم تشعر بالحرارة). وفي جوارها وضع الطست النحاسي الذي كان يغتسل فيه هو وكلارا بالتناوب، ومغرفة الماء. وتناول من المسمار معطف الجلد القصير الذي خِيطَ قبل سنتين من معطف قديم من فرو الغنم يعود لأودو غريم وألقاه على كتفيه، ليس من أجل الدفء الذي من الواضح أنه لم يعد بحاجة إليه، ولكن بدافع الرغبة في لبس شيء مألوف. وقرّر أنْ يأخذ معه إلى الحظيرة الدكة فقط التي كان ينام عليها. وفجأة خطر على باله أنْ يأخذ معه مجلد نتاجات غوته أيضاً، سيكون الكتاب في صمت الحظيرة أهدأ مما في المنزل المليء ببكاء الطفلة وثعثعة الأم والتهويدات الحزينة.

دخل باخ إلى غرفة النوم ممسكاً بأطراف معطف الفرو القصير الكبير على حجمه إلى حدّ ما، حتى لا يخشخش عَرَضاً من دون قصد بالحائط أو يصطدم بالكرسي، ومحاولاً ألّا ينظر إلى السرير الذي نامت عليه كلارا والرضيعة. كان ضوء الصباح الخافت يَنفذ من خلال المصاريع المغلقة. لم يسمَع نفَس كلارا، سمع سقسقة الرضيعة فحسب في شبه العتمة يبدو أنَّ الطفلة استيقظت. أثارت هذه أصوات حكَّة في أذنيه وألماً في قفاه (ففكر في نفسه: إنه لأمر مؤسف أنْ يحرمه القدر من الكلام، وليس من السمع!). فتّش باخ في الخزانة ذات الأدراج باحثاً على عجَل عن الكتاب وهو يقطّب جبينه، وأسقطه عن غير قصد على الأرض. سقط المجلَّد بصوت طبطبةٍ غريب. فانحنى ورفع الكتاب إلى النور لاحظَ أنَّ غلافه مغمور بشيء غامق وسميك. وأصابعه كذلك عليها ذلك الشيء الغامق. نظر إلى الأسفل فميزت عيناه المعتادتان على الظلام بركة سوداء تحت قدميه: امتدت عبر الغرفة بأكملها واختفت في مكان ما تحت السرير.

اقترب باخ من كلارا النائمة بعد أنْ وضع الكتاب على الخزانة ذات الأدراج وهو يرفع يديه الملطختين. بالكاد بدا وجهها مبيضّاً بجانب رأس المولودة على الوسادة. رفع باخ الغطاء المحشوّ بالريش بأطراف أصابعه حتى لا يلطّخه، ثم رماه بالكامل.

بدت في وسط السرير بقعة سوداء كبيرة وقد لطَّخت كذلك أطراف قميص كلارا التحتي، وقدميها الحافيتين المسحوبتين إلى بطنها بشكل غير مريح. وكانت هي نفسها ترقد متقوسةً بلا حركة وهي تحضن ركبتيها بيديها وتدفن وجهها في الرضيعة. كان في وضعية كلارا المتجمدة شيء غريب وغير طبيعي، وشيء من الغموض الذي يتطلب حتماً حلّاً للغزه. ماذا تعني وضعية الجسد الهوجاء هذه؟ واليدان المتشبثتان بالركبتين؟ والقدمان الملتويتان وكأنّ تقلصات قد شنَّجَتهما؟... حلّ اللغز كان في مكان ما قريب جدّاً ولكن الرضيع المصوصئ منعه من التركيز. أخذ باخ الجسد الصغير المُعرَق من السرير ووضعه على الأرض. لم يشعر باشمئزاز كان تفكيره كلّه منصبّ على البحث عن الجواب. كان التفكير لسبب ما يصعب عليه ويؤلمه، وكأنَّ صخوراً كبيرة تتدحرج في رأسه.

قرّر أنْ يفتح المصاريع ففي الضوء يسهل حتى التفكير. خرج من المنزل وجاب مرافق الدار كلّها وهو غارق في الثلج. طرق بلطف الجليد عن مَغالِيق المصاريع وفتح دفّات الأبواب على مصاريعها وثبّتَها بعناية على الجدران المكسوة بالندى المتجمِّد. راحتا يديه اللتان لامستا الجليد والخشب والمعدن المجمد ما زالتا لا تشعران بالبرد. عاد إلى غرفة النوم التي غمرها الضوء. ومن دون أنْ يخلع عنه المعطف القصير جلس على حافة السرير وبدأ ينظر إلى كلارا.

كم كانت نائمة بعمق! وشاحبة وكأنها خُلِقَت من ثلج أو ابتُدِعَت من خزف أو قُطعَت من ورق. وكأنَّ حجم وجهها قد صَغر، والتَفَّت حول عينيها المغمَضتين دوائر مزرقة، وتحول نثار النمش على خديها من اللون الذهبي إلى لون رمل النهر. أما الخطوط الممتدّة من جوانب أنفها إلى الذقن فقد بدت أكثر وضوحاً وبدت الظلال تحت عظام الخدّ أعمق وأكثر قتامة. شعرها وحده لا يزال هو نفسه بني ضارب إلى اللون العسلي. فتساءل في نفسه: *ماذا تريدين أن تقولي لي من خلال هذا، يا كلارا؟*

بحثاً عن الإجابة أجال باخ النظر في جميع أجزاء الغرفة. ها هي الخزانة

ذات الأدراج، عليها مجلد غوته. والكرسي ذو مسند الظهر المنحوت الذي صار لونه غامقاً بفعل الزمن. والمقعد المنخفض. والأرضية الترابية المكنوسة بعناية التي ما زالت تُرى في بعض الأماكن فيها حزوز من جرّاء المكنسة البالية. وعلى الأرض بِركة سوداء لامعة. والسكين، التي قُطِعَ به الحبل السري، والشفرة الملطَّخة بالدم الجاف. والوليد الضئيل والأرجواني الرطب الذي جسمه كلّه مغطى بالتغضنات والتجاعيد، يضرب برجليه ويديه ويفغر فمه ربما، يبكي. والسرير المفتول وغطاء الريش الملقى عليه. والبقعة على الشرشف التي بدت في ضوء النهار حمراء ثخينة. وفوقها كلارا الساكنة بلا حركة في الملابس الداخلية الملطَّخة...

الماء، تذكَّر فجأة. الماء في المطبخ حُضِّرَ للاغتسال. يجب عليه أن ينظِّف كلارا قبل أنْ يبرد الماء. أتى بالدلو والطست والمغرفة. دسَّ يده في الماء لم يستطع أنْ يعرف إنْ كان الماء بارداً أم حارّاً. *آسف*، قال لكلارا في نفسه. *سوف أغسلك بالماء كما هو. آمل أنكِ لن تتجمدي.*

جلب الليفة وأخرج منشفة نظيفة من الخزانة ذات الأدراج. سكب في الطست من الماء: وهنا تلطَّخ كُمُّ معطفه القصير برذاذ، لكنه لم يخلعه. اعتلى بقدميه على السرير لكي ينزع عن كلارا قميصها التحتي، تشوَّش في فكِّ العُقَد فمزَّق القميص ورمى قصاصات القماش والأشرطة والدانتيل. أجلس الجسد العاري في الطست وبدأ يغسله.

لم تستكِن كلارا له، كانت تتقلقل، تارة يُضرَب رأسها المُنكَّس على الأرض وتارة تُمَدّ ساقاها الطويلتان وتُغمَسان في البركة السوداء. اصبري، طلب منها باخ، وهو يغسل قدميها والكاحلين والركبتين والوركين النحيفين وكيس البطن المتدلّي بشكل قبيح وكُرَتَي الثديَين المبرومَين كالحجَر وعظمَي الترقوة الهشَّين والرقبة الضامِرة والوجه الشاحب. عندما صار جسد كلارا الخفيف والصلب أبيض ثلجيّاً خالياً من أيّ بقعة داكنة صغيرة ضمَّه إلى صدره ونهض ثم وقف في وسط الغرفة غير عارفٍ أين يضعه: فالبياضات على السرير لا تزال كلّها وسخة.

وأخيراً أدرك سيضعها في المَجْلَدَة. هذا هو المكان الذي كان نظيفاً بالفعل. فحمَلَها ووضعها في صندوق خشبي منخفض مليء بقطع الجليد المجروش المخلوطة مع الثلج المتساقِط. *اصبري*، كرّر لها الطلب. *عندما أغسل البيت، آخذكِ من هنا. آمل أنك لن تتجمدي.*

عاد إلى الغرفة. جلس على كرسي. دارت في رأسه أفكار خطرة؛ وومضت من بينها الإجابة على اللغز الذي طرحته كلارا. وكانت الإجابة بسيطة جدّاً، لكنها لم تتيسّر له مطلقاً انسلّت مثل رائحة زهرة من العام الماضي أو لحن سمعه في أيام طفولته.

بدأ يهيل الرمل على الأرض لكي يكنس نحو الخارج البركة السوداء والماء الذي انسكب أثناء الغسل وقصاصات القميص التحتي التي تناثرت على الأرض، وهذه القذارة كلّها التي لا يعرف أحد من أين أتت، لكن يديه ارتعدتا لسبب ما ولم تُطيعاه كاد دلو الرمل أنْ يسقط من يده؛ وصارت رجلاه ثقيلتين وتتعثران وتتخاذلان، كما لو كان ينتعل حذاءً من حديد. وفجأة تعثر بشيء، نظر إليه فعرف أنه جسد الرضيعة الصغير. لا يزال ممدّداً على الأرض ولا تزال قدماها الصغيرتان تدقّان. وثقب فمها الصغير مغطى بفقاقيع اللعاب اللزج يبدو أنَّ الطفلة تصرخ.

ماذا يعمل مع هذا المخلوق الدخيل وغير اللازم؟ أيتركه ممدّداً؟ أم يحمله إلى المَجلَدة ويطرحه إلى جنب أمه؟ لم يكن لديه ثمة وقت للتفكير في الأمر الآن. لقد أراد فقط إعادة الجسد الصغير إلى السرير حتى لا يعيق التنظيف؛ التقطه بيديه وشعر فجأة بمدى سخونته. ولاحظ أنَّ يديه الصغيرتين الشبيهتين بمخالب الضفدع وأضلاعه الصغيرة التي تهتزّ اهتزازاً شديداً وبطنه المكوَّر ورأسه الكبير ذا الوجه القرمزي الملتوي من التوتر الذي يلمع من اللعاب والدموع هذا كلّه متوهج بالحرارة الشديدة والمكثفة وكأنه ليس طفلاً، بل علقة خاثرة كثيفة من نار. لقد استعادت أصابع باخ وكفّاه (التي قبل قليل لم تتمكن من التمييز من خلال اللمس بين الجليد والمعدن الساخن) قابليتها للإحساس وكأنما نزع عنها قفازات

سميكة كانت تغطيها أو تقشرت عنها قشرة. وعندما اكتوى بجلد الرضيعة الساخن، ضغط جسم الطفلة بلهفة إلى بطنه وأحاطه بذراعيه ولفّ نفسه حوله فشعر بدفء هادئ يتدفق إلى داخله. كانت الطفلة تختلج وتتلوى وتنشج وتتنفس بجهد محدثةً صوتاً كالشخير. وخوفاً من إسقاط الجسم المتحرك رفعه باخ ودسَّه في عبّه انزلق بسهولة على صدره والتصق بيديه ورجليه على ضلوعه وهو لا يزال يواصل الضرب وينشج بشكل محموم، ولكنه صار يهدأ تدريجيّاً. سرعان ما ملأت الحرارة المنبعثة من الطفلة جسم باخ بأكمله الظهر والكتفين والرأس وكأنَّ ماءً مغليّاً يبقبق صُبَّ عليه. اندهش باخ من هذا الدفء الذي طال انتظاره وسمح للساقين الضعيفتين بالانحناء وجلس على السرير واستلقى على جنبه وأغمض جفنيه. ضغط يديه على وجهه وفوجئ بوجود الرطوبة عليهما: يبدو أنه كان يبكي.

بكى بدلاً من الطفلة التي هدأت على صدره. لقد بكى مثل الأطفال على شيء تافه مُبْتَذَل: لأن البياضات على السرير ملطّخة ولا يزول وسخها بالغسل؛ ولأن قميص كلارا التحتي مُزِّقَ إلى قصاصات صغيرة لا تخاط. وأن كلارا نفسها بعيدة الآن لا يمكن أنْ يناديها. وأنها ترقد، أكثر برودة وأكثر بياضاً من الثلج، في الصندوق الخشبي الذي تُخزَّن فيه الطيور النافقة والأسماك الميتة. وأنَّ عينيها مغمضتان، وتجمَّد على رموشها الصقيع. بكى لأن كلارا ماتت.

هذا ما أرادت أنْ تخبره به، بينما هو كان يكافح من أجل فهمه طوال الصباح. حلّ اللغز كان بسيطاً لا يتجاوز كلمة قصيرة واحدة. وبعد أنْ أدرك باخ أنه وجد الجواب الصحيح ارتعش وفتح عينيه. جفّت الدموع على الفور، وتحولت الحرارة التي ملأت جوارحه إلى حزن ساخن وحارق من الداخل.

-9-

غسل باخ المنزل بدقة كما غسلته كلارا أمس. أحرق في الموقد الشراشف الملطخة بالدم وقصاصات ثوب النوم. وفـرَشَ السرير بالبياضات المغسولة ووضع فوقه الغطاء المحشوّ بريش البط بترتيب وبسطَ الطيات الموجودة عليه. أكل بنشاط حساء الجزر من دون أنْ يشعر بالذوق والرائحة. أغلق المصاريع كلّها. نظَّف كتلتين من الخشب متروكتين في الفناء وقطعهما قطعاً صغيرة ووضعها في عرمة الحطب. وأغلق أبواب سقيفة خزن الأدوات وعنبر خزن الحبوب. واغتسل بالباقي من الماء الدافئ وارتدى ملابس داخلية نظيفة. ووضع ملابسه الخارجية (معطف الفرو القصير وكنزة القرغيزي التي من دون أكمام والسروال والقميص) على السرير بشكل كدس مستوٍ. ومشَّط بعناية شعره المبلل ولحيته.

وطوال هذا الوقت كانت الرضيعة نائمة بسلام وتتنفس بصوت مسموع على مقعد بجانب الفرن ملفوفةً بخرقة عثر عليها باخ ومحاطةً بالوسائد. وعندما رشَّ باخ الماء من الغلاية في فم الفرن وسكبه على النار فأطلق الجمر هبّات من الرماد وأزَّ بصوت عالٍ آنذاك تأوَّهت الرضيعة واهتاجت. فأعاد باخ الغلاية بسرعة إلى الموقد الذي صار بارداً، وأخذ الكرسي وخرج بعد أنْ أغلق الباب الأمامي بإحكام خلفه.

مالَ النهار نحو الغروب: كان قرص الشمس القرمزي على ارتفاع منخفض فوق الغابة السوداء، وقد غمرت زرقة الليل قبة السماء. أحرق

الصقيع جبهته وخديه التي عرَّقها بخار الماء الدافئ وفروة رأسه التي ما زالت رطبة. سحب باخ الكرسي إلى المَجْلَدة. لم يكن الباب مغلقاً من الداخل وضعه مثل القرمة. جلس عند رأس الصندوق المملوء بالثلج وأراح مرفقيه على ركبتيه ووضع ذقنه على كفّيه المفتوحتين. وبدأ ينظر إلى كلارا.

عمَّ الظلام الدامس المكان كلّه لكن باخ كان يميّز بوضوح الملامح التي أحبَّها، كما لو كانت مضاءة بمئة كاملة من الشموع أو باثني عشر من مصابيح الكيروسين. تمتع بالنظر إلى بياض بشرة كلارا ونعومتها التي لم تمسّها التجاعيد إلّا في أماكن قليلة؛ وإلى طول رموشها التي غطّت الظلال تحت عينيها؛ وإلى فتحة فمها الصغيرة وإلى شحوب شفتيها الرقيق؛ حتى إنه نظر باستمتاع إلى تلك التجاعيد الصغيرة لأنه عند ذاك تذكر متى ظهرت كلّ واحدة منها وماهية الذكرى. لقد كبحَ صمتُ كلارا الحزنَ الذي استولى على باخ. فجعل يفكّر: إنه طوال السنوات الماضية كلّها كان يتمنى ذلك على وجه التحديد. يتمنى أنْ يجلس وينظر إلى امرأته الحبيبة إلى ما لانهاية. وأنْ يمتلكها بصورة مطلقة. وها قد حان الوقت. صحيح، تطلَّب الأمر من باخ أن يتحرك قليلاً وأن يرتجف بظهره المتجمد أو يهتزّ بكتفه الخَدِرة كالحزن الذي تلاشى في مكان ما داخله واستيقظ وانطلق مع اضطرابات مَرَضيّة في الرأس والصدر؛ ولكن كلّما طال جلوسه من دون حركة قلّ إحساسه بجوارح جسده وازدادت طمأنينة روحه. اكتملت القضايا الدنيوية وأُعيد النظر بجميع الأفكار، أما المشاعر فقد استُهلِكَت. الآن صار ممكناً التأمّل في الصورة الأكثر أهمية في الحياة، من دون تشتت الانتباه نحو حركة الأجرام السماوية (لا تخترق أشعتها خرزة البئر الجليدية) ولا نحو تغيير فصول السنة (الجدران السميكة والباب ستحميها من سوء الأحوال الجوية) ولا نحو الأباطيل الدنيوية الأخرى.

شعرَ باخ بالراحة لأنَّ أطراف جسده قد تجمدت ولم تعد قادرة على

الحركة. لم يعد بمقدور قدميه أنْ تستدير أو أنْ تتحرك أصابعها، ولا بمقدور الركبة أنْ تنثني ولا الظهر والرقبة أنْ تستقيما؛ لم تستطع عيناه أنْ تطرف أو تضيق: ربما كانت قد أُغمِضَت بإحكام لمدة طويلة، لكن باخ لم يستطع حتى فهم ذلك. ولم تكن ثمة حاجة لفهم أيّ شيء: البدر في السماء السوداء الفحمية سطعَ نوره بشكل مذهل لدرجة أنَّ العالم الذي أُضيء بشعاعه برز بوضوح وتفصيل للناظر وللنائم وحتى للمكفوف. تسرب هذا الضوء الأبيض البارد إلى كوخ المجلَدَة ليس من خلال الشقوق، كما ينبغي للضوء أن يفعل، بل بطريقة أخرى إما مع الهواء البارد وخشخشة العاصفة الثلجية في الفناء، أو مع رائحة الثلج الطازج وملأ الغرفة بسرعة. ومن دون أن يدير رأسه، رأى باخ في هذا الضوء كامل مساحة المَجْلَدة، من اللوح الأول إلى الأخير: الجدران المغطاة بالندى المتجمد في أسمال اللحاء غير المقشوط: الصندوق المدقوق من ألواح سميكة المملوء بقطع من الجليد المبثور الأبيض الباهت والمرصوص في بعض الأماكن والشفاف والمغطى بالفقاقيع في أماكن أخرى. وجسد المرأة الممدّد فوقه الشاحب بأوردته الزرقاء ذات الزخارف الغريبة الشكل. ورأى نفسه في المجلدة ملتوياً على الكرسي بوجه متجعد وشعر خفيف ولحية نصفها شائب نمت على شكل خيوط شبيهة بمسيل الماء المتجمد النازل من السطوح. ورأى كوخ المجلدة كلّه كاملاً، ليس من الداخل فحسب، بل ومن الخارج أيضاً: هيكلاً خشبيّاً مكتنزاً غارقاً حتى سطحه في كثيب ثلجي، وباباً منخفضاً مصنوعاً من ألواح مزدوجة بالكاد يمكن رؤيته من تحت الثلج. ورأى الفناء والمزرعة والغابة المحيطة. وجبال الضفة اليمنى المليئة بإبر الأشجار الثلجية. وصحراء الفولغا البيضاء الملساء كالورقة. وصحراء السهوب الثلجية البيضاء الخشنة في بعض الأماكن بفعل العشب المتجمد، والشائكة وبسبب شجيرات الأدغال.

كان العالم جميلاً وساكناً بلا حراك، وانفتح مطيعاً أمام الناظر كما تُفتح صفحات الكتاب التي تتصفحها يد متمهلة. وبأقل جهد من الإرادة،

صعد باخ فوق الشواطئ ونظر إليها من الأعلى من نقطة عالية إلى درجة أنَّ حواف الفضاء المرئي اتخذت شكلاً دائريّاً والتفَّت نحو الأسفل، وتحول نهر الفولغا نفسه إلى ثعبان طويل يتشبَّث بالأرض بحلقات صغيرة. نزل إلى الأسفل أكثر وألقى نظرة على الغطاء الثلجي، مراقباً حركة الضوء على حافّات جزيئات الجليد ومتفحصاً بُنية البلورات المنفصلة وملاحظاً تنوعها وهندستها الخالية من العيوب.

في هذا العالم، الذي تخلَّلَه نور القمر المتلألئ حتى آخر زاوية، لم يكن ثمة مكان للظل فالأشياء والمخلوقات المنغمسة في الضوء وحده بدت فيه من دون جوانب ظليلة ومن دون عيوب مخفية. ولم يكن ثمة مكان للحركة أيضاً في هذا العالم الساطع إذ لم تَحُم فوق الكثبان الثلجية دوّامات أثارها تنفّس الرياح، ولم تختلج مقشّات العشب البارزة من تحت الثلج. ارتفع البدر بلا حراك في السماء الزرقاء الداكنة كَلَونِ الحبر، ولم يغير موقعه بمرور الوقت، كما لو أنَّ يداً لا تلين ثبَّتَته في المكان الصحيح. وفي السهوب، ليس بعيداً عن الشاطئ، تجمّد جسدان صغيران في الهواء: بومة رمادية نشرت جناحيها فوق الأرض ووضعت أمامها برثنيها ذاتي المخالب البارزة بوحشية؛ وذيلها المنشور يكاد يلمس الثلج، وعيناها الصفراوان تتطلعان إلى الأمام إلى مكان اندفع فيه فأر صغير فوق قشرة الثلج المتجمّدة اللامعة؛ تجمَّدَ جسده الصغير في قفزة طويلة مخالبه الوردية العارية بأصابعها الصغيرة المفتوحة متوترة بحركة يائسة، أذناه المستديرتان ملتصقتان بإحكام، عيناه منتفختان من الرعب. كان هذان الاثنان معلَّقَين في الهواء في الوقت الذي اخترقت فيه نظرة باخ حدود المَجلَدَة، وبقيا متعلقين طوال الوقت الذي ظلّ فيه ينظر إلى العالم المُدهِش.

لو أراد باخ رؤية المزيد لاستطاع الآن أن يرى: غنادينتال والمستوطنات الأخرى والقرى البعيدة على الضفة اليمنى وساراتوف بكنائسها الأنيقة وقازان بمآذنها الملونة وبطرسبورغ القيصرية وحتى البحر الألماني

العظيم الذي تقع على ضفافه الإمبراطورية الألمانية، وطن الأجداد البعيدين. لكن في قلبه المُتعَب لم يكن ثمة مكان للجشع والفضول لم يسْعَ لرؤية أيّ مكان وما جال بخاطره سوى كيف يعود إلى كوخ المجلَدة الذي تنتظره فيه امرأته المليحة التي تركها فيه. وجال في صدره أسى بالكاد يمكن ملاحظته تأسف لأنه لن يتمكن من أنْ يحكي ما رآه، أو على الأقل أنْ يحاول وصفه على الورق لا لكلارا ولا لأيّ شخص آخر. لكن باخ طرد هذه الفكرة وهبط إلى الأسفل، إلى الهيكل الخشبي الضيق المكسوّ بالندى المتجمد.

لم تراوده الرغبة بالعودة إلى الكرسي المنزوي بجانب صندوق الثلج. كانت رغبته منصبّة أكثر لأن يكون قطعة من قطع الجليد عند رأس كلارا. وهكذا فَعلَ باخ بقوة الإرادة اخترق الجليد وتجمد فيه، مستشعراً جسم كلارا البارد والصلب بجواره، ومتحولاً هو بذاته تدريجيّاً إلى شيء بارد وصعب. وربما، اعتقد في نهاية المطاف، أنَّ العالم الذي يُرى من الخارج كان ساكناً بلا حراك بشكل مبهج هكذا لأنه ليس سوى قطعة كبيرة من الجليد. إنَّ هذه اللوحات المتجمدة مزرعة غريم والغابات على الضفة اليمنى من نهر الفولغا والسهوب على الضفة اليسرى ونهر الفولغا نفسه واصطياد البومة للفأر كلّها قد التُقِطَت في وقت ما من خلال قوة البرد الجبارة وجُمِّدَت في بلورة جليدية نظيفة تماماً، كما تعوم النملة في قطعة شفافة من حجر الكهرمان الشفّاف.

النغمات التي بالكاد يمكن سماعها في العالم المتسمِّر في مكانه (تَصدّع قطع الجليد بين ألواح خشب الكوخ وصرير جذوع البلوط في الغابة) قد تلاشت وتحولت إلى صمت. وذاب سمع باخ في هذا الصمت الطوباوي في اللحظة التي انحلَّت فيها مشاعره وأفكاره في الجليد. صوت ما بعيد فقط إما عواء ذئب أو زعيق طير صدح وحيداً في الصمت وكسره. ولا يمكن للمرء أنْ يعزل نفسه عن هذا الصوت المزعج. وفي أعماق جسده رفرف شيء ما بشكل خافت، ثم صار الانزعاج يزداد أكثر

فأكثر. حاول باخ بقوة الإرادة أنْ يكبح الهيجان المتزايد فلم يستطع: صار الصوت يصدح أقوى وفي الوقت نفسه سخَّن هذا الانزعاج ونفخ فيه وضخمه. وجد باخ نفسه فجأة جالساً مرة أخرى على الكرسي متجمداً برجلين ويدين خدِرة. وبدأ الصوت يصدح أعلى، وكأنه يسخر منه. استيقظت أصوات أخرى بعد أن أصحاها هذا الصوت الوقح وتسلّلت إلى أذنيه: فقد خشخَشت عاصفةٌ ودوَّت على قشرة الثلج المتجمدة وعوت الرياحُ وصلصلت على السطح وغمغمت بعض أغصان أشجار التفاح وجلجلت في البستان. أراد أنْ يمزق قطعاً من قماش القميص التحتي ويحشوها في أذنيه حتى لا يسمع هذه الأوركسترا الصاخبة، لكن أصابعه المجمدة لم تطعه. سدَّ أذنيه بيديه ولكن الصوت أناخ في رأسه، في مكان ما داخل الجمجمة. أخيراً، أدرك باخ: إنَّ هذه هي الطفلة وقد بحَّ صوتها من الصراخ في المنزل داعية إياه إليها. كيف استطاع باخ سماعها عبر الباب الأمامي المدثَّر بمعطف جلد الغنم خلال فصل الشتاء وعبر الجدران الخشبية والفناء الفسيح الذي تدور فيه دوامات الثلج؟ ولكنه سمعها، ومع مرور كلّ دقيقة يسمعها أكثر وضوحاً: وكأنَّ باب المنزل قد فُتِحَ، وأن الطفلة نفسها تعمدت الخروج إلى الشارع، بالقرب من هيكل كوخ المجلَدَة.

عندما هَزْهَزَ بكاء الطفل المدوّي صدغَيه صرخ باخ في إحباط وقفز ثم مشى يعرج على رجليه الخدرتين وجرجر نفسه إلى المنزل. *آسف لأني أتركك*، توجه ذهنياً بالكلام إلى كلارا. *سأعود قريباً، أعدُكِ.*

صرخت الطفلة بعد أنْ فلتت من تحت الخِرَق والمناشف وانثنت على المقعد؛ كانت فاغرةً فمها بنهم طوال الوقت ووجهها يتلفَّت في اتجاهات مختلفة محاولةً الإمساك بموجة من رائحة أو حرارة؛ وفجأة اختلجت بحدّة، وتدلى رأسها الذي يشبه يقطينة مدوَّرة على الأرض على نحو خطير. وحتى باخ نفسه لم يفهم كيف حدث هذا ولكن بعد لحظة سقط على ركبتيه والتقط الجسدَ الساخن الذي انزلق من كومة الخرق

بيديه اللتين بالكاد أطاعتاه. ومرة أخرى اكتوى كأنما التقط جمراً حامياً. وعندما أحسَّت الطفلة بدفء شخص آخر إلى جانبها صرخت بصوت أعلى، بشعور فيّاض، مادّةً شفتيها الصغيرتين بجشع تحاول أنْ تلتقط بفمها يد باخ أو كمَّ قميصه التحتي.

اندفع باخ في المنزل ذهاباً وإياباً حاملاً الطفلة، التي كانت تصرخ، غاضباً على جسده الذي هبَّ هكذا في غير محلّه لمساعدة المولود الجديد وعلى الوليد نفسه الساخن والصاخب بشكل لا يطاق، المطلبي والوقح الذي لم يسمح له بأنْ يكون بالقرب من كلارا، ومتعثراً بالأشياء من دون أنْ يعرف كيف يوقف هذا الصراخ الذي لا يطاق والذي يحطّم الرأس. قرّر أنْ يضع الرضيعة على السرير ويلقي عليها الوسائد ويدثّرها باللحاف المحشوّ بالريش لكنه قلبَ بيديه الوسائد كلّها إلى الخلف وانتشل الطفلة إلى الهواء. ثمّ دسَّها في عبّه ولكن الآن لسبب ما لم ترغب الطفلة في النوم. وفي نهاية المطاف خمّن باخ: أخذ إبريقاً بارداً من الموقد وأدخل صنبوره في فم الرضيعة المفتوح وأماله برفق ساكباً بقايا الماء هدأت الطفلة على الفور وبدأت بالامتصاص بنهم محرّكةً خديها بنشاط وهي تتأوّه من وقت إلى آخر مع كلّ رشفة تحتسيها. امتصت الماء كلّه، وحرَّكت عينيها إلى الأعلى وتنهدت تنهدات متقطعة ثم تراخت. وغفت.

هل يتركها تنام في المنزل؟ سوف تستيقظ حتماً بعد ساعة أو ساعتين ومرة أخرى ستشغله. أيُغطّيها الآن بالوسائد، وهي نائمة؟ أيضعها في الخزانة ذات الأدراج أو في الصندوق، ويطمرها بإحكام ويرمي فوقها المزيد من الملابس، معاطف جلد الغنم والكنزات والتنانير الصوفية والشالات؟ كلّا، باخ لا يستطع فعل ذلك. بالإضافة إلى أنَّ صوت الطفلة خارق لدرجة أنَّ هذه الإجراءات ربما لن تكون كافية. ماذا *عليَّ أنْ أفعل مع طفلكِ، يا كلارا؟*... لم يكن هناك سوى مخرج واحد أنْ يحملها إلى غنادينتال ويلقي بها على باب الكنيسة اللوثرية. ثم يعود ويجلس بهدوء وفي صمت بجوار حبيبته إلى الأبد.

تنهّد باخ. وارتدى سرواله وقميصه وكنزة القرغيزي ومعطف جلد الغنم وقبعة اللباد ذات الفراء مقَطِّباً وجهه تعبيراً عن انزعاجه. لفّ الطفلة التي كانت تئنّ بخمول بين حينٍ وآخر بزوجٍ من الشراشف ثم بالغطاء المحشوّ بريش البط وشدَّها بإحكام حتى يَسهل حملها. غادر المنزل ومشى متثاقلاً إلى مستوطنته الأم تحت نور القمر الأبيض الحليبي الخافت الذي لا يشبه ضوء البدر الشديد في العالم الجليدي الساكن.

***

سار لمدة طويلة، طويلة بشكل مؤلم، وهو يجرّ بجهدٍ قدميه المتثاقلتين متغلّباً على ألم ظهره، كما لو كان يسير ليس عبر نهر الفولغا، بل عبر السهب الكبير بأكمله. متى آنَ لجسده أنْ يهرم بهذا الشكل؟ هل حدث ذلك خلال السنة التي انتظر فيها إنجاب كلارا؟ أحَدَث خلال اليوم الماضي؟ أم خلال تلك الساعتين التي حلَّقَ خلالهما فوق الأراضي التي أحبَّها، وهو ينظر إليها من الأعلى، متنقِّلاً بجهد فكره من تحت السماء إلى الأرض وبالعكس؟ وكم سنة مرّت ولم يأتِ فيها إلى غنادينتال؟ أربع سنوات؟ أم السنوات الخمس كلّها؟ ألا يحسب تلك الزيارة الليلية إلى القرية عندما وجد آثار ذبح الأبقار التعيسة في ساحة السوق؟ أم زيارته لها في العام الماضي عندما مشى في الشوارع وعَدَّ المنازل المدمرة؟ لم يكن باخ في غنادينتال لمدة سبع سنوات كاملة، لمدة سبع سنوات لم يكن في العالم، ولم يكن يعرف بأيّ شيء يعيش هذا العالم وكيف يعيش. واليوم لن يقطع حياة التزهّد أراد باخ أنْ يُنجِزَ كلّ شيء في أسرع وقت ممكن: أنْ يضع الطفلة على درجات الكنيسة اللوثرية ويغادر على الفور من دون أنْ ينظر حواليه، ولا يُلقي بالاً للأشياء المُستَحدَثَة والتغييرات. فإذا كان عالم الجليد المدهش لم يستطع أن يأسره بجماله الساكن، فمن غير المحتمل أن يكون بمقدور العالم الحقيقي فعل ذلك.

بدت غنادينتال بشكل سيئ، بشكل بائس تقريباً. سار باخ على طول الشارع الرئيس، حاملاً تحت إبطه اللفة وفيها الطفلة تتنفس بصوت

مسموع، ومتوقفاً من وقت إلى آخر لكي يستريح. لم يرفع بصره أعلى من كثبان الثلج لكن الخراب من حولها كان مذهلاً لدرجة أنه كان من المستحيل عدم ملاحظته. فعلى جانبي الشارع فغرت أماكن موحشة بدلاً من المنازل: بقيت الأساسات الحجرية وحدها وأجزاء رثة من الأسيجة. الكثير من المنازل تركها أصحابها: تحملق بعضها في بعض بعمى من خلال النوافذ المغلقة بإحكام، وقد تقوَّسَت الأسطح التي لم تُرمَّم من مدة طويلة والتي تراكمت طبقات الجليد على حافّتها؛ والزوارق المقشَّطة متروكة على الأبواب، وقيعانها متيبسة كأنها لم تُستخدم لعدة سنوات. ربما، بقي عدد المنازل المسكونة أقل من تلك المهجورة: رائحة دخان الروث الفوّاحة التي كانت تسود عادة في المستوطنة في فصل الشتاء بالكاد يمكن شمّها الآن، فقد خفَّفَتها رائحة المساكن المهجورة. الطريق غير مسحوق تقريباً وكأنَّ عشر زلاجات لم تمرّ عليه طوال الشتاء؛ على جوانبه فقط يمكن ملاحظة آثار سيرٍ على طول الممرات التي داسها المشاة.

طمأن باخ نفسه بأنه لا بدّ أنْ يأتي واحد من المستوطنين على الأقل إلى الكنيسة، واجتاز ساحة السوق ذات أشجار الدردار الثلاث (زُيِّنَت كلّ واحدة منها لسبب ما بقطعة قماش حمراء)، واجتاز خرزة البئر ودكان بيع الشموع ودكان بيع الكيروسين (النفط الأبيض). ثم وصل إلى الكنيسة اللوثرية وتسمَّر في مكانه: لقد دُفِنَت الدرجات تحت الركام الثلجي وثمة قفل متدلٍّ على الباب أبيض من الجليد المتجمد عليه. كانت هذه الصورة غير عادية لدرجة أنَّ باخ نسي الوعد الذي اشترطه على نفسه بألّا ينظر إلى العالم وأنْ يتسلّل فحسب كالظلّ الذي لا يرى ولا يبالي بما حوله.

مشى حول الكنيسة: كانت النوافذ الرمحية الشكل المكسورة مفتوحة. إحداها مغطاة بقطعة قماش من ذلك اللون الأحمر نفسه تحمل كتابة غريبة «إلى الأمام، نحو الفجر!»؛ تصلَّبَ القماش في الصقيع وكان يتمايل مع الريح مثل صفيحة من الخشب الرقائقي ويطرق على حافة النافذة طرقاً قوياً وثقيلاً.

غير أنَّ مكان إقامة القس بدا مسكوناً: فقد نُظِّفَ الثلج من على شرفة

المدخل وأُزيلت رقاقات الثلج من السقف بيدٍ كثيرة العناية. على ما يبدو، لا يزال القس آدم هاندل يسكن في غناديتال. ما هي القوة المذهلة التي يمكن أنْ تجبر المستوطنين على إغلاق الكنيسة، وفي ظلّ حياة القس؟ الكنيسة المغلقة هي مثل الماء الجاف أو الثلج الساخن. لم يعرف باخ أنَّ هذا يحدث. وتوجّه ذهنيّاً بالكلام إلى كلارا، الحقيقة لم يكن عبثاً أني عزلتك عن العالم لسنوات عديدة. ومع ذلك، أنا وأنتِ بغنى عن هذا كلّه.

هنا، على شرفة مدخل مسكن القس، قرّر أنْ يترك الطفلة. وضع اللفافة المشدودة على الدرجات المُنَظَّفة، ورفع زاوية اللحاف الريشي قليلاً حتى لا يختنق الطفل. نظر إلى السماء السوداء، إلى نجوم الثريا التي هبطت منخفضة في الأفق: الصباح يقترب حان وقت المغادرة.

وفجأة فكر في نفسه: ابن مَن هذا الطفل؟ ابن أيٍّ من الضيوف الثلاثة غير المدعوين؟ ابن الرجل الفظ ذي عظام الوجنة الكالميكية؟ ابن المحارب ذي العينين المتغطرستين؟ ابن الصبي الشاحب ذي الجبين المبثور والرقبة الكبيرة الحرقدة؟ *طفل من حملتهِ لمدة تسعة أشهر، يا كلارا*؟ كانت الفكرة خسيسةً ومؤلمةً. لو حدث هذا في زمن آخر لمَنَع باخ نفسه من التفكير في هذا الأمر حتى لا يفتح جراح روحه، ولكنَّ السؤال الآن لسبب ما لم يُثر في روحه سوى اللامبالاة. ومع ذلك، على أبواب العزلة الأبدية في المَجلَدَة، يحتاج المرء إلى معرفة الجواب ليس من أجل تعذيب نفسه، بل من أجل إثبات الحقيقة فحسب. هل يستحق أن يتكتم عن الحقيقة، إذا ما كان هنا أمامه تكمن على بعد ذراع وتشهق مطلِقةً غيوماً بيضاء صغيرة من خياشيمها الصغيرة؟ مدَّ باخ يده المُرتَجِفة من التعب وأزاح زاوية الغطاء الريشي، وللمرة الأولى نظر بعناية إلى الرضيعة.

كانت الصبية تشبه أمها، تشبهها بشكل مذهل. أيّاً من كان الأب، لم تنعكس آثاره في وجهها ولا حتى بوشم أو لون أو شكل واحد. يمكن للمرء أنْ يرى في وجهها المجعد الصغير بحجم القبضة جميع ملامح كلارا بوضوح شديد إلى درجة شعر معها باخ بالاختناق؛ فرفع قبعته عن

رأسه وركع أمام الشرفة وقرَّبَ وجهه من الطفلة، متسائلاً كيف أمكنه عدم ملاحظة هذا التشابه المذهل. غطى الجلد الرقيق جبهتها المحدبة المألوفة التي امتد عليها حاجبان مألوفان بشكل حزين لا يزالان رقيقين ليس فيهما سوى بضع شُعيرات؛ وتحتهما طيات العينين ورموش طويلة مألوفة له كذلك؛ الأنف الذي لا يزيد حجمه عن طرف الخنصر كان أفطس وبارزاً إلى الأعلى ويمكن رؤية التموجات الذهبية عليه بشير النمش القادم. ميَّز باخ في هذه الملامح وجه كلارا كما يميّز في برعم زهرة السهوب بشكل لا لبس فيه أزهار الخزامى أو الخشخاش القادمة.

فجأة أدرك أنَّ الطفلة لم تعد على الدرجات، بل على ذراعيه. وأنه هو نفسه ركع على ركبتيه حاملاً اللفافة أمامه ليس لديه القوة لا أنْ يقف ويحملها معه، ولا أنْ يتركها على الشرفة. ثم سمع صوت طرق في المنزل فُتِحَ باب أو سقط شيء ما والنافذة مضاءة بشكل خافت: لا بدّ أنَّ أحد أصحاب المنزل استيقظ على صوت خطى في الشارع ورأى عبر النافذة شخصاً يجول عند شرفة المدخل. نهض باخ على عجَل على ركبتيه ومشى مخشخشاً في الثلج ويضمّ الطفلة النائمة إلى صدره.

* * *

لا ينبغي اختلاق المزيد من الحماقات، والمزيد من الخيانة فيما يتعلق بكلارا، التي تنتظره في المزرعة، والمزيد من العذاب لنفسه. سار باخ بصعوبة على طول الممشى الذي بالكاد يمكن رؤيته عبر ركام الثلج على جانبي الطريق وفجأة لدهشته لاحظ أنَّ المنازل والأشجار تمرق من جنبه بسرعة أكبر، ولاحظ أنه أصبح يركض بنشاط مع أنه كان يلهث ويتصبب عرقاً، من دون أنْ يتعثّر، بأُعجوبة، ومن دون أنْ يسقط اللفافة الكبيرة الحجم، ويتنفس الدفء حتى من خلال ثُخانة الغطاء المحشوّ بالريش.

ما هذه الجماح المفاجئ؟ هل هو اختلال عقلي قصير الأمد أو علامة على مرض روحي ظهر بسبب الفاجعة؟ والآن ما عساه أنْ يفعل، وهو الرجل المتعب في منتصف العمر مع هذا الطفل الغريب؟

وبعد أنْ سخط على نفسه أراد ترك الوليد على شرفة مدخل آخر عند منزل المختار ديتريخ أو الرسام فروم؛ فقد امتدت من مداخن منازلهم أيضاً إلى السماء أعمدة دخان خفيفة. ومرة أخرى لم يستطع. شيء ما منعه، وكأنَّ سحراً وقع عليه. قرّر: أنْ يعود إلى المزرعة، ويقارن بعناية بين وجهي الأم وابنتها؛ سوف يجد ثمة اختلافات بالتأكيد، وسيصبح اندفاعه الشخصي واضحاً وسوف يبطل السحر. وفي ليلة الغد سيكون من الممكن اصطحاب الطفلة إلى غناديتال.

آسف، توجه ذهنياً بالخطاب إلى كلارا. *إنكِ تَرين أنَّ أموري ليست على ما يرام. عليكِ الانتظار يوماً واحداً فقط.*

وعندما عبر ساحة السوق بدأت الطفلة تتأوّه وتئنّ ناعسةً وهي تحرك شفتيها وتمدّهما على شكل أنبوب صغير. أدرك باخ أنها تريد أنْ تأكل. فالأطفال دائماً ما يريدون تناول الطعام. ولن يكون الماء من الغلاية هذه المرة كافياً. إنها بحاجة إلى الطعام. إلى حليب طازج. لكن المشي في الأفنية وإيقاظ المستوطنين والتحدث معهم بالغمغمة والإيماءات لا فائدة منه سيطردونهم بأعينهم الناعسة الغاضبة. يمكن الحصول على الحليب من خلال سرقته فقط يجب عليه أنْ يتسلل إلى إحدى الحظائر ويحلب هناك بشكل سرّي في أيّ وعاء أو إبريق يمكن العثور عليه هناك...

تتبع باخ بخوف مسار أفكاره ونفسه ذاتها التي جعلته يجازف في مستوطنة نائمة كالذئب الليلي واللص.

الأفنية الأغنى التي من المؤكد أنه يوجد فيها أبقار بضروع كبيرة وماعز والدات بحلمات وردية متدلية على الأرض، وأفراس ذات مهرات بأرجل صغيرة، هذه الأفنية كلّها قد خُرِّبَتْ منذ زمن بعيد. كلّ ما تبقى له، هو محاولة أنْ يحظى بالحصول على ضالته في حظائر أسوأ على سبيل المثال، عند عائلة بريخت المتدينين: كانوا مشهورين بعدم إغلاق البوابة الخارجية أو حتى الأبواب الداخلية في الليل متوكلين على إرادة الله في كلّ شيء. على مدى السنوات السبع الماضية ابْتَأَسَ منزلهم بشكل

ملحوظ وتدهور، ولكن لا يزال ينفث دخاناً واهناً لا يزال حيوياً. أمسك باخ بإحدى يديه بشكل أفضل الطفلَة التي كانت تئنّ بجزع، ودفع باليد الأخرى مصراع البوابة برفق: البوابة مفتوحة، كما هي الحال دائماً. على الأقل شيء ما ظلَّ في غنادينتال من دون تغيير.

يا كلارا، أفعالي تخيفني.

دخل، ولكنه وجد الفناء فارغاً ولا حياة فيه: لا تتنفس في الحظيرة أبقار نائمة، ولا تخبط ثيران وجِمال بحوافرها. لم تكن ثمة حيوانات أبداً. مثلما لم يكن ثمة أيّ منها في حيازة الحائك ديزيل ولا عند الأرملة الميسورة كوخ ولا حتى عند غوف جزار الخنازير، فقد زار باخ الجميع الليلة.

يا كلارا، ماذا يفعل طفلك بي؟

تسلّل إلى بعض المنازل من خلال فتحة في السياج، وإلى البعض الآخر من خلال الحديقة الأمامية المغطاة بالثلوج. ووجد جميع الأفنية فارغة، وكأنها كُشِطَت: لا أقراص روث البقر ولا مكبات بعر الغَنَم الفواحة بالرائحة ولا آثار أظلاف الأكباش في الثلج. طاف باخ طوال الليل في غنادينتال متحركاً بسرعة من دون انتظام متناسياً التعب وهو يحمل الطفل الرضيع الذي يعوي بتذمّر ويهزّه يائساً أكثر فأكثر. فإذا ما استيقظ وبدأ يصرخ فسيتعين عليه الفرار من المستوطنة بكلّ ما أوتيَ من سرعة. من دون حليب...

يا كلارا، هل حقّاً أنّي جُننْت؟

وفجأة فاحت رائحة نفّاذة وحلوة قليلاً: إنها رائحة شَعر الماعز ودفء الحيوان. فأغمض عينيه ومدَّ أنفه ليقتنص الموجة، الرائحة تنبعث من فناء دار بيول صاحب الشوارب الضخم الطويل القامة المتجهّم الذي قيل عنه: إذا ما أحبَّ أحداً في هذا العالم فعندئذٍ سيحبُّ غليون الجوز خاصته فقط الذي يتدلى دائماً من تحت شواربه غير المحلوقة.

اصبري، توجه باخ بالكلام للرضيعة. *يبدو أنَّ الحظّ حالفنا.*

صبرت الرضيعة بالفعل نامت بجدّ لمدة نصف ساعة أخرى: طوال

الوقت الذي أدخلَها فيه باخ في الشق تحت السياج، وتسوَّر هو من فوقه يطأ بقدميه من دون اكتراث العوارض المدقوقة؛ تسلّل إلى الفناء الداخلي المحاط بسياج من أغصان مجدولة وأدار المزلاج الذي على الباب المؤدي إلى الزريبة ووجد نفسه فجأة داخل قطيع المعز الذي يبلغ خمسين رأساً أو حتى يزيد. احتشد المعز في الزريبة متراصّاً لدرجة يكاد يتشابك فيها بالقرون. كان المعز نائماً نوماً خفيفاً: وعندما ظهر باخ اضطرَبَ وتدافع بجنوبه المضلعة ودقَّ بحوافره على الأرض وبقرونه على الجدران. متى تمكن بيول صاحب الشوارب المحروم من المال طوال حياته من امتلاك مثل هذا العدد من المواشي؟

وضع باخ الطفلة بعناية على عتبة الزريبة. ومدَّ يده إلى اليمين وتلمَّس بها الجدار، عادة هناك، بالقرب من عضادة الباب تُعَلَّق أنواع اللوازم. تلمَّسَ الحائط ولكنه لم يجد سوى بعض المسامير الفارغة. أيّ صاحب أملاك أنتَ: اقتنيتَ قطيعاً من الماشية ونسيتَ أنْ تقتني الكاشطات والأمشاط ودلاء التغذية. وقفز إلى الفناء الذي لاحظ فيه عند الحائط كومة من سقط المتاع وأخرج منها غطاءَ مجعَّداً لفرّازة قشطة من الصفيح لكنه ما يزال سليماً يمكن استعماله بمثابة وعاء. وعاد إلى المعز. لم يغلق الباب؛ جلس القرفصاء وبدأ تحت ضوء القمر الشاحب ينظر في سحابة متحركة من السيقان النحيفة والشَّعر بحثاً عن ضرع حليب أكبر وأكثر تكويراً. وجد ضالّته. فشقّ طريقه إلى تلك العنزة؛ وصفق بلطف على جنبيها العظميين مهدئاً إياها ووضع بين قوائمها الوعاء الذي وجده. دفَّأ أصابعه بأنفاسه ورطَّبها باللعاب من أجل النعومة. مسَّدَ على الضرع عند نتوءات الأوردة والحلمات المتباعدة الصلبة كالحجر. شدّ قبضته وشفط الحليب، ضرب تدفّق كثيفٌ قعر إناء الصفيح بصوت عالٍ كما لو كان طلقة. العنزة لم تُحلَب منذ مدة طويلة، لهذا وقفت بإذعان وانتظرت بصبر طوال الوقت الذي جلس فيه باخ عند ضرعها المتورم. لاحظ باخ أنَّ شعرها غير محكوك وتعلوه عُقَد متشابكة وقوائمها غير المهندمة مجعَّدة

بناميات قبيحة، لم يعتَنِ بيول بقطيعه جيداً، عبثاً أنه اقتنى مثل هذا القطيع المثير للإعجاب.

سكب باخ القطرات الأولى التي حلبها (يقول المستوطنون: «روى بها الأرض»)، وجمع الباقي. خرج وعاء كامل تقريباً: أكثر من لتر من الحليب الدسم العبق الرائحة الذي يكاد يكون ساخناً، وينبعث البخار منه في الجوّ البارد. تأبَّطَ الطفلة وحمل الإناء المكشوف بعناية محاولاً عدم سكبه وخرج من الحظيرة ثم من الفناء ومن ثم من غنادينتال.

في منتصف نهر الفولغا، في ساعة قبل الفجر المعتمة عندما غاص القمر في الغيوم والشمس لم تظهر بعد استيقظ الرضيع على كلّ حال واسترسل في الصراخ من الجوع. لم يكن يعرف كيف يشرب من الوعاء. فكان على باخ أن يهبط على الثلج ويضغط الطفل إلى بطنه بعد أن يدثّره بمعطف جلد الغنم ويغمس حافة قميصه في الحليب ويدخله في فم الرضيع المفتوح بنهم. وبعد أنْ شبع الطفل غطّ في النوم. وغلب النعاس باخ كذلك وبالكاد وصل إلى المنزل، أضرم بضع قطع من الخشب في الفرن وتسلّل إلى الفراش البارد تحت الغطاء المحشوّ بريش البط والذي ظلّ مشبَّعاً بأنفاس الرضيع الدافئة (في البداية أراد أنْ ينام في المجلَدة لكنه خشي أن تصرخ الطفلة مرة أخرى إذا ما تركها في المنزل وحدها). وضع الطفلة على الجانب الآخر من السرير بين الوسائد حتى لا تسقط.

عندما اخترقت أشعة الشمس الأولى الشقوق في المصاريع المُغلَقَة وانسابت عبر الغرفة المكنوسة كنساً جيداً، كان باخ والطفلة الوليدة كلاهما يغطّ في نوم عميق. رقد هو، حسب عادته القديمة، ممدَّداً في حالة من التوتر وشابكاً ذراعيه على صدره. ولم تكن الصبية في مكانها: فقد تدحرجت عبر جميع الوسائد من مدة طويلة وجثمت في كومة طيات لحاف الريش وشقّت طريقها من خلالها لكي تلتصق بوجهها وبطنها ورجليها على الجسم الكبير والدافئ للرجل الذي رائحة قميصه التحتي ويديه تفوح بالحليب الطازج المهم لها وحده على وجه التحديد.

-10-

استيقظ باخ بعد انتصاف النهار بمدة ووجد كتلة صغيرة دافئة تحت جنبه. وكأنه رأى الطفلة بشكل جديد: كلّ جزء من أجزاء جسمها كان صغيراً ورقيقاً لدرجة أنَّ باخ تجمد في حالة من الارتباك لا يعرف كيف يفصل عنه هاتين الكفّين والقدمين، وهذه الهشاشة والنعومة التي انكبَّت على جنبه خائفاً أن يلمسها حتى لا يخدش عن غير قصد بشرتها الرقيقة بأصابعه ولا يكسر عُظَيماتها الهشّة. لماذا لم يخشَ هذا من قبل؟ لماذا جرجر الطفلة بالأمس بسهولة، مثل حضن حطب قشاش مرة يضغطها بعمق تحت إبطه ومرة يضعها تحت السياج ومرة يتركها على عتبة الحظيرة؟

لأول مرة رأى باخ مخلوقاً بجانبه أشدّ ضعفاً وعجزاً منه شخصيّاً. رفع نحو جسد الطفلة يده العريضة ذات الأصابع القوية والأظافر الكبيرة بحوافّها الداكنة من التراب المتغلغل فيها، وذات راحة الكفّ المتغضِّنة والصلبة وظهرت الكف التي يكسوها جلد مسامي مترهل. هذه اليد، التي اعتادت على تقطيع الخشب المتجمد وجليد الفولغا الصلب المتحجر، التي بإمكانها أن تغطي رأس الطفلة بالكامل وتهرسه هرساً بحركة واحدة من الأصابع؛ وبإمكانها أن تمسك عنقها الصغير الناعم وبأقل ضغط أنْ توقِف أيَّ حركة للهواء فيه. يد باخ غير الكفوءة والعاجزة أحياناً عن مصارعة مياه النهر التي لم ترغب في منحه كمية ضئيلة من الصيد، ومصارعة تساقط الثلج الذي سعى جهده لغمر المنزل حتى السطح،

ورياح الربيع الهوجاء التي تبتغي اقتلاع بستان التفاح من الجذور، هذه اليد كانت بجوار الطفلة بمثابة يد جبّارة: قادرة أن تطيل حياتها الوجلة أو تسلبها. جسد باخ الكثير العروق والواهن المتعرض لنزلات البرد المتكرّرة والذي مسّته في بعض الأماكن تموجات الشيخوخة، كان بجانب الطفلة جسد عملاق هائل وقاهر.

نظر إلى الطفلة، غير قادر على رفع عينيه عنها. أطرافها الأربعة الصغيرة التي تتشبث به بلهفة، كلّ واحدة منها أطول وأسمك بقليل من إصبعه السبابة يا تُرى، هل ستنمو حقّاً في غضون بضع سنوات ويكسوها اللحم وتتحول إلى يدين ورجلين؟ وهذا الجسم المخملي الذي لا تُرى فيه بعد ضلوع أو عضلات أو حتى سلسلة عمود فقري على الظهر هل سيستقيم ويشتد عوده حقّاً ويفعم بالقوة؟ والبوز الصغير المليء بالتجاعيد الذي انكبّ على متنه هل من الممكن أن يتعافى وينبسط ويصبح وجهاً ناعم الملمس؟

وبعد أنْ أثارته الأفكار الفوضوية وخشي من الإدراك المفاجئ لقوته، حرَّرَ باخ نفسه من أحضان الطفلة الصغيرة ومشى يجرّ قدميه جرّاً إلى المجلدة لترتيب أفكاره وتبريد رأسه.

وجد الكرسي هناك في مكانه عند موضع الرأس. وكلارا ترقد هناك كما هي. كان وجهها هادئاً وبشرتها بيضاء وناعمة. يداها الرفيعتان الطويلتان ورجلاها الرفيعتان الطويلتان ممدَّدتان بشكل متناسق لدرجة أنها لم تعد تشبه التمثال، بل تشبه دمية خزفية من صنع فنان ماهر. شعرها الذي برز أثناء الولادة من التصفيفة المشدودة أحاط بجبينها على شكل سحابة ذهبية. أراد باخ إحضار مشط وتسريح الخصلات المنفوشة، لكنه لاحظ أنها في جذورها مغطاة بندى جامد رقيق وأصبح لونها أبيض ولم تعد تنتهك جمالها، فتركها كما هي. وكان الندى المتجمّد قد غطّى حواجب كلارا ورموشها الطويلة، وحتى الزغب الخفيف الناعم الذي لا يرى إلّا في الضوء الساطع على صدغيها وعلى جسر الأنف وفوق الشفة

العليا ولهذا بدا وجهها الأبيض الثلجي الذي لا يكاد يُلاحَظ متألقاً في ضوء أشعة الشمس.

عذراً، توجه إليها باخ بالكلام ذهنيّاً. الآن لا يمكنني البقاء معك. *امنحيني بعض الوقت. إنكِ ترين، طفلك يفعل معي أشياء غريبة.*

تبيَّنَ أنَّ الجليد الموجود في الصندوق لم يكن شفافاً بما يكفي فنزل باخ إلى نهر الفولغا وقصَّ بالمنشار كمية من الثلج؛ اختار لكلارا أكبر القطع وأجملها، إذ تمعَّن في النظر إليها من جانب إلى آخر مقيِّماً فيها بمماحكة انكسار شعاع الشمس وشكل النقش ونظافة القطع. وقبل ذلك، أطعم الرضيعة التي استيقظت بعد أنْ خفف الحليب بالماء المغلي وصبّه في فمها الصغير بملعقة ضيقة من الصفيح.

غطّى كلارا بالجليد الطازج ورشّها بالثلج الطري الذي جمعه ليس من الأرض، إذ يمكن أن يعكر نقاوته بشكل غير ملحوظ فأر عابر أو حيوان آخر، بل جمعه من أغصان الأشجار العالية.

ولمّا عثر على طفح جلدي على جسم الرضيعة، قام لأول مرة بغسلها في الطست النحاسي حذِراً من أنْ تسقط منه ومتوجساً أن يغمر رأسها في الماء أو أن يكون الماء بارداً أكثر من اللازم أو حارّاً فيسمطها. غسلَها غسلاً خفيفاً بنقيع من بقلة الخطاطيف والبابونج الذي جمعته كلارا في الصيف، ثم استحَمَّ هو نفسه (عادة ما كان يغتسل بعد كلارا بالماء نفسه، ويفعل كما فعلت هي، وقد تراءى له معنى لطيف ومهم في هذه العادة التي درج عليها منذ مدة طويلة).

وقام كذلك بتمشيط شعر كلارا، وضفره في جدائل ناعمة وصفَّفَه على شكل كعكة مبرومة حول يافوخ رأسها وكأنه وضع عليها تاجاً. ولو كان الوقت ربيعاً لصنع لها أكاليل من أزهار الكتان الأزرق والخشخاش القرمزي والخزامى الناري وشقائق النعمان الأرجواني؛ أما الآن فقد زيَّن تسريحة شعرها بشرائط من الدانتيل من أعماق صندوق تيلدا الضخم.

غسل كومة من الشراشف التي لطختها الطفلة في الأيام الأولى من

حياتها. نظَّفها أولاً بماء البئر المالح ثم شطفها بالماء النظيف الجاري في أقرب فتحة في الجليد، كما كانت تفعل كلارا دائماً. ونشر البياضات الرطبة خارج المنزل. ذكَّره مشهد المستطيلات البيضاء التي عامت بشكل ابتهاجي في الفناء بكلارا بشكل واضح لدرجة أنَّ باخ هرع إلى انتزاعها وبصعوبة تمكّن من تهدئة نفسه: أنْ ينشر البياضات في مكان آخر وبذلك يخرق طريقة الحياة المعتادة وهذا شيء لا يُطيقه أكثر من سابقه.

زَيَّنَ عنق كلارا بخرز أصفر من المرجان الاصطناعي، وأذنيها بأقراط زجاجية ومعصميها بأساور نحاسية تترية مما وجده في قعر صندوق تيلدا ذاته. أراد أنْ يضع على كلارا ثوباً أنيقاً لكنَّ جسدها العاري بدون ذلك كان جميلاً.

مزَّق أَقْمِطة للطفلة من الشراشف والمناشف العتيقة. واستعمل زوجاً من قمصان النوم لِيَلفَّ الطفلة بها أثناء النوم، ولكي يدثرها استعمل شالاً ثخيناً ذا أشرطة طويلة وتنورةً صوفية مطرزة بأشرطة مبرومة ملونة. كان يخشى أن تتشبع الأشياء برائحة الرضيعة وتفقد رائحة جسد كلارا المنبعثة منها، لكن هذا لم يحدث: إذ كانت تفوح من المولود رائحة الأم. كانت هذه الرائحة قوية بشكل خاص على يافوخ الرأس الذي ينبض فيه دائماً بخفقان مربَّعٌ ناعمٌ يغطي عظام الجمجمة غير المكتملة النموّ بعد، وفي الطيات خلف الأذنين. وبعدما اكتشف باخ ذلك بدأ يلتصق بوجهه على رأس الطفلة ويستنشق بمنخريه الرائحة المنبعثة منه عدة مرات في اليوم؛ وفي الليل كان ينام ووجهه مدفون في قفا الطفلة أو صدغيها.

لقد تعلم أنْ يهدهد الطفلة: في إحدى الليالي لم تستطع الرضيعة النوم فكان على باخ أنْ يهزَّها لمدة طويلة ممسكاً مرفقيه في يدٍ ممدودة وماشياً بخطى متقاربة وبتململ في المنزل. وقبيل الصباح وهو يضع الطفلة التي غلبها النوم في الفراش وجد نفسه منغمساً بترديد لحن بسيط من إحدى تلك التهويدات التي كانت كلارا تنشدها أثناء الحمل.

أصابه الفزع عندما سقط، بعد يومين، الحبل السري، الذي يشبه

العقدة، فجأة، من بطن الطفلة وترك وراءه حفرة عميقة تنضح قليلاً بالدم. لكن الجرح لم يزعج الطفلة وسرعان ما اندمَل.

وانتابه الفزع مرة أخرى عندما رأى ذات صباح في الفناء مسارات ذئاب عريضة المخالب: فقد جاءت الحيوانات إلى المزرعة في الليل، ودارت حول المنزل لكنها لم تستطع الوصول إلى المجلدة المقفلة، فعادت أدراجها خالية الوفاض...

عمل باخ بلا كلل أياماً كاملةً. اندفع بين المرأتين البالغة والمولودة. فبمجرد أنْ يمكث أكثر في المجلَدة حتى يستدعيه الصراخ المستمرّ إلى المنزل. ولو مكث ساعتين في المنزل، حثَّه الشعور بالذنب إلى العودة من جديد إلى كلارا في المجلدة. وبدا أنه قد أصابه الهُزال في هذه الأيام القليلة، على الرغم من أنَّ ذلك لم يكن ممكناً: فيداه ورجلاه كانت على كلّ حال متكونة من أوردة وعظام فحسب، مغطاة بجلد. وفي صباح أحد الأيام شعر بأنه متوعِّك: كان وجهه ورقبته متوقدين وأحشاؤه الداخلية توجعه بلا رحمة وشعر بآلام في ظهره؛ غير أنَّ صراخ الطفلة الشديد جعله ينهض من الفراش فشتَّتَ الألم في عضلاته وخفَّفَت برودة المجلدة سخونة جبهته المستعرة؛ لم يتوجّع كثيراً وعند انتصاف النهار نسي باخ وعكة الصباح. وطوال هذا الوقت، لم يجرؤ على أخذ الصبية إلى المجلدة لكي يُقارن شكلها مع كلارا: كان تشابههما واضحاً.

بعد أسبوع خَلُصَ الحليب المسروق وفي الليل ذهب باخ مرة أخرى إلى غنادينتال، وقام للمرة الثانية بحلب عنزة الناس. وفكّر: ألا يتطلّب الأمر أنْ يأخذها معه؟ وهذا يعني، مع ذلك، التأهّب لإطعام الطفل لمدة أطول (عدة أسابيع، أو حتى أشهر)، وبالتالي إطالة الخلوة في المجلدة مع كلارا أكثر. لم يستطع باخ أن يفعل ذلك. ولم يستطع أن يأخذ الطفلة إلى غنادينتال ويتركها على مدخل منزل أحدهم. لقد تمزق بين المرأتين كما لو كان يركع على ركبتيه في الثلج في منتصف نهر الفولغا المتجمّد، غير قادر على أن يتخذ خطوة إلى الأمام أو أنْ ينكص عائداً.

وفي المرة الثالثة ألقي القبض عليه. إذ أمسكت يد ثقيلة كتفه وهو يعصر القطرات الأخيرة من الحلمات المرنة، وأخذت بتلابيبه وألقت به على الأرض. اضطربت حوله أرجل الماعز التي تشبه سياجاً من الخوازيق، وانزوى القطيع إلى الجوانب وشكَّلَ حلقة ورنَّ الوعاء المقلوب تحت ضربات الحوافر. رفع باخ وجهه من خليط نشارة الخشب وروث الماعز، محاولاً بجهد أنْ يرى المهاجم لكنه لم يرَ سوى خيال داكن فوق بحر من الأظهر الشعثاء والقرون المتقلقلة. حاول أنْ ينهض، لكنَّ ضربة قوية على صدره أعادته إلى الأرض. اقترب الخَيال، ولوَّح بيديه وفي الحال غطّى شيء كثيف وخشن يفوح برائحة الحبوب والتبن المتجمد باخ من جميع الجوانب: فقد وضِعَ كيسٌ على رأسه؛ وسحِبت يداه خلف ظهره ورُبِطتا. ودُفِعَ على بطنه، وقيل له: انهض. واقتيدَ إلى مكان ما في غنادينتال التي كانت تغطّ في النوم.

ساروا لمدة قصيرة: ثم صُفِقت بوابة سياج خشبية، وصرَّ باب مدخلٍ بمدٍّ، وفاح المكان بالدفء ورائحة الكيروسين فقد دخلوا إلى منزل.

- أمسكتُ لصّاً. صدح صوت بالقرب منه. - لقد حلب نصف زبدية من اللبن، ابن الكلب.

كان هذا صوت بيول صاحب الشوارب، الوغد المتجهم الذي كانت الأمهات في غنادينتال يُخِفنَ به الأطفال المشاغبين. هذا هو الذي باغت باخ في الحظيرة.

انزلق الخيش على خديه، وآلم عينيه الضوء البرتقالي فقد سُحِبَ الكيس من رأسه. رمشَ باخ بعَمشٍ واقشعرَّ وسحب رأسه إلى كتفيه، وفجأة وجد أمامه وجهاً غريباً يحدِّق إليه بعناية.

كان هذا الوجه قريباً جدّاً، كما لو أنه لا يريد رؤية باخ، بل يريد التقاط أنفاسه أو يشمّ رائحته. وكان هذا الوجه، الجامد والمضاء من أحد جانبيه من خلال ضوء مصباح الكيروسين المرتعش والمغمور من الجانب الآخر في الظلام، يحدّق إليه بنظرة ثاقبة ودقيقة. كانت ملامحه مثالية.

ليس وجهاً، بل مُحَيًّا دقيقاً ورقيقاً، لا يوجد مثله إلّا في صور القديسين على الأيقونات. تلألأت على هذا الوجه ليست عينان، بل مقلتان: سوداوان بَرَّاقتان تأسران برموشهما الطويلة. ولم تكن شفاه تلك التي بدت على هذا الوجه بلونها الأحمر بل مُقَبَّل عذبٌ. وليس خدود ما بدا بلونه الوردي الرقيق بل وجنات ناعمة. إنها صبية شابة، دلَّت على ذلك نعومة الجلد ورقة الملامح؛ كانت النظرة راشدة وحزينة لدرجة أنها لا يمكن أن تنتمي إلى رجل عجوز. وبعد أنَّ جمدته هذه النظرة حبس باخ أنفاسه وتسمَّرت عيناه ولم يعد يجرؤ على رفع بصره عنها.

- هل هذا جِنّ بيتك؟ سألت البنت بصوت مبحوح.

شوَّهت حركة الشفاه وجهها وجعلته يتغير إلى حدّ يصعب معرفته: تجعد الجلد الرقيق بكثافة على الخدين وحول الفم وعلى جسر الأنف وكأنَّ الجليد تصدّع على الفولغا وتحول النهر دفعة واحدة من مرآة ناعمة إلى كومة من قطع الجليد المرتفع. رفعت البنت يدها إلى فمها وفركت شفتيها بأصابعها وهي مستغرقة بالتفكير. بدت الأصابع القذرة ذات الأظافر المربعة مثيرة للاشمئزاز على الوجه الرقيق والشفاه المنتفخة، وهذا ما أثار باخ. نكَّس بصره وفوجئ عندما وجد أنَّ البنت ترتدي قميصاً أزرق مزركشاً وفوقه كنزة صوفية من دون أكمام وسروالاً من الجوخ مدسوساً في حذاء من اللبّاد. الجسم وكأنه مفتول برعشة قبيحة: الكتف اليمنى بارزة نحو الأسفل وإلى الخلف قليلاً، والكتف اليسرى إلى الأعلى وإلى الأمام. الذراعان طويلتان، بمفاصل منتفخة ضخمة والساقان قصيرتان منحنيتان قليلاً عند الركبتين وكأنها على وشك أنْ تجلس القرفصاء. إنها ليست بنتاً على الإطلاق، بل رجلاً فظّاً ضَئِيلاً قصير القامة وعريض العظام مشوّهاً بنوع من الأمراض قد حباه القَدَر الأحمق وجه بنت جميلاً.

- حكايات الجنّ قصَّها على النساء العجائز المُسنّات! وكرّر قول: الجنّ يحلب الماعز والجن يسرق الدجاج... - ابتسم الرجل ابتسامة ساخرة ومشى نحو الطاولة التي وُضِعَت عليها أوراق مصباح الكيروسين.

كانت مشيته المتوترة تشبه الرقص تحركت فيها جميع عضلات جسمه، من الرقبة المفتولة العضلات والكتفين القويتين إلى القدمين المعوَجتين قليلاً، وكأنه ليس جسماً يمشي على الأرض، بل كرة مرنة من العضلات والعظام والشعر كانت تتدحرج؛ وعلى الظهر إلى جانب المتن تمايلَ انتفاخ حادّ - حدبة. رقصَ ظلّه الأحدب الطويل على الحائط المبيَّض واستقر قفاه على السقف.

- في مزرعتنا الجماعية، إذا ما سرق أحدهم، فالسارق ليس سوى رجل! ضئيل وقذر في جسده وروحه. مثل هذا! وأومأ بوجهه إلى باخ بازدراء، كما لو كان قطعة غير ضرورية ملقاة على جانب الطريق أو وعاءً فخاريّاً مكسوراً أو قطعة من حبل نصف متحلل. - هل فهمتَ، يا بيول؟

يتحدث الأحدب *باللغة الألمانية الرفيعة* بشكل نقي يثير الدهشة، وبنبرات رتيبة وفاترة لم يسمعها باخ حتى في خطاب الألمان الحضريين.

ومن دون أن يدير رأسه نظر باخ بحذر إلى بيول. فوجده، كما هو دائماً، متجهماً. شواربه غير المتساوية، التي كانت في ما مضى تشبه كومة من التبن الرطب، تهدَّلَت الآن تماماً وغطت فتحة فمه، والعينان اختفتا تماماً تحت الحاجبين المتضخمين، وبرز الأنف وحده كالمنقار الثقيل على وجهه المسطح والكئيب.

- ما عسايَ أنْ أفعل بهذا الأشعث ماذا؟ قال بيول وهو يتثاءب فاغِراً فاهه العريض الأدرد.

زمَّ الأحدب شفتيه الجميلتين بشكل بغيض، كما لو أنه رأى شيئاً مثيراً للاشمئزاز في فم بيول. ومن دون أنْ يُجيب نظر إلى أكوام الأوراق المنتشرة على الطاولة واكتسب وجهه في الحال سكونه السابق، ومعه جماله السابق؛ يبدو أنَّ بيول قطع أفكاره بمجيئه، والآن يستجمع الأحدب أفكاره من جديد حول شيء أكثر أهمية من القبض على لص منحوس. ومدَّ يديه إلى الأوراق وحركها بأصابعه وهو يتأمَّل أيَّ ورقة عليه أنْ يأخذها. وتحرك معه الظل على الجدار المبيَّض بأصابع ضخمة.

– نصف زبدية من الحليب، آه كم هو قليل، قليل... تمتم بهدوء في نفسه بصوت لا يكاد يُسمَع. إذن، هذا كلّ شيء هنا: كلّ واحد بنصف زبدية وبرشفة وبنصف بصقة. كلّ شيء يزحف زحفاً. كلّ شيء همساً. بنصف القوة، قليلاً، قليلاً جدّاً. إنكم لا تعيشون، بل تعجنون الأوساخ في كشتبان. نصف زبدية... لماذا ليست مملوءة كلّها؟ وهكذا، من دون أنْ يختار ورقة واحدة، صفق على الطاولة بيده بأسف وألقى نظرة اتهام إلى باخ. – لماذا لم تسرق عنزة أو حصاناً أو جراراً، بل امتصصتَ قليلاً الحليب فقط؟ هل تستطيع أنْ توضح لي السبب؟ إذا سرقتَ، فاسرق شيئاً كبيراً! اجرف الممتلكات العامة بأظافرك الدبقة. ونحن سنوبِّخكَ أولاً! ونرسلك إلى المحكمة العامة ثانياً! ونُلقي بك عارياً في حفرة في الجليد ثالثاً! أما إذا لم يسمح لك ضميرك بسرقة أشياء كبيرة فلا تسرق على الإطلاق. انضم إلى المزرعة الجماعية وعِش وابتهج. والآن ما الذي تأمرني أن أفعله بك على سرقة قدح الحليب هذا؟ هل أسجنك في القبو حتى الصباح؟ أأضربك بالمسطرة على راحتَي كفّيكَ؟ أأهدّدك بإصبعي وأتركك تذهب؟ لماذا لا تجيب؟!

نظر باخ إلى الأرضية غير المكنوسة منذ مدة طويلة والمملوءة بقصاصات الورق وقشور عباد الشمس وقشور الجوز وغيرها من القمامة وتساءل في نفسه عمّا إذا كانت الرضيعة قد استيقظت في المزرعة. عادة ما تستيقظ الطفلة قُبيل الصباح، ولكن يمكن أن يحدث أيّ شيء. وقد كدَّرَته فكرة أنْ تكون الطفلة قد بُحَّ صوتها من البكاء في المنزل الفارغ، وآلمته مثل ما تؤلِم المرء الشوكة عندما تَخِزه بعمق تحت الظفر.

– دعني اشبعه ضرباً بقبضتي، قال بيول وهرش خدّه غير الحليق بخشخَشة. – أضربه من القلب ضرباً حقيقيّاً على طريقتنا في غنادينتال.

– تضربه بقبضتك! حرَّك الأحدب كتفيه بحدّة وكأنه يريد أنْ يفكّ جسده المُعوَجّ في الاتجاه المعاكس. – أولاً، سرق رشفتين من الحليب، ثانياً، ضربتَه على هذا الفعل مرتين في وجهه هذا هو الوعي السياسيّ! على طريقتكم – طريقة أهالي غنادينتال!

– إنك عبثاً تقول، أيها الرفيق المنظّم الحزبي. سأضربه ضرباً مبرحاً إلى درجة يبقى شهراً يزحف على أربع.

– لا حاجة لأن يزحف على أربع! قفز الأحدب من على الطاولة بانزعاج وجعل يدور في الغرفة؛ ودار ظلّه العملاق في الكوخ وانعكس على السقف وازداد طولاً وعرضاً. من الضروري أن يقوم هذا اللص الضئيل بحلق شعره الأشعث الكثّ ويأتي إلى مزرعتنا الجماعية غداً لكي يسجّل فيها. وليرعى تلك المعاز ويعتني بها. ويطرد أيّ شخص يخطط لسرقة قطرة من الحليب العام من قطيع المزرعة الجماعية. هذا ما يجب فعله!

– لن يحدث هذا. – دفع بيول فكّه السفلي إلى الأمام على نحو كئيب إلى درجة انتصب معها شاربه بشكل عمودي وكاد ذقنه أنْ يلمس طرف أنفه وواصل الكلام. الضفادع لا تتسلق الأشجار. والناس لا يبلغون طولاً بارتفاع كاتدرائية كولونيا. واللصوص لا يصبحون رعاة.

– هكذا، إذن! – نهض الأحدب وهو يستشيط غضباً ورفع يديه إلى السقف المنخفض وكاد يلمس ظلّه بأصابعه. هذه هي حكمة العصور المتعفنة!

قفز نحو بيول وشهق بغضب بعد أنْ كشَّر عن أسنانه الحادة. كان وجه الأحدب بمستوى صدر بيول ولكن عينيه الداكنتين الجميلتين كانتا تنظران بصرامة وتعجرف وكأنما تنظران من فوق كرسي العرش.

– الآن قلت شيئاً عن الكاتدرائية؟ تكلم بسرعة وبشراسة. – هل تفهم ما قلتَه للتوّ؟ هل تفهم، لماذا قلتَ ذلك بالذات؟ لماذا قارنتَ الإنسان بكاتدرائية كولونيا، وليس بكاتدرائية روان أو، على سبيل المثال، أو بكاتدرائية القديس بطرس؟

– الجميع لدينا هكذا يقولون. قال بيول ونكس رأسه متجهماً أكثر. – ودائماً ما قالوا. إذا لم يكن الشخص طويل القامة يقولون *جدته عاشرت قزماً*. وإذا كان مديد القامة يقولون *طويل مثل كاتدرائية كولونيا*. ولا يمكن لأحد أن يطول أعلى من تلك الكاتدرائية، وهذا واضح حتى للأحمق.

– هل رأيت بنفسك هذه الكاتدرائية؟ هل تعلم كم يبلغ طولها؟ كم عدد القباب فيها؟ وما هو شكلها ولونها؟

لم يجد بيول جواباً وظلَّ صامتاً، وطفحت على وجهه الساكن علامات الارتباك ببطء.

– هل تتخيل، على الأقل، في أيّ أرض تقع مدينة كولونيا؟ على أيّ نهر تقع؟ على أيّ مسافة تقع عن بلدتك غنادينتال؟ انهال الأحدب بالأسئلة وكأنه يلوّح بسوطه. – وهل أنت متأكد من أن الكاتدرائية التي تحبها لا تزال موجودة؟ ربما قام بعض البرابرة بهدمها أو تدميرها؟

ومع كلّ سؤال كانت حواجب بيول الشعثاء ترتجف بذهول (وفي اللحظة انكشفت عيناه الفاتحتان الصغيرتان)، وظهره ينحني إلى الأسفل إلى درجة سرعان ما بدا بيول مَدِيد القامة بطول المنظّم الحزبي القصير تقريباً.

– ثم لماذا تكرّر، مثل زرزور مدرَّب، أنكَ تعرَّضتَ للضرب على رأسك في طفولتك؟ ها هو ذا، عدوّنا الرئيس: الكلمات التي تضرب في الرأس، والأفكار التي تضرب في الرأس! آلاف الكلمات التي غشيها التراب وخيوط العنكبوت. الآلاف من الأفكار البالية إلى درجة أنها بدأت تتحلل داخل الجمجمة... شِمّ يا بيول، خفض الأحدب صوته بشكل حادّ إلى درجة الهمس. – من غير المعقول أنك لا تشمّ هذه الرائحة؟

حرَّكَ بيول أنفه السمين ليشمّ، وهزَّ رأسه علامةً على الشكّ. فأمسكَ الأحدب خدّه بأصابعه الخشنة، وسحبه إليه وهمس بحرارة، كما لو كان يكشف له عن سرّ رهيب:

– إنها متعفنة. الأفكار القديمة تتعفّن في رأسك. اختلجَ بيول خوفاً، وأراد أنْ يرتد إلى الخلف، لكن أصابع الأحدب أمسكت به بإحكام، وتحركت شفاهه حتى وصلت حركتها إلى أذنيه. رأسك زريبة قذرة، يا بيول. ورؤوس أهالي غنادينتال الآخرين أيضاً. كلّهم جميعاً. يجب أنْ تنظِّفوا جماجمكم وتجرفوا ما بها وتغسلوها بالصابون. ونعدكم

بتنظيفها. وآنذاك ستفهم: يمكن للإنسان أنْ يتحول من لصّ إلى راعٍ. يمكن!

أخيراً، تمكن بيول من الإفلات استقامَ مذعوراً وهو يهزّ برأسه. فارتاح الأحدب وأخذ نفَساً عميقاً، كما لو أنه نفسه قد سئم من موعظته غير المتوقعة. ونظر إلى باخ الذي لا يزال متسمِّراً بالقرب منه.

– دعه يذهب يا بيول. قال متعَباً. – فُكَّ يديه واتركه يذهب. انظر، روحه الهزيلة بالكاد قادرة على الصمود. ولا تقدِم على ضربه، أُحذِّرك! سوف أنظر من النافذة... وأنت، والتفت إلى باخ، – اذهب إلى بيتِك. وإذا ما أعدتَ فعلَتك مرة أخرى سأضعك في قفص وأضعه في ساحة السوق وأكتب عليه «لص المُلكية الاشتراكية». في المرة القادمة، لا تنتظر مني رحمة.

ما هذا الكلام الغريب الذي قاله الأحدب ذو الوجه الجميل؟ وما نوع الكلمات التي استخدمها؟ لم يكن هذا هذيان غير مترابط لرجل مجنون؛ كان في الكلمات بالتأكيد ثمة مغزى ومنطق؛ وعلاوة على ذلك، يبدو أنَّ جميع الكلمات والتعابير المدهشة كانت مفهومة حتى لبيول البليد الضيق الفكر، فهي على الأقل لم تُثِر فيه الدهشة. يبدو أنَّ العالم قد تغير إلى حدّ كبير خلال سبع سنوات. أين في هذا العالم المتغير يمكن الحصول على نصف زبدية من الحليب؟

– أردتُ أنْ أسأل... تردّد بيول وتنهد بشدة وهو يجمع أفكاره ثم قرّر. – لنفترض أنه لا ينبغي الكلام عن كاتدرائية كولونيا. فعن أيّ كاتدرائية يمكن الكلام؟ إذا كان شخص بطول العمود، فما الكلمات التي يجب أن نصفه بها حتى يكون الأمر مفهوماً؟

رفع الأحدب، الذي عاد إلى أوراقه، بصره مرة أخرى. توهَّج وجهه فجأة بالفرح واتسعت عيناه وأشرقت نظرته.

– آه، يا له من موضوع! همسَ بحماس. استبدال الصيغ الفولكلورية... وأخذ قلم رصاص وضغطه كالطير بأصابعه الملتوية وبدأ يحك شيئاً ما في أوراقه. – نعم، يا بيول، ألف مرة نعم!

تمتم بشيء آخر غير مفهوم ومُبهَم وواصلَ الكتابة ورَدَّ بالإيجاب على نفسه وابتسم بعصبية، كما لو كان يقف على أعتاب اكتشاف ما ويخشى ألّا يكون لديه الوقت لكتابة الفكرة المهمة التي ومضت في رأسه. وأخيراً ألقى بالقلم الرصاص على الطاولة وانفجر ضاحكاً. غيَّر وجهه المتحرِّك تعبيره بسرعة منتقلاً على الفور من حدّة الاحتقار إلى الغضب ومن الغضب إلى الفرح الصادق كما لو كان طفلاً صغيراً لم يتعلم بعد إخفاء مشاعره عن الآخرين. وبالشكل نفسه كان الجمال الطبيعي يظهر ويختفي بسرعة على هذا الوجه: يظهر تارة بالكامل ويختبئ تارة خلف قناع قبيح من التجاعيد والتوتر العضلي.

– مرحى، يا بيول، أحسنت! صرخ بصوت عالٍ (حتى الشعلة الصغيرة في مصباح الكيروسين ارتجفت، وتمايلت الظلال على جدران الكوخ بشكل احتفالي). – ليس عبثاً أنْ أوكل إليك المجتمع رعاية قطيع الماعز. إنك تفكر بشكل صحيح، تفكِّر بالطريقة السوفيتية!

– إذن، ماذا أقول؟ ذكره بحذر. – عن الشخص الضخم الطويل القامة؟

– قل: طويل، *مثل برج الكرملين في موسكو*!

– ولكنّي لم أزُر موسكو. وبرج الكرملين لم أره قط.

– هذا الأمر، في الحقيقة، ليس مهمّاً! صدقني فقط، يا بيول. هذا البرج أكثر جمالاً من جميع كنائس العالم مجتمعة: فقد بُني من الطوب الأحمر ونوافذه من الكريستال ورأس البرج زُمُرّدي، وعلى رأس البرج تلمع زخارف ذهبية. كاتدرائية كولونيا خاصتك الوسخة والقاتمة من القِدَم مع جميع قبابها المتداعية وصلبانها المكسَّرة يمكن أن يسعها بسهولة فسطاط واحد... قل لي، هل يمكنك أنْ تكتب لي بعض التعبيرات المحلية الأخرى؟ بعض الأمثال والجمل التي تتضمَّن كلمات يصعب لفظها على نحو سريع، والنكت؟ أيّ شيء تستعملونه هنا في غنادينتال؟

– أنا لستُ ماهراً في الأحاديث، شعر بيول بالحرج. – وأسوأ من ذلك في الكتابة...

– حسناً، وافق الأحدب بسهولة. دعونا نصف خلفيتكم الفولكلورية بقوى فكرية أخرى أكثر ملاءمة لهذا... تصبح على خير يا رفيق.

حلَّ بيول وثاق يَدَي باخ ودفَعَه نحو المخرج؛ وبدا على وجهه استياء واضح: لأنه لم يستطع الانتقام بشكل مناسب من اللص. أما باخ مع أنه نفسه لم يفهم فائدة ما يفعله فقد انزلق من تحت يد بيول الثقيلة واندفع إلى الطاولة وأمسك بقلم الرصاص وبدأ يكتب بسرعة على أول ورقة وقعت بيده الأمثال والأقوال المأثورة من ذاكرته.

سقط في نهر الفولغا اختفى بلا أثر.

ينقل المياه إلى نهر الفولغا يقوم بعمل غير مجدٍ.

– قف! نادى الأحدب متوعّداً بيول الذي اندفع على الأثر وأراد أن يمسك بكلتا يديه باللص الوقح. – قف وشاهِد!

عَبَر نهر الفولغا بالطست حول مَن يفتخر بنفسه كثيراً.

هذا بإمكانه أن يصل إلى بحر قزوين عن الشخص الوقح والقوي العزم.

زحفت الحروف كالديدان من تحت القلم الصرّار وتشكلت في عبارات طويلة. كم من الوقت لم يكتب باخ! في البداية، بالكاد أطاعته أصابعه، وكانت الأسطر مائلة وملتوية. ولكن سرعان ما استعادت يده صلابتها السابقة، فاستقامت الحروف واستوت.

سينحدر *الكثير من المياه في نهر الفولغا* عن الشيء الذي لن يتحقق في القريب العاجل.

عندما تتدفق مياه الفولغا إلى الأعلى – لن يحدث ذلك أبداً.

جميع *الأنهار تصبّ في نهر الفولغا*.

جميع *الأنهار تصبّ في نهر الراين* (أقل استخداماً).

– يا للروعة. تمتم الأحدب بحماس وهو ينظر إلى باخ من خلال كتفه. – الفولغا – هذا رائع، بل حتى صحيح جدّاً. لكن الراين يجب أن نقتلعه من الكلام، فنهر الراين في روسيا السوفيتية لا حاجة إليه...

استمرَّ باخ بالكتابة وهو يشعر لدهشته كيف أنَّ يده المتصلبة تمتلئ بالفرح والقوة المنسيين منذ مدة طويلة. نفدت المساحة الموجودة على الورقة، وتحول إلى ورقة أخرى؛ يبدو أنَّ هناك كانت بعض الكتابات، ولكن باخ، من دون أن يولي ذلك انتباهاً، كتب الأسطر إلى الأعلى بانحراف وبالعرض من هذه الكتابات بسرعة كبيرة.

منطق إبل (تعبير هزلي عن السهوب).

القليل من القذارة لا يؤذي (كذلك تعبير هزلي).

انفلقت لبّة القلم وانكسرت ولكن ظهَرَ قلم رصاص آخر على الفور. أخذ باخ قلم الرصاص على ما يبدو من يد الأحدب واستمرّ في الكتابة. امتدَّت العبارات على الورقة الواحدة تلو الأخرى. واستبدلَت الأوراق بعضها ببعض واحدة بعد أخرى. انتُزِعَت الكلمات من باخ لأول مرة منذ سنوات عديدة وإن لم تُنطَق، ولكنها كُتِبَت على الورق، وهذا يعني أنها تدفَّقت إلى الخارج ويمكن للناس الآخرين أنْ يفهموها. كان يكتب بسرعة وحماس، كما يشرب الحيوان الذي أنهكه العطش الماء، أو كما يعبّ إنسان كان على وشك الغرق الهواء. ولو حدث شيء ما بجواره كأن يحترق المنزل أو ينهار السقف لما رفع باخ رأسه حتى آنذاك، ولما حرَّك حاجبيه: ولظلَّ واقفاً، وظهره محنيّ بشكل غير مريح على الطاولة المنخفضة، ويسطِّر الحروف السوداء على الخلفية البيضاء مركِّباً إياها في كلمات والكلمات في عبارات واحدة تلو الأخرى.

مشاكسٌ مثل رجل من بلدة زيلمان.

جشِع مثل رجل من بلدة شفابيا.

صافي القلب مثل رجل من غناديتتال.

– زيلمان أين تقع؟ سأل الأحدبُ بيول هامساً.

– أسفل نهر الفولغا، خلف بوكروفسك.

– إذن، يمكن إبقاؤها. ولكن شفابيا يجب أنْ تُحذَف من العبارة.

عندما استُهلِكَت لبّة القلم بالكتابة بالكامل إلى الخشب توقَّف باخ.

وأحسَّ بثقل أُزيح عن كاهله فتنفَّس الصعداء، كما لو أنه لم يكن في كوخ منخفض مشبع برائحة خانقة من أنفاس الرجال والكيروسين، بل على جرف الفولغا الذي تهب عليه الرياح الباردة. امتلأت يده بقوة قادرة على أنْ تكسر قلم الرصاص بحركة واحدة من الأصابع أو، على سبيل المثال، أنْ ترفع من القفا الأحدب الذي كان يدرس باهتمام الأوراق التي كتبها باخ.

- لص ويكتب بخطّ خطاط، قال الأحدب باندهاش وهو يرفع عينيه المبتهجتين. تطور مثير للاهتمام.

- لقد عرفتُه، أخذ بيول مصباح الكيروسين من على الطاولة وقرَّبه من وجه باخ. في البداية لم أتعرَّف عليه بسبب اللحية. ولكنّي الآن أرى: إنه بالتأكيد، ناظر مدرستنا السابق، وكنيته باخ. توارى عن الأنظار منذ زمن طويل. قيل إنه ذهب إلى البرازيل وقد تزوَّج ابنته الوحيدة. وقيل أيضاً إنه أصبح ثريّاً: يأكل بملاعق الذهب وينام على الحرير ويلتحف بالمخمل. بينما هو هنا، هاك انظر: ترك لحيته طويلة على الطريقة الروسية، وشعره على شكل جديلة قرغيزية. يتسوَّل ويسرق الحليب ليلاً. عبثاً أنه مثقّف.

اختلجَ باخ عندما سمع نطق حروف اسمه الذي لم يسمعه منذ سنوات عديدة. وسكب عليه المصباح الذي قُرِّبَ من وجهه موجة ساخنة.

- ناظر المدرسة باخ - هل هذا أنت؟ ضيَّق الأحدب عينيه وقرَّب وجهه من باخ فشعر باخ بحرارة أكثر.

ضغط باخ قلم الرصاص في يده وخطَّ على الورقة كيف ما اتفق بلبّة القلم الكليلة: *أنا بحاجة إلى الحليب.*

- ما حاجتك به؟ ألقى الأحدب نظرة على باخ مشوبةً بفضول صريح (فبدى له أنَّ دزينة من الحلازين الزلقة تزحف على وجهه وتدغدغ جلده بقرونها المتحركة الصغيرة). - هل لديك أطفال صغار؟ زوجة مريضة؟ أين تسكن؟ ألا يمكنك التحدث أم أنّك لا تريد الكلام؟ وهل تعرف المزيد من الأمثال؟ والأغاني؟ والنكت والعبارات الطريفة؟

جواباً عن ذلك، نقر باخ بقلم الرصاص على الكتابة التي كتبها للتوّ: *أنا بحاجة إلى الحليب*. مزق الطرف الكليل للقلم الورقة الرخوة وثقبها.

- أعطه الحليب، يا بيول، أمرَ الأحدب من دون أنْ يرفع عينيه عن باخ. في قعر الزبدية، لا أكثر. وإذا ما أراد المزيد ليأتي غداً. ويكتب لي شيئاً آخر ظريفاً.

- ستعَوِّده، أيها الرفيق هوفمان. ثم لن تتخلص منه.

- أُعَوِّده، ابتسم الأحدب، أصبحت نظرته حالمة ووديّة. - سأُعوِّده بالتأكيد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-11-

آه، كم تغيرت غنادينتال خلال هذه المدة من الزمن التي مضت! آه، كم تغيَّر الناس فيها! أثرُ الدمار والحزن الطويل الأمد منطبع على واجهات المنازل والشوارع والوجوه. الهندسة المتناسقة التي سادت هنا ذات مرة فقدت نقاء الخطوط: استقامة الشوارع خرقتها الأنقاض، والأسطح انحنت ومصاريع النوافذ والأبواب والبوابات انحرفَت بشكل قبيح. اكتست المنازل بتجاعيد الشقوق واكتست الوجوه بشقوق التجاعيد. وفغرت الأفنية المهجورة مثل القروح على الجسم. وأكوام القمامة التي اسودَّ لونها بدت مثل الأورام الأرجوانية اللون. وبساتين الكرز المتروكة مثل جدائل العجائز. الحقول المقفرة كالرؤوس الصُّلْع. وبدا أنَّ الألوان والدهانات قد هجرت هذه المنطقة المكفهرَّة: فطلاء كلس البيوت الذي صار لونه معتماً، وإطارات الأبواب والأشجار الجافة والأرض نفسها ووجوه السكان الشاحبة وشواربهم وحواجبهم الشائبة ذلك كلّه على حدّ سواء صار رمادي اللون، كلون موجة الفولغا في يوم ممطر. وحدها الأعلام الحمراء والنجوم واللافتات التي زينت بسخاء المشهد المحلي توهّجت بسطوع وغباء مثير للتحدي، مثل اللون القرمزي على شفاه امرأة عجوز تحتضر.

كان باخ كلّ يوم يراقب التغييرات وهو يتسلل خلسة مثل فأر هادئ عبر الشوارع بحثاً عن الحليب للطفلة وقلبه يمتلئ بالحزن والحيرة. في البداية كان يزور هوفمان الأحدب في الليل أو قبيل الصباح عندما تتلاشى

الكواكب والنجوم وتذوب في السماء، وكان دائماً يجده نشيطاً ومشغولاً بالتفكير، على الأرجح إنه لم يكن بحاجة إلى النوم على الإطلاق؛ ولكن سرعان ما أمره أنْ يأتي إليه في وضح النهار فقط، فكان على باخ أنْ يظهر في القرية خلال النهار.

لقد سمع العديد من أهالي غناديتال عن عودة ناظر المدرسة، ولم يُثِر ظهوره في الشوارع اندهاشهم. ولكن كم كان هو نفسه مندهشاً! فقد احتفظت ذاكرته القوية بذكريات عن مستوطنته الأم بدقة مثلما احتفظت صناديق تيلدا الذؤوبة بالقلانس المزركشة بالدانتيل والصّدارات المخملية. والآن، عندما يرى الأشياء المألوفة والوجوه المعروفة في ضوء الشمس الواضح، يشعر مثلما كان يستخرج من أعماق الصندوق الخانقة تلك القلانس والصدارات وفَرشات الأسرَّة والقبعات والسترات الجميلة ووجد أنها تحولت جميعها إلى أمتعة بالية وخِرَق.

مَن أصحاب هذه الوجوه الهرمة التي نظرت إلى باخ من فتحات النوافذ، هل هم أهالي غناديتال الذين عرفهم أم آباؤهم وأجدادهم؟ لم يفارق باخ الشعور بأنَّ الناس في المستوطنة صاروا خلال مدة سبع سنوات أكبر سنّاً منه بمرّات؛ وفي الوقت نفسه ظهرت ملامح الوالدين في وجوه أهالي القرية بشكل واضح لدرجة أنه شعر بصورة غريبة أنه وجد نفسه واقعاً في مرحلة الطفولة. مَن نظر إليه من النافذة الرسام أنطون فروم الذي تحول وجهه المُتَغَضِّن ذو الشفتين الممدودتين والأسنان البارزة بشكل نهائي إلى ما يشبه بوز السِّنجاب الأرْضي، أم والده، القس الطيب، الذي شُيِّدَت بجهوده ذات مرة الكنيسة البروتستانتية الحجرية الرمادية في غناديتال؟ ومَن نظر من النافذة الأخرى كوليا العامل الجاد الصغير أم جده المعروف على نطاق الضفة اليسرى كلّها بزراعة الخردل الهندي والتبغ؟ ومَن نظر من النافذة الثالثة إمّي البطيخة التي فقدت فخامتها كلّها ونحفت إلى حدّ الزرقة الرخوة تحت عينيها أم جدتها الشريرة التي لم يحتفظ أهالي قريتها عنها في ذاكرتهم سوى أنها كانت غاضبة بشكل غير

عادي وقذفت زوجها بقالب الأحذية أمام الناس؟ مَن نظر إلى باخ من جميع الجهات بصمت من دون أنْ يحييه أو يتحدّث إليه؟ من استوطنَ غنادينتال الناس الأحياء أم صور أسلافهم الصفراء؟ لم يلاحظ باخ وجوه شباب أو صبيان أو أطفال ربما، لم يكونوا موجودين في المستوطنة على الإطلاق؛ فليس من دون سبب بدت بناية المدرسة مهجورة وكان مدخلها مغطى طوال فصل الشتاء بركام ثلجي مكوّن من طبقات...

وبعد ذلك بكثير (بعد أن قرأ باخ الصحف وراقب سكان المستوطنة واستمع إلى أحاديث هوفمان الطويلة التي كان يتخللها التعاطف معه) كوّن لنفسه صورة لما حدث في العالم على مدى سنوات عزلته. كوَّن فكرة وارتجف: إنَّ جميع المشاهد المخيفة التي لاحظها هو وكلارا من علوّ الجرف وجميع الصور الغريبة والرهيبة التي رآها خلال انطلاقاته الليلة ما هي إلّا ترقرُق خفيف على الماء وصدى ضعيف للتغييرات القوية في الحياة الكبيرة. وكانت هذه التغييرات مذهلة لدرجة أنَّ باخ وجد صعوبة في العثور على مقارنة مناسبة لها. لا يمكن أن يسمى ما حدث زلزالاً أو إعصاراً: فبعد سطوة الطقس السيئ يبقى العالم الذي شوَّهته العناصر الهائجة محتفظاً بجوهره الرئيس السماء والشمس وبَرّ الأرض. أما اليوم في غنادينتال، على ما يبدو، لم تعد لا الأولى ولا الثانية ولا الثالثة: فقد ألغت الحكومة الجديدة التي أُنشئت في بطرسبورغ السماء وأعلنت أنَّ الشمس غير موجودة واستبدلت برَّ الأرض بالهواء. تخبَّط الناس في هذا الهواء، وفغروا أفواههم خوفاً غير عارفين كيف يعترضون ولا راغبين بالموافقة. الإيمان والمدرسة والجماعة الحقائق الثلاث الراسخة في حياة المستوطنة صودِرَت من أهالي غنادينتال تماماً مثلما صودِر من فاغنير الطحان منزله وماشيته: وأُغلِقَت الكنيسة، وكادوا أنْ ينفوا القس هاندل وزوجته إلى الشمال (هبَّ الرعية مسلَّحين بالمَذارِي والخَطاطيف للدفاع عنه وأَجاروه)؛ وطُرد المعلم من المدرسة، ووعدوا بإرسال مدرس جديد، لكنهم لم يفعلوا أبداً؛ وأُعلِن أنَّ إدارة الجالية قد

تجاوزها الزمن واستُبدلَت *بالمجالس* (السوفيت) التي ستصبح على رأس المجتمع الجديد *وبالمزرعة الجماعية* (الكولخوز) التي ستُستَحدث بسواعد وهمة أهالي غنادينتال الجديدة.

قرّر بعض المستوطنين الهرب من هذه الحياة غير المفهومة: الأكثر عجلة وجرأة وصلوا إلى أمريكا والأكثر إصراراً ومكراً وصلوا إلى وطنهم التاريخي؛ الغالبية، بعد أنْ قضوا عدة أشهر على الحدود البولندية وداروا في مخيمات اللاجئين في بيلاروسيا وأوكرانيا وألمانيا توافدوا عائدين إلى غنادينتال كلّ الأنهار تتدفق، كما هو معروف، إلى نهر الفولغا.

وهكذا عاشت غنادينتال الجديدة هذه التي من المفترض أن يُطلق عليها الآن اسم غنادينتال *السوفيتية*: مستوطنة نصف متهالكة وسكانها نصف يائسين وقطيعها نصف جائع. وجوه الناس أضنتها الحاجة والحزن على أولادهم الذين رسمت قبورهم (في رمال قزوين وتحت تلال غاليسيا ومناطق فولينسك بوليسيه «في أوكرانيا» وفي سهوب منغوليا وعند مرتفعات آمور) جغرافيا الأراضي الشاسعة لجولاتهم؛ وكانت حظائرهم فارغة أصبحت الخيول والثيران والجمال ملكية المزرعة الجماعية وامتلأت سقائف المخازن بالأدوات التي لم تعد ثمة حاجة الآن إلى استعمالها والتي انتابها الصدأ البطيء: الدمغات التي تحمل أسماء الماشية ووسائل شدّ الخيول والمِحاكّ والفُرَش ومَعاصر الزيت وأدوات فرز القشدة.

في قلب غنادينتال الجديدة هذه كان هوفمان الأحدب الذي لا يعرف الكلل يدقّ ليلاً ونهاراً على طاولته المليئة بالأوراق. لماذا هو بحاجة إلى الأمثال والأقوال؟ أيّ نوع من النزوات تتحرك فيه عندما كان، بمجرد أنْ يرى قامة ناظر المدرسة السابق النحيفة على العتبة، يأخذ بشغف الورقة المكتوبة من يديه وينظر بسرعة إلى السطور العريضة ويومئ برأسه وهو يبتسم فرحاً إلى حافة النافذة التي كان بانتظار باخ عليها المقدار اليومي من الحليب والورقة الفارغة للدفعة التالية من الأقوال المأثورة؟

تذكر باخ مئتين من أمثال غنادينتال وأقوالها المأثورة في الأسبوع الأول قضى خمس ليالٍ ملهمة منحنياً على الطاولة على ضوء شمعة يسطِّر بنشوة على ورقة رديئة العبارات التي عرفها منذ الطفولة. وقد حصلت الطفلة مقابلها على خمسة أكواب من الحليب. شعر باخ بالغرابة وبالخجل قليلاً أنْ يبيع للأحدب الغريب الأطوار بعض الشيء أقوالاً سمجة معروفة للجميع في المنطقة. إذ يمكن لأيّ شخص نبيه أنْ يأخذ بسهولة هذه الكلمات البسيطة الساذجة من شفاه أهالي غنادينتال أثناء العمل المشترك معهم أو بعد أنْ يتحدَّث معهم لبضعة أيام خلال أيّ عيد من الأعياد الريفية. لكن هوفمان دفع حليب الماعز الدسم ثمناً لكلّ ورقة مكتوبة بخربشة. دفع مقابل الهواء. ومقابل المتعة التي انغمس بها باخ في الكتابة متناسياً أثناء العمل نفسه والمرأتين الموكَل إليه الاهتمام بهما.

* * *

وفي الليلة السادسة، بعد أنَّ هزَّ باخ الطفلة وجلس بالشكل المعتاد خلف الطاولة، وضع بلهفة قلم الرصاص الذي أهداه له هوفمان على الورقة التي تلقاها منه ووجد أنَّ جميع العبارات الطريفة والأقوال الشهيرة قد انتهت. ومهما أجهد ذاكرته ومهما جال بفكره في أفنية غنادينتال والمناطق المحيطة بها مستحضراً أمام عينيه صور أبناء قريته الثرثارين، لم يستطع أنْ يتذكر أيّ شيء. فأصابه الفزع من أنْ تكون خبراته القصيرة في الكتابة قد توقفت عند هذا الحدّ: وسيتوقف الأحدب بعد أن أشبع اهتمامه بالفولكلور المحلي عن تقديم الحليب للطفل والورق لباخ.

الأوراق المقطوعة بشكل غير متساوٍ والمجعّدة في بعض الأماكن من الألياف الخشنة البارزة والرخوة مثل الصوف المنفوش في أماكن أخرى هذه الأوراق أصبحت فجأة ضرورية جدّاً لباخ! وتذكر بحزن سنوات التدريس البعيدة، عندما كانت تتكدَّس على منضدة الكتب لديه الدفاتر، النظيف منها أو والمكتوب على نصفها، والورق العادي (للاستخدام اليومي) والمخطَّط (للكتابة) والمُبيَّض (لواجبات الامتحانات) والمشمع

(لتغليف الكتب) مركوم في أكوام على الطاولة وفي الخزانة. كم كان غبيّاً ومسرفاً، لأنه لم يكتب آنذاك، وأنه كان يضيع الوقت في المشي لمسافات طويلة والأكل والنوم العديم الفائدة! والآن أصبح مستعدّاً لكتابة أيّ شيء: أسماء الناس وكنى الحيوانات ونصوص الصلاة والأسماء الجغرافية وأسماء الطيور أو الأسماك، بل وحتى الأرقام من واحد إلى ألف وعلى أيّ نوع من الورق مجرد أن يكتب بلبّة القلم على سطح خشن مراقباً ولادة الحروف، مجرد أن تخرج منه كلمات...

وبعد أنْ نقر باخ بنهاية قلم الرصاص الكليلة على الثنية المتورمة بين حاجبيه أطلقَ زفيراً بعزمٍ وكتب على الورقة ليس أقوالاً مأثورة من تلك التي انطرقَت في ذاكرته من خلال الترديد المتكرّر، بل جملاً طويلة ناتجة عن حركة فكره.

كلّ واحد من أشهر السنة الاثني عشر في غنادينتال يمتلك إلى جانب الاسم اللاتيني اسماً ثانياً أكثر قدماً. وهكذا، الشهر الأول من فصل الشتاء الذي يسمى في صيغة الكتب والصحف باسم يناير يُطلق عليه المستوطنون في اللغة الدارجة اسم «الجليدي». ويحتفظ شهر فبراير من خلال اسمه العامي «شهر جمع قرون الغزلان» بذكريات الناس عن زمان ما قبل الهجرة إلى روسيا: كان الفلاحون الألمان يرون أنَّ من الحظ والسعد الكبيرِ العثور على قرون الغزلان أو الأيائل المتروكة في الغابة. وشهر مارس يسميه أهل غنادينتال بالدارج «شهر الربيع»، وأبريل «شهر العشب»، ومايو «أوان سَوق الماشية إلى المراعي». وتعكس الأسماء الشعبية لأشهر الصيف الثلاثة الدورة الزراعية: «الحرث» و«البذار» و«جني المحصول». ويسمى شهر سبتمبر «شهر جمع الحطب»، ويطلق على شهر أكتوبر اسم «شهر النبيذ»، ويطلق على شهر نوفمبر اسم «شهر الريح». يكمن شهر ديسمبر بالنسبة للمستوطِن بالكامل في الاستعدادات لعيد الميلاد، الأمر الذي ينعكس في اسمه الشعبي «شهر المسيح».

بعد أنْ أكمل باخ الكتابة أسقط قلم الرصاص على الطاولة ونظر

بدهشة ولمدة طويلة إلى الأسطر التي خطَّتها يده... أما هوفمان فقد أطلق صفيراً، بعد أن نظر بسرعة إلى المادة المكتوبة وقال: هذا هو المطلوب يا ناظر المدرسة! وسلَّم باخ إلى جانب كوب الحليب المُقرَّر في ذلك اليوم ليس ورقة واحدة، بل ورقتين.

وبدأ باخ يكتب. فالكلمات التي بدت غير ضرورية لسنوات عديدة والتي كمنت في مكان ما في أعماق الذاكرة وخُتِمَ عليها بالشفاه الخَدِرَة، استيقظت فجأة في رأسه كلّها، مرة واحدة. تحرَّكت واضطربت. واندفعت إلى الخارج بشكل لا يقاوم وبشدة لدرجة أنَّ لبة القلم كانت تنكسر مراراً وتكراراً تحت ضغط يده المتسرعة، وجعل خط يد المعلم باخ المستدير يتضاءل ويتمدّد والحروف تتشوَّه وتكتسب ذيولاً طويلة وتُحلِّق على الورقة بخط متقطع، مائلةً إلى الأعلى، مثل سرب من طيور السنونو. وفي بعض الأحيان، عندما يشعر بأنَّ القلم لا يستطيع اللحاق بالفكرة، كان باخ يختنق من الاضطراب، لكنه عبثاً كان يقلق: فالأفكار نفسها وجميع الكلمات التي تشكّلها، بعد أن تبتعد محلّقة في مكان ما، كانت تعود لا محالة بعد لحظة، كما لو أنها استسلمت لباخ، وكأنها ترغب أنْ تُسجَّل وتسرع من أجل ذلك؛ ثم تعود مرة أخرى، في الليل، عدة مرات – ولكن هذه المرة كذكريات عن نصٍّ جاهزٍ.

أراد باخ أن يكتب عن كلّ شيء يتذكره ويعرفه. وتذكر باخ بشكل مدهش الكثير. لقد انفتحت ذاكرته الخدومة مثل صندوق تيلدا الواسع، وأسرَعَ القلم المطيع على الورقة وتحوَّلت جميع سترات الفراك التي أكلتها العثة والقبعات المتهرئة والتنانير والصّدارات الممزقة وجميع الخرق المتربة المخزونة في الصندوق إلى أشياء جميلة وجديدة: ولمع الحرير من جديد في الضوء وانهمر المخمل وتألّقت حبات الخرز الصغيرة على حاشية الساتان.

وصف باخ غنادينتال، وصفها بشغف، وهو يتأمّل كلّ يوم على نحو مؤلم أيّ ذكرى يُطلِق. لم يكن يصف بل يعيد إنشاء المستوطنة المدمرة،

جامعاً الذكريات مثل الحجارة المتناثرة؛ كان يرسم الصورة التي مُحِيَت، بصدق، من ذاكرة باقي السكان، لكي يشيّد غنادينتال الجميلة على أنقاضها من جديد، على الأقل على الورق. لم يكن باخ يكتب، بل كان يبني.

... روح الفرد من سكان غنادينتال الساذجة تحب الألوان الزاهية والنقية. فالمصاريع وإطارات الأبواب والشبابيك وعتبات النوافذ وصناديق الساعات الأرضية ورفوف الأطباق كلّ شيء في منزله مطلي باللون الأزرق والأصفر والقرمزي والأخضر ومكسوّ بزخارف أزهار ومنمنمات بسيطة. وأكثر شيء مزَّينٍ بمهارة في الكوخ هو سرير الزوجية السمة الرئيسة المميّزة لجميع وسائل الراحة المنزلية والفخر الدائم لأصحاب الدار، الذي يسمى باللغة الدارجة «المضجع السماوي» (وغير معروف لنا إنْ كان هذا الاسم يتضمّن تلميحاً إلى سعادة الزوجين، أم أنه يشير فقط إلى أنَّ السرير مجهز بمظلة عالية والتي تشبه حقّاً قبة السماء). وبسبب انجذابه الساذج للجمال، يزين الفرد من سكان غنادينتال كلّ شيء من حوله: فهو يلفّ الجزء العلوي من قبعته الفارسية وياقة معطف فرو زوجته بأربطة ملونة؛ ويزخرف طوق الحصان وبيت الكلب وعشّ الطيور الخشبي في الفناء؛ وأحذية اللباد يبرع في تطريزها بشريط أحمر. أما شالات بنات غنادينتال في الأعياد فيمكن مقارنتها في سطوع الألوان وتنوعها مع قوس قزح...

استغرق تاريخ تأسيس غنادينتال من باخ تسع ليالٍ وكلّف هوفمان تسعة أقداح من الحليب. أما وصف منشأ الأسماء الجغرافية المحلية، من وهدة البعوض إلى بحيرة القس وقبر الشيطان القريب منها فكلَّفه خمسة أقداح. وكلمات أغاني غنادينتال وأهازيجها أربعة أقداح. ملامح اللهجة المحلية ثلاثة أقداح. ونظام التعليم في المدرسة وطرائقه، وتاريخ مدرسة غنادينتال، وأسماء جميع مديري المدرسة فيها قدحاً واحداً. وطرائق تخليل البطيخ الأحمر لفصل الشتاء قدحين اثنين. وآلية صنع طوب اللِّبِن وبناء المباني منه قدحين اثنين أيضاً. والطرائف عن غنادينتال وتاريخ العائلات عشرة أقداح. واتضح أنَّ قائمة الميزات الشعبية لدهشته واسعة

النطاق بشكل مدهش وتجاوزت اثني عشر قدحاً، وكانت حصة الأسد من القائمة للتنبؤات بالمطر والثلج. وكان الأكثر شمولاً الحديث عن المعتقدات الخرافية ثلاثة عشر كوباً من الحليب.

في البداية، عندما كان «يقرأ» كتاباته على كلارا كان يجلس على كرسي عند رأسها ويمرّر عينيه عبر السطور ناطقاً الكلمات في ذهنه. ومن حين إلى آخر كان يرفع بصره القلِق من على الورقة: هل يعجبكِ هذا، يا كلارا؟ غير أنَّ وجهها ظلَّ ساكناً وغير مبالٍ لدرجة أنَّ باخ ارتبكَ واستاءَ، ولم يكمل القراءة حتى النهاية. ربما، كان مستوى صوته غير كافٍ لكي تسمعه كلارا؟ أم أنها كانت تشعر بالضجر من سماع كلام عن صنع النقانق وطهي عسل البطيخ الأحمر وعن الاستحمام الليلي في الفولغا ورقصات العذارى في أعراس غنادينتال عن كلّ هذه الأشياء الصاخبة والساخنة وذات الرائحة الفوّاحة التي تخرج كلّ ليلة من تحت قلمه؟ أم أنها ببساطة أصيبت بخيبة أمل من جبنه وتردّده في الاختيار النهائي بينها وبين بقية العالم؟ ومهما كان الموقف، سرعان ما توقف باخ عن حمل كتاباته إلى المجلَدة. وبدأ «يقرؤها» الآن للطفلة الوليدة.

كان الأمر سخيفاً وغبيّاً إلى حدّ الغرابة. فالصبية لم تعرف أيّ كلمة، وكانت عيناها الصغيرتان لا تزالان مليئتين ببلاهة الأطفال، ووجهها الصغير لم يركّز إلّا في لحظات امتصاص الحليب. ومع ذلك ما إنْ يضعها باخ على يده اليمنى، بعد أنْ يمسك بيده اليسرى النص المكتوب للتوّ، ويبدأ بالمشي في الغرفة جيئةً وذهاباً حتى يكتسب وجه الطفلة على الفور تعبيراً جادّاً وبالغاً: وكأنَّ الطفلة تصغي إلى الكلمات التي صدحت في رأسه. وبالطبع، هذا لا يمكن أن يكون؛ فعلى الأرجح، إنها ببساطة كانت تشعر بوجود شخص آخر بجانبها. لكنها عبست وقطّبت حاجبيها عندما «قصَّ» عليها باخ كيف قطع البدو الرحل لسان أول قس بروتستانتي في غنادينتال. وقد اختلجَت مناخرها عندما «تحدَّث» عن غلي *القهوة البيضاء* من الحليب والقمح المحروق. ورفرفت بشفتيها ونفخت فقاعات اللعاب

وحرَّكت خديها وغضَّنَت جبهتها وضيَّقت عينيها وشخرت وتأوَّهت. وفي نهاية شهر فبراير (شباط)، عندما تشارك معها باخ بعض الأهازيج المضحكة التي كتبها للتوّ (من تلك التي تنشدها نساء غنادينتال خلال الجلسات الوديّة قبيل الليل بعدما يتدفّأنَ بشرب عصير الليمون المخلوط بالكونياك وفودكا اليانسون الحلوة الحريفة)، ضيَّقَت الطفلة عينيها بمكرٍ وباللحظة مدّت شفتيها وابتسمت لأول مرة. وخطر ببال باخ: لو بدأ يتحدث مرة أخرى ربما كانت الفتاة ستبدأ في تكرار الأصوات خلفه؟ ليس مجرد أن تصعِّر خدها، بل تستنسخ النبرة وتقلِّد نطقها؟...

لقد صارا الآن شريكين منعزلين في دفء المنزل عن نظرات عتاب كلارا. وجعلَ الشعورُ بالذنب أمام كلارا يعذِّب باخ أكثر فأكثر. وذات مرّة فطن إلى أنه لم يأخذ الطفلة ولا حتى مرة واحدة إلى المجلدة، ولم يُرِها لأمها. وحتى هو نفسه الآن غالباً ما ينسى الذهاب إلى هناك لأنه انشغل بالكتابة. في صباح اليوم التالي، ما إن استيقظ حتى ركض إلى كلارا للاعتراف بذنبه؛ ثم بقي النهار كلّه كئيباً، ويلوم نفسه؛ ولم يخلصه من عذاب الضمير سوى قلم الرصاص والورقة البيضاء.

... اعتاد سكّان غنادينتال المحرومون من الرعاية الطبية العلمية، التي لا يمكن أنْ يجدوا أقرب مركز لها إلّا في بوكروفسك البعيدة، أنْ يكافحوا الأمراض بجهودهم الخاصة. وهنا لا يجوز أنْ تسمى الأساليب المستخدمة أساليب تقدمية، ولكن بسبب عدم وجود طرق أخرى كان الناس يستشفون بها منذ قرن ونصف.

العضو السقيم ينفعه الدواء الذي يشبهه قدر الإمكان: للقلب المريض أوراق البتولا، للمثانة أوراق البقدونس، لفقر الدم أوراق البرسيم الأحمر، لمبايض النساء قشر البيض المسحوق (لا بدّ أن يكون من البيض الأبيض) المغلي في الحليب مع زهور الزنبق الأبيض كذلك.

لا يثق أهالي غنادينتال في الدواء إلّا إذا كان طعمه مقرفاً للغاية، لكي يطرد المرض بمرارته؛ فهم يستخدمون زيت التربنتين والملح

وزيوت التشحيم بمثابة دواء؛ وتساعد الصراصير والضفادع ودهن القنافذ والكلاب أيضاً بشكل جيد. الأماكن المتورمة يفركونها بالصابون (حتى «تزيل» الورم). والجرح النازف يسدّونه بالعفن ونسالة الكتّان أو القنّب (لسد الدم)، وبأنسجة العنكبوت (لإحكام الحواف)، وبروث الخيل (لتثبيتها وتقويتها)؛ وفي الحالات الشديدة جدّاً، يدهنونه بالغراء. ويعالجون التراخوما باللعاب، ووجع الأسنان بدهن الخنزير أو بقطعة من البصل المرّ يحشرونها في الأذن. والدمامل يلطخونها بروث البقر والحروق ببعر الأغنام. وأفضل طريقة لعلاج الدَّاحِس هي وضع الإصبع المتورم تحت ذيل دجاجة نائمة...

ما الذي كان يفعله بهذه الملاحظات هوفمان، الغريب الأطوار النازح هذا، الذي يتحدث باللغة *الألمانية السامية* النقية؟ هل يحفظها عن ظهر قلب لكي يفهم بشكل أفضل أرواح المستوطنين الموكلين إليه؟ هل جمعها ليؤلِّف كتاباً وينشره باسمه؟ بصراحة، لم يهتمّ باخ بهذا الأمر. ومن دون أن يتأسف سلَّم كتاباته بيدَي الأحدب الخشنتَيْن. وبدا أنَّ التفاصيل المكتوبة على الورق عن حياة غنادينتال المختفية ارتفعت من العدم وأصبحت منيعة بمرور الوقت: لم يعد من الممكن نسيانها أو فقدانها. وعندما رأى الفرحة الصادقة التي كانت تغمر هوفمان وهو يتسلّم كلّ ورقة جديدة اقتنع باخ أنَّ ملاحظاته كانت حقّاً ذات قيمة.

وسرعان ما لم يعد هوفمان ينتظر النصوص فحسب، ويقرأ باهتمام راسخ حول كلّ شيء: عن التقليد القديم في غنادينتال باختيار ملكة القمح في مهرجان الحصاد، وتزيين شعر الفتاة بسنابل مختارة وحملها على الأكتاف عبر القرية؛ وعن وصفة الحساء المحلي الذي «يجب أن تطفو فيه الفطائر وقطع البطاطا في الزيت بكثافة مثل قطع جليد شهر مارس (آذار) في نهر الفولغا»؛ وعن تاريخ تشييد الكنيسة البروتستانتية المحلية نسخة من الكاتدرائية في غنادينتال ساكسونيا على ضفاف نهر إلبه. وسرعان ما بدأ هوفمان نفسه يطرح أسئلة ويطلب إجابات عليها في ورقة الغد. «لا تكتب

لي عن الكنائس والقَداديس! صرخ، وهو يحوم في الغرفة باضطراب ويهزّ بورقة النص الجديد. ليذهب الدين إلى الجحيم، فقد نُسيَ ودُفِن منذ مدة طويلة! في غضون عام، لن يتذكر أحد في غنادينتال اسم آخر قس، وفي غضون عشر سنوات ينسى يسوع نفسه! اكتب لي عن شيء حيّ: اكتب عن الناس، عن طباعهم! ماذا يعتقدون؟ ما الذي يخشونه؟ ماذا ينتظرون؟ لماذا يعيشون؟ ضع لي جوهر الفرد نفسه من سكان غنادينتال! اقلبه من الداخل إلى الخارج وأظهره! هل فهمتَ، يا باخ؟» لكنّ باخ ظلَّ صامتاً. وفي اليوم التالي جلب الجواب ملاحظة جديدة.

هكذا كانا يتحدثان: الأحدب الثرثار، الذي كان لسانه ينهال بالأسئلة بسرعة مثلما يرفرف طائر السنونو بجناحيه، والناسك الأبكم ذو اللحية المبيضَّة الشعر الذي يجول على طول المتن الثلجي لنهر الفولغا من ساحل إلى آخر وبالعكس، مثل مكوك النسج الذي يقوم بدورة واحدة في اليوم.

... تربى جسد كلّ فرد من سكان غنادينتال، شأنه شأن جميع سكان حوض الفولغا، من مرحلة الطفولة على «الإحساس بالنهر الكبير»: أينما كان في غابة أو في سهب يمكن لجسمه تحديد الاتجاه بدقة وحتى إنه بعينين مغمضتين يجد الطريق إلى الفولغا. لم يتمكن العلماء من تحديد ما إن كان ثمة جهاز خاص في الجسم أو منطقة معينة من الدماغ مسؤولة عن ذلك (في أوقات مختلفة، قامت بمثل هذه المحاولات بعثات من جامعات قازان وساراتوف وسان بطرسبورغ). تعمل هذه البوصلة الداخلية بشكل بسيط: ما على المرء سوى أنْ يصغي إلى نفسه ويسير وكأنه يسير استجابة إلى نداء صوت يحبه...

وزادت الحصة اليومية من الكلمات. بدأ باخ لا يكتفي بورقتين في اليوم: فقد جرت الأفكار بسرعة وسخاء لدرجة أنها تطلّبت مساحة أكبر ولا يمكن أنْ تنحصر بحدود حقول الورقة الضيقة. ثم صارت لا تكفي الثلاث أوراق والأربع والخمس.

ولم تكن تكفي هوفمان أيضاً؛ ازداد فضوله كما يحتدم الجوع من عدة

فتات من الطعام، وصارت الأسئلة تخرج من شفتيه مسرعة يتلو بعضها بعضاً؛ ولكن الحذر الطبيعي لم يسمح له أنْ يثق بباخ ويسلّمه، على سبيل المثال، مجموعة كاملة من الورق: كان هوفمان يخشى ألّا يأتي ناظر المدرسة في الصباح التالي، لأنه تولّع بالكتابة.

وحتى الرضيعة بدأت تكبر وصارت بحاجة إلى المزيد من الحليب. وفي بعض الأحيان عندما كان باخ يعود من غنادينتال يجد آثار دموع جافّة على خدي الصبية الورديين. ولكن مع مرور الوقت اختفت هذه الآثار: ربما، تعوّدت الطفلة أنْ تتحمّل ساعات الوحدة الطويلة وألِفَتها. السعادة الكبرى بالنسبة لها هي لحظة عودة المعيل.

... اللعبة المفضلة للأطفال في غنادينتال هي هجوم سكان السهوب: بعد أن يلطخوا خدودهم بالطين ويرسموا على وجوههم بالسخام حواجب منغوليين ينطلق الصغار «القرغيزيون» في الشوارع وهم يهيِّجون الخنازير والماعز التي تصادفهم في الطريق؛ ثم يقبض عليهم «المدافعون» عن القرية وينكّلون بهم التنكيل العادل. لا تجد أيَّ فرد في المستوطنة لم ينغمس في هذه اللعبة الصاخبة والتعليمية في مرحلة الطفولة.

إن القرغيزيين الكاساك (الكازاخ) الحقيقيين قد توقفوا بالفعل عن إزعاج المستوطنين منذ حوالي مئة عام؛ وتحولوا منذ مدة طويلة إلى جيران مسالمين وودودين، يعدّون تقديم كسرة من رغيف خبز الجاودار أفضل ضيافة لهم، ويسوقون باجتهاد قوافل الإبل إلى سوق بوكروفسك في الخريف. ولكن ذكرى فظائعهم التي طال أمدها لا تزال قائمة سواء في الألعاب أو في العديد من الأقوال المستخدمة والقصص العائلية. يعيش في قلوب أهالي غنادينتال الظمأ الذي ربّته فيهم ألعاب الطفولة نحو المآثر البطولية لحماية المنزل من الأعداء والغزاة: ليس من أجل الشهرة أو المجد، بل من أجل التعبير عن حبهم الصامت للوطن فحسب...

وذات صباح، بعد أن جلبَ الأوراق المليئة بالكلمات إلى مجلس القرية وجد باخ على حافة النافذة بجوار حليب الطفلة والورق الأبيض

له قليلاً من الخبز وبضع بيضات لقد زاد أجر الكلمات بما يتناسب مع عددها. ومنذ ذلك الحين، بدأ يكتب لأيام كاملة خلال الوقت كلّه من دون أن يولي انتباهاً إلى صيد الحيوانات أو الأسماك.

وعلى أيّ حال بدا أنه يتغذى الآن ليس من خلال السمك المسلوق وحبوب القمح المبشور فحسب. فهذه الأوراق أعطته قوة حقيقية. منها، وليس من قِطَع خبز هوفمان الجافّة أصبحت ساقا وذراعا باخ أقوى وتوقف ظهره عن الألم أثناء السير الطويل لعبور النهر. وحتى هذا العبور نفسه صار مألوفاً وفي بعض الأحيان كان ينغمس في أفكاره ولا يلاحظه على الإطلاق وكأنما لم يكن يسير عبر نهر الفولغا، بل يمشي على جسر البطاطا عبر جدول الجنود. وفي بعض الأحيان يتساءل في نفسه، لمن وما هو الأكثر ضرورة: هل الحليب للطفلة أم هذه الأوراق الرمادية المجعدة له؟ ولم يعرف الجواب.

خلال الأشهر الماضية، تعلَّمَ باخ ألّا يفكر في نفسه. لقد صار الآن ليس هو، الرجل المُتعَب ذو الجسد المتألِّم والروح المتوجِّعة الذي فقد زوجته وفقد معها معنى الوجود. صار الآن مجرد مصدر للحليب والـدفء والجفاف لطفل متعطش للحياة؛ ومصدر نصوص حول غنادينتال لهوفمان المتعطّش للقراءة. لم تكن ثمة عظام مؤلمة أو قلب موجِع لم يكن ثمة سوى فم الطفلة المفتوح بانتظار الملعقة، وعينَي الأحدب المفتوحتين بانتظار ملاحظة مكتوبة جديدة. لقد نسي باخ نفسه، كما لو أنه لم يكن موجوداً على الإطلاق. ولا يتذكر نفسه إلّا من وقت إلى آخر عندما تبدأ معدته الفارغة تزمجر من الجوع وعندما تغمض عيناه مع التعب ولم تعد قادرة على متابعة حركة لبّ قلم الرصاص على الورقة آنذاك يقوم بإطعام نفسه والاستلقاء للنوم. بكاء الطفلة هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقطع باخ عن كتابة الملاحظة التي يعمل عليها؛ والتأمّل في نصوص جديدة هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يصرف انتباهه عن التفكير المستمرّ بالطفلة.

إنَّ التخلي عن نفسه أعطاه قوة بشكل عجيب، وجعل الحياة أكثر ثراءً وإشراقاً. وهل كان بمقدور باخ في وقت ما أن يتخيل أنه سيكتب بهذه السلاسة؟ وأنه سيؤلِّف سجل يوميات غنادينتال؟ وأنه سينطلق مسرعاً جيئةً وذهاباً عبر نهر الفولغا مثل صيادي الحيوانات والأسماك؟ لم يكن لدى باخ نفسه ثمة مكان في هذه الحياة الجديدة المليئة تماماً برعاية الطفلة وبالأفكار الجديدة. مثلما لم يكن فيها مكان لكلارا المسكينة أيضاً.

... إنَّ كلّ فرد من سكّان غنادينتال هو ابن السهوب الذي يعرف كلّ ظلال ألوانها ورائحتها والذي يعيش وفقاً لقوانينها ووفقاً لزمانها. إنه ساذج ومجتهد وطيب ومستكين هذه هي طبيعته. ولأنه مسلِّم لإرادة القوى العليا ومعتمد بالكامل على رحمة الشمس والأرض والنهر فقد اقتلع أيّ برعم في قلبه للتمرد وللإرادة الذاتية. الفرد من أهالي غنادينتال جبري لا سبيل لإصلاحه، متدين ويؤمن بالخرافات، ومنغلق على كلّ جديد وعلى كلّ نوع من أنواع التقدم والتجريب، يحرث السهوب بالمحراث نفسه الذي كان أجداده يحرثون به، ومن ثم ينتظر الحصاد بخُنُوع؛ هذه هي حياته كلّها. إنه لا يقرأ الكتب، لكنه يفهم علامات الطبيعة بسهولة: العلامات التي تسبق المطر وحدها يمكنه تسمية ما لا يقل عن خمسين علامة منها. وإذا ما تأملنا أكثر نجد أنَّ القرغيزيين ضيِّقو العيون ذوي قبعات اللباد أقرب بكثير إلى أهالي غنادينتال من سكان ألمانيا البعيدة الذين يتحدثون لغتهم المشتركة...

وبالانتقال من الأوصاف البسيطة إلى التعميمات والتأملات (حدث ذلك في بداية الربيع)، اكتشف باخ أنه لم يعد قادراً على النوم. كان جسده يستلقي ليلاً بلا حراك في السرير، وكانت عيناه مغمضتين، ولكن صوراً سريعة وغامضة تلمع تحت جفنيه وتندفع الأفكار في رأسه في تدفّق لا نهاية له. وكان باخ من وقت إلى آخر يقفز على نداء الطفلة ويشرِّبها الحليب ثم يهوي مرة أخرى إلى الفراش منهوك القوى، ولكن حتى هذه الأفعال لم تستطع أن توقف عمل وعيه الغزير.

أنماط شخصية المستوطنين، عالم الطفولة وعالم الشيخوخة لألمان حوض الفولغا، ميزات طقوس الولادة والدفن، أصول التقاليد المحلية، والعلاقة مع الجيران الروسيين والقرغيزيين كتب باخ عن الكثير لدرجة أنه كان يتفاجأ في بعض الأحيان: من أين أتته هذه الأفكار كلّها؟ مَن ذا الذي يهمس في أذنه بموضوع الملاحظة القادمة؟

ذات مرة، أثناء ما كان يتأمَّل بمسألة تمسك المستوطنين بأسماء معينة، فكَّرَ باخ: ما الاسم الذي يناسب الصبية؟ فأسماء ماريّا وكاترينا في المستوطنات كثيرة، وأقل منها شيوعاً إيفا وإليزابيثا وسوزانا وصوفيا. لكن أيّاً من هذه الأسماء لم يبدُ له مناسباً للطفلة. وفجأة أدرك: آنّا هكذا يليق أن تُسمّى. الاسم الذي يفتح قائمة بجميع الأسماء. اسم صافٍ ومشرق، مثل مياه النهر. أجل، اسمها آنا. وتُنادى للتودّد آنتشي.

وبعد أنْ أدرك أنه قد قام بتعميد الطفلة للتوّ فزِعَ ووبَّخ نفسه. وقرّر: سيناديها، كما كان يفعل من قبل، الصبية، من دون أيِّ اسم.

... هناك ثلاث أساطير رئيسة حدّدت حياة المستوطنين الألمان منذ زمن يكاتيرينا الكبرى. الأسطورة الأولى «أرض روسيا الموعودة» ولدت بجهود المستَدعين الذين استأجرتهم الدولة الروسية لاستمالة الأجانب. لقد كان الفلاحون الألمان الذين أنهكتهم متاعب حرب السنوات السبع[1]، التي سادت في أوروبا بسبب المجاعة والدمار، مستعدّين للتصديق بوجود الأراضي الخصبة التي لا نهاية لها التي كانت بانتظارهم في روسيا البعيدة. وبعد أن اجتذبهم الحلم بالسعادة، انطلقوا في المسير حاملين معهم آمالاً جسيمة وشجاعة كبيرة. وتبيَّن أنَّ السهوب الروسية فعلاً لا نهاية لها، لكنها لم تقدّم لساكنيها الوفرة والفرح، بل العمل المرهق والصراع الشرس من أجل البقاء.

1- حرب السنوات السبع ويطلق عليها أحياناً الحرب البومرانية هي حرب جرت بين عام 1756 وعام 1763. وقد شاركت فيها بريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد كل من فرنسا والنمسا وروسيا والسويد وسكسونيا. (المترجم من ويكيبيديا بتصرف).

الأسطورة الثانية، التي دغدغت أرواح ألمان روسيا، تُدعى «أرض أمريكا الموعودة». في نهاية القرن التاسع عشر، كان الكثير من القلوب يزداد نبضها عند سماع الكلمات الحلوة: البرازيل والولايات المتحدة وكندا؛ وقد سمع المستوطنون الألمان الذين رضعوا مع حليب أمهاتهم حكايات الهجرة الشجاعة لأجدادهم في هذه الكلمات نداء القدر. وعاشت في قلوبهم الساذجة الآمال العظيمة نفسها عن السعادة التي يجب أنْ تنتظرهم بالتأكيد في ما وراء الجبال والمحيطات. «بلد تتدفق فيه أنهار الحليب والعسل، وتجلب فيه الأبقار على قرونها الكعك الحلو...» هكذا كان ينشد عن أمريكا الآلاف من ألمان روسيا وهم يستقلون البواخر التي تبحر إلى هناك. «آه، يا أمريكا، أيها البلد المجنون! غنى الكثيرون بعد عام أو عامين وهم ينكصون عائدين لن أبخل بإصبع يدي للعودة إلى وطني مرة أخرى...» وصاروا يدعون سهوب حوض الفولغا وطَنَهم.

الأسطورة الثالثة التي غيرت حياة العديد من المستوطنين كانت «أرض ألمانيا الموعودة». فبعد أنْ سئموا من الحياة الصعبة في السهوب وعدم العثور على السعادة في الخارج، حوَّل ألمان روسيا أعينهم إلى وطنهم التاريخي. واندفعت أرواحهم التي اعتادت على البحث المستمرّ عن السعادة (لكن السعادة حتماً بعيدة المنال ولا يمكن الوصول إليها) مرة أخرى على الطريق. وسار الناس على هذا الطريق، في السعي التالي من أجلْ الثروة الشبحية. ولكن لم يستطع الجميع التعوّد على الحياة في ألمانيا: فخلال أكثر من مئة عام تحول ألمان روسيا أنفسهم من دون أنْ يلاحظوا ذلك إلى شعب مختلف عن ألمان الرايخ.

اليوم، مثلما هي الحال قبل عشر سنوات وقبل مئة سنة، يجتمع في قلب المستوطن الألماني مبدآن متعارضان بشكل مدهش: الميل نحو الاستقرار والروح التقليدية والقدرية التي لا سبيل لتقويمها تجعله يفلح حقله باجتهاد لعقود من دون أنْ يتبرّم من قدره ويستكين بسهولة لأيّ تحول فيه؛ وفي الوقت نفسه عندما يدفعه فجأة نداء السعادة البعيدة

إلى الانسحاب من مكانه، يستصغر ثمار عمله، ويجول في جميع أنحاء الكوكب، راوياً العطش الروحي الموروث من الأجداد والأسلاف من خلال تغيير المكان.

ألم يحن لنا الوقت، نحن ألمان روسيا، أن ندرك أنَّ السعادة البعيدة غير موجودة؟ ألم يحن الوقت لقلوبنا، قلوب الأطفال، أنْ تنضج وتكفّ عن التصديق بالحكايات التي تهمس بالعالم المتقلّب؟

وضع باخ قلم الرصاص على الطاولة. كان عود الإشعال المتوهِّج يضيء الأوراق المتناثرة على الطاولة الصغيرة؛ السطور تختلج في الضوء المرتجف، كما لو كانت تتحرك قليلاً على الورقة؛ وكلّ شيء آخر كان يغرق في الظلام الدامس. وفي مكان ما هناك، في ظلام الليل خلف ظهْرِ باخ تقلَّبت الصبيةُ التي لا اسم لها في فراشها، ورياح الربيع الرطبة تهبّ نسماتها خارج النوافذ، ويُسمع نقر قطرات.

أعاد قراءة النص. هل هو مَن كتبَ هذا كلّه بنفسه أم أنَّ أحدهم أخذ بيده ولقَّنه كلمات صائبة ونسجها في عبارات أنيقة ودقيقة؟ لم يستطع إضافة أيّ شيء إلى ما كتب. وبدا أنه في هذه السطور الأخيرة سكب على الورقة جميع بقايا ما تراكم فيه على مدى سنوات العزلة والصمت. ثلاثة أشهر من الكتابة المحمومة المستمرة مئات ومئات من الصفحات المليئة بالحروف: كلّ ما عرفه باخ وتذكره عن مستوطنته وسكانها، وما اشتبه فيه وشكَّ فيه وما استطاع أن يغيّر رأيه فيه، هذا كلّه صُبَّ الآن في كلمات وسُلِّمَ إلى الأحدب المتعطِّش للقراءة. استعرض في هذه الملاحظات غناديتال المتنوعة الصاخبة التي تعجّ بالناس المبتهجين الذين يرتدون الملابس الساطعة الألوان، والمُفعَمَة بهدير الأجراس وغناءِ النساء وصراخِ الأطفال وثغاءِ قطعان الماشية وزعيقِ الدواجن وبقبقةِ المجاذيف في مياه الفولغا وتلألؤ الأشرعة وبريقِ الأمواج ورائحةِ الفطائر الطازجة وعسلِ البطيخ الأحمر غناديتال السابقة، غناديتال الحقيقية. ولم يعد لديه شيء آخر يمكن قوله. غدا رأسه فارغاً، فارغاً تماماً، إلى حدّ الرنين. طوى باخ يديه

على الطاولة، نكَسَ عليها بعناية هذا الرأس الفارغ والخفيف بشكل غير عادي، ودفن أنفه في الكتابة التي انتهى منها للتوّ وغطّ في نوم عميق...

***

- قلوب الأطفال... تمتم هوفمان في الصباح وهو يلقي نظرة خاطفة على النص. - كم هو دقيق ما هو مذكور هنا... إنك فيلسوف، يا باخ! فيلسوف أبكم أتى من الضفة الأخرى!

وكما هي الحال دائماً في لحظات الإثارة، لم يعرف هوفمان كيف يكبح جماح نفسه وجعل يتمشى في الكوخ وهو يمسك بالأوراق التي استلمها بيديه الممدودتين ويفرزها ويعيد قراءتها.

آه، كم أنت مُحِقّ، محقّ إلى ما لانهاية! لم يذهب سدى ما شربته من حليب المزرعة الجماعية... وليس من دون سبب أنَّ ثمة شيئاً من أرسطو كان يتلألأ في وجهك... كلّ هذه الأشهر في غناديتتال لم يغادرني الشعور بأنَّ الناس هنا مختلفون تماماً. إلّا أنَّني لم أستطع أنْ أصيغ بالضبط ما هي ميزتهم المختلفة. لقد فعلتَ ذلك من أجلي... قلوب الأطفال التي تتوق إلى السعادة التي لا يمكن تحقيقها نعم، يا باخ، ألف مرة نعم! لا يمكن أنْ نقول أفضل من ذلك... أنت أفلاطون منطقة حوض الفولغا! هيرودوت الأشعث!

اعتاد باخ على الإصغاء إلى خطابات هوفمان المُشَوَّشة. كان مزاج الأحدب يتغيّر من يوم إلى آخر: في بعض الأحيان كان عابساً، مثل سحابة ثلجية، وأحياناً قاسياً وغاضباً، وأحياناً ملهَماً ومرحاً؛ ولكن بغضّ النظر عن المزاج، اشتغل لسان هوفمان بسرعة، وفكره أيضاً. وفي بعض الأحيان من الصعب مواكبة أفكاره في مثل هذه اللحظات كان باخ يقف وهو ينظر إلى الأرض وينتظر بصبر أنْ تنهي فكرة المحاوِر السريعة دورتها الكاملة وتعود إلى المصدر. ولكن على الرغم من هذا الهَذْر كلّه لم يكن هوفمان ثرثاراً فارغاً فسَيْل الكلمات الذي يتدفق منه يحتوي على الدوام على معانٍ، على الرغم من أنها متعكرة برغوة هتافات التعجب وأدوات النداء والنعوت والاستعارات.

– لقد وقفتَ على حقيقة الأمر، أيها الرفيق الملتحي! وكشفتَ روح هذا المخلوق المُحِب للعزلة أعني ألماني منطقة حوض الفولغا. وفتحتها كما تُفتَح علبة المحفوظات، وكأنك تقول خذ ملعقة وكُل، احتَسِ من البطن، اخدش القاع...

في بعض الأحيان بدا لباخ أنَّ محادثاتهما (أو الأفضل أنْ تسمى مونولوجات) بالنسبة لهوفمان ليست أقل أهمية من كتابات باخ. خلال ومضات الفصاحة كان الأحدب يبدو وكأنه يشحذ أفكاره من خلال باخ الصامت: فهو نفسه الذي يتكلم ونفسه يسمع ويقيِّم ويعترض على نفسه ويعيد التفصيل ويشرح من جديد... بالطبع، كان بإمكانه أنْ يتمرّن على المناظرات والجدال حتى مع شخص آخر مع بيول المتجهِّم أو مع غاوس المتزلِّف دائماً، على سبيل المثال. لكن هوفمان اختار باخ إما لأن باخ الصامت لا يمكن أن يعترض ويقاطعه بملاحظة غبية، أو لأنه لم يجد من حوله على امتداد عشرة فيرستات ثمة شخص آخر، باستثناء ناظر المدرسة السابق، قادر على أنْ يفطن إلى الفرق بين أرسطو وهيرودوت (أو مَن يعرف عن وجودهما)، وبالتالي تطارح الأفكار مع باخ كان متعة ليس لها نظير.

– كيف يمكننا أنْ نصل إلى حالة أرواح الأطفال هذه؟ كيف يمكن أنْ نثير العقول غير الناضجة والكسولة؟ هل ندمّر روح الطَّفولة التي عاشت قروناً؟ توقف هوفمان في منتصف الكوخ، وارتعش وجهه، كما يرتعش من ألم شديد، وانفرجَ على الفور بابتسامة عريضة ومبهجة. – كلّا، يا باخ، لا يجب الصراع معهم، بل يجب أنْ نربيهم! وندلّلهم! ونرعاهم!

ركض إلى باخ وشهق، بحرارة وسرعة، وكشَّر عن أسنانه حتى اللثة وهزّ حاجبيه هزّاً خفيفاً بالكاد يمكن ملاحظته.

– هل لديك أطفال؟ ما زلت لا أعرف أيّ شيء عنك، أيها البومة العجوز... ومع ذلك، اللعنة عليك! لو كان لديك أطفال، يا باخ، هل ستضربهم حقّاً؟ هل ستجلدهم بمسعر النار وتقذفهم بالحذاء؟ كلّا،

يا باخ، لو كانوا لديك لكنت معهم حنوناً. ولأخذتهم إلى سوق الأحد واشتريت لهم الكعك المزين بالورد الزيتي. وصنعتَ لهم قارباً من الخشب وصفارات من الطين. كانت عينا هوفمان الرطبة والعريضة قريبة جدّاً لدرجة أنَّ باخ رأى لونها لأول مرة أخضر داكن بظلٍّ أزرق. ولَكُنتَ قد مسَّدتَ على رؤوسهم الشُّقر وقبلتهم قبل أنْ يأووا إلى الفراش، وكذلك...

لم يكمل هوفمان كلامه، وتسمَّر في مكانه، فقد خطرت في ذهنه فكرة مفاجئة، ثم صفق بيديه بحدّة وضحك بانشراح، وكأنه عثر على إجابة لسؤال عذَّبَه. ارتدّ إلى الطاولة وجلس مباشرة فوق الأوراق المبعثرة، وهو يهزّ بساقيه القصيرتين؛ وبهذه الحال نظر إلى باخ بمكر، بل حتى باستهتار.

– لماذا لم تكتب لي حكايات، يا باخ؟

غَضَّ باخ بصره. إنه في الحقيقة لم يكتب حكايات ربما كان ذلك الجزء الوحيد من حياة غنادينتال الذي لم يصفه. فقد كانت تعذبه كثيراً أيّ فكرة تذكّره بكلارا التي اعتاد أنْ يستمع من شفتيها إلى قصص رائعة.

– إنها حقّاً مفاتيح لقلب الطفل. لذلك فإنَّ القلب الصبياني لا يستطيع التوقف عن الإيمان بالحكايات الخرافية. فتَرَت نظرة هوفمان وطافت إلى الأعلى وارتفعت فوق رأس باخ واخترقت السقف الداخلي من خلال العليّة المسدودة بالنفايات ومن خلال السقف الخارجي المغطى بالصفيح وضاعت في مكان ما في السماء. – لماذا، إذن، لا نستفيد من هذا لصالح الناس أنفسهم؟ لماذا لا نتحدث معهم باللغة التي يفهمونها؟

صرخ أحدهم في الشارع، بمرح ونداء، ودوّى صفير صاخب من ذلك الذي يطلقه الشباب عادة لدعوة الفتيات للتنزه في المساء.

– اكتب لي حكاية، يا باخ، أَمَرَه هوفمان بهدوء وصرامة، من دون أن يرفع عينيه عن العلو السماوي الذي يراه هو وحده. – للبداية، اكتب حكاية واحدة على الأقل. اختر الأفضلِ من كلّ ما تعرفه ولا تعيد الحكي فحسب، كما سمعته في طفولتك، بل نقِّب فيها وابحث عن المعاني وزد

فيها شيئاً في النهاية. لسنا بحاجة إلى حكاية خرافية من حكايات العجائز التي قد عفا عليها الزمان، بل إلى حكاية جديدة بلورية...

هزّ باخ رأسه - لا أستطيع، لن أفعل! لكن فكر هوفمان قد انطلق إلى الأمام من دون أنْ يعترف بالحواجز، وتوهَّج وجهه بحماسة وشغف.

- هذا ما سنقلب به روح الفرد من أهل غنادينتال العجوز منهم والشاب وحتى الطفل الصغير! إليك كيفية نقل المعنى ليس من خلال الأشياء الكثيرة التعقيد، بل من خلال الشيء البسيط والساذج! إنَّ الحكايات والأساطير هي الأساس، يا باخ! أساس الروح، الذي يتراكم في الطفولة العميقة والذي يرتكز عليه جوهر الإنسان كله. هذا ما ينبغي أنْ تبدأ منه! وليس من القشور ولا من الأمثال التافهة ولا من أغاني وأهازيج السكارى ولا من النكات، بل من أساس الأساسات. إنَّ استبدال محفوظات الحكايات هو استبدال حذِر ولا تلاحظه العين... نعم، يا باخ، ألف مرة نعم! عاد هوفمان ببصره من العلوّ السماوي إلى الكوخ. - ومَن، غيرك، يقدر أنْ يفعل ذلك! إنك تتمتع بموهبة الكتابة اللعينة! إنَّكَ تصُفُّ الكلمات وكأنك تحوك الدانتيل. أنت شاعر!

تجمَّد باخ ولم يعد قادراً على الحركة، فقد باغتَه هذا الاعتراف غير المتوقع فما قام به لم يكن ببساطة سوى كلام عن أشياء معروفة منذ زمن طويل ولا ريب فيها.

- إليك هذا - من أجل الإلهام، قفز هوفمان إلى الأرض، وغاص تحت الطاولة وأخرج كومة من الصحف من هناك. انظر ماذا خرج من ملاحظاتك الإثنوغرافية. وحشرَها في حقيبة ظهر باخ التي كانت فيها زجاجة الحليب والورق الفارغ وهو يبتسم بخجل ابتسامة قصيرة ساخرة. اقرأها في المنزل. خطّي أعوج، آسف، لا أستطيع الكتابة بشكل آخر.

اشتدَّ الصراخ في الشارع؛ ركض أحدهم من جنب النافذة، ثم تبعه آخرون يبدو أنّ حشداً كاملاً كان يركض على طول الشارع متزايداً ومُضاعَفاً.

– لو كنتُ أستطيع، لما طلبتُ منك. تنهّد هوفمان بحزن، واغتَمَّ وجهه الجميل على الفور، واختلجَ تجعدٌ حزينٌ على جسر أنفه وانبسط من جديد. – ليس لديَّ موهبة للكتابة، لم تُمنَح لي عند الولادة، مع أنَّ لساني قادر على أنْ يثرثر عن عشرة، وأخرج لسانه الثخين إلى الأمام بعيداً، سميكاً في القاعدة وبطرف حادّ مثني من الأعلى، ويدي كأنها يد شخص آخر. لا تقدر أنْ تكتب سطرين، وإنْ فعلَت يصعَب قراءة ما كتَبَت: خطّي مُقرِف، والكلمات التي أكتبها أسوأ. وكأني لستُ أنا مَن يكتب. لن تصدق ذلك، فما تكاد أصابعي تمسك بقلم الرصاص حتى يهوي ساقطاً. نظر هوفمان بمرارة إلى كفّه العريضة ذات الأصابع الملتوية، ثم رفع عينيه مرة أخرى. لذا حاول، يا باخ، حاول من أجلنا، نحن الاثنين. لن أعطيك الحليب لأيّ شيء آخر من هذا اليوم فصاعداً. يكفي منّا وصفات الطبخ والأقوال ذات العبارات الطريفة. ألا توافق، يا باخ؟

وقف باخ وعيناه مثبتتان على الأرض. وفي الصمت الذي حلَّ، تناهت إلى سمعِه فجأة صرخات قادمة من الشارع: «الفولغا! لقد جرى نهر الفولغا!» هرع إلى الباب وانكبَّ عليه بصدره وسقط من الكوخ. فاحت في وجهه رائحة الربيع المنعِشة رائحة ماء النهر والأسماك والطحالب. هبط باخ من الشرفة وانزلق على الثلج الذائب وركض إلى الشاطئ.

***

تفطَّرَ نهر الفولغا الذي تحطَّم جليده في شقوق سوداء. وزحفت الشقوق كالثعابين الكسولة على طول الغطاء الثلجي، على امتداده طولاً وعرضاً، تارة تتَّسِع كاشفةً عن المياه الداكنة وتارةً متقلِّصَة منفوخةً بحدبات الجليد المبشور، وكأنَّ النهر هزّ ببطء الغطاء الجليدي الذي يقيّده محاولاً أنْ يتنفّس. أسرعت عدة نساء، من اللائي كُنَّ يشطفن البياضات في الفجوات، إلى الشاطئ سائرات بهَبَلٍ على الثلج الهشّ في معاطف جلد الغنم العريضة ويسحبن خلفَهُنَّ الزلاجات المليئة بأكوام الشراشف المبلَّلَة؛ فصفَّر لهنَّ الشباب بمرح من المرسى ولوحوا بأيديهم. وفي

اللحظة التي قفزت فيها المرأة الغسّالة الأخيرة (وقد احمرَّ وجهها واختنقت من الجري السريع) إلى الشاطئ وسقطت منهوكة القوى على ركبتيها بجانب زلاجتها، كان باخ يدوس بجزمته اللباد على ثلج الشاطئ ويسير عبر نهر الفولغا.

تعالت أصوات بشيء ما من خلفه، لكنه لم يستدِر، وسرعان ما دفع النسيم الخفيف الصرخات المزعجة. مشى بسرعة؛ ولكنه لم يتحول إلى الركض حافظ على وتيرة تنفسه. تعرَّق إما من المشي السريع أو من الشمس الساطعة التي بانت من خلال السحب المتناثرة. كان الثلج الرطب يتجعَّد مطاوعاً تحت قدميه ويلتصق بباطن حذائه، لكنه لم يكن يخشخِش وكأنه ليس ثلجاً، بل قطن. كان الهدوء يسود على النهر، ولم يُسمَع في هذا الصمت إلّا صوت واحد هو صوت صرير الجليد المدعوك.

انتفخ الجليد المسحوق على النهر كالبثور، هنا وهناك. حاول باخ ألّا ينظر إلى الأكوام اللامعة التي كانت لا تزال بعيدة وتزداد في مكان ما خلفه، لكنه سمع في كلّ مكان هسهسة طويلة. أراد بشدة أنْ يفلت وأن يندفع مهرولاً، لكنه عرفَ: لا يمكنه ذلك، فهو بعيد عن الضفة اليمنى ولا يمكنه أن يركض إليها. وهكذا مشى، مشى فحسب، متغلّباً بقوة الإرادة على برودة الخوف المقرفة التي تصاعدت من مكان ما في بطنه. لم يكن خائفاً على نفسه بل خاف على كلارا التي ستبقى ممدّدة في مرقدها الضيق من دون دفن وفقاً للعرف البشري، والتي ستبدأ في الذوبان ببطء مع قدوم حرارة الصيف. وخاف على الطفلة أنْ تبقى وحدها في المنزل الكبير والفارغ.

شيء خشخش قريباً جدّاً منه، وارتجف شيء ما تحت قدميه ها قد انفتح الجليد وانكشف الداخل الحُبيبي ووَمَضت على شقوقه مئات من الشرر الأزرق وبدا الماء من الثغرة المفتوحة ثقيلاً ولونه أسود زمرديّاً. لم يكن لدى باخ الوقت للخوف، قفز فوق الشق وواصل مسيره تاركاً وراءه حفيف الجليد وطبطبة الماء وبقبقة قطع الجليد المتساقطة. ورأى على التلال المقتربة: وسط النهر يجري.

بدأت الشمس تلفح وتبهر بلا هوادة، فتلألأ ركَام الثلج وانصهر في أشعتها. توقف باخ للحظة، أخذ نفساً وأزاح عن رأسه قبعته المبلَّلة بالعرق. وكان مضيّقاً عينيه فأغمضهما، وعندما فتحهما لم تعد جبال الضفة اليمنى الزرقاء تستلقي بهدوء، بل أبحرت مبتعدةً عنه ببطء وهي تتمايل. نظر من خلال كتفه: كان الشريط الثلجي المشقَّق قد تفكك إلى قطع وتجعَّدَ وتحدَّب وزحف من جانب الشواطئ إلى مكان ما على اليسار؛ وجرت أكوام متزايدة من الجليد المدعوك على شكل موجات على هذا الشريط، وومضت في الشمس ثم انهارت. وضع باخ قبعته اللباد في عبّه وركض وهو يضيّق عينيه اللتين أعماهما الضوء الساطع.

من وقت إلى آخر كان الثلج يتراءى أسود تحت الحذاء ويَرْشح بالماء، ولكن لم يكن لدى باخ الوقت الكافي ليتجنب البقع المذابة راكضاً فجعل يتخبَّط إلى الأعلى وهو يرش مزيج الماء والثلج ويشعر كم هو مشبَع بالرطوبة وكم أصبح حذاء اللباد ثقيلاً تحت قدميه. تارة تومض انهيارات الشقوق الداكنة إلى اليمين منه وتارة إلى اليسار. وسمع صوت خشخشة وتأوّهاً وأنيناً طويلاً خلف ظهره وعلى الجانبين وأمامه، وفي كلّ مكان؛ وسرعان ما أصبح صوت هسهسة الجليد عالياً خلفه لدرجة أنَّ باخ لم يعد يسمع صوت تنفسه. في البداية اهتزَّت صفيحة الثلج تحت قدميه قليلاً بشكل لا يكاد يُلاحَظ، ثم ارتجفت واندفعت بسرعة إلى مكان ما. اندفع باخ عليها بكلّ قوته ضد حركة قِطَع الجليد الطافية، وبمواجهة التيار نحو الشاطئ القريب الذي انتصبت على طول حافته أكوام متحركة من الثلج الأبيض المائل إلى اللون السكَّري.

حدث تشقق وضجيج شديد، فقد خرجت قطعة حادّة وكبيرة من الجليد، بحجم باخ نفسه، بسرعة من مكان ما تحت قدميه ولمعت حوافها؛ بالكاد تمكن باخ من القفز إلى طوف جليدي آخر، وانهارت الكتلة الكبيرة منتشرةً باتساع، ملقية تحتها كلّ شيء من حولها. لم يرَ باخ هذا – فقد ركض كالأرنب على القطَع الجليدية الطافية بشكل متواصل

وإلى الأمام. رفرفت أطراف معطف جلد الغنم وخفقت الحقيبة على ظهره وكانت زجاجة الحليب تطرق على عموده الفقري. وومض أمام عينيه تَلألُؤ ولَمَعان ووَهَج. وانهال على وجهه رذاذ جليدي كالإبر ومائي ناعم. ثم انزلقت قدماه وغاصتا في شيء رخو وبارد لاسع، لكنه في تلك اللحظة شعر بالقاع. سقط باخ على أطرافه الأربعة وزحف، ودفع بصدره هذا الشيء الرخو والبارد، وخدش رقبته وخديه على كسرة الجليد الحادة. خرج بصعوبة إلى الحجارة، ثم سقط على وجهه واستلقى هناك لمدة طويلة شاعراً بنبضات قلبه الوَجِلة في أضلاعه وفي حلقه وفي صدغيه.

اضطربت الأفكار في رأسه، بشكل عشوائي وغير مترابط، وكأنَّ هذا الجري المجنون قد مزجها جميعاً.

فكرة عن ضرورة دفن كلارا على كلّ حال.

وفكرة مفادها أنه لن يكتب أبداً أيَّ حكايات.

ولو كان الأمر بيده لكان قد دفن كلارا في الفولغا: فالأفضل أنْ تأكلها الأسماك، وليس الديدان.

وأنَّ زجاجة الحليب في الحقيبة لا ينبغي أن تكون مكسورة، ولا تزال موجودة في حزمة الجرائد.

ولأن كلارا نفسها لا تريد أن تُدفَن في الماء فسيتعين عليه أن يحفر قبراً في الأرض.

وأنه لم يقرأ الصحف منذ سبع سنوات حتى الآن.

وأنَّ آنتشي سوف تستيقظ قريباً، وبالتالي من الضروري الإسراع.

بعد أن التقط أنفاسه، رفع باخ بصعوبة وجهه الساخن عن الحجر ونهض على مرفقيه واستدار نحو نهر الفولغا: أصبحت قطع الجليد أصغر وأكثر شفافية وطفت على النهر كالأسراب المُذعنة حملتها المياه الخضراء الجبّارة إلى بحر قزوين.

-12-

دفن باخ كلارا في البستان في المكان الذي نمت فيه شجيرات التوت البري والعلّيق بين أشجار التفاح. حفر القبر طوال اليوم: كانت الأرض لا تزال متجمدة، وبالكاد تفتَّتت تحت ضربات المجرفة، لكنه دقَّ تلك الأرض بصبر ناحتاً المرقد الأخير وقد طمأنته فكرة أنَّ كلارا ستظل محاطةً بالبرد المعتاد لبعض الوقت. ألبسها ملابس أنيقة: تنورة زرقاء من الصوف الرقيق ذات بقع حمراء ومئزر قطني مطرّز بزهور عند الأطراف وبلوزة من الكتان بأكمام واسعة وتطريز من الدانتيل على الياقة. ضفر جدائلها ولفها بشرائط أصبح شعرها خشناً وغير مطاوع في الأشهر الأخيرة الأمر الذي جعل باخ يعاني طويلاً فبرمه وصفَّه على شكل كعكة على اليافوخ والقفا. حاول ألّا ينظر في وجه كلارا لأنه خشي أنْ يقرأ فيه اللوم أو الإدانة.

بدلاً من التابوت وضع كلارا على لوح، أخرجه من جدار سقيفة المخزن. أراد أنْ يغطيها بالغطاء المحشوّ بريش البط، لكنه فكَّر أنَّ آنتشي بحاجة أكثر منها إلى غطاء الريش؛ بالإضافة إلى ذلك من غير المحتمل أنْ ترغب كلارا في أنْ تُلَف بشيء دافئ وبالتالي ألقى عليها مِلاءة دانتيل فقط نسجتها الحرفية الماهرة تيلدا من خيوط سوداء.

عندما رقدت كلارا في القبر جميلةً، والنسيج الخفيف الأسود على وجهها الساكن قرّر باخ على كلّ حال أن يلقي عليها نظرة طويلة، ولكنه لم يَرَ سوى الصّد واللامبالاة: لم ترغب كلارا أنْ تقول شيئاً في الوداع. جلس إلى جانبها وأراد أنْ يجد هو بنفسه الكلمات المناسبة لكنه لم يجد

تلك الكلمات: ففي الشهور التي قضاها في الكتابة المحمومة وفي رعاية آنتشي المتواصلة نسي كيف يتحدث مع امرأته الحبيبة. فضيَّقَ عينيه وبدأ يجرف التراب بيديه ويهيله في القبر.

لم يضع صليباً على القبر، بل سحب صخرةً رماديةً كبيرة من شاطئ الفولغا. كما أنه لم يكتب أيّ شيء عليها: إذ لم يكن ثمة أحد سوى باخ يتذكر المرحومة بكلمة لطيفة، وباخ نفسه لم يكن بحاجة إلى الاسم على القبر.

ثم ذهب إلى المجلَدة وجمع الجليد كلّه الذي نامت عليه كلارا وحمله إلى الشاطئ ورماه بعناية في نهر الفولغا. كان بإمكانه ببساطة أن يرمي تلك القطع الجليدية تحت أشجار التفاح، ولكن لسبب ما بدا له أنَّ الأصح إعادتها إلى النهر.

بعد أنْ أنهى ذلك كلّه، في بداية الليل، عند حلول العتمة الزرقاء الداكنة، أخذ باخ على يديه آنتشي النائمة وأخرجها إلى البستان لأول مرة منذ وفاة كلارا، أحضر لها الطفلة. وقف بجانب صخرة القبر وهو يضم الطفلة الدافئة من النوم إلى صدره.

انظري، يا آنتشي، توجَّه إليها ذهنيّاً، *والدتك تدعى كلارا مدفونة هنا. ماتت كلارا.*

جعَّدت آنتشي أنفها من دون أن تفتح عينيها وتأوّهت ودفنت وجهها تحت إبط باخ...

***

ها هو لعدة أيام الآن يعيش من دون أنْ يمسك بيديه قلم الرصاص الذي برز على نحو كئيب في الفجوة بين جذوع الحائط، بجوار النافذة، حيث وضعه باخ حتى لا يضيع في المنزل الكبير ويحميه من الفئران ذات الأسنان القارضة. وفي الليل، عندما تُضاء الغرفة بنور عود الإشعال المرتعش، كان ظلّ قلم الرصاص الطويل يتراءى كعلامة التعجب عند النافذة ويرفرف على الجدران. ينادي باخ. ردَّ قلبه على النداء، وخفق

أسرع؛ وردَّت كذلك يده اليمنى، الدافئة، واختلجت أصابعها. انتابته الرغبة في الكتابة بشكل لا يطاق، لكنه ابتعد عن الظلّ الراقص الذي يناديه، وحاول ألّا ينظر إليه. كان من الممكن أنْ يضع قلم الرصاص في مكان أبعد يدسّه خلف إطار الباب أو يضعه في أسفل الصندوق؛ ولكنه لسبب ما لم يبعده.

لم يفهم تماماً ما حاجة هوفمان الذي لا يعرف الكلل للحكايات. أدرك فقط أنَّ الملاحظات حول الحياة الحقيقية فقدت قيمتها السابقة. من الآن فصاعداً، ينتظر هوفمان منه التلفيقات الخيالية. ولكن، يا ترى، هل توجد ثمة حكاية على الأرض لا تذكّره بكلارا ولا تثير في قلبه ألماً ساخناً؟ لم يعرف باخ مثل هذه الحكايات. أي قصة، أبطالها وظروفها تثير دائماً في ذاكرته صورة المرأة الحبيبة الملفوفة في النسيج الخفيف الأسود وتعبير اللامبالاة على وجهها، الراقدة بلا حراك تحت أشجار التفاح التي اخترقتها بجذورها العوجاء.

وبدأ يقنِع نفسه: ما يكلّفه أن يمسك قلم الرصاص بين أصابعه ويصرّ بأسنانه بقوة أكبر، كابحاً الألم، ويخربش على الورقة على عجل بضع عشرات من الأسطر من دون أنْ يتوسع في المعاني ومن دون أنْ يتعِب نفسه برشاقة المقطع وباستقامة الخط؟ يكتب أيّ موضوع بصورة شكلية تلبية لطلب هوفمان العنيد ليتخلص به من إلحاحه. لقد تذكر من الحكايات الكثير إلى درجة تكفيه أن يشتري بها برميلاً كاملاً من الحليب، بل بئراً كاملة أو فولغا كاملة تذكر باخ كلّ ما حدَّثته به كلارا. ومع ذلك، مشى مشياً كئيباً، وأدار رأسه بعيداً عن قلم الرصاص البارز من الجدار. ولم يكتب.

وفي اليوم الذي تحطم فيه الجليد في نهر الفولغا وقطِعَت الضفة اليمنى تماماً عن الضفة اليسرى لمدة جريان الجليد، حَسِبَ باخ: يجب أنْ يكفي ما هو مخزون من الحليب في المزرعة لمدة أسبوع. لقد جمع هذا الاحتياطي من الحليب طوال فصل الشتاء بغاية الجهد والعناية: فقد

صبَّ من كلّ كمية حصل عليها جزءاً صغيراً في فنجان أو كأس، إذ كان ثمة ما يكفي من الأواني في المنزل، وجمَّدها في المَجلَدة؛ وبحلول نهاية فصل الشتاء كانت الأكواب المليئة بالحليب مرصوفة في صفوف متراصَّة في صندوق الجليد بجوار كلارا بانتظار ساعة الحاجة إليها. في البداية، كان باخ يذيب ثلاثة أكواب في اليوم؛ ومن ثم أربعة كانت شهية آنتشي ممتازة. فرغت المجلَدة من الحليب بسرعة، وسرعان ما لم يعد باخ يفكر في أيّ شيء سوى: كيف يطعم الطفلة بعد أنْ تشرب الكوب الأخير؟

وفي إحدى الليالي، قرّر باخ أنْ يُطعم الطفلة: مضغ بعناية قشارة السكَّر، وبصقها في ملعقة وأطعمها الطفلة. فهزّت ذقنها وغضَّنت وجهها، وهي تدحرج الطعام غير المألوف في فمها، ثم صرخت على الفور بالبكاء وبصقت المحلول الذي لم تبتلعه ورشّته في جميع الاتجاهات. فهدَّأها بصعوبة، هزّها على ركبتيه. وقرَّب الملعقة مرة أخرى إلى وجهها المبتل، هذه المرة مليئة بالشوفان المطهو على البخار. فامتدَّت نحوها مرة أخرى بثقة، وارتشفت من جديد ولكنها خُدِعَت مرة أخرى، فصرخت بشكل يصمّ الآذان لدرجة أنَّ باخ بعد هذا شعر برنين وأزيز طويل في رأسه. فجعل يلفّ ويدور في غرفة الضيوف، وهو يحتضن بين ذراعيه الطفلة التي تصرخ ويطمئنها ذهنياً بأعذب الكلمات ثم خصص حصة كبيرة من الحليب لإخماد استيائها.

وبعد أنْ شبعت في النهاية من الطعام المعتاد وهدأت، لاحظت آنتشي ظلّاً يتراقص بجانب النافذة، فمدت يديها الصغيرتين نحوه فانتزع باخ القلم البارز على الفور وأخفاه في جيب كنزته الصوفية المنزلية:

– كلّا، يا آنتشي. لا أستطيع. ليس الآن.

وطوال ما كان يتمشى في الكوخ وهو يحتضن الطفلة الشبعانة كان يفكّر دائماً بما في جيبه. لقد شعر باخ بقلم الرصاص القصير الذي لا يزيد عن خنصره كالمسمار الكبير طولاً ووزناً. وعندما أصبح تنفس الطفلة أعمق وأخفّ وتراخى جسدها الصغير الذي هدّأه النوم وضعها باخ في

السرير وأغلق باب غرفة النوم خلفه. وأخرج من جيبه الشيء الذي فطر روحه ودفعه في شقّ النافذة وكأنه وضع سكيناً في الحائط وبعد أن ألقى معطف جلد الغنم على كتفيه، خرج على عجل من الكوخ...

كان الغسق المنتشر في الفضاء خفيفاً وشفافاً كعهده في الربيع. عندما كان واقفاً على الجرف رأى باخ بوضوح شتات أنوار غنادينتال البعيد أمامه. وفي الأسفل كان يتحرك جسد نهر الفولغا المتورم من المياه الذائبة والذي لا يزال مرقطاً ببقع من الجليد، ولكنها أصغر وأكثر رخاوة والتي سرعان ما ستختفي وبعدها ستظهر في النهر أوائل القوارب الزاحفة. وخلف باخ، في أعماق الغابة، تحت حماية الجدران الخشبية، كانت آنتشي الصغيرة تنام على سرير البالغين. وفي المجلدة كان آخر كوبين من الحليب. ينبغي لباخ غداً إنزال القارب الرثّ إلى الماء والذهاب فيه إلى المستوطنة حتى يشتري بالكلمات والحروف الجديدة حليباً جديداً من هوفمان. يكفيه الهروب من قلم الرصاص ومن ألمه الشخصي. حان الوقت لأن يكتب واحدة من آلاف القصص الخيالية التي حكتها له كلارا.

وقف باخ مشتملاً بمعطف من جلد الغنم يستمع إلى طبطبة الأمواج على الصخور. وبالشكل نفسه كانت الأفكار تطبطب في رأسه بتتابع وهدوء.

وماذا لو كتب حكاية عن كلارا نفسها؟ أن يعيدها للحياة على الورق، كما أعاد قبل مدة قليلة إلى الحياة غنادينتال الميتة؟ أنْ ينتشلها من تحت الأرض ويخلع عن وجهها الحجاب الأسود ويهبها قدراً آخر أكثر بهجة وسعادة؟ أن يأخذ قصة خيالية جاهزة وينفث فيها روح حياة كلارا؟ أن يمنح البطلة سمات كلارا وصوتها وشخصيتها ويسوق القصة في مصير مختلف عن حكم بالسجن مدى الحياة في مزرعة وحيدة وموت مبكر لا معنى له؟

تحرك شيء كبير ودافئ في صدره، وبدأت يده اليمنى تؤلمه من خلال الإحساس المسبق بوجود قلم الرصاص بين أصابعه ولكن باخ بقوة الإرادة أجبر نفسه على الوقوف والاستمرار في التفكير.

من بين مئات الحكايات التي روتها كلارا، كانت «حكاية السجينة

العذراء»[1] هي الأنسب لوصف مصيرها. إنها فتاة سجنها والدها في برج منيع أمضت سبع سنوات في الحبس وحدها مع مربيتها العجوز فقط، كما أمر والدها القاسي، وعندما خرجت من الزنزانة وجدت العالم حولها قد تغير بشكل لا رجعة فيه: قصر والدها مهدّم، وتوفي جميع الخدم وسكان المنطقة في الحروب، وتحولت الحقول والغابات إلى صحاري أحرقها الأعداء. وبعد أن فقدت ماضيها كلّه اضطرت الفتاة إلى التشرد والتجوال حتى وصلت إلى تخوم أرض أحد الأمراء الأغنياء، الذي أسره جمالها وسرعان ما تزوجها.

أعادت كلارا سرد «الحكاية» عدة مرات، وربما شعرت فيها بتشابه مع مصيرها الشخصي. في كلّ مرة خلال ذلك كان قلب باخ ينقبض من الشعور بالذنب: فعلى عكس السجينة العذراء، لم تتمكن كلارا من مغادرة برجها مزرعة غريم حيث سجن والدها أولاً، ثم الظروف التي لا تقاوم في العالم *الكبير*. وهكذا عاشت في السجن حتى وفاتها، ولم تتشارك الوحدة إلّا مع باخ الصامت، الذي إذا ما أدّى دوراً في حياتها، فليس أكثر من دور الخادمة المربية الهادئة، لا دور الأمير الوسيم. فهل يمكنه تغيير هذه الحبكة ألن يُطلِق سراح السجينة كلارا من حبْسِها؟ أليس في هذا إكرام لذكرى للمرأة الحبيبة؟ ألن يكفِّر حتى ولو عن جزء صغير من ذنب باخ بحقها؟

في مكان بعيد إما إلى الأسفل مع التيار أو على الضفة اليمنى زعق بأعلى صوته صقر الشويهين الذي استيقظ. فردَّت عليه بومة من أعماق الغابة، تأوَّهَت وأَنَّت بوهنٍ. لفَّ باخ معطف جلد الغنم على نفسه وسار بخطوات سريعة إلى المنزل.

كان يا ما كان ثمة أرض من مروج زمردية وحقول قمح ذهبية يسكنها

1- مضمون «حكاية السجينة العذراء» يعود إلى الحكاية الشعبية الألمانية «العذراء ماليين». استُخدِمَت في النص اقتباسات من «العذراء ماليين» كما قدمها الأَخوان غريم (ترجمها إلى الروسية إي غيلياروفا وك. سافيليف). (الملاحظة من الكاتبة).

رعاة صالحون ومزارعون مسالمون أرض مزهرة ما انفكَّ الرسامون والشعراء يتغنون بجمالها. انتصبت في قلب تلك الأرض، على منحدر مرتفع فوق نهر عظيم، قلعة ملوك. عاش فيها ملك جبّار. كان سميناً مثل برميل سمك الرنجة وأصلع مثل رغيف القمح، لكن لحيته تشبه حفنة من مخلل الملفوف. وكان لديه ابنة ذات عينين زرقاوين كموجة النهر وخدين ناعمين كأجنحة الفراشة. لم تكن تعرف والدتها وترعرعت تحت رعاية الخادمة وهي امرأة عجوز غاضبة نحيفة كانت تغزل خيوط لا نهاية لها لأيام متتالية، وإذا ما تكلمت ولو كلمة واحدة، فستكون كلمة سيئة للغاية...

بمجرد أن أمسك باخ بقلم الرصاص ونشر الورقة الرمادية على سطح المنضدة المنقط بقطرات الحليب، حتى انهالت الكلمات على الورقة بنفسها: وبالكاد تمكنت يده التي اشتاقت للكتابة من أن تكتب الحروف. صور الماضي وجه أودو غريم العريض ووجه تيلدا المتغضِّن انتصبت أمام عَيْنَي باخ بشكلٍ واضح لدرجة أنَّ بإمكانه أنْ يصف كلّاً منها بالتفصيل. وفجأة تذكر أنَّ خيوط لحية غريم كانت تختلف قليلاً في ظلالها كما تختلف الأوراق الصفراء في الغابة في فصل الخريف، ونمط التجاعيد الغريب على جبين تيلدا يشبه الأخاديد المنحنية التي يميز بها المستوطن الدؤوب حدود حقله المحروث.

... وذات مرة رغب الملك في تزويج ابنته بأمير من دولة مجاورة. لكن الأميرة الشابة وهبت قلبها منذ مدة طويلة لناظر المدرسة الفقير الذي كان يعمل في مدرسة ريفية. «لا أريد ولا يمكنني أنْ أختار أيّ شخص ليكون زوجي، باستثناء المعلم الحبيب!» هتفت وهي تنظر بجرأة إلى عينَي والدها المرعِب. احْتَدَمَ الملك غَيْظاً وأمر بسجن ابنته المتمردة في أعلى برج في القلعة البرج منيع جدّاً لدرجة حتى الطيور نادراً ما تصل إلى مسلَّته الحادة. وحُمِلِ إلى هذا البرج الطعام والشراب الذي يكفي لمدة سبع سنوات. ثم اقتيدَت الأميرة إلى هذا البرج مع خادمتها. وسُدَّ عليهما ذلك

البرج بالطوب وحُرمَتا من الأرض ومن السماء. وهكذا جلستا في الظلام لا تعرفان الليل من النهار. وكثيراً ما جاء ناظر المدرسة المسكين إلى سور القلعة ونادى حبيبته باسمها، ولكن سرعان ما ألقى القبض عليه خدمُ القصر وأُبعِدِ من البلاد بأمر من الملك القاسي. لم تعرف الفتاة السجينة ذلك لم يصل صوت واحد إلى البرج العالي من الأسفل، من العالم الذي يسكنه الناس والمخلوقات الأرضية الأخرى. وماذا بقي للبنت المسكينة سوى الأنين والدموع؟ وهكذا عاشت في ظلمات السجن وصمته، لا تسمع إلّا صرير عجلة غزل الخادمة. وفي هذه الأثناء، مرّ الوقت. وسرعان ما بدأت السجينتان تلاحظان أنَّ سنواتهما السبع تقترب من نهايتها...

عند إنشاء نصوص عن الواقع يبدو باخ وكأنه يستمد من نفسه المعرفة والأفكار والعبارات فيستنفد ما عنده بالتدريج؛ أما الآن وهو يكتب عن شيء لم يحدث قَط، فالعكس، تبدو سجيته ممتلئة: تأتيه من مكان ما الحبكة والأبطال والصور المشرقة المليئة بأدقّ التفاصيل والكلمات اللازمة. وكلّما كتب أكثر، تزاحم ذلك في رأسه، وخطَّ القلم أسرع على الورقة، وتراءت له صورة كلارا بشكل أكثر وضوحاً ليست كلارا الميتة المغطاة ببرقع أسود على وجهها، بل الحية ذات العيون المتلألئة بالإثارة والمندفعة بلا توقف في مساحة البرج الضيقة بانتظار الإفراج عنها.

... ظنّتا أنَّ لحظة الخلاص من السجن الرهيب أصبحت قريبة، ولكن لم تسمعا صوت ضربات مطرقة على الحائط ولم يسقط حجر من جدران البرج: يبدو أنَّ الأب الملك قد نسي ابنته تماماً. وعندما لم يبقَ إلّا القليل جدّاً من الطعام وبدا الموت الرهيب قريباً منهما، قالت العذراء السجينة: «يجب أنْ نقرّر الملاذ الأخير سنحاول اختراق جدار سجننا». وأخذت المغزل الحادّ من عجلة غزل الخادمة وبدأت تنكش الجص الذي يمسك الحجر. وعندما تعبت حلَّت محلّها الخادمة التي هرمَت للغاية أثناء المكوث في الحبس، لكنها لم ترغب في الموت في السجن. وسرعان ما تمكنتا من إزالة حجر واحد من البناء ثم الثاني والثالث. بعد سبعة أيام وسبع ليالٍ من

العمل الشاق، صارت الفتحة التي حفرتاها كبيرة إلى درجة تمكنت فيها من الوصول إلى الدرَج الشديد الانحدار الذي يربط أعلى قمة البرج بقاعدته. وبعد أن هبطت السجينتان إلى الأسفل فتحتا الباب أخيراً ووطئتا الأرض...

ها هي اللحظة التي طال انتظارها: كلارا الشعثاء التي تتنفّس بصعوبة من جراء طول مدة التعب بثوبها الملوث بالجص تخرج من السجن إلى الشارع وتستنشق هواء الحرية البارد، وتنظر من حولها. وتيلدا التي بالكاد بقيت على قيد الحياة تجرّ قدميها بصعوبة على أثرها وتجرّ عجلة الغزل الوفية.

... وجدتا السماء في العالم لا تزال زرقاء، كما كانت الحال قبل سبع سنوات، ولكن كلّ شيء آخر تغيّر كثيراً لدرجة أنَّ الفتاة لم تصدق عينيها: كانت قلعة والدها في حالة من الخراب، وأُحرقت المدينة والقرى المحيطة بها، والحقول الشاسعة تحولت إلى يباب في الطول والعرض. حبست الفتاة أنفاسها وسارت في قاعات قصر أبيها المدمّر الذي كان رائعاً في الماضي: الأرضيات الخشبية حطمتها الخيول وداستها بحوافرها التي لا ترحم؛ ونُهبَت أواني الذهب والأثاث؛ ومُزِّقت الصور ونُزِعَت من الجدران وتناثرت تحت الأقدام وتغطّت بالصقيع؛ ولم يبقَ من التماثيل الرخامية الفاتنة سوى الشظايا كانت العذراء تسير على شظايا الأيدي والأقدام والوجوه والشعر البيضاء الثلجية وكانت الشظايا تفتت تحت خطاها الخفيفة وتتحول إلى غبار...

عمَّن كتب باخ عن كلارا المسكينة أو عنه نفسه الذي كان يتسكع في تلك الليلة الشتوية الزرقاء في أنقاض قصر فاغنير الطحّان؟

... لم تقع عيونهما في أيّ مكان على إنسان: فقد أباد الأعداء جميع السكان، وطردوا الملك. ونُحِرَت الماشية حتى آخر ثور وكبش، ولم يبقَ منها سوى أكوامٍ من الأحشاء الدامية تنفث رائحتها الكريهة في جميع أنحاء البلاد وتحلِّق فوقها الغربان السود كالسُّحب... فاضطرّت العذراء والخادمة إلى التجول في بلدان أخرى والتوسل وطلب الصدقات؛ لكنهما لم تجدا أيَّ مأوى لهما في أيّ مكان ولم تلتقيا بإنسان يعطيهما كسرة خبز

على الأقل، وسرعان ما بلغتا حدّاً اضطرتا فيه إلى إسكات جوعهما بأكل نبات القراص فقط. وأخيراً صرخت العذراء المنهكة من الجوع قائلة: «ألا يمكنني، بعد أن عانيت سبع سنوات من السجن وخرجت من زنزانتي بنفسي، أنْ أكسب رزقي؟ كفى معاناة وتسولاً! سأعمل!»...

كيف كان هذا الامتعاض المنصِف يليق بكلارا! كيف تورَّد خداها المتوهجان! كيف لمعت عيناها! كان باخ يستمتع بالنظر إلى وجهها الساخِط الذي غضب لأول مرة طوال مدة تعارفهما، وربما، طوال حياتها.

... ولا بدّ من القول، إنهما بحلول ذلك الوقت كانتا قد وصلتا إلى حدود دولة بعيدة يشتغل سكانها بزراعة عدد لا يحصى من بساتين التفاح. فأكْرَت الصبية نفسها عاملة في أحد هذه البساتين. نبشت في الخريف حُفَراً عميقة وغرست فيها أشجاراً صغيرة وسمّدتها بالرماد والسماد الحيواني؛ وقبل بداية الطقس البارد طلَت جذوعها بالجير الممزوج بالحليب الدسم ولفَّتها بالقش والقصب؛ ودثَّرتها بالثلج خلال فصل الشتاء؛ وفي الربيع قامت بتشذيب الفروع وعزق التربة وسقيها. كان لدى الفتاة الكثير من العمل ولكن كلّ يوم كان لديها سقف فوق رأسها وطعام يشبعها هيَ وخادمتها. وبعد مرور عام بجهود الفتاة نتج محصول لم يُعهَد من قَبل في البستان: كانت ثمار التفاح كبيرة كرؤوس الأطفال وحمراء كزهور الخشخاش. وكانت تتناول هذه الثمار بيديها بلطف وتقطفها من الأغصان وتضعها في سلال؛ ملأت هذه السلال البستان بأكمله ومنزل المالك كلّه. فأرسلها صاحب البستان إلى سوق المدينة لتبيع التفاح. حمَّلت الصبية السلال على العربة وجلست فوقها وذهبت إلى المدينة...

اقشعرَّ جسم باخ من الريح الباردة التي هبَّت على كلارا الجالسة على العربة. وتمتَّع بالنظر إلى السهوب الشاسعة المنبسطة. وعندما وقع حجر تحت العجلة واهتزّت العربة قليلاً واصطكّت السلال الثقيلة عبس وجه باخ بانزعاج خوفاً من أنْ تتجعد خدود التفاح الرقيقة بالاهتزاز. وسرعان ما بدا سور المدينة في البعد وكانت حوافر الخيل تطرق على الطريق المرصوف.

... وما إنْ دخلت الصبية ساحة السوق، حتى ركض نصف سكان المدينة لرؤية محصولها الذي ليس له مثيل: ونظر الجميع بحماس إلى ثمار جهدها واندهشوا وفغروا أفواههم من التعجب. ومَن رأت في الحشد الصاخب؟ رأت حبيبها ناظر المدرسة الذي عمل لمدة سبع سنوات في مدرسة هنا، يعتصر قلبه بعناد شوقاً إلى حبيبته التي لا يمكنه الوصول إليها. «إنّك، أيتها البستانية الجميلة، تشبهين إلى حدّ كبير حبيبتي، بل أكاد أعتقد أنّك هي!» هتف المعلم المندهش. فأجابته الصبية: «أنا حبيبتك! من أجلك قبعتُ في ظلمة الزنزانة لمدة سبع سنوات، وعانيت من الجوع والعطش والحاجة والفقر. ولكن اليوم أشرقت لي أيضاً الشمس الحمراء. ولن يفرقنا بعد اليوم لا شيء ولا أحد...»

يبدو أنَّ شيئاً ما جرى على خديها (هل هو عرَق الجهد؟ أَم دموع؟)، لكن لم يكن بمقدور باخ أنْ يمسح هذه الرطوبة. كلارا الجميلة جمالاً لا مثيل له، في تنورتها الصوفية العادية ومئزرها المخطط، ووجهها الذي لفحته الشمس تؤطّره خيوط ذهبية بارزة من الضفائر مدّت له كفّيها البنيتين من عصير التفاح وابتسمت. اقترب منها باخ، واستنشق رائحة التفاح العسلية الكثيفة من السلال التي لا تعدّ ولا تحصى المرصوفة في العربة، وأخذ يدي كلارا الخشنتين من العمل وقرَّبهما من شفتيه. تنهّد الحشد خلفهما بهدوء وحماس. ودقَّ الجرس في الكنيسة اللوثرية.

... «انتظروا دقيقة!» – صدح صوت عالٍ. التفتت الفتاة إلى الصوت فرأت رجلاً يرتدي ملابس أنيقة قد شقّ طريقه نحوها عبر الحشد. وعرفت أنه والدها. بعد سنين طويلة من الترحال وصل إلى قصر حاكم هذه البلدة، الذي استقبله بالترحاب واللطف؛ والآن هو عازم على الذهاب لاستعادة أراضيه المفقودة من الأعداء. «يا ابنتي العزيزة! – هتف الملك السابق. – كم أنا سعيد لأني وجدتك من جديد! دعيني أعتني بك مرة أخرى حتى لا تعتريكِ المصاعب والمتاعب من الآن فصاعداً!» «لا، يا أبي! – أجابت البنت بحزم. – الآن أنا أستطيع الاعتناء بنفسي». «دعيني على الأقل أنْ أجد

لك زوجاً جديراً بكِ. سيُسعد الحاكم المحلي بمصاهرتي، وفي المقابل ستحظين بحياة مريحة حتى الشيخوخة». «كلّا، يا أبي! - اعترضت البنت مرة أخرى. - لا أريد منك شيئاً. وسوف أعيش فقط من خلال عملي مع المعلم الحبيب. هو سوف يعلم الأطفال وأنا سأزرع التفاح». وحدث كلّ شيء، كما قالت البنت. وسقط الأب النادم على الأرض حزناً ومات.

- من أين؟! هتف هوفمان بحماس في صباح اليوم التالي، وهو يهزّ الأوراق المكتوبة. - من أين حصل على هذا كلّه؟! كلّ هذه الأيدي والأرجل الرخامية التي تفتت إلى غبار تحت الأقدام... وهذه الصور المغطاة بالصقيع... وأكوام الأحشاء التي تنفث بالرائحة الكريهة... واللحى التي تشبه حفنات الملفوف المخلَّل والتفاح الذي بحجم رؤوس الأطفال... هذه التفاصيل كلّها من أين أتيتَ بها؟! فقد تشنّجت معدتي تقريباً بسببها. هذا كلّه كأنّي أراه بأم عيني، أنت ابن كلب! أنت شكسبير أشعث! شيللر مغبرّ! ما الذي يحدث هناك في هذا الرأس الأصمّ المُوبِر، ها، قل؟ أيّ شياطين موجودة داخلك؟ وبعد أنْ قفز إلى باخ، قرَّب هوفمان منه حسب العادة وجهه الجميل كثيراً وهزَّ منخريه فجأة وخفق برموشه. - إنك حبَكتَها بمهارة! أعترفُ بذلك. هنا لديك حكاية تتخلّلها أخلاقيات العمل وتعليمات للعناية ببستان التفاح: الثورة الثقافية والوعي الزراعي كلّ ذلك في نص واحد صغير. وكم ظهر النص جميلاً: لا ينبغي أنْ يُقرأ هذا النص ببساطة، بل أنْ يُتلى مثل القصيدة الملحمية! أنْ يُنشَد كالترنيمة! إنك بضربة واحدة بالمنشّة تقتل جميع الذباب! صفق هوفمان باستحسانٍ الأوراق المجعَّدة تماماً على صدر باخ، وضحك قليلاً؛ ثم اتّخذَ مَظهَراً جديّاً، ونقرَ بإصبعه على طية صدر سترة باخ واستمرَّ يدقّ: - اكتب، يا باخ. اكتب المزيد. من كلّ بدّ. وإلّا سوف تمزّقك شياطينك...

***

... سار باخ في دروب غنادينتال الربيعية واضعاً زجاجة الحليب التي اكتسبها مقابل عمله في الحقيبة على ظهره ومندهشاً كيف تغيرت

المستوطنة خلال الأسبوع الماضي. هل هذا هو الربيع الذي زخرف القرية بقدومه ونضح الخضرة على الأشجار في البساتين وغسل زجاج النوافذ ووجوه الناس بالأمطار ونظّفَ بأوائل الأزهار حوافَّ الشوارع التي لا تزال مغمورة بمياه الربيع أو تأثير نصوص باخ العاطفية؟ تناهت من كلّ مكان طقطقة مطارق سريعة ورنّانة، وكأن عشرات من طيور نقار الخشب الدؤوبة قد قرعت دفعة واحدة: فقد بدأ تصليح السقوف والأسيجة وأسوار الحدائق الأمامية والقوارب والمطابخ الصيفية التي بلِيَت خلال فصل الشتاء. وتأوَّهت السجاجيد والحصائر التي نُظِّفَت من خلال ضربها بالعصا، وصفقت البياضات المبللة المنشورة في الساحات. ورنَّت سلسلة البئر في ساحة السوق من غير انقطاع إذ كانت ربات البيوت تملأنَ دلاء كاملة، كما لو أنهنَّ قَرَّرنَ في يوم واحد أنْ يغسلنَ جميع المنازل والساحات من وسخ الشتاء دفعةً واحدة. وفي أحد أطراف القرية رغا بصوت خافت جَمَلٌ مستاءٌ من شيء ما، وفي الجهة الأخرى نبح جرو منفعل من هواء أبريل (نيسان).

عندما شقَّ باخ طريقه متخبِّطاً في برك الربيع العميقة، طرطشَ على انعكاس السماء الزرقاء ذات البقع البيضاء من الغيوم عليها واستمع إلى كلّ هذه الحياة الصاخبة التي إما استيقظت ببساطة من سباتها الشتوي، أو استدعتها من اللاوجود قوة قلمه. وقال في نفسه: إذن، يمكن كتابة الحكاية القادمة عن كلارا أيضاً فثمة الكثير من القصص حول الفتيات الثابتات العزم اللواتي ارتبطن بسعادة مع عشاقهن الواهنين. وكذلك قصص عن العمالقة الملتحين الشرهين. أو عن النساء المسنات النحيفات المؤذيات من أمثال الجنيات والساحرات والناسكات اللواتي يحببنَ الغزْل والإساءة إلى الناس المسالمين...

خرج من الزاوية، بقعقعة وهدير، شيء كبير وضخم إنه الجرار؛ وعلى أثره تدافع حفنة من الأطفال النحفاء وهم يصرخون ويهتفون (أين اختبأ هؤلاء طوال فصل الشتاء؟). سائق الجرار، بوجهه الملطخ حتى عينيه،

استدار وصاح بهم بشيء من السخط، لكن لم يكن بالإمكان سماعه من جرّاء الحشرجة الشديدة واستمرّ الأطفال يقفزون وراءه بإلحاح وهم يصرخون مبتهجين في كلّ مرة عندما يغمرهم الماء من تحت العجلات الكبيرة ذات الأزيز العالي. الجرار الأول في غنادينتال الأمريكي العتيق من نوع «فوردسون» الذي استقدمه هوفمان بعد مطالبة شديدة من بوكروفسك للأعمال الزراعية سار إلى الحقول: للعمل.

وامتدّ بمواجهة الجرار على طول السهب الذي تنفس بخار الربيع رتل عربات محملة بحقائب وبالات وسلال وأكياس ورزَم. وسار بجانب العربات أناس: آل مان المفعَمون بالبهجة والمَرَح وآل لانغ البخلاء وآل فينديرس المتديّنون وآل غراس المحبون للعمل لقد عادت العائلات التي غادرت المستوطنة بعد أشهر طويلة من الترحال على طول السكك الحديدية وعنابر السفن ومخيمات اللاجئين على الحدود.

عاد إلى غنادينتال خلال الربيع من عام ألف وتسع مئة وأربعة وعشرين ما مجموعه إحدى عشرة عائلة. يطلق باخ في نفسه على ذلك العام اسم *عام العائدين*[1].

1- لوحظت في السنوات الأولى من إنشاء الاتحاد السوفيتي عمليات هجرة نشطة في البلاد بسبب الظروف المعيشية الصعبة للسكان. ففي عام 1924 تسبب الجفاف الربيعي في هلاك المحاصيل وأثار فرار الفلاحين المصحوب بحالة من الذعر من جمهورية ألمانيا السوفيتية ذات الحكم الذاتي. ولكن مرسوم اللجنة التنفيذية المركزية ومجلس المفوضين الشعبيين لجمهورية الفولغا الألمانية الاشتراكية السوفيتية ذات الحكم الذاتي «بشأن العفو المتعلق بإنشاء جمهورية الفولغا الألمانية الاشتراكية السوفيتية المستقلة» بتاريخ 5 أبريل (نيسان) 1924 وتدابير دعائية أخرى، على العكس من ذلك، جذبت تدفقات من المهاجرين العائدين والنازحين من ألمانيا إلى الجمهورية الألمانية السوفيتية. (الملاحظة من الكاتبة).

-13-

سرعان ما استقام وجه آنتشي الصغير وبرزت عيناها من الطيات والانتفاخ وتكوَّر خدّاها وطفحا جمالاً ونُضرةً وغدت بشرتها بيضاء وشفّافة. واستطال الزغب الذي يغطي رأسها وتجعَّد كالحلقات وانبسطت يداها واشتدّ عودهما عندما يُطعمها باخ كانت تتشبث بأكمامه وبلحيته وتمسك الملعقة بإحكام. وصار باخ يلفّها بالقماط بشدة من أجل منعها من أنْ تلوِّح بيديها وتسكب الحليب لكنَّ الصبية لم ترغب أنْ تعيش في الأسر مطلقاً فتبدأ بالصراخ طويلاً وبشراسة لدرجة أنَّ جسر أنفها يَبْيَضّ وشفتيها كذلك وتظهر بحةٌ واضحة في صوتها؛ استسلم باخ وتوقف عن قماطها وصارت في كلّ مرة، بعد أنْ تشبع آنتشي في البداية تتنهّد بارتياح وتضرب بأصابعها المفتوحة على ملعقة القصدير وتنظر إلى باخ بعينين راضيتَيْن وتنفخ فقاعات الحليب من فمها.

في الأشهر الثلاثة الأولى من حياتها، عندما كان العالم خارج المنزل صامتاً صمت الشتاء ولا يكسر السُّكُون في الغرفة إلّا صرير قلم باخ، كانت آنتشي تنام بعمق ولمدة طويلة. ولكن ما إنْ بدأت القطرات تدقّ دقّاً خفيفاً والعصافير ترفرف على أغصان أشجار القيقب، حتى انتعشت وتنشَّطَت وتركت خمول الرُّضَّع. وبدأ صوتها يتردّد في المنزل أكثر وأعلى معلناً عن رغبات آنتشي ومطالباً بتحقيقها الفوري: كانت الطفلة مشاكسة وعنيدة مثل أميرة مدللة في إحدى الحكايات.

أحبَّت آنتشي وضعية المصاريع المفتوحة التي يدخل من خلالها

ضوء الشمس، وراقبت باهتمام انعكاسات الظلال وحركتها على السقف الخشبي؛ كما أنها أحبّت أنْ تُفتَح إحدى النوافذ قليلاً وتتسرب إلى الكوخ أصوات الغابة الكثيرة والرنانة كما هي الحال في الربيع؛ ولا ترغب أن تغفو في أيّ مكان سوى على ذراعيه. وتُخمِد أيّ مقاومة من جانبه بصرخة تهديدٍ وشكوى تبعاً للموقف؛ وعلى كلّ حال كان باخ يستسلم بسهولة إذ لم يستطع تحمل بكاء الأطفال على الإطلاق. وهو نفسه لم يلاحظ كيف بدأت الطفلة التي لم تظهر أسنانها بعد ولم ينمُ شعرٌ لها تقريباً والتي لا يزيد حجمها ووزنها عن حجم أرنب أليف توجّه حياته وتتحكم بها كما فعلت كلارا من قَبْل. لم يلاحظ كيف أطاعها، لقد أطاعها بسهولة وسرعة، بل بفرح: وهكذا شرع أبواب المنزل على مصاريعها وأبقى إحدى النوافذ مفتوحة دائماً في الصباح واعتاد على تنويم الطفلة وهو يضمها إلى صدره ويدور بها في المنزل ويترنم بهدوء بجميع الأشعار والأغاني التي يعرفها.

كلّما كبرت آنتشي ازدادت مطالبها. سرعان ما أصبحت لا تكتفي بألعابها (مشط كلارا ومدقة سحق التوابل وملعقة القصدير) وأرادت أنْ تلعب بيدَي باخ الحيَّتَين والقابلَتَين على الحركة: وبدأت تعبث بأصابعه الخشنة وتجذبها بشدة وتهزّها ثم تختار أحدها وتضعه في فمها وتماطل به طويلاً على لثتها الزلقة.

كما كانت آنتشي تحب أن تنظر إلى باخ. فما إن يدخل إلى المنزل حتى تنقلب الصبية على بطنها وترفع رأسها إلى السقف مستدعيةً إياه بإصرار إلى أنْ يأتي باخ ويأخذها بيديه. ثم تلتقط نظرته وتتجمد بعد أنْ تفتح فمها وترمش بين الحين والحين برموشها المعقوفة بشدة. وخلال ذلك يختلج وجهها الرقيق قليلاً، وكأنه يتعلم استقبال التعبيرات المختلفة: التركيز والبشاشة والحزن والعبث والتأمل. لم يدرك باخ على الفور أنَّ آنتشي تلتقط هذه التعبيرات من وجهه: فجسر أنف باخ المتجعد قليلاً يتسبب في حدوث طية صغيرة بين حاجبيها؛ وفمه المسدود بشدة يجعلها تكتئب،

أما ابتسامته فتجعلها تثني شفتيها هي كذلك بفرح. إنَّ هذه المخلوقة الصغيرة غير الناطقة تقرأ حركات باخ وتعكسها مثل المرآة.

عكست آنتشي جميع الأصوات التي سمعتها كذلك. في البداية، لم يدرك باخ لماذا يصدح صوتها بهذا الشكل المختلف، ومن أين يأتي صراخ الطفلة المدوّي بكلّ هذا التنغيم الرخيم واللامبالي تارة، والتأمّلي والكئيب تارة أخرى، والسريع الانفعال أحياناً، بل وحتى المشاكس. وذات مرة فهم الأمر. كان آنذاك ينظف إطارات الأبواب من الأوساخ التي تراكمت عليها خلال فصل الشتاء: كشط باستخدام إزميل مثَلَّم من طيات الخشب عفن الأوراق وبقايا البذور والفروع وهو يقف من الخارج عند النافذة المفتوحة استمع صدفة إلى حديث آنتشي مع العالم: في مكان ما في الغابة غرَّد عصفور الهزار الأزرق وزقزق مبتهجاً فزقزقت آنتشي ردّاً عليه وزعقت وجَلجلَت؛ ونعقَ في السماء غرنوقٌ طائرٌ فصوَّتت آنتشي وتنهّدت بغيظٍ؛ كرّرت أصوات الطيور مثل الطائر المحاكي الحقيقي، وتعلمت من غرانيق الغابة وقبّراتها الألحان الرقيقة والحنون، ومن طيور الشحرور ألحان التحدي والغضب، ومن طائر القرقف الاضطراب والرجاء، ومن نقار الخشب الأسود والأخضر الإصرار. لقد أخذت هي بنفسها من العالم ما لم يستطع باخ إعطاءها إياه.

لم يستطع أنْ يعلِّمها الكلام. وجعل يفكر ماذا لو جرَّب أنْ يفتح شفتيه مرة أخرى ويحرك لسانه المُخَدَّر؟ وحاول بالفعل: وتَّر فكّيه وجرّ ذقنه. وبعد أن ابتعد إلى عمق البستان حتى لا يخيف آنتشي عرَضاً، تمتم طويلاً على الأشجار محاولاً أنْ يستخرج الأصوات المنسية من حلقه. ولكن شفتيه اللتين انطبقتا ذات مرة بشدة إما طواعية أو برغبة لاواعية منه بقيتا بكماوين، وظلّ لسانه بلا حراك. ولم يستعِد القدرة على الكلام.

ظلَّ باخ كالسابق «يقرأ» لآنتشي كلّ شيء خطَّه قلمه واستمعت آنتشي باهتمام كالسابق، من دون أنْ ترفع عينيها عن وجه باخ. وكان يضغط

رأسها على صدره ويطمر شفتيه في يافوخها الدافئ ويتنهّد بتشنج: أراد أنْ يتأكَّد من أنها تفهمه.

- هل تحبين ذلك؟ سألها في ذهنه.

فابتسمت جواباً له.

* * *

كبرت آنتشي بسرعة، وسرعان ما تخلى باخ لها عن سرير كلارا. وانتقل هو مرة أخرى إلى غرفة الضيوف ونام على الدكة المتهالكة إلى حدّ اللمعان. لم يرغب بأنْ يشغل غرفة أودو غريم فقد اعتاد على الدكة أكثر. ولم يرغب في وضع الطفلة في حجرة تيلدا الضيقة في عالم الصناديق وأغطية الدانتيل والفرش والعجلات الدوارة والمغازل. وقد أسعدته فكرة أنَّ الصبية ستنشأ وتكبر في غرفة كلارا وتنام في الفراش نفسه وعلى الشراشف نفسها، وبعد مدة من الزمن سترتدي ملابس كلارا وتمشط بمشطها. وأزعجه أنَّ آنتشي تُركت بمفردها في غرفة النوم ليلاً، وفي بعض الأحيان لم يستطع باخ سماع تنفسها بسبب الرياح التي تصفر في أنبوب المدخنة. فاضطر إلى الاستيقاظ عدة مرات والتوجه إلى غرفة النوم، متلمِّساً العثور تحت ثنايا غطاء ريش البط على جسدها الصغير. وبعد أن يجدها يتنفس الصعداء ويدسّ أنفه في قفا الرضيعة المتعرِّق قليلاً بسبب النوم، ويستنشق الرائحة المألوفة ويجرّ رجليه ببطء عائداً إلى دكته.

ثمة الكثير من الأشياء بدأت تثير قلق باخ وجعلت الأسئلة المزعجة تطنّ في رأسه كطنين النحل في الخلية. خدود آنتشي التي احْمَرَّت - هل هي علامة على التوعك أَم علامة على الصحة الزائدة؟ وما هذا الرمل الأبيض الذي ينساب على رموشها أثناء النوم؟ (لا يوجد زيت التربنتين أو ملح إنكليزي في المنزل، وبالتالي فعل باخ ما بوسعه: دعك خدَّي الصبية المتوهجين بالثلج وعينيها بلعابه). ألا يُحتمَل أنْ تسقط الصبية من السرير أثناء غيابه من أجل جمع الحطب وصيد الأسماك؟ (أحاط السرير بالوسائد وفرش الأرضية بالملابس لتخفيف الصدمة). هل تخدش

جبهتها عن طريق الخطأ بالألعاب بمدقة البهارات الثقيلة ومقبض مفرمة اللحم القديمة؟ (أراد أن يأخذها، لكن آنتشي لم تسمح بذلك وأصرَّت على إعادة حاجياتها المفضلة). هل يمكنه إطعامها أيّ شيء آخر غير حليب الماعز الذي أحبّته؟ (عندما برزت السنّ الأولى في فم آنتشي، بدأ يعطيها الخبز الممضوغ؛ وعندما ظهرت لديها سنّان، لب التفاح الطازج المسحوق؛ وعندما ظهرت أسنانها الواحدة تلو الأخرى، بسرعة، مثل الفطر بعد أمطار الصيف بدأ يعطيها السمك المسلوق في الماء ثلاث مرّات، والفراولة الطازجة ونبات القراص المسلوق بالماء المغلي).

القلق الكبير كان لا يزال أمام باخ. فبحلول نهاية الصيف صارت ذراعا الطفلة وظهرها أقوى، واستطالت ساقاها، ولم تتجاوز بطنها بالحجم أكبر من البطيخة، ولكنها غارت وتخفَّت تحت أضلاعها فقد تعلمت آنتشي الزحف. وغدت تهرع وهي تصرخ بابتهاج في كلّ مكان: تحت الطاولة حيث انتشرت عادةً الأوراق المتساقطة التي تحتوي مسودات حكايات باخ (تأخذ الورقة وتخشخش بها بصوت عالٍ ثم تمزقها إلى قطع وتمضغها بشهية)؛ وتحت سرير كلارا المنخفض، حيث ارتفعت نتوءات الرمل المخطَّطة بآثار خفيفة من حركة فئران المنزل (يمكن تمرير الرمل إلى ما لانهاية بين أصابعها وجرفه وإعادته مرة أخرى في كومة والضرب عليه براحة يدها بقوة وهي تراقب تطاير بقع الرمل)؛ وتحت سرير تيلدا المرتفع في الفجوات التي تفوح برائحة الغبار بين الصناديق القديمة (كان طعم الغبار ونسيج العنكبوت مقرفاً، ولكنه ناعم وممتع عند اللمس)؛ وخلف الموقد، حيث يوجد السخام الدهني المدهش وشظايا القطران اللزجة وفتات الجير المُشبع (التقطتها آنتشي في البداية بلسانها من الأرض ثم تعلمت كيف تقضمها وتلعقها من جانب الموقد).

لم تكن ثمة طريقة لإبقاء آنتشي في السرير: فبمجرد أنْ عرفت بهجة الحركة لم تعد الصبية تريد الإذعان للرقود بكسلٍ. فما إنْ تستيقظ حتى تطالب بتركها تنزل إلى الأرض وتذهب لاستطلاع فضاءات ما تحت

السرير وما وراء الموقد. وإذا ما استيقظت في الوقت الذي لا يكون فيه باخ في المنزل كانت تتدحرج بكلّ شجاعة من جانب السرير على معاطف جلد الغنم وأغطية الريش المفروشة ثم تزحف للقيام بأعمالها: كانت روح البحث لديها أقوى من الخوف.

وفي بعض الأحيان بدا لباخ أنها لا تعرف الخوف مطلقاً. لم يُخِفها الظلام: لا يثير عود الإشعال عندما ينطفئ فجأة لدى آنتشي أيَّ خوف؛ وفي بعض الأحيان كان باخ يستيقظ في الليل بسبب الخشخشة إذا لم تستطع الطفلة النوم تواصل بحثها في الظلام. ولم تكن تخشى من النار في الفرن: كانت تزحف نحو فوهة الموقد وتنظر إلى داخله بفضول حتى يبدو للناظر وكأنها بعد لحظة سوف تدسّ رأسها هناك (دفع باخ بقوة مصراع الموقد ومنع الوصول إليه بصندوق مليء بالحجارة ليحول دون إمكانية لمس الطفلة للنار). لم تُخِف آنتشي أصوات الأنواء أيضاً: ففي أوان العواصف الرعدية تمدُّ بعنف كفّيها الصغيرتين إلى النافذة، فيأخذها باخ بين ذراعيه ويضع رجليها الضعيفتين على حافة النافذة فتضغط وجهها على الزجاج وتنظر إلى جريان قطرات الماء السريع ولمعان النار السماوية المنعكس من دون أنْ تختلج حتى أثناء دويّ الرعد.

كان باخ يأمل أنَّ بمرور الوقت سوف تفسح هذه الجرأة محلّها للحذر الطبيعي، الذي يمتاز به الإنسان وجميع المخلوقات الأرضية الأخرى على حدّ سواء. وقد مرّ الوقت لكن جسارة آنتشي ما فَتِئَت تزداد. وذات مرة قرّر أنْ يلقنها درساً: أزاح جانباً الصندوق الذي يسد الطريق إلى الفرن وجلس عليه وبدأ ينظر؛ زحفت آنتشي إلى فوهة الموقد وأمسكت مصراع الحديد بيدها، وعلى الفور سحبتها وصرخت خائفة ولوحت بأصابعها المكوية. ولكنها بعد أن انفجرت في البكاء عادت إلى الموقد من جديد: وعيناها اللتان لم تجفّا بعد من الدموع متوهجتان بعنادِ حنقٍ وبتصميمٍ على أنْ تجتاز الباب الخبيث إلى درجة فزِعَ منها باخ وأمسكَ الطفلة ورفعها بيديه وحملها إلى الغرفة. ومنذ ذلك الحين لم يدفع الصندوق بعيداً عن

فوهة الموقد، وأغلق الباب الأمامي للكوخ بإحكام، وشبكه بالمزلاج: إذا ما خرج من المنزل، فإنَّ الطفلة التي لا تعرف الخوف ستختلق حتماً عشرات المشاكل المختلفة.

ولكن، يا ترى، هل يمكن لباب خشبي مغطى بمعطف من جلد الغنمِ متهرئٍ أنْ يمنع أصوات وروائح العالم *الكبير* كلّها؟ فبعد أن استنشقت آنتشي جميع زوايا الغرف وبعد أنْ زحفت في جميع الأماكن تحت السرير طولاً وعرضاً ولحست مسامير الصناديق عدة مرات حوّلت آنتشي انتباهها صوب الباب. في البداية رقدت على العتبة لمدة طويلة وهي تدسّ أنفها في شقّ ضيق قرب الأرضية وتستنشق الروائح المتسربة من الخارج رائحة العشب والتبن والتربة الرطبة والخشب المبلل (وكاد باخ أنْ يدوس على الطفلة عدة مرات عند دخوله إلى المنزل). وفي أوائل الخريف طالبته بالسماح لها بالخروج.

اعتاد باخ حتى قبل ذلك أنْ يحملها على ذراعيه ويخرج بها إلى الفناء وإلى البستان وأحياناً يأخذها معه في نزهة في الغابة. ولكن آنتشي التي عرفت فرحة الحرية لم تعد تريد أنْ تكون برفقة أحد بعد الآن أرادت أنْ تدرس العالم *الكبير* بنفسها وهي تزحف على أطرافها الأربعة وأنْ تتحسس هذا العالم براحتيها وتذوقه بلسانها. فما إنْ يُفتح الباب حتى تزحف الطفلة كالأفعى من الشرفة إلى العشب: وتهرع تارةً إلى الفناء الخلفي وتارة إلى الغابة أو إلى البستان. فيسرع باخ على أثرها.

في الفناء الخلفي كان يكمن لها الفأس ذو الشفرة اللامعة المشحوذة بحجر مسطح؛ والمنجل الجارح الذي يقطع فيه باخ العشب في الفناء؛ والسكين الحديدية الثقيلة لتقطيع الأعشاب؛ وشظايا الحصى الحادة المجموعة من أجل دعم الأساس. وبانتظارها في الغابة النحل الطنّان والدبابير التي هيجتها حرارة شهر سبتمبر (أيلول)؛ والأفاعي السمينة الفحمية اللون؛ والجذامير المنخورة المليئة بالنمل اللسّاع الكبير الذي حجم الواحدة منه كنصف الأصبع؛ والوديان الصغيرة الضيقة ذات

المنحدرات الحادة والجداول ذات الماء الجليدي إلى حدّ التشنج في الفكين. وفي البستان كان هناك التفاح الثقيل المحتقن باللون البنفسجي الذي يتساقط بين الحين والآخر من الفرع والذي يمكن أنْ يرضّ أيّ شخص يمرّ من جانبه...

راقب باخ آنتشي بلا هوادة، ملاحِظاً كلّ خطر جديد لكي يزيله من طريقها. وبعد أنْ يتعب كان يرفع الصبية الملطخة بالتربة ويحملها إلى المنزل، فتصرخ بغضب وتضرب برجليها وتعضّه رافضةً قطع نزهتها. وما إنْ تدخل إلى المنزل حتى تجأر لمدة طويلة ثم تجلس في حضن باخ وتتنهد تنهداً يقطع نياط القلب وتلفّ ذراعيها حوله وتنام بعد أنْ تدفن أنفها في عنق باخ المجعد أو في لحيته المتشابكة. ولم تضع حدّاً لنزهاتها الخطيرة والمزعجة إلّا أمطار أكتوبر (تشرين الأول) والبرد المصاحب لها.

من شدة الغضب من جرَّاء الباب المغلق باستمرار نهضت آنتشي على رجليها: فقد كانت ذات مرة تطرق بيدها على العتبة لمدة طويلة ثم زعقت كأنما تطلب منه السماح لها بالخروج؛ وبعد ذلك غضبت عليه، وأمسكت بعضادة الباب ونهضت دفعة واحدة على رجليها الملتويتين والمرتجفتين من التوتر. وقفت وهي تتمايل وألقت نظرة على مساحة المطبخ من الارتفاع الجديد بالنسبة لها؛ ثم تأوَّهَت بحماس وخطت بضع خطوات غير صحيحة نحو باخ الذي كان مشغولاً عند الفرن ويخلط الحساء. فألقى الرجل الملعقة في القدر وصرخ واندفع نحوها، وبالكاد استطاع أنْ يمسكها. ومنذ ذلك الحين بدأت تحاول أنْ تمشي، مثيرةً في كلّ مرة فزعَ باخ ومجبِرَةً إياه أنْ يهرع نحوها لكي يحميها من السقوط المحتمل. وقد سئم من هذه الاندفاعات كثيراً، إلى حدّ أوجَعَه فيه عموده الفقري، وسقط عدة مرات على ركبتيه وفي إحدى المرات اِلتَوَت قدمه وكادت أنْ تنخلع لكنَّ الطفلة ظلّت لا ترغب في الجلوس هادئةً حتى لمدة ساعة واحدة.

عندما جثم الثلج غير الذائب على السهوب والغابات وتغطى نهر

الفولغا ببقع الجليد الأولى، استطاعت آنتشي أن تمشي. وبحلول عيد الميلاد صارت تركض بسرعة وتخشخش على الأرضية الترابية بالجزمة الصغيرة التي خيطت لها. لكن باخ كان يركض في الكوخ خلفها محدودباً ومتمايلاً على رجليه المعقوفتين وينشر ذراعيه مثلما ينشر طائر سمّان مرعوب أجنحته: إذ تحول القلق بشأن آنتشي إلى خوفٍ حقيقي. لقد كان خائفاً ومرعوباً بقَدَر ما كانت الطفلة جسورة: فتارة يتراءى له أنَّ آنتشي سوف تكبو بقدمها على العتبة ويتحطم رأسها بعضادة الباب الخشبية؛ وتارة أنها سوف تسقط وهي تركض وترضّ وجهها؛ وتارة يتخايل له أنها سترتطم بصدغها حتى الموت على حافة طاولة البلوط. كان يتراءى له ذلك كأنه حقيقة إلى درجة أنه في الليل يقفز من الدكة، ويشعل الشمعة ويتفحَّص عضادة الباب أو الطاولة بحثاً عن آثار الدم. ولم يجد ثمة شيئاً منه.

وعندما كان باخ يذهب إلى صيد السمك أو إلى هوفمان في غنادينتال ويترك الصبية في الكوخ بمفردها، لم يتمكن من التخلص من الصور التي تتراءى له في خياله: آنتشي الفضولية تتشبَّث بيديها في الصندوق المليء بالحجارة الموضوع عند فوهة الموقد وتنقله جانباً وتمسك الغطاء الساخن فتصرخ من الألم، لكنها تسحب يديها، ويندلع لسان أصفر من اللهب من الفوهة المفتوحة... وقد استدار وهو في منتصف نهر الفولغا بضع مرات وعاد إلى المنزل بعد أنْ أرهقته هذه الرؤى: وأسرع إلى الكوخ وهو ينضخ عَرَقاً ويختنق من المشي السريع، فيجد الصندوق في مكانه، وآنتشي نائمة بسلام.

لقد أتعبه خوفه. كان خوفه مثل المسمار الذي يشكّه في أمعائه، ومثل إبرة من الجليد عالقة في معدته. خشي أن تطعن آنتشي نفسها بالمغزل، وأنْ تخز عينها بقلم الرصاص بعد أنْ يسقط عن الطاولة. وأنْ تطبِق الباب على إصبعها. وأنْ تختنق وتموت. وأنْ تمرض وتسخن من الحمى... صور... كل واحدة منها أكثر فظاعة من الأخرى تومض في رأس باخ،

وتخنقه. وأكثر ما كان يخشاه، أنْ يأتي ذات صباح إلى السرير ويجده فارغاً: أنْ تختفي آنتشي.

ساعدته اللمسات على التأقلم وتجاوز المخاوف. فما إنْ يلامس باخ يافوخ آنتشي المزغب بالمشط أو يربّت على أذنها الوردية حتى يتلاشى الخوف منه، ويزحف مبتعداً إلى مكان ما في عمق عموده الفقري؛ وكانت الطريقة الأكثر ضماناً أنْ يأخذ الصبية بين ذراعيه. ولهذا كان باخ كلّ صباح يمشط شعر آنتشي لمدة طويلة، وكلّ مساء يهزّها مثل المولود الجديد ويتمتم لها تهويدات النوم. كبرت الصبية وأصبح يصعب حملها، لكن من غير المرجح أنْ يكون باخ قد لاحظ ذلك: عندما كانت آنتشي تستيقظ يحملها ويتمشى في المنزل لمدة طويلة. ثم يضع آنتشي بعناية في السرير ويلفّها بغطاء الريش من جميع الجهات، وكأنّ حافّات غطاء الريش الناعمة يمكن أن تحل محل حضنه. ويجلس على حافة السرير ويحدق لمدة طويلة إلى الطفلة النائمة.

وخلال هذه الساعات من الليل، كانت تستيقظ فيه الأوهام الغريبة التي لم يفهمها ولم يستطع أنْ يجد تفسيراً لها: تارة تنتابه الرغبة أن يضمّ الصبية إليه بقوة إلى درجة ينفجر فيها الجلد الذي يفصل بين أعضائهما، وينمو جسداهما معاً في بدن واحد، كما تنصهر في النار قطع المعدن المحمّى؛ وتارة يتمنى أنْ يتحول إلى شجرة تفاح منتشرة الفروع على نطاق واسع في اتجاهات مختلفة ومليئة بالثمار لكي تقطف آنتشي تلك الثمار واحدة تلو الأخرى وتأكل منها؛ وتارة يريد أنْ يلعقها كلّها بطريقة وحشية من أظافر رجليها الصغيرة إلى مؤخرة رأسها. وفي بعض الأحيان يتخيل باخ نفسه ذئباً شائباً وطاعناً في السنّ؛ يأخذ آنتشي النائمة بأسنانه ويخرج بها من الكوخ؛ ويحملها عبر المزرعة وعبر الغابة وعلى طول نهر الفولغا وهو يخطو بمخالبه العريضة على الأوراق والحجارة والرمل. إلى أين يحملها ويذهب بها؟ لم يستطع باخ الإجابة.

عصفت الرياح على الأسطح في فصل الشتاء ثقيلةً وممزوجة بكثافة مع

الثلج وحبات الجليد، وفي الربيع هبَّت مرنةً ومشبَّعةً بالرطوبة وشحنات الكهرباء السماوية، وفي الصيف نسَّمَت خاملةً وجافةً وممزوجة بالغبار وببذور الغلال البرية الخفيفة. كان باخ يستمع إليها ويتساءل في نفسه كلّ ليلة: هل هو المذنب في بقاء آنتشي إلى الآن لا تستطيع الكلام؟ فقد نشأت الصبية إلى جانب باخ الأبكم غير قادرة على الكلام. مرّت عليها سنة، ثم سنتين؛ لقد نطقت بالعديد من الأصوات فقد صفَّرَت وأزَّت وغمغمت وعوت وقعقعت بلسانها وقرقعت وصفَعَت بشفتيها مُحدِثةً دويّاً وشخرت وأنَّت وبطبطت، كرّرت باجتهاد كلّ ما تعلَّمته من الريح والغابة والنهر والطيور والحشرات؛ وقلَّدَت ببراعة تغريد البلابل الرنان وصرير السنجاب وحفيف موجات الفولغا وقرقعة القشرة الجليدية على الركَام الثلجي في شهر فبراير (شباط). لكنها لم تتكلم.

ومع ذلك، لم يكونا بحاجة إلى الكلام: فهي وباخ يفهمان بعضهما بعضاً من دون كلمات. وطوّرا خلال العامين لغتهما الخاصة الأكثر لطفاً من كلام البشر السمج. لم تتكون هذه اللغة من الكلمات، بل من النظرات واللمسات ومن أبسط حركات العضلات على الوجه ومن ترديد الأنفاس ومن حركات الجسد.

كانا يسمعان أنفاس بعضهما بعضاً حتى لو مكثا في غرف مختلفة؛ فما إنْ يتنهد أحدهما أعمق قليلاً أو أبطأ قليلاً من المعتاد حتى يوجّه الثاني عينيه إليه على الفور: هل حدث ثمة شيء؟ فقد قرآ مظاهر المشاعر في حركات بعضهما بعضاً: الخطوة الأكثر تأملاً نوعاً ما واللفتة الأكثر جزعاً إلى حدّ ما، والرأس المطرِق أكثر قليلاً من المعتاد، واستدارة الكتف المختلفة أو انحناءة العمود الفقري كلّ ذلك له معناه، وكلّ شيء كان يحكي عن شيء ما. عرف كلّ واحد منهما التعبير الموجود على وجه الآخر من دون أنْ ينظر إليه: لم يحتاجا حتى إلى النظر بعضهما إلى بعض، ناهيك عن الحديث.

ها هي آنتشي تمشي إلى جانب باخ في الغابة من أجل أخذ عصارة

شجر البتولا، وتنظر حوله مبتهجةً (*إنه الربيع! الشمس! كم هذا حسن!*) فيعبس هو قليلاً ويسعل بشدة ويعتصر فمه (*هذه المرة لن تتمكني من الركض بعيداً!*)... وها هو باخ، يجلس بجوار فانوس الشمعة، يخيط كنزة صغيرة من دون أكمام من قماش تنورة صوفية قديمة؛ يحرِّك حاجبه حركة بالكاد يمكن ملاحظتها (*دعينا نجرب هذا الشيء الجديد!*) فتترك آنتشي ألعابها على الفور، وتقترب منه... وها هي آنتشي تقف في الماء إلى حدّ خصرها، تساعد باخ في شطف الملابس في نهر الفولغا؛ تنظر إلى الضفة اليسرى التي لا تكاد تُرى في ضباب شهر يوليو (تموز)، وتتوقَّد في عينيها فكرة ماجنة (*ماذا لو نزلتُ على الأمواج وسبحتُ إلى هناك؟*)؛ وحاولت أنْ تنتهز أيَّ غفلة من باخ وتتحاشى نظراته لكنه فهم كلّ شيء وضرب بكلّ قوته بالمنشفة المبلّلة على الموجة القادمة (*لا تحاولي حتى التفكير بهذا!*)... كانت حياتهما كلّها عبارة عن حديث مستمرّ بعضهما مع بعض، حديث مهم وغير منقطع بلغة التنهدات والحركات. كان كلّ منهما مثل أذن كبيرة مستعدة للاستماع إلى الآخر وفهمه.

لأول مرة استشعر باخ شخصاً آخر بهذه الحساسية. أحسَّ به كنفسه، بل أفضل من نفسه. وازداد خوفه أكثر لأنه أدركَ أنه لم يعد شابّاً وأن قوته ستتركه يوماً ما. فماذا سيحدث لآنتشي آنذاك؟ ألا تلومه على تركه إياها محرومة من القدرة على الكلام ووحيدة وعاجزة في هذا العالم الكبير؟ ومع ذلك، لم يستطع مساعدتها على الكلام. لم يستطع بأيّ طريقة. ولم يكن له ذنب في ذلك. لم يكن. ولم يكن. ولم يكن...

***

كلّ يوم من أيام باخ يتكوَّن من جزأين: ساعات الضوء المخصَّصة لآنتشي، وساعات الظلام المخصَّصة للحكايات. كان منذ الصباح يعرف عمَّ سيكتب، بل حتى منذ الليلة السابقة، عندما دقَّت في ذاكرته القصة اللاحقة طالبةً منه أنْ يكتبها. كان يجلس لمدة طويلة يتذكر القصة الشعبية وفق عرض كلارا الساذج البسيط والموسَّع مثل وعاء من الطين. ثم يأخذ

قلم الرصاص ويخلق الحكاية من جديد يستنسخ الصور والشخصيات ويُشبِعها بالروائح والأصوات ويملؤها بالمشاعر والعواطف: حتى يتحول الوعاء الطيني إلى كأس فضي أو إبريق ذهبي أو زهرية مطلية.

كانت لوحة باخ بسيطة: من ناحيةٍ، تسلسلُ حوادث فولكلوري بسيط، ومن ناحية أخرى أناس مألوفون. فقد تحول فيها أودو غريم إلى عملاق جشع أو ملك شره أو دوق متبجح؛ والعجوز تيلدا ساحرة شريرة أو غزّالة بذيئة اللسان؛ وكلارا الشابة تارة أميرة جميلة، وتارة ربيبة فاضلة؛ وبيول صاحب الشوارب إسكافي وصانع جزمات وحارس في الغابة وحوذي، وبالتأكيد شرير وغبي؛ وغاوس المكّار راعٍ ماكر. وإمّي البطيخة زوجة مشاكسة. وخلق من هوفمان الحُدب والأقـزام والممسوسين وكذلك الشياطين والأرواح الجبلية. وكان اللصوص والأنذال والخونة الغادرون دائماً ثلاثة أنواع: إما أوغاد منحلّون ذوو شعر أحمر طويل ونظرات خارقة ومفترسة، أو مراهقون ذوو رقاب بحرقدات كبيرة ووجوه نغول، أو رجال أفظاظ بعظام خدود كالميكية ولحى سوداء عريضة. وماذا عن باخ؟ خادم أمين ومخلص يخاطر بحياته من أجل سيده أو حبيبته هذا ما كان عليه باخ في قصصه.

عاش هذه القصص، كحيَوات، واحدةً تلو الأخرى، متناسياً مشاغله اليومية. قلبه، الذي سئم من المخاوف المتواصلة على الصبية، كفَّ عن الخوف في الليل: لم يكن يخيفه الملوك ولا الشياطين ولا الأشرار. ولو لا هذه الليالي، لبلي قلبه من الخوف كما تبلى من طول الاستخدام حتى أقوى جزمة. النهار أعطى باخ الحياة الحقيقية، ومعها الألم والخوف؛ أما الليل فأعطاه القوة التي مكَّنته من أنْ يعيش النهار ويتجاوزه.

كان ينهض من خلف الطاولة قُبَيل الصباح، مُنهَكاً من ساعات السُّهاد الطويلة ومن المغامرات القاسية؛ في بعض الأحيان لم يستطع النهوض على الإطلاق فقد آلمه جسده كثيراً من الجروح التي تلقاها في المعركة أو من الرحلات المرهِقة عبر العوالم الفوقية والتحتية. وأضناه صدره الذي لا يزال مقيَّداً بأطواق الحديد، التي قيَّد نفسه بها من الشوق إلى سيده

المختفي؛ وقدماه المحشورتان بالدروع الفولاذية لا تكادان تتحركان؛ وما تزال دافئةً قُبلةُ الامتنان التي طبعتها على جبينه الحسناء التي أنقذَها... فيضع باخ جانباً قلم الرصاص الذي تثلَّم أثناء الليل ويُطفئ الشمعة ويجرّ قدميه في عتمة ما قبل الفجر إلى دلو الماء. ويغترف منه قدحاً بعد قدح، ويسكب في جوفه ماء الفولغا البارد، غير قادر على أنْ يرتوي على الإطلاق، وكأنه يعاني من مخلفات سُكْرٍ ثقيلة. ثم يستلقي على الدكة ويغرق في نوم عميق لبضع ساعات قبل أنْ تستيقظ آنتشي وتأتي لتلتصق به وتدس نفسها تحت جنبه وتبدأ تبلل بأسنانها طرف لحيته أو إصبعه.

كان وجهها أول ما يراه باخ في الصباح عندما يفتح عينيه. لقد كبر هذا الوجه تدريجيّاً وأصبح أكثر ذكاءً، وامتلأت العينان فيه بالمعنى وتغيرت ملامحه.

آنتشي الوليدة كانت تشبه كلارا كما تشبه التفاحة الصغيرة الثمرة الناضجة. وعندما بلغت الطفلة سنة من العمر صارت تشبهها أقل من قَبل وما إنْ بلغت عامين حتى لم تعد تشبهها على الإطلاق. وبفزع بحث باخ في ملامح الطفلة المتغيرة انعكاساً لتلك الوجوه التي يودّ نسيانها، وجوه الأوغاد الذين داهموا المزرعة في الصباح الفظيع من شهر نيسان (أبريل)؛ بحث ولكنه لم يعثر. ولم تكن آنتشي تشبه جدها الجبار أودو غريم أيضاً. ربما، فكّر باخ في نفسه، استيقظت في الطفلة ملامح والدة كلارا؟

وذات مرة، بعد أنْ خطرت في ذهنه فكرة غريبة، استيقظ قبل انبلاج الفجر. جلس على السرير، عابثاً بلحيته الخفيفة وممتعضاً من سخافة افتراضاته. ثم نهض، وأخذ المقص وأمسك تلك اللحية من الجذر، وقصّها مثلما يقص حزمة من العشب بالمنجل. وخرج إلى الفناء وبدأ يشحذ سكين المطبخ لمدة طويلة في عتمة السَّحَر، ثم كشط الشعر المتبقي من وجهه بالشفرة. وعندما بزغت الشمس بين قمم الأشجار، ذهب إلى برميل مليء بمياه الأمطار ونظر إلى داخله.

نظر إلى باخ من سطح الماء المظلم وجهٌ صارم وغير مألوف له تقريباً:

فخلال الاثني عشر عاماً التي قضاها في المزرعة أصبحت ملامحه أكثر نحافة وقساوة، وعيناه أغمق وأكثر صرامة، وثمة تجاعيد كبيرة على طول خديه وعبر جبهته. ما كان باخ سيتعرّف على نفسه بسهولة في هذه الصورة الغريبة. لكنّ ثمة شيئاً واحداً واضحاً في هذا: في هذه الصورة شبهٌ من آنتشي الصغيرة.

التلميذ

مكتبة
t.me/soramnqraa

-14-

لم يُعرَف عن هوفمان على وجه اليقين سوى أنه من ألمان الرايخ. وادعى أنه ولدَ في مناجم الفحم في راينبابين، في حقول مناجم حوض الرور الدهنية. وادعى أيضاً أنه يتذكر لحظة ولادته. ويزعم أنَّ والدته، التي عملت على فرز الفحم وأخفت حملها حتى آخر يوم، أُرسلت في ذلك اليوم لتنظيف الركام عند مدخل النفق. كانت تنكش بعنفٍ بعمود حديدي صخرةً جبلية ثقيلة، وهي تقف على حائل ترابي شديد الانحدار، لدرجة أنَّ هوفمان الصغير في بطنها الملفوفة بإحكام لم يتحمَّل فقفز منه وسقط على وجهه إلى الحجارة. وفي تلك اللحظة انهال عليه من فوق الحصى الحادّ الذي قلبته أمه، كلّ حصاة أكبر منه نفسه. وادّعى هوفمان أنه يتذكر بوضوح كيف انطلق جسده من أحضان رحم أمه واستدار بسهولة فومضت أمام عينيه السماء الزرقاء وعلى الفور انطفأ الضوء واعتُصِرَ هو من جديد وتجعَّدَ من جميع الجوانب، ولم يعد خفيفاً ومرناً، بل ثقيلاً وصلباً. وعندما أزاحت الأم الركام بيديها سحبت ابنها عن طريق الحبل السري إلى الهواء، كان أسود كالفحم، منفتل العنق ومائل الجانب.

إنَّ مشهد ولادته هو الشيء الوحيد الذي تحدَّث به هوفمان عن نفسه. وقد أجاب عن الأسئلة: ماذا كان وأين عاش؟ وما عمله؟ ومَن أَحبَّ؟ وهل كان متزوجاً؟ وهل لديه أطفال؟ وماذا جرى عموماً في حياته للمدة بين النَّفَس الأول والظهور في غنادينتال على نهر الفولغا؟ بجواب واحد

على الدوام: لم يحدث أيّ شيء. وابتسم بصدق لدرجة تجعل السامع يصدِّق كلامه.

بالطبع، كان شيء ما قد حدث هناك، في هذه الأعوام الغامضة بين ولادته وظهوره في غنادينتال. كانت آنذاك رائحة الفحم الثقيلة والخانقة. وكانت هناك خوذة الصفيح، الكبيرة، التي لا تناسبه في الحجم، التي تنزلق دائماً من رأسه إلى عينيه. وقارورة تحتوي على زيت مشدودة على حزامه، وفي أسنانه غليون التبغ من خشب الجوز الذي وجده هناك في المنجم مع مَبسَم السجائر البالي، الذي دائماً ما أثار صيحات مزاح: «يا صغيري، هل لديك في فمك غليون أَم حلمة؟» وكانت هناك جدران طرف المنجم غير المستوية التي نطَّت عليها دوائر برتقالية اللون ناتجة عن انعكاسات المصابيح الزيتية على الخوذات. والحصان ذو العينين الوديعتين الداكن اللون إما من العمل تحت الأرض، أو من الطبيعة؛ كان الحصان المسكين يجرّ العربات على القضبان وينفخ من منخريه بامتنان في وجه كلّ من يربِّت على جنبيه البارزة أضلاعهما. وقبر أمه الذي كان يمكن أنْ يذهب إليه في أيام الأحد ويجلس القرفصاء قربه لمدة طويلة وهو يعبث بإصبعه في التربة الطينية. وكان ثمة بعض المنشورات المطبوعة على ورق رديء التي كانت تُدَسُّ على عجلٍ في يدي كلِّ مَن يخرج من أرض المنجم المسيَّجة بسور عالٍ والتي علَّمه بها أحد كبار السن القراءة؛ وقد شرحَت له هذه الأوراق كيف يعيش لاحقاً.

وكان ثمة طريق خرج إليه قبل الفجر ومشى فيه طويلاً: في البداية من خلال ضباب الصباح الكثيف ثم في ضوء الشمس وبعد ذلك في غسق بداية الليل (ألقى غليونه في ذلك الضباب واحتفظ بالمنشورات وحمَلها معه في جيبة الصدر). وكان ثمة شارع في المدينة الزلق دائماً من الرذاذ؛ تلاشى أحد طرفيه في صفوف السوق التي تفوح فيها رائحة السمك، وفي الطرف الآخر بجدران الجامعة القديمة. وكان ثمة ركن في سقيفة مهمَلَة بين آلاف السلالم والمزاريب وأعشاش الحمام والشراشف التي نُشِرَت

لتجف تحت النوافذ، بين رائحة الدخان المنبعث من المداخن وهدير القطارات التي تندفع باستمرار خلف الجدار على بعد ذراع منه. وكانت ثمة اجتماعات ليلية ونقاشات إلى حدّ الصراخ وصراخ إلى حدّ الغناء. وكتبٌ، عشرات ومئات من الكتب وقاعات واسعة وممرات لا نهاية لها في مكتبة عامة. وكلمتان جذّابتان كالومضة الساخنة وسطَ البرد في غرفة غير مدفَّأة هما: روسيا السوفيتية...

هذا كلّه كان، بالطبع. ولكن هذه الذكريات كانت مغطاة بطبقة سميكة من غبار الفحم وأوساخ الشوارع وذراق الحَمام التي بدت مدفونة، أو حتى لم تكن موجودة على الإطلاق. لو أنَّ الأمر بإرادته، لَقاس هوفمان حياته من اللحظة التي رأى فيها الحقول التي لا نهاية لها من نافذة القطار عند مدخل مينسك، بِحاراً ذات ألوان أخضر وقرمزي وأزرق فارتعد قلبه من هذه الصورة، ومن الوعد الذي قرأه فيها.

* * *

وبعد خمسة أسابيع، نزل من الزورق البخاري إلى الألواح على رصيف غنادينتال المتصدعة.

لقد عرفَ عن غنادينتال قبل بضع ساعات فحسب، عندما قرأ الاسم في التفويض. ولو أنَّ يد قيادة الحزب الجبّارة في بوكروفسك كتبت في التفويض مركزاً سكنيّاً آخر لكان مصباح الكيروسين الذي لا ينطفئ يضيء الآن الليالي في مجلس قرية أورباخ أو شتراوب أو أونتردورف أو كوكوس. ولكن الحظ حالف غنادينتال.

عند وصوله إلى الجبهة الموكلة إليه، ركض هوفمان أولاً لاستطلاع تمركز القوات في المستوطنة وضواحيها. المرافق له بيتر ديتريخ (المختار سابقاً، والذي أصبح الآن رئيس مجلس القرية المنتخَب بالأغلبية)، راقب بنفور نابع من الغيرة كيف يصفق زعيم الحزب الجديد جانبي طواحين الهواء المتوقفة بعناية في تل الطاحونة، وينكش بطريقة عملية بمقدمة حذائه جذوع جسر البطاطا البالية، ويهزّ جذوع أشجار الدردار المائلة عند

وادي الثيران الثلاثة ويغمس إصبعه في مياه جدول الجنود غير المتجمِّد. كان الأحدب كلّما يرى شيئاً في الطريق يلمسه ويتحسّس منه ويحركه ويمسكه ويخدشه بأظافره وكأنه يوسِّم المنطقة؛ وفي الوقت نفسه، كلّ علامة جديدة على الخراب تثير فيه ابتسامة بهجة: فالأنقاض بدلاً من المنازل شيء رائع! المطاحن لا تزال متوقفة للسنة الثالثة، عظيم! المرسى مهدَّم لا يوجد أفضل من ذلك! ربما، فضَّلَ هوفمان أنْ يجد غناديتتال مدمَّرةً بالكامل: أنْ تكون المنازل السكنية بدون زجاج في النوافذ وبفتحات في الجدران، وأنْ يكون آخر زوج من الإبل الهزيلة في القرية كلّها ليسا هرِمَين فحسب، بل وعمياوَين أيضاً، وأن لا تكون رقبة الرئيس ديتريخ سمينة بهذا الشكل الذي عليه الآن. كلما بدت حياة المستوطنة أكثر فقراً وشحوباً واضطراباً قبل وصول هوفمان بدا له الشروع بالعمل أكثر بهجة.

أراد هوفمان تغيير العالم. كلّا، ليس العالم كلّه الضخم والشاسع الذي امتد على جانبي نهر الفولغا، الذي يحتوي على مناجم الفحم التي لا نهاية لها والتي تلتهم الناس، والمدن الرطبة ذات الشوارع المليئة بقشور السمك ذات الرائحة الكريهة، بل هذا العالم الصغير فحسب، والضئيل المحصور من أحد جوانبه بالنهر ومن الجانب الآخر بأطراف حقول الكولخوز (المزرعة التعاونية) المبتورة. العالم الصغير الذي يتألف من عدة هكتارات من الأرض ودزينتين من المستوطنين المذعورين وخمسين من الماعز الهزيلة واثنين من الجِمال الهَرِمَة. أراد هوفمان تغيير غنادينتال.

نظر إلى الشوارع الموحلة والمنازل المتداعية ورأى العشرات من المباني المتينة التي سترتفع هنا قريباً؛ وشاهد في تلك المباني المئات من الناس الأصحّاء والحيويين؛ وفي الأفنية خرافاً ذات أَليات كبيرة تدقّ على الأرض وأبقاراً سِماناً وإبلاً ذات رقاب طويلة كثَّة الوبر. وبدلاً من الحقول التي تنمو عليها الأعشاب الضارة رأى بِحاراً من القمح الذهبي التي تتلألأ

في الشمس، وبساتين تفاح لا نهاية لها. ورأى أجنحة الطواحين تدور بسرعة وقطعان الماشية تجري على طول السهوب والأسماك الفضية تخفق في الشِّباك الثقيلة...

بناية المدرسة يجب أنْ تُفتَح! ويجب إخراج صورة الإمبراطور مصاص الدماء من خلف الموقد! وحرقها أمام الناس في مكان عام! (ملاحظة 1: في تجمع جماهيري! ملاحظة 2: يجب دعوة مصور مراسل من مدينة بوكروفسك!) يجب وضع صورة الزعيم في الإطار المتبقي (وقبل ذلك يُسلَّم الإطار إلى الرسام فروم ليصبغه بلون أكثر إشراقاً). لا بدّ من تأمين معلمين للمدرسة قبل حلول الخريف! شائعة: هل صحيح أنَّ القس هاندل لديه مدرسة سرية في منزله؟ إذا تأكد ذلك، يطرَد النذل هاندل مع عائلته من القرية! ومسكن القس يُحوَّل إلى بيت للسكن المؤقت لأعضاء الجمعية التعاونية...

قضى هوفمان الليالي بأكملها يخربش بالقلم على الورق مضيِّقاً عينيه على ضوء مصباح الكيروسين الهزيل وفاغراً فاه من الحماسة والجهد. لم يتحايَل على الإطلاق عندما اشتكى لباخ من عدم قدرته على الكتابة. فالطبيعة، بعد أنْ لعبت معه لعبتها القاسية ووهبته وجه فتاة رقيقاً وجسداً قبيحاً، لم ترغب في التوقف عند هذا الحدّ، بل لعبت لعبتها الثانية: يد هوفمان لم تكن تستجيب للسانه الثرثار. وكانت فكرته تفقد في المسافة القصيرة من الرأس إلى قلم الرصاص الذي يمسك به في أصابعه كلّ ما بها من زهوٍ وروعة وتتجعّد وتتَغَضَّن وتتفتت وتسقط على الورقة على شكل حفنة من القُراضات اللفظية الهزيلة. الجمل الصغيرة الواهنة تنهال على الورقة: تتزاحم الأفعال، وتتململ النعوت في غير مكانها، وتتضارب علامات التعجب بعضها مع بعض ولا يخرج نصّ مترابط، بل محضر اجتماع لمجموعة من عسيري النطق كتبه سكرتير مربوط اللسان عاجز عن التعبير الصحيح. لقد كانت قراءة هذا النص المتنافر الألفاظ بشكل صارخ تُشعِر بالخجل، لكن هوفمان لم يعرف أيّ طريقة أخرى

لتسجيل أفكاره السريعة والاحتفاظ بها في ذاكرته. لذلك، كتب: كان يتعرق طويلاً ويوتر أصابعه إلى حدّ التقلصات حتى يتمكن من استخراج الكلمات من الذاكرة ويخربش سطراً بعد سطر، وورقة تلو الأخرى لقد أنشأ صورة لحياة غنادينتال المستقبلية، لكي يندفع مع بزوغ أشعة الشمس الأولى لتحقيق الخطة التي فكر فيها. كتب وكأنه يجرّ الحجارة. عرف: أنّ كلّ جملة لا بدّ أنْ تتجسد بالحياة وكلّ حجر سيأخذ مكانه في البناء. لم يكتب هوفمان بل كان يبني.

... إصلاح منزل آل فينديرس المهجور، بالعمل التطوّعي في يوم السبت! وجعله روضة لأطفال المزرعة التعاونية! (ملاحظة 1: أنْ نلحق قبل موسم البذار! ملاحظة 2: إحصاء جميع الأطفال في سنّ ما قبل المدرسة في غنادينتال - تولى المهمة إلى الطلائع!) الطلب من النجار شرودير صنع أسِرّة الأطفال! وأمر الرسام فروم بعمل دعاية سياسية في متناول العقول غير الناضجة (أوه، هل يمكنه القيام بذلك؟ الوغد شكله غير مريح)...

شعر هوفمان في قلبه المتحمس بما يكفي من القوة ليقبض على غنادينتال القديمة ويستند بجسده كلّه على أغلال الماضي حتى تتوتر وتندفع نحو الحياة الجديدة.

وفي هذه الأثناء، كانت حياة المستوطَنة القديمة مليئة بتصرفات وحشية من القرون الوسطى حيَّرت هوفمان في بداية الأمر: فهو لم يَرَ مثل هذا الشيء لا في قرية التعدين البائسة ولا في الأحياء الفقيرة القذرة في المدينة. فعلى سبيل المثال، في منزل عائلة بريخت الكثيرة الأولاد كانت تُزاح طاولة الطعام من وقت إلى آخر خلف الموقد إلى الزاوية ويجلس جميع أفراد الأسرة على الأرض على شكل دائرة؛ ويوضَع في الوسط القدر المليء بكُرَيات كنوديل[1] السهوب الخاصة فيجلسون القرفصاء ويحتسون ذلك الحساء حتماً بملاعق خشبية وحتماً بالتناوب. روعِيَ

1- كنوديل أو كليوسي - طعام أوروبي يشبه الكبّة يتكون من الدقيق والبيض. يضاف عادة إلى الحساء أو يقدم معه. (المترجم).

تقليد التهام كنوديل السهوب جلوساً على الأرض، احتراماً للسهوب وللمحاصيل التي تهبها، في كلّ عائلة من عائلات غناديتتال تقريباً، لكن آل بريخت كانوا يعدّون هذا الطبق أكثر من الآخرين: مرة واحدة في الأسبوع، في يوم الأربعاء على التحديد. وفي منزل آخر (لاحظ هوفمان شخصيّاً هذه الصورة) يوضع الأطفال الصغار عراة بانتظام في أكياس الدقيق ثم يُنَظَّف غبار الدقيق الملتصق بهم بالكاشطات التي تُستَعمَل للحيوانات وذلك احتياطاً من الإصابة بالحمى القرمزية. أما المرأة العابسة العريضة العِظام، الأرملة كوخ، فكانت تكسب رزقها في المستوطَنَة بالتنبؤات (وفقاً لمواقع النجوم والمنامات وشكل الغيوم وقشور البصل والبيض) بالإضافة إلى الرُّقية (ضد الثآليل وتساقط الشعر وانتفاخ البطن والعقم). وثمة رجل ضئيل يدعى غاوس، كان إلى جانب عمله يتاجر بالصراصير بوصفها أفضل علاج للاستسقاء (لم يعثر على صراصيره في غناديتتال، فوجبَ عليه أنْ يجلبها من القرى المجاورة التي يسكنها الروس، وكانت صراصير تامبوف وكالوغا أكثرها قيمة).

وحتى وجوه المستوطنين وجوه الفلاحين الخشنة بتأثير الريح بدت وكأنها أتت من أعماق القرون، وكانت شديدة الشبه بالصور التي بقيت محفوظة من القرون الوسطى. لم يَرَ هوفمان في أيّ مكان مثل هذه الملامح سوى في لوحات الرسامين القدامى المتصدعة.

وجه كوليا النحيف (الأصفر من الإدمان على التبغ والمُغَضَّن من التجاعيد لدرجة أنه أصبح من الصعب تمييز عينيه وأنفه من عام إلى عام) تارة يرتجف بكلّ طياته من الغضب، وتارة يهتزّ من الضحك؛ بينما كان الأنف والذقن يتشابهان تماماً، وزحف الحاجبان الأشعثان إلى الأعلى على الجبين وتشابك شعرهما مع شعر الرأس. كان وجه القس هاندل طويلاً على نحو لا يصدق إلى درجة يمكن تقسيمه إلى نصفين وتشكيل وجهين بشريين كاملين منه؛ أنفه بحجمه وتناسبه شديد الشبه بسمكة شبوط كبيرة، وأسنانه بالشكل والقوة ليست أدنى من أسنان الخيول؛

وهذا التشابه عزَّز صوت القس العالي والثاقب الشبيه بصهيل الخيل. كان وجه غاوف جزّار الخنازير السمين والعريض مكوَّراً تماماً وكذلك أحمر تماماً. وكان وجه غاوس المتزلِّف البشع مثلثاً متساوي الأضلاع: بذقن صغير وقوسين محدبين فوق الحاجبين بدلاً من الزوايا...

في أيّ زمنٍ عاشت قرية غنادينتال؟ كيف تمكنت من البقاء على هامش عصرنا؟

إنَّ الناسك الأبكم ذا اللحية المُبْيَضَّة، الذي هو ناظر المدرسة السابق، والذي ظهر فجأة من مكان ما إلى كوخ مجلس القرية الضيق، قد ساعد هوفمان في كتاباته المشوَّشة حول الحياة في غنادينتال على إدراك العمق الكامل للجهل في هذه القرية. الآن أصبح واضحاً له ما هي اللغة التي يجب التحدث بها مع الأرملة كوخ ومع المحتال غاوس ومع الريفي الأخرق ديتريخ.

***

لقد دخلت هذه الملاحظات حيّز التنفيذ: فبعد أنْ درس هوفمان كلّ منها بعناية، اختار أكثرها إثارة للاهتمام ونسخها بخط يده الركيك الرهيب، وبعد أنْ أرفَقها بالاستنتاج الأيديولوجي المناسب ختمها في مظروف. وأثناء وجوده في بوكروت (وكان يذهب إلى لجنة الحزب كلّ أسبوع في يوم الثلاثاء)، يُعرّج بسرعة إلى دار المطبعة ويضعها في صندوق البريد بعد أن يعنونها بخطٍّ منحنٍ: إلى صحيفة «ساعي الفولغا»؛ وقبل ذلك لا بدّ أن يتلفَّت من حوله: هل يراه أحد؟ ويوقّعها بكلّ تواضع: غوباخ مراسل صحفي من الأرياف.

كم أَحبَّ أعضاء هيئة التحرير هذا المراسل الريفي الغامض! وكم انتظروا رسائله التي كتبتها يد عامل بخطّ ضعيف! وكم اندهشوا من معرفته الواسعة والعميقة لحياة المستوطِنين قبل الثورة ومن أسلوبه الرائع في الوقت نفسه! واندهشوا أكثر من ذلك من التعميمات الصحيحة من الناحية الأيديولوجية!

في مقال بعنوان: «أسماء أشهر التقويم الشعبية» اقترح غوباك إدخال اسمين جديدين في وعي الألمان السوفييت: *شهر الثورة* بدلاً من *شهر النبيذ* و*شهر الشتاء* بدلاً من *شهر المسيح*. وفي مادة موسعة بعنوان: «الأهازيج الشعبية» حثَّ على أنْ تُستَبعَد من التداول الأغاني التي لها دلالة دينية واضحة والتي تدعو إلى الخنوع والاستكانة (واستشهد بأمثلة كثيرة من الأهازيج التي عفا عليها الزمن). وتضمن عرضٌ بعنوان: «الخرافات» قائمةً تفصيلية بها ونقداً منطقياً لها... وكان بالإمكان إرسال مواد المراسل الريفي غوباخ للطباعة من دون تصحيح سطر واحد فيها. وهذا ما حصل بالفعل: فكلّ يوم جمعة كانت صحيفة «ساعي الفولغا» تصدر بمقال دوري بتوقيعه.

«عزيزي المراسل الريفي غوباخ! توجه رئيس التحرير فونت ذات مرة إلى المراسل الدؤوب في زاوية «مراسَلات». قرّر فريقنا مكافأتك باشتراك شهري بالإضافة إلى كتاب شكر معنون إلى محل عملك. يرجى إرسال بياناتك الشخصية». ومع ذلك، ظلّت الدعوة من دون ردّ واستمرت الرسائل الواردة من المراسل الريفي في الوصول، كما في السابق، من دون عنوان المُرسِل.

وبعد بضعة أشهر من المراسلات المنتظمة، بدأ غوباخ يكتب حكايات رائعة جدّاً لدرجة أنَّ هيئة التحرير قرّرت فتح عمود جديد في الصحيفة بعنوان «فولكلورنا الجديد». وقد أثارت هذه الحكايات الدهشة بأصالتها وحداثتها: الجزء الرئيس من النص كُتِب بأسلوب غنائي، بإسهاب وبلا تكلّف، في حين إنَّ الخاتمة (غير المتوقعة دائماً والمنتظمة من الناحية الأيديولوجية في الوقت نفسه) اتسعت في عدة جمل قصيرة تخلّلتها الصراحة والحزم البروليتاري والفلّاحي. وبدا أنَّ الحكايات كتبها مؤلِّفان اثنان وفي هذه الازدواجية المتعمدة، ظهر العمق المتأصل فيها: لقد كانت هذه الحكايات هي الجدلية نفسها وهي رمز عالم الجمهورية الألمانية الريفي الجديد نفسه.

حاول فيخته مدير التحرير بكلّ إصرار أنْ يحصل للزاوية الجديدة على مكان في الصفحة الأولى بين المقالات حول الوضع الدولي، لكنه هُزم، وبسبب هذا تشاجر لمدة يوم ونصف مع فونت رئيس التحرير. لكن سرعان ما اتفقا وقرّرا بالإجماع: التوسط في موسكو لنشر الحكايات البارعة في كتاب منفصل. لذلك احتسيا بمناسبة التصالح ربع ليتر من نبيذ شتينكوس النتن.

كانت صحيفة «ساعي الفولغا» تصل بانتظام إلى مجلس قرية غناديتال. نسخة يعلِّقها هوفمان في ساحة السوق (يلصقها على جذع شجرة الدردار الأكثر سمكاً) ويسلِّم الثانية إلى كوخ القراءة الذي افتُتِحَ مؤخراً في منزل الحداد بينتس المهجور وترك الثالثة لنفسه. كان أهالي غناديتال حذرين من الصحافة، لكنهم لم يرفضوها بالكامل لقد قرؤوها. في كثير من الأحيان، لاحظ هوفمان حشداً من الناس عند أشجار الدردار، فيقترب منهم ليستطلع الأمر ماذا كانوا يقرؤون؟ ما هي اهتماماتهم؟ ولكن عندما يجيء، دائماً ما يقلّ عدد المحتشدين وبعد بضع دقائق يبدو وكأنه تلاشى تماماً في الهواء: لقد نظروا إلى المسؤول الجديد في المستوطنة بريبة وقلق. وهل يمكن أنْ ينظروا إليه بطريقة أخرى؟

– إنه يشمُّ كلّ شيء، نعم، يشمّ! وكأنه ليس بشراً على الإطلاق، بل وحشاً! – قال الرسام أنطون فروم متذمّراً لأبناء قريته، الذين تجمعوا في شرفة الرئيس ديتريخ لتبادل الأخبار. – قلتُ له: لماذا، يا رفيق هوفمان، تشمّ دهاناتي؟ فقال لي: أريد أن أعرف كلّ شيء عنك، حتى أدق التفاصيل، إنك إنسان مثير للاهتمام للغاية. فقلتُ له، ربما، أعطيك حذائي اللباد لتشمّه، فهو في نهاية الشتاء أكثر شيء يفوح بالرائحة. فضحك، الشيطان يأخذه. التفتُّ لأشطف الفرشاة، وإذا به يُدخل إصبعه في علبة الطلاء أولاً! ثم وضع هذا الإصبع في فمه ثانياً! وتلمّظَ بشفتيه وكأنه يتذوّق العسل، وحتى لم يغضّن وجهه...

– هذا هو ألمانيّ الرايخ! قال بيول حليق الشارب الذي هزل خلال

سنوات المجاعة، وهزَّ معطفه الفضفاض بحزن. - الرجل جاء من ألمانيا نفسها، لكن الحماقات فيه - كأنه نشأ في مستوطنة مجاورة. لماذا نحتاج إلى هذه الحماقة الأجنبية؟

- القليل من القرف، لا يضرّ أبداً، - لخَّصَ ديتريخ المحادثة فلسفيّاً.

هذا الأمر لا جدال فيه، ولهذا عاد المستوطنون إلى منازلهم، وهم يهزّون رؤوسهم مهمومين وينفثون الدخان من غلايينهم، التي اعتادوا أنْ يملؤوها، بسبب نقص التبغ اللائق، بخليط من أعشاب العرن والزعتر والمرَميّة وعرق السوس.

لم يعرفوا: أنَّ في روح هوفمان النبيلة تعيش جُزيئَة من كلّ فرد من سكان غنادينتال، وأنه يشعر بجسد كلّ مستوطن وبمزرعته ومنزله وحتى بزوج القَباقيب الخشبية التي يكسرها طين الخريف كأنها خاصته. لقد تأذّى هوفمان عندما تألّم دورير الضخم والطويل من أذنه اليسرى، وعندما نفقت فرس غاوف جزّار الخنازير الكُميت الصغيرة بسبب مرض الرعام، وعندما نعت العجوز كول أمام الناس ابنها الذي توفي بسبب السل، وكأنَّ الأذن المريضة والحيوان النافق والقلب الذي حطَّمته المصيبة كلّ ذلك خاصته. هكذا فقط عندما يشعر بالآخرين كجزء من نفسه وعندما ينفذ إليهم ويغدو واحداً منهم يمكنه أنْ ينتشلهم من ذلك التخلف والظلام، ومن كومة الفحم القذرة التي لا يزالون يعيشون كسالى وخاملين فيها.

-15-

وقد تحقق ما كتبه.

كان باخ يظن أنَّ هذا حدث في الربيع من عام ستة وعشرين، عندما أحضر إلى مجلس القرية «قصة الطبال» الحكاية المئة التي كتبها لهوفمان. لقد قام بالجرد البسيط هو بنفسه من خلال خدش أسماء الحكايات بأظافره على الجدران الخشبية في غرفة كلارا، حيث لا تزال ثمة مساحة. كان بإمكانه أن يجرد على الورق الذي توفر لديه في الأيام الأخيرة بما فيه الكفاية، ولكنَّ الأكثر إثارة للعواطف أنْ يكتب بيده السطور في مذكرات امرأته الحبيبة. وبالتالي، فإن الجذوع تحت السقف التي لم تصلها آنذاك كلارا الرقيقة، أصبحت الآن مغطاة بكتابات شاحبة: «الغزّالات الثلاث»، «الإخوة السبعة»، «الصيادون الاثنا عشر»، «الحيوانات الحجرية»، «فتاة بلا ذراع»، «الرجل الصدئ»، «ماء الحياة»، «السمكة الزجاجية»، «قلب الخنزير»...

مئة حكاية. مئة ليلة من حياة باخ. مئة قصة تحولت بقلم هوفمان الجسور إلى قصة نضال للشعب العامل ضد الظالمين والمخربين وغيرهم من الأعداء الطبقيين. مئة منشور في صحيفة «ساعي الفولغا» موقعة باسم المراسل الريفي غوباخ، كادح القلم المتواضع والبطل الخفي المقاتل على الجبهة الفولكلورية للجمهورية الألمانية.

أدرك باخ من مدة طويلة أيّ نوع من الحكايات يريد هوفمان منه. القصص ذات الطابع الديني حول مريم العذراء والرسل والقديسين

ممنوعة منعاً باتّاً؛ والقصص ذات الطبيعة الغامضة عن السحرة والعرّافات ومواد السحر وذوات القرون والفرسان الموتى لم تكن مطلوبة أيضاً؛ ولكن كانت الحاجة شديدة دائماً إلى قصص عن الناس البسطاء العاديين كالنساجين والإسكافيين وصيادي الأسماك والفلاحين والجنود الكهول والشباب. وبشكل مثير للدهشة، كانت ثمة حاجة للجنيات والشياطين وعفاريت الغابة مع أبنائهم الصغار والعماليق من جميع السلالات والأحجام، وآكلي لحوم البشر مع اللصوص: لم يحبذ هوفمان السحر العالي، بل حبَّذ تماماً «ممثلي المعتقدات الشعبية». وأوضح لباخ: «سحَرَتُك بِكُراتِهم البلورية وساحراتك بعصيهن جميعهم أبطال *سابقون*، صدقني. دع الناس *السابقين* يقرؤون عنهم: طالبات الجيمنازيا[1] الصغيرات وزوجات الضباط والسيدات المتعلمات. أما الناس البسطاء فلا يفهمون إلّا القصص التي تتحدث عنهم وعن أولئك الذين يخشون أن يصادفوهم في الحظيرة أو في الغابة المجاورة». ورحّب كذلك بإشراك ممثلي الطبقة الحاكمة في الحكايات الملوك والبارونات والدوقات لأنّ ذلك يضمن لأيّ قصة نهاية صحيحة من الناحية الأيديولوجية. وكانت القصص حول الحيوانات مرغوبة أيضاً عن الأغنام المَذْعُورة والنحل المجتهد والقُبَّرات المهمِلة، ولكن باخ تردّد في كتابة مثل هذه القصص: لم يعرف كيف يتخيل نفسه أرنباً أو فقمة.

– الطبال – شيء رائع! تمتم هوفمان في ذلك الصباح وهو يجلس على حافة النافذة وينظر إلى القصة التي قدمها باخ.

لم يعد في الآونة الأخيرة، في حالة من الإثارة، يندفع ماشياً في الكوخ، وتعلّم كبح طاقته الفائضة. ووجهه الذي كان في السابق شابّاً وناعماً مثل وجوه البنات، أصبح مكوَّراً كوجوه النساء، ولهذا لا تبدو التجاعيد الناتجة عند الحديث مخيفة.

1- الجيمنازيا – وهي مدرسة ثانوية تولي عناية خاصة بالعلوم الإنسانية واللغات الميتة «اللاتينية واليونانية القديمة». (المترجم).

– رمز الاستيقاظ من النوم، والدعوة للقتال ليس لشخص واحد، بل للجماهير الواسعة... أمسك هوفمان بالأوراق المكتوبة بالقرب من عينيه وهزّ رأسه قليلاً على إيقاع أفكاره الشخصية، وكأنه ينقر بمنقارٍ غير مرئي على الكلمات والحروف. ولكن لماذا يشغل هذا الرمز شيئاً تافهاً لديك؟ لماذا يتسكع الرجل في جبال الزجاج وغابات الحديد بحثاً عن العروس، عليها اللعنة، ولا يقاتل من أجل سعادة أهل قريته؟ آه، يا باخ؟ ما كان يُكلِّفك لو شغلتَ فكره بالاهتمام بالمصلحة العامة بدلاً من الاهتمام بالحب؟ ودفعته ينطلق في المغامرات نفسها ليس بوصفه بطلاً عاشقاً يحمل طبلاً على صدره، بل مناضلاً واعياً؟ إنَّ كلّ شيء عندك يبدو على طريقة البرجوازية الصغيرة، وبضيق أفقٍ. سيتعيّن عليَّ أن أقضي نصف ليلة مرة أخرى في تعديل النص...

خلال عامين من التأليف المشترك (إعادة كتابة النصوص الطويلة والكثيرة الكلمات بدلاً من باخ) كفَّ هوفمان تدريجيّاً عن الخوف من قلم الرصاص. وعلى الرغم من أنَّ خطّ يده لم يصبح مثاليّاً، إلّا أنه اكتسب بعض الطلاقة واكتسبَ المقطع لديه براعة معينة. كان باخ في بعض الأحيان يسمّي هوفمان في نفسه *تلميذه الأ*خير. وإلّا ماذا تسمي الرجل الذي يستنسخ باجتهادٍ عاماً بعد عام أفكارك وعباراتك وتراكيبك وحتى علامات التنقيط الخاصة بك؟

– أنت عنيد، يا باخ، مثل حمار في حكاية من حكاياتك. إنكَ على كلّ حال تُدرك منذ زمن بعيد كيف ينبغي أنْ تكتب. لكنك لا تزال تكتب بطريقتك الخاصة. وتُعرقِل...

بالطبع، يُدرِك باخ ذلك. فقد قرأ بعناية زاوية «فولكلورنا الجديد» في كلّ عدد يصدر في يوم جمعة من صحيفة «ساعي الفولغا» ورأى بالذات ما عدَّل هوفمان في نصوصه وكيف عدّل. وكان هذا التعديل بسيطاً للغاية لدرجة يمكن معها لأيّ تلميذ من صف «الحمير» في مدرسة قرية غناديتتال أن يفعله. لم يجلس باخ ليالي من أجل أنْ يكرّر، من قصة إلى

قصة، النهايات السعيدة، التي يطيح فيها حشد من الفلاحين الغاضبين بمالك الأرض السابق (الملك، الكونت، العملاق الذي يحكم البلد)، ويعود الفقراء الساذجون الضائعون (صانعو الأحذية، عمال المناجم، قاطعو الأخشاب) إلى حظيرة العمل الصالح. لقد أراد باخ أن يعيش من خلال قصصه، وحتى النهايات التي أعدَّها هوفمان جاءت بشكل لا بأس به أيضاً.

– حسناً، هذا ليس وقته الآن. أعرفُ كيف أتعامل مع طَبّالك. قال هوفمان وأخرج قطعة ورق مجعدة من جيبه وخربش عليها سطرين. – كتبتُ لك بطيختين. لو كانت حكاية كاملة لأعطيتُك خمس بطيخات، مقابل شبه المكتملة حتى البطيختين كثير.

في الآونة الأخيرة، لم يدفع هوفمان مقابل الحكايات التي يحصل عليها بالمنتجات الطبيعية، بل بالإيصالات: وفي نهاية الشهر يستبدلها باخ بالشمّام والخيار والبطاطا والبنجر المزروعة في الحقول العامة. وتساءل ديتريخ رئيس مجلس القرية عن ماهية الخدمات التي يحصل مقابلها ناظر المدرسة السابق على المواد الغذائية. فأجابه هوفمان بصرامة: «مقابل المساعدة في جبهة الدعاية». ومنذ ذلك الحين، لم يتكرّر السؤال.

طقطقَ شيء ما في الشارع بصوت عالٍ وبتقاسيم، وكأنَّ أحدهم يهيل أحجاراً صغيرة أو حبّات حمّص جاف في دلو من الصفيح. هل هو طبل؟ انحنى باخ نحو النافذة، محاولاً رؤية ما يحدث هناك، لكن الليلك الذي نما في الحديقة الأمامية أغلق الشارع.

– الحقيقة، يا باخ، وأحياناً يبدو لي أنك تقدر على الكلام. نطَّ هوفمان بخفّة كالقط من حافة النافذة. – ولكنك لا تريد. إنك لا تريد أنْ تتحدث معي. وعندما تعود إلى وكرك – تفتح شفاهك وتبدأ تثرثر مع عائلتك من غير انقطاع: بو – بو – بو – بو... أليس كذلك، يا باخ؟ ربما يجب أنْ أزورك في الضفة اليمنى؟ هل سنثرثر هناك بما فيه الكفاية؟

حاول باخ التقاط الإيصال، لكن هوفمان لم يدعه وهكذا وقفا كلاهما

وهما يستندان بعضهما على بعض بصدريهما ويتشبّثان بأصابعهما بالورقة المربَّعة الصغيرة.

– أو ربما، أنك لا تسكن في تلك الضفة على الإطلاق، بل في مكان ما في قعر نهر الفولغا، مع الأسماك؟ ربما أنت نفسك سمكة؟ وتتحول مرة في الأسبوع إلى رجل، وبقية الوقت تقبع في القاع، تحرك زعانفك وتضحك علينا؟ وربما، حتى جسمك غير مغطى بالشعر على الإطلاق، بل بالقشور؟ وعلى ظهرك بدلاً من دفّات الكتف – خياشيم؟ – جذبَ هوفمان بإصبعه ياقة سترة باخ، كما لو كان يأمل في رؤية جلد ذي قشور تحتها. – أودّ أنْ أعرف: لماذا تأتي إلى هنا؟ لماذا تجلب لي حكايات طوال عامين؟ الحقيقة، ليس بسبب الحصول على الخيار من المزرعة التعاونية. وصار نفَس هوفمان قريباً جدّاً منه وروَّحَ على خدّه ساخناً ورطباً. – كلّا، هنا شيء آخر. أمن المعقول أنْ تكون الشياطين داخلك لا تدعك ترتاح؟ ألا تعرف؟

عرفَ باخ. فقد استغنت آنتشي من مدة طويلة عن الحليب، وكان بإمكانه ألّا يجلب كتاباته إلى هوفمان، بل يركنها في الخزانة ذات الأدراج أو في أعماق الصندوق. ولكن في كلّ مرة، عندما يرى باخ أهالي غنادينتال المحتشدين في ساحة السوق بالقرب من عدد يوم الجمعة من صحيفة «ساعي الفولغا» يشعر بإثارة لا تقاوم، كما لو أنَّ المعلّق هناك على الشجرة ليس ورقة تفوح برائحة حبر المطبعة الطازج، بل هو نفسه عارياً ويعتمر على رأسه طربوشَ مهرّجٍ من الورق. وكان يقترب منهم ويصغي إلى حواراتهم، فيجفّ حلقه ويتوهّج خدّاه، بعكس أصابع يده التي تبرد وتفقد الإحساس. «لنرى، ماذا هناك؟» عادة ما يسأل أحدُهم بفارغ الصبر. «اليوم عن المعمار والقلعة الغارقة»، يجيب رجل من أعماق الحشد، من شجرة الدردار نفسها: «إذن، اقرأ، لا تتمهَّل!» يحثّه مستعجلاً بعضهم من الخارج. ويقرأ صوت غير مألوف (ببطء، وهو يتعثر قليلاً في التراكيب المعقدة ويلفظ الكلمات الكثيرة التراكيب بعناية) حكاية باخ التي عدَّل

قلم هوفمان نهايتها قليلاً. فيصمت الحشد. ويستمع باخ ويحسّ كيف يصغي الناس إلى كلماته؛ وكيف يتجمد الرجال والنساء والأطفال تلاميذه السابقون وأولياء أمور تلاميذه وهم ينصتون بكلّ حواسهم وتتسمّر وجوههم بلا حراك. وعندما تنتهي قراءة الجمل الأخيرة يقف الناس صامتين لبعض الوقت. وتهمس بعض النساء: «منح الله أحدهم موهبة». ثم يتفرقون كما كان حالهم من دون أن يقولوا كلمة ومن دون أنْ ينظروا إلى مقالات الصحيفة والعناوين الرئيسة الأخرى. ويغادر باخ أيضاً بخدين متوهجين وبقفا مبلّل خائفاً أنْ يرفع عينيه. ومع ذلك، لم يُعِر أحدٌ الانتباه إلى ناظر المدرسة السابق منذ زمن طويل... كان باخ يأتي إلى غناديتال من أجل دقائق الصمت هذه على وجه التحديد.

- حسناً، يا شيللر الأشعث، أمسك، تخلى هوفمان أخيراً عن الإيصال. - ليس لديَّ وقت للحديث معك هنا. سأذهب إلى بوكروفسك من أجل الحصول على الجهاز المتنقِّل لعرض الأفلام السينمائية لتزويد جميع كادحي الحقول بالسينما. هذا كلّ شيء!

وظلَّ الطبل يقرقع خارج النافذة في مكان قريب جدّاً. لم يقرقع فحسب، بل «طقطق بحماس وكأنه يحث الجميع لكي يستيقظوا ويفتحوا عيونهم لاستقبال الشمس المشرقة»، تماماً كما وصفه في الأوراق التي بانت الآن لدى هوفمان من وراء حضنه. وضع باخ الإيصال في جيبه وغادر مجلس القرية من دون وداع.

لم يعثر على الطبّال بعد، أما التقاسيم المُبهِجَة فقد صدحت في الشارع المجاور. سارع باخ نحو الصوت المبتعد من خلال ساحة السوق ومن جانب الكنيسة المزينة باللافتات الحمراء ومروراً بدكّانَي بيع الكيروسين والشموع اللذين أُعيد فتحُهما من جديد ومن جانب المنازل التي بُيِّضَت حديثاً ودُهِنَت مصاريعها بألوان متعدّدة. قاده صرير الطبل خلفه، وهو يتلاشى تدريجيّاً ويذوب في الهواء، إلى مكان ما في شارع جانبي ومن ثم إلى الأزقة أبعد فأبعد... وسرعان ما وقف باخ على حدود

حقول المزرعة التعاونية ونظر حوله بذهول: لم يكن ثمة أحد، وتناهى له صوت قرقعة ضعيف يندفع من جميع الاتجاهات ليس تقاسيم طبل، بل صرصرة جنادب. وإنَّ الطبال الغامض إما اختفى خارج الأفق أو توقف عن التطبيل. وبدت له مُضحِكة هذه المصادفة سماع صوت الطبل في يوم كتابة «حكاية الطبال» نفسه. وقف باخ لمدة من الوقت متأمّلاً الحقول المُخْضَرَّة (هذا العام حُرِثَت جميع الحقول المحيطة في غناديتال وضواحيها وزُرِعَت)، ثم توجَّه عائداً إلى الفولغا.

تحركَ رتلٌ باتجاهه على طول الطريق الذي سحقته العربات: فقد قعقعت بجدية جرارات صغيرة بعجلات تروسٍ حمراء نارية كانت تجرّ جذوعاً كبيرة إلى مكان ما. ربما كان هؤلاء هم الصغار ميكانيكيون الذين كتبت حولهم صحيفة «ساعي الفولغا»، أول الجرارات السوفيتية التي صُمِّمَت وأنتِجَت في الجمهورية الألمانية في حوض الفولغا. سار باخ على حافة الحقل وانتظر مرور الرتل. وقف مندهشاً بالحركات الدقيقة والقوية لسائقي الجرارات الذين يركبون خيولاً حديدية حتى لاحظ على الجوانب المُضَلَّعة لكلّ ماكنة الحروف السوداء «كارليك» (القزم)[1]. القصة التي أحضرها باخ إلى هوفمان الأسبوع الماضي كانت تحمل الاسم نفسه.

* * *

منذ ذلك اليوم بدأت تحدث مصادفات، غير معقولة ولا يمكن تفسيرها. مصادفات لم يستطع التحدث عنها، ولو استطاع، لما تجرَّأ، خوفاً من اتهامه بالجنون. المصادفات واضحة لدرجة أنه لم يجرؤ على إنكار وجودها أيضاً.

1- صممَ جرار «كارليك» ذا العجلات المهندس يا. ف. مامين وأصبح أول جرار سوفيتي ضخم. أُنتِجَ في منتصف العشرينيات في مصنع «فوزروجدينيا» في مدينة ماركسشتادت (التي كانت قبل عام 1915 تسمى مدينة يكاتيرينشتادت وبعد عام 1942 – مدينة ماركس)، على بعد 60 كم شمال شرق مدينة ساراتوف. (الملاحظة من الكاتبة).

كتب باخ حكاية عن الصيادين الاثني عشر الذين تحولوا إلى فتيات شابّات وسرعان ما صادف في الحقول نساءً يحصدنَ، بدَوْن للوهلة الأولى عمالاً عاديين؛ وعندما اقترب أكثر رأى بوضوح من خلال خفة الحركة ورشاقة البنية أنَّ البلوزات القطنية وسراويل الجوخ الرجالية تغطي أجسادَ نساءٍ مكوّرة، وعدد هذه الأجساد اثنا عشر بالضبط. «هل جاء ناظر المدرسة لمساعدتنا؟ نادته إحدى فلاحات المزرعة التعاونية بمرح ولاحت ابتسامتها من تحت مظلّة القبعة. أَم أنَّ يدك لا تقدَر إلّا على الإمساك بمؤشر المسطرة؟»

كتب حكاية عن حَدّاد الماء الذي يصنع المحاريث وحدوات الخيل وهو يقف إلى خصره في الماء وبعد ذلك ببضعة أيام عادت إلى غناديتتال بعد سنوات من الترحال عائلة الحداد بينتس التي عُدَّت منذ زمن طويل مفقودة في مكان ما في أدغال البراري الأمريكية أو غابات الأمازون. علاوة على ذلك، لم يصل آل بينتس سيراً على الأقدام على طول السهوب مثل العائدين الآخرين، بل عن طريق الماء على مركب عابر.

كتب عن اثنين من أسماك الحفش الكبيرة يزوران اثنين من الناسكين كلّ سنة، فدخلت في شباك صيادي القرية أسماك كبيرة لم يُسمَع من قَبل بحجمها: رؤوسها بحجم رؤوس الخيل، وقشورها بحجم كفّ الطفل.

كتب عن الأقزام الذين يصنّعون الذهب بالضبط تحت حقول الحبوب، لذلك يتدفق جزء من ذلك الذهب من تحت الأرض ويتحول إلى قمح وشَيْلم، وإذا بالسنابل في حقول غناديتتال تُمتلأ بالحبوب بسخاء كما لم يحدث من قبل، مبشِّرةً بمحصول غير مسبوق. وكاد باخ أن يعتقد حقّاً بأنَّ أقزاماً حقيقيين قد اشتغلوا في حقول غناديتتال، ولهذا جاء ذات يوم إلى الضفة اليسرى ليلاً وهو يحمل معه مجرفة وفانوساً، ولكن طردته دورية من الرواد اليقظين الذين كانوا يحرسون المحصول من اللصوص والمخربين.

كلّا، في البداية حتى هو نفسه رفض أن يصدق. لا يمكن لقلمه

الرصاصي القصير بطرفه الذي قضّمه أثناء جلسات العمل الليلية أن يمتلك مثل هذه القوة الجبارة. بالطبع، لاحظ باخ حتى قبل هذا أنَّ حياة غنادينتال قد بُعِثَت جزئيّاً: إذ بدت المنازل التي صُلِّحَت وبُيِّضَت بعناية أكثر بهجةً؛ وقد اخضَرَّت الحقول والحدائق الأنيقة، كما كانت في السابق، ووجوه السكان تكوَّرت واحمرَّت (حتى تكورات إمّي البطيخة الذابلة طفحت بقوة مرنة، الأمر الذي يدل على وفرة محصول الحقل). وطَفحَت المستوطَنة مرة أخرى بالأغاني (حتى لو كان بينها اليوم الكثير من الأغاني الثورية الجديدة) وبصراخ الأطفال المبتهجين (حتى وإنْ لم يعد الأطفال الآن يهتفون «هيه هيه، القرغيزيون قادمون!»، بل «استعد!» و«تحيا الثورة!..»)؛ وانتشرت قطعان الماعز والأغنام مرة أخرى في السهب (حتى وإنْ دُعيت الآن قطعان *المزرعة التعاونية*)، وأرغَت صغار الإبل وصهلت المِهار (لم تعد في أفنية المستوطنين، بل في حظائر *مزارع الحيوانات*)، وبدأ الإوَز والبط يصفق بأجنحته في *مزارع الدواجن* العامة. وليس عبثاً أنْ قَدِم إلى غنادينتال طوال العام الماضي ضيوف أجانب وفود من العمال والمدرسين والناشطين الشيوعيين من ألمانيا للابتهاج بنجاحات المستوطنة المزدهرة؛ وليس عبثاً أن تدفقت إلى جمهورية ألمان الفولغا مجموعات من ألمان الرايخ فقد جاء الحرفيون والفلاحون وعمال المصانع وعمال المناجم والمهندسون وحتى الممثلون إلى روسيا السوفيتية الفتية والقوية من العالم القديم للاستقرار هنا والعثور على وطن جديد؛ لذلك دعا باخ تلك السنة، ألف وتسع مئة وخمس وعشرين، في نفسه *عام الضيوف*. ومع ذلك، لم يجرؤ باخ على أنْ ينسب جميع هذه التغييرات إلى تأثير قلمه القصير. الآن، وهو يراقب ما يحدث حوله، سأل نفسه متحيّراً: هل هذا كلّه فعلاً من عمل يديه؟ نتيجة لسهر الليالي على ضوء الشمعة؟

وبعد أنْ قرّر التحقق من هاجسه المجنون، ذهب إلى مجلس القرية (الذي صار يسمى الآن جمعية *المزرعة التعاونية*) لينظر إلى جميع أهل

قريته في وقت واحد وليستمع إلى أحاديثهم: كيف يرى سكان غناديتتال أنفسهم حياتهم الجديدة؟

أول مَن شاهده باخ هو الطبّال الغامض الذي أفلتَ قبل مدة من نظرته. كان واقفاً بمحاذاة المنصة، إنه شاب نحيف الجسد وطويل القامة ومستقيم؛ خفقَ رباط عنق أحمر على صدره (علمَ باخ لاحقاً أنَّ الأطفال الذين يحملون مثل هذه الأربطة يطلق عليهم *الطلائع*)؛ كانت العصي في يدي الطبال الطويلة تومض بسرعة ولهذا تلاشت تقريباً في الهواء، والتقاسيم التي دقَّها كانت مرتجفة جدّاً لدرجة أنها بدت مثل الأنين. تحت هذه التقاسيم هرع إليه الطلائعيون الآخرون الأصغر سنّاً منه والأشدّ نحافةً؛ وقد شكّلوا نصف حلقة متساوية تحيط بالمنصة التي وقف عليها منشدون متأثرون عاطفيّاً. وكان عدد هؤلاء الطلائعيين سبعة تماماً، كما في حكاية باخ الأخيرة عن الإخوة السبعة الذين غادروا منزل أبيهم.

في البداية مُنِحَت شهادات التقدير لتعاونية العمال الحرفيين التي تتكون من ثلاث غزّالات عجائز: إحداهنَّ ذات شفة سفلية بحجم نعل الحذاء متدلية إلى الذقن بسبب تبليلها الدائم لألياف الكتان باللعاب؛ والثانية ذات قدم عريضة، مثل الرغيف، من كثرة الطرق على عجلة الغزل؛ والثالثة ذات إصبع سميك مثل حبة جزر ناضجة، من جرّاء لفّ الخيوط. بدت الكادحات السوفيتيّات المجيدات بالضبط كما وصفهنَّ باخ في إحدى حكاياته.

ثم استمع الحاضرون إلى محاضرة أحد الناشطين من بوكروفسك الذي ارتقى خلال بضع سنين بسرعة من خياط بسيط إلى نائب رئيس لجنة الحزب (رأى باخ في الرجل الخبيث الضئيل على الفور الخياط الماكر في حكاية أخرى من حكاياته).

وفي النهاية، انتُقِد بشدة العامل المهمل في مزرعة الدواجن الذي فقدت المزرعة التعاونية بسببه عدداً من الإوَزّ؛ ووبخ المتحدثون كذلك الحمقى في شخص هانتس الغبي.

لا يمكن أن يكون ثمة شك: المكتوب تحقق. وحدث في غنادينتال ما خطَّه قلم باخ على الورق الليفي الرديء. أحياناً تجسَّد في الواقع بشكل مباشر، وفي أحيان أخرى انعكس فيه بشكل عابر فقط لكنه حدث حتماً وبكلّ تأكيد. وقدمت الحياة أدلةً جديدة على ذلك.

وبمجرد أنْ كتب باخ أسطورة عن الكرز السحري الذي حمته تعويذة من الديدان والجفاف حتى انحنت أغصان أشجار الكرز في بساتين غنادينتال من وفرة الثمار وثقلها، وكانت كلّ حبة كرز بحجم التفاحة الجيدة.

وما إنْ كتب عن زريعة الفاصوليا التي نمت إلى السماء، حتى غُمِرَت الحدائق في غنادينتال بفيض مفاجئ من الخُضرة: البازلاء التركية والخيار الفارسي والسمسم واللفت والرشاد والكتان والعدس وعباد الشمس ودرن البطاطا، كلّ شيء انطلق من الأرض بقوة مذهلة، مهدّداً إما بالوصول إلى حجم الأشجار أو أنْ يرتفع ويتسلّق على الغيوم.

وما إنْ قصَّ باخ عن كنز قطاع الطرق من الأحجار الكريمة الذي وجده المساكين، حتى امتلأت الحقول بوفرة الثمار: فقد تضخمت ثمار البطيخ الأحمر (الرقي) كقطع الزمرد العملاقة وتفجّرت في الحرارة كاشفة عن لبّها الياقوتي؛ وتكدَّست ثمار الشمام (البطيخ الأصفر) بعضها فوق بعض وتألّقت في الشمس بشكل يسلب الألباب، وبدت في الوقت نفسه كأحجار الياقوت الأصفر الضخمة وكسبائك الذهب الخام...

هذا العام المذهل، عام ألف وتسع مئة وستة وعشرين، لا يمكن تسميته إلّا *عام المحصول غير المسبوق*[1] ولا شيء آخر. وهكذا بالفعل سمّاه باخ.

يا لها من سنة! أغدقت الأرض عطاءها بسخاء غير مسبوق. فقد ولدت الأغنام والأفراس والأبقار والماعز. وأنجبت النساء. وفقست

1- في عام 1926 جُنِيَ في الاتحاد السوفيتي محصول قياسي من الحبوب يُعَدُّ الأعلى في حقبة ما بعد الثورة بأكملها. كان المحصول غنيّاً أيضاً في جمهورية ألمان الفولغا. (الملاحظة من الكاتبة).

البيوض وأطلقت كتاكيت الدجاج والبط إلى الدنيا بما لا يعَدّ ولا يُحصى. وتفجَّرت حقول الحبوب المحروثة مطلقةً السنابل الخضراء إلى العالم. وتضخم الحليب في حلمات البشر والإبل والخنازير وجرى على الأرض وسمَّدها وأدّى إلى إخصابها. وفارت الأرض من جديد بالبراعم وغذَّت الأمهات وملأت أثداءها وضروعها بالحليب الدسم.

انهمرَ هذا الحليب الأبيض إلى الفرّازات وتحول إلى جبال من الزبدة وأنهار من القشدة الحامضة. وتدفقت قطعان الأغنام البيضاء في المروج إلى مجزرة المزرعة التعاونية لتصبح لحماً وصوفاً. وسار الدجاج الأبيض والإوز والديكة الرومية في تيار لا نهاية له في أفنية مزارع الدواجن. ولمعت بيضاءَ أرديةُ الممرضات والمربيات في حضانات الأطفال وتألَّقت ابتسامات مُزارعي الفراء وسائقي الجرارات والمهندسين الزراعيين والحلّابات، وابتسامات جميع المستوطنين. ولوَّحت أيديهم المجهدة مئات ومئات الأيدي بالمناجلِ والمَحَاشّ، وقطعت بالمعاول والفؤوس، وارتفعت عالياً مصوتةً في الاجتماعات: نعم! نعم! نعم! وحَفَّت الريح في الحقول المليئة بالسنابل: نعم! ورنَّ المطر على العشب المرن: نعم! وردّد نهر الفولغا موافقاً بكلّ ضربة من موجاته على الشاطئ: نعم! نعم! نعم!...

لم يعرف أحدٌ لا هوفمان الثرثار، ولا ديتريخ البليد، ولا القرويون الآخرون لا أحد يعرف الأسباب الحقيقية لهذا الخِصب. ولا أحد يعرف ماذا استوجب من باخ هذا الصيف الحار. وما إنْ أدرك باخ ما يمكن للسطور التي كتبها أن تؤثر به على الحياة الحقيقية حتى بدأ يكتب بحماس غير مسبوق، أحياناً حكايتين في الليلة. لقد بحث في ذاكرته عن أكثر الأشياء *ثراءً ونضوجاً ووفرةً في المحصول* وسكبها على الورق: رعى العمالقة قطعاناً من الأغنام لا نهاية لها، وحملوا على أكتافهم مخازن الحبوب وطحنوا جبالاً من الدقيق؛ وبنى الشياطين الجسور والسدود في الليل، وأجبروا المحاريث على الحراثة من دون الاستعانة بالخيول

وكشفوا للفلاحين أسرار المحاصيل القادمة؛ وتغطَّت الأشجار بالثمار التي ما إنْ يذوق طعمها المحظوظون حتى تمنحهم الخلود...

وعندما سخنت الشمس بعنف شديد في شهر يونيو (حزيران)، كتب باخ عن العمالقة الشديدي القِوى الذين يحصدون من دون كلل فتمكن رجال غناديتال من إنهاء الحصاد قبل أنْ تحرق الحرارة السهوب. وعندما بقيت الأرض جافة لمدة طويلة في شهر تموز (يوليو) وبدأت تغطيها الشقوق الصغيرة، كتب باخ عن الأمطار الغزيرة والأنهار والممالك تحت الماء وسرعان ما هطلت الأمطار. وعندما غمرت تلك الأمطار الحقول وهدّدت في شهر آب (أغسطس) بقتل المحصول، كتب باخ عن النار والذهب فانتهت الأمطار وأشرقت الشمس مرة أخرى فوق المستوطنة.

لم يترك باخ شيئاً لمشيئة الصدفة. فقد عرف: أنَّ كلّ عبارة وكلّ تشبيه وكلّ منعطف في الحكاية سيتحقق على أرض الواقع. لذلك، كتب بدقة، منتقياً الكلمات بعناية وباحثاً عن أكثر النعوت قابلية على الرنين وأكثر الاستعارات حيويةً. فسنابل القمح في حكاياته لم تكن «صفراء» فحسب، بل «بل طفحت بالذهب الساطع وفيراً وسخيّاً إلى درجة لا يقدر على حمل هذا الذهب حتى أقوى رجل على وجه الأرض»؛ وثمار التفاح لم «تحمَرّ» فحسب، بل «نضجت حمراء وانتفخت من العسل وكاد لبّها أنْ يتناثر!»؛ وأسماك الشبوط والبُنّي لم «تُصطَد»، بل «كانت تدخل الشِّباك أسراباً هائلةً وكأنَّ الفولغا لم يكن نهراً، بل محيطاً حقيقيّاً»؛ والدجاج لا «يبيض» فحسب، بل «يضع البيض مثلما تضع الأسماك بيضها»؛ والأفراخ لم «تفقس»، بل كانت «تقفز من تلك البيوض بالمئات والآلاف»؛ والبطاطا لم تكن «تنمو»، بل «تنتفخ درناتٍ ضخمة»؛ وأزهار عباد الشمس «تتطاول شامخة بحجم عجلة العربة»؛ وحتى ذرة الفولغا البسيطة ذات المذاق الطحيني لم «تنضج»، بل «تلألأت باللون الأصفر المبهر مضيئةً جميع حقول الضواحي وكأنَّ في كلّ عرنوس (كوزٍ) مصباحاً كهربائيّاً شديد القوة».

لم يقتصد باخ بالورق. ولم يدَّخِر وقتاً ولا جهداً. ولم يرأف بنفسه. لقد تعبَ خلال هذا الصيف كما لو كان هو نفسه مَن حرثَ كلّ ذراعٍ من أرض غنادينتال وكلّ ركن من أركان بساتينها، وكان يسير بنفسه في المراعي ليرعى كلّ قطيع ويسحب بنفسه كلّ شبكة صيد من نهر الفولغا. كان يذهب إلى غنادينتال يوميّاً: فما إنْ ينتهي من كتابة نصّ جديد حتى يندفع عبر نهر الفولغا ليتحقق من شتلات القمح والجاودار وعباد الشمس والذرة، وليتأكَّد من طراوة الحشيش المجفَّف وليستَعلِم عن الزيادة في وزن الحيوانات الصغيرة في مزرعة الحيوانات، وليقوِّمَ معدل وضع الدجاج للبيض وصيد الأسماك.

هوفمان، الذي فوجئ بخفة الحركة غير المتوقعة، كان يضحك فحسب ويخربش له الإيصالات: ليستلم بها الخيار واللفت والبازلاء والشلغم والملفوف والشوفان. لم يمسَّ باخَ ذلك الضحك على الإطلاق: فهوفمان، إنسان ساذج، لا يفهم على مَن يضحك. الشيء الرئيس بالنسبة لباخ ليس الاحترام. فقد كان ينظر إلى العناوين الرئيسة في صحيفة «ساعي الفولغا» ويشعر كيف يغمر الدفء صدره وكيف يعتصره إحساس قوي ومؤثر: كلّ هذا المحصول الوفير والخِصب الغزير ونجاحات تعاونيات الشغيلة الحرفيين ومزرعة غنادينتال الجماعية التعاونية الفتية، وهذه الحياة الجديدة والثرية كلّها لم يكتبها باخ لهوفمان ولا لأهالي غنادينتال، بل كتبها لآنتشي وحدها، فقد يتعيّن عليها أن تعيش في ظلّ حياة جديدة عندما يموت باخ. كان يريد أن يترك لها هذا العالم، الخصب والرغيد وبالتالي الخَيِّر الذي خلقته جهوده، إرثاً بعد موته.

***

اعتقد هوفمان كذلك، على ما يبدو، أنَّ التغييرات في غنادينتال تتحقق بجهوده. فكان يندفع في المستوطنة وضواحيها بوجهٍ يوحي بأنَّ هذه الحياة المجيدة لا تتحقق إلّا بصراخه وبتلويح يديه. وبدا في بعض الأحيان لباخ مثل نملة مجنونة مهووسة بفكرة البناء: فقد جرى في غضون

عامين بإشراف هوفمان تشييد عدد غير مسبوق من المباني وإصلاحها وتجديدها وفقاً لاحتياجات الحياة الاشتراكية.

قاعة القراءة (كوخ)، والنادي (بأركان: سياسية وعسكرية وزراعية وحتى ثقافية، حيث يوجد إسطرلاب ومنظار وغراموفون قديم مع دزينة من الأسطوانات إرث من فاغنير الطحان الذي اختفى في الصيف). والمدرسة وروضة الأطفال والحضانة (في كلّ مكان دعاية وصور الزعماء ولوحات حمراء وسوداء تحمل تقارير عن المحاصيل). وفندق للزوار الكثيرين (بغرف منفصلة للضيوف من ذوي الرتب العالية والوفود الأجنبية). وسكن جماعي للأجانب الذين نزحوا إلى غنادينتال من أجل الإقامة الدائمة (هؤلاء كان عددهم يزيد أو يقلّ قليلاً عن عشرين شخصاً). والوحدة الطبية، وإدارة المزرعة التعاونية، ومحطة الآلات والجرارات (في الداخل الجرار «فوردسون» القديم نفسه وخمسة جرارات جديدة من نوع «كارليك»). ومزرعة الحيوانات وحقل الدواجن والمستودع الزراعي. وإسطبلات الخيول وحظائر الخنازير الجماعية. وداران لإقامة الفلاحين والصيادين (الضيوف). وثلاثة منازل صغيرة على عجلات متنقلة للحاصدين ولمزارعي الحبوب. واثنان لحظائر الدواجن المتنقلة.

ربما، الكنيسة اللوثرية الحجرية وحدها فقط بقيت غير مُستَغَلَّة لأغراض مفيدة. وقد اقترح مسؤول طلائع غنادينتال الناشط الشاب ديورير إعطاءها لتكون مستودعاً أو زريبة، لكن روح هوفمان الرقيقة عارضت هذه الفكرة الصحيحة من حيث الجوهر، على الرغم من همجيتها إلى حدّ ما. كلّا، لقد فكّر هوفمان لمبنى الكنيسة الفخم في استعمال آخر. «دار رعاية الأطفال! (الأيتام) صاح بحماسة على باخ في نوبة من الوحي، وهو يدور في مجلس القرية. ليس مثل غيرها من الدور، بل ضخمة وبسعة مئة سرير! وتحمل اسم الأممية الثالثة![1] لنجمع أطفال حوض الفولغا

1- الأممية الثالثة – منظمة دولية، رابطة للأحزاب الشيوعية من الدول المختلفة؛ وجدت من عام 1919 إلى عام 1943. (الملاحظة من الكاتبة).

المشرَّدين كلهم ونجلبهم إلى هنا، إلينا!». غير أنَّ هذا الحلم لم يُقَدَّر له أنْ يتحقق: إذ لم تحتوِ الكنيسة على تدفئة وكانت تتجمد خلال فصل الشتاء. وقد منعت اللجنة الحزبية في المقاطعة بناء مبنى منفصل ليكون داراً للأيتام لأنّ ثمة مأوى موجود بالفعل في بوكروفسك.

شارك هوفمان في كلّ بناء وفي كلّ تصليح. وصرخ على كلّ بنّاءٍ («لماذا هكذا ترصف الطابوق، يا خائن؟! ارصف بتنسيق أفضل، أجمل، أكثر روعة!»)، وعلى كلّ نجار («ليت وجهك يعوَجّ مثل هذه العُضادة! ماذا تعني بعبارة «الدجاج لن يلاحظ؟!» نعم، ربما لا يتهم الدجاج بها، لكنني لن أسمح بإهانة منظر بيوت الدواجن السوفيتية بعمل منجَز من دون اعتناء!»). وصرخ في وجه الرسام فروم («لماذا في الرسوم الدعائية تبدو أربطة العنق لدى الطلائع حمراء مثل الجزر الذابل؟ يجب أنْ تتوهّج كالنار إلى درجة تؤذي عين الناظر!»). وصاح على الرئيس ديتريخ («ليذهب إلى الجحيم سوق الأحد خاصتك! نحن بحاجة إلى أنْ نفتح حضانة لا أنْ نبيع البقدونس! جميع النساء يجب أنْ يذهبنَ إلى العمل الطوعي يوم الأحد! ولو رأيتُ أحداً يتاجر في الساحة أنا شخصيّاً سأصادر جميع السلع وسأطعمها للطلائع!»).

اعتاد أهالي غنادينتال تدريجيّاً على غرابة أطوار قيادة الحزب: «على الرغم من أنه مخبول، لكنّ فائدته أكثر من ضرره». باخ وحده عرف: ما قيمة هذه الهياكل الخشبية الجديدة والأسقف والجدران الطينية كلّها لو كانت من دون محصول وفير ومن دون فرح أولئك الذين يجنون هذا المحصول، ومن دون إيمانهم ورغبتهم؟ ما كانت لتسوى أيّ شيء ولبقيت هكذا فارغة مثلما كانت قبل عام أو عامين. لأن هوفمان كان يبني ما هو ميّت. أما باخ فنفخ الحياة في هذا الميت.

***

بدا لباخ في بعض الأحيان أنَّ هوفمان كان يحدس موقفه الثانوي، وإلّا فلماذا ينتظر بفارغ الصبر الحكايات الجديدة؟ انتقد وزمجر من عدم

كفاية الرسالة الأيديولوجية وهدّد بأنه سيبدأ هو نفسه بالكتابة ولكنه في كلّ مرة يمسك بشغف أوراق باخ، ويمرّر عينيه بسرعة على السطور وكأنه يبتلع النصّ. وفيما بعد، عندما تظهر الحكاية في الصحيفة كان يقصها بعناية ويلصقها في دفتر كبير قد انتفخ تماماً خلال عامين (في الصفحات الأولى منه بدت الأوراق الصفراء المكتوبة بخط اليد بملاحظات باخ الإثنوغرافية الأولى، وفي الصفحات التي تلتها قصاصات من زاوية «فولكلورنا الجديد»).

بتوجيه من هوفمان قُرئت حكايات من الدفتر الكبير بصوت عالٍ «لضمان الترفيه الثقافي لكادحي الأرياف» في الاجتماعات الأسبوعية في كوخ القراءة وقبل أمسيات الشباب الراقصة وليالي حصاد حشائش العَلَف وجني المحاصيل. وقُرئت الحكايات «من أجل التربية اللازمة للجيل الصاعد» في روضة الأطفال وفي المدرسة؛ واستُعمِلَت بمثابة نصوص للإملاء والاستيعاب ومواد لمسرحيات الأطفال وتمثيليات الطلائع في نادي القرية. وكانت الحكايات أساساً للدعاية السياسية: فقد رسم الفنان فروم بصدقٍ المشاهد التي أحبّها («الشيوعي يقتل آخر شيطان على الأراضي السوفيتية»، «الأقزام ينتمون إلى صفوف الطلائع»، «العمالقة يساعدون فلّاحي المزرعة التعاونية في الحصاد»، «الطلائع يحكمون على ساحرة الغابة») على الصناديق وعلى رفوف الأطباق وإطارات الصور الشخصية للزعماء الشيوعيين وعلى ألواح الجدران والخزانات ذات الأدراج وعلى بيوت الطيور وصناديق الأحذية وشُحِنت بمثابة طلبيات من المستوطنات المحيطة قبل ستة أشهر.

قُرِئت حكايات باخ حتى في دار حضانة غنادينتال، التي افتُتِحَت مؤخراً في «قصر» الطحان فاغنير السابق لكي يترك أهل القرية أطفالهم ويتمكنون من الذهاب إلى العمل في الحقول. شارك في إصلاح المنزل سكان المستوطنة كلّهم في العملِ التطوعي في أيام الآحاد (كان الحاقدون ومروّجو الإشاعات يقولون إنّ هوفمان رتّب أعمال التطوع هذه أيام

الأحد لغرض آخر لكي يصرف أهالي غنادينتال عن إقامة الصلوات الكنسية السرية التي وفقاً للشائعات، يرعاها القس هاندل تارة عنده في المنزل وتارة في شقق غير الواعين والمتعاطفين، وفي أحيان أخرى في مقبرة القرية). ومهما كان الأمر، «القصر» الذي كان مدمراً ذات مرة تألَّق من جديد بالطوب المطلي باللون الأصفر والقرميد الأحمر، والزهور المصنوعة من الحديد التي تلتَفّ على شرفته صارت تلمع مثل الفضة. وزُيِّنَت الغرف مرة أخرى بتماثيل من الجبس لم تعد لفتيات نصف عاريات وشباب في وضعيات متراخية، بل تماثيل أطفال صغار بربطات طلائعية حمراء حول أعناقهم (فقد كُيِّفَت مؤخراً لتُطلى في مصنع الأواني في بلدة ماركسشتات المجاورة).

اعتقد ديورير رئيس مجموعة الطلائع أنَّ مثل هذا المبنى الرائع يجب أنْ يكون مقرّاً لمؤسسة أكثر جدية من حضانة الأطفال، مكتبة أو متحف أو في أسوأ الأحوال نادٍ. غير أنَّ هوفمان أصرَّ على موقفه: «ما الذي يمكن أنْ يكون أكثر جدية من تربية الأطفال السوفييت؟ علاوة على ذلك، سيكون ثمة المزيد والمزيد من هؤلاء الأطفال في غنادينتال في كلّ عام! إننا لا نبخل عليهم حتى بحياتنا، ناهيك عن منزل!». وفي ذلك اليوم نفسه أحضِر إلى «القصر» عشرون سرير أطفالٍ صنعها نجارو القرية ونقشها بالرسوم فروم؛ وعُلِّقَت على الجدران لوحات خشبية رسمها فروم من وحي حوادث الحكايات وعدد من الصور الفوتوغرافية للكبار المهمين، من كارل ماركس وفريدريك إنجلس وحتى كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ؛ وسار هوفمان شخصيّاً في جميع أفنية الدور في غنادينتال، في حملة دعائية من أجل حضانة سعيدة للأطفال.

بدأ عشرون من الملائكة الصغار الشُّقر القذرين، من سنّ عام إلى ثلاثة، كلّ صباح يقفون في الشرفة الحديدية ويلوحون بأكفِّهم المنتفخة إلى الأمهات اللواتي يغادرن إلى الحقل. كثيراً ما راقب باخ هذه الصورة في طريقه إلى هوفمان في مجلس القرية. وبعد ذلك عندما يتوجه إلى نهر

الفولغا عائداً كان يسير مرة أخرى من جانب منزل فاغنير ويرى الأطفال يلعبون مع المربيات أو يستمعون إلى الحكايات. حكاياته هو.

جلس الأطفال ذوو الخدود المكوَّرة، الذين ولدوا بأعجوبة في أكثر سنوات جمهورية ألمان الفولغا جوعاً واضطراباً لينتشي وأمالتشي وهانزيلتشي وغريتشي الصغار على مقاعد منخفضة حول الشرفة واستمعوا إلى الكلمات التي خرجت من تحت يَدَي باخ قبل ليلتين. لا يزال بعضهم لا يستطيع التحدث، لكن الجميع كان يعرف كيف يستمع. كانت المربية المسنة التي ترتدي مريولاً أبيض (الأرملة كوخ التي أصبحت كبيرة بالنسبة للعمل في الحقل) تقرأ بطريقة معبِّرة، تارة ترفع صوتها الأجش وتارة تخفضه إلى حدّ الهمس، تارة ترفع حاجبيها وتارة تهدّد بإصبعها، وكانت رؤوس الأطفال تتمايل على إيقاع كلامها وتعبيرات وجهها وإيماءاتها. وفي بعض الأحيان يتخيل باخ أنَّ هناك، وسط الأقْفاء المجعدة الصغيرة يرى رأس آنتشي بلونه الأبيض.

بالطبع، كان مكانها هنا بين الأطفال. ليس في المزرعة المظلمة التي تركض فيها بمفردها في المنزل المترِب، بانتظار باخ وهي تنصت إلى كلّ حفيف خلف الباب المغلق بإحكام، ولكن هنا بين ثرثرة الأطفال واللعب والتدافع بعضهم مع بعض والمشاجرات والمصالحات وغمغمة المربِّيات غير المُغرِضَة؛ ووسط الألعاب والجدران الزاهية المطلية واللوحات والصور النابضة بالحياة. إنَّ مكانها بين الناس. مكانها الحقيقي هناك حيث تصدح حكاياته.

وبعد أنْ أدرك باخ ذلك لأول مرة، لم يأتِ إلى غنادينتال لمدة أسبوعين. ولم يجبره على المجيء إلى مجلس القرية من جديد إلّا الإحساس بالواجب: ما كان بمقدور أهالي غنادينتال من دون حكايات باخ أنْ يكملوا حصاد محصول وفير بشكل غير مسبوق. وسار من جانب منزل فاغنير بخطوات سريعة محاولاً تجنّب النظر إلى الطفل الصغير في الشرفة وإبعاد فكرة التمرد؛ غير أنَّ حياة الحضانة كانت صاخبة وعاصفة: صراخ وبكاء

وزعيق وعويل وغناء وشعر وتحدّث كان من المستحيل عدم ملاحظة كلّ هذا. وكم كان مستحيلاً التفكير في تسليم آنتشي الصغيرة في يَدَي الأرملة كوخ العظميتَين حتى لبضع لحظات، ناهيك عن الدقائق والساعات.

قرّر أنْ يجد دليلاً على أنَّ الحضانة ليست جيدة بل سيئة على الطفل، فبدأ يراقب منزل فاغنير عن كثب. ومع ذلك، لم يعثر على أيّ دليل: فقد كانوا يطعمون الأطفال بشكل مرضٍ، وكانت الألعاب المشتركة مبهجة والدروس مفيدة؛ كانت الأرملة كوخ ورفيقاتها صارمات، ولكن ليس أكثر مما هو مطلوب: لم يضربنَ الأطفال بالمسطرة على راحة أيديهم ولم يوقِفنَهم على رُكَبِهم فوق حبّات البازلاء في الزاوية (بل حتى لم توجَد من تلك المساطر واحدة في الحضانة، والبازلاء إذا ما استُعمَل فيكون ذلك حصريّاً للحساء).

وفجأة تخيل أنه يستطيع تعليم آنتشي اللغة بدون الناس. وفي الليل شقَّ طريقه إلى الركن الثقافي وسرق الغراموفون مع الأسطوانات (سُجِّلَت على إحداها قصائد غوته بأداء فناني مسرح برلين للدراما، وسُجِّلت على الأخريات أغانٍ مرحة كانت أكثر ملاءمة لكاباريه). استمعت آنتشي إلى الشعر والأغاني عن طيب خاطر، وعوّت بالأنغام، ولكنها ببساطة تمتعت بسرور أكثر بحركة الضوء على القرص المُحَزَّز الذي يدور أو لهت بها: وقد وضعت على حافة الأسطوانة نملة (من تلك الموجودة بوفرة تحت طاولة المطبخ) وشاهدتها وهي تندفع بجلبة جيئة وذهاباً بعد أنْ فقدت القدرة على التوجه. فشلت التجربة التربوية. أراد باخ إعادة الممتلكات المسروقه، ولكن خلال الأيام الماضية تمكن هوفمان من جَلب غراموفون جديد من مدينة ساراتوف.

ومرة أخرى، انجذب باخ إلى الحضانة لمشاهدة الأطفال الغرباء. في بداية الشتاء، أدرك أنه يعرف جميع الأطفال بالوجه. وبحلول عيد الميلاد أدرك أنه يعرفهم بأسمائهم. وفي بداية الربيع عرفَ أنَّ الأطفال الذين جاؤوا إلى الحضانة وهم لا ينطقون قد بدؤوا يتكلمون بالفعل.

في الصيف ازدادت مجموعة الحضانة طفلاً صغيراً جديداً، ذهبت أمه للعمل في الحقل. وبعد أن لاحظ باخ ذلك أمضى يومين لم يتناول خلالهما طعاماً: لم يستطع ابتلاع قطعة من الخبز أو ملعقة من الحساء، لأنَّ أفكاراً مختلفة استولت عليه. لم يستطع الكتابة في هذين اليومين أيضاً. جلس في الفناء ينظر إلى آنتشي ابنة الثلاث سنوات التي كانت تلعب بجواره بصمت. جلس عند قبر كلارا. وجلس خلف الطاولة المضاءة بنور المصباح الأصفر، وهو يخطّ على الورق بدل الكلمات منحنياتٍ لا معنى لها.

وبحلول صباح اليوم الثالث تقرّر كلّ شيء. ولأنه لم يقدر على الانتظار حتى تستيقظ آنتشي هزَّها بهدوء وضمَّها إليه. ووضع الطفلة التي لم تفهم شيئاً بسبب النعاس على الكرسي ومشَّط شعرها المتشابك بعناية وضفره في جدائل لفّه لأول مرة بتسريحة الكعكة كما كانت كلارا تفعل مِن قَبل. ثم رفعها على يديه وحملها نحو نهر الفولغا. بدأت آنتشي تقاوم أرادت أن تمشي على قدميها وقطعت نزوتها بصرخة شديدة.

أوصل الطفلة إلى القارب، ووضعها على مقعد المجذّف. دفع بقدمه الصخرة ورفع المجاذيف. وجذّف بكلّ ما لديه من قوة: سحب مقابض المجاديف الثقيلة نحوه وخَفَقَ! خفقَ مرة أخرى! وشعر بقشعريرة داخله ليس بسبب برودة الصباح المنسكبة على النهر ولا بسبب الخوف. لم ينظر إلى آنتشي لأنه خشي أنْ يغيّر رأيه.

وهي كذلك لم تنظر إلى باخ. جالت عيناها المفتوحتان على سطح الماء وعلى امتداد الضفة اليمنى المبتعدة والضفة اليسرى المقتربة. كانت لأول مرة تبحر في قارب، ولأول مرة تتأرجح على الأمواج ولأول مرة شعرت تحتها بجريان النهر الكبير وبقوته. تمايل الماء بقربها أخضر شفافاً وكثيفاً. وفي العمق لمع شيء ما: ربما، حجارة؟ طحالب؟ ظهور أسماك؟

استندت آنتشي بصدرها على متن الزورق وغمست يدها في الماء ضرب رذاذ دافئ ثقيل على راحة يدها وتدفق بين أصابعها تحية لها.

وانحدر حلقها بقُشَعْرِيرَة ابتهاجٍ. مدَّت آنتشي يدها أعمق إلى الرسغ وإلى الكوع. ثم تنهدت بعمق وابتسمت وضيَّقَت عينيها، ولأنها لم تكن قادرة على التغلب على البهجة التي ازدادت في جسدها اندفعت بقدميها من أسفل القارب وانقلبت على رأسها إلى نهر الفولغا.

-16-

فُقِدَ قطار الصفوة فُقداناً لا شبيه له. فقد قطع خلال ليلة قصيرة من ليالي شهر تموز (يوليو) من عام ألف وتسع مئة وسبعة وعشرين[1] أكثر من ثماني مئة فيرست[2] على السكك التي أُفرِغَت من جميع القطارات الأخرى من محطة توابسينسكي إلى حدود مقاطعة فورونيج واختفى.

كانت قاطرة التحكم لا تزال تنطلق على طول القضبان ممهدةً الطريق على مدى عدة فيرستات إلى الأمام. رافقها بنظراتهم الناعسة جنودٌ من سرايا الحمايات المنتشرة على طول الطرق المؤدية إلى مداخل المحطات، وكانوا يتلفتون برؤوسهم الحليقة ويمدّون أعناقهم بانتظار القطار الرئيس: قاطرتان جبارتان، خلفهما عدد قليل من العربات المدرعة المتشابهة، في واحدة منها أُخفيَ شخص أو شيء ذو أهمية خاصة للحكومة وللبلد ككل. لم يكن ثمة قطار. مسؤولو المحطات المرتبكون أولاً بوديف ثم دافيدوفكا وأنوشكين كانوا يديرون أقراص

1- كانت عودة ستالين المتسرعة إلى موسكو ناتجة عن نموّ كفاح المعارضة. وبعد مدة وجيزة من عودته عُزِلَ زعيم المعارضة اليسارية ليف تروتسكي من صفوف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي (البلشفي)؛ ثم فُصِلَ بعد محاولة انقلاب فاشلة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 1927 من الحزب الشيوعي؛ وفي بداية عام 1929 طُرد من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية؛ وفي عام 1940 – تروتسكي قُتِلَ في المكسيك كما هو معروف.

2- فيرست – هي وحدة قياس روسية قديمة كانت تستخدم لقياس الأطوال. تساوي 1.0668 كيلومتر (0.6629 ميل; 3,500 قدم). (المترجم).

الهاتف بشكل محموم ويصيحون في سماعات الهاتف بخوف: «غير موجود! قطار الصفوة غير موجود!» ويمسحون أقفية أعناقهم المبلّلة بالعرق ويشتمون بعبارات بذيئة.

وصلت مفرزة من الدائرة السياسية المشتركة للدولة على وجه السرعة إلى محطة القطارات المركزية في مدينة ليسكي آخر محطة رُصِدَ فيها القطار. بعد أن استثنى الموظفون المسؤولون جميع الأسباب ذات الطبيعة الغامضة توصلوا إلى الاستنتاج الوحيد الممكن: لسبب ما، انفصل قطار الصفوة عن القاطرة المحرِّكة وسار شرقاً على الخط الفرعي إلى مدينة بينتسا. وصلت معلومات متضاربة من المواقع. ذكرت محطة تالوفايا أنه لم تكن هناك حوادث، في حين أقسمَ غوريونين عامل الصيانة في السكك الحديدية من تشيغلي القريبة، بأنه بالكاد تمكن هذا الصباح من النزول من السكك على جانب الطريق لكي يسمح بالمرور لقطار مسرع لا يُعرَف من أين أتى: قاطرتان، مثبتتان واحدة تلو الأخرى، اندفعتا معاً بسرعة هائلة ولم ينفثا بخاراً أبيض، بل أسود؛ كانت عربات من دون نوافذ تلمع في الشمس بشكل ساطع لدرجة لا يمكن للمرء معها أنْ يميز بالنظر المعدن المصنوعة منه؛ لم تلمس العجلات السكة. وهذا ما ورد في التقرير بالفعل: «كان يطير في الهواء». ودليلاً على ذلك أظهر غوريونين السحجات التي لحقت به عندما وقع في خندق تصريف المياه على جانب الطريق.

بحلول الظهر، عندما وضعت قوات الدائرة السياسية المشتركة للدولة جميع المحطات في اتجاه بينتسا في حالة تأهب، وصلت رسالة تلغراف إلى الكرملين: «أوقِفوا هذه الجلبة التي لا داعي لها. سأصل قريباً». كان التوقيع توقيعه، توقيع الشخص الذي كان يركب في إحدى العربات المدرعة التي لا يمكن تمييز بعضها عن بعض. على ما يبدو، سار مسافة أبعد باتجاه الشرق: وصلت الرسالة من بلاشوف التابعة إلى مقاطعة ساراتوف. ولا توجد أخبار أكثر من ذلك.

* * *

... كان هو مَن يقف في كابينة السائق ويدخن نافثاً الدخان من النافذة المفتوحة. اختلط الدخان مع أعمدة البخار المتصاعد من أنف القاطرة. على جانبي القطار المسرع امتدّت حقول خضراء متجعّدةً قليلاً في الأفق بتلال منحدرة تدريجيّاً. هزّت الرياح الساخنة شعره. وحتى هو نفسه لم يستطع أنْ يفسِّر أهواءه: عندما دخلوا إلى الغابات المريحة في مقاطعة فورونيج التي تشبه إلى حدّ كبير ضواحي موسكو، ولم يبقَ للوصول إلى العاصمة سوى نصف يوم من السير، شعر فجأة *أنه* بحاجة إلى مزيد من الوقت ليس للتأمل في بعض الأفكار المهمة ولا من أجل اتخاذ قرار معيَّن. لم يستطع الإفلات من الوقت، لكن بإمكانه الفرار تماماً من الفضاء المألوف. وفعلاً هرب: أمر السائق من خلال الهاتف الداخلي بالتوقف عند أول مفرق يصادفه ويدير مفتاح التحويلة يدويّاً وأنْ يفصل العربات بأسرع وقت ممكن عن قاطرة المحرّك. حاول مسؤول الحماية الاحتجاج، ولكن عبثاً.

عندما تزوَّدوا بالماء في المضخة الأخيرة، انتقل إلى القاطرة البخارية الأمامية. لم يسمح لأيّ أحد من الضباط المرافقين بدخول المقصورة معه؛ علاوة على ذلك، طلب من جميع «الفائضين» أنْ يتحوّلوا إلى الخلف: المهندس المدرب، والسائق المساعد، والوقّاد البديل. وهكذا انطلقوا في: القاطرة الأولى سائق واحد ووقّاد واحد، وهو زعيم المستقبل. والباقون كلّهم وراءه في المقطورة.

كان هو نفسه يطلق على نفسه زعيم المستقبل، في بعض الأحيان، وكأنه يسعى لذلك. لم يحب هذه العبارة: كان فيها قدر كبير من عدم اليقين ونوع من عدم الإلزام، وكانت تفوح منها رائحة الشك أو الوعد الذي لا يمكن تحقيقه. لكن لم يكن لديه خيار آخر: فهو لم يصبح زعيماً حقيقيّاً بعد. وبعد وفاة الزعيم القديم، قبل ثلاث سنوات، بقي القليل من الطامحين لدور الخليفة، وكلّهم ما زالوا يتدافعون هناك، عند عجلة القيادة، لا يرغبون بالتنازل ولا يقدِرون على الاتفاق. كانوا يتقاتلون

بشراسة، مؤكدين بعضهم لبعض وللمجتمع ولاءهم العميق لأفكار الزعيم الراحل، والحق في تفسير كلماته بشكل صحيح وأن يكونوا ورثته في السلطة. كانت الأدوات في معركة الحَواريين السابقين هي اقتباسات من كتابات الزعيم ومقالاته ورسائله، التي اكتسبت تدريجيّاً مكانة التقديس.

كان يعرف كيف يشنّ الحرب ليس القتال بقناع مكشوف، بوقاحة وغباء، كما يفعل المجانين على وجه الخصوص، بل يحوك الشرك بهدوء كالعنكبوت، ويحسب الخطوات كما في الشطرنج، وينتظر اللحظة المناسبة للقيام بهجوم مدمّر قصير. الآن هو مجبَر على المغادرة إلى موسكو، وأنْ يقطع إجازته لم يكن لديه الوقت الكافي للحصول على ما يكفي من شمس الجبال التي أحبَّها، وأنْ يستلقي في حمامات ماتسيستا العلاجية المفيدة للروماتيزم ولمرض السل المزمن الذي جلبه من المنفى في توروخانسك من أجل الدخول في صدام آخر مع رفاقه الذين انتعشوا بشكل ملحوظ أثناء غيابه. شيء ما كان يفتقده للنصر النهائي. نوع من الفهم الرئيس والنهائي؟ رعشة داخلية من شأنها أن تخرج من المدار المعتاد وتعلو به فوق الآخرين؟ مناسبة سعيدة، وقافية رشيقة من القدر؟ ربما، كان يفتقر ببساطة إلى المقياس.

إنه على الإطلاق لم يحسب البعد الروحي والقدرة على التحليق بالفكر بشكل واسع وحرّ من الفضائل. فذات مرة بدا له *أنه* يعرف كيف ينظر إلى العالم من ارتفاع الطائرة، ولكن بمرور الوقت بدأ يشك في الحاجة إلى مثل هذا التسامي لأنه كان يعني الانفصال عن الأرض ويؤدّي على المدى الطويل حتماً إلى فقدان الارتباط بها. فالفلاسفة والشعراء الذين يسرحون في المجالات العالية قلّما صاروا حكاماً حقيقيين، والحكام الحقيقيون بدورهم غالباً ما كانوا شعراء سيئين. لذلك، اليومِ ابتسم فحسب ردّاً على اللوم «بالضحالة» واختار التقييد كأداة رئيسة له: إنّ بناء الاشتراكية في بلد معين يتطلب إقامة حدود متينة لا يمكن لبيئة معادية

أن تخترقها. واعتبر القدرة على رسم خط واضح بين الآراء والأشخاص والمجموعات الاجتماعية أحد مواهبه الرئيسة. ولكن هذه الموهبة بدت الآن تمسك به كالمرساة وتعيق حركته. لقد أعاقته من الإحساس بزمرة رفاقه في السلاح المُقلِقة وغير المتجانسة، كلّ هذه المعارضات *اليسارية والجديدة* وغيرها، بوصفها كلّاً واحداً، قد ابتعدت عن هذا الكلّ وتسامت فوقه من أجل الفوز.

– هل نذهب باتجاه اليمين، إلى مدينة ساراتوف، أو باتجاه اليسار إلى بينتسا؟ سأل سائق القطار سؤالاً اعتيادياً، عندما ظهر أمامه المفترق الأخير.

– باتجاه اليمين، قال وهو يبتسم. – كلّ يذهب لوجهته، أما نحن فوجهتنا اليمين فحسب.

– لا يوجد هناك جسر فوق نهر الفولغا. سوف نصل إلى ساراتوف، ومن ثم، حسب مشيئة الله.

– إذن، لنرى ما هي مشيئة إلهك لنا هناك.

لم يوجد في ساراتوف جسر بالفعل. ولكن كانت هناك قاطرة عبّارة. أشرف شخصياً على حركة القطار عبر نهر الفولغا مدير المحطة المنفعل من المباغتة الحكومية المفاجئة والمسعور بسبب جوّ المساء الخانق.

انزلقوا على طول المسارات المرصوفة بالجذوع إلى حافة الشاطئ وتسلقوا إلى سفينة العبارات الضخمة. لم يكن من الضروري تقسيم قطار الصفوة القصير إلى أجزاء، فقد وسِعَته المنصة بشكل كامل. وعندما هبطت قليلاً سفينةُ العبارات تحت ثقل القاطرتين والثلاث عربات المدرعة، وتسمّرت العربات نفسها التي ضغطت بإحكام على القضبان بواسطة قباقيب الفرملة الحديدية، أراد رئيس المحطة أنْ يقول «هيّا!» بصوته المبحوح من الاضطراب ولكنه بدأ يشخر ويسعل فحسب؛ فنزع بسرعة الطاقية الكتّانية عن رأسه ولوَّحَ بها بشكل محموم معطياً إشارة إلى القبطان. وفي تلك اللحظة أبحروا على الفور.

نزل *الزعيم* بتأنٍّ من مقصورة السائق، وسار على طول سطح السفينة الذي كان يفوح بالحرارة من جانب المهندسين والوقّادين الذين اندفعوا للتمتع بالنهر، ومن جانب رئيس الحماية الذي ازداد وجهه العبوسُ كآبةً بسبب البعد عن موسكو وصعد إلى جسر القبطان. ومن هناك بدت مراقبة ما يحدث أكثر بَهْجَةً.

تحرَّكت العبارة ببطء عبر نهر الفولغا. وكانت أشعة الشمس تنساب في الأفق إلى سُحب برتقالية وحمراء لاحت في الأفق في مكان ما خلف التلال الليلكية الداكنة. فاض الغروب فوق النهر وحجبه بإحكام مثل النفط. بدا الأمر وكأنهم لا يسيرون على الماء، بل على حمم بركانية ساخنة. نظر *الزعيم* إلى النهر العريض والبطيء (اعتاد الروس أنْ يعدّوا الفولغا نهرهم الكبير والرئيس، لكن هذا الجمال الناعس لم يلامس قلبه السريع النبضات على الإطلاق) وفكَّر في مَن الأكثر سعادة في مهنته: سائق القطار أو قبطان العبارة. أحدهما يتبع إلى الأبد قضباناً وضَعَها شخص آخر؛ إنَّ كلّ دقيقة وكلّ فيرست يمرّ من خلاله يمنحه مناظر جديدة، ولكن ليس بمقدوره الانحراف عن المسار المقصود حتى بمقدار شبر واحد، لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، ناهيك عن تغيير مستوى الحركة. أما الآخر فيمتلك الحرية بالاستدارة في السفينة التي يقودها؛ وإذا ما رغبَ، يمكنه أنْ يقوم بحركة مفاجئة، على سبيل المثال، أنْ يرسم دائرة أو شكل ثمانية على سطح الماء؛ ولكن على كلّ حال فقد حُكم عليه أنْ يتنقّل دائماً جيئة وذهاباً بين نقطتين معينتين، وأنْ يشاهد المنظر الواحد نفسه دائماً وأنْ يعود دائماً إلى نقطة انطلاقه... ربما، كلاهما غير سعيد. لم ينسب *الزعيم* نفسه إلى سائقي القطارات ولا إلى قَباطنَة السباحة العرضية (العبّارين كما يُطلق عليهم في حوض الفولغا للمزاح). لو كان هو أصغر بثلاثين عاماً لصاغ من هذه الأفكار قصائد جيِّدة.

قُبيل حلول الليل كانوا على الجانب الآخر. لم يكن ثمة قمر في السماء، ولا نجوم أيضاً. إلى الأمام، في الظلام الدامس والخانق، يمكن

رؤية سهل واسع مقفر، بُعد لا نهاية له. «ها هي، آسيا...» لسبب ما قال سائق القطار بتأمّلٍ، على الرغم من أنَّ كُتبُ الجغرافيا تذكر أنَّ آسيا تبدأ بعد سبع مئة فيرست أخرى، عند ساحل بحر قزوين. ومع ذلك، كانت المساحات المفتوحة في تلك المنطقة واسعة جدّاً لدرجة أنَّ عدة مئات من الكيلومترات لم يكن لها أهمية كبيرة هنا.

طلب سائق القطار، الذي كان يخشى السير في طريق غير مألوف في الظلام الدامس، أنْ ينتظروا حتى الفجر. وافق *الزعيم*. أمضى الليل بدون نوم: كان يفكر، يتقلّب بلا كلل في الفراش الناعم للغاية، لافّاً نفسه بالبطانية من حين إلى آخر كما تلفّ الحشرة نفسها في الشرنقة وشابكاً نفسه فيها؛ وقبيل الصباح تعب من الأفكار، بالكاد انتظر بزوغ الفجر. فنهض، متغلباً على آلام العضلات وثقل الرأس من عواقب الأرق؛ فتح الستائر، ونظر من النافذة وعلى الفور نسي الصداع وآلام الجسد.

اقترب قطيع خيول السهوب الصغيرة بحذر من القطار المتوقف من دون حركة بعد أنْ تغلّبت على خوفها. الخيول القصيرة (أطول قليلاً من الأغنام يكسوها شعر خشن أشعث) مدَّت بفضول أبوازها ذات الأنوف المعقوفة نحو العربات، واستنشقت الهواء بأنوفها المبلّلة الكبيرة. وفجأة، إما لأنها لاحظت حركة في النافذة، أو خافت من شيء ما، استدارت وفي الوقت نفسه قفزت نحو السهب مندفعةً عن الأرض بأرجلها القصيرة بنبض سريع وهي تهزّ بشكل مضحك أجسامها الصغيرة ذات الجوانب المنحدرة.

عندما استقر الغبار الناجم عن الخيول، لاحظ لافتة على جانب الطريق بحروف مخطوطة بدقة بصبغ أسود: «*Willkommen in Pokrowsk!*»[1].

– خذ، هذه آسيا، قال *الزعيم* وابتسم ابتسامة عريضة.

1- مرحباً بكم في بوكروفسك. وردت العبارة في النص الأصلي باللغة الألمانية. (المترجم).

خرج من المقصورة وفي نافذة الدهليز رأى مباني بوكروفسك نفسها غير بعيد. تقع مجموعة صغيرة من المنازل في وسط سهب مترامي الأطراف، مثل جزيرة على سطح الماء. كان ثمة رجل قصير الساقين يركض من المدينة على القضبان، كاد يسقط على قدمه، وكان يسبّ بصوت عالٍ لدرجة أنَّ مَن في عربة القطار سمع صوته. يمكن للمرء أنْ يميّز في كلامه الروسي، المفعم بالحيوية والطلاقة، لهجته الأجنبية بشكل واضح.

- ما أنت، بحق الجحيم؟! صاح على قطار الصفوة وهو يلهث من الجري السريع ويلوِّح بكلّ قوته بشيء أبيض، على ما يبدو، عَلَم الإشارات. - هل جُنِنت، أخذك الطاعون، كيف تبيت الليل على متن سكة الحديد؟! من أين قذف بك القَدَر على رأسي! سيأتي قطار الأورال في غضون ساعة! انزل عن متن سكة الحديد، أيها الانتهازي!

كالَ الرجل الصغير المزيد من الشتائم، واستمرّ في السباب، وتحول إلى لغته الغريبة، القاسية وذات الهسهسة، ولكن لم يسعفه الوقت للوصول إلى القطار وإكمال الخطاب، فقد دُفن صدره في مواسير مسدسات الحماية التي كأنما خرجت من تحت الأرض. وبدأ يصيح مولولاً كالنساء، وانثنت ساقاه اللتان تعبتا من الركض، وكاد يسقط على القضبان. ثم رفع يديه إلى الأعلى، مدفوعاً في صدره بجميع فوهات المسدسات تلك، وبدأ يتقهقر خائفاً، ومتشبثاً من حين إلى آخر بالعوارض بكعبي حذائه المستهلَك.

- إنه قطار الأورال!، قال متلعثماً بارتباك، وهو يلقي نظرات خاطفة قصيرة على القبعات الزرقاء ذات الشرائط الحمراء الداكنة ويحاول تحديد ماهية القطار الغامض. - حتى لو لم يصطدم بكم القطار، سأكون أنا تحت طائلة المسؤولية...

فجأة لاحظ وجود راكب ينزل من العربة ويمدّ ساقيه بعد ليلة من النوم. تجمد وجه الرجل، وفُتِحت عيناه فقط حتى أصبحتا مستديرتين تماماً. ودُفِعَ برفق بماسورة المسدس تحت الضلع: هيّا، تحرَّك... ثم نظر بعيداً، وأخرج زفيراً عميقاً، وأومأ برأسه قليلاً وبسرعة: «لماذا لم تقولوا

على الفور، أيها الرفاق، الأعزاء، المحترمون...» وبدأ يحرك رجليه بشدة وتكرار، وأخيراً استدار وانطلق على عوارض السكة إلى المدينة بسرعة مثلما انطلقت الخيول القصيرة الشعثاء في السهب.

كان أمام قطار الصفوة طريق واحد فقط، هو الطريق إلى بوكروفسك: تقود القضبان إلى هناك مباشرة وبثبات؛ لم تُرَ هناك لا مفترقات طريق ولا تحويلات.

* * *

تسلل القطار إلى المدينة بحذر، بسرعة منخفضة، أملاً بتجنب انتباه سكان المدينة والتوغّل أبعد. ولكن عندما زحفت العربات من جانب المنازل الأولى، أصبح واضحاً أنها لا يمكنها المرور: يبدو أنَّ الرجل ذا الساقين القصيرتين قد أعلن بصوتٍ عالٍ عن وصولها. فركض الناس على طول الشوارع المستقيمة الممتدة كالمسطرة إلى محطة القطار: رجال في بلوزات طليقة خارج السراويل يجرّون راية حمراء، على ما يبدو مأخوذة للتوّ من سطح أو بوابة؛ ويركض خلفهم سرب من الأطفال الحفاة الأقدام، وخلفهم كلاب صغيرة تقفز كحَب الحمص المنهال؛ وكان عدد من الموسيقيين الذين يحملون آلاتهم تحت آباطهم يبدلون بعضهم بعضاً في السير محاولين تثبيت أوراق النوطة المدعوكة بمشابك الغسيل على الأبواق وآلات الهورن الفرنسي. وقد شيعت هذه التيارات البشرية بنظراتهن نساءٌ مسناتٌ ونحيفات متدثرات بشالات زرقاء ثخينة لا تتلاءم مع الحر، أولئك النسوة وحدهنَّ وقفن بلا حراك وسط الفوضى مُسنِدات ظهورهنَّ على الأسيجة وأحياناً يضعن بأصابعهنَّ على وجوههنَّ العظمية صلباناً عريضة.

انتظم التدفق البشري عند مبنى المحطة: تجمَّع الناس البسطاء والفضوليون على طول حواف الرصيف؛ وفي الوسط، تحت ساعة دائرية ذات إطار من الحديد المُخَرَّم بدت بلونها الغامق سترات وأردية المسؤولين؛ وفي الجوار راوحوا مكانهم بشكل متنافر عازفو أوركسترا صغيرة، وهم

يلمّعون بالنحاس وينظفون فوهات الآلات بنفخات حادة، وانضم إليهم من حين إلى آخر عازف آلة الترومبون أو عازف الكمان التالي مسرعاً.

عندما اقترب قطار الصفوة من الرصيف، كبح سرعته. وتوقف.

– من أعطى الأمر بالتوقّف؟! بدأ مسؤول الحماية يزأر في سمّاعة الهاتف. – هيّا، تحرّك!

– لا أستطيع. صوت السائق مرتبك، بل خائف. – القضبان القادمة ليست هي نفسها.

– ماذا يعني «ليست هي نفسها»؟

– القضبان القادمة ضيقة. قبل المدينة كانت عادية، لكن الآن رأيتها: تبدو أنها صارت أضيق. كان ينبغي التحقق منها وقياسها...

– هل جُنِنت، أو أنَّ عينيك قد احولّتا؟ أَم أنّك سكران؟ كيف يمكن أن تضيق القضبان بدون سبب؟ هنا، من القرن الماضي، كانت القاطرات البخارية تنطلق ذهاباً وإياباً! ثمة فرع يمتد إلى جبال الأورال!

– إنّي لم آتِ إلى السكة الحديدية أمس! لمدة ثلاثين سنة وأنا أمهّد الأرض بالقاطرات البخارية! عيناي لا تميّزان القضبان فحسب، بل حتى تلاحظان الانحناء في كلّاب تثبيت القضبان على عوارض السكة! أقول – سوف نسقط عن متن السكة إذا تحركنا إلى الأمام! وإذا كنت تريد انهض وتعالَ خذ مكاني واجعل القطار يحيد عن القضبان! لكن بشرط أنْ أخرج أنا أولاً من القطار! فلديَّ أطفال وعندي سندات قروض حكومية لم أوَفّها بعد، ثماني مئة روبل تقريباً!

– حسناً، قال *الزعيم* من خلف الستارة المنسدلة، وهو ينظر إلى الحشد الذي تجمع على الرصيف. – دعه يفحص قضبانه. وسنخرج نحن للناس، ما دمنا قد أتينا.

بمجرد أنْ فُتح باب العربة، حتى عزفت الأوركسترا على الفور مارشاً حماسيّاً ومفعماً بالحيوية. وتمايل حضن من الزهور البرية وطاف نحو

الضيوف، ومن فوق بدا شاحباً وجه الشخص المُسْتَقْبِل الرئيس الوَجِل. ورفرفت في مكان ما في الخلف، فوق الحشد، قطعة قماش قطني أحمر زاهٍ، مزينة بنقش بلغة غير مألوفة.

– مرحباً بكم في عاصمة جمهورية ألمان الفولغا الاشتراكية السوفيتية! صاح الشخص المُسْتَقْبِل بحماس، محاولاً من دون جدوى أنْ يغطّي على صوت الموسيقى الهادر بالقرب منه.

يتألف وجهه الهزيل بالكامل من تجاعيد عمودية، تقطعها حواجب كثيفة من الأعلى، وفي المنتصف شريط عريض من الشوارب الخشنة التي لونها لون اللحاء المنقوع. سالت جداول كثيرة من العرق على التجاعيد العميقة نفسها على جسر الأنف وعلى طول الخدَّين الغائرين والأنف الكئيب: تدفق العرق من تحت القبعة المهترئة المرخية إلى الأسفل على الجبهة واختفى خلف ياقة القميص القطني الذي ارتُدِيَت فوقه كذلك سترة داكنة زُرِّرَت جميع الأزرار فيها. وكما اتضح بعد ذلك بقليل، كان هذا الشخص بيكر رئيس لجنة الحزب. كان جسده ضَئِيلاً، ورقبته رقيقة، وبدا أنَّ أضلاعه غير موجودة تماماً، ملابسه معلَّقة على كتفيه الضيّقتين كما تُعلَّق على حمّالة الملابس. ولاح خلف ظهره عدد آخر من الأجساد النحيفة نفسها في سترات ولكن بدون قبعات، بل في صدارات عادية.

أخذ *الزعيم* الزهور، وأومأ برأسه تحية للمستقبلين (لم يكن ثمة جدوى من قول شيء ما مع هذه المرافقة الموسيقية المدوِّية)، صافح الأيدي التي امتدَّت له والتي كانت جافة وصغيرة بشكل مدهش كما لو كانت أيدي صبيان. ألقى نظرة حوله. كلّ شيء هنا بدا صغيراً بشكل غريب: مبنى محطة القطار المريح، مُشيَّد من الطوب الناعم ويشبه منازل ألعاب الأطفال؛ والمصابيح مصغرة؛ وكلاب الشوارع بحجم القطط، والقطط بحجم القوارض. والأهم من ذلك الناس! مع أنه هو نفسه لم يكن طويل القامة، لكنه انتصب هنا كالبرج: لسبب ما لم يكن ثمة شخص واحد في الحشد الذي تجمع في المحطة أطول منه قامةً، وكان ينظر إلى الجميع من الأعلى إلى الأسفل،

مثلما ينظر إلى الأطفال؛ كان بإمكانه أنْ ينظر بحُرِّية فوق رؤوسهم ويرى ما كان يحدث في أبعد الصفوف؛ ويمكنه أنْ يمد يده، وحتى من دون أنْ يرفع نفسه على أطراف قدميه، ويدير مؤشِّر ساعة المحطة المعلَّقة تحت السقف. لم يكن السكان المحليون أقزاماً؛ ربما، أنَّ قصر قاماتهم مقيَّد بمعيار: لو كانوا أقصر بقليل لأمكن أنْ يطلق عليهم اسم القُصَّر، ولكنهم الآن بدوا كمجموعة من الأشخاص الصغار جدّاً الذين جُمِّعوا عمداً في مكان واحد بسبب نزوة غريبة من أحدهم أو من أجل الهزل.

أنهى الموسيقيون عزف المارش. أدار المايسترو رأسه إلى القيادة وتجمد، في انتظار الأوامر بعزف لحن آخر أو لا. وتجمَّد بيكر كذلك لأنه لا يعرف ما إذا كان الضيف قد جاء إلى بوكروفسك لغرض معين أو أنه خرج ببساطة إلى رصيف المحطة لتحية الجمهور وسرعان ما سيواصل طريقه.

– الشيطان وحده يعلم ما سيحدث! سُمِع صوت سائق القطار الحزين في الصمت؛ فقد تمكَّن خلال الدقيقتين الماضيتين من القفز على القضبان ودراستها بعناية (نظر إليها وجسَّها وقاس سُمك كلّ سكة بالفرجار وحسِبَ المسافة بينهما)، والآن صعد إلى رصيف المحطة واندفع من خلال الحشد بأعين مذنبة نحو رُكّابه. – تراءى لي! عفواً، أعتذِر! لقد تبيَّن أنها قضبان عادية! تبدو من فوق سكّة ضيقة! وعندما يقترب المرء منها يراها سكة عادية. كما لو أنَّ عَينَيَّ سحرتهما ظلمة، كان ذلك من عمل الشيطان! عفواً! أعتذِر! حدثَ لي هذا لأول مرة خلال ثلاثين سنة من العمل على خط السكة الحديدية! يمكننا الانطلاق إلى الأمام، من هذه اللحظة!

تنفس مسؤول الحماية الصعداء، ونظر إلى سائق القطار بنظرة توعّدٍ ثقيلة.

– لماذا ننطلق إلى الأمام؟ ابتسم *الزعيم*، وهو يسلّم الباقة لمسؤول الحماية. – استقبلنا الرفاق بكلّ حفاوة. لن نسيء إليهم سوف نبقى هنا

بعض الوقت. أنا، على سبيل المثال، لم أذهب قط إلى جمهورية ألمان الفولغا. ماذا عنكم؟

هزَّ الرجل رأسه بارتباك. فقعقع *الزعيم* بلسانه عتاباً، هكذا إذن! وسار يقوده بيكر الذي لا يقل عن صاحبه ارتباكاً إلى مبنى المحطة ومن خلالها إلى المدينة. وسرعان ما أمر مسؤول الحماية، وهو يلعن بصوت خافت في نفسه، بتأمين حماية القطار وأسرعَ على أثرهما، ممسكاً باشمئزاز الزهور الفوّاحة في يديه.

أجلسَ بيكر المضطرب الضيفَ في السيارة، وهو يوبخ السائق بصوت منخفض باللغة الألمانية على شيء ما ويمسح بكمِّه الغبار من جوانب ومقابض أبواب السيارة «فورد» القديمة. حشر *الزعيم* نفسه بطريقة ما في المقعد الخلفي، متعجباً من الحجم الصغير غير العادي للسيارة: كانت رجلاه طويلتين جدّاً ولم يستوعبهما المكان الضيق إلّا بصعوبة؛ ربما، حدث هذا لأول مرة في حياته. وفي الوقت نفسه، لا يبدو أنَّ مسؤول الحماية الذي كان يجلس بجانبه، والضبّاط المرافقين الذين يجلسون على الدرجات، قد عانوا أيّ إزعاج ولم يندهشوا من صغر حجم الأشياء والمخلوقات الحية المحيطة، ومن انكماش العالم في هذه المنطقة الذي لا شك فيه. نظروا بهدوء، بل حتى بنوع من اللامبالاة، إلى ساحة المحطة الضيقة المزروعة بالأشجار الصغيرة الضعيفة النموّ؛ وإلى مجموعة خيول جرّ العربات القصيرة والمشدودة إلى عربات واطئة؛ وإلى العصافير الصغيرة التي تناثرت من تحت العجلات والتي أكملت الصورة بزقزقة رقيقة يصعب سماعها.

– بماذا تتكرمون؟... قال بيكر، وقبل أنْ ينهي عبارته، شعر بالإحراج من طريقة التعبير القديمة وحاول أنْ يصحح كلامه. – إلى أين تأمرون؟ غصّ بكلامه وسعَلَ ووجد أخيراً الصياغة اللازمة: – ما الذي سنشاهده في المدينة؟

– وما الذي يمكن رؤيته في عاصمة الجمهورية الألمانية؟

كان هناك الكثير مما يستحق المشاهدة. مصنع لحم الخنزير المقدّد

ومصنع طحن العظام (تفحص الوفد بعناية مرافق الإنتاج والمَجْلَدة المليئة بالذبائح المجمدة، على ما يبدو لم تكن ذبائح من الأبقار والخنازير، بل عجولاً وخَنَانيص[1] حديثة الولادة). وقرية الطواحين (كانت أجنحة الطواحين الخشبية التي تدور برتابة تشبه المراوح الكبيرة إلى حدّ ما). وحديقة المدينة التي تحتوي على العديد من الدروب المريحة التي تظلّلها الأشجار والمزينة بمنارة زخرفية (وعندما مرَّ *الزعيم* من أمامها لاحظ أنَّ طوله بمقدار ارتفاع المنارة تماماً).

كلّ شيء هنا كان غريباً، ويحمل لمسة اصطناعية وخاصة بألعاب الأطفال: عند دخول المبنى، اضطر *الزعيم* إلى الانحناء حتى لا يضرب بجبهته عتبة الباب؛ وعندما سار في الشوارع، استطاع أنْ ينظر في نوافذ الطوابق الثانية ويراقب الحياة الجارية هناك. وعندما تفحَّص مبنى المستشفى المحلي الصغير المُجَحدَر، لامس من دون قصد السياج الخشبي بكوعه، فمال السياج وتشقق وانقضَّ على الأرض وانهارَ على شكل ألواح.

– شكراً! صرخ بيكر بصوت حادّ في اللحظة نفسها. لطالما أردنا استبدال هذا السياج بسياج من الحديد، لكن أيدينا لم تصل! وها هي يداك قد وصلتا إليه! شكراً جزيلاً، شكراً بروليتاريّاً لكم!

ثمة الكثير من الأشياء في بوكروفسك بدت بمقدار طول *الزعيم*: الأعمدة الكهربائية والمنازل والأشجار، وحتى برج المطافئ. كان الشعور بالتساوي في الطول مع الأشياء المحيطة منذِراً بالخطر وفي الوقت نفسه مُبَشِّراً أنه يتضمن بوضوح نوعاً من المعنى الخفي، وإجابة عن سؤال غير موجَّه ولكنه مهم. لقد كافح *الزعيم* من أجل فهم ما يجري ولم يستطع: فكلّ اللافتات والكتابات كانت باللغة الألمانية. حاول تهدئة الانزعاج المتزايد، ولكنه لم يعرف كيف.

لقد انزعج من النظافة والدقة غير العاديتين وبالتالي اللتين تثيران

1– خَنَانيصُ: جمع خِنَّوْصُ. الخِنَّوْص: وَلَدُ الخنزير. (المترجم).

الشكوك: الأرصفة مكنوسة كما لو كان تنظيف الشوارع هو المعنى الوحيد لحياة عمال النظافة، وزجاج النوافذ مغسول إلى درجة الشفافية التي لا يمكن تصديقها؛ والحمام الجالس على الأسلاك الكهربائية عُلِّمَ، بصدقٍ، ألّا يذرق في أيّ مكان كيف ما اتفق، بل حصريّاً على مغارس البساتين. وأزعجه سكان البلدة القِصار القامة، الذين لم يكن على وجوههم سوى تعبيرين: إما البراءة الصادقة، أو الاجتهاد المركز. وأزعجه بيكر النحيف جدّاً، والمهتاج إلى درجة الضجَر، والذي من حين إلى آخر يمسح وجهه بمنديل أنف (سرعان ما بلّل المنديل تماماً، مثلما بلّل القميص الكتان والسترة وحتى القبعة التي ارتداها بمناسبة الحدث المهم؛ ولكن لم يفكّ الزرّ الذي ضغط على حنجرته، علاوة على ذلك لم يجرؤ بيكر على خلع قبعته). وأزعجه الغداء عصيدة الذرة مع القليل من لحم الخنزير المخلّل؛ بالإضافة إلى ذلك، الأطباق كانت عبارة عن حصص أطفال صغيرة، لذلك وجب عليه أنْ يأخذ أربعة أطباق حتى يشبع. وأزعجته الصحف المحلية الألمانية والروسية المطبوعة على أوراق قصيرة بشكل غريب ومُنَضَّدَة بخطّ متراصٍّ لدرجة *أنه* لا يستطيع قراءة كلمة، مهما حاول. وأزعجه هذا العالم كلّه، الصغير إلى حدّ السخرية والهش إلى حدّ الخيانة. إنه عالم الغرباء.

– حسناً، ألا يوجد لديكم شيء من *هذا القبيل*؟ لم يستطع *الزعيم* التماسك مع بداية الليل. – شيء مهيب؟ هائل؟ حقيقي؟

– يوجد! أجاب بيكر على عجل؛ ثم بدَّل رأيه، بعد أنْ مسح قطرات كبيرة من العرق من شاربه وفهم السؤال؛ وأخيراً جاءته الفكرة: – بالجوار منّا، في بلدة ماركسشتادت القريبة! مصنع جرارات حقيقي، محلّ ولادة أول جرار سوفيتي. كيف لم يخطر ببالي أنْ أقترح ذلك عليكم! شكراً لك! شكراً بروليتاريّاً جزيلاً!

***

وصلوا إلى ماركسشتادت في غضون ساعة واحدة. كان بانتظارهم

في ساحة المدينة حشد من عمال المصنع المذهولين المُمشّطين شعرهم على مَفرق مائل والذين لا تزال جباههم وأعناقهم رطبة وتقطر من الغسيل الأخير. اجتمعوا لسبب مهمّ: إذ تقرّر الاحتفاء بوصول إحدى الشخصيات الرئيسة في الدولة من خلال إقامة تجمّع غير مقرّر والذي يجب أنْ يتكلّل بهدم علني للنصب التذكاري ليكاترينا الثانية[1]، الذي لا يزال ظاهراً بحُسنه في وسط ماركسشتادت. كان وجود الشخصية القيصرية في المركز الإقليمي للجمهورية السوفيتية بمثابة خطأ في تقدير الحسابات المحلية بلا شك. فقرّروا إصلاح هذا الخطأ على الفور، ومنح الشخصية نفسها (التي هي عبارة عن بضعة بودات[2] من البرونز ذي القيمة العالية!) حياة جديدة من خلال إعادة الانصهار: وتُصَب منها بحضور الضيف المميز أجزاء للجرار.

عندما مرَّ *الزعيم* من أمام الحشد غير المتناسق وحيّاهم بكفّي يديه الواهنتين، تفحّص وجوه العمال من السيارة فرآها مخطّطة بالتجاعيد المبكرة وبُنّية اللون من سفع الشمس، العيون وحدها تضيء على الخلفية الداكنة بسذاجة ونظافة. بدا الكادحون كأنهم مراهقون قد أنهكتهم التغذية السيئة والمعاناة في سنّ مبكرة، وليسوا رجالاً بالغين. وازداد الانطباع عندما خرج من السيارة: فتبيّن *له* أنَّ سكان ماركسشتادت أقصر من سكان العاصمة بوكروفسك ويكاد يبلغ طول السكان المحليين إلى حدّ كتفه. ومع ذلك، كان الفلاحون الذين وصلوا عن غير قصد إلى التجمع الجماهيري والذين من الواضح أنهم جاؤوا إلى ماركسشتادت

1- أُقيم النصب التذكاري ليكاترينا الثانية في يكاترينَنشتادت (الآن مدينة ماركس) بمبادرة من المستوطنين الألمان وبالأموال التي جمعوها. اشتغلَ التمثال النحات البارون فون كلودت. وفي أواخر العشرينيات من القرن العشرين – وبداية الثلاثينيات فُكّكَ النصب التذكاري، وفي عام 1941 صُهِرَت مكوناته لتلبية احتياجات الجبهة. في عام 2007 افتُتِحَ نصب تذكاري جديد في الموقع التاريخي، أُنشِئ بتبرعات من رعاة الفنون الأسْخِيَاء وسكان المدينة. (الملاحظة من الكاتبة).

2- البود – وحدة وزن روسية قديمة زنتها 16.38 كيلوغراماً. (المترجم).

من المناطق النائية، أقصر منهم، وكانت العنزة التي يمسك أحدهم بحبلها بحجم كوسة كبيرة.

أومأ *الزعيم* بنظرةٍ إلى مسؤول الحماية بدا الرجل متعَباً وضجِراً بعض الشيء: إنَّ ضيق المساحة وجفاف الأشياء والكائنات الحية لم يزعجه على الإطلاق. ولمّا شعر بالقلق المتزايد في روحه من انكماش العالم المحيط به بشكل متزايد، والذي كان ملحوظاً *له* وحده، وبعدم تمكنه من سماع الخطابات الملهمة التي صدحت من المنصة، نظر بذهول فوق رؤوسهم الحاسرة وفوق قبعاتهم وشالاتهنَّ والتقى بنظره مع يكاتيرينا.

ابتسمت *له* ابتسامة ذات معنى كبير ابتسمت ابتسامة نِدٍّ. تربَّعَت يكاتيرينا البرونزية، في رداء إغريقي عتيق وتاج الغار على جبينها، بفخرٍ متباهيةً على مقعد روماني الشكل وهي تمدّ يدها بلطف حاملة لفافة ثقيلة (هذه اللفافة، كما تبيَّن لاحقاً، هي المرسوم الذي دعت فيه الألمان قبل قرن ونصف إلى الانتقال إلى روسيا). كان التمثال صغيراً ربما كانت الإمبراطورة بطول الإنسان العادي ولكنها وسط السكان المحليين الضئيلين بدت مهيبة جدّاً. واصلت يكاتيرينا ابتسامتها حتى عندما ألقيت أنشوطة حول رقبتها المكشوفة، وعندما اقتلعها من القاعدة الجرار الصغير (العجلات المسننة تدور بسرعة وأنبوب العادم يسعل بشكل متكرّر، وفي الجانب يهتزّ صندوق التروس الذي يحمل كتابة «كارليك (القزم)»). لم ينجح الجرار في قلب المَلَكية فتعيَّن على الناس كلّهم أنْ يساعدوه: بعد أنْ أمسكوا بالحبل بكلّ ما لديهم من قوة للسحب تحت قيادة بيكر المبلّل من العرق أكثر منهم بسبب الاضطراب. وأخيراً تمكنوا من إسقاطها. وسقط في الوحل وجه يكاتيرينا المبتسم، الذي كان يشبه القوس في الفضاء.

فبعد أنْ أمسك العمال بجسد الإمبراطورة المخلوعة حملوه على أكتافهم وجرّوه إلى المصنع، كما يجرّ النمل القشة. وسار الباقون خلفهم أيضاً.

لقد تصوَّر *الزعيم* أنَّ السكان الألمان فقط هم الذين تأثروا بوباء صغر

الجسم في بوكروفسك، ولكن إذا ما حكمنا من خلال مامين[1]، المصمم الرئيس لمصنع ماركسشتادت للجرارات، نعرف أنَّ جميع سكان جمهورية ألمان الفولغا قد أصيبوا بهذا الداء بغضّ النظر عن تبعيتهم القومية.

كان مامين ضئيلاً وشغوفاً. كان شغفه الجرارات، فأصبحت قدره. جمَّعَ مامين الجرارات من أيام شبابه البعيدة قبل الثورة، وكان واضحاً أنَّ مسار حياته رسمه إله الجرّارات المقتدر بوضوح حتى النهاية. تصميم مامين السابق «غنوم» (القزم الخرافي) الذي صنعه يدويّاً بأسلوب حرفي، لم يتلقَّ طلبية من الدولة لتصنيعه، ولكن في المقابل تصميمه اللاحق «كارليك» استحق بكلّ جدارة اسم أول جرار سوفيتي.

قاد مامين المتهيِّب للغاية الوفد في ورش المصنع، وكان محرجاً لدرجة أنَّ كلامه الهادئ، حتى من دون هذا الإحراج، قد تحول في بعض الأحيان إلى تمتمة غير مفهومة؛ استعرض بخجل (وإضافة إلى ذلك احمَرَّ من المتعة) عملية تجميع الجرار؛ وبدا في الوقت نفسه كأنه شاعر شاب، لأول مرة يقرأ قصائده علناً. وقد أثار الدهشة عندما أشاح بوجهه عن الناس وتوجه نحو المكائن بمجرد أنْ سخنت عيناه وصار وجهه ناعماً.

نظر *الزعيم* إلى الهياكل العظمية النحيفة لـ «الأقزام»[2] المستقبلية وارتجف من الداخل: أهذه هي الخيول الحديدية التي حلّت محلّ المحراث الخشبي، والتي غنّاها الشعراء السوفييت الشباب؟ إنها ليست خيولاً ولا حتى أمهاراً، كلّا، إنها كاريكاتير، صورة هزلية شريرة للهندسة السوفيتية، هذا ما عليه الحال! وشعر فجأة *أنه* لم يعد بإمكانه البقاء بين الأقزام لأكثر من ثانية، في هذا العالم الضيق إلى حدّ التشوّه، الذي ينكمش كلّ ساعة أكثر ويهدّد بالخنق. استدار ومشى إلى الخارج وهو

1- ياكوف فاسيليفيتش مامين (1873–1953) – اختصاصي ميكانيكيا روسي وسوفيتي، مخترع ومبدع جرارات «الجرار الروسي» (روسكي تراكتور)، «بوغاتير» (العملاق)، «غنوم» (القزم الخرافي)، «كارليك» (قزم، قميء). (الملاحظة من الكاتبة).

2- يقصد جرّارات «كارليك». (المترجم).

يتعثر بأكوام بعض الأنابيب ويوقِع الرفوف ويسقطُ عُلَب البراغي ويركل الصناديق والصفائح. ومرَّ من جانب الجرارات الأقزام نصف المجمعة؛ ومن جانب العمال الذين جرّوا إلى المصهر رأس يكاتيرينا المقطوع بالمنشار؛ ومن جانب بيكر الذي سعى جاهداً للحاق بالضيف العالي المقام والنظر في عينيه. خرجَ نحو الانعتاق! ونحو الهواء!

عندما ركض إلى الخارج، رأى في السماء طائرة عظيمة البطن براية حمراء تحت جناحيها (على ما يبدو، كان ظهور الراية الطائرة في السماء هو فعالية الختام من فعاليات استقبال الضيف العالي المقام). وفجأة، راودته فكرة: هذا هو المكان الذي يجب الهروب إليه من هذا الفخ إلى الأعلى! وعلى الفور أصدر أمره لبيكر المتشبِّث بجانبه: إلى المطار!...

بعد نصف ساعة، راقب مسؤول الحماية بوجومٍ كيف مدَّ المُضيف رجليه عالياً وتسلَّق برعونة جناح الطائرة «سوبويتشْ» القديمة. وكيف يجلس بشكل مريح في قمرة القيادة خلف ظهر الطيار. وكيف تنطلق الطائرة بسرعة، وهي تحرك جنيحاتها وتهتزّ اهتزازات كبيرة، وتُقلِع من الأرض. وترتفع في الهواء.

وعندما خمدت قعقعة المحرك، بصق مسؤول الحماية بمرارة (لم تعد لديه ثمة قوة للسباب بعد)، وفك ياقة القميص العسكري، ونزع قبعته وجلس على الأرض واستلقى على ظهره فوق الحشائش البرية.

– انزع عنكَ هذه السترة اللعينة أخيراً! قال لبيكر بصوت خافتٍ مشوبٍ بالكراهية. – سوف تهلك من الحرّ.

أما بيكر فقد جلس، وهو يصفّر بأنفه ويزمّ به، في مكان قريب على نتأة صغيرة لمدة طويلة؛ شد ركبتيه الحادَّتين إلى ذقنه، وحوّطهما بيديه.

– على الأقل اخلع قبعتك، إنَّك رجل مضحك.

لم يردّ بيكر عليه. كان وجهه المرفوع إلى الأعلى متجهّماً وحزيناً، وعيناه تشيعان الطائرة المبتعدة.

* * *

الزعيم لأول مرة في السماء. شعرت بالارتياح من الثواني الأولى للإقلاع. لم يخَف من اهتزاز جسم الطائرة أو حشرجة المروحة، بل العكس، هنا، في العلاء، التنفس أسهل، والتفكير أصفى. نظر إلى المنظر الممتد تحت بطن الطائرة: الحقول الصفراء في تموج من ظلال الغروب الطويلة وعروق الطُّرُق البيضاء، والفولغا العملاق البطيء، وتساءل لماذا هذه الرحابة الهائلة وهذا النهر المتدفق وهِبَت بالكامل إلى مثل هذا الشعب الصغير والكثير الحركة. هل كان ذلك صحيحاً؟ وهل هذه عدالة؟

اكتشف *الزعيم* فجأة في بدن نهر الفولغا الواسع والداكن وميضاً غريباً، نوعاً من الحركة، أسرع بكثير من التدفق البطيء للنهر. انحنى من قمرة القيادة مجهِداً بصره محاوِلاً أنْ يرى بشكل أفضل من خلال الريح التي تنفح في وجهه. وفجأة رأى ليس نهراً واحداً فقط يتدفق بهدوء، بل عدد لا حصر له من الجداول المتشابكة، المختلفة جدّاً في اللون والكثافة، لدرجة أنَّ رأسه بدأ يدور من هذا المنظر. تَفَتَّلت مثل حبلٍ ضخمٍ السيولُ الرمادية والخضراء والبنية والمَغْرية[1] وجرت في السهوب، يكاد لا تستوعبها مجرى الفولغا الفسيح. وأدرك *الزعيم*: أنَّ تحته ليس نهراً واحداً، بل عشرات، ومئات من الأنهار السوفيتية التي بعد أنْ تندمج في كلٍّ واحد تدفع مياهها معاً إلى مكان ما. تألّقت كالخيوط الذهبية الرقيقة في المجرى أنهار كورا وأراغفي، إنغوري وخوبي، وكالشعر الأبيض كاتون وكارافشان وإرتيش. والتفَّ كالشرائط الزرقاء ينيسيي ولينا، وكالشرائط السوداء أرغون وكوليما. جرت الجداول الملونة بسرعات مختلفة، بعضها أسرع وبعضها أبطأ والبعض الآخر بالكاد يزحف. تلألأت وتغطَّت بالفقاقيع وفي بعض الأماكن غلَت بالموجات المتكسرة على صخور الشواطئ دافعةً بعضها بعضاً. وارتفعت كتلة الماء

1- المَغْري – لون من درجات البني ينتمي إلى مجموعة الألوان الحارة. وكلمة مغري نسبة للمغرة. والمُغْرَة – حجر يستخرج منه صبغ أحمر بني مصفر. (المترجم من ويكيبيديا بتصرّف).

الحيّة واللدنة فوق الشواطئ وانتفخت كالحدبة، وارتجفت بشكل خطير عند الانحناءات، قاذفةً الرغوة ومهدّدة بالانسكاب على الأرض. وبعد أنْ حبس *الزعيم* أنفاسه، نظر إلى رقصة الماء المذهلة هذه، إلى هذه السيمفونية من مئات الأنهار السوفيتية وشعرَ: لأول مرة منذ سنوات عديدة، بقشعريرة في صدره من الإعجاب، كما كان يشعر ذات مرة في شبابه البعيد عندما يسمع أصوات قصائد رستافيلي وإريستافي.

رسمت الطائرة نصف دائرة رشيقة فوق نهر الفولغا وعادت ثانية إلى المطار. وبجهد، رفع *الزعيم* بصره عن الماء وألقى نظرة حول الفضاء إلى الأفق. لكن هذه النظرة كانت مختلفة فقد رأت عيناه أكثر بكثير مما كانت تشاهده.

بهذه النظرة الجديدة، رأى فجأة بلاده بشكل حقيقي، وكأنه يراها لأول مرة: كلّها، كاملةً، بكمال المعاني وبجمال الظلال، ألقى عليها نظرة داخلية أحاطت بها من الحدّ إلى الحدّ. كانت البلاد تمتد أمامه، كما تستلقي امرأة جميلة، أحبَّها بشغفٍ منذ زمن طويل، ولكنها تعرت أمامه لأول مرة قبل لحظة فقط. وكقصيدة مليئة بالقوافي البسيطة والعبقرية، أُلِّفَت للتوّ ولم تُكتَب بعد. ونظر في ظلِّ طنين المحرك الرتيب إلى سهوب ما وراء الفولغا البنية اللون التي جفَّفتها الشمس والتي غطّت عليها بقع قليلة من الصفصاف على طول روافد الفولغا الضحلة، ورأى حتى تلال ضواحي موسكو، ومرتفعات الأورال التي لا نهاية لها، وغابات التايغا، وأشجار التندرا الواهنة. ونظر إلى منازل الألمان الصغيرة المنتشرة على طول ضفاف نهر الفولغا وإلى أجساد الناس الضئيلة ورأى شعوب الأرض السوفيتية كلّها. وفي الريح التي هبَّت على وجهه شعَر في الوقت نفسه بصلابة جليد بحيرة تإمّير الأبدي وبتدفق رمال بحر آزوف الحريري وبلزوجة راتينج كاريليا وبحلاوة ماء التوت البري الشمالي. وقد عرفَ كيف يرفع النمر براثنه، وهو يتمشى في غابات تايغا نهر آمور؛ وكيف يدق سمك الحفش على ظهر السفينة عندما يومض مجذاف الصياد بآخر

ضربة فوق خطمه؛ وكيف تتفتح أزهار الزنبق في بحيرة جبلية على حدود تركستان. لقد استشعر البلد بشكل حساس وشامل مثلما يستشعر جسده، كلّ شبر من الأرض، وكلّ مقدار من المياه وكلّ حياة تتدفق فوق هذه الأرض أو في هذه المياه.

وبعد أن اختنق *الزعيم* من البهجة، رفع وجهه إلى السماء وصاح بشيء غير واضح ومُبهج. ضربته الرياح في فمه ونفخت حنجرته وتوغلت إلى الداخل وملأت جميع تجاويفه وأعضائه. وتحول جسمه إلى غشاء للرياح، فانفجرت في رأسه عشرات القوافي مثل نافورة قوس قزح. كلّ قافية هي الوحيدة الممكنة، ولهذا تنساب في الذاكرة إلى الأبد.

جليد القطب الشمالي تَقَفّى بكاسحة جليد جبّارة، عملاقة؛ جرفت الكاسحة بمقدمتها الفولاذية، التي لمع عليها الشعار السوفيتي الذهبي، الثلجَ والجليدَ وطوته مثلما يُطوى الورق، مخَلِّفَةً وراءها شريطاً مائيّاً أملس نقيّاً كالمرآة. وتقَفّى الماء بالكهرباء، وانصَبَّ على شكل تيارات لا نهاية لها من مكان ما من علوّ السماء؛ وتحوَّلَت هذه التيارات إلى ضوء ساطع ارتطم بالأرض وتدفّق على شكل جداول سخية في البلاد، وتطاير الرذاذ إلى السماء وتحول إلى نجوم أكبر من النجوم الطبيعية وأكثر إشراقاً منها. وتقَفَّت الأرض بالجرارات ليست من نوع «كارليك» المُتَقَزِّمة، بل جرارات حقيقية، الواحد منها بحجم كوخ فلاح جيد؛ جرَّت هذه الجرارات محاريث بحجم الأشجار وشقَّت التربة بعمق قامة رجل؛ ورفعت من باطن الأرض إلى جانب الطبقات الثقيلة من التربة السوداءِ الكنوزَ المخبأة هناك، الفحم الحجري الدهني وخام النيكل المتلألئ والنحاس والذهب والكوبالت والموليبدنوم. وبدلاً من الجاودار والحنطة السوداء، نمت في الحقول خلال دقائق معدودة أشجار عملاقة من الحديد والزنك والتيتانيوم والألمنيوم؛ وتدفَّقت فيما بينها أنهارٌ من الزئبق الثمين والنحاس المنصهر والصلب، لقد تَقَفَّت المعادن بالمعادن فقط.

من وفرة هذه القوافي وجمالها رشَحَ العَرَق على جبين *الزعيم*. رنّت

المقطوعات الشعرية وانتظمت في أغنية متناغمة وملهمة عن المستقبل؛ ولكن للأسف، لم يكن ثمة صوت على الأرض قادر على أدائها بصفاءٍ مثلما صدحت في تلك اللحظات في قلبه. حملَ هذه الأغنية في نفسه، بعناية وامتنان، من دون أنْ يخشى عليها من النسيان، لأنها بمجرد أن وُلِدَت أصبحت جزءاً لا يتجزأ منه. لقد عرفَ الآن أكثر مما عرفه أيُّ شخص على وجه الأرض. فقد عرفَ *الزعيم* ماذا يفعل...

وفجأة شعر بتعب شديد: ها هو الآن لليوم الثالث من دون نوم تقريباً. وبمجرد أنْ هبطت الطائرة، وهي ترتجف وتنطُّ أمر في الحال مسؤولَ الحماية: على الفور إلى موسكو!

اختلج مسؤول الحماية، وتوهّجَ فرحاً، وانتعش، واستغلّ السلطة على الفور. نحّى عن الزعيم جميع المرافقين: بيكر المذهول ومامين الحزين والآخرين، وأجلسه في السيارة وأوصله إلى القطار وصحبه إلى العربة. وأُرسِلَت رسائل برقية إلى العاصمة: إننا قادمون! سنصل بحلول الصباح! فرِّغوا جميع الطرق! ركض الضباط المرافقون والوقّادون وسائقو القطار إلى مواقعهم؛ اشتغلت قاطرات البخار في الاتجاه المعاكس؛ شهقَ قطار الصفوة بعمق وانطلق على الفور، وزادَ السرعة بشدة، كما لو كان يريد اكتساب السرعة الفائقة لكي يتجاوز نهر الفولغا الذي تراءى أمامه.

عندما أصبح القطار على أهبة الاستعداد، بانت من بين أعمدة البخار السيارة الفورد الصغيرة المألوفة وقفز منها بيكر. ركض باتجاه عربات القطار المدرعة وبدأ يطرق على الأبواب المغلقة ومدَّ نحو النوافذ كيساً ورقيّاً مجعَّداً «هدية تذكارية من الجماهير الكادحة». فكان لا بدّ من الرضوخ: استلم مسؤول الأمن الهدية من خلال نافذة المقصورة المفتوحة. جسَّها بعناية من خلال الورق وهزَّها قرب أذنه. وعندما لم يعثر على أيّ شيء خطير لا من خلال اللمس ولا السمع، أوصلها إلى الزعيم. وفتحها. اتضح أنها حلقات. حلقات برونزية عادية صُبَّت اليوم في المصنع من النصب التذكاري الذي اقتُلِع، ملفوفةً في صحيفة

مطبوعة حديثاً لم يجف طلاؤها بعد وما زالت تلوّث. كان النص آسراً من خلال قدرته ومباشرته: «خمسة آلاف حلقة ضرورية من إمبراطورة غير ضرورية!» ويلي بعدها شرح موجز: خُطِّطَ لاستخدام الحلقات في إنتاج جرارات «كارليك»؛ ومن المتوقَّع أنْ تكفي الكمية المستلَمة لعدة مئات من الجرارات.

كان مسؤول الحماية، المنهَك بسبب وضعية العمل خارج الدائرة لمدة يومين، على وشك أنْ يترك الزعيم وحده عندما سأله ذلك فجأة:

- مَن تحب أكثر الأقزام أم العمالقة؟

تردّد مسؤول الحماية: إنَّ مثل هذا السؤال لم يَدُر في ذهنه العنيد والصادق مطلقاً. تمتم بشيء غير لحني، وانتظر حتى يسمح له سيده بالانصراف بحركة من ذقنه، ثم انسلّ بارتياح من المقصورة.

قلَّبَ الزعيم بيديه الأسطوانات الثقيلة المصبوبة من المعدن الأحمر. ثم فتح النافذة وألقاها واحدة تلو الأخرى في الظلام. لم يرَ كيف دخلت تلك الحلقات إلى مياه الفولغا بطبطبة خفيفة، استلقي ببساطة، من دون أنْ يخلع ملابسه، على دكة المقصورة وانغمس في النوم.

حلمَ بنُصبٍ تذكارية، مصبوبة من أفضل البرونز، أجسادها ضخمة، مثل المباني الشاهقة، وأرجلها قوية، مثل أشجار الصنوبر المعمّرة لقرون. ولديها بدلاً من الوجوه أشكال بيضوية ناعمة، محدبة قليلاً، تشبه جوانب البيض من دون أيٍّ تشقق. هؤلاء هم أبطال المستقبل، التاريخ، الذين لم تُعرف بعد أسماؤهم. كان العمالقة المجهولو الهوية (عددهم إما دزينة أو دزينتين) يمشون في سهوب حوض الفولغا مجتازين عبر الجداول والقرى الصغيرة مبدّدين بأيديهم الضباب الكثيف الذي يلفّ العالم. وكان هو، الزعيم الجديد، يجلس على كتف أحدهم (لم يتضح ما إن كان رجلاً أَو امرأة). تشبث بإحكام بخصلة شعر برونزية صلبة هابطة على أذن المارد، وضيَّقَ عينيه في تيارات الهواء القوية التي تضرب على الوجه في كلّ خطوة يخطوها رفيق الدرب العملاق. لم يرَ حوله إلّا بحراً ضبابيّاً لا

نهاية له قد شمخَت فوقه أجساد لعمالقة من المعادن؛ في بعض الأحيان يمكن أنْ تُرى الأرض في فجوات السحب المتعرجة في مكان ما هناك، بعيداً إلى الأسفل بدت الأرض كأنها تتحرك، وتدفقت من تحت الأرجل الثقيلة: وكانت قطعان من خيول السهوب البرية تندفع هاربة من الموت، لكنها ماتت وهلكت تحت الأحذية الضخمة التي باغتتها. لم يُسمع صهيلها العالي ولا طقطقة عظامها، لقد كتم الضباب الكثيف الأصوات. وبعد أنْ دقق الزعيم النظر بصورة أفضل، أدرك أنَّ الجزمات الثقيلة لم تسحق أيَّ خيول على الإطلاق، بل سحقت الجرارات «كارليك» الرشيقة التي تزحف في جميع الاتجاهات...

ابتسم ابتسامة حلوة وعاجزة كابتسامة الأطفال، وانقلب على الجانب الآخر، وشدّ البطانية على كتفه المتجمدة.

اندفع قطار الصفوة طوال الليل (غوريوتشين عامل الصيانة في السكك الحديدية على حق: اندفع القطار من دون أنْ يلامس القضبان). وفي المقصورة المجاورة، كان مسؤول الحماية يقاسي من أرقٍ خبيث، أجهد نفسه بالتفكير ولكنه مع ذلك لم يستطع أنْ يدرك مَن يجب أنْ يحب أكثر العمالقة أَم الأقزام. وكذلك هل يجوز ألّا يفضّل هؤلاء ولا أولئك، بل الناس ذوي الحجم العادي؟ وفي بوكروفسك، في شقة منسدلة الستائر بإحكام من تحت السقف مباشرة، جلسَ بيكر رئيس اللجنة الحزبية، بعد أنْ خلع ملابسه في النهاية وسكب دَلوَين اثنين من الماء البارد على نفسه عارياً، وبدأ يشرب خمر شتينكوس غير المُخَفَّف. وفي إحدى ورش المصنع الفارغة، جلس المصمم مامين يبكي بهدوء من شعور مرير لا يمكن تفسيره. عانق بحنان أخرق جوانب الجرار نصف المركب، ومرَّرَ أصابعه الخشنة على العجلات والقواعد والبكرات المحززة. واحتضنها بيديه كما تحتضن الدجاجة البيض بأجنحتها. وانقبض قلبه من إحساس داخلي بقرب وقوع مصيبة: فنظرة الضيف السامي الثاقبة وعدت بشيء سريع ولا يمكن إصلاحه. فرك مامين جبهته بالمعدن الخشن، الذي

سرعان ما سخن من تنفسه ودموعه، وهمس بشيء بحرارة وارتباك. لو كان الأمر بيده لساقهم كلّهم خلفه، أبناءه الميكانيكيين المساكين، إلى الغابات، إلى سهوب قيرغيزستان، إلى قاع الفولغا لكن هذا الهروب كان مستحيلاً للأسف. لم يبقَ لديه سوى أنْ يحكي طويلاً همساً عن حبّه لهم، وأنْ يمسِّد عليهم ويهدهد لهم في الليل مطمئناً إياهم أو مطمئناً نفسه ذاتها...

لم يُخطئ قلب الأب: سرعان ما قرّرت الحكومة في موسكو وقف إنتاج جرارات «كارليك» المنخفضة القدرة[1]. أرادت البلاد جرارات أخرى. وبعد بضع سنوات، في المعرض الزراعي لعموم الاتحاد السوفيتي، سوف يرى مامين، الذي اشتعل رأسه شيباً وأضنته القرحة، هذه *الجرارات الأخرى* العملاقة المُجنزرة ذات الأبدان القوية والسلسة. وسيُنقَل هو إلى معهد التقنيات في تشيليابينسك. أما الجرارات الصغيرة التي تيتَّمت من بعده وبقيت من دون رعاية فستتناثر في جميع أنحاء العالم؛ وسرعان ما يُقبض على بعض منها ويُصهَر؛ ويبقى بعض آخر يعمل في الحقول، ولكن بعد مدة من الوقت ستصبح غير صالحة للعمل إما من سوء الاستعمال أو من الكآبة؛ وسيُفقَد الباقي في رحاب الجمهورية الألمانية وسيظل مصيرها مجهولاً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

1- مع بداية التجميع، عُدَّ جرار «كارليك» أنه مخصص للكولاك (الفلاحين الميسورين) ولأنه طُوِّر من أجل الفلاحين الفرديين (وليس للمزارع التعاونية) فقد أوقِفَ إنتاجه. (الملاحظة من الكاتبة).

-17-

قفز باخ في الماء على الفور، من دون تردّد. وحتى هو نفسه لم يفهم كيف انغمر مع رأسه في فقاقيع المياه الباردة المتدفقة. هزَّ ساقيه، واندفع على شكل قوس هبَّت الرياح الخفيفة على وجهه وتأرجحت سماء الفجر في مكان ما في الأعلى. وقبل أن تتكمن عيناه من الرؤية وأذناه من السماع، اندفع جسد باخ في الاتجاه الصحيح، وأمسكت يداه بآنتشي المتخبِّطة ودفعتاها نحو الزورق. بدأت تتخبّط بتشوّشٍ على جانب القارب، وهي تزحف بكفّيها فوقه. غطس باخ ودفع الصبية إلى الأعلى الرأس والظهر والكتفين حتى تتمكن من الإمساك بمتن القارب. ثم تمسك هو نفسه وتسلق بصعوبة، بعد أن هزَّ القارب وكاد يقلبه. سحب آنتشي من يديها، وضمَّها إليه، ولفّ يديه حولها.

جلسا في قاع الزورق، يتلوَّيان مبلَّلَيْن ويتشبثان بعضهما ببعض، ولم يهدأ تنفّس آنتشي حتى توقف العالم حولهما عن التمايل. أخيراً، نظر باخ في وجهها: لم يكن ثمة خوف أو ندم في عينَي الطفلة، نظرت آنتشي إلى الفولغا بهدوء، بل وحتى بغطرسة، وكأنها لم تضطرب فيه يائسة منذ دقيقة، بل كانت تسبح بثقة أو تمشي على سطح الماء. وصل باخ إلى الضفة، أخذ المجاديف: الأفضل، يا آنتشي، أنْ نذهب إلى المنزل...

غير أنه، في بداية الليل، لم يستطع أنْ يتمالك نفسه وتوجَّه إلى غناديتتال: للتحقق من حقول الذرة. فقبل أسبوع، كتب حكاية عن الحسناء زلاتوفلادسكا وتوقَّع أنَّ هذه الحكاية يجب أن يكون لها تأثير

مفيد على نضج الذرة، التي تشبه أنوار أزاهيرها الشَّعر الأشقر الطويل. ولم يُخطئ: في الأسبوع السابق لمجيء باخ إلى غيطان المزرعة التعاونية، كانت أكواز (عرانيس) الذرة المليئة بالحبوب اللبنية تطفح بصفرةٍ ساطعة وكأنَّ فتاة جميلة تتوارى حقّاً في كلّ واحدة منها وتُرخي خصلات شعرها الذهبية إلى الخارج. كان باخ يتسكع على طول حافة الحقل ممسّداً على السيقان الخضراء بيديه عندما دوّت صرخة من بعيد: شخص ما صرخ، برقة وبشكوى، كما لو كان من الألم. امرأة؟ طفل؟ هرع باخ إلى الصوت مباشرة من خلال المغروسات.

على الطريق الذي يفصل بين حقل الذرة وحقل القمح، رأى حشداً من الناس: كانوا يهتاجون حول الجرار «فوردزون» القديم باضطراب. وأبعد منهم قليلاً تسمَّرَت مجموعة من الأطفال الطلائع، كما يمكن للمرء أن يستنتج من خلال ربطات العنق القرمزية، بوجوه مرتبكة وخائفة. لم يُسعِف الوقت باخ لأن يصل راكضاً إلى مكان الحادث عندما انفرد رجلان عن الجرار «فوردزون»: وبعد أنْ شبكا أيديهما وأجلسا عليها شخصاً ثالثاً، صغيراً، سارا بسرعة إلى غناديتال. بعد بضع لحظات، هرعوا من جانب باخ، فأُجبِر على العودة إلى الذرة، تاركاً لهم الطريق.

هذا الثالث نفسه كان طلائعيّاً أيضاً لكن ربطة العنق فقط لم ترفرف على رقبته، بل لُفَّت بإحكام حول كفّه اليمنى الملتوية والمضمومة إلى صدره. كانت أصابع يده إما غير موجودة أو مجروحة لم يفهم باخ بشكل صحيح، استطاع أنْ يرى خرقة حمراء زاهية فقط، تنضح بالكثير من الدم الأحمر اللامع. سال الدم إلى بطن الصبي وساقيه وقطرَ على الأرض. وكان قد توقف عن الصراخ وأغمض عينيه وانحنى برأسه على كتف أحد الرَّجُلَيْن وكان رأسه متدلّياً ويرتطم بكتف ذلك الرجل كأنه ميت. كان وجه الصبي الجريح شاحباً إلى حدّ الزُّرقة، لكن باخ عرفه: إنه الطبال الشاب.

– هذه نتائج رقابة الطلائع! جاء صوت غاضب من جهة الجرار «فوردزون». – لا طائل من حشر أنفهم الراشح بالمخاط في كلّ مكان!

أنت تجيد الدق بعيدان الطبل - إذن، دقّ وكفى! ولا تتدخل في الجرار! سيحل الميكانيكي الإشكال من دونك!

- هذا، هو عين الصواب! الصوت الثاني. - أين ترى، الأبناء يراقبون عمل الآباء! إنهم يتفحصون عمق الحراثة. ويتحققون من كثافة البذار. ويراقبون الرجل منّا متى خرج إلى الحقل، ومتى جلس للاستراحة أو متى خرج إلى الأدغال لقضاء الحاجة! ضربة بحزام على الظهر هذا ما يحتاج إليه هؤلاء الطلائع!

ولّى باخ ظهره إلى الأصوات وذهب إلى غنادينتال متتبعاً أثر قطرات دم الصبي المتناثرة على طول الطريق: كانت الأرض في شهر تموز (يوليو) صلبة للغاية إلى درجة لم تمتص معها هذه القطرات، التي غَشِيَها الغبار وبقيت كامنة مثل حبّات البازلاء السوداء الكبيرة. مشى باخ وفكَّر، إنَّ في «حكاية الطبّال» جرح البطل يده أيضاً: استخدم خنصره بدلاً من المفتاح لفتح الباب المؤدي إلى الجبل الزجاجي وترك الخنصر في القفل الخبيث.

* * *

نام في تلك الليلة نوماً تعيساً فقد أقلقته المصادفة الغريبة. وفي اليوم التالي وصل مبكراً إلى غنادينتال للاستفسار عن الصبي. اتضح: أنَّ الجريح نُقِلَ إلى بوكروفسك وأودِعَ في مستشفى المدينة. وقد بُتِرَت أصابع يده اليمنى، كلّها، لذلك من غير المحتمل أن يقدر على الضرب على الطبل. والد الصبي، غاوس النحيف، سكرَ من جرّاء الحزن إلى أنْ وصل إلى حالة غير لائقة وفي الليل غطَّس الطبل في نهر الفولغا. وبعد ذلك إما بسبب كثرة شرب الخمر، أو بسبب الحزن الأبوي الحقيقي سقط على الشاطئ وفقد القدرة على الوقوف على قدميه. وعُثِرَ عليه في الصباح: كان غاوس يرقد على الرمال ويبكي من الخوف: لم يشعر بساقيه. لم تعد قدماه وساقاه وركبتاه تحسّ بأيّ شيء لا بالضرب ولا بالوخز بالإبرة أو المخرز. كان وركاه لا يزالان يتحسَّسان الألم، لكن غاوس لم يقدر على المشي أو حتى على الوقوف على قدميه.

في اليوم التالي فقد الإحساس بالوركين والمعدة وأسفل الظهر. أمضى الرجل المسكين ذلك اليوم وهو يبكي بصوت عالٍ، ووصل صياحه إلى أرجاء المستوطنة كلّها داعياً الله أن يُبقي له حياته ونادماً على الانضمام إلى المزرعة الجماعية. أمر هوفمان زوجة غاوس بإغلاق النوافذ بإحكامٍ أشدّ حتى لا تُسمَع الصرخات المعادية للاتحاد السوفيتي، لكن القس هاندل الذي جاء إلى فراش احتضار المريض لأداء واجبه الروحي، ألغى الأمر: كان الحرّ لا يطاق وليس من المروءة زيادة عذاب الخاطئ التائب على أعتاب موته المحتمل.

كان باخ الوحيد في غنادينتال كلّها الذي يعرف الأسباب الحقيقية لما حدث: يبدو أن غاوس المسكين سقط ضحيةً ليس للمرض أو الحزن، بل بسبب حكاية قصيرة عن فلاح يُعاقَب بسبب الجشع: في البداية تحَجَّر ذلك الرجل إلى الركبتين ثم إلى الخصر، ثم بعد ذلك تحول بالكامل إلى حجر، ولكنه احتفظ بخاصيتَّين اثنتين من الخصائص الكامنة في الإنسان: الرؤية والتنفس. كانت هذه الحكاية واحدة من أوائل الحكايات التي كتبها باخ منذ مدة طويلة حتى إنه قد نسيها. والآن تذكرها. كان غاوس طوال حياته جشعاً، يجب الاعتراف بذلك؛ ربما، أنَّ تلك الحكاية داهمته الآن واقتصَّت منه. كان في المستوطنة ثمة أشحّة حقيقيون الذين بجشعهم وبخلهم يستحقون مثل هذه العقوبة القاسية، ولكنَّ العقوبة لسبب ما داهمت غاوس بالذات، في الوقت الذي يرقد فيه ابنه في المستشفى بيدٍ مشلولة.

وفي اليوم الثالث شُلَّ تماماً من أخمص قدميه إلى جذور شعره: لم يعد قادراً على التكلم أو الصراخ أو النحيب، بل بقي راقداً فحسب، قناع خامد بدلاً من وجهه يرمش من حين إلى آخر؛ وفي عينيه اللتين فقدتا البريق جمدت معاناة خفية.

بمجرد أن دارت أخبار هذه الحال في المستوطنة، حتى اندفع الفضوليّون إلى منزل غاوس. لم يجرؤوا على دخول المنزل والتحدث

مع زوجة المريض، لكنهم كانوا يريدون النظر بأعينهم إلى ابن قريتهم الذي حطّمه المرض. لذلك، انسلّوا إلى الحديقة الأمامية بعناية حتى لا يتلفوا الياسمين المتضخم والتصقوا بزجاج النافذة. وبحلول المساء تغطّى الزجاج بالعديد من البقع الغريبة من جباه وأنوف وخدود الغَير.

وذهب باخ أيضاً ليرى المسكين السيئ الحظ. على مدار الأيام الماضية، تذكَّر كلّ جملة، وكلّ كلمة من الحكاية التي ابتدعها منذ سنوات والآن، وهو يقرِّب وجهه من الزجاج المتسخ، توقَّع بخوفٍ أن يرى بأم عينه الوصف الذي أنشأه ذات مرة. ورأى بالفعل: «لم يعد إنساناً يرقد على سريره، بل حجراً كبيراً على شكل رجل. وما إنْ نادى هذا الحجر باسمه، حتى بدأت الدموع تنهمر من عينيه».

صدفة، إنها صدفة، أصرَّ باخ في ذهنه، وهو يتقدم نحو الفولغا. لم يعد يصدق، لكنه ظلَّ يكرّر ويقنع نفسه وهو يهزّ برأسه منكراً الأفكار الشريرة. إنها صدفة، مجرد صدفة...

لاحظ باخ الكثير من الأطفال في ساحة السوق: يبدو أنَّ جميع أطفال مدرسة غنادينتال قد تجمعوا عند مبنى المدرسة، ابتداءً من تلامذة الصفوف الأولية النُّحَفاء إلى المراهقين الطوال القامة. لدى الكثيرين منهم أربطة الطلائع الحمراء على صدورهم. كان الحشد صاخباً ويضحك ويضج بمئات الأصوات، مثل سرب نحل يدوّي. وفجأة، غطّى لحن صافٍ على جميع الأصوات وبدأ ينتشر فوق الحشد، مالئاً الساحة وجميع الشوارع الصغيرة المجاورة وغنادينتال كلّها: الناشط دورير، واقفاً على شرفة المدرسة وبعد أنْ ألصق بوقاً نحاسيّاً على شفتيه، نفخ بذلك اللحن بمهارة وبإحساس صادق، وكأنه ليس رئيس مجموعة الأطفال الطلائع والكومسومول[1]، بل موسيقي حقيقي. وبعد أنْ أذعن الأطفال لغناء البوق تركوا على الفور المرح والمزاح؛ اكتسبت وجوههم جدية

1- كومسومول – تعني اتحاد منظمات الشباب السوفيتي، أُسست بعد الثورة البلشفية سنة 1918 وحُلّت في عام 1991 بعد تفكك الاتحاد السوفيتي. (المترجم).

وبدت تشبه بعضها بعضاً. وتوجهت النظرات إلى البوق اللامع. صمتت الأصوات كلّها: أصوات الأطفال، وحتى زعيق النوارس على نهر الفولغا ورغاء الإبل البعيد، وحتى حفيف أوراق الشجر. صدحَ البوق وحده في الصمت بصوتٍ داعٍ وواعدٍ. مشى دورير من الشرفة إلى الأرض، وسار ببطء على طول الطَريق من دون أنْ ينظر إلى الخلف نحو السهوب. اصطفّ الأطفال أثناء السير في طابورَين اثنين وامتدوا خلفه.

– إلى أين هم ذاهبون؟ سألت امرأة قرب البئر وهي تتثاءب.

– سيكون لديهم معسكر في السهوب.

– أجابت امرأة ثانية:

– معسكر طلائع، أفّ له مئة مرة. في النهار للصراخ بالأغاني. وفي الليل لحراسة الحقول.

نظر باخ إلى رتل الأطفال السائر إلى خارج الضواحي وشعر بألم البرد في عظامه وعضلاته يزداد أكثر فأكثر. إنه الوحيد، الوحيد في غنادينتال كلّها الذي يعرف أنَّ الأطفال لن يعودوا: دورير يقودهم بعيداً خلفه، مثل زمّار هاملين، ليختفي معهم إلى الأبد في سهوب الفولغا. هرع باخ إلى المرأتين، وبدأ يجأر جَأْراً ممدوداً، مشيراً إلى الموكب المبتعد.

– أنت محقّ، يا ناظر المدرسة. أومأتا كلتاهما برأسيهما بودٍّ. – من الأفضل أنْ يجلسوا في المنزل ويساعدوا أمهاتهم! لتذهب إلى الجحيم هذه الحياة الجديدة مع أعرافها الجديدة!

بدأ يهزّ رأسه وأمسك بأيديهما وهو يئنّ متوسلاً إليهما: ليتوقَّفوا! لا تدعوهم يذهبون! يجب أنْ يعودوا! نظر في عيونهما متجهماً: سيتوارى الأطفال! سيختفون! سوف يهلكون! غير أنَّ المرأتين غضبتا – «لقد صرت متوحشاً تماماً يا ناظر المدرسة! أصبحتَ كالكلب المسعور! وبدأتَ تهاجم الناس!» وبعد أن رفعتا الذراع مع الدلاء على أكتافهما، عادتا إلى منزليهما.

هرع باخ على أثر الأطفال، لكنه لم يَرهم على الطريق ولم يرَ حتى سحابة الغبار المرتفع من أقدامهم. في مكان ما من بعيد، دوّى صوت البوق هادئاً بالكاد يُسمَع أو ربما صرخ صقر عاسوق قلِق. لقد فات الأوان: غادر الأطفال، «حتى لا يعودوا أبداً إلى أحضان الآباء والأمهات»، كما كتب باخ ذات مرة.

برغم صعوبة حركة رجليه استطاع باخ الوصول إلى الشاطئ. ارتمى في الزورق وبدأ يصفع على الماء بالمجاديف. كان رأسه يطفح بأفكار متدفقة. هل يمكن لقلمه الرصاص، الذي لم يكن سوى سبب في وفرة المحصول وفي نضجه وغناه، أنْ يسبب أحداثاً أخرى تعيسة تماماً؟ لماذا، الآن بالذات، في الصيف القائظ من عام سبعة وعشرين، عندما امتلأت الحقول مرة أخرى بسنابل الحنطة الجيدة النوعية والكبيرة الحجم، وازدانت الغيطان من جديد بالبطيخ الأحمر وبالشمام وتكسّرت الأغصان في البساتين من كثرة الكمثرى والتفاح، لماذا الآن بالذات بدأت القصص الحزينة تتحقق؟ هل كان ذلك عقاباً أم مساراً معدّاً للأشياء؟ العقوبة على ماذا؟ هل العقاب لجميع أهالي غنادينتال أَم لباخ وحده؟ فما عساه هو، راوي الحكايات التعيس، أنْ يفعل بهذه المعرفة المفاجئة؟ وماذا يفعل للقصص التي سُبِقت كلّ نتيجة سعيدة فيها بمرض أو بحرب أو موت أو ذعر؟... أسئلة عذّبت باخ، كلّ واحد منها أكثر ألماً من الآخر. لم يعثر على جوابٍ لأيٍّ واحد من تلك الأسئلة. ولم يهدّئ من روعه إلّا عدم تمكنه من جلب آنتشي معه إلى *العالم الكبير* المجنون.

* * *

وبعد أنْ عاد باخ إلى المزرعة، فعل ما لم يقرّر أن يفعله من عدة أيام: دخل إلى غرفة كلارا وتسلّق على الكرسي المقابل للجدار، وأعاد قراءة جميع الملاحظات التي كتبها في السنوات الأخيرة، تذكر جميع الحكايات التي كتبها. «الأقـزام الـزُّرق»، «الطفل العنيد»، «التابوت الزجاجي»، «العظم المُغَنّي»، «الرجل الصدئ»، «بلاد الدببة»، «الفرن

الحديدي»، «الساحرة في الغابة»، «خروج العمالقة»... كم كان فيها من اللحظات الخطرة والمأساوية والحوادث الرهيبة والمَشاهد الدموية! وعلى الرغم من أنّها حُكِيَت بأسلوب رشيق بلغة ألمانية رفيعة، إلّا أنَّ جوهرها القاسي لم يصبح بفضل هذا أكثر لطفاً: رقصت زوجات الأب التائبات التعيسات على الجمر المتوهّج؛ وطار الآباء الذين طلبوا الصفح في براميل منجَّدَة بالمسامير من فوق المنحدرات؛ وسقطت من الأكتاف رؤوس الأطفال والبالغين والحيوانات؛ وقُطِعَت الأيدي والأرجل والآذان والألسنة؛ وابتعد خلف الأفق الأقزام والعمالقة الذين طردهم الناس من أراضيهم؛ وحُرقت الساحرات في الأفران، وهنَّ يتلوَّينَ من الألم ومن عذابات الضمير المتأخرة... لنُسَلِّم بأنَّ الحكايات انتهت بانتصار اليتامى والمظلومين، ولكن كم كانت وحشية في الوقت نفسه بالنسبة للخاسرين والمهزومين، وكم كلَّف الأبطالَ انتصارهم! لماذا لم يلاحظ باخ هذا من قبل؟

عندما أفاق من التفكير، كان الظلام قد حلَّ خارج النوافذ. فأدرك أنه لم يُطعِم آنتشي طعام العشاء حتى الآن. اندفع يبحث لم يعثر على الطفلة في أيّ مكان: لا في غرفة الضيوف ولا في المطبخ ولا في الغرف.

آنتشي!

قفز إلى الشارع. لم تكن الطفلة موجودة حتى في الفناء أو خلف المنزل لا في المخازن ولا في الحظيرة ولا في قنّ الدواجن ولا في المَجلَدة.

آنتشي!

ركض في الدرب الضيّق إلى نهر الفولغا مندفعاً بكلّ قوته وهو يردّد اسمها ذهنيّاً. قفز فوق الصخور، بحثاً عن دوائر متباينة على سطح الماء. وبعد أن اختنق وتوهّج وجهه من السخونة وتبلّل من العرق، وجد نفسه أخيراً قرب الزورق المخبأ بين الحجارة.

كانت آنتشي صغيرته هناك. لقد طوت ذراعيها على ركبتيها بصورة مثالية وقوَّمَت ظهرها، وجلست بالضبط في منتصف مقعد القارب.

وعيناها تحدقان بعيداً إلى الأمام إما في مجرى الفولغا، أو في ضوء منازل غنادينتال الذي بالكاد يُرى. وعند سماعها خطوات باخ، نظرت إليه برباطة جأش، بل وبعتاب، وكأنها تستنكر عليه التأخير وحوّلت نظرها نحو النهر: أرادت مرة أخرى أنْ تتأرجح فوق الأمواج.

لأول مرة في حياته، أراد باخ ضربها. ولأنه خجل من رغبته هذه، جلس على ركبتيه بجانب الـزورق، ودفن وجهه في متنه (في متن الزورق). وفجأة شعر بيد صغيرة تلامس قفاه بعناية، وكأنها تسأل عن شيء ما أو تدعوه إلى شيء. كلّا، هزّ رأسه من دون أنْ يرفع وجهه. كلّا، لا تستطيعين حتى إقناعي. لكنّ الأصابع الناعمة مسَّدَت على شعره برفق وبشكل لا يكاد يُحَسّ. كلّا، ظلَّ معانداً. لا تطلبي حتى، ليس الآن، كلّا... وبعد ذلك، نهض وهو يلعن نفسه على رقة طبعه، ودفع الزورق إلى الماء وجلس خلف المجاديف.

طفيا على نهر الفولغا ليلاً وكأنهما يبحران في بحر من الحبر. طبَّشَ الحبر على متن القارب، وغمر الأفق كلّه ولم يكن من الواضح أين ينتهي النهر وتبدأ السهوب، وأين ينتهي السهب وتبدأ السماء. انعكست النجوم على سطح الحبر، وارتجفت فيه أضواء غنادينتال البعيدة، لا يكاد المرء يعرف أيَّ الأضواء يتوهَّج في المنازل وأيّها في السماء.

كانت آنتشي تجلس في مقدمة القارب، خافضة كلتا يديها في الخارج وتتطلع في الليل مفتونةً. لا يبدو أنها تتنفس. وحتى باخ لا يبدو أنه يتنفس أيضاً. هنا، في هذا الفضاء من الماء الأسود والهواء الأسود، تمثَّلت تفاصيل الحكايات المكتوبة أمام عيني باخ بوضوح، كما لو كانت في شعاع السينما الأزرق: حوضُ استحمام مليء بالماء المغلي، الملكة الخائنة؛ درع وخوذة ساخنان لكي يلبسهما الدوق البخيل؛ موقد حديدي لحرق زوجة الأب الغادرة؛ كفوف فضيّة، مقيدة لاستبدالها بكفوف مقطوعة؛ خيول متحجِّرة في الإسطبلات؛ أموات معلَّقون على الأشجار تنقر الغربان في أكبادهم...

شيء ما ضغط على رقبته، وجثم على كتفيه كثقلٍ لا يطاق إنه الخوف. كان الخوف مثل فوهة الرحى، مثل الحصاة الكبيرة. حنى عموده الفقري كالقوس ودفع كتفيه إلى صدره ولفّ كتفيه. الخوف على الغيطان في غنادينتال وعلى أقنان الدواجن الصاخبة وعلى مخازن الحبوب المليئة والحدائق الغنية وحظائر الخنازير وإسطبلات الخيول وزرائب الأبقار، وعلى جميع هؤلاء الناس المبتهجين في اجتماعات المزرعة الجماعية. الخوف ثقيل للغاية لدرجة أنه يمكن أن يغرق القارب السهل الانقلاب في وسط نهر الفولغا.

وسرعان ما برز في رأسه اسم مناسب لهذه السنة الغريبة *عام الإرهاصات الخبيثة*.

عاد باخ مستَنفَداً، ولكن ربما، كان مسروراً من الجولة العفوية غير المتوقَّعة، وربما ما كان بمقدوره النوم في هذه الليلة.

* * *

وتحقق المكتوب.

في شهر آب (أغسطس) صودِرَت الماشية والأدوات الزراعية وكذلك جرارات «كارليك» من أهالي غنادينتال الذين لم ينتسبوا بعد إلى المزرعة الجماعية وضمّتهم إلى «القطيع» العمومي. لم تستطع المستوطنة أنْ تهدأ لمدة يومين كانت ساخطة وهائجة. وفي صباح اليوم الثالث، ذهب هوفمان إلى بناية محطة الجرارات والمكائن وصُعِقَ هناك: إذ لم يبقَ من الممتلكات الميكانيكية كلّها إلّا جرار «فوردسون» المتداعي في المرآب؛ اختفت من دون أثر الجرارات «كارليك» التابعة للمزرعة التعاونية وتلك التي صودِرَت للصالح العام. صاح هوفمان وهدّد المخربين بالوقوف أمام محكمة الشعب؛ وركض يجوب الأفنية ويتحقق من حظائر وسقائف المشبوهين؛ واستجوب الفلاحين الميسورين الذين نُزِعَت ممتلكاتهم مؤخراً؛ وفي نهاية الأمر استدعى مفرزة شرطة من بوكروفسك وأصرّ على إجراء تحقيق ولكن من دون جدوى. اختفت الجرارات وكأنها غرقت في

نهر الفولغا. باخ وحده عرفَ أنَّ «الأقزام» (الجرارات «كارليك») ذهبت إلى المنفى الطوعي، قد دفعها الغم بسبب شرّ المستوطنين المفرط، مكرّرة مضمون الحكاية عن نزوح الأقزام من بلاد البشر. حتى إنَّ باخ وجد آثار التروس بعيداً في السهوب، في نهاية حدود المزارع الجماعية والأملاك الخاصة؛ لم يُرِها لأحد؛ وبعد يومين، جرف المطر تلك الآثار.

وفي شهر أيلول (سبتمبر) أصبح من الواضح أن «قضية الجرارات كارليك» قد دخلت في طريق مسدود، وفكَّر المسؤولون بتهجير الفلاحين الميسورين الذين نُزِعَت ملكيتهم من غنادينتال بوصفهم المتهمين الرئيسين. وقف نصف سكان المستوطنة دفاعاً عنهم، وأصرّ النصف الآخر على طرد المخربين. وبقوا يتجادلون حتى وجدوا في صباح أحد الأيام منازلهم فارغة لقد اختفى الكولاك (الفلاحون الميسورون) من دون أثر مثل جرارات «كارليك» (الأقزام). وهمسَ البعض أنَّ الناسَ وضِعوا في الليل في عربات ونُقِلوا إما إلى مناطق التندرا عند نهر كوليما (في سيبيريا)، وإما إلى سهوب كالميكا، لا أحد يعرف على وجه اليقين. كان باخ وحده يعرف أنَّ الناس لم يُنقَلوا إلى الشمال ولا إلى الجنوب، بل إلى الشرق، إلى بلاد الدببة التي وصفها ذات مرة. وكان باخ وحده يعرف ما هي المصائب التي تنتظر التعساء هناك.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) ذوت قطعان الماشية التي صودِرَت من الكولاك (الفلاحين الميسورين) من الشوق لمالكيها المختفين، على الرغم من الطعام الوفير والرعاية المناسبة: رفضت ثيران الكولاك وأبقارهم الأكل والشرب وبقيت واقفة بلا حِراك لأيام أمام المعالف المليئة وهي تنظر بلا انقطاع في السقف ما دامت لديها القوة الكافية وبعد عدة أيام سقطت ميتة. وكان الرغاء في الحظيرة العامة عالياً إلى درجة سمعه حتى باخ في الضفة اليمنى. هرع هوفمان كالجِنّ الصغير إلى مزرعة الحيوانات: حاول إجبار الماشية العنيدة على تناول العلف، وضرب الحيوانات على جوانبها النحيفة، وقادها لتتمشى في الفناء وغسلها بالماء

الدافئ، وحمل قطعاً من الملح من مقالع ملح السهوب ودفع العلف اللذيذ من دون جدوى إلى خِطامها الحزينة. الطبيب البيطري الذي دُعِيَ من بوكروفسك فشل في تفسير هذه الحالة الغريبة؛ وكتب في التقرير، وهو يهزّ كتفيه بذهول، أول تشخيص خطر في ذهنه «الرعام»[1]، لكنه لم يستطع اقتراح طرق للعلاج. لكن باخ عرف: لم يكن هناك طريقة لإنقاذ الحيوانات كلّها ستهلك، حتى آخر واحد. وبعد ذلك بوقت طويل عندما ينسى المستوطنون حتى التفكير في الأمر، سوف يسمعون مرة أخرى هذا الرغاء الحزين في عواء عاصفة ثلجية وفي قصف الرعد. ومنذ ذلك الحين، سترغي كلّ عاصفة شتوية وكلّ عاصفة رعدية ربيعية وكلّ رعد صيفي على غنادينتال مثلما ترغي الماشية المحتضرة، مذكّرة بمَن طُرِدَ وأُهلِكَ من دون ذنب.

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) غَشَى الإسطبلات العامة وباء الرُّعَام الحقيقي، فقد التهبَ قطيع المزرعة التعاونية بأكمله من العدوى على مدار أسبوع. ورأى باخ كيف تُنقَل جثث الخيول إلى مقبرة الماشية: خُطُمُ الإبل التي تسحب العربات ووجوه الحوذيين ملفوفة بخرَق سوداء، وجيف الحيوانات الملقاة على العربات منتفخة في جميع الاتجاهات بأرجلها المخدرة وكأنَّ العربات لا تحمل حيوانات نافقة لتُدفَن، بل تنقل خيولاً متحجرة.

وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) أصبح من الواضح أنَّ عدوى الرُّعَام انتقلت إلى الأطفال الطلائع الذين اتبعوا الخيول. وأصبح شهر عيد الميلاد شهر حداد بالنسبة لأهالي غنادينتال: فبين حين وآخر كانت مواكب قاتمة تمتد من المستوطنة إلى السهوب، نحو المقبرة. وقد دُفِن الموتى في توابيت مغلقة، حتى لا يُصاب القرويون بالرعب من رؤية وجوه الأطفال المشوّهة بسبب المرض. في ليلة عيد الميلاد، حسِبَ باخ عدد الموتى ولم يُفاجأ كانوا سبعة بالضبط.

1- الرُّعَامُ أو السقاوة – وهو مرض معدٍ يصيب الخيل والبغال والحمير. (المترجم).

وقد لاحظ باخ في يأس كيف تختفي نتائج عمله ببطء ومن دون رجعة. حياة المستوطنة، التي ازدهرت بجهود قلمه، تجمدت مرة أخرى وذبلت، وفقدت ألوانها ورائحتها مثل زهرة ضربها البرد.

افتقرت الأرض في غنادينتال فجأة وتحولت إلى اللون الأبيض من الملح أو المعادن الأخرى (لم يكن من الممكن بالتأكيد تحديدها بدقة فقدت التربة البيضاء، إلى جانب الخصوبة، كلّ ذوق). أزهرت أشجار الكمثرى والتفاح، لكنها لم تحمل الفاكهة فقد تساقطت الزهور فارغة. وكان الدجاج والإوز في المزارع يبيض بيضاً فارغاً لم يكن ثمة صفار داخل ذلك البيض، وليس فيها سوى الزلال الرمادي الشفاف. وعانت الأغنام والأفراس والأبقار والجِمال أثناء الولادة أكثر من أيّ وقت مضى، لعدة أيام مُلئت المستوطنة برغاء يقطّع نياط القلب، ولكن مع هذا كانت الحيوانات تلد نسلاً ميتاً؛ وإذا ما ولِد بعض العجول أو الحملان حيّاً، فمن المؤكد أنه يحمل ختم القبح كان أبرص وله رأس منتفخ من مرض الاستسقاء أو لديه ثلاث عيون. ولم تعد النساء تلد أطفالاً كانت الأجنّة تُطمَر في أرحامهن، وبطون الأمهات التي بدأت في النموّ تنكمش وتنسحب متراجعة تحت الأضلاع.

أصبحت شوارع غنادينتال الآن بيضاء دائماً: في الشتاء من الثلج، وفي الربيع من أزهار الكرز الفارغة المتساقطة، وفي الصيف من زغب الغلال البرية، وفي الخريف من غبار السهوب؛ ولم يكن هناك من يكنس هذه الشوارع: فالرجال يتصارعون مع الأرض القاحلة في الحقول، والنساء جلسنَ في المنازل مكتئبات وحزينات على الأطفال الذين لم يولدوا بعد.

* * *

هل كان باخ هو المسؤول عمّا يحدث؟ كيف يستطيع أن يقاوم كلّ شيء القاتم والقاسي والدموي، الذي خرج بالفعل من تحت يده؟ كيف يتمكن حماية غنادينتال من قسوة الحكايات التي خلقها؟ لقد عرف طريقة واحدة فقط: أنْ يكتب عن الخير.

في البداية حاول أنْ يتذكر القصص التي ليس فيها شخصية سيئة واحدة ولا حدث حزين واحد. غير أنه لم يعثر على مثل هذا الشيء: ففي كلّ حكاية لا بدّ أنْ توجد قوى الشر والتمرد ،علاوة على ذلك، هم يبدؤون حبكة تطور الأحداث. في أيّ حكاية حتى لو كانت حول دجاجة بريئة أو عن ديك أحمق تتجلى الرذائل البشرية والضعف بكلّ وجودها، وتُرتَكَب الجرائم وتقع الأزمات والكوارث. الموت موجود في كلّ حكاية. لقد غيّر باخ جميع القصص الشهيرة بغاية الجهد، الواحدة تلو الأخرى، مثلما يعدّ العدس للحساء واندهش لاكتشافه مقدار نفخة الموت في كلّ منها: قتلُ الأطفال والحروب والأوبئة والأمراض والخيانات والفظائع التي تحدث كثيراً وبسخاء، بينما الانتقام للآلام المُتَحَمَّلة يحدث مرة واحدة في النهاية.

كيف يمكن لباخ الآن أنْ يكتب عن المعارك والحروب إذا ما كانت هذه المعارك يمكن أنْ تحدث في غنادينتال بعد يوم واحد؟ هل بإمكانه أن يتحدث عن إعدام ساحرة أو حاكم بخيل إذا ما كان هذا يمكن أن يسبب الموت الحقيقي لأحدهم؟ هل يمكنه الآن أن يسمح لنفسه أنْ يُيَتِّم الأطفال، وإن كان ذلك على الورق، وأنْ يخدِّر صبية عاشقة، أو يجعل دجاجة تختنق بحبة قمح؟

وبدأ باخ يكتب شيئاً آخر. دعا النصوص حسب الذكرى القديمة حكاياتٍ، لكن هذه لم تكن حكايات خرافية على الإطلاق، بل مجرد مقاطع من حوادث، قطع وصفية غير مترابطة، نوبات مبهَمَة ومتشنجة من الأفكار. حذف باخ من الحكايات بيد قوية كلّ شيء *مظلم* وشرير *ولا قيمة له* تاركاً السعادة والفرح فقط.

...قبَّلَ الصبية التي أنقذها ووضعها على حصان ونقلها إلى بلاده حيث ساد النعيم والسلام والصحة والازدهار والعقل والعدالة...

وفي ذلك الوقت، في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) وصلت برقية إلى اللجنة الإقليمية للحزب الشيوعي (البلشفي)

للجمهورية الألمانية، بتوقيع الزعيم: الإسراع بتخزين الحبوب. أعلن هوفمان في مجلس القرية عن فرض ضرائب إضافية على «الفلاحين الميسورين والكولاك».

... منذ ذلك الحين، أصبحت حياتهم مزدهرة ومربحة. وكان يجد كلّ صباح قطعة ذهبية جديدة تحت الوسادة، وكلّ يوم كان الماعز يحلب دلواً من العسل الزكي الرائحة، وفي كلّ ليلة تبيض الدجاجة بيضة من الفضة...

وفي شهر مارس (آذار) بدأ تطبيق المادة السابعة والسبعين من القانون الجنائي على نطاق واسع في جميع أنحاء جمهورية ألمان الفولغا: مصادرة فائض الحبوب من الأشخاص الذين لديهم احتياطيات زائدة من الحنطة. لم تنجُ ثلاث عائلات من المصادرة في غنادينتال. وبعد ذلك بأسبوع جرت المحاولة الأولى لاغتيال هوفمان الذي كان يرافق العربات التي تنقل الحبوب المُصادَرة إلى بوكروفسك: أطلق رجل مجهول النار عليه مرتين في الظهر من غابات على جانب الطريق، وقد أخفقت المرتان؛ وبعد ذلك اختبأ.

... وكان هناك الكثير من الحنطة في البلاد لدرجة أنهم بدؤوا بيع هذ الحنطة لدول أخرى. وفي الوقت نفسه كانوا هم أنفسهم يأكلون إلى حدّ الشِّبع ويطعمون من هذه الحنطة الطيور والحيوانات، ومع هذا بقي منه الكثير...

وفي شهر أبريل (نيسان) أقر مكتب لجنة بوكروفسكي الإقليمية للحزب الشيوعي البلشفي لعموم الاتحاد «بضآلة» نتائج تخزين الحبوب وربط مفوضية الشعب للعدل وهيئات الدائرة السياسية للدولة[1] بالقضية. فوصلت مجموعة من الدائرة السياسية للدولة إلى غنادينتال لمصادرات

1- الدائرة السياسية للدولة - هي جهاز المخابرات والشرطة السرية لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية في المدة من 6 شباط (فبراير) 1922 إلى 29 كانون الأول (ديسمبر) 1922 والاتحاد السوفيتي من 29 كانون الأول (ديسمبر) 1922 حتى 15 تشرين الثاني (نوفمبر) 1923. (المترجم).

إضافية. وقد قُتِلَ في اشتباك مع السكان المحليين أحد أهالي غناديتال وقُبِضَ على اثنين. ومنذ ذلك الحين ازدادت زيارات التعزيزات من الدائرة السياسية للدولة إلى مجلس القرية بانتظام: مرة أو مرتين في الشهر.

... اندفعت خيولهم كالعاصفة إلى القلعة، حيث كان بانتظار الشباب حفل زفاف: الناس ظرفاء والطعام لذيذ وأنواع الخمور من دون عدّ...

وفي شهر أيار (مايو) أعلن هوفمان عن إنشاء خلية لرابطة الملحدين المحاربين في غناديتال. وبسبب عدم وجود الراغبين أصبح هو نفسه زعيمها. وبعد ذلك بيومين نُفِّذَت المحاولة الثانية لاغتياله ومرة أخرى باءت بالفشل.

... لأن الحقيقة تنتصر دائماً على الكذب، والأبيض يهزم الأسود دائماً، والحيّ ينتصر على الميّت...

– ماذا؟! ماذا؟! ماذا تُحضر لي؟! صاح هوفمان بحدّة وغضب، وهو يطوِّح بأوراق نصوص باخ على الأرض. – هل هذه حكايات؟! هذا لعاب معسول، وليس حكايات! لديَّ هنا الحرب تدور رحاها! حرب من أجل الناس ومن أجل زيادة المحصول ومن أجل حياة البشر! أحتاج إلى مسيرات عسكرية حتى تكون كلّ كلمة مثل ضربة حربة، مثل طلقة. أما أنت فتسيل اللعاب من أجل كعكة. أين الحبكة في هذا اللعاب؟ أين الأبطال؟ أين الأعداء؟ أين المعارك القاتلة، اللعنة عليها؟ انتصار أهل الحق؟ معاقبة المذنبين؟ الأخلاق؟ على الأقل شيء واضح أين؟! أين؟! أين؟!

... هناك، حيث ينتهي الضوء والظلام، حيث يندمج المكان والزمان في كلٍّ واحدٍ في تلك المملكة عثر الأيتام المساكين على السلام والفرح، وبقوا هناك حتى انتهاء الزمن...

وفي شهر آب (أغسطس) قرّرت اللجنة الإقليمية للحزب الشيوعي لعموم الاتحاد (البلشفي) .تنفيذ خطة تخزين الحبوب في الجمهورية بنسبة ثلاثة وسبعين بالمئة فقط. وتعرض القادة المحليون بمن فيهم منظم الحزب هوفمان ورئيس مجلس القرية ديتريخ للتوبيخ الشديد.

... عندما وقفوا أمام مرأى الشمس والقمر، قال لهم الفرقدان: اذهبوا إلى بيوتكم وعيشوا بثراء حتى الشيخوخة، وازرعوا القمح والتفاح بدون عدّ، وسنساعدكم في ذلك، سنُشبعكم ونرويكم بأزهار التفاح كالفضة البيضاء وبسنابل القمح كالذهب الداكن...

وفي شهر أيلول (سبتمبر) حصدت الجمهورية الألمانية محصول حبوب قياسي: أكثر من خمس مئة وسبعين ألف طن. وبعد أن قرأ باخ خبراً حول هذا الموضوع في صحيفة «ساعي الفولغا» جاء سرّاً في الليل إلى غنادينتال ومزقَ الصحيفة التي فيها تقرير الحصاد من على شجرة الدردار وأخذها إلى المزرعة وأخفاها في مجلد أشعار غوته. وفي اليوم التالي، أعلن هوفمان لباخ أنه لم يعد بحاجة إلى خدماته: فقد انخفضت جودة الحكايات كثيراً لدرجة أنَّ شراءها لم يعد له معنى. قال له ذلك مباشرة. ومع ذلك، استمرّ عمود «فولكلورنا الجديد» في الظهور في أعداد يوم الجمعة من صحيفة «ساعي الفولغا»: إذ لا يزال هوفمان يمتلك الكثير من قصص باخ، وبعد ذلك بدأ كتابتها هو بنفسه.

... منذ ذلك الحين صار الفرح وحده يغمر قلب الشاعر المسكين. وفي كيس نقوده رنين العملات. وفي الفرن بانتظاره دائماً رغيفه المحمَّص الذي خبزته زوجته الحبيبة...

من شهر أيلول (سبتمبر) وحتى شهر كانون الأول (ديسمبر) كشف موظفو الدائرة السياسية للدولة عن تسع عشرة حالة إخفاء للحبوب في غنادينتال، وهو رقم قياسي مقارنة بالمستوطنات المجاورة. وهذا ما منح العام الماضي اسم عام القمح المخفي.

... وكان القرع في ذلك العام لذيذاً وحلواً جدّاً إلى درجة يمكن للمرء أن يتناوله بدلاً من العسل والسكر على الفطور والغداء والعشاء. وكبيراً جدّاً إلى درجة يمكن لعائلة أن تسكن بسهولة في أيّ حبّة، كما تسكن في المنزل ويكفي المكان للجميع...

وفي شهر كانون الثاني (يناير) من عام تسعة وعشرين بدأت حملة

خزن الحبوب التالية وقُدِّمَ خمسة من أهالي غنادينتال إلى العدالة وحُكِمَ عليهم بمصادرة الممتلكات؛ وتعرَّض للغرامة المشترَكة والفردية ستة آخرون. بعد ذلك بأسبوع، ذبحت أربع عائلات ماشيتها وتركت منازلها وغادرت المستوطنة.

... قادهم الطريق إلى بلد جميل يكسب الناس فيه رزقهم من خلال العمل النزيه وحده. كان سكان ذلك البلد يعملون بجدّ، والأرض خصبة للغاية إلى درجة كانت الحقول الممتدة خارج الأفق تبدو ذهبية طوال العام بفضل محاصيلها...

وفي شهر أيار (مايو) قتل ثلاثة نشطاء من رقابة الطلائع بالقرب من غنادينتال: عُثِرَ على التلاميذ الذين كانوا يحرسون غرسات المزرعة الجماعية ليلاً ميتين، مع آثار لجروح بطلقات نارية. اثنان كان عمرهما عشر سنوات، وواحد في التاسعة. ويُشتَبه في أنَّ القاتل هو والد أحد الطلائعيين، ولكن لم يثبت ذلك: فالرجل مفقود. وبعد شهر، غادرت أسر الضحايا الثلاثة المستوطنة في اتجاه غير معروف.

... ليلِد الناس أطفالاً بدون حساب. ليحبوا بعضهم بعضاً حتى آخر نفس. ليجلسوا عند النافذة المفتوحة كلّ ليلة ويستمتعوا بذهب الحقول التي لا نهاية لها... بذهب الحقول التي لا نهاية لها... بذهب الحقول التي لا نهاية لها...

وفي شهر حزيران (يونيو) أُطلِقَت حملة جديدة في جميع أنحاء الجمهورية لتحديد مزارع الكولاك (الفلاحين الميسورين). أخفق هوفمان في تنفيذ الخطة التي عمّمتها الجهات العليا والتي مفادها ألّا يزيد عدد الكولاك عن اثنين ونصف بالمئة من إجمالي عدد السكان: وذلك لأنَّ عدداً كبيراً من المستوطنين قد غادر غنادينتال. وبسبب الإخفاق في تنفيذ المهمة تلقى هوفمان توبيخاً شديداً ثانياً في اللجنة الإقليمية للحزب في بوكروفسك، وفي طريقه إلى المنزل تعرض إلى محاولة اغتيال أخرى، وهذه المحاولة الثالثة فشلت أيضاً من جديد.

... اكتست الحقول باللون الذهبي... وتساقط التفاح في البساتين أحمر، لُبّه يتناثر!... الناس سعداء... وكذلك الحيوانات سعيدة... والأقـزام والعمالقة سعداء... الجميع سعداء... الحقول ذهبية... ذهبية... ذهبية...

وفي شهر آب (أغسطس) استُلِمَ تعميم من المجلس الأعلى للاقتصاد الوطني في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية يأمر بزيادة تخزين اللحوم والزبدة والبيض وغيرها من المنتجات، وفي شهر أيلول (سبتمبر) بدأ التنظيم الجماعي[1] الكامل لمزارع الفلاحين. فتسارعت وتيرة تدفق السكان من المستوطنة الذي كان على نطاق واسع حتى من دون ذلك، وهذا ما دفع تسمية العام التاسع والعشرين كلّه *عام الفرار*.

مكتبة
t.me/soramnqraa

1- نفّذ الاتحاد السوفييتي التنظيم الجماعي على قطاعه الزراعي بين عامي 1928 و1940 أثناء فترة حكم ستالين. بدأ ذلك ضمن مشروع الخطة الخمسية. تهدف السياسة إلى توحيد ملكية الأراضي الفردية والعمالة في مزارع خاضعة لسيطرة الدولة، وتسيطر عليها بشكل جماعي مثل المزارع التعاونية والمزارع الحكومية. (المترجم).

-18-

ارتفع الدخان فوق غنادينتال عالياً، واتّكأ على الغيوم.

رأى باخ ذلك الدخان بمجرد دخوله إلى منحدر لقراءة *حكاية* الصباح. من مدة عام لم يمسك قلم الرصاص بيديه، لكنه كان يؤلِّف في ذهنه. كان ينطق إبداعاته ذهنيّاً عند الفجر، وهو يقف على الشاطئ وينظر عبر نهر الفولغا إلى تناثر المنازل، يردّد بإلحاح وتكرار تلك الجمل القليلة التي خطرت في ذهنه خلال الليلة الماضية: عن الأراضي الخصبة والأعراس التي طال انتظارها، وعن العائلات الكثيرة الأطفال والأعياد المهيبة... هكذا قرأت كلارا ذات مرة صلوات الصباح على حديقتهم وبستانهم، والآن هو يقرأ على حقول الكولخوز (المزرعة الجماعية التعاونية) في مستوطنته الأم. من غير المحتمل أن تتحقق هذه التعويذات العاطفية وغير المترابطة، لكن باخ مع ذلك استمرّ في تأليفها لم يكن يعرف أيّ طريقة أخرى لمساعدة غنادينتال.

كان الدخان كثيفاً وأسود، مثل فروة خراف أستراخان سوداء معلقة من السماء. قفز باخ في القارب وضرب المجاديف على الأمواج: إلى هناك! هزَّ نهرُ الفولغا الخريفي الرمادي، الأشعث الزورقَ بتهاون وبلامبالاة. وكانت القبة السماوية كذلك شعثاء ورمادية. زعقت النوارس، وهي تحوم فوق الماء وتغطس ثم تطفو عائدة مع فريستها التي ترتجف في منقارها. يبدو أنَّ أُناساً كانوا يصرخون أيضاً ليس شخصاً واحداً أو شخصين، بل حشد بأكمله: جاء تنافر الأصوات من الشاطئ مع رائحة احتراق لاذعة.

حرَّكَ باخ المجاذيف على جسد النهر المتقلقل وهو يلتفت بين الحين والآخر نحو القرية المقتربة. لقد أوحت الذاكرة الخسيسة بجميع القصص التي كتبها ذات مرة عن الحرائق وإضرام النيران العمدي وأمطار النار. هل سيرى بيوتاً محترقة وبشراً محروقين اليوم؟ أغناماً بجلود ملتهبة وطيوراً مختنقة في الدخان؟ وضحايا الحريق الحزانى الذين فقدوا مأواهم وممتلكاتهم بين عشية وضحاها؟ هل سيُعتَصَر قلبه المُتعَب للمرة الألف بالشعور بالذنب على ما حدث؟ ورغب بأن لا يذهب إلى مستوطنته، ويتخلى عن حياتها ويفصل نفسه عنها بنهر الفولغا؛ وأنْ لا يؤلِّف حكايات بعد الآن، ولا يذهب إلى الجرف، ولا ينظر إلى الضفة اليسرى، بل يجلس في المزرعة من دون خروج من البيت ويربي آنتشي ذات الخمس سنوات. لكن باخ لم يستطع التغلب على نفسه: كلّا، كلّا، وانطلق إلى غنادينتال، سار على عجل في الشوارع، وألقى نظرة على صحيفة «ساعي الفولغا»، وركض في الضواحي. وكان كلّه أملاً: ألم يعُد من جديد؟ ألم يعد ذلك *الغنى والخصب* نفسه؟ كلّا، لم يعد.

ربط حبل الرسوّ بجذوع المرسى المتحلّلة تماماً وصعد إلى الرصيف (بدأ مؤخراً يترك الزورق هنا: كان الشاطئ مليئاً بهياكل جوفاء من القوارب المهجورة، ولم يرغب في ترك زورقه السليم بينها). وداس على ألواح الأرضية الخشنة، وقفز على الرمال وركض باتجاه الدخان والصراخ.

كان الشارع الرئيس يفرقع بالأبواب والنوافذ ويرنّ بالأقفال والمزاليج ويتعالى منه زعيق النساء. وهاج الدجاج باضطراب بين الأرجل، ونبحت الكلاب المُثارة. وهاج الناس بمثل هذا الاضطراب من منزل إلى منزل مشدوهين، بوجوه شاحبة غريبة. دلو من الصفيح لا مالك له تدحرج بسرعة إلى الشارع وهو يقعقع وينطّ على المطبات كاد أن يضرب باخ برجليه وتدحرج مبتعداً إلى الفولغا، وكأنه حيّ وهرب من شيء رهيب. اختنق باخ من المطاط المحترق والحديد الساخن ولطَّخ الرماد الساخن وجهه. ثم قفز إلى ساحة السوق وتوقف دافناً وجهه في الجدار الكثيف الحارّ للضباب الدخاني.

في منتصف الساحة اشتعلت نار كأزهار الخزامى الحمراء فقد احترقت أشجار الدردار الثلاث. لم تحترق كلّ شجرة على حدة، بل احترقت كلّها في لهب واحد: كومة القمامة المكدسة بين الأشجار بدت كتاج الزهرة وكلّ جذع كالبتلة. الأشجار الثلاث التي بدت كعسلوج ثلاثي الأوراق عملاق بالكاد كانت تتحرك في الهواء الراكد، وهي تنفث إلى الأعلى أعمدة الدخان الأسود وركام الشرر. وكان بين الحين والآخر يركض نحو النار أناس وسخون من السخام ويلقون في النار المزيد والمزيد من الألواح الجديدة والأثاث وحزم الأوراق والملابس... وكانت زمزمة النار عالية لدرجة أنّها غطَّت على أصوات الناس تقريباً.

-... جميع اللافتات ولوحات الشرف! هتف الحداد بينتس وهو يقف في رواق الكنيسة، كان يصيح ولسبب ما ليس للحشد المجتمع حوله، بل إلى أبواب الكنيسة المغلقة. لوحات حساب المحصول! واللوحات الحمراء والسوداء! ولوحات الدعاية! القمامة الجديدة كلّها إلى النار! ليحترق الشيوعيون مثل هذه اللوحات في الجحيم!

- في الجحيم! استجاب الحشد على الفور ولوَّحوا بالمناجل والمَذاري المرفوعة في الهواء.

- الكتب من كوخ القراءة! والملصقات من المدرسة ومن حلقة الدعاية! المجلات والصحف! استمرّ بينتس بالصياح. صور هؤلاء أبناء وبنات الكلاب كلّهم الذين منحهم الله لسبب ما أسماء ألمانية!

طارت في النار لفّات الورق وأكداس الكتب، ومن ثم إطارات مطلية ضخمة فيها صور واحدة تلو الأخرى: من كارل ماركس إلى كارل ليبكنخت.

- هل تسمع؟ جميع حاجاتك في النار، وهي في انتظارك وحدك! ضرب بينتس بكلّ قوة يده، يد الحداد الثقيلة على أبواب الكنيسة، لكن المصاريع المصفَّحة بالحديد لم تختلج.

أدرك باخ أنَّ شخصاً ما قد حبس نفسه في الكنيسة اختبأ من الحشد الغاضب.

– ملابسك، أيها الخائن! حلَّقت في النار، بنطلونات مجعدة وبلوزات ولفافات للقدم وسراويل داخلية لأحدهم. أغراضك! حلَّقت حقيبة من الخشب الرقائقي بعد أنْ فُتِحت وتناثرت منها على الأرض خِرَق وملاعق وأطباق. الأوراق! توهّجت في الهواء دفاتر وأكوام من الأوراق المكتوبة وحزم من أقلام الرصاص وفواتير المحاسبة، والدفتر المنفوخ الذي لُصِقَت فيه حكايات باخ لعدة سنوات متتالية. افتح، لا تُثِر غضب الناس! كلّما جلست أطول، ستُشوى في النار أكثر!

– لا داعي لحرقه، بل نغرقه مثل الكلبة المريضة! صاح أحدهم من الحشد. – وقبل ذلك، نملأ بطنه بالحجارة حتى يغطس بشكل أسهل! الشهداء القديسون تنتهي حياتهم حرقاً في النار وليس الشيوعيون!

– نطعمه للخنازير! اعترض آخرون. – قطيع المزرعة الجماعية كبير سوف يلتهمه مع العظام! دعه يخدم مزرعته الجماعية، هذا الكلب المنحطّ!

– ينبغي أن نربطه على طريقة القرغيزيين إلى ذيل الفرس ونتركه في السهوب!

– مُنِح الكثير من التبجيل! يجب أنْ يقضم رأسه بصندوق ولن يتطلّب الأمر وقتاً طويلاً!

مشى باخ بين أبناء قريته، متطلِّعاً في الوجوه التي شوّهها الغضب. لم يكن بالإمكان في وهج الحريق تمييز هذه الوجوه تقريباً بعضها عن بعض: حواجب مقطّبة وعيون لا ترمش وأفواه فاغرة... الرجال والنساء، الشيوخ والشباب للجميع ملامح وجه واحد. والأصوات كذلك صارت متشابهة منخفضة ومبحوحة مثل نعيب الغربان.

– لنرش الكيروسين تحت الباب ونشعل النار فيه سوف يقفز على الفور!

– يجب أن نركل الباب بجذع!

من مكان ما ظهرت قامة القس هاندل النحيفة اندفع إلى أبواب الكنيسة بذراعين مبسوطتين، محاولاً الحيلولة دون العنف:

- لن أسمح بالتجديف! احموا هيكل الإيمان ولكن لا تدمروا في الوقت نفسه بيت الله!

بعيداً عن الحشد جلس ديتريخ رئيس مجلس القرية على الأرض متّكئاً إلى خرزة البئر. ملابسه موحلة وسترته المبطنة بالقطن ممزقة على كتفيه. كان يمسح خدّيه المسخَّمين باستمرار بظاهر كفّه، لكن السواد لم يزل، بل لطَّخ وجهه أكثر فحسب. جاء باخ، وسحب دلواً مملوءاً من البئر ووضعه بجوار ديتريخ لكي يغتسل. لكنه بدلاً من أنْ يرشَّ على وجهه، أمسك الدلو وسكبه على جسمه وكأنَّ الوقت ليس يوماً من أيام شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، بل من أيام تموز (يوليو) القائظ. جلس لبضع ثوانٍ، مغمض العينين، وتعبير الارتياح على وجهه، ثم نفض الماء بوفرة، وبطريقة ما نهض وجرّ قدميه عائداً.

لحقه باخ، وخطا بجانبه خطوات سريعة وقصيرة، وهو يغمغم مستفسراً هزّ ديتريخ رأسه فقط، مكرّراً: «الأحمق، هذا ما فعله الأحمق...» أمسك باخ بكمّه الذي ينضح بالبلل، وبدأ في التململ بفارغ الصبر فسحب الرجل يده ووجهه إلى الأعلى. رفع باخ رأسه ومن دهشته نسي على الفور ديتريخ وسلوكه الغريب: لم يكن ثمة صليب على كنيسة غناديتال اللوثرية. كان السقف المدبب لا يزال متَّجهاً نحو السماء، لكن رأس البرج مكسور بدا منظره غير مرتب وموحش. حبلٌ ملفوفٌ حول رأس البرج (مخرب متوحش صعد عليه)، وغاصت نهايته في إحدى نوافذ الكنيسة. وعندما كان باخ يجول ببصره وجد الصليب الذي أُسقِط وقد رفعته أيدي المصلّين الكثيرة العناية وأسندته بدقة إلى سياج الكنيسة.

- نعم! صفَّرَ الحشد فرحاً، وهو يحيّي رجلين يسحبان سلماً خشبيّاً. أخيراً! حان الوقت منذ زمن بعيد!

أُسنِدَ السُّلَّم إلى الحائط، وصعد أحد الرجال على الفور إلى الأعلى

نحو النافذة الرمحية الشكل، التي غُطّيَ فيها الزجاج الملون المكسور خلال السنوات العشر الماضية بلافتة تحمل كتابة باهتة «إلى الأمام، نحو الفجر!». سقطت الخرقة الممزقة، ودسَّ الرجل رأسه الأشعث في فتحة النافذة وفي اللحظة نفسها دوّى تصفيق حادّ، وبعد أنْ لوَّحَ الرجل بذراعيه بشكل يدعو للاستغراب، هوى على الأرض بظهره إلى الأمام.

- اقتنى سلاحاً، الوغد! عوت الأصوات. - الكلب، يجب أن نطلق النار عليه بالسلاح نفسه! والأفضل بالمذراة في بطنه، حتى يتعذب لمدة أطول! أو نعلِّقه من الرجلين، وندع الغربان تنقر عينيه وكبده!

رُفِع الرجل الذي يئنّ وحُمِلَ بعيداً، أما الحشد، فبعد أن نحّى القس هاندل عن المدخل بدأ يطرق على أبواب الكنيسة.

- افتح! حان وقت دفع الثمن! على تخزين الحبوب! وعلى صناديق البذور! وعلى الضرائب! وعلى المزارع الجماعية! وعلى رابطة الملحدين وعلى الكولاك! هيّا افتح!

- واو!... رنَّت شجرات الدردار المحترقة، ومدَّت أغصانها الملتهبة نحو السماء.

نكص باخ عائداً وهو يصمّ أذنيه ولكن من دون أن يرفع عينيه عن جلبة الناس التي أضاءتها الفوضى.

- أمسكنا به! دوّى صوت من مكان ما في الشارع الجانبي. توغل الآخرون في السهوب، لكن هذا، العزيز، قبضنا عليه! كان عدد من الرجال يجرّون رجلاً على الأرض مُمْسِكينَ به من شعره؛ وكان ذلك الرجل يختلج بخمول محاولاً تخليص نفسه. - وقعتَ، أيها الناشط!

- إلى هنا! صاح الحشد متذمراً وبنفاد صبرٍ. - هيّا، هيّا!

طُرِحَ الرجل أسفل درج الكنيسة. تدحرج جسمه بضع مرات وتوقف بعد أنْ اصطدم بالدرجات السفلية. وامتدّت نحوه في الحال عشرات الأيدي، لكنها لم تتمكن من الإمساك به: فقد ركلت جسمه عشرات

الأرجل بالجزمات وبالقباقيب وبالأحذية الخشبية وبدأ يختلج من الضرب وينطّ ويهتزّ على الأرض.

– انتظر! صاح الحداد بينتس بصوت جهير، ودفع الحشد وشق طريقه إلى الرجل المقبوض عليه. – نحن بحاجة له حيّاً! توقَّفوا!

– واواووو! ردّدت شجرات الـدردار وهي تنثر على الساحة الشرر الكبير.

وصل بينتس إلى جسده، وأمسك به من ساقه وجرّه إلى أعلى الدرج. دقّ رأسه على الدرجات، ومض وجه الرجل المقبوض عليه المائل للحظة: فتبيّن أنه دورير رئيس مجموعة الطلائع.

– أصبح صاحبك التابع النفعي الآن في قبضتنا! صرخ بينتس في الأبواب المغلقة. – إذا لم تفتح سنشويه بدلاً منك! الأفضل أنْ تفتح!

– افتح! ردّد الحشد.

– حسناً، اسمِعه صوتَك! تحول بينتس نحو دورير. – اصرخ بصوت أعلى حتى يسمعك مَن في الكنيسة!

لكن دورير بقي صامتاً إما فقدَ الوعي أو بدواعي إبداء ثبات الروح.

– هاكَ، خذ! جأر الحشد، وهم يمرّرون من يد إلى يد دلواً ثقيلاً يطرطش فيه سائل. – هذا سيساعدنا!

أخذ بينتس الدلو من الأيدي الممدودة ورشَّ منه على دورير. انسحب الحشد مسرعاً انتشرت موجة الرائحة اللاذعة عبر الساحة: إنه الكيروسين (النفط الأبيض).

بدأ دورير ينشج بصوت رقيق كالأطفال. حاول أنْ يستدير ويقرفص، لكن يديه ورجليه التي فقدت القدرة على الحركة انزلقت على الأحجار المبلَّلة وانحنت ولم تستجِب له: باعد بين رجليه بتوجِّع وصعوبة عند مدخل الكنيسة وانكبَّ على الدرجات بوجهه وصدره وكتفيه وهو ينظر برعب إلى الشرر المتدفق في الهواء.

– ارفع صوتك! طالبه الحشد. – هيّا، ارفع صوتك!

حاول دورير أنْ يصيح، ولكن خرجت من حلقه حشرجة بصوت لا يكاد يُسمَع. وفغرَ فاهَهُ في مسعى مؤلم وكشّر عن أسنانه موتِّراً حلقه حتى انتفخت أوداجه وبدت على رقبته كالحبال لكن من دون جدوى: لم يصدر أيَّ صوت من شفتيه الملتويتين.

- إلى النار! زمجرَ الحشد فجأة. ألقوا دورير في النار!

- وااو! أنَّت شجرات الدردار بلهفة، وهي تمدّ أغصانها المشتعلة نحو الناس.

- كلّا! صاح أحدهم بصوت عالٍ وثاقب من الطرف الآخر من الساحة. - لن نسمح بذلك!

ركض ثلاثة صبيانٍ تتراوح أعمارهم بين 10 و 12 عاماً إلى الكنيسة: كانت وجوههم أكثر بياضاً من الكتان الذي خيطَت منه قمصانهم، والأربطة في أعناقهم أشد حمرة من النار. حشر الطلائعيون أنفسهم في الحشد وتسلّلوا عبْره، مثلما تتسلّل الجداول عبر جذور الأشجار. وأحاطوا بدورير المرتجف، وغطّوا عليه بأيديهم الصغيرة والنحيفة.

- اغربوا من هنا! هتف الحشد ولوَّح بعشرات القبضات واهتزَّت عشرات الرؤوس بغضب.

- لن نسلّمه لكم! ارتفعت أصوات الأطفال عالية وواضحة. - أنتم أنفسكم، اغربوا من هنا! وإن لم يكن بدّ، أحرقوه معنا!

- تقفون ضد آبائكم؟! صرخ الحشد وهم يعجّون بالمذاري والمناجل.

- نعم، ضدكم!

- أوه! اختنق الحشد بسخط واندفع إلى الشرفة: لم يعد يُرى الجسد المعذب ولا قمصان الأطفال البيضاء ولا الأربطة الحمراء، تحركت الكتلة البشرية القاتمة أسفل جدار الكنيسة، تئنُّ وتتذمّر بكلمات يصعب تمييزها.

ازداد العويل والأنين، واندمج في جوقة واحدة مع طنين شجرات

الدردار حتى سقط شيء في الساحة محدثاً دويّاً. انفجار؟ طلقة؟ كلّا فتحت أبواب الكنيسة بهدير.

تسمَّر الحشد، وتجمَّدت في الهواء قبضاتهم والمناجل التي يحملونها واندلعت صرخات وبكاء. حدَّقت العيون إلى فجوة المدخل السوداء، التي ظهرت فيها تدريجيّاً قامة مشرقة من خلال الدخان والغبار المتصاعد.

– ها أنا ذا! قال هوفمان بهدوء. – خذوني.

كان يحمل ملابسه المُتَغَضِّنة في يد وحذاءه في اليد الأخرى. وعندما خرج إلى الشرفة ألقى على الأرض أولاً السروال والقميص ثم الحذاء. ابتعد الحشد عنها مثلما يبتعد عن أسمال الأبرص. بقي هوفمان على الشرفة وحده عارياً.

وقف بهدوء وتعبٍ، ينظر إلى الحشد من ارتفاع ثلاث درجات حجرية مضاء بضوء النهار الرمادي الممزوج بوهج النار. كشف العُري ما كان في السابق مغطى بالملابس، ويُخمن فقط: كان جسم هوفمان مصمماً وفق نماذج أخرى غير الكائنات البشرية العادية. الأطراف كانت غير معقولة: الذراعان متدليتان إلى الركبتين واليد اليمنى أطول من اليسرى. وكانت رجلاه الملتويتان تشبهان قوائم الحيوانات. تشابكت العظام والعضلات تحت الجلد بعُقَدٍ غريبة مكوِّنة درنات وفجوات في الأماكن غير المتوقعة تماماً. كانت الحلمات ملتوية على الصدر: واحدة عند قاعدة العنق والثانية تحت الذراع تقريباً. وبرزت سرّته الكبيرة على جانبه. وكانت خصيتاه المغطَّاتان بشعر كثيف تتدليان إلى الأسفل، مثل خصيتَي حيوانٍ مسنّ.

– وضعتُ المسدس على منضدة تلاوة الكتاب المقدس، قال هوفمان. – معبَّأ – لا تجرحوا أنفسكم به.

وخطا خطوة إلى الأمام.

انشقَّ الحشد على الجانبين.

هبطَ هوفمان على الدرجات وسار عبر الساحة بين الناس الذين انشقّوا

إلى جهتين. مشى، وهو يجرّ قدميه المعوجَّتَين ببطء. وكان عموده الفقري المنحني ينبض بشدة، وعظامه تهتزّ اهتزازاً شديداً، وانتفخت عضلاته، كما لو كان يقوم بعمل شاق نظر الحشد الكثير العيون إلى حركات جسده كالمسحور ولم ينبس بكلمة.

خرج هوفمان من غنادينتال إلى السهوب.

كاد يصل إلى حافة الساحة عندما وقف أحدهم في الطريق ولم يرغب في التنحّي. إنها المرأة الطيبة وذات الجسد الكبير إمّي البطيخة. كانت تنتظر كاشفة عن صدرها الجسيم.

كاد هوفمان أن يدفن نفسه تقريباً في الجسد الأنثوي المُكتَنِز وتوقّف. وقف لبضع لحظات يدرس العائق. نظر إلى إمّي في وجهها ونظرت هي بسخرية من دون أنْ ترمش. أراد أنْ يتجاوزها لكن الحشد استيقظ من الهوس: وأطبق الصفوف إلى يمين المرأة وإلى يسارها. لم يتجرؤوا على لمس هوفمان، لكنهم وقفوا بعناد وهم يدفعون ذقونهم إلى الأمام ويمسكون بأيديهم المناجل والمذاري بقوة.

ابتسمت إمّي البطيخة ابتسامة ساخرة واتخذت خطوة إلى الأمام دفعت هوفمان بأطراف ثدييها فقط. فأسبل الرجل عينيه، واستدار وسار ببطء في الاتجاه المعاكس.

سار الحشد على أثره.

ساروا بصمت، كتفاً إلى كتف، لم يسرعوا الخطى ولم يبطئوها، ولم يلاحظوا تحت أقدامهم أجساد دورير والأطفال التي ظلّت بلا حراك على الأرض. مشوا، كما لو كانوا يمشطون الساحة بالخيال يقودون الفريسة الوحيدة إلى الشبكة. ولم يتضح ما إذا كان هوفمان يقودهم أم أنهم يقودونه في الشارع إلى نهر الفولغا.

استند باخ إلى خرزة البئر، وفسح الطريق للموكب.

اندفع ذهاباً وإياباً، لا يعرف إنْ كان ينبغي عليه البقاء في الساحة مع

الأطفال، أو أنْ يركض خلف الحشد، ويحاول إنقاذ هوفمان التعيس. ابتعد وقع خطى الحشد الكثير الأرجل. وفرقعت شجرات الدردار المحترقة.

انتابته الرغبة في أن يصرخ بصوت عالٍ وبغضب لكي يكبح صوت هذه الفرقعة التي لا تهدأ ويوقظ الطلائعيين الذين ناموا نوم الأموات، ويوقظ الحشد المسحور. أمسك باخ، وهو يغمغم، بعصا محترقة ودقَّ بها دلو البئر الفارغ كما يدق الجرس. لكن ضربات الخشب على الصفيح كانت صماء بالكاد تُسمَع خلف همهمة النار. ألقى باخ الدلو وهرع إلى النهر.

كان الحشد الذي لا يزال صامتاً وصارماً يقف على الرمال، عند حافة الماء، ويمتد على طول الساحل. مشى باخ جيئة وذهاباً، محاولاً أنْ يرى على الأقل شيئاً خلف الجدار السميك من الظهور والأقفاء؛ غاص في فجوة ضيقة بين أكتاف بعضهم وتسلَّق وهو يعتصر نفسه، وسرعان ما ضغطوه إلى الأمام: وقف في الصف الأمامي غاصّاً إلى رسغه في الماء. ورأى.

مضى هوفمان إلى نهر الفولغا. سار بجهد، كما لو كان مغموراً ليس في الماء، بل في قير لزج. وقبل أن يتخذ الخطوة التالية، وجه إلى الشاطئ وجهه الجميل الذي شوّهته الآن المرارة واليأس، ورداً عليه هزّ الحشد في أيديهم المذاري والمناجل بشكل تصعب ملاحظته. وها هو الماء الآن غطّى ركبتي هوفمان المعوجَّتين ثم وركيه. ووصل إلى ظهره...

سارع باخ إلى الأمام لإيقاف هوفمان، ولإنقاذه! لكن يداً أمسكت به على الفور من ياقته وشعره. اختلج باخ محاولاً تحرير نفسه ولكن من دون جدوى. أمسكته أصابع قوية غير مكترثة حتى غاص هوفمان أسفل صدره ورقبته، وحتى، عندما نظر مِن حوله للمرة الأخيرة، قبل أن يمضي بالكامل في نهر الفولغا. اختفى رأسه في الأمواج بسرعة وبدون أثر، ولم يترك أيَّ دوائر أو فقاعات على السطح.

وقف الحشد ثابتاً لمدة طويلة محدّقاً إلى النهر. لم يُرَ هوفمان مطلقاً. أخيراً، الأصابع التي كانت تمسك باخ انفرجت فسقط في الماء، وبقي

جالساً ببساطة تغطيه نُدَف الرغوة الصفراء والموجات المهاجمة وينتحب بهدوء من الحزن.

لماذا صعد هوفمان إلى الكنيسة؟ هل أراد ببساطة تخليص المشهد المحلي من الصليب الضار من الناحية الأيديولوجية؟ أم أنه لا يزال يفكر في إعادة ترتيب الكنيسة بمثابة متيم ودار للأطفال: بأن يتخلص من أدوات الكنيسة المتربة، ويشغّل فيها منظومة تدفئة ويجهز غرفاً للنوم فيها وفصولاً دراسية؟ مهما كان الأمر، فهذه كانت هي رغبته الأخيرة ولم تتحقق.

لا يعرف باخ كم أمضى من الوقت جالساً على الشاطئ. ولم يستطع أيضاً أن يحدّد مَن كان يندب ويبكي، هل ندبَ هوفمان غريبَ الأطوار أو بكى الأطفال القتلى. ربما بكى على أهالي غنادينتال كلّهم، على أولئك الذين غادروا المستوطنة، وعلى أولئك الذين بقوا، وعلى الأرض التي افتقرت، وعلى شجرات الدردار التي احترقت. وعلى *سنة الحصاد الوفير* السعيدة التي غرقت في نهر الفولغا إلى الأبد، مثل تلميذ باخ الأخير.

لم يكن ثمة أحد على الشاطئ من مدة طويلة، لكن لا زالت قاتمةً على الرمال الرمادية آثار الجزمات والأحذية الخشبية الكثيرة. نهض باخ وجرّ قدميه متثاقلاً نحو المرسى. وداس على ألواح الأرضية الخشنة تلك نفسها، وصل إلى القارب. دفع المجذاف من الرصيف، وحاول ألّا ينظر إلى المستوطنة وإلى الدخان الذي يطفو فوقها، وعاد إلى الضفة اليسرى.

كان يعلم أنه لن يأتي إلى غنادينتال بعد الآن.

وأنه لن يؤلف شيئاً منذ الآن.

وأنه لن يترك آنتشي تخرج للناس أبداً.

الابن

-19-

جلس باخ طوال الليلة التالية، ممسكاً بآنتشي النائمة على ذراعيه. وسرعان ما خدرت كتفاه من الثقل، لكنه لم يكن قادراً على أنْ يبعد الطفلة عنه ويضعها على السرير. وكان يفكر في شيء واحد: هل يوجد في العالم مكان يمكن لباخ، الذئب الكهل ذي الشعر الشائب، أن يحمل إليه طفلته في أسنانه ويختبئ من حشد غنادينتال الغاضب؟ هل يوجد مثل هذا المكان في العالم؟ هل يوجد؟... عندما سمع خلف زجاج النافذة زعيق سرب الإوز الطائر أدرك أنَّ الصباح قد حلَّ. ثم أدرك: نعم، هناك مثل هذا المكان. البلد الذي لم يكن يسمى وطناً، ولكن في الوقت نفسه لا يسمى أرضاً أجنبية، إنه الرايخ.

كثيرون غادروا غنادينتال بتطلعات مماثلة، وكثيرون رجعوا بخفَّي حُنَين. ولكن، مع ذلك، كان ثمة مَن عرفوا كيف يتسلَّلون عبر الحدود، ويندسون بين العوالم كالظل ويتشبَّثون بالرايخ، يزحفون إلى زاوية ويختبئون في جحر. إذ يعيش في مكان ما هناك على ضفاف نهر الراين والأودر وإلبه وفيزر الطحان فاغنير وعائلة بلانك الكثيرة الأطفال وعائلة شميت البخلاء. واستقر في مكان ما هناك كذلك، بكلّ تأكيد، أودو غريم مع السيدة العجوز تيلدا، إذا لم يطردها في سورة من الغضب بسبب هروب كلارا الصغيرة. إذن، ألا يوجد ثمة مكان لباخ المتواضع مع آنتشي الصغيرة؟

خرج إلى البستان بالكاد يمكن رؤية أشجار التفاح في جوّ الصباح

الكثيف. سار ببطء بينها وهو يمسك كلّ واحدة منها ويودعها. شعر بخشونة ورطوبة تحت راحة يده ورطوبة باردة على الجذوع. طلب من الأشجار شيئاً واحداً: أنْ ترعى كلارا. وجاء إلى كلارا نفسها عندما انتشر فجر تشرين الثاني (نوفمبر) الباهت في السماء الرمادية الضاربة إلى الزرقة. وقف إلى جانب الحجر الذي على القبر، منكّساً رأسه ومصغياً إلى زقزقة الطيور القليلة في الأعلى: لقد تأخَّر الإوز في هذا العام مخدوعاً بالخريف الدافئ. لمس الحجر بأصابعه: اعذريني، يا كلارا، لأنني آخذ آنتشي إلى *العالم الكبير*. يبدو أنه لم تبقَ طريقة أخرى.

استعجل بالاستعدادات. في البداية ترتيب الفناء: أن يضع الخشب الساقط في عرمة الخشب؛ وأنْ يدحرج إلى السقيفة الكتلة الخشبية لتقطيع الخشب، وأنْ ينقل إلى هناك الأدوات من الفناء، وطاولة المطبخ الصيفي؛ وأنْ يرفع من حبل الغسيل بضع خرق متدلية، ويلف الحبل نفسه في كرة ويخبّئه في ردهة المدخل؛ وأنْ يفرّغ براميل ماء المطر بسحب الدلاء التي تحت أشجار التفاح؛ أنْ يرفع جميع القمامة من تحت السقائف الصناديق والعربات والعلب وعربات السحب إلى المخزن. أنْ يُغلق بالمزلاج زريبة الماشية وقنّ الدواجن والمجلَدَة. وأن يقفل المخزن وحظيرة الخنازير والدواجن...

عملَ بسرعة وصمت. أطاعته الأشياء: لقد وضِعَت بيده بإذعان، لم تسقط على الأرض، ولم تُصدِر أصواتاً، سوى في حالة واحدة فقط، عندما نقل التفاح إلى حقيبة السفر من سلة الصفصاف العالية التي يبلغ طولها نصف قامة الإنسان، سقطت فجأة بصرير ممتد وكئيب وتبعثرت الثمار الكبيرة ممزوجة بالقش على الأرضية الترابية في المخزن. هزّ باخ رأسه في حالة من الفزع: فتلك الثمار التي رُضَّت جوانبها عند السقوط ستسوَدُّ عاجلاً ولن تبقى صالحة حتى حلول فصل الشتاء. ولكن لا داعي للانزعاج: فكلّ هذه السلال المليئة إلى الأعلى بالتفاح الوردي والأخضر والأبيض، وقلادات الأسماك المجففة المعلقة تحت السقف، والحزم

التي لا حصر لها من الأعشاب التي جمعها في الصيف، كلّ هذا بقي في المزرعة، أصبح من دون مالك، لم يعد ثمة مَن يتغذى بها ويستشفي. جمعَ باخ الثمار المتناثرة وأعادها إلى السلة ووضع القش عليها بعناية. وأغلق المخزن كذلك بالقفل.

بعد أنْ أنهى الأمور المتعلقة بالمزرعة، عاد إلى المنزل. نشر شرشفاً كبيراً وسميكاً على الطاولة ووضع عليه أشياءه وأشياء آنتشي: ملابس وأحذية وزوجين من الأوعية الخشبية مع الملاعق. وشدَّها في عقدة كبيرة الحجم. هذا كلّ ما سيأخذه معه إلى الحياة الجديدة. أراد أنْ يدسَّ مجلّد غوته في الحمولة لكن الرزمة كانت ثقيلة من دون ذلك.

لم يكن لدى باخ مال لهذه الرحلة. وجد صعوبة في تخيل المبلغ المطلوب وحتى نوعية النقود التي هي قيد الاستخدام الآن. لذلك، قرّر أنْ يأخذ معه العديد من الحاجيات الدانتيل من خزين تيلدا ويبيعها عندما تحين المناسبة. فتّشَ طويلاً في الصناديق باحثاً عن أطواق ومناديل ذات النسيج الجيد. وعندما رفع عينيه من أعماق الصندوق، كانت آنتشي النعسة تقف عند المدخل.

تأهّبي، خاطبها ذهنيّاً، *نحن ذاهبون إلى موسكو للحصول على جوازات السفر الألمانية*.

* * *

سرعان ما غادرا المنزل: باخ، الشاحب الوجه من العزم، في معطف من جلد غنم ناحية رومانوفو وقبعة فرو قرغيزية، على إحدى كتفيه حقيبة المؤن وعلى الكتف الأخرى الرزمة الثقيلة مع الأشياء؛ وآنتشي المتوردة من النوم، ملفوفة في شال صوفي فوق كنزة صوفية من دون أكمام محشوّة بالقطن مخيطة من بطانية قديمة.

بعد أنْ أغلق باخ الباب وقف على دلو الصفيح المقلوب وتلمَّسَ فجوةً غير مرئية من الأسفل بين الجذوع تحت الحافة السفلية المتدلية للسقف ووضع فيها الرزمة الثقيلة من المفاتيح. وأخفى الدلو تحت

الشرفة. التفتَ للمرة الأخيرة إلى المنزل (حدق إلى النوافذ المشبَّكة وركَّزَ على القش) وإلى الفناء الفارغ وإلى البستان الأجرد (لاحظ على إحدى الأشجار تفاحة واحدة صغيرة صفراء خضراء تتمايل وحيدةً على الغصن). أخذ آنتشي من يدها وسار بسرعة نحو نهر الفولغا.

كان اضطراب آنتشي لا يقل عن اضطراب باخ ولكنه اضطراب سعيد وكأنها تتطلَّع إلى شيء مثير وممتع. كانت تحرّك رجليها بسرعة ساعيةً للحاق بخطوات باخ العريضة وتلهث بإيقاع رتيب. كانت عيناها تنظران بلهفة ومن دون انقطاع إلى الأمام، وكانت ترفرف على جبينها خصلات شعرها التي برزت من تحت المنديل. ولو أُرخيَ لها العنان لركضت، بكلّ تأكيد أمام باخ وهي تصرخ من الإثارة وتعبُّ الهواء عبّاً بفمها المفتوح.

وعندما صعدت آنتشي إلى القارب اندفعت بسرعة نحو مقدمته وأرخت ذراعيها خارج متن الزورق حسب العادة لكي تلتقط بأصابعها الرذاذ الهائج، ولكن باخ نهرها بصوتٍ آمرٍ قصير: اجلسي بهدوء. ألقى باخ حزمة الحاجيات إلى الأسفل، وأشار إليها بنظرة: أمسكيها. فهمت آنتشي، وانتقلت إلى مقعد المجدّف وغطّت الحزمة مطيعةً بكفَّيها الصغيرتين. قفز باخ إلى الزورق ودفع الصخرة بالمجذاف فتمايلَ الشاطئ وابتعد.

لم يكن لديه الوقت ليلقي نظرة وداعٍ على الجرف والمسار الضيّق الذي يتعرج على طوله وعلى حافة المنحَدَر غير المستوية على خلفية السماء الرمادية كانت الأمواج على طول نهر الفولغا عالية وعنيفة والقارب يتمايل بقساوة، تارة ينقذف إلى الأعلى ويهدّد بإلقاء الحمولة والركاب في الماء وتارة ينطرح إلى الأسفل وينهال عليه الرذاذ. كلّ ارتفاع من هذا القبيل أثار في آنتشي شهقة ابتهاج، وكلّ انزلاق نحو الأسفل زفرة ابتهاج. وهكذا ساروا على الأمواج: شهيق زفير... شهيق زفير...

شقَّ باخ بالمجاديف مياه الخريف الثقيلة ونظر إلى الضفة اليمنى انتظر الجبال الكبيرة على طول حافة المياه أنْ تنخفض وتصبح أقصر ومن

ثم تهوي تماماً وتتساوى مع الأرض: آنذاك ستبدو للعيان منازل مدينة ساراتوف التي يقطنها الروس. لم يسافر باخ إليها أبداً، لكنه يتذكر المرّات الكثيرة التي أوصلَ فيها قيصر القرغيزي المتجهم سيده غريم إلى هناك، مما يعني أنَّ الطريق لم يكن صعباً للغاية. حاول ألّا يبتعد عن الشاطئ، ولكن بعد ساعة وجد القارب بالقرب من المجرى الملاحي: كان التيار أقوى من يدَي باخ. حسنٌ، أنَّ نهر الفولغا ما زال فارغاً: فقد أغلِقت الملاحة منذ شهر تشرين الأول (أكتوبر).

وفجأة من خلال صفع الأمواج وصفير الريح دوّى في رأسه صوت أزيز جهير يرتد من مكان ما: إشارتان قصيرتان، وواحدة طويلة. استدار باخ بذهول: فرأى باخرة، مُجَحْدَرة وعريضة الجوانب وخطمها المفلطح ممدود إلى الأمام، تمخر في النهر بسرعة وسهولة، وكانت على وشك أنْ تدعس القارب الصغير تحتها. من أين أتت هذه؟ صفع باخ بالمجاديف وكاد أنْ يخلعها: بدأ يحرك المجداف الأيسر بالاتجاه المعاكس، ويصفع الماء بالمجذاف الأيمن باضطراب، ويوجّه القارب إلى الشاطئ معترضاً التيار ومعترضاً مهب الريح. ارتعش القارب وبدأ ينطُّ في الأمواج. قفزت آنتشي من المقعد إلى قاع القارب فوق الحزمة المبلّلة، وتشبَّثت بيديها الصغيرتين على الجانبين من دون أن ترفع عينيها المسحورتين عن الكتلة الكبيرة القادمة. ومرة أخرى ضرب بقوة في الأذنين صفيران قصيران، وصفير طويل. اقتربت السفينة أكثر فأكثر. وأصبحت قريبة جدّاً. حتى كان بمقدور باخ أنْ يلمسها بمجذافه: جانباها المحدبان المطليان بطلاء أسود يرتجفان، وقطع كبيرة من الرغوة تطفو حولهما؛ وترتجفُ حلقات قرمزية متدلية على طول الجانبين عوامات الإنقاذ. انحنى أحد الملّاحين من السطح العلوي، وهو يهزّ بعنف يده الممدودة ويصرخ في باخ المتجمد في الزورق:

– إلى أين تزحف، أيها الأحمق في الطست! كان وجه الملّاح أحمر إمّا بسبب الريح أو بسبب الغضب. – ومع هذا تحمل طفلاً معك، أيها الأحمق!

مرّت الباخرة بالجوار، فتأرجح القارب لمدة طويلة على الموجة التي ارتفعت. أطلق باخ المجاذيف من يديه، وتنهَّد بتشنّج، ومسح وجهه وقفاه اللذين تبلّلا بالعرق بسبب الخوف. ثم نظر إلى آنتشي كانت غارقة بالنظر في أثر السفينة المبتعدة، وفمها مفتوح بصمت، كما لو كانت تحاول أنْ تردّد وراء البحار الكلمات التي قالها للتوّ. وأخيراً لجأت إلى باخ وصفَّرَت بدهشة: مرتين صفيراً قصيراً، ومرة واحدة طويلاً...

***

خبَّآ القارب في شجرة صفصاف، عند مدخل مدينة ساراتوف: دثَّراه كلاهما على الشاطئ، وضعاه في وهدة بين أشجار الصفصاف العتيقة وطرحا عليه الأغصان. وسارا على طول الدرب الساحلي الضيّق المؤدي، على ما يبدو إلى المدينة.

أمسك باخ بيد آنتشي بشدة لدرجة أنها كانت تنتحب في بعض الأحيان من الألم، لكنها لم تُفلِت كفّها الصغيرة: لقد أذهلها المحيط تماماً، ونسيت على ما يبدو، حتى نفسها وباخ الذي يمشّي إلى جانبها. فكلّ منعطف من المسار وعدها ومنحها ما لم تَرَ وما لم تسمع. ها هي امرأة تهبط إلى النهر: رأسها ملفوف في شال بني (مثل آنتشي) والكنزة المبطنة مربوطة بحبل (مثل باخ) وفي يدها يوجد زمام، وفي الزمام ثمة وحش عظيم، يهزّ بعرفه، ويحرك حوافره بكسل، ثم يرفع رأسه ويكشّر عن أسنان كبيرة ويصيح صيحة طويلة بصوت عالٍ وغريب... وها هو كوخ ينتصب على تلة (مثل منزل آنتشي وباخ في المزرعة)، واصطفّت خلفه أكواخ؛ أحد تلك الأكواخ فيه عمود طويل، ومن العمود إلى المنزل يمتدُّ حبل طويل؛ وفي الأسفل رجل يتعثر ويغرز نحو الأعلى بعصا؛ فينطلق فجأة من الحبل شرر أبيض ولهب وفرقعة... وها هم أناس قد احتشدوا عند شيء حديدي ضخم جدّاً بعجلات، يتشاتمون ويلوحون بأيديهم؛ والشيء الضخم كأنه يزمجر بصوت منخفض أو يخشخش...

إنَّ ما يُرى لأول مرة ينطبع في الذاكرة بسلسلة من الصور الملونة

والواضحة بشكل مثير للدهشة. وما يُسمَع لأول مرة ينسكب في الذكريات مثلما تنسكب أسطوانات الحاكي (الغراموفون) في صمغ اللّك الراسخ. العالم كبير وخارق للعادة لا تستوعبه العيون والآذان، إنه يُعمي ويصمّ. لقد طفح على آنتشي، مهدّداً بتمزيق قلبها الصغير المضطرب ورأسها الملتهب من كثرة الانطباعات إلى أجزاء. يستحيل عليها أنْ تتصارع معه، ليس أمامها سوى الخضوع له والذوبان فيه بدون أيّ أثر. وفعلاً ذابت آنتشي فيه: كانت تغمض جفنيها من وقت إلى آخر، وتحبس أنفاسها وتبحر في مكان ما، بقيادة باخ، وتشعر بسعادة وكأنها جزء من الأصوات والصور: صَفْعُ عجلات الباخرة على طول النهر وسُباب الملّاح وصهيل الحصان وفرقعة الكهرباء وخشخشة الدرّاسة؛ لم تستطع أن تعرف كلّ هذه الكلمات والأسماء ولكن هل المسألة تتعلق بالكلمات حقّاً! كان العالم مذهلاً حتى من دونها. بعد أن استراحت قليلاً فتحت رموشها مرة أخرى.

لاحظ باخ اضطراب آنتشي: فقد زالت عن خديها السمينين الحمرة المعتادة، وتألقت عينيها بتوهّج، وكانت شفتاها تختلجان بلا توقف. بدت في بعض الأحيان نظرتها غامضة وتجمد وجهها وكأنها نفسها سقطت في حلم قصير وهي تواصل خطاها باجتهاد. أراد باخ أن يأخذ آنتشي بين ذراعيه لكي يهدّئها قليلاً فاحتجت وصرخت وهي تُفلت نفسها. وهكذا سارا لاحقاً كلّ منهما بمفرده.

مرّا بعدة تلال مغطاة بكثافة بمنازل خشبية؛ وتاها بين الأسوار الخشبية والجداول ذات الجسور المبنية من الجذوع والكنائس الصغيرة؛ ووصلا أخيراً إلى ضواحي المدينة الحجرية.

كانت الحصى الرمادية اللون التي تكسو الشوارع هي الجزء الأكثر جلجلةً في المشهد المحلي: بدأ كلّ شيء يتلامس معها يطرق على الفور ويرنّ ويطقطق، سواء كان ذلك عجلات العربات أو حوافر الخيل أو المسامير المدقوقة في كعوب أحذية المارة. وبالإضافة إلى القعقعة والهدير الذي ملأ المدينة غنّت تباعاً أصوات بشرية صاخبة («أشتري

العتيق! والخِرَق والأحزمة والقدووووووور!» - «اقرأ أخبار ساراتوف الصباحيّة» - «فطائر! فطائر محشيّة»).

سحب باخ من الحقيبة حبلاً وربط أحد طرفيه بذراع آنتشي بإحكام وربط الطرف الآخر بوسطه؛ آنتشي لم تقاوم، وربما، لم تلاحظ هذه الاستعدادات على الإطلاق. ولو اختفى باخ الآن، فإنها بالتأكيد لن تفهم ذلك أيضاً. لمعت في عينيها انعكاسات الزجاج والحديد والنحاس الأحمر والنحاس الأصفر. لقد امتصت كلّ هذا البريق المعدني ولمعان الدهانات؛ وامتصت روائح الشارع، رائحة عرق الخيل والناس، ورائحة الحجر الرطب والغبار والحديد والدهونات ورائحة التبغ الرخيص والفودكا والمأكولات. وامتصت الأصوات:

- ز... ز... رنّت أجراس الترام.

- و... و... غنَّت أنابيب تصريف المياه، وأحياناً تئنّ بالقصدير في مهب الريح.

امتدَّ الشارع الذي تعيَّنَ على باخ وآنتشي أنْ يسيرا فيه إلى محطة القطار عريضاً ومهيباً وكأنه ليس شارعاً على الإطلاق، بل أحد روافد الفولغا. كانت ضفافه المنحدرة هي المنازل البيضاء والصفراء والوردية ذات الطابقين والثلاثة طوابق؛ وكانت تيارات لا نهاية لها من الناس تجري على قاعه المرصوفة بالحجارة. وقد اخترقت تلك التيارات عرباتُ الترام والسيارات متوغلةً بينهما كالأسماك الميكانيكية؛ وكانت العربات الخفيفة وعربات الحمل تزحف على مهل، مثل جراد البحر؛ وتمايلت أشجار الخريف الجرداء مثل الطحالب؛ وتطاولت أعمدة الكهرباء وأعمدة الإنارة كالجذوع المحنية. وكلّما مشى باخ وآنتشي أبعد قلّ الطين والخشب من حولهما وازداد الحجر والحديد والخرسانة.

- آه... أه... أنَّت صافرة مصنع في مكان ما، شاكيةً.

- ف... ف... ف... فَحَّ الإسفلت الساخن منتشراً تحت بكرات الحديد ومستلقياً على الرصيف.

المئات من الوجوه البشرية الشاحبة في ضوء الشمس، والرمادية من سخام الإسفلت المتطاير اندفعت في المدينة كلّها، وكأنها في دوّامة، ودارت حول الصيدليات والمخابز، وحُمِلَت في عربات الترام والحافلات، ورُميَ بها خارجاً.

بعد أن لفظت تلك الحافلات حشداً من الناس وابتلعت حشداً آخر، شخرت بفرح وطقطقت أبوابها الحديدية ودوَّرَت عجلاتها وانتقلت مسرعة إلى مكان ما، تاركةً آثاراً مطاطية دهنية على الإسفلت المتلألئ. وتَمَدَّدَت فوقها آثار من السيارات والدراجات. وعلى طول الأرصفة تراكض عدد لا يحصى من النعال المطاطية. لم تترك حوافر الجياد ولا عجلات العربات الخشبية ولا أقدام المشردين الحافية آثاراً على الإسفلت بل وحدها اللدائن والغُميلاك، والدوبرين والسكروليت، والحديد والمطاط.

– ش... ش... ش... خشخشت الإطارات.

– ز... ز... أزَّت عجلات الدراجات.

استمعت آنتشي بنهم إلى جميع أنواع الطقطقة والخشخشة، والقعقعة والطرق، والفحيح والحفيف؛ وودّت لو أنها تستطيع أنْ تلمس أجسام مصابيح الشوارع البرونزية، وحَجَر المنازل الخشن، وجوانب السيارات الزلقة المطلية التي تقف عند الرصيف، وحواجز أنابيب التصريف الشبكية المخرَّمة، وكلّ حصاة تحت قدميها لكن الحبل الملتف حول جسدها جرَّها بعيداً إلى الأمام.

بسبب الضوضاء والضجيج بدأ شيء ما يجلجِل ويتدحرج في رأس باخ أيضاً. وكان يفضل لو يأخذ آنتشي بين ذراعيه ويجري عبر الحشد المتدفِّق على الأرصفة ومن خلال أرتال عجلات عربات النقل النشيطة التي تجرّها الخيول وعربات الدفع المتمهِّلة بصورة أسرع إلى محطة القطار. نظر إلى الصبية بقلق: كان فمها مفتوحاً، كما لو أنها على وشك الصراخ، ونظرتها المتحمسة تنطّ على الناس والكلاب والخيول ونوافذ

المتاجر واللافتات وملصقات الإعلانات المرتجفة في الريح والرايات الحمراء المرفرفة والطيّارة المحلِّقة في السماء... كلّا، أدرك باخ أنه لا يمكنه أنْ يحملها بين ذراعيه.

ولكن في سوق البراغيث (سوق المواد المستعملة) عند المحطة كان الضجيج أشد. فقد كان الباعة والمشترون جميعهم يصرخون بشيء ما ويعرضون ويمدحون ويتشاتمون ويهرولون جيئة وذهاباً ويفركون بعضهم بعضاً بظهورهم وأكمامهم. البضائع منها ما يُؤكل ومنها ما هو قديم وعتيق وجديد وذهبي وممزق ومصلَّح ومسروق، وما يُباع عن طريق وسيط أو بالمبادلة، منها ما مطروح على الأرض أو ملقى على منضدات وصناديق أو بارز من السلال والحقائب أو من الأيدي الممدودة والجيوب، ومنها ما يتمايل في الهواء أو يطفو من تحت الحشد أو فوقه، ومنها ما ترفعه أيدي البائعين القوية المراس.

وبعدما كاد باخ أنْ يُصَمّ من زعيق الأصوات حشر نفسه بين رجلٍ عجوزٍ نحيف في قبَّعة من فرو الكلاب (كان يشوي الكباب على مجمرة أكلها الصدأ: كان الدهن يقطر من الأسياخ المشبعة بالسخام على الفحم، ويهسهس هسهسة ممدودة وينفث دخاناً لاذعاً) وامرأة عابسة وجهها لوَّحته الشمس إلى حدّ السواد كانت تجلس بالقرب من تلٍّ من الرقي (البطيخ الأحمر) وهي تمدّ ركبتيها الحادتين في الحشد، وكانت إما تغني شيئاً ما برتابة باللغة التترية أو تقرأ صلاة. أخرج باخ من عُبِّه صناعات تيلدا من الدانتيل ومدَّها بإحراج إلى الأمام إلى كتلة من الرؤوس المتلفِّتة التي تزحف أمامه، والوجوه الفضولية والأيدي السريعة. وحشرت آنتشي المربوطة إلى وسطه نفسها عند رجليه: جلست على الرزمة وتشبَّثت بساق سروال باخ، واستمرت تنظر إلى خفقان الناس المزعج أمام عينيها وتحرّك شفتيها من دون توقّف. وقف لمدة طويلة يرتعش من البرد لم يدفّئه سوى جسم آنتشي الصغير الدافئ الذي يضغط على ركبتيه. لم يبع أيّ شيء.

وفي المساء، عندما خفَّ الحشد وشعر بالملل، وهدأت الجلبة في الساحة التابعة للمحطة، بدأت تُسمَع أصوات القاطرات: كانت تُسمَع صفارات نداء من حين إلى آخر من مكان بعيد، من وراء مبنى المحطة الطويل المزَيَّن بزخارف. وعندما كانت آنتشي تسمعها ترفع رأسها في كلّ مرة وتمدّ شفتيها وتُصفِّر بهدوء ردّاً عليها: صفيرين قصيرين، وصفيراً واحداً طويلاً.

نفض الرجل العجوز صاحب الكباب الجمر المتبقي من منقل الفحم، وألقى به خلف ظهره وتجول في سوق البراغيث. ودحرجت بائعة البطيخ الأحمر بطيخة كبيرة من مكان ما وألقت عليها البضاعة المتبقية وانسحبت إلى الخارج. أصبح المشترون والفضوليون أقل. وبدلاً منهم، لاحت من بين أروقة التسوق الفارغة قامات رجال يرتدون سترات مهترئة، ذوي نظرات سريعة كنظرات الذئب، وأسراب من الأولاد الصغار النشيطين يرتدون أسمالاً. أحد هؤلاء، وهو يمرّ من جانب باخ، ألقى نظرة خاطفة على آنتشي قلّلَ من سرعة سيره وابتسم ابتسامة عريضة وخبيثة (ومضت شرارة ذهبية بين أسنانه المكسَّرة): «مرحباً، يا آنسة» فمدّت إليه يدها الحمراء من البرد وزمجرت ردّاً عليه. بدأ المشرد يقهقه ساخراً ويهزّ السيجارة الملتصقة بشفته السفلى. دسَّ باخ المناديل غير المباعة في جيبه، وأمسك آنتشي بحزم بكلتا يديه الممدودتين وقادها إلى الوراء للبحث عن شبابيك بيع التذاكر. وفكّر: ماذا لو تبيّن أنَّ بائع التذاكر امرأة طيبة القلب تحب الدانتيل؟

* * *

خلف أبواب المحطة الثقيلة كان ثمة نفَسٌ دافئ وحامض فقد هرع مئات الأشخاص في الظلام تحت السقف المرتفع المزين بهياكل عظمية من الثريات غير المشتعلة: كانوا يحتكون بالجدران ويجلسون على البالات والحقائب ويستلقون على الأرض. مشى باخ وآنتشي في القاعة مجتازين من خلال رزم وحقائب الآخرين، ومن خلال أذرع العواتق ذات

الحُزَم المربوطة في نهايتها، وصناديق الخيار، وأكوام الشمّام (البطيخ الأصفر) الصغير الحجم، والسلال التي تحمل الطيور المقوقئة ومن خلال أيدي وأرجل الأشخاص النائمين. سار باخ على عجَل ومدَّ عنقه محدقاً إلى كوة شباك التذاكر. أما آنتشي، فكانت تنقل رجليها بصعوبة ساعية جهدها تارة لتلمس بأصابعها رجلاً بمعطف قطني ممزق يشخر بصوت عالٍ وتارة تجلس على صندوق من الورق المقوى مثقَّب الجدار: في داخله ثمة شيء يهِرّ بصوت بارز ويموء. شدّها باخ بلهفة خلفه، كانت آنتشي تدير رأسها وتنظر حولها وتتعثر وتسقط في بعض الأحيان؛ كان هناك شيء يصفّر لها باستمرار بالقرب منها، لم تعد قادرة على أنْ تتغلب على وفرة الانطباعات الطاغية، ولكن الصفير الهادئ هذا أغرقها في هدير الأصوات المتدفق حولها.

كان الطابور على شباك التذاكر صغيراً، وسرعان ما كَبا باخ بصدره على الطاولة الخشبية الضخمة، ونظر بأمل في النافذة الصغيرة نصف المغلقة بواسطة زجاجة داكنة بعض الشيء. وبعد أنْ رأى على الجانب الآخر وجه امرأة منتفخاً، مزيناً في المنتصف ببقعة دهانٍ قرمزية ومفلطحاً في الأعلى بطاقيّة رسمية، دسَّ تحت الزجاجة قبضته العَرِقة من الإحراج والتي تمسك بالمناديل. ارتجف وجه المرأة حيرةً وفي الحال اهتزّت الطاقية قليلاً وتحركت البقعة القرمزية:

– بماذا تعبث هنا، أيها المواطن؟ ماذا تدسّ لي؟ أعدها فوراً! هنا ليس سوق البطيخ! هذه دائرة حكومية! وإلّا سأنادي الشرطة؟!

حشر باخ المناديل المتجعدة في عبِّه وسحب آنتشي الخائفة خلفه، سارع بالابتعاد خلف العمود، وخلف الزاوية، بعيداً عن بائعة التذاكر العالية الصوت وعن العيون الفضولية التي تحدق إليه. يبدو أنه أسقط أحد المناديل، لكنه خشي العودة لالتقاطه. ففي الزاوية البعيدة من القاعة لاحظ قامة طويلة في سترة زرقاء وغطاء رأس بشريط بلون التوت. شقّ طريقه أبعد وأبعد: من جانب النوافذ نصف الدائرية المرتفعة التي

بدا خلفها ظلام العشيّة بلونه الأزرق، ومن جانب مقاعد البدلاء التي غصَّت بالمسافرين، ومن جانب العربات وطاولات المقصف والحمالين وبائعات الأطعمة إلى هناك حيث لم يسمع أحد الفضيحة التي نشبت.

وأخيراً عثر على رقعة صغيرة فارغة عند حافة النافذة في أقصى الزاوية؛ حشر نفسه هناك، ألقى البالة عن كتفه وأجلس آنتشي عليها وفكّ الحبل الذي يربط بينهما. وجلس هو بجانبها ومدَّ ساقيه للمرة الأولى خلال اليوم. استولى عليه التعب وجثم عليه مثل الغطاء المبطّن بالريش. قرّر: قضاء الليل هنا، وفي الصباح يحاول ركوب قطار موسكو بدون تذكرة فلربما يكون جامع التذاكر في العربة امرأة طيبة القلب تحب الدانتيل؟

شعر بوجع في بطنه بالطبع، إنه الجوع: منذ الصباح لم يأكلا شيئاً. فكَّ حقيبة الظهر وأخرج منها تفاحتين: الصغيرة المدعوكة من الجانب لنفسه والأكبر والأكثر حمرة لآنتشي. وقد لاحظ الآن فقط كم بدا وجهها غريباً في الدقائق الأخيرة.

إنَّ وجهها الذي شَحُبَ منذ مدة طويلة من الإثارة أصبح الآن بالكامل أبيض كالقطن. لم يعد على وجهها الذي فقد الألوان ثمة خدان ولا شفتان ولا أنف (وكأنها طُليَت بالطباشير)، عيناها فقط المفتوحتان تلمعان بالإثارة، جلست آنتشي بلا حراك بعد أن أسندت قبضتيها المضمومتين إلى حلقها وجعلت تجول ببصرها على الناس والأشياء غير قادرة على التوقف وجعلت رموشها وجفونها ترتعد وفُتِح فمها كفجوة داكنة وأُغلق مرة أخرى. لمس باخ بأطراف أصابعه ذلك الوجه الشاحب الذي شوَّهه التوتر. نظرت إليه آنتشي نظرة شاردة، وضيَّقت عينيها وطوت شفتيها، كما لو أنها تستعد للبكاء وفجأة أطلقت صوتها عالياً وصرخت:

– آه!...

النساء صلَّبنَ وشهَقنَ. وفي المقعد المجاور نشَجَ طفل من الذعر. والتفتت إلى باخ عشرات الوجوه المندهشة واليقِظة والمستاءة من النوم. فقفز وضمَّ الطفلة الباكية إلى بطنه واحتضنها بين ذراعيه، ولكن لم تكن ثمة

طريقة لإيقاف هذا الصراخ: كانت آنتشي تبكي بصوت جهير شديد بكلّ ما لديها من قوة طارحةً عنها كلّ إثارة اليوم المجنون، ما دام في صدرها ما يكفي من الهواء. ثم أخذت نفساً عميقاً وكرّرت ذلك مرة أخرى:

- آه!...

أخذ باخ يدور في الزاوية الضيقة محاولاً هزَّ الطفلة ناثراً بذلك التفاح ومتعثّراً بالرزمة تحت قدميه ومصطدماً في كلّ مكان بنظرات الآخرين المشبوهة. وأخيراً، ألقى البالة كيف ما اتفق على كتفه وحقيبة الظهر على رقبته وحضن بيديه آنتشي المستمرة في البكاء واندفع نحو أقرب الأبواب.

شقَّت قامة طويلة طريقها اتجاهه إنه ذلك الشخص نفسه، في السترة الزرقاء والقبعة بلون التوت لكن باخ دفع قدميه بشكل أسرع، وكان هو أول من وصل إلى الباب فقفز إلى الخارج وركض بسرعة شديدة من دون أنْ ينظر إلى الوراء. لم يسمع المطاردة لأنَّ آنتشي طرحت رأسها على كتفه، وبالتالي صدح في أذنيه صوت طغى على كلّ صوت غيره:

- آآه!...

قصف أولاً الحذاء الخشبي على الإسفلت، ثم انهال في مكان ما على درجات حجرية، وبدأ ينبض على أرضية ناعمة ممزوجة بالحجارة الصغيرة. نظر باخ بضع مرات هل ثمة أحد يلاحقه؟ لكنه لم يستطع رؤية أيّ شخص في الظلام المحيط. تعثَّر بحاجز متين وطويل وكاد أن يكبو على الأرض بوجهه، ولكن بطريقة ما قفز فوق الحاجز، وبقي واقفاً على قدميه وسرعان ما وجد نفسه يجري في المسارات الضيقة.

ركض مدة طويلة على عوارض السكة الحديدية التي لا نهاية لها وعلى القضبان التي لا حصر لها، والتي امتدت بشكل خيالي تارة تتشابك وتارة تفترق إلى خيوط منفصلة، كشَعرِ عملاقٍ حديدي غير مُمَشَّط. تنفست القاطرات وراء ظهريهما، وصلصلت أجسام القطارات المعدنية فكان عليهما أن يتفادياها ويسيرا بمسار متعرج، حتى لا تلحق بهما.

فجأة حلَّ الهدوء: لقد صمتت آنتشي. وخوفاً من أنْ يُكسر الصمت الذي طال انتظاره، واصل باخ المشي: ضمَّ الطفلة إليه وسار، يخطو نحو الأمام، وهو يستمع إلى أنفاس الطفلة المتقطعة. وبعد ذلك بقليل، تحوّلت إلى تنفس ثقيل وهادئ عبر الأنف: فقد غفت آنتشي.

من خلال النجوم اللامعة في السماء أدرك باخ أنه يتحرك في الاتجاه الصحيح إلى الشمال. كان نهر الفولغا في مكان قريب، على الجانب الأيمن لقد شعر بوضوح بوجوده القريب. وكانت هناك أيضاً قرى الضواحي وأجمة الصفصاف التي يكمن في أعماقها القارب الذي أخفياه. وبعد أنْ وصلا إلى بقع مصابيح الشوارع المظلمة التي تلألأت بين المنازل، خرج باخ عن المسارات الضيقة وتوجه إلى الشاطئ.

كلّا، لم تُخلَق روح آنتشي الرقيقة لضوضاء المدن المجنونة والقرى المزدحمة، بل للحياة المنعزلة. وليس عبثاً أنْ صانها باخ طوال هذه السنوات؛ وليس عبثاً أنْ حرس المزرعة من غزو *العالم الكبير*. كم اتضح أنه محقّ تماماً! الآن ضميره هادئ: لقد حاول أنْ يُخرج الصبية إلى العالم، لكن هذه المسيرة الخطرة كادت أنْ تتحول إلى فاجعة. لذا، كان قدرهما أنْ يعيشا في المزرعة كنسّاك. ولم يكن هذا ذنبه. لم يكن. لم يكن...

مشى باخ على طول شوارع القرية المظلمة المضاءة قليلاً، مخلِّفاً وراءه مدينة ساراتوف النائمة. كانت الحجارة تخشخش تحت قدميه والرياح تتنفَّس فوق رأسه. ومن حين إلى آخر، يسمع أنيناً من بعيد، بصوت متقطِّع ورقيق، إما ثعالب في السهوب، أو بُوَم. لم يشعر بالتعب. بل العكس، كان مجرد التفكير في أنه في كلّ دقيقة يحمل فيها آنتشي بعيداً عن *العالم الكبير* المفترس يثير فيه الطمأنينة. ومن المؤسف أنَّ الطريق إلى المنزل يبعد عشرات الفيرستات، وأنَّ القارب الذي بانتظارهم في أجمة الصفصاف لا يمكن تركه في أيِّ مكان، وإلّا لكان باخ قد سار طوال الليل، مع وجود آنتشي بين ذراعيه حتى يصل إلى جدران مزرعته العزيزة.

-20-

عثرا على القارب في الصباح، عندما ظهرت الشمس الباردة باهتةً من خلال بياض الغيوم السميك. تبيَّن أنَّ رحلة العودة كانت أكثر صعوبة: فقد اكتسى النهر خلال الليل بطبقة جليدية صغيرة في الأماكن الشفافة، وبحاشية من ندف الثلج في الأماكن العكرة بعض الشيء، ولم يكن من السهل التجديف في خبيصة الجليد هذه بمواجهة التيار.

كانت آنتشي مضطربة، ومن وقت إلى آخر تفلت من شفتيها أصوات غامضة ولكن لم يكن الخوف هو الذي استحوذ عليها، بل الإثارة المستمرة التي لم تستطع إخمادها: استمرت في النظر حولها، كما لو أنها تتوقع أنْ ترى حولها ازدحام يوم أمس مرة أخرى، والأكثر من ذلك أنها تتمناه. وبدا لباخ أنَّ آنتشي في أصوات الطبيعة البسيطة استمرت تسمع دمدمة شوارع مدينة ساراتوف، وفي اصطفاف الأشجار المتراصة ترى تجمهر مئات الأشخاص في سوق البراغيث الصاخب، وفي الحقول الممتدة إلى حدّ الأفق، الساحة العريضة، في طيور النورس المحلِّقَة فوق نهر الفولغا الطيّارات الفضية. أحقّاً استطاعت آنتشي، خلال يوم واحد قضته في *العالم الكبير*، أنْ تقع تحت فتنته الخطرة؟

قاد باخ آنتشي إلى المنزل، من دون أنْ يفهم جيداً أيَّ خبَلٍ استولى عليه في تلك الليلة، عندما قرّر أنْ يُبعِد الطفلة عن المنزل. وطمأن نفسه: مهما كان غضب أهالي غنادينتال لا بدّ أنهم على مدار الأيام الماضية قد هدؤوا. فكثيراً ما شاهد أهل القرية باخ يرسو على الرصيف، ورآه

الكثيرون قادماً من الضفة المقابلة، ولكن لم يحدث في السنوات الأخيرة أنْ جاء ضيوف غير مُنتَظَرين إلى المزرعة. بقيت المزرعة لا يقربها الغرباء إما بسبب بعدها عن تيار الحياة الرئيس، أو أنَّ أحدهم قرأ عليها تعويذة: لم تمسَّها الحرب القديمة العهد، ولا المجاعة التي استمرت عامين، ولا التغييرات التي حدثت في جميع أنحاء البلاد. ربما ستصمد حتى في هذا الوقت؟

وفي المساء عندما سحب باخ وآنتشي المتعبان القارب إلى الشاطئ، وتسلقا المنحدر ومرّا عبر الغابة وصلا إلى المنزل المقفل، كان كلّ شيء هنا مثلما كان قبل يومين، بل حتى مثلما كان قبل بضع سنوات. ومثلما كان قبل بضع عقود من الزمان. هكذا كانت ترتطم فروع التفاح ببرودة في مهب الريح. وهكذا اسودَّ خشب الكوخ والحظائر أيضاً. وهكذا انتصبت أشجار البلوط القديمة كالجدار العظيم حول المكان. وهكذا امتدّ العفن الرطب من الغابة، وامتدّت المياه الجليدية من نهر الفولغا.

ولكن لسبب ما، لم تكن بضع قطع من الخشب تجثم في عرمة الحطب بانتظام، بل ملقاة قرب الحائط. ومزلاج باب سقيفة المخزن زُحزِحَ عن مكانه والباب نفسه مفتوح بلامبالاة. وخرج من المدخنة، على ما يبدو، شيء من الدخان... صاح باخ محذراً، أما آنتشي فما كادت تخطو على شرفة المدخل حتى تجمَّدت من الريبة. أمسك الأشياء بإحدى يديه، وسحب آنتشي باليد الأخرى وجرّها إلى سقيفة المخزن: ابقي هنا! ونظر حوله بحثاً عن مذراة أو فأس. فرأى السلة التي أسقطها بالأمس تكمن مرة أخرى على الأرض. والتفاح مطروح قد تدحرج في جميع الزوايا وتلوَّثَ بالتراب، وجوانبه المستديرة مسّتها الكدمات في بعض الأماكن. أخذ باخ المذراة بحذرٍ، محاولاً عدم إحداث ضوضاء، وتحرك حول المنزل.

المصاريع لا تزال مغلقة بدقة. أما نافذة المطبخ التي اسودَّت فيها الألواح التي وضِعَت بدلاً من الزجاج المكسور فمخلوعة: زوجان من الألواح مكسوران والثقب مسدود بوسادة. يبدو أنَّ الضيوف غير

المُنتَظَرين لم يتمكنوا من العثور على مفتاح القفل فدخلوا إلى المنزل من خلال المطبخ، كما فعل الأوغاد هذا قبل عدة سنوات، ودمَّروا حياة كلارا وباخ. الأرض تحت نافذة المطبخ مُداسة ومعجونة بالطين، وثمة بصمات سوداء على الأساس الحجري.

هل هم أهالي غناديتال؟ لو كانوا هم لما تسلّقوا من خلال النافذة، بل لكانوا قد خلعوا القفل، وبسهولة. إذن، مَن؟

كان بإمكانه الاختباء في سقيفة المخزن والانتظار حتى يكشف الوافدون عن أنفسهم. لكن اليوم كان شديد الرطوبة، وآنتشي وباخ متعَبَين وجائعَين. أنْ يحرسا حتى الليل؟ حتى الصباح؟ لم تبقَ قوة لديهما. وبعد أنْ ألقى باخ على الفناء نظرةً يقظةً، صعد إلى شرفة المدخل، وأخرج المفتاح من المَخبَأ وفتح القفل. ومن دون أنْ يترك المذراة من يده اليمنى، سحب الباب على نفسه بخفة بيده اليسرى ودخل.

كان يمكن ملاحظة الفوضى المرعبة حتى في الظلام الذي بالكاد خفَّفَه الضوء الشاحب من تحت فجوات المصاريع. تكدَّست الأواني على الطاولة أوعية وأكواب وبضعة قدور مع بقايا طعام. أما رفوف الأطباق، فالعكس من ذلك، كانت فارغة إذ ألقت يد أحدهم الوقحة كلّ شيء على الأرض، والآن تناثرت أكواب القهوة والمغارف وقدور الآهين ومفارم اللحم وهراسات البطاطا والمطافح وألواح المعجنات بإهمال في المطبخ كلّه. خلف مصراع الفرن توهّج الفحم المحترق بشكل خافت. وطُرِحَت كومة من الأخشاب بالقرب من الموقد، وتناثرت الصحف المجعدة مع قصاصات المراسل الصحفي الريفي غوباخ، من الواضح أن الورق استعمل لإشعال النار.

دخل باخ إلى غرفة الضيوف. كاد ينزلق خلف العتبة على شيء دبِق؛ انحنى ورفعه إلى النور إنه جزء مُتبَقٍّ من تفاحة. كان هناك الكثير من هذه القطع بعض منها فاتح وبعض لحِقَ أنْ يعتم قليلاً. وعلى دكة باخ التي سُحِبت بالقرب من الفرن رتَّبَ أحدهم لنفسه مربضاً (والأصح تسميته

عشّاً) جبل من البطانيات ومعاطف الفراء والوسائد والشالات والتنانير، وفي عمقه يمكن تخمين ما يشبه الجُحر الذي يمكن أنْ يستوعب جسم إنسان صغير. على جانب الموقد لوحِظَت خربشات مرسومة بخطّ سيئ بالفحم على البلاط الأصفر. ألقى باخ عليها نظرة فاحصة: لم تكن هذه حروف، بل ببساطة خطوط فوضوية، أشبه بأمواج الفولغا في يوم ممطر.

دفع باخ بركبته برفقٍ باب غرفة غريم السابقة لم يجد أحداً فيها. ووجد الجدران قد جُرِّدَتِ من السجاد واستُعمِلَت في بناء العش. الأشياء الأخرى بقيت موجودة في مكانها. لكن السماور، الذي انتصب وحيداً على حافة النافذة لسنوات عديدة بدا غريباً لسبب ما. اقترب باخ وفهم السبب: وضِعَت على السماور قبعة أودو غريم ذات غطاء الأذن. كانت القبعة شعثاء، وحوّلت الجانب النحاسي المُكرِش إلى وجه مُحْمَرّ والصنبور ذا المقبض الملتوي إلى أنف معقوف. أما العيون فرُسِمَت بالفحم ذاته. تبين أنَّ الضيوف غير المُنتظَرين ظُرفاء.

لم يجد أحداً أيضاً في غرفَتَي كلارا وتيلدا، وكذلك في زاوية العلية وخزانة السرداب والمَجلَدَة وحظيرة الخنازير وقنّ الطيور تفحَّص باخ كلّ شيء، وسار في كلّ مكان. وفي كلّ مكان وجد آثار غزو الغرباء السمج. لم يعثر على الغرباء أنفسهم في أيّ مكان.

قاد آنتشي إلى المنزل. وأمرها بكنس الأوساخ ووضع الأشياء في أماكنها، ودقَّ هو نفسه النافذة المخلوعة. لم يقتصد بالمسامير ودقّها بعنف في الألواح بعقب الفأس، كما لو أنَ نافذة المطبخ الصغيرة هي المدخل الوحيد الممكن لقوى الشرّ نحو الكوخ. بعد ذلك سحب من المخزن المؤونة المعدة للشتاء: التفاح الطازج في السلال؛ والتفاح المنقوع في البراميل؛ والتفاح المجفف في الأكياس؛ بذور التفاح، في شُوالات الخيش؛ وعسل التفاح في العلَب، جعل غرفة نوم غريم مكاناً للمؤونة، لذلك أصبح من الصعب حتى الدخول إليها. كما جرَّ إلى المنزل جميع الأدوات الكبيرة والثقيلة التي يمكن أن تُستعمَل لكسر المصاريع أو الباب

الأمامي الفؤوس والمناجل والمعاول والمعازق ومخابط جرش الحبوب. بالطبع، يمكن للضيوف امتلاك سكاكينهم الخاصة وحتى البنادق، لكن باخ لم يرغب أنْ يترك لهم أدواته الخاصة على أيّ حال. ووضع الحطب على الموقد حتى السقف، وكان المخزون كافياً لمدة نصف شهر، أو حتى أكثر. وأغلق الباب الأمامي بواسطة مشبك من الداخل، ووضع ساق مجرفة في مقبض الباب لجعل كسرها من الخارج أكثر صعوبة.

لقد أبعد عن نفسه ذكريات ذلك الصباح الرهيب من نيسان (أبريل) قبل ست سنوات. خلال تلك السنين، لم ينسَ باخ لحظة واحدة، ولا تفصيلاً واحداً مما حدث، ولكن وجوه الأوغاد وأصواتهم وأجسادهم والكلمات التي نطقوا بها بدت كما لو غُطِّيَت بشيء (بشال أسود من الدانتيل؟) أو لُفَّت بشيء (بغطاء مبطَّنٍ بريش البط؟)؛ خفَّ الألم، وتجمد في مكان ما في داخله بعمق. أما الآن فقد سُحب الغطاء فارتفع الألم مرة أخرى في باخ وصُبَّ مرة أخرى بالقوة نفسها.

وتذكّر كيف فاحت من الوغد ذي العينين السريعتين رائحة مزيج من العرق والتبغ الرخيص والسمك المملح. وكيف كان الصبي المراهق يلعق شفتيه كثيراً وبعصبية، كما لو كانت شفاهه جافة دائماً. وكيف كان يرتجف الجفن الأيسر عند الرجل الكالميكي الملتحي، وكيف كان يضيِّق عينيه لتخفيف التشنج. وتذكر كيف ابتسمت كلارا في ذلك الصباح. وتذكّر أنَّ آنتشي لم تكن ابنته.

دوّى فجأة ضحِكٌ من غرفة نوم غريم. وبدا له أنَّ ذلك السليط الوقح هو مَن يضحك، وأنه سيظهر الآن عند المدخل ممسكاً بأسنانه بقلنسوة كلارا الخفيفة ويصرخ بحماقة. أمسك باخ بالمذراة واندفع إلى الغرفة فوجد هناك آنتشي تجلس على حافة النافذة وتضحك وهي تنظر إلى رأس السماور في قبعة غريم.

ذهب باخ إلى آنتشي وأخذها بيديه. ووقف حتى هدأت. كانت الريح تدوّي من خلف المصاريع، أضاءت النجوم الأولى فوق السقف، وفرقع

الحطب اليابس في الموقد بصوت بالكاد يمكن سماعه، وكان المنزل مليئاً برائحة التفاح الدافئ الحلوة ووقف باخ ساكناً، وظلَّ ممسكاً ابنته آنتشي بيديه. كان مستعدّاً للدفاع...

* * *

لم يأتوا في تلك الليلة. بقي باخ حتى الفجر مستلقياً على المقعد وعيناه مفتوحتان، متنصّتاً إلى الضجيج والحفيف في الخارج. تارة يُخيَّل إليه أنه سمع في عواء الريح بعض الأصوات الحذرة، وتارة تتراءى له ظلال سريعة خلف المصاريع وفي كلّ مرة يتلمّس فيها المذراة المُسنَدَة عند رأسه، وينهض ويتمشى في الكوخ لمدة طويلة محاولاً أنْ يخمِّن النافذة التي يتربّص الأعداء خلفها. وقبيل الصباح شعر بالتعب. فجلس على الأرض تحت نافذة المطبخ، ووضع المذراة بين ركبتيه واستند إلى الحائط وأخيراً غطَّ في النوم.

وفي النهار قرّر الخروج. حمل المذراة وهو على أهبة الاستعداد وجاب الفناء والبستان وجميع المباني الملحقة فلم يجد أحداً. وفكّر، لربما، غادر الضيوف غير المدعوين هذه الأصقاع من مدة طويلة: جاؤوا لقضاء الليل في المزرعة ومضوا قدماً في شؤونهم في مجال السرقة. وربما يتعيَّن قضاء ليلة واحدة أخرى في وضعية الحصار، وغداً سيكون من الممكن نقل التفاح مرة أخرى إلى برودة المخزن والبدء في العودة إلى الحياة السابقة.

أكمل باخ طوافه وشعر براحة في قلبه. وظلَّ وجه آنتشي الضَّجِر يلوح في كوّة باب المدخل، وقبل أنْ يومئ لها باخ بقليل بالسماح بمغادرة المنزل، لاحظ فجأة بقعة كبيرة من الطين على نافذة المطبخ المشبوكة: أحدهم، بعد أنْ غضب، لطَّخ الألواح بالتراب الرطب. وبانت مثل هذه البقع بلونها الأسود من الخارج وعلى الباب الأمامي. لمسها باخ بإصبعه كان الطين صلباً وجافّاً: هذا يعني أنَّ القضية كانت في الليل.

نظر غاضباً إلى آنتشي: عودي من حيث أتيتِ، بسرعة! ركض إلى

الشرفة وضرب الباب خلفه. يعني، أنه لم يسمع الأصوات والطرق: عاد الغرباء ليلاً إلى المزرعة، لكنهم لم يتمكنوا من الدخول إلى المنزل. أسعده أنهم لم يقتحموا الكوخ: إما أن القادمين الجدد لم يكن لديهم سلاح، أو أنَّ عددهم قليل ولم يجرؤوا على مواجهة أصحاب الدار وجهاً لوجه. ولكن ما أقلقَه أنهم أثناء طوافه الأخير، ربما، كانوا مختبئين في مكان ما في الغابة وينظرون إلى باخ الضعيف وإلى آنتشي الصغيرة.

قضى اليوم كلّه في الانتظار: فكان تارة ينظر من نافذة المطبخ وتارة من النوافذ الأخرى، ويرى من خلال الفجوات ما في الخارج. كانت الفجوات ضيقة، ولم تُرَ منها سوى أجزاء صغيرة من الفناء والبستان والغابة. نظر باخ إلى هذه الأجزاء: جانب شجرة البلوط القديمة على حافة المرج، وزاوية منضدة العمل تحت المظلّة الخشبية، وانحناء المسار المؤدي إلى المَجلَدة، وانتظر.

أمضى الليل مرة أخرى من دون نوم. وعند الظهر لم يستطع التحمل، فقرّر أن يطوف حول الفناء. وفكّر: لا يستطيع المهاجمون التربّص لشخصين ضعيفين إلى ما لانهاية في منزل منعزل. لو كانت لديهم بندقية، لكانوا قد أخذوا كلّ ما يريدون من مدة طويلة: الإمدادات الغذائية والملابس؛ بل ويمكنهم حتى طرد أصحاب الدار بسهولة من المنزل. وبما أنَّ ذلك لم يحدث في اليومين الأولين، فمن الصحيح أنه لن يحدث على الإطلاق. ورفع مقبض المجرفة من يد الباب، ودفع المشبك، وفتح الباب بحذر. كانت تفوح رائحة عفنٍ: على العتبة وضِعت سمكة كبيرة ميتة واحدة من تلك التي يحملها الفولغا في البداية لمدة طويلة على الأمواج، وبعد ذلك يرميها إلى الشاطئ نصف متحلّلة.

زمجر باخ بغضب: يا لهم من أوغاد! والتقط السمكة المتعفنة بالمجرفة وألقى بها بعيداً في اتجاه الغابة، سيعثر عليه فيما بعد ويدفنها. الآن ينبغي التركيز على الخبثاء الذين يضايقونه لليوم الثاني، وعلى ما يبدو، فإنهم لا يزعجون من أجل الربح، بل من أجل متعتهم فحسب.

خرج من شرفة المدخل بعزم، ونظر حوله. فوجد البيت كلّه مغطى ببقع الطين. الإطارات والجدران والمصاريع كلّ شيء مغطى بقطع الطين الرمادية، كما لو أُطلِقَ الطين على المزرعة من أسلحة بعيدة المدى. ركض باخ حول الفناء وهو يزمجر من الغضب، ورأى في كلّ مكان آثار العبث الأحمق الذي فعله أحدهم: كانت أبواب السقائف والحظائر مفتوحة على مصاريعها، وصناديق وعلب الأدوات مقلوبة، وسلسلة البئر تتأرجح مفكوكةً إلى أقصى حدّ، والدلو غير موجود في نهايتها. وعندما كان باخ يعدو جيئة وذهاباً حول مباني المزرعة الخارجية بحثاً عن المستهزئين وجد ذلك الدلو على سطح حظيرة الخنازير: فقد صعد أحدهم إلى هناك على السُّلَّم النقال ووضع الدلو على رأس السقف (ورمى السلَّم، كما اتضح لاحقاً، في البئر). الفوضى كانت سائدة في الفناء... هرج ومرج.

كان موقد الحظيرة دافئاً، وقد كُدِّس حوله التبن وأشواك الصنوبر: لقد قضى الضيوف المستهترون الليلة هنا. قلَّبَ باخ التبن، وأزاح الأشواك فلم يجد شيئاً. وهو يزمجر بالشتائم، أزاح الأغصان بعيداً، وجرف التبن وكوّمَه في الزاوية. جمع الحطب، الذي جرّه الضيوف الوقحون إلى الحظيرة من عرمة الحطب، وأخذه في حضنه وأعاده إلى المنزل. لقد خشي أيضاً أنْ يرى عنبر الحطب متناثراً، لكنه كان سليماً؛ أخذ الضيوف غير المدعوين جزءاً فقط من الحطب ووضعوه في الفناء الخلفي، عموديّاً، في شكل أعمدة. أسقط باخ الأعمدة بقدمه، ثم أعادها إلى مكانها في مخزن الحطب. كلّا، لم يكن هؤلاء لصوصاً. إنهم مزعجون تافهون، وقذرون جبناء خبيثون، هكذا هم من فعلوا هذا كلّه.

نظَّفَ الفناء والملحقات، وعلَّق الدلو في السلسلة، وأعاد الأواني المنزلية إلى مكانها. ثم بحث في سقيفة التخزين عن اللوازم التي جُفِّفَت ونُظِّفَت من أجل الخزن في الشتاء كرّاف صيد الأسماك وشبكتين، واحدة ذات عُقَد كبيرة والثانية متكرّرة. وأخرج من العلية لفّة حبل، وأغلق الباب ونام بعد أن منع آنتشي من الخروج من المنزل. في البداية، لم يستطع النوم

كان غاضباً جدّاً مما فعله المخربون في الليل. ولكن مع ذلك، سرعان ما أبدى التعب مفعوله عليه فقد غطَّ باخ في نوم عميق، من دون أحلام.

أفاق عند الغروب وشرع في إعداد فخّ. أخرج من صناديق تيلدا كنزة جميلة مطرزة بشرائط قرمزية، ودسَّ فيها قرمة خشب، وعلَّق القرمة على حبل إلى مظلة الشرفة: من الجانب بدا أنَّ الكنزة عند مدخل المنزل إما لكي تجفّ أو لتهويتها بعد أنْ كانت مطروحة لمدة طويلة في صندوق. قام بعمل فجوة أكبر في نافذة المطبخ، بعد أن خلع أحد الألواح المشبوكة ودفعه قليلاً جانباً لكي يمكن سماع الأصوات من الخارج بشكل أفضل، وجلس هو على مقعد. ونشر الشبكة بجانبه وأسند إلى الجدار المذراة والمجرفة والمعول. ودسَّ بكرة الحبال في حضنه. وآنتشي، التي قيل لها أن تذهب إلى الفراش، لم تستطع التغلب على فضولها فحشرت أنفها في المطبخ ونظرت متحيّرة إلى الاستعدادات. زمجر عليها بصرامة: إلى السرير، بسرعة!

كان يعلم أنه سيتعين عليه الانتظار لمدة طويلة: عابثو الليل ظهروا بعد غروب الشمس، أو ربما، في وقت لاحق. كان يأمل ألّا يتمكنوا من تجاوز الطعم، وأن يقتربوا أكثر حتى يتلمَّسوا الكنزة أو يسرقوها، وفي تلك اللحظة سيلاقيهم: سيقبض على أحدهم، ويضربه ضرباً مُبرحاً يكون له عبرة لا ينساها، ثم يتركه ليحكي للآخرين. الضرب بالقبضة هو أفضل أداة للجبناء.

جلس ونظر إلى خيوط الضوء الباهتة التي شقت طريقها داخلةً من فجوات المصاريع فقد اخترق غروب الشمس المنزل قليلاً. استمع إلى أصوات المساء الخريفي: صفير الريح وتنهدات البوم الوحيدة في الغابة. وفجأة أدرك بحدَّة، إلى حدّ الشعور بالدفء في صدره مدى سعادته بالعودة إلى المنزل، إلى هذه الغابة وإلى هذا البستان وإلى كلارا الراقدة فيه، وإلى نهر الفولغا الأبدي تحت الجرف. وسمع تنفس آنتشي الرتيب والهادئ. ففكّر: ها هي لحظة الحياة الحقيقية، أنْ تجلس عند عتبة الباب وتحمي نوم طفلٍ ونوم كلارا تحت أشجار التفاح، وأشجار التفاح نفسها، وهذه

المزرعة بأكملها، التي أصبحت مزرعته الأصيلة منذ مدة طويلة ووفرت له الحماية من *العالم الكبير* المجنون والقاسي القلب. وشعر بالراحة هنا، داخل إلى المنزل القديم ذي المصاريع المغلقة المليء بالظلام الدافئ وبدفء الموقد ورائحة التفاح ورائحة الطفل المحبوب. كان هذا المنزل بحراً فيه مرج وفيه غابة وبستان وفيه الفولغا وفيه العالم ولم يعد باخ يريد الخروج من هذه السفينة بعد الآن. لم يكن بحاجة إلى الشواطئ. سوف يبحر في هذه السفينة ما دامت لديه القوة ويأخذ معه آنتشي ليحميها من أيّ لص يجرؤ على التسلّل إلى متن السفينة. وحتى إذا ما بقيت آنتشي من دون أن تتعلم الكلام أثناء السباحة، فليكن ذلك.

* * *

خشخَش شيء خارج النافذة بخفة، لا بدّ أنّ ثعلباً قد دخل. ثم خشخش مرة أخرى. كلّا، ليس ثعلباً. إنه شخص كبير حَذِرٌ انْسَلَّ خلسةً إلى الفناء. نهض باخ من المقعد، محاولاً التنفس بهدوء قدر الإمكان، وتلمّس الشبكة على الأرض. حفَّ نعلٌ على الحجر بخفة لا تكاد تُسمَع، لقد صعد الغريب إلى شرفة المدخل. مهَّد باخ الشبكة في يديه وعدَّ حتى الخمسة، ثم أخذ نفَساً عميقاً وركل الباب غير المقفل. فانفتح الباب على مصراعيه بهدير وأسقطَ أحدهم تدحرج شيء داكن على الدرجات بأنين مخنوق. نشر باخ ذراعيه وقفز على هذا الشيء الداكن سقط فوقه وألقى الشبكة وضغط على يديه: رفرف الرجل في حضنه صغيراً ونحيفاً وسريع الحركة، أرغى وأزبد من الغضب وتلوى واختلج محاولاً أنْ يخلص نفسه. لكن شبكة القنب كانت قوية، وكان باخ قد أخرج الحبل من عبِّه وبعد أنْ ضغط ركبته على الصيد المرفرف ربطه بإحكام عدة مرات.

– اتركني، أيها الوغد! – صرخ المقبوض عليه باللغة الروسية بصوت رقيق وغاضب. – أيها الكلب الألماني! أيها الخسيس القذر! دعني، ألا تسمع! وإلّا سأشعل النار في كوخك! وسأوخز عينك وأقضم أنفك وأسحب أمعاءك! أنت وطفلتك ذات الشعر الأبيض! دعني أذهب!

لم يستطع باخ رؤية وجه الأسير في الظلام. شعر فقط بمدى السخونة والرشاقة والقوة في الضرب تحت راحتيه وركبتيه. جلس باخ فوق هذا الساخن وهزّه، ولفّ الحبل حوله حتى انتهى.

- أيها الرفاق، أنقذوني! صرخ صوت بكلّ قوة. - إنهم يقتلونني، يغتصبونني! النجدة!

ظهرت بقعة من الضوء ترتجف في المدخل، فقد خرجت آنتشي التي أيقظها الصراخ إلى العتبة مع مصباح الشمعة في يدها. بدأ باخ يجأر محذّراً إياها كي تعود إلى المنزل، ولكن بسبب صرخات المقبوض عليه الصاخبة لم تسمع شيئاً؛ ولم يكن بمقدور باخ النهوض فالأسير كان يضرب يائساً في القيود، وينادي.

-إلى هنا! عجّلوا! بحَّ صوته. -أيها الرفاق، أنا هنا! إنهم يخلقون ظروفاً حياتية لا تُطاق، مصاصو دماء الطبقة العاملة! الإقطاعيون والبصمجيون![1] الكولاك وأتباعهم! إنهم يشربون دم البروليتارية، الشياطين!

اقتربت آنتشي من الجسدَين المتشابكَين على الأرض، وتوقفت بالقرب منهما. جلست، وقرَّبت المصباح إلى مصدر الصراخ.

في ضوء الشمعة المرتجف، رأى باخ شعراً أشعث أسود، يشبه إبر قنفذ متوحش. وومضت بين الإبر عينان سوداوان كذلك ضيقتان وطويلتان، كما لو أنهما رسمتا بواسطة المَسْكرة على وجهه المسطح والأسود من الطين؛ وفي مكان ما، خلف هذه الإبر، توارى فم كبير وعظمَا وجنتين عريضتين وأنف مسطح بمنخرين سميكين. هذا ما صاده باخ اليوم صبي قرغيزي، يبلغ من العمر ثماني أو عشر سنوات تقريباً، يرتدي ملابس ممزقة ويقذف بعبارات سباب روسية منتقاة.

وبعد أنْ أدرك أنَّ ابنة صاحب الدار فقط هي مَن جاء على صوت صراخه، بدأ يئنّ بخيبة أمل، ويصيح من الإحباط بصوت أجشّ:

1- بصمجي - عضو في جماعة البصمجية المعادية للثورة البلشفية في آسيا الوسطى. (المترجم).

– على كلّ حال سوف أُفلِت منكَ أيها العاهر! ليبقَ بيتكم فارغاً! لتحرق صاعقة مزرعتكم حتى آخر جذاذة! ليأكل الدود أشجار التفاح حتى آخر ورقة! أما أنتم أنفسكم فلتغرقوا في نهر الفولغا ولتكونوا طعاماً للأسماك!

وصمت فجأة، مدّت آنتشي يدها إلى وجهه، ورفعت الخيوط المتشابكة ولمست شفتيه بأصابعها.

– سأعضّ. قال الصبي مهدِّداً.

ضحكت آنتشي ولمست شفتيه المتحركتين مرة أخرى.

– أُو... أجابت بفرح وحنان. – أُو وو...

لم يعرف باخ ما يجب القيام به مع الأسير. هطل مطر خفيف، فسحب الجسد الملفوف في الشبكة إلى المنزل، ووضعه في الدفء بالقرب من الموقد. استمرّ الصبي بالسباب، ولكن ليس بسرعة. ونظر بعينيه بتيقّظ، غير عارف ما ينتظره. جلست آنتشي بجانبه على المقعد الصغير، لكن باخ بصرخة آمرة أرسلها إلى الفراش.

كانت ملامح القرغيزي الصغير تشبه وجه قيصر، البلّام المتجهّم الذي أحضر ناظر المدرسة لأول مرة إلى المزرعة: الجفون المنتفخة نفسها، وخطوط الحاجبين السوداء نفسها الأوسع بكثير من خطَّي العينين الضيقتين المرتفعين إلى الصدغين، والصرامة المنغولية نفسها في كلّ نظرة. امتاز الصبي عن قيصر في صغر سنّه ومزاجه الحارّ ولفظه المذهل فقط: فقد سبَّ بدقَّة وبتنوّع، من تلك اللعنات الموجودة في ذاكرته ومن اللعنات الكثيرة الجديدة التي ابتكرها مما يصعب على المرء تكراره على الفور.

بالطبع، ينبغي معاقبة الأسير بالجلد بحبل مبلّل على ظهره وطرده من هنا لكي يتوقف عن لعب المقالب بهذه الطريقة. بيد أنَّ عينيه بدتا عنيدتين وشريرتين، وفمه بعد تلك الوجبة من الشتائم أُغلِقَ بحسم، مما جعل باخ يُدركُ أنَّ ذلك لن يفيد، فظهرُ الصبي معتاد على الضرب، مثلما اعتادت قدماه على المشي لمسافات طويلة وعلى البرد. هل يفرج عنه من

دون عقاب؟ سيعبث أكثر من السابق انتقاماً. هل يأخذه إلى بوكروفسك ويسلمه إلى دار الأيتام؟ سيهرب في أول فرصة. لم يتمكن باخ من فعل أيّ شيء مع الضيف الوقح إنه لن يخضع لإرادة الآخرين.

وفكّ باخ الولد، وقف على ركبتيه وفلَّ الحبال والشبكة. في البداية لم يثق الولد بالنوايا الحسنة، وسعى جاهداً إلى العضّ؛ ثم هدأ، وانتظر الإفراج عنه، وعلى الفور اندفع من تحت يدَي باخ على أطرافه الأربعة إلى الطرف الآخر من المطبخ.

- هل خفتَ، أيها الألماني القذر؟ - استند إلى الحائط، ونفض نفسه كالحيوان وجلس قليلاً على رجليه نصف المنحنية، مستعدّاً للقفز إلى الجانب. - هذا كلّ شيء!

جمع باخ على مهلٍ اللوازم المنتشرة على الأرضية. لفّ الحبال في البكرة، وعلق الشِّباك على عتبات النوافذ لتجفّ. وأخذ المكنسة وجرف إلى الركن الأوساخ التي حُمِلَت من الشارع. وأوقد النار في الموقد.

كان الصبي لا يزال يراقبه، وهو يتحرك باستمرار على طول الجدران ويحاول أن يكون على الجانب المقابل لباخ.

- أعطني شيئاً آكله، - قال أخيراً بصوت عالٍ، لكن ليس بثقة كبيرة، كما لو أنَّ الوقاحة المعتادة تخلت عنه فجأة. - لديك من الأكل ما تتكسر منه المخازن. فأنا أعرف.

بدلاً من الإجابة، ذهب باخ إلى الباب الأمامي وفتحه. كان المطر يهطل غزيراً في الخارج، واندفع الماء بعنف إلى شرفة المدخل، وأغرقت العتبة. فنظر إلى الصبي نظرة معبِّرة: هل تريد الذهاب إلى هناك؟

- الآن، مستحيل! - وأدرك على الفور. - اذهب أنت. أشعرُ بالرضا هنا.

أحضر باخ بطانيتين قديمتين وألقاهما على الدكة. ونقر بإصبعه ستنام هنا وذهب إلى غرفة غريم. وشقّ طريقه بطريقة ما بين السلال وبراميل التفاح، واستلقى على سرير غريم لأول مرة في حياته.

كان السرير عالياً، والمرتبة محشوّة بالعشب الجاف ناعمة مثل مرتبة الريش؛ السجاد على الجدران خفف الأصوات القادمة من الخارج وكتمها. لماذا لم ينم في السابق هنا، في غرفة نوم السيد المريحة؟ لماذا تقلّب بعناد لسنوات عديدة على المقعد القاسي؟

ترك الباب مفتوحاً لسماع ما يحدث في المطبخ. عبث الصبي قليلاً بالرفوف كان يبحث عن شيء يأكله ولمّا لم يعثر على طعام عاد إلى الدكة. بقي يتأوَّه ويتقلَّب في الفراش لمدة طويلة، ثم استقر وخمد.

استلقى باخ من دون أنْ يغفو، مستنشقاً رائحة التفاح الناضج الحلوة القوية التي ملأت المنزل. أراد حسب المعتاد أنْ ينظر إلى آنتشي النائمة ويستمع إلى تنفسها. نهض من سريره، مرّ من دون أن يُحدث صوتاً عبر المنزل، ودفع باب غرفة نوم الطفلة.

وجد سرير آنتشي فارغاً: البطانية مدفوعة إلى الوراء، ولاحت الوسادة المجعدة بلونها الأبيض. ففزع باخ وصفق بيده على السرير، ولا يزال دافئاً، ويحتفظ بطبعة جسم الطفلة، ولكن ليس ثمة أحد في الفراش. نظر تحت السرير، وخبط بيده لا أحد. عاد إلى غرفة الضيوف ها هي آنتشي: تجلس على حافة الدكة عند أقدام الضيف النائم، متدثرة بشال ملفوف فوق قميص النوم وساحبةً ركبتيها إلى ذقنها. تنظر إلى وجه الصبي الأعزل بشكل غير متوقع في المنام...

هطل المطر لمدة ثلاثة أيام من دون انقطاع، أمطار شهر نوفمبر (تشرين الثاني) التي تستمرّ طويلاً والتي تغسل آثار الخريف الأخيرة في الغابات والحقول: آخر الأوراق الصفراء من الأشجار، وآخر قطع من خيوط العنكبوت وآخر غبار. وقد غسل المطر كذلك بقع الطين عن جدران المنزل وشطف جذوع الأشجار والألواح، وغسلها تماماً.

لم يستطع باخ طرد الصبي تحت المطر.

سرعان ما تحولت القطرات الثقيلة إلى بيضاء وكبيرة، وانتفخت واكتست بذيول شعثاء صارت ثلجاً. وقد تراكم هذا الثلج الوفير والثقيل

على السطح المدثّر بالقش في الكوخ والأبنية الملحقة في الفناء، وغطّى أشجار التفاح والقيقب والحور الرجراج والبلوط، وغطّى الضفة اليمنى واليسرى والحجارة والسهوب. وتساقط الثلج على نهر الفولغا، في البداية ذاب فيه واختلط كالعصيدة الخفيفة، ثم تحول إلى طبقة جليدية كطبقات شحم الخنزير المقدّد ثم تصلب كالفطائر وتحول أخيراً إلى قشرة لامعة على سطح الماء. واستمرّ الثلج دون انقطاع ثلاثة أيام.

لم يستطع باخ طرد الصبي في الثلج أيضاً.

وفي اليوم السابع، عندما هدأ الطقس، خرج في الصباح إلى الشرفة الغارقة في كثيب جليدي وأدرك أنَّ الثلج لم يعد يذوب، وسيبقى حتى الربيع مثل هذا الطفل الضال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-21-

اسم الصبي الضال فاسكا. كان يعرف كيف ينتقي كلمات السباب ويُلحِق الخراب.

كلّ شيء تلمسه يدا فاسكا القذرتان ينكسر على الفور ويسقط على الأرض ويتحطم ويتمزق، وفي أفضل الأحوال، يتسخ فحسب. عندما يمرّ في الغرفة لا بدّ أنْ يُسقط الكرسي في طريقه أو يقلب حامل أعواد الإشعال؛ وعندما يركض في الفناء يصطدم بركن عرمة الحطب ويُسقِط من هناك بضع قطع من الحطب؛ وعندما يتحرك في البستان جيئة وذهاباً يوقِع الدرج المسند على شجرة التفاح ويكسر منها بضعة فروع، أو حتى يخدش اللحاء. وتبيَّن أنه لم يكن له ذنب في هذا: فأطرافه العظمية النحيفة، التي لم يكن فيها غرام واحد من الدهن أو اللحم كانت تتحرك من تلقاء نفسها، من دون أن تخضع لإرادة رأس فاسكا الأشعث، بل هي موجودة بمعزل عن الرأس. وأصابعه كانت بنفسها ترسم قبعات فرو أسود بقطعة من الفحم على الحائط أو تخدش خطوطاً معقوفة غير واضحة بسكين المطبخ على سطح المنضدة، وأظافره نفسها تقشر الكلس المتفتت على جانب الموقد. ومع ذلك، لم يحدث أن اشتكى من يديه ورجليه غير المطيعة، وفي لحظات الخطر، عندما كان ذهن فاسكا القاصر ينكمش بشدة من الخوف، من دون أنْ يعرف كيف يلد أيّ فكرة معقولة، كانت الأطراف تتصرف كذلك بشكل مستقل تماماً: تهرب وتجدف وتتشبَّث وتزحف وتقرع، وبهذا مراراً أنقذت حياة صاحبها.

ويوجد بشكل مستقل أيضاً في جسم الصبي فمُه الكبير (يُشار إليه بلا احترام باسم *كسارة خبز فاسكا*)، الذي لم يكن يعرف اتِّباع حجج العقل أو لم يرغب في ذلك: ففي أدنى علامة على إثارة صاحبه يُفتَح هذا الفم وينهال باللعنات؛ بالإضافة إلى ذلك لم يكن من المهم، ما إنْ كان فاسكا فرِحاً أو غاضباً أو خائفاً، إذ دائماً ما كان السباب ممتازاً ومن الدرجة الأولى. كان يجدف أكثر باللغة الروسية، لكنه استطاع التجديف أيضاً باللغة القرغيزية وبالتترية وبالباشكيرية وكان يعرف بعض الكلمات النابية باللغة التشوفاشية وباللغة الموردوفية، بالإضافة إلى اللغة الأدمورية والماريّة والكالميكية:[1] الكلمات واللغات التصقت به مثلما التصق حسك القرطب على سرواله. غالباً ما كانت شفتا فاسكا تخلطان جميع اللهجات المعروفة له وهذا ما ولّد الكثير من اللعنات المعقدة لدرجة أنها لم تتسبب في ذهول المستمعين فقط، بل حتى أذهلت فاسكا نفسه. إنَّ هذا السباب المتعدّد اللغات لم يكن موجَّهاً لعقل الشخص المُهان، بل إلى قلبه على وجه التحديد، ودائماً ما كان يحقق الهدف.

حاول عقل فاسكا الوَجِل أحياناً أنْ يكبح جماح جسده الجسور وفمه البذيء، الذي لا يقل عنه جسارة، لكن هذه المحاولات كانت ضعيفة ولم تتكلّل بالنجاح أبداً. ربما كان ذلك أفضل له: كان عمر فاسكا ثماني أو عشر سنوات (لم يعرف عمره بالضبط)، لكنه كان لا يزال على قيد الحياة. لقد اختفى منذ مدة طويلة العديد من رفاقه المشردين الذين ارتبط مصيره معهم لبضعة أيام أو لبضعة أشهر في الخنادق ذات الطين البارد على جانب الطريق، وفي غرف المرضى التي تفوح برائحة الكربوليك، وفي ملاجئ المعدمين ومَآوِي الأيتام في المدن. ولكن فاسكا بقي حيّاً. فيداه السريعتان كانتا تتلقفان كلّ ما هو مطلوب للحياة: الخبز من أكشاك السوق، والبطيخ الأحمر (الرقي) والشمام من الحقول، ودجاجة

1- هذه كلّها تسميات للغات تتكلم بها بعض الشعوب والأقوام القاطنة في روسيا. (المترجم).

راكضة من أحد الأفنية، وملابس السباحين التي تركت على الشاطئ دون رقابة. وحملته رجلاه السريعتان بعيداً عن الأشرار والأمراض والعِراك والمشاجرات الصاخبة، والأسئلة غير الضرورية والبائعين الغاضبين، وعن رجال الشرطة الذين يصفرون بالصفارات الحديدية. وإذا ما خذلته رجلاه فجأة ووجد فاسكا نفسه مقيداً يفتَح فمه على الفور: هبة اللغة البذيئة أخافت بعض الناس، وأضحكت البعض وجعلتهم أكثر تسامحاً مع اللصّ الصغير.

هو مَن اختار اسمه بنفسه. وفي أوقات أخرى، كان لديه أسماء أخرى. وكانت الأصوات تطفو في ذاكرته من حين إلى آخر، وكلّ واحد كان يسميه بلغته وبطريقته الخاصة: صوت أنثوي هادئ يسميه باللغة القرغيزية - بيسار؛ وصوت رجاليّ مبحوح يسميه باللغة الباشكيرية - صلوات؛ وأصوات أطفال خشنة من التدخين تناديه باللغة الروسية - باسماتش وكفاشين. لم يتذكر لمن تلك الأصوات. ولم يعرف أيّاً من تلك الأسماء هو الصحيح. ولهذا اختار لنفسه اسماً جديداً رناناً ولاماباليّاً - يمكن أنْ تُسمَع فيه أصداء جميع الأسماء السابقة: فاسكا.

ذات مرة كانت لدى فاسكا أُم. ربما، صوتها الهادئ هو الذي صدح أحياناً في رأسه، لكنه لم يعرف على وجه الدقة. كانت لدى الأم عظمة قص قوية، ومضلعة مثل جانب الحصان، وكيسا ثديين فارغين تفوح منهما رائحة جبن القريشة الحامض. كان يصعب عليه تخيل وجهها، وكذلك مسقط رأسه: هل ولِدَ فاسكا في يورتا[1] قرغيزية أو كالميكية، أو في كوخ باشكيري أو تتري ليس لديه أيّ فكرة.

في أوقات مختلفة من حياته وجد نفسه تارة في صحراء صفراء، يركض خلف كرات خفيفة من الحَشيشة المُتدحْرِجَة؛ وتارة في مستنقعات الدلتا الزرقاء، غائصاً إلى خصره في الماء، يجمع جذور البردي؛ وتارة أخرى نائماً على الرمال البيضاء في ظل أشجار الصنوبر الأحمر. تغير الناس من

1- يورتا - مسكن الرحَّل في آسيا الوسطى. (المترجم).

حوله والأشجار والصخور والأعشاب، وبقي شيء واحد دون تغيير: مهما ابتعد فاسكا متسكعاً في تجواله، بمجرد أن يستنزف قوته وتخور عزيمته، تجلبه قدماه إلى النهر، تارة إلى نهر كسول واسع، مثل سطح البحر، وتارة إلى نهر متعرج وسريع الحركة، وتارة أخرى إلى نهر متدفق عبر السهل إلى فروع وبحيرات لا تعدّ ولا تحصى. كانت هذه الأنهار سخية منحته السمك والقواقع وجراد البحر والسلاحف المائية الصغيرة. دُعِيَت هذه الأنهار أيتيل وبولغا وسو وحتى ببساطة المياه الكبيرة. أدرك لاحقاً أنَّ أسماء مختلفة تشير إلى النهر (الفولغا) نفسه. سار بمحاذاتها طوال حياته القصيرة، من دون أنْ يهتم إلى خط السير على الإطلاق: لم يكن يعرف كيف يضيع، ولا يعرف كيف يبتعد عن نهر الفولغا.

عثر على منزل الناسك في غابات الضفة اليمنى عن طريق الصدفة. ففكَّر، ها هي، سعادة المشردين، حكاية خرافية في الواقع: ملجأ قوي في الثلج والصقيع، وسقائفُ خزنٍ مليئة بالطعام، وعرمة حطب مُكْتَظّة بالأخشاب. لا ملّاكين ولا حراس ولا شرطة على بعد فيرستات كثيرة. عِش، وابتهج، يا فاسكا، اقضِ الشتاء هنا. ولكن، هيهات. فقد ظهر الملاكون، وقفلوا على أنفسهم في الكوخ الدافئ، ووضعوا المُؤن إلى جانبهم، إنهم ألمان شَحِيحون. بعد ذلك، أمسكوا فاسكا في الشبكة مثل سمكة غبية. اعتقد أنَّه سيتسلّل منهم بهدوء في الليل، لكن المطر الغزير منعه. ثم الثلج. ثم لم يعد يرغب بالهرب.

المتشرد الخبير يفتّش لنفسه مضرباً ليخيّم فيه في فصل الشتاء قبل الأوان حتى لا يتحول في الليالي الباردة الأولى إلى قطعة من الجليد: بعضهم يتجه نحو الجنوب، إلى تركستان، بالقرب من مدينة طشقند الفياضة بالخبز أو مدينة سمرقند السخية؛ وبعضهم يجد له مكاناً في دار أيتام أو يلتحق بمؤسسة ما أو بأسرة أكثر رحمة وثراء. لم يستطع فاسكا تحمل العبودية لا الروتين اليومي في الملجأ، ولا العمل في بيت يتبناه. لذلك، مع حلول فصل الخريف، ينحدر عادة إلى الأسفل في اتجاه

المصب من خلال مدينة أستر خان، حيث يصبّ نهر الفولغا في السهوب، ويتفرّع إلى ألف فرع، ليصبح كالبحر تدريجيّاً، إلى شواطئ بحر قزوين البيضاء. كان الشتاء هناك مقرفاً رطباً وممطراً، لكن العاملين في تعاونيات الصيد طيبون وسكّيرون. لم يساعد الصيادين، لكنه كان يتسكع إلى جانبهم. هنا يستجدي بقايا حساء السمك من الدلو، وهناك يطلب أحشاءً من العاملة التي تقطع السمك، وفي أحد الأماكن يسلّي العمال المتعبين بالسباب من الدرجة الأولى الذي يتفوّه به ويحصل امتناناً عليه على طعام يشبعه وربما يزيد منه. وهكذا يعيش هناك عيشة الكفاف.

غير أنَّ فاسكا في هذا الخريف بقي في مزرعة الألمان وفاته الوقت. لم يرغب في الذهاب إلى الجنوب عبر الثلج المتساقط: المشي صعب، وثمة احتمال كبير أنْ يصيبه البرد حتى الموت. لذا بقي في الشتاء هنا.

وما يمنع الرحّال المتنقل أنْ يضرب خيمته هنا؟ فالمساحة كبيرة، والطعام كذلك ليس قليلاً. ومواقد المنزل تشتعل بشكل صحيح، والسقف لا يسرب المطر - إذن استلقِ على الدكة أياماً كاملة وتمتع بمشاهدة الأحلام، انتظر الربيع. صاحب الدار رجل عجوز ذو شعر شائب ووجه مسودٍّ ويدين خشنتين، متواضع للغاية ومتسامح من النوع الذي لا يهدّد بقبضتيه.

في البداية كان غاضباً عندما قبض على الضيف غير المنتظر الذي وقع في الحبال والشِّباك، جرّه إلى المنزل: رأى فاسكا كيف كانت شفتا العجوز ترتجفان من الغضب. أحسَّ فاسكا بجوهره وبروحه المنقبضة كلّها: كان بإمكانه أنْ يضربه. ولكن بدلاً من أنْ يؤذي الوافد الجديد، لسبب ما فكّ قيده وإضافة إلى ذلك تركه ينام على الدكة. على ما يبدو، لم يحب العراك كان رجلاً ليّن الطباع.

داخل الرجل العجوز يعيش الخوف رأى فاسكا هذا لاحقاً. فداخل كلّ إنسان، يعيش شيء ما، أساسي، يشكل جوهره الحقيقي ويوجه كلّ شيء آخر. ولو أخرجت هذا الشيء الأساسي سوف ينتهي الإنسان

السابق، وسيبقى جسداً فارغاً فحسب، مثل لبّ الخوخ بدون البزر. بعض الناس يعيش بالكراهية، وبعضهم بالحنين، وبعض آخر بشهوة الحب. عاش الألماني العجوز بالخوف. هذا الخوف يدفعه عدة مرات في اليوم إلى الشاطئ. لم يمشِ العجوز إلى الجرف المفتوح، الذي يمكن منه رؤية نهر الفولغا بوضوح، بل كان يختبئ كاللصّ خلف الأشجار ومن هناك ينظر بتوتر إلى النهر المغطى بالجليد، ويدقق النظر في الملامح الضبابية للضفة اليسرى، وكأنه ينتظر أحدهم وفي الوقت نفسه يخشى أنْ يراه. ثم يسارع إلى المنزل ويجلس في المطبخ لمدة طويلة يشحذ حوافّ المناجل والسكاكين الحادة أصلاً بحجر مسطح، مما جعل الشفرات لامعة بشكل لا يُطاق. وداخل الكوخ عند المدخل كان يسند المذراة والمَحَشّ الكبير والمجرفة على الدعامة. ويضع الفأس على حافة النافذة.

لم يكن العجوز يخاف على نفسه، بل يخاف على الصبية. كان هذا الخوف كبيراً جدّاً لدرجة أنه أحياناً يبدو لفاسكا أنه يرى في عتمة الغرفة خطوط محيطه: إنه حبل متين، مثل حبال السفن، نما من بطن العجوز الأجوف واختفى في أعماق جسد الطفلة النحيف. الحبل دائماً مسحوب كالوَتَر بغضّ النظر عن مدى المسافة التي يبعد فيها الأب وابنته بعضهما عن بعض. وإذا ما وجد فاسكا نفسه عن طريق الصدفة بينهما، فإنه سرعان ما يحاول الغوص إلى الجانب خشية الاصطدام بالحبل. ولو كان أهل الدار قادرين على التحدث، لربما خفَّ خوف العجوز وانتهى في المحادثات. لكنهما كليهما كانا أبكمين، وفي الصمت المستمرّ لهذا المنزل الغريب ازداد هذا الحبل متانة وتوتراً أكثر فأكثر، فبمجرد أنْ يمسّه المرء يرنّ في الحال.

وداخل الفتاة عاش العطشُ. رأى فاسكا جميع أنواع الناس: المتعطشين للطعام والمتعطشين للمال والمتعطشين للدم. كان لدى ابنة صاحب الدار نوع مختلف من الرغبة: كانت تريد الجديد. وما عاش داخلها ليس فضولاً فحسب، وليس اهتماماً ببنية العالم فحسب، بل رغبة شديدة لأن تسمع

وترى وتحسّ ما لم تسمعه وما لم تره وما لم تعرفه. كان هذا العطش مألوفاً لأيّ طفل مشرد: هذا العطش بالذات هو الذي استيقظ في قلوب الصبيان في الربيع وساقهم من الطعام المجاني في الملاجئ ومراكز إيواء الأطفال إلى حرية الجوع. ولكن لأول مرة لاحظ فاسكا عطشاً بهذا القدر الذي لا يمكن إرواؤه: تراءى له في عينَي الطفلة الزرقاوين سواد بئر لا قرار لها يمتص العالم بحماس ولا يمكن ملؤها أبداً.

لم يعرف فاسكا ما كان يعيش داخل نفسه. ربما، الجوع. وربما، الكسل. أو ربما لم يعِش أيّ شيء، كان لدى فاسكا في الداخل فراغ. لم يحصل له أنْ فكّرَ في ذاته نفسها فمعرفة الآخرين أسهل وأكثر فائدة له.

وسرعان ما عرف كلّ شيء عن أصحاب الدار (لم يكن يعرف أسماءهما، لذلك أطلق عليهما ببساطة «العجوز والطفلة»): هؤلاء الناس لن يخنقوه في الليل ولن يتنمَّروا عليه ولن يطردوه إلى العاصفة الثلجية عارياً من أجل المتعة. وبالإضافة إلى ذلك، ربما، سوف يطعمونه. وإنْ لم يفعلوا فهو على كلّ حال يمتلك يدين: وسيأخذ ما يحتاجه. فقرّر بكلّ حزم: لن يترك هذا المكان ولن يذهب إلى أيّ مكان. حتى وإنْ طردوه، فقد تشبَّث كالقرادة بهذا المنزل، وهذه المخازن المليئة بالتفاح والسقائف المليئة بالأسماك المجففة، وبهذه الدكة بجانب الموقد الدافئ. سيلتصق بإحكام وسيبقى هنا حتى الربيع.

* * *

هل خمّن الرجل العجوز عن نية فاسكا أو عرف ببساطة أنَّ لديه طبعاً سيئاً، ولكن ابتداءً من اليوم الأول نشب الصراع بينهما، تناطح الطِّباع. وهذا أمر خطير: هنا من يكسر الآخر سيكون هو الأهم لمدة طويلة قادمة، أو حتى مدى الحياة.

مع الصيادين في بحر قزوين، كان كلّ شيء واضحاً: اعرف كيف تحني رقبتك، وهزّ بذيلك دائماً، وارفع صوت أنينك سيطعمك أحدهم. كان ثمة الكثير من الصيادين، لم يتذكر فاسكا حتى وجوههم، إذ لا حاجة

له بذلك: اليوم مجموعة معينة منهم تُظهِر الرعاية له وغداً غيرهم. وإذا ما أبدى أحدهم الشر له أو بدأ يستعرض قوته عليه، فإن فاسكا يمكن أن يعضّه ويقذفه بالكلام النابي بشكل قوي يبقى يتذكره لمدة طويلة. لأن الرئيس كان هو: وهو الذي يقرّر متى يهرع إلى كوخ الصيادين من أجل الطعام، ومتى يتسلّل منه هارباً.

أما هنا، في المزرعة، فتَحَتَّم عليه منذ البداية أن يقدم نفسه بطريقة مختلفة بشكل حاسم ولا رجعة فيه حتى لا يفكر العجوز في التسلّط عليه. لم يكن فاسكا قادراً على تفسير ذلك بالكلمات، لكنه شعر به بقلبه المتمرس: لا ينبغي إبداء الضعف. وبالطبع، لا يجوز أنْ يبدي وقاحة شديدة حتى لا يُغضِب صاحب الدار أكثر من الحدّ المعقول يجب السير على خطّ الوسط، على طول الخطّ الرفيع بين الخضوع والوقاحة. على هذا الحدّ، تناطحا بجباههما: الصبي القرغيزي القذر ذو الشعر الأشعث المشبوك والعجوز.

في صباح اليوم الأول، ما إنْ كاد فاسكا أن يستيقظ ويتذكر كيف أُسِرَ يوم أمس في الشبكة بشكل مخجل، حتى وضع العجوز بالقرب منه خرقة مبلّلة ودلواً من الماء، وأشار بإصبعه إلى بلاطات الموقد المخربشة بالفحم: امسحه!

– امسحها بنفسك! أجاب فاسكا بفظاظة وحذر. – كيف لي أنْ أعرف أنك ستعود إلى المنزل؟ لو كنت أعلم لتركت المزرعة سليمة كما هي!

أما الطفلة، فاهتاجت بحماس: بدأت تقفز وتنطّ من حوله وتتمتم بشيء ما على طريقتها. وهرعت لتمسح بنفسها، فزمجر العجوز بغضب عليها، وأخذ الخرقة منها، وأشار إلى فاسكا مرة أخرى.

آنذاك أخذ فاسكا الخرقة وألقى بها من النافذة. لم يكن يريد ذلك لكنَّ يديه فعلتا، ولم يكن لديه الوقت ليتدارك الأمر. فوقعت الخرقة على الزجاج بصوت قوي وقصير وانتشرت لطخة وتجمّدت كما لو كانت ملتصقة. من الخارج، تتساقط قطرات المطر الكثيفة على الزجاج،

ومن الداخل مَسيل الماء من الخرقة: يا له من جمال! ضحكت الطفلة، دعنا ننزع الخرقة من النافذة ونرميها مرة ثانية على الزجاج: ونصفعها تْرَشْ! تْرَشْ!

لم يضحك العجوز. ونظر إلى فاسكا نظرة ثقيلة وأخذ الطفلة معه إلى المطبخ: لتناول الإفطار. لم يَدعُ فاسكا.

أكلا، على ما يبدو، الحبوب المهروسة المسلوقة على البخار. بقي فاسكا يكابد على الدكة، وهو يشم رائحة الحبوب الحامضة الخفيفة وانتظر حتى يخرج صاحب الدار: ثم سيطلق العنان لنفسه: سيقلب المنزل بأكمله ويستخرج الطعام.

غير أنَّ المطر يهطل في الخارج فلم يفكر العجوز بالخروج من المنزل حتى مجرد لحظة: أولاً كان مشغولاً في المطبخ، يطقطق بالأطباق، ثم في غرفته. استنشق فاسكا بشوق رائحة التفاح الناضج التي تفوح في المنزل كلّه، أوجعه بطنه الخاوي واختلج تحت أضلاعه مثل طائر اصطيد بالشبكة.

سحبت طفلة صاحب الدار، الممتلئة البطن وذات العينين الفضوليتين، مقعداً صغيراً منحوتاً من مكان ما، وجلست عليه وجعلت تحدق إلى فاسكا، مثلما تحدق إلى وحش غريب.

– لا تحملقي بعينيكِ ستسقطان! تمتم فاسكا؛ ولكنها لم تشعر بالإهانة، بل ضحكت فقط بحماس وغباء.

بقي الدلو منتصباً قرب الدكة. ومن طرف الخرقة النازل، يقطر الماء ببطء على الأرض الترابية: طُقْ! طُقْ! كأنه يعدّ الدقائق.

أخيراً، ألقى العجوز شيئاً من الأسمال على كتفيه، وحمل طستاً فارغاً فوق رأسه، وقفز إلى وابل المطر الصاخب وركض إلى حاجته. اندفع فاسكا على الفور إلى المطبخ، وبدأ يتنشَّق فيه مثل جرو الذئب، أين يجد شيئاً هنا يسدّ به رمقه؟ وقفت الطفلة إلى جانبه وتلوَّت وهالت له في يديه بسرعة شيئاً ناعماً نصف حفنة من الحبوب أو البازلاء: كُل بسرعة! دفع

فاسكا الصدقة في فمه من دون أنْ ينظر إليها، وطحنها بأسنانه، فاختنق وجعل يسعل. لم يسعفه الوقت حتى يبتلعها وإذا بالباب الأمامي يُفتَح، لقد عاد صاحب الدار.

لم يعرف فاسكا ما كان يمضغه - هل هو قمح أو ذرة مجففة. وشعر فقط أنَّ جوعه لم يهدأ من هذا القليل، بل استيقظ تماماً وملأ جميع أمعائه ونفخ في أعضائه الداخلية.

- أيها الوحش الشرير! يا حشرة ضارة من حشرات الكولاك! صرخ فم فاسكا على العجوز وهو يبصق باللعاب وبقايا الحبوب التي لم يمضغها بعد. - أيها القاتل ومصاص الدماء! أنت تأكل، وأنا أمصّ أصابعي؟! لن أسمح لك باستغلال الأطفال القاصرين! سأشتكي عليك في لجنة الحزب! هيّا، أعطني الطعام، كما ينبغي!

نظر إليه باخ بلامبالاة إنه يرى لكن من دون أنْ يفهم أيّ شيء، وعاد إلى شغله مرة أخرى. بدأت الطفلة تصرخ بفرح وهي تنظر إلى شفاه فاسكا، وتتنفس بكثافة: قل المزيد! بعد! فشعر بالإهانة آنذاك، وارتمى على الدكة وكشحَ بوجهه عن الجميع جوعه الذي استيقظ هدهدَ له، ثم هو بنفسه قرّر أنْ ينام، طالما لم يطعموه.

غير أنه لم يستطع النسيان: فقد منعه الماء المتساقط من الدلو. وهكذا بقي يعاني على الدكة حتى المساء وهو يتقلب تحت اللحاف ويستمع إلى ضجة العجوز التي لا نهاية لها ويشعر بقفاه بنظرة الطفلة الرقيقة.

طُهِيَ للعشاء حساء البازلاء. عرف من الرائحة أنَّ الحساء لن يُقَدَّم وحده، بل مع السمك المقدّد، احتدم فاسكا غيظاً: رفعت ساقاه جسمه من الأريكة، وأمسكت يداه بالمسعر بضع قطعٍ من الجمر من فم الفرن، وبعد أن انتظرتا حتى تبرد قليلاً صخمتا جانب الموقد بأكمله. لم يسعف الوقتُ فاسكا ليعود إلى رشده حتى صخّمَت الخربشات السوداء الموقد كلّه من الأرض إلى السقف. شهق فاسكا، والتفت إلى العجوز: فاستطال وجه العجوز ببطء، كما لو أنَّ أحدهم جرّه من لحيته إلى الأسفل.

حدَّق العجوز مليّاً إلى بلاطات جدار الفرن التي كساها السخام، وأمسك فاسكا من قفا عنقه وسحبه إلى الخارج. لم يكن لدى فاسكا الوقت الكافي ليصيح حتى أُغلِق الباب أمام أنفه، ولم يرَ حوله إلّا الظلام الدامس الذي يحفّ بقطرات المطر.

- افتح! وبدأ يطرق الباب بشدة بقبضتيه ثم بكعبيه. - سأصاب بالبرد! سأموت في البرد!

اضطرب طويلاً. ونقعَ بالكامل حتى آخر طيّة في جسده: حمته مظلّة الشرفة من القطرات المتساقطة من الأعلى، لكن الرياح العاتية حنت وابل المطر وجلدت به جسد فاسكا الأعزل.

فُتح الباب قليلاً جدّاً، بمقدار نصف كفّ. ارتمى فاسكا في تلك الفجوة، ووضع فيها كتفه، واندفع إلى حيث الجفاف والدفء. انسلّ إلى دكته وتشبَّث فيها بأصابعه الباردة. غير أنه لم يكن ثمة مَن أراد أن يرميه مرة أخرى: فقد أُخمِد مصباح الشمعة، وكان العجوز والطفلة يستعدان للنوم، وسرعان ما ذهب كلّ واحد منهما إلى غرفته.

عندما عمَّ الهدوء المنزل، نزع فاسكا ملابسه كلّها حتى تعرّى، وألقى الملابس المبلّلة على الموقد لتجف. وجلس متدثِّراً باللحاف ويستمع إلى ضجيج المطر الشديد الذي لا نهاية له. ثم تلمَّسَ الدلو الذي بجانب الموقد وأخرج منه الخرقة المبلّلة وبدأ يمسح بها على طول بلاط جدار الموقد الخشن...

* * *

منذ ذلك الحين سارت الأمور على ما يرام. فبمجرد أن يسقط الكرسي في الطريق أو المجرفة المسندة على الدعامة يرفعه على الفور. وما إنْ يقلب الدلو - حتى يضعه في مكانه، ويمسح الماء المسكوب. ولو داس على درجات شرفة المدخل، يمسحها. بقي فاسكا كعادته يلهث ويصرّ ويتمتم بالسباب، ولكن صار يرفع الأشياء التي تسقط ويرتّب المكان ويمسح ويغسل. وحتى إنه في إحدى الليالي غسل نفسه، جلس في

الطست المليء بالماء الساخن وبمرأى من العجوز فركَ الأوساخ عن جسده (في البداية انجرف السواد السميك، ثم اللفائف الرمادية، وبعد ذلك اللفائف البيضاء الناعمة؛ وأخيراً انتهى تماماً). حسناً، يمكن القيام بالقليل من العمل. دع العجوز يعتقد أنه تغلب على الولد الضال. أما فاسكا فسيُظهِر نفسه بكلّ قوتها في مكان آخر.

عندما حلَّت الثلوج محل الأمطار، فتح العجوز أبواب غرفته على مصراعيها وبدأ في سحب الطعام من هناك سلالاً وصناديق وأكياساً وأعاده إلى المخازن والسقائف والسرداب. هذا هو المكان الذي أخفى فيه الإمدادات، البخيل الملتحي! هذا هو المكان الذي فاحت منه رائحة التفاح في المنزل بأكمله والتي حرَّكَت عظام وجنتَي فاسكا من حلاوتها حتى في المنام! هرعت الصبية للمساعدة. فهرع فاسكا أيضاً. سحبَ أشولة معبّأة ببزر الثمار وقبض حفنة ودسّها خلسة في جيبه. وحمل صندوق التفاح ووضع واحدة خلسةً في عبّه في الطريق من دون أنْ يلاحظه أحد، ثم أخفاها تحت الدكة. لقد جمع الكثير: الآن سيكون لديه ما يتسلى به، لو بدأ العجوز في تجويعه مرة أخرى. ولكن أين يدفن الغنيمة؟

بالتأكيد سيجد ثمة مكاناً في الغابة، لكنه كان يخشى أن يبتعد لمدة طويلة حتى لا يثير الشك. لذا، كان عليه أنْ يبحث عن مكان في الفناء. وسرعان ما وجد فاسكا المكان، فهو من ذوي الخبرة. فقد عثر على فجوة منعزلة بين الصخور في الأساس (للسمك المقدّد الذي لفّه بالخرق)، وعلى دُرجة غير مرئية تحت غطاء السقيفة (للتفاح)، وجوف في شجرة تفاح قديمة (لحفنة من الجوز في كيس من الورق)، ولوح منخفض في غلاف المَجلَدة... ودسَّ كلّ شيء في الأمكنة المختلفة، وفرَّقه في الثقوب والشقوق وكبسه بالحجارة من الأعلى وواراه بالأغصان. لكن قلبه بقي مضطرباً: كانت أماكن الإخفاء هذه غير أمينة يمكن للرطوبة والصقيع والجرذان والسناجب أنْ تصل إليها. ومع ذلك، لم تكن ثمة وسيلة يمكن فعلها لم يجرؤ فاسكا على دفن المخفيّات في المنزل.

وبالإضافة إلى ذلك الطفلة متعلّقة بفاسكا تركض خلفه على الدوام: فما إنْ يتوارى في ركنٍ حتى تتبعه؛ وما إنْ يتسلّل إلى المخزن، حتى تدخل إلى المخزن على أثره. لقد التصقت به التصاقاً لا انفصام له. فاضطر إلى أنْ يخفي أشياءه بوجودها. وعلى كلّ حال فقد هدّدها فاسكا بقبضته: إذا وشَيتِ بي، فسأُسدّد إليكِ ضربة قاسية! فتضحك بفرح ضحكة رنّانة وتمدّ قبضتها الصغيرة اتجاهه أيضاً. باختصار: هي معتوهة.مكتبة سُر مَن قرأ

طوال ذلك اليوم كان العجوز ينظر إلى فاسكا نظرة ثاقبة: ينتقي التفاح ويغطيه بالقش الطازج، وينظر؛ يعلّق السمك، يلفّ كلّ واحدة بخرقة وينظر. ويردّ عليه فاسكا بنظرة قاتمة ومستقلة. هكذا عملا طوال اليوم حتى المساء. إلى جانب هذه الاحتياطيات الغنية، كان بإمكان فاسكا العمل لمدة أطول؛ وللأسف، في المساء وضِع جميع التفاح في برودة القبو؛ والحبوب والبازلاء والذرة نُفِضَت وفُرزت وهيلَت في العلب؛ وحزمات الأسماك عُلِّقت فوق الموقد؛ وباقات الأعشاب في المخزن وفي العلية.

تناولوا على العشاء الشوفان المتبَّل بالأعشاب وقليل من الملح. ولمزيد من الشبع، وضع العجوز الجوز على الطاولة لكلّ واحد حفنة. أما الطفلة الحمقاء! ما إنْ رأت تلك الجوزات حتى ابتسمت لفاسكا على الفور، وضحكت، ثم قفزت من على الطاولة واندفعت إلى الخارج. شعر العجوز بالقلق، وزمجر وراءها مندهشاً: إلى أين؟ وقد فهم فاسكا كلّ شيء، وانتابته قشعريرة في بطنه، وأراد أنْ يتسلّل من دون أن يلاحظه أحد، قبل أنْ تعود الخائنة. ولكن إلى أين يتسلّل من المنزل، أليس إلى الخارج، إلى حيث تتساقط الثلوج؟ وعادت الطفلة والثلج على شعرها وما خبأه فاسكا في يدها. ووضعت قمعاً من ورق الجرائد مبلّلاً على الطاولة، فانهالت منه جوزات صغيرة رطبة وملطخة بغبار قمامة أشجار التفاح. وابتسمت لفاسكا ابتسامة تساؤل: هل فعلت كلّ شيء بشكل صحيح؟

ومرة أخرى، استطال وجه العجوز، مثل أمس، وتدلّى خدّاه، وامتدّت لحيته إلى الأمام.

- حسناً، هل ستضربني الآن؟! صرخ فم فاسكا، من دون أنْ ينتظر حتى يثوب العجوز إلى رشده. وقفز فاسكا نفسه من الكرسي وأسقطه، بل ودفعه بقدمه أيضاً لكي يطقطق أكثر. - هيّا، اطعن الضعيف الأعزل! اضرب اليتيم الذي بلا مأوى، المسكين المشرد!

تحرك العجوز اتجاهه وقد ارتفع حاجباه إلى جبهته من الغضب وأظلَمت عيناه. ومرة أخرى حدسَ فاسكا: يريد العجوز أن يضربه ضرباً مبرحاً، من كلّ قلبه ليس مرة أو مرتين، بل أكثر. واستعدَّ فاسكا لهذا، لأنه فهم: سيكون ذلك عدلاً. طالما أنك لم تنجح في إخفاء الغنيمة، إذن، تحمَّل المسؤولية، وادفع ثمن عدم المهارة.

- لكنني لن أستسلم! ثرثر فم فاسكا. - أنت نفسك المسؤول! لم تكن ثمة حاجة لأن تجعلني أتضوَّر من الجوع ولو لا ذلك لما أخذت أيّ شيء منك! لقد نشرتَ الرأسمالية هنا، أيها الخائن الألماني! هل تعتقد أنكَ بمجرد الانعزال عن الناس يكون كلّ شيء مباح لك؟!

هرعت الطفلة، وهي تغمغم من التشوّش، مرة أخرى إلى خارج المنزل. فتنحنح فاسكا من الانزعاج ستشي به الآن، نعم، ستشي بكلّ شيء دفعة واحدة! ولكن لا ينبغي أنْ يركض خلفها: يجب أنْ يهرب من العجوز. وقفز إلى أحد الأركان، ثم إلى الركن الثاني، واندفع نحو الموقد. والعجوز خلفه.

- أُوو! صرخت الطفلة وهي تلهث وهي تجري في الغرفة. - أُوو!

ألقت على الطاولة كلّ أكياس فاسكا ولفافاته المليئة بالطعام المخفي القذرة والرطبة والملطخة بالتراب والقش واندفعت هي إلى فاسكا: وأحاطته بيديها دفاعاً عنه، وبدأت تبكي متوسلةً، بعد أنْ تحولت إلى العجوز، الذي كان قد أمسك فاسكا من تلابيبه.

أغمضَ فاسكا عينيه، وانكمش ولكن لم تكن هناك ضربة. سحبته يد العجوز القوية من القفا، وجرته في المطبخ ووضعته مرة أخرى على الطاولة. فتح فاسكا عينيه أخذ العجوز جميع المخبأ الذي جلبته الطفلة، ونشره على الطاولة وجرفه في كومة وقرَّبها من فاسكا: كُلْ!

تجمّد فاسكا محيراً، وعيناه ترمشان. وجمع العجوز في كفّه البازلاء المسروقة الممزوجة ببذور التفاح ونشارة الخشب ودفعها له في فمه، وزمجر آمراً: كُلْ، نفِّذ ما يقال لك!

وبدأ فاسكا يأكل. مضغَ على عجل وباندهاش، وهو بَعدُ غير مقتنع تماماً بأن الضرب قد أُلغي: حبوب الشوفان، حبوب القمح، حبوب الذرة، دقيق الجزر، دقيق الشمندر، أوراق الشمندر المجففة والتفاح المجفف، الأسماك المجففة والتوت المجفف، كلّ ذلك في وقت واحد، مع القش اللاصق وقصاصات الصحف والأغصان الصغيرة. وطقطق الطعام في فمه، هل هذا رمل؟ تراب؟ كأنه يطحن الزجاج بأسنانه. لكن فاسكا مضغ بعناد وابتلع وازْدَرَدَ دافعاً بجهد كتل الطعام إلى المريء. كان الطعام جافاً فخدش حلقه لكنه لم يطلب الماء بدافع الكبرياء. حسناً، أيها العجوز، لقد أكلتُ، فما المشكلة؟ هل تعتقد أنك تحطمني على مثل هذا الشيء الصغير؟ هل هذا عقابك؟ ليتني أنال مثل هذا العقاب كلّ يوم، ويفضل مرتين باليوم...

أكل كلَّ ما سرقه في جلسة واحدة. نهض من الطاولة فخوراً، بنظرة انتصار. وذهب إلى الدكة إلى أنْ ينتهي العجوز والطفلة من تناول العشاء.

هاجت عليه بطنه في وقت لاحق، عندما انطفأ الضوء في المنزل ودخل أصحاب الدار إلى غرف النوم. في البداية، عطش وأراد أن يشرب، كما لو أن الصحراء قد استقرت في أحشاء فاسكا، وكانت بحاجة إلى الماء ليس قدحاً أو اثنين، بل بئراً كاملة أو نهر الفولغا بأكمله. ولأنَّ فاسكا حاول ألّا يحدث ضوضاء زحف من الدكة وشق طريقه إلى المطبخ. تلمَّسَ الدلو ووجده ووضع رأسه فيه واحتسى الماء البارد واقفاً على أربع. وشرب

ثلث الدلو أو النصف بأكمله. فشعر بتحسن. وعندما عاد فاسكا إلى مضجعه، كان ذلك الماء يخبّط في جوفه، مثلما يخبط في البرميل، ربما، سُمِع ذلك الخبط في الكوخ بأكمله.

ولكن قبل أنْ يستولي عليه النوم شعر كأنَّ شيئاً حادّاً يمزق أحشاءه: اخترق الألم جسمه من الفخذ إلى عظم القص. في اللحظة الأولى لم يشعر فاسكا حتى بالخوف لكنه فوجئ: كيف يمكن لمثل هذا الألم الكبير أن يجد مكاناً يسعه في جسده الصغير؟ وزاد الألم بسرعة، متمايلاً مثل البندول: من الأعلى في المعدة وإلى الأسفل نحو الأمعاء، من الأعلى إلى الأسفل... وبعد أن استقر في أحشائه الصبيانية الساذجة، غيَّر اتجاهه: بدأ يتأرجح في بطنه من جانب إلى آخر، مما أجبر فاسكا على أنْ يمسك بيديه جانبيه ويتقلَّب على الدكة تارة لليمين وتارة لليسار. وفي النهاية، تفاقم الألم جدّاً وبدأ يخفق تحت الأضلاع دون أيّ ترتيب واتجاه، مُقطِّعاً جوف فاسكا المسكين إلى ألف جزء صغير.

يبدو أنه يئنّ أولاً من خلال أسنانه، ثم في الوسادة المحشوّة بالحشائش. ويبدو، أنه فرك وجنتيه باللحاف يمسح العرق المقزِّز من وجهه. ويبدو، أنه ضغط بأصابعه على بطنه المتورمة والمتصلبة كالحجر، محاولاً أنْ يتحسس ألمه، لكنَّ الألم لم يطاوعه وانزلق في مكان ما في عمق جسده، واحتكّ بالعمود الفقري ملتصقاً بالأضلاع الخلفية وتحرك خلف الكتفين. يبدو أنَّ فاسكا كان يحتضر.

سقط، وهو يتضور من الألم، من على الدكة إلى الأرض واستلقي هناك قليلاً من دون أن يستطيع الحركة. انقلب بصعوبة على بطنه وزحف مستنداً على الأرضية الباردة تارة بكتفيه وتارة بمرفقيه. وزحف بشكل عشوائي عن طريق الغريزة من دون أن يدرك بشكل صحيح إلى أين يتجه. وأدرك: ينبغي عليه أنْ يموت بعيداً عن الناس، وحده. مرَّ من خلال بعض السلالم، ارتطم بالكراسي وزحف من جانبها وكشط خديه على الأرضية الترابية. وأخيراً، استند بجبهته على خشبة الباب الأمامي الباردة. حرَّكَ

بوجه فروة صوف الغنم القديم الملقاة فوق العتبة ودسّ أنفه في الفجوة التي هبَّ منها هواء الانعتاق المتجمد.

لم يزحف فاسكا في هذه الفجوة. ولم يستطع فتح الباب لقد ضعف للغاية أثناء الزحف. وهكذا بقي ممدّداً هناك، يتنفس رائحة الثلج ويشعر في داخله بألم أَرْعَن، إلى أنْ أمسكت به يدان قويتان من قفا عنقه وجرتاه عبر المطبخ مثل قبل بضع ساعات، على العشاء.

لم تكن لديه قوة للمقاومة. وفعلت اليدان بجسم فاسكا الواهن ما أرادتا: أدارتاه مثل الدمية وقلبتا وجهه نحو الأسفل. وضغطتا على صدره بحدة وبعمق، كما لو أنهما تريدان شقّه إلى نصفين؛ وأدخلتا في فمه أصابع خشنة وحشرَتاها إلى بلعومه. أراد فاسكا أن يضغط فكيه أقوى ويعضّ تلك الأصابع، لكن لم يسعفه الوقت: اختلج الألم الذي استقر في معدته، وطرطشَ حامضاً في حلقه وتدفق من داخل فاسكا إلى الخارج...

***

في صباح اليوم التالي، لم يرغب في تناول الطعام على الإطلاق، وبقي مستلقياً لمدة نصف نهار على المقعد، ورأسه مغطى ببطانية وأنفه مدفون في بلاط الموقد الدافئ. وجلست مقابل الدكة، على مقعد صغير منحوت، الطفلة تنتظره وتحدق (لم يَرَ هذا، بل شعر به من تحت اللحاف). وجلس هنا أيضاً، في غرفة الضيوف صاحب الدار وهو منشغل ببعض أمره ويلهث من التركيز.

وعند انتصاف النهار أخرج فاسكا أنفه من مخبئه، فأومأ إليه العجوز: تعال إلى هنا! زحف فاسكا إلى الضوء على مضض. رفع العجوز شيئاً فاتحاً كبير الحجم عن ركبتيه، كان مشغولاً به لمدة نصف يوم. ودثَّر به كتفَي فاسكا النحيفتين العظميتين، إنه معطف قصير من الفراء. نسائي مزيَّن بشرائط حمراء على الياقة، كبير جدّاً في الكتفين وواسع إلى درجة يمكن لفاسكا أنْ يلفَّه عليه ثلاث مرات؛ ولكنه بأكمام قُصِّرَ من طولها

وحاشية ووشاح من القنّب ممسوك عند الخصر، وفيه ثقوب على الظهر مَرْفُوءة بدقة. إنه معطف حقيقي.

لم يكن لدى فاسكا معطف فرو قصير أبداً. قام بفحص الأكمام بعناية (كان الجلد مسامياً دهنياً على الطيات) ومسَّدَ على الفراء المتهرّئ قليلاً على طية صدر السترة ولمس الشال القنب، وربطه بإحكام. ثم ابتعد عن العجوز وقال متوعداً:

– لن أتخلى عنه.

ابتسم الرجل العجوز وسحب خُفّاً من مكان ما كبير ومرتفع وفيه فراء. انتعل فاسكا الخفَّ أيضاً. وجلس على دكته مخبِّئاً يديه في دثار معطف جلد الغنم وكرّر ما قاله بتجهم:

– والخف كذلك لن أتخلى عنه.

نهض العجوز من كرسيه، وتدثر بمعطفه وخرج. وتبعه فاسكا، بعد أنْ فكّر ملياً. وركضت خلفهما الطفلة المتعلقة بهما.

وللمرة الأولى، وقف فاسكا إلى رسغه في الثلج ولم يبرد. ركل ذلك الثلج بقدمه: هل تلسعني؟ بعد الآن لن تمسك بي! ولن تجمدني، كما فعلتَ في الشتاء السابق! ألقى الثلج على كتفيه وعلى يديه ولم تتجمد كتفاه ولا يداه. لقد دفّأه معطف الفرو القصير. هذا كلّ شيء! ضحك فاسكا وقفز على ظهره في الثلج. مع هذه التجهيزات لن تمرض من البرد! وضحكت الصبية، وارتمت بجانبه على الثلج. إنه المرح!

ولم يضحك العجوز. حمل إلى فاسكا مجرفة خشبية ذات مكشطة مربعة عريضة: أزِل ركام الثلج من الفناء! وأشار إليه بكفّه كيف يمهّد المسارات في الثلج: من شرفة المدخل إلى المرحاض، إلى المخزن والسقائف.

– اعمل أنت بنفسك! زمجر فاسكا على الفور مكشراً بأنيابه. – ماذا، هل تعتقد أنك اشتريتني، قل؟ مقابل معطف صغير قديم، تريدني

أنْ أكون أجيراً مجانياً لديك؟ لن تفلح! في بلادنا انتهى زمن العبيد! أم أنكَ لم تسمع؟

لم يفعل العجوز شيئاً سوى أنه نظر بصرامة، وغرز المجرفة في كوم الثلج ودخل إلى المنزل.

- لا بأس! صاح فاسكا. - أنا الآن في هذه الذخيرة يمكنني الذهاب إلى أيّ مكان! لو أردتُ، أستطيع الذهاب إلى قرية مجاورة، بل حتى إلى بحر قزوين!

بصق على باب المنزل المغلق بصق من بعيد، وسقط في الوسط وذهب بعيداً إلى الغابة.

كان الثلج في بعض الأماكن بعمق الكاحل وفي أماكن أخرى بعمق الركبة. خشخش فاسكا على الركام الجليدي، وبين الحين والآخر يحرك الأشجار في الفروع السفلية وينثر أكوام الثلج المتساقط منها. أطلّت عليه السماء الزرقاء الصافية من خلال الأغصان المغطاة باللون الأبيض. ولمعت على الجذوع بقع صفراء وقرمزية مرتعشة، إنها طيور القرقف والقرزبيل المتصالب المنقار. ربما بالفعل يريد أن يذهب بعيداً عن المزرعة قبل أنْ يأخذ صاحب الدار معطف الفرو والحذاء منه؟

عندما صار خلف أشجار البلوط والقيقب ولم تعد المزرعة تُرى ولا المرج كذلك، وتحولت السماء من زرقاء وعالية إلى رمادية ومنخفضة، لاحظ فاسكا أنَّ الفتاة الطفلة تجرّ نفسها خلفها.

- هيّا، ارجعي! صاح في وجهها. - اغربي عني إلى المنزل، التصقتِ بي!

لكنها ردّت عليه بابتسامتها البلهاء، وهذت بهذيانها المعهود: أوو!

حاول فاسكا أنْ يطردها وقذفها بالثلج.

فألقت عليه هي الثلج أيضاً.

رمى عليها عصا.

فرمته هي كذلك.

وجعلت تضحك وتقهقه مستمتعةً باللعب. وتصرخ بفرح بما معناه: أريد بعد!

لا بأس، فكَّر فاسكا. إذا ضلَّت البلهاء الطريق، فهذا ليس ذنبه. العجوز هو المسؤول عن حقيقة أنه ترك ابنته، غبية وبكماء، وتركها من دون رعاية. ثم واصل السير من دون أنْ يلتفت إلى الوراء.

مشى واستمع إلى خشخشة الثلج خلفه تحت خطوات الصبية الخفيفة. رِجلا فاسكا نفساهما اللتان حملتاه وقادتاه في المسير بين أشجار البلوط والبتولا، على المنحدرات والمروج بين الغابات، على طول نهر الفولغا غير المرئي من الأعلى في اتجاه المصب. ويداه نفساها اختارتا العكاز الطويل حتى يشقّ طريقه بصورة أسهل عبر ركَام الثلج. التفت بضع مرات خِلسةً: الطفلة تجرّ قدميها على أثره، وحتى إنها وجدت لنفسها غصناً استعملته عصاً واستندت به بعناية على الأرض أثناء المشي، مكرّرةً حركات فاسكا.

سقط الثلج في البداية خفيفاً وقليلاً، ثم أصبح أكثر وفرة وأثقل.

– ارجعي إلى المزرعة، أيتها النعجة الشقراء! لم يتمالك فاسكا نفسه. ارجعي إلى والدك!

ركض إلى الفتاة، وأمسكها من الكتفين، وأدارها إلى الوراء.

– اذهبي إلى المنزل طالما أنَّ المسارات مرئية! وغرز بالعصا إلى الآثار المطبوعة على الثلج الصغيرة التي تعود للطفلة والكبيرة لحذاء فاسكا الجديد. – هل فهمتِ؟

لم تفهم الصبية، مسحت أنفها المحمرّ (وكانت ترتجف، فهي ضعيفة التحمل للبرد!)، وغرزت عصاها في الأماكن نفسها على الثلج التي أشار إليها فاسكا بعصاه للتوّ. وتنظر إليه وكلّها أمل: هل فعلت كلّ شيء بشكل صحيح؟

– آه، يا لخطاياي المهلكة! اشتد غضب فاسكا. – يا لكِ من بلهاء: لا كلمة في فمكِ، ولا فكرة في دماغكِ!

تساقط الثلج بأقصى ما يمكن، وانبسط على الأشجار. وحملته الرياح من فرع إلى فرع وانسحب على الجذوع والتصق عليها بلونه الأبيض بانتظام. حتى الهواء من هذا الثلج أصبح ثخيناً وأبيض: كان لا يزال من الممكن رؤية الجذوع والشجيرات القريبة، أما الأبعد قليلاً فلا يمكن.

كان بإمكانه أنْ يهرب من الصبية: فرِجلا فاسكا كانتا أسرع وأكثر مرونة. وبإمكانه الاختباء: أنْ يتوارى خلسةً خلف جذع أو جُرنٍ مغطى بالثلوج ثم يزحف بعيداً، ويختبئ خلف الجذوع. وكان بإمكانه أنْ يضربها بضع مرات ليس من أجل الإيلام، بل برفق، من أجل إخافتها، حتى ترتعب وتهرب منه.

- إيه! هزَّ العصا على الطفلة بغضب. - لتمزقكِ الشياطين، أيتها البكماء!

ألقى بتلك العصا بعيداً فمرقت بسرعة فوق الشجيرات المغطاة بالثلوج وهي تصفر، وسقطت في كومة من الأشجار التي أسقطتها العاصفة وعاد قافلاً إلى المزرعة. اهتزّ شيء خلفه بعد مدة وجيزة، فقد ألقت الصبية عصاها في الكومة نفسها وصرَّت خطوات البنت الخفيفة على عَجل.

استغرقت العودة إلى المنزل مدة طويلة: اتضح أنَّ السير عبر العاصفة الثلجية أصعب. كاد فاسكا أن يصطدم على وجهه عدة مرات بالأغصان التي نمت من العدم وتأسف لأنه قذف العكاز. الحقيقة أنه لم يخَف: كان يثق برجليه إذ لم تخذلاه في أصعب من هذا المأزق. وبين حين وآخر كان ينظر إلى الخلف إلى الصبية: ألم تتخلف عنه؟ كانت الطفلة تتدحرج باجتهاد على أثره وهي تضغط بيديها الملتويتين على صدرها. وسرعان ما شعر أنَّ الوشاح على ظهره قد سُحب بخفة فقد تشبَّثت الصبية بمعطف فاسكا: كان أسهل لها المشي متمسكة به.

عندما هبَّت العاصفة الثلجية بشدة، واضطر فاسكا على أثرها إلى أنْ يمسك بيد الطفلة (وإلّا لكانت قد انفصلت وتخلّفت عنه ولفَّتها العاصفة الثلجية ثم يتحتم عليه البحث عنها لاحقاً في ركام الثلج!)، برزت من

الخليط الثلجي الفوّار قامة داكنة: إنه العجوز. أمسك بكليهما من قفا العنق وسحبهما خلفه ومشى بهما بأسرع ما يمكن. سار العجوز بسرعة، كما لو كان يتحرك ليس في غابة ضيقة، بل في حقل منبسط في يوم صافٍ. ابتلع فاسكا الثلج المتطاير في فمه وتساءل في نفسه عما إذا كان معطفه القصير الفرو سيُؤخَذ منه.

لاحت من خلال ستار الثلج جدران المخزن والسقيفة، وانفتح الباب فسقط فاسكا على الأرض الترابية، بالقرب من الموقد الذي ينفخ حرارةً. وانهارت بجانبه الطفلة. هزّها العجوز من معطفها القصير والضيّق ومن حذائها اللباد المتجمد، وفكّ الشال الملتصق به الثلج أكواماً، واحتضنها وبقي هكذا مدة طويلة شابكاً يديه عليها ودافناً وجهه في هامة الطفلة.

– لا تلمسني الآن، قال له فاسكا برزانة وهو يقف على قدميه وينفض فُتات الثلج من الياقة. – لقد أخرجتُ ابنتك البلهاء من العاصفة الثلجية. وإلّا لأكلها الذئب الرمادي الآن تحت الأجمة وطقطقت عظامها في فمه.

رفع العجوز وجهه عن الفتاة، وبدا متعباً وللمرة الأولى بدا لفاسكا أنَّ العجوز فهمه، حتى آخر كلمة.

أدرك فاسكا، هذه هي الحجة. الخطاف الذي يمكن أن يلف به الرجل العجوز من حوله مثل القذارة على العصا. البلهاء الكثيرة الابتسام، ذات الساقين الرفيعتين، مثل سيقان القصب، وذات الشعر الخفيف والأبيض، مثل زغب العشب.

قضى اليوم التالي كلّه مستلقياً على الدكة. لقد أرهقه النوم فعلاً، وأرادت يداه ورجلاه المضطربة أن تتحرك لكنه لم ينهض، وبقي يتقلّب بعناد على البطانيات والوسائد، ومن حين إلى حين يتلمس معطف الفرو الذي وضعه تحت رأسه (أراد العجوز أنْ يأخذه إلى المدخل، حيث كانت ملابسه الخارجية معلقة على مسامير خشنة، لكن فاسكا لم يعطه؛ على الأرجح أنه كان سينام في معطف الفرو القصير، حتى يحتفظ به بالتأكيد، ولكن الكوخ كان مدفأً للغاية).

نشأت الطفلة إلى جانبه، وكان فاسكا من وقت إلى آخر يسليها: تارة يلوي وجهه بشكل بشع، وتارة ينخر كالخنزير، أو يخرج لسانه الطويل ويبدأ في لعق صدره (يتطلب هذا طولَ لسانٍ غير عادي، وإضافة إلى ذلك لم يلتقِ فاسكا أبداً بطفل يمكنه أن يكرّر لعبة الخفة هذه). وكانت الصبية تلهث بصوت عالٍ من الفرح وتصرخ. لم يراقب العجوز الأطفال، كان يهرول جيئة وذهاباً في شؤون المنزل؛ ولكن في كلّ مرة عندما تنفجر الصبية بالضحك كانت عيناه تشعّان بالدفء وتومض لحيتُه المشتعلةُ شَيْباً بشيء يشبه الابتسامة.

- هكذا بالضبط! قال فاسكا بوعظ، عندما حلَّ غروب الشمس. - أفهمت الآن؟ لديَّ شغلٌ أهم من الثلج في الفناء - إنه تسلية طفلتك. وأنت بنفسك تصرَّف مع الثلج بطريقة ما، ليس لديَّ وقت. وزد لي في الطعام. فالمرح أثمن بكثير.

بقي العجوز صامتاً، وصرف بصره بعيداً.

فقد تغلَّبَ عليه فاسكا.

* * *

وفي المساء، عندما أضاء مصباح الشموع الهزيل في المنزل ورقصت الظلال الطويلة على الجدران الخشبية، رفع العجوز صندوقاً ثقيلاً من الخزانة ذات الأدراج ووضعه على الطاولة. وأخرج شيئاً غريباً من مكان ما يشبه الجرس المنحني الكبير، وأدخله في قاعدة الصندوق. ولأنَّ الطفلة تعرف ما سيحدث هرعت إلى الطاولة، ووضعت أصابعها العظمية على الحافة، ووضعت ذقنها على الأصابع. وحدقت بعينيها، واستعدَّت.

اشتغل العجوز طويلاً، وهو يتأوّه، تارة يقلب الغطاء ويبحث في الداخل وتارة يفرز بعض الأدوات الصغيرة على الطاولة، وينفخ بعناية على كلّ منها ويدخلها في الصندوق. أصبح الأمر ممتعاً لفاسكا، ولكنه حافظ على رزانته، ولم ينهض من السرير. وأخيراً، أخرج العجوز مظروفاً عتيقاً من الخزانة واستلّ منه بعناية، بإصبعين، رقاقة سوداء. ووضعها على

الصندوق، وأدار مقبضاً صغيراً، وخفَّض على الرقاقة أنفاً متعرجاً بارزاً من جانب الصندوق في طرفه إبرة.

قفزت الإبرة، فدَوّى صدع من الأنبوب، ثم تنهيد. وبعد ذلك تدفق صوت رجل منخفض بانطلاقٍ وسخاء، مثل مياه الفولغا في الفيضان.

من أين أتى هذا الصوت؟ من سطح الرقاقة الأملس المتلألئ في العتمة؟ من فم الأنبوب الواسع؟ من طرف الإبرة الراقص على الرقاقة؟

وفي هذه اللحظة بالذات خارت قوى فاسكا. كان من الممكن أنْ يخاف، ويقفز مبتعداً عن هذه الآلة التي لم يرَ مثلها من قَبل، أو يرشقها بحذائه لكي يُبطِل السحر، لكنه لم يستطع: جلس كالمسحور، محدّقاً في فوهة الجرس القمعية الشكل المرتجفة. معجزة ولادة صوت من العَدَم من ارتعاش أنبوب من الصفيح الذي اخضَرَّ لونه بفعل الزمن والذي تهرَّأت حوافه من القِدَم، ومن تلامس الإبرة الحديدية للقرص الأسود الذي يمكن كسره بسهولة بضربة كعب، هذه المعجزة صفعت فاسكا وسقطت على أُمِّ رأسه.

زحف من على الدكة، وتسلّل ببطء إلى الجهاز. امتدَّ الصوت عبر الطاولة ومرّ في موجات عبر الغرفة وعلى الأرضية، وعلى جسد فاسكا الذي تعرَّق فجأة ومن خلاله، مالئاً بطنه وأطرافه ورأسه بشيء مهم وقوي. كانت الكلمات غير مألوفة، وهذا ما أثار استغرابه وقلقه. كان فاسكا يعرف الشيء القليل من جميع لغات حوض الفولغا واستوعب بسهولة في أيّ خطاب زبدة المغزى على الأقل. ولكن الآن ليس ثمة مغزى كان هناك صوت فقط، وتنغيم، وأصوات مُدمَجة في تيار لا يتجزَّأ. وقف فاسكا أمام هذا التيار، كما يقف أمام نهر غير مألوف له، راغباً في الولوج فيه ولا يعرف كيف يلج.

عندما اقتربت الإبرة، وهي تجري عبر الرقاقة كلّها، من الوسط وتجمدت هناك، مُصدِرَةً صوتَ طقطقة هادئ وجامعةً نُدَف الغبار على حافتها، ضحكت الطفلة وألقت على الرقاقةِ جُذاذةً فارتدَّت على الفور وجرفها تيار الهواء بعيداً عن السطح. فضربها فاسكا على يدها: لا تعبثي!

استمعوا في ذلك المساء إلى أصوات أخرى أيضاً: رجالية ونسائية ومختلطة معاً. واستمعوا إلى شعر، واستمعوا إلى أغانٍ نشيطة ومفعمة بالحيوية، وممدودة ومفعمة بالأسى، ومتنوعة. ثم رفع العجوز الأنبوب من الصندوق وأعاده إلى خزانة الأدراج. وذهب كلّ واحدٍ منهم إلى فراشه لينام.

اضطجع فاسكا على الدكة، واحتضن بذراعيه المعطف الذي فاحت منه قليلاً رائحة جلد الغنم، واستمع إلى كلمات وأصوات غير مألوفة، صدحت تلك الأصوات بوضوح في رأسه، كما لو أنَّ الصندوق الغريب استمرّ يدير الرقاقة السوداء. وانتابته رغبة في أنْ يغني بتلك الأصوات. وأراد أنْ يركض ويطير ويسبح إلى مكان ما: خلفها أو بمفرده. ورغب بأن يتناول هذا الصندوق ويقفز إلى خارج الكوخ، وأنْ يأخذه بعيداً، إلى مكان لا يمكن لأحد فيه أن يسلبه منه، ولكن بدون يدي العجوز الماهرتين، من المستبعد أنْ تعمل المعجزة.

في بداية صباح اليوم احتَكَّ فاسكا بالخزانة ذات الأدراج ولمس خلسةً عدة مرات الصندوق المكنون: البارد. كان العجوز مشغولاً في المطبخ، وأحياناً يلقي نظرة سريعة على فاسكا. بعد الإفطار، تناول معطف الفرو القصير وحشر القلنسوة اللباد على رأسه.

- لا بأس، قال للعجوز بصرامة. - سأزيح الثلج الذي أردتَ أنْ أزيحه. وفي المقابل تُشغِّل لي الأورغن اليدوي في المساء. هكذا ببساطة بدون عبث وبدون حيلك الرأسمالية! وتدير جميع الرقاقات حتى آخر واحدة. وأحذِّرُك إنْ لم تفعل تكون العواقب سيئة!

وذهب للعمل.

* * *

كان الشتاء كثير الثلج، فكان فاسكا يجرف الثلج في الفناء بنشاط كلّ صباح تقريباً. وبعد ذلك يقطع الحطب ويوقد الموقد ويزيح الجليد عن خرزة البئر. في الأيام المشمسة، قام بتنظيف الأسطح من الثلج أو

يجمع حطب القشاش في الغابة لإشعال الخشب. في البداية كان يحمله في حضنه وعلى ظهره وعندما أصلح هو والعجوز الزلاجة التي تُسحَب بالحبل بدأ ينقله على الزلاجة. وأعادا تصليح جميع الأحذية في المزرعة أيضاً: جزمات الصَّبيَّة المطاطية على اختلاف أشكالها، وزوج من الأحذية الجلدية المشبوكة، والقباقيب ذات الأحجام المختلفة والجزمات العالية الساق (الجلدية والفرائية، والصوفية من الداخل والصوفية في الخارج)، والعديد من أحذية اللباد المتهالكة. وخاطا معطفاً جديداً للصبية بدلاً من معطفها الذي بُلِيَ وتثقّب. وحاكا حصائر من القش بدلاً من البالية. وفحصا جميع الاحتياطيات الغذائية من جديد: هزّا الحبوب وجفّفاها، وقلَّبا التفاح، وفحصا البطاطا ورؤوس الملفوف والبصل واللفت وأهالا الرمل الرطب على الجزر.

رتَّبا حواجز وألواحاً في الحقل لجمع الثلج. ونثرا بذور عباد الشمس مع عروق عشبة الفَنَاة (عين الغراب)، ونشرا في الحافّات صفوف مغارس البصل والثوم للحماية من الفئران والجرذان. وتفحّصا جميع أشجار التفاح: هل تجمدت جذوعها؟ هل بُلِيَت لفافات الخيش المطوية عليها؟ في الأماكن التي بُلِيَت لفّا لحاء أشجار البتولا الذي جُلِبَ من الغابة؛ ودثّرا أشجار التفاح بالثلج.

كان ثمة عمل دائماً. فما إنْ تنتهي من نشر قطع الجليد الطازج من نهر الفولغا للمجلَدة، حتى ينزل الثلج: فتركض إلى البستان تنفض الأغصان (وليس في عجلة، بل بدقة وحب: حرِّك كلّ غصين بمزراق خشبي، وأدِّ التحية له، وتخلَّص من الثلج الملتصق حتى لا ينكسر). وبمجرد أنْ تنتهي من تنظيف المدخنة وتكنس الرماد لتسميد الحقل يضرب الصقيع: اركض إلى الشاطئ، أخرج القوارب حتى لا يكسِّرها الجليد ولا وينجرف الصيد. وما إنْ تستيقظ وتتناول الطعام، وتقطِّب الصبية وجهها وإذا بالمساء قد حلَّ، وحان وقت الصندوق الغريب. هكذا عاشوا: الصباح – المساء، الذهاب – الإياب، الزفير – الشهيق.

حفظ فاسكا عن ظهر قلب الشعر والأغاني من تلك الرقائق السوداء. كان عدد الأسطوانات في المزرعة قليلاً ليس أكثر من عدد الأصابع في كلتا يديه وفي كلّ مساء يخرجونها جميعها. لسبب ما، كان العجوز يضعها دائماً في التسلسل نفسه ولا يكسر الروتين أبداً، في البداية الشعر، ثم الأغاني المفعمة بالحيوية، ومن بعدها الأغاني الحزينة، وفي هذا الوضوح تعلم فاسكا تدريجيّاً أن يجد المتعة. وعلى الرغم من أنه كان يستمع يوماً بعد يوم إلى المقاطع نفسها، من دون أنْ يقدر على فهمها أو تقسيمها إلى عبارات وكلمات، بدأ بشكل أو آخر يلاحظ أنه يتذكرها بالكامل: يبتلعها، مثلما يبتلع ثعبان أو طائر جشع فريسة كبيرة جدّاً. نشأت هذه التعويذات اللفظية السحرية غير المفهومة من العدم، من الهواء، من قفزات الإبرة على الرقاقة المُترِبة ولم تكن شيئاً؛ لا تساوي شيئاً ولا تحمل أيّ فائدة في حدّ ذاتها: كان لا يمكن السُّباب بها ولا تخويف الآخرين أو استرضائهم أو تسليتهم بواسطتها. كانت *مختلفة*. ففي الأصوات العابرة التي لا معنى لها عاش شيءٌ مختلف، حياة غير معروفة لفاسكا، وتنفّست قوى وقوانين أخرى. اجتهد عقل فاسكا الناقص الصغير محاولاً أنْ يطور الفكرة ويدرك حتى النهاية شغفه المفاجئ بالصندوق الغريب، لكنه فشلَ دائماً. كانت هذه المحاولات مؤلمة، وأراد فاسكا أنْ يتركها لكنه لم يستطع، وغالباً ما بقي يتقلّب في فراشه على الدكة حتى منتصف الليل غاضباً على نفسه وعلى الأورغن اليدوي[1]، وعلى العجوز في الوقت نفسه.

ومع ذلك، بحضوره تصرف بصرامة: حاول ألّا يكشف عن شغفه، ولم يتزلّف، ولم يرهِق نفسه بعمل وفير. كانت الصبية وظيفته الرئيسة. من أجل الطفلة غُفِر له الكثير: أُرجوزة تُغَنّى لها أو قصة تُحكى لها غالباً ما كانت بديلاً لفاسكا عن واجبات العمل، وكان اللعب المشترك دائماً وسيلة دفاع موثوق بها للتنصل من أداء المهمة التالية. كان العمل باللسان أكثر متعة من العمل بالمجرفة أو الفأس، ولهذا، بحلول منتصف الشتاء،

1- هكذا كان فاسكا يتصور جهاز الحاكي (الفونوغراف أو الغرامفون). (المترجم).

تشرَّبَ فاسكا بالتعاطف مع البلهاء المسكينة. وبالإضافة إلى ذلك، شعر فاسكا أنها لم تكن مجرد عملة معدنية، يمكنه من خلالها أنْ يشتري من العجوز نصف يوم من حياة خالية من الهم ووجبة غداء دسمة. كانت الصبية شيئاً أكبر مفتاح قلب الرجل العجوز، بل قطعةً منه. وبالتالي، في كلّ مرة يشعر فيها بسلطته الضئيلة عليها، كان فاسكا يذوب سعادةً كما لو أنها ليست هي التي تضحك على عبثه الآن أو تكرّر تكشيرته الساخرة بإذعان، بل العجوز نفسه.

خلال الأيام الأولى، عرض لها فاسكا كلّ حيله وحركاته البهلوانية (وكان يعرفها أكثر مما يعرفها الكثيرون غيره): كيفية ربط أصابعه على شكل عُقَد، وكيفية تمديد عظام كتفيه، وكيفية المشي على يديه، وكيفية الزحف على ظهره، وكيفية تحويل جفنيه ولفّ بياض العينين إلى الأمام حتى تبدوا كأنهما كرتَا بلياردو أُدخِلَتا في جُحرَي عينيه. وكيفية تثبيت السكين على طرف الأنف، وكيفية الغناء بالحلق من دون فتح الشفتين، وكيفية التوازن على كعب رجل واحدة، وكيفية حكِّ القفا بأصابع الرِّجْل، وكيفية الشرب من الصحن بالمناخر وترك أطول لعاب يسيل. أظهر كلّ ما يعرفه لم يخْفِ أيّ شيء. نظرت الطفلة في البداية بإعجاب، ثم حاولت أنْ تكرّر ما يفعله. واستطاعت أنْ تفعل! كانت نحيفة وضئيلة، تكاد عظامها أنْ تمزِّق جلدها، وعيناها تحملقان وتنتفخان من الحماس وفعلت كلّ شيء: فرقعت بلسانها، ووقفت على رأسها، وتأرجَحَت على كعبها، وبصقت عبر الغرفة بأكملها، ونقرت النغمات على الطاولة بالسكين.

كان من المثير للاهتمام مشاهدة مدى سرعة تعلم الصبية، ومدى سرعة التصاق جيله وألاعيبه بها. كان ثمة سرّ بهيج في ذلك، متعة غير مألوفة وقاطعة. فالأولاد الذين التقى بهم في حياته السابقة التقطوا منه أيضاً ألعابه السحرية أو تبنَّوا حيله، ولكنهم بعد ذلك عادة ما كانوا يضفون طابعهم الخاص عليها وأثبتوا أنهم أنفسهم لم يكونوا بائسين. ولكن الصبية، بالعكس منهم، أرادت أن تكرّر وراءه إلى ما لانهاية من

دون التفكير في المعنى، وبحماس وحرص دائمَين. كانت مثل الطينة في أصابعه، خاضعة، ومستعدة دائماً ومتحمسة للتغيير.

وسرعان ما عرض فاسكا متعة جديدة، الألعاب. كان من الممكن لعِب لعبة مهد القط، ورمي السكين، ولعبة «اضرب واهرب»، ولعبة البصاق. في البداية لم ينجح في هذا الأمر: لم تفهم الصبية التفسيرات؛ فبمجرد البدء في اللعبة كانت تكرّر بإذعان حركات فاسكا، من دون أنْ تولي أيَّ اهتمام للقواعد على الإطلاق، أو أنْ تسعى للفوز أو تفهم دواعي استيائه. وقد وجدا مخرجاً: اخترعا ألعاباً خاصة بهما تلك التي ليس فيها منافسة أو مسار عمل معقد، بل مجرد فرحة بسيطة ونقية: فقد قفزا من سطح المجلَدة إلى الركام الثلجي الضخم في الفناء الخلفي، وجرّا بعضهما البعض في زلاجة السَّحْب، وركضا على حدود الغابة وهما ينثران الثلج كالنوافير ويطرقان على رقاقات الماء المتجمد على الأغصان ويصرخان منافسين بعضهما بعضاً ومثيرين الصدى في الغابة.

وحتى هنا شعر فاسكا بسلطته: كان يأمرها فتقفز الصبية في ركام الثلج، وتفعل ذلك حتى لو أراد من الصباح إلى الظهر وكأنها مشدودة بنابض؛ ويأمرها مرة أخرى فتندفع في دوائر حول المنزل وهي تضحك؛ ويأمرها بعد فتصعد على الشجرة وتجلب العصا التي يقذفها. لم تفهم الكلمات لكنها سرعان ما أدركت التنغيم وتعبير الوجه؛ أرادت حقّاً أنْ ترى ابتسامة على وجهه مقابل كلمات لطيفة وإيماءة رقيقة كانت مستعدة لأن تعمل بلا نهاية. وقد طاب لفاسكا أنْ يقلِّب ابنة العجوز كيفما يشاء، لكنه لم يطلق لنفسه العنان كثيراً: لأنه أحس أنَّ هذا لا يعجب صاحب الدار. ومع ذلك، في بعض الأحيان، لم يتمكن من كبح جماح نفسه: فعندما كانا يذهبان معاً إلى الغابة من أجل جلب حطب القشاش، يرتمي في زلاجة السَّحْب ويجبر الصبية أنْ تجرَّها، وهي تصهل كالحصان؛ وعندما يبقيان وحدهما في الكوخ يجبرها أنْ تركض على يديها ورجليها وهي تخرج لسانها وتلهث مثل الجراء.

أجادت الصبية تقليد أصوات الحيوانات والطيور، فأصوات الصهيل

واللهاث والهرير والرغاء والعواء والنعيب كانت تؤديها بصورة أفضل مما يفعل فاسكا. وتلقَّفت منه على الفور أنواعاً مختلفة من الصفير (بالشفتين مثل المزمار، وبالشفين المعقوفتين، ومن خلال السن الساقط، ومن خلال الفكين المضغوطين، وبإصبعين وبثلاث أصابع)، والطقطقة باللسان، والنقر، والطنين بالحلق. ثم بدأت تتعلم الكلمات.

لاحظ صاحب الدار هذا قبل فاسكا نفسه. وصار فاسكا يلاحظ في عينَي العجوز، عندما تنظران إلى الصبية، في بعض الأحيان شيئاً جديداً، حزيناً يشبه حالة كلب مصاب. وعندها فقط أدرك أنَّ هذا الشيء الجديد يظهر أثناء محادثاته هو والصبية (أو بالأحرى، عندما كان فاسكا يتحدث وهي تجلس بجانبه، وتنظر كالعادة إلى فمه وتُقَوْقِي). نظر إليها فاسكا بانتباه أكثر: وفعلاً كانت شفتاها تتحركان باستمرار، وتبرز على عنقها الرقيق عروقٌ من التوتر. هل حقّاً تريد أنْ تتحدث؟ هكذا إذن! تبيَّن أنَّ الصبية ليست بكماء؟ إذن، ليست بلهاء على الإطلاق؟

إنَّ تعليم الكلام مهمة أكثر نظافة من «رمي السكاكين» أو «البصاق». وتعامل فاسكا مع الأمر بكلّ جدية: فصار يتحدث مع الصبية بصورة أبطأ وينشر شفتيه على نطاق واسع ويلفظ الكلمات بوضوح، ويكرّر ما يقوله عدة مرات، وأحياناً يساعد نفسه بالإيماءات من أجل الدقة؛ وفي بعض الأحيان كان يجلس ببساطة على الدكة ويشير بأصابعه إلى الأشياء المحيطة، ويسميها بأسمائها مراراً وتكراراً.

- وجه! قال بلفظ واضح، وهو يدير راحة كفّه على وجهه، ثم إلى وجه الصبية. - الخطم مختلف. أو الفنطيسة.

- مجرفة! رفع يديه إلى الأعلى بأصابع منتشرة. - لديك مجرفة.

- أطراف! وهزّ ساقيه.

- ألية! وصفع على أردافه النحيلة.

- بطن! كرش! جوف!

منع فاسكا نفسه من أنْ يخلط مع الكلام الروسي كلمات قرغيزية أو من لغات أخرى، حتى لا يربك التلميذة؛ وإذا ما خلط فجأة عن طريق السهو فإنه يصحح الغلط على الفور، وينظّف الخطاب. وامتنع عن التسرع في رواية القصص أو المقاطع الشعرية. وامتنع من القفز بسرعة كبيرة بأفكار الموضوعات والأشياء: وإذا ما بدآ ممارسة شيء في الصباح، الأواني أو الملابس أو الأدوات المنزلية فإنهما يستمرّان في ترديده طوال اليوم حتى المساء:

- صحن! زاد! قدر وقصعة!...

كان من المدهش مشاهدة كيف تنشأ كلمات فاسكا في الصبية قبل أنْ تتعزز في الكلام، بل بالفهم الأول لربط الأصوات والأشياء. ألقى فاسكا تلك الكلمات بسخاء، لم يبخل بها.

- كسّاحة!

- غرّازة!

- نشّارة!(بمعنى - منشار)[1]

تلقَّفت الصبية تلك المفردات على الفور وأبدت ذكاءً. ومع ذلك لم تستطع التحدث: لم تخرج من فمها سوى الأصوات التي تشبه المقاطع في بعض الأحيان؛ ولكن كلّ يوم تزداد هذه الأصوات وفرة وتنوعاً.

- هزّي، أسرع!

- انقشعي، يا خالة!

- يكفي جمع الحطب، هيّا نزدرد الطعام!

سرعان ما اكتشفت فاسكا اسم الصبية. في البداية، اكتفى بألقاب «بلهاء»، «عصفورة»، «اليعسوب الجاحظ العينين». وعندما اتضح أنها على وشك التحدث، اختار اسماً لها. فتَّش عنه لمدة طويلة: راجع جميع

1- الكلمات التي يستعملها فاسكا - مفردات محلية الاستخدام وقد عفا عليها الزمن وخرجت من الاستعمال اليومي. لذا اقتضى التنويه. (المترجم).

الأسماء المألوفة التي سمعها في مراكز إيواء الأطفال وأثناء التجوال، وحاول أنْ يجرِّب تَناسُبَها مع وجه الصبية النحيف. لم يلبَق لها اسمانو*يابرينا* و*دوياركا* المُمِلّان ولا *آرميا* و*باريكادا* الحربيّان، ولا *فيليورا* و*بودينا* (هذه، بصراحة، أسماء تُطلَق على الأبقار!)، ولا دزيرجي*نالدا* المُشَفَّر. وأخيراً وجد لها اسم: *أفياتسيا*[1] (الطيران). غير أنه لم تحصَل تكنية التلميذة: إذ بمجرد أنْ لاحظ العجوز كيف يناديها فاسكا بكلمة واحدة يكرِّرها نفسها، أمسكه من ياقته وبدأ يهزّه. ارتجف قليلاً، ليس بألم، وفي الحال اندفع باضطراب وهو يشير إلى ابنته حتى فهم فاسكا حقيقة الأمر. فكان عليه أن يتذكر جميع أسماء النساء مرة أخرى ويصرخ بصوت عالٍ حتى أومأ الرجل العجوز برضا وتركه: *آنا* هذا هو اسم الشقراء. تعجب فاسكا من الاسم (كان على وشك أنْ يخمن اسمها الصغير!)، ووافق. آنّا، لتكن آنّا. ولكن الأصح: أنكا. – الشعثاء البلهاء! امسحي المخاط!

– لا تزقزقي، يا زيطة!

– لو أكثرت من اللغط، يلدغك البعوض!

وفي بعض الأحيان كان فاسكا يشعر بالملل: أراد أنْ يلعب الألعاب الساذجة المعتادة، والتمارين البسيطة للذراعين والساقين. فكان يترك الدروس لمدة نصف يوم، أو ليوم كامل ليلعب بعض الوقت بالثلج أو يجري إلى نهر الفولغا لإخراج عُدَّة صيد السمك، ثم يبدأ الدروس مرة أخرى. اقتصرت في هذه الدروس سلطته على الصبية، سلطة الكبار النهائية وبالتالي، سلطته على العجوز، وعلى المزرعة بأكملها.

في البداية، قاوم الدروس: وزمجر على فاسكا بحزم، وأقفل الباب

1- في الحقبة السوفيتية، اختُرِعَت عدة مئات من الأسماء الجديدة التي تحمل معنى إيديولوجيّاً معيَّناً. من بين تلك الأسماء: *فيليورا* – من التركيب اللفظي «فلاديمير إيليتش لينين يحب العمال»؛ *بودينا* – تيمناً باسم الماريشال سيميون ميخائيلوفيتش بوديونّي بطل الحرب الأهلية؛ دزيرجينالدا – تيمناً باسم فليكس أدموندوفيتش دزيرجينسكي مؤسس ورئيس هيئة الطوارئ الروسية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب. (الملاحظة من الكاتبة).

على الصبية في غرفتها (فكانت تضرب الباب ساعية إلى الخروج وتزعق مثل خنزير عالق في فخ). وحتى أنه فكر ذات مرة بطرد فاسكا: جمع له حقيبة ظهرٍ كاملة من المؤن وألبسه معطف الفرو القصير ولفّ رأسه بشال من أجل الدفء وأشار إلى الباب: اخرج، إذا كنت تتصرف هكذا.

– هذا ما ينقصنا! عبس فاسكا وتجهّم. – سأبقى معك إلى الأبد الآن. أشعر بالرضا في المزرعة.

أصرَّ العجوز وأشار بإصبعه نحو المخرج (وكان إصبعه يهتزّ مثل شص صيد السمك على خيط الصنّارة). أما الصبية المُغلَق عليها فكانت تدقّ في غرفتها وتجْهَشُ بالبُكاء قرب شقّ الباب، متوقعةً حلول مصيبة.

– ماذا تريد، أيها الغول؟! قال فاسكا آنذاك. – هل تريد أن تترك ابنتك بكماء؟ لو بقيت معي ستتحدث اليوم أو غداً، ولكنها معك، أيها البوم الأبكم، لن تتحدث أبداً!

ارتعش وجه العجوز، وكأنَّ فاسكا ضربه.

– يريد أن يمسك بك حقّاً أولئك الذين تذهب إلى الجرف كلّ يوم لتراقبهم! هجم فاسكا بكلّ قوته، وبشدة. – إنهم يعرفون جوهرك الأسود! إنْ طردتني الآن لن أشفق على ساقَي: سوف أجوبُ جميع القرى المجاورة، وسأصرخ ببضع كلمات عنك، أيها المعادي للثورة، في كلّ زاوية! سأصرخ لن ينسى الناس! وسيظهر أصدقاؤك على الفور لزيارتك!

هزّ الرجل العجوز رأسه الأشعث، واختلجت شفته السفلى ورجع إلى الوراء.

ومنذ ذلك الحين، صار يجلس بعيداً عنهما أثناء الدراسة، وينشغل في الأعمال المنزلية، ولكن ازداد في نظرته حزن الكلب ذاك نفسه الذي يعرفه فاسكا.

وهكذا قضوا هذا الشتاء. في النهار يسلب فاسكا روح العجوز يعلم الصبية التحدث. وفي المساء يعذب العجوزُ فاسكا يدير أسطواناته

ويشغِّل معها في رأس فاسكا المسكين الأفكار غير المفهومة. الصبية وحدها كانت بخير: لا تعرف ماذا حدث لفاسكا، وماذا حدث لوالدها.

وبالتدريج تصالح الرجل مع دَور فاسكا كمدرس. وفي نهاية فصل الشتاء، نطقت الصبية مقاطع غير مترابطة بسرعة وببراعة لدرجة أنَّ كليهما فاسكا والعجوز كانا يتوقعان أنْ تنطق كلمتها الأولى من يوم إلى آخر. وكان فاسكا يقرأ في نظرة العجوز إلى ابنته أحياناً نفاد صبر وأمل. ويبتسم ابتسامة ساخرة: لا بأس، ومَن أراد أن يطردني إلى الثلج في الشتاء؟

* * *

وبعد ذلك حلَّ الربيع.

وتراءت الشمس في السماء لفاسكا ليست شمساً، بل سراجاً منيراً إلهاً جوّالاً: يدعوه إلى مكان ما. وتدفق نهر الفولغا مختلطاً مع قطع الجليد المكسَّرة والمنازل والجسور والقوارب التي جرفها الفيضان ولم يعد نهراً، بل طريقاً: يناديه. والريح لم تعد تضربه على وجهه بالثلج، بل تدفعه في ظهره بيديها الدافئتين والقويتين. والأشجار لم تعد تماحكه بأغصانها، بل توضِّح له المسار: من المزرعة إلى الغابة.

كلّا، قرّر فاسكا. لن أذهب إلى أيّ مكان.

امتدت أسراب الطيور فوق الأمواج تصرخ وتمرح. وانبسطت الغيوم على أثرها صامتة وهي تنظر إلى الأسفل. وامتدت أسراب الأسماك في المياه، والخضرة اليافعة في السهوب وتناءى الثلج عنها وتدفق إلى نهر الفولغا.

غضب فاسكا وغادر الجرف إلى المنزل لينام. واستلقى على الدكة.

فاحت الوسادة تحت رأسه برائحة راتنج الصنوبر من أعالي النهر. والبطانية على كتفيه نفثت رائحة أسماك الفرخ الطازجة المشوية في شعلة نار. وبلاط الموقد فاح برائحة رمل أستراخان. وتسرَّبت من النافذة المفتوحة قليلاً ليست رائحة الثلج الذائب والكئيب، بل رائحة بحر قزوين المالح.

فتح فاسكا عينيه. وجلس في الظلام. ورأى: حبالاً تمتد من جسده في جميع الاتجاهات شفافة، بالكاد تُرى في عتمة الليل، حبالاً مبرومة وقوية مثل حبال السفن. يذهب الأكثر سمكاً إلى غرفتَي نوم العجوز والصبية، وتمتد الحبال الأرَقّ إلى الصندوق الغريب إلى خزانة الأدراج وإلى الأشياء الأخرى في المنزل. وفاسكا نفسه في منتصف هذه الحبال وكأنه ذبابة في شبكة عنكبوت.

«هكذا، إذن! هذا ما كان ينقصني! استشاط فاسكا غضباً. - هكذا قرّر العجوز أنْ يهزمني بهدوء! يوقعُني في شِرك حبالٍ ويشدّني إليه وإلى المزرعة! يسحرني برقاقات ناطقة ويشبعني بطعام دسم ويتزلّف إليَّ بالهدايا حتى أبقى هنا لا أخرج حتى وفاتي!»

نهض من على الدكة، وقطع القيود كلّها وقفز خارجاً من الباب وتوارى عن الأنظار، وأصبح أثراً بعد عين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-22-

– واه! واه! واه! صرخت آنتشي في الصباح، واندفعت في الفناء.

سمع باخ تلك الصرخات وهو شبه نائم، لم يَفِق بعد تماماً. قفز من السرير. كما كان، في ملابسه الداخلية، وبمجرد أنْ ألقى سترة بلا أكمام على كتفيه حتى اندفع إلى خارج المنزل.

واندفعت آنتشي في قميص نوم خفيف وشعرها أشعث كالسحابة حول رأسها وفمها مفتوح من مبنى إلى آخر تفتح الأبواب على مصاريعها وتقفز من الداخل إلى الخارج ومن الخارج إلى الداخل وتسقط السلال والدلاء والصناديق والأدوات المعلقة على الجدران.

– واه! واه! واه!

جابت الأماكن كلّها وهرعت إلى البستان. ومضت بقعة بيضاء بين الجذوع والفروع البنية المُحَمَّلة ببراعم الربيع الكبيرة.

سارع باخ خلف ابنته الصغيرة، وخلع سترته أثناء السير ليغطيها من رياح الربيع الطرية ومن الأنفاس الباردة لآخر ثلج في فضاءات الفجوات في البستان. توقفت آنتشي عندما وصلت إلى حدود البستان للحظة ونظرت حولها في حيرة واندفعت إلى الغابة.

– واه! واه! واه! بدأت طيور الزاغ تزعق بخوف وهي تطير فوق الأشجار وتحلّق في المنطقة.

– واه! واه! واه! ردّد الصدى بحزن، متدفقاً على الجذوع ومرتجفاً على الفروع.

هرع باخ على أثرها. كانت أشعة الشمس تنساب عبر الأغصان، والماء يرشق من تحت أقدامه، وأشجار البتولا والقيقب والحور الرجراج تصفِّر من جانبه. عجنَ الطين بقدميه وهو ينزلق على الأوراق المتعفنة ويتعثّر بالأشجار الساقطة. وكانت سيقان الأشجار الصلبة تضرب كتفيه والأغصان تخدش وجهه تاركة علامات حمراء على خديه وجبينه لم يلاحظ هذه اللمسات المؤلمة. لم يتمكن من الإمساك بآنتشي السريعة القدمين، لكنه لم يقدِر أنْ يتخلف عنها فانطلق جسده خلف الصبية كأنه مربوط بها: ثمة قوة ما شدَّته إلى الأمام وألقت به على الجذوع وسحبته بين البِرَك والجداول الصغيرة الجارية بين الجذور وجَرَّرَته من خلال الحُفَر ورمت به عبر الأخاديد والتجاويف.

– واه! واه! واه!

ركضا لمدة طويلة: حتى أصبح قميصا نومهما سوداوين من الطين ووجهاهما داكنَين من الدم المتدفق ومبلَّلَيْن بالعرق، وحتى صارت أرجلهما المنهكة غير قادرة على أنْ تتقدم خطوة، وبالكاد يمكن أن يتنفسا. آنذاك فقط فقدت حركات آنتشي السرعة وتباطأ جريها وانحنت ركبتاها وسقطت على يَدَي باخ الذي وصل إليها في الوقت المناسب.

وأراد أن يسقط من التعب: على الأرض أو على بركة أو على وادٍ أو على أيّ مكان، لمجرد أنْ يغمض جفنيه وينسى نفسه لبضع دقائق في حالة من الجمود، غير أنَّ آنتشي المنهكة ترقد على صدره. ومن خلال قماش قميصيهما الداخليين الرقيق الذي يفصل جسديهما، شعر بنبضات قلبها المضطربة. تغلّب باخ على الألم في ركبتيه وسار ببطء بين الأشجار وهو يحمل آنتشي على ذراعيه ويلهث ويعبّ الهواء في فمه المفتوح عبّاً، وقفِلَ عائداً إلى المنزل.

ومع ذلك، كلّما طالت مدة المشي، أصبح سيره أسرع ووزن جسم الصبية على صدره أخف كما لو أنَّ طاقةً شابَّة ونقية انبثقت من جسمها واخترقت جسم باخ المنهك من خلال التلامس الجسدي. والمثير

للدهشة أنَّ ساقي باخ وظهره ورقبته وذراعيه من الكتفين إلى أطراف الأصابع الصغيرة امتلأت كلّها بقوة مرنة ومُبهِجَة ونبضَت وأرادت أن تتحرك. وفجأة صار متعةً سحقُ الأوراق المتعفنة برجله والانزلاقُ على الطين وكسرُ الفروع الرخوة بحذائه. وكذلك تعرّضُ عينيه لشمس الربيع. وملاحظةُ ظلال ألوان لحاء الأشجار: الأحمر على جذوع الصنوبر، والرمادي على البلوط والأرجواني والأزرق على أغصان التوت والعلّيق. واستنشاقُ هذا الهواء البارد الذي يفوح برائحة الثلج الذائب والتراب الرطب. أصبح كلّ شيء متعةً وفي كلّ شيء كُشِفَ عن معنى دقيق وصحيح. وفي كلّ شيء تنفّسَت الحياة.

احتضن باخ على صدره الصبية الصغيرة التي لا وزن لها تقريباً وشعر في الوقت نفسه بالعديد من الأشياء المختلفة والمهمة كما لم يحدث من قبل: شعر بتدفق عصارة الأشجار من الجذور إلى الجذوع والفروع، وارتجاف الأوراق الصغيرة تحت قشرة البراعم، وسخونة الأرض على التلال والتحرك الخامل فيها للبذور والدرنات والأبواغ. كلّ هذا الدبيب غير المحسوس للعين، التأرجح والتنفس والارتعاش، هذا كلّه أثَّر فيه، وكلّه أثار قلقه، كما لو أنه لم يحدث خارج باخ، بل في داخله. واكتشف في أنفه فجأة وفرة من الروائح: رائحة رطوبة الماء وعبق الأعشاب الغضَّة في الوهاد وحلاوة الجذوع المتحلّلة وحرافة عش النمل الذائب. وازدحم عدد غير مسبوق من الأصوات في أذنيه وشعر جلده بتمسيد الريح في كلّ طية وفي كلّ حين... كانت تلك ليست نشوة مدوية مألوفة لباخ ولا اندفاعة مشاعر عمياء ومتهورة على حافة نوبة عاطفية، بل كشفاً عن هذه المشاعر بكلّ امتلائها وجمالها، ووجوداً بطيئاً وحكيماً لها.

ما الذي فاقم حساسيته إلى هذا الحد؟ أهو الربيع؟ أم الخوف على آنتشي، الذي تحول إلى راحة؟ لم يعرف باخ. وفي وقت لاحق، بعد أن وضع الصبية التي غفت من التعب على السرير وخرج إلى الفناء، أدرك: أنَّ قرب آنتشي كان هو السبب في تصاعد المشاعر الخارق للعادة. في

السابق أنقذته ملامستها من الخوف، والآن منحته إحساساً جديداً بالواقع وغير مألوف: القدرة على القلق بشأن جمال العالم والقدرة على رؤية ما هو حيّ في كلّ مظهر من مظاهره حتى وإن كان صغيراً.

أما فاسكا اللصيق حقّاً فقد اختفى. مثلما وصل إلى المزرعة برغبته الملحة، بعد أن جاء من اللامكان ذهب كذلك إلى اللامكان. ذهب حافي القدمين، بعد أنْ ترك تحت الدكة الحذاء الفرو الذي أُهدِيَ إليه، وعلى الدكة معطف الفرو القصير الذي فُصِّلَ له؛ من دون أنْ يقول كلمة وداع ومن دون أنْ يأخذ أيّ شيء معه. تفقَّدَ باخ صناديق الطعام التي نضبت خلال فصل الشتاء، والأشياء الموجودة في خزانة الأدراج وفي غرفة تيلدا الضيقة، ومحتويات الصناديق التي تحت السرير وأدراج المطبخ كان كلّ شيء في مكانه. باستثناء فاسكا نفسه.

اغتمَّت آنتشي، وكان هذا أول حزن بالغ في حياتها. كانت تستيقظ كلّ صباح وتعاني من خَطْب فراق صديقها الوحيد. كان هذا الحزن يزداد مع كلّ ساعة جديدة من اليوم الجديد، وسرعان ما يغمر غرفة نوم الصبية وغرفة الضيوف والمنزل والفناء والبستان المليء بأزهار التفاح. ولأنَّ آنتشي غير قادرة على التعامل مع الحزن الشامل، تحملت وصبرت طالما لديها القوة الكافية؛ وعندما تنفد قوتها كانت تهرب من المزرعة: أحياناً في المساء، وأحياناً عند الظهر، وفي أصعب الأيام في الصباح، بعد الاستيقاظ. تركض عبر الغابة، وهي تنادي صديقها المفقود وتأمل، إنْ لم تجده، على الأقل أنْ تصل إلى تلك الأماكن التي لم يخترقها حزنها بعد. ولكن ذهبت جهودها عبثاً: فالحزن كان في كلّ مكان، ولم تجد فاسكا في أيّ مكان.

***

انحصر نشاط الصيف كلّه في هذا الهروب اليومي. لم يستطع باخ أن يقول ما إذا كان قد فعل أيّ شيء آخر، هل شذَّب أشجار التفاح أو زرع الجزر أو النعناع في الحديقة، وهل اصطاد السمك وجمعَ الجوز، هل

أكل ونام وشاهد أحلاماً، وهل فكَّر في شيء ما أم كان يبحث فقط عن الطفلة الحزينة.

كان العزاء الوحيد هو دقائق العودة إلى المنزل لولا هذه الدقائق لتهرَّأ قلب باخ في الخوف، مثلما يتهرَّأ حتى أقوى حذاء من كثرة الاستعمال. كان باخ يحمل آنتشي بين ذراعيه عبر الغابة في البداية، الشفافة والرنانة كما هي في الربيع، ثم الصاخبة والملونة كما في الصيف، وبعد ذلك الهادئة كما في الخريف وكان صدره يمتلئ في كلّ مرة بشيء رقيق وخفيف. جسد الصبية الهش الذي أضناه الشوق غذّى باخ بحنان للعالم لا يمكن تفسيره، وشحذ حواسّه إلى حدٍّ لا يمكن تصوره: كان مستعدّاً للبكاء من الامتنان إلى هذه الغابة الكريمة وإلى نهر الفولغا الأبدي وإلى السهوب المنبسطة خلفه وإلى الحياة الوفيرة كلّها التي تتدفق من حوله وإلى آنتشي نفسها التي منحت باخ هذه النوبات من السعادة القصيرة والمُرهَفة.

وفي نهاية الصيف، لاحظ أنه بدأ يعود إلى المزرعة ليس مباشرة، بل بطرق ملتوية من خلال المروج والمسارات البعيدة، ويلفّ في الفناء الخلفي للحديقة ويطيل دقائق العزلة مع آنتشي. وأنه بدأ يستمع بقلق إلى أصوات الغابة، خوفاً من سماع خطوات عودة فاسكا. وأنه في الأيام التي تتأخّر فيها آنتشي في الهروب، يكون هو نفسه مستعدّاً لدفعها من ظهرها: اركضي الآن! واصرخي وابكي واشتاقي وقَعي عاجلاً بين ذراعَي! وسوف أعزيك! وسأحملك عبر الغابة والمروج سأحملك طويلاً، بعناية وبحب!

كان في مثل هذه الأفكار ثمة شيء قبيح، بل وحتى معيب. وبعد أنْ أدرك باخ ذلك أغلق على آنتشي غرفتها قفل الباب بالمزلاج وأغلقه بصندوق مليء بالحجارة: لن نركض إلى أيّ مكان آخر. كفى ركضنا ما فيه الكفاية. وجلس هو على هذا الصندوق وأسند ظهره إلى الباب. جلس وشعر بظهره ضربات من قبضة ضعيفة على ألواح الباب من ذلك الجانب. ثم، عند الباب، نام نوماً عميقاً وهادئاً، للمرة الأولى خلال فصل الصيف من دون أن يخاف من أنْ تهرب آنتشي أثناء نومه.

بيد أنّها هربت على كلّ حال من النافذة. كسرت الزجاج بالمقعد المنحوت وقفزت إلى الخارج، بعد أن خدشتها الشظايا الخارجة من الإطار وتركت بضع خيوط ممزقة من التنورة عليها. استيقظ باخ من القعقعة، ولكن إلى أن دفع جانباً الصندوق الثقيل وفتح الباب، وريثما حدق بحيرة من الزجاج المكسور صارت آنتشي أثراً بعد عين: واختفت في الغابة.

هو ذا الجزاء على الأفكار السيئة. ها هو ذا، كابوسه الأبدي، فقدان آنتشي.

هرع باخ من المزرعة وهو يزمجر بصوتٍ عالٍ. ولكن، إلى أين؟ لم يستطع أن يعرف.

لقد سقط في الوديان الضيقة وانغمس في الجداول يزحف على طول قاعها. وعاد، متشبثاً بجذور الأشجار والشجيرات التي نمت على المنحدرات. داس على بيوت النمل، وأسقط أعشاش الطيور بكتفه، وسحق شجيرات العلّيق والتوت، وكسر النبق وبراعم البتولا الصغيرة ليس بدافع النوايا الخبيثة، بل لأنه لم يعرف كيف ينثني عن الطريق ويتجاوز العقبة. وكان يجأر ويزمجر بلا انقطاع ينادي: آنتشي!

سرعان ما سئم حلقه من الصراخ وبحَّ، أصبحت الأصوات أكثر همساً، ولم تعد قادرة على منع طقطقة الحجارة تحت الحذاء وتشقق الفروع المكسورة. هذا هو الوقت الذي يكون فيه اللسان مفيداً لباخ. هذا هو الوقت الذي يكون فيه بحاجة إلى الصراخ بصوت عالٍ وثاقب.

ربما اندفعت آنتشي الآن في أجمة كثيفة الأشجار والدغل، تريد أنْ تطلب المساعدة ولا تعرف كيف تنادي؟ ربما، هي وباخ كانا يطوفان قريباً بعضهما من بعض: يمشيان على المسارات نفسها ويزحفان على طول الوديان نفسها ويتمسكان بالأشجار نفسها ويتعثران على العقبات نفسها ويخطوان على الآثار نفسها، ورغبا بأن يعثرا بعضهما على بعض ولكن لا يعرفان كيف، أبْكمان تائهان في الغابة؟

عندما طفح الغسق بالزرقة واقترب حلول الليل وجد نفسه على المنحدر المألوف: رجلاه قادتاه إلى نهر الفولغا. وصل إلى الكوخ يجرّ رجليه بصعوبة وتناول دلو الصفيح من الموقد وهراسة التوابل وعاد إلى الغابة وهو يطرق الصفيح بالهرّاسة.

ردّت الغابة على باخ: في مكان ما بعيداً، صَفَّرَت بوم الحَنَمَة[1] بحزن وأَنَّت بومة الخَبَل وصدحت طيور الواق بأصوات منخفضة.

ولم تردّ آنتشي.

أجل، كان هذا عقاباً، وثمناً يدفعه مقابل الرغبة الجبانة في عزل آنتشي عن العالم وحرمانها من الكلام، وحرمانها من تِربٍ وصديق، وحرصه على أنْ تبقى معه على انفراد، وأنْ يمتلكها بشكل شامِل وكامل.

وقبيل الصباح قادته رجلاه مرة أخرى إلى نهر الفولغا. وبعدما أدرك باخ أنه يقف من جديد على الجرف أسبلَ يديه وتوقف عن الطَّرق. غير أنَّ أذنيه اعتادتا خلال الليل الطويل على قعقعة الخشبة على الصفيح حتى أنهما ظلّتا إلى الآن تسمعان ذلك الصوت نفسه. ألقى الدلو والهرّاسة على الأرض لم تساعداه في شيء. ولأنه رغب في التخلص من وسوسة الشيطان، فقد ركل كلا الأداتين بقدمه وألقى بهما في نهر الفولغا. رأت عيناه بوضوح كيف نطَّ الدلو إلى الأسفل وهو يطوِّح مغطى بالتقعر من الطَّرْق بالحَجَر وغاص في الماء؛ وكيف دارت الهرَّاسة وهي تتدحرج على طول المسار وبقبقت في رغوة الشاطئ. وما زال في رأسه الرنين. رفع يديه إلى وجهه لكي يضغط على أذنيه بإحكام فلاحظ في ضوء الفجر الخافت أنَّ راحتيه مرضوضتان بخدوش عميقة وملطَّختان بالطين وقد علُقَت بهما هدب (إبر) الشوح والصنوبر والأعشاب الجافة. وهكذا كانت ساعداه وكتفاه وصدره متسخة تماماً: تحولت ملابسه إلى أسمال رثة يُرى من خلالها ليس جسداً، بل لحم متورم من الكدمات والجروح جرح كامل

1- حَنَمَة - جنس طيور من البوم. وهي طيور صغيرة ذات بقع بنية وبيضاء وعيون صفراء وحواجب بيضاء. (المترجم).

كثيف ومتخثّر، وأنَّ قدميه سوداوان من الطين وحافيتان: لا بدّ أنَّ خُفَّه قد تُرِكَ ملقى في مكان ما في الوادي. ومع ذلك، الآن هذا لم يعد يهم.

استدار وسار إلى المزرعة. وأدرك أنه يتأرجح بشدة عند المشي لسبب ما، ثُنِيَت إحدى ساقيه وأصبحت غير قادرة على السير بسلاسة وتنسحب بتثاقل في كلّ خطوة. وهذا أيضاً لم يعد يهم.

سار متعثراً لمدة طويلة حتى أطلَّت الشمس فوق حافة الغابة تسكب بقع الضوء الأصفر والوردي على الأشياء. وصل إلى شرفة المدخل، لكنه لم يرغب في الصعود: بدون آنتشي، لم يكن ثمة ما يمكن القيام به في المنزل. مشى وهو يعرج حول الجدران إلى النافذة المكسورة. استمر صفقُ الهرّاسة على الصفيح في رأسه، ولكنه اعتاد على هذا الصوت ولم يعد يزعجه تقريباً.

اقترب باخ من النافذة، من دون أنْ يلاحظ تناثر الشظايا تحت قدميه الحافيتين، ونظر فيها فرآها: كانت آنتشي نائمة على سريرها، من دون أنْ تخلع معطفها ولا حذاءها مستلقية على البطانيات والوسائد، مائلة على عرض السرير ومدلِّيَةً قليلاً خُفَّها الملطَّخ بالطين. زحف شعاع الشمس ببطء على وجهها الهادئ. رمشت قليلاً، وتنهدت نائمةً ثم استدارت بعيداً عن الضوء، وانقلبت على الجانب الآخر.

أدرك باخ أنه سمع أنفاسٍ آنتشي الهادئة، فقد توقف الرنين في رأسه. بالتأكيد، ينبغي عليه أنْ يسخِّن الماء ويغسل الأوساخ ويضمِّد الجروح وأنْ يُخرِج الملابس النظيفة من الخزانة ذات الأدراج وأنْ يخلع الملابس الممزَّقة. ومع ذلك، لم تكن لديه القوة للابتعاد عن النافذة، فسمح لنفسه بالوقوف لمدة أطول قليلاً ينظر إلى الطفلة النائمة، طالما أنَّ الشمس تطفو من خلف الأشجار، لم ترتفع بعد في القبة السماوية ولم تصل إلى كبد السماء.

وقف وشاهد كيف يتحرك الضوء على خصلات شعرها الناعمة المنفوشة على الوسادة، وكيف توهّج باللون الوردي التواء خدِّها وكفّها الصغيرة المحشورة تحته.

كلّا، لا يمكن إيقاف هذه البنت: لقد كانت منذ الولادة تزحف وتجري أينما أرادت. غريزة الحرية المودَعَة داخلها نادتها، فلبَّت نداءها متجاهلةً باخ والمزرعة وكلّ شيء مما بقي خلفها. الآن، عندما نظر باخ إلى آنتشي الخامدة أدرك بوضوح: أنها ستغادر بعد عدة سنوات. ربما أنها سوف تقفز من الباب أو تنطّ من النافذة أو تتسلّل من أيّ فجوة لكنها ستغادر، بكلّ تأكيد سوف تغادر. ربما، من دون أن تقول وداعاً.

فجأة شعر بالحَرّ، ربما، بسبب طول وقوفه تحت الشمس المحرقة. توهَّج صدره وتوهَّجت رقبته وتوهّج رأسه، كلّ شيء، من القفا إلى الهامة، إلى طرف الأنف، إلى شحمَتَي أذنيه المتورمتين. الحرّ لا يطاق لدرجة كان من المناسب له أنْ يجري إلى نهر الفولغا ويقفز من الجرف. ولكن من المستبعَد أنْ يَقْدر باخ الضعيف على أنْ يجرّ قدميه ويمشي الآن متعثِّراً إلى النهر. وكذلك لا يقدر على سحب دلو ثقيل من الماء من البئر. وبعد أنْ لعق شفتيه المتيبستَين مزَّق من على صدره الخرق التي كانت ذات يوم قميصاً غير أنَّ ذلك لم يساعده في شيء: كان جسده يتوهّج كأنَّه مُحَمّى.

وبعد أن استند بيديه على الجدران مشى يعرج إلى المكان الوحيد الذي كان من الممكن أنْ تبرد فيه الحمى المفاجئة، إلى المَجلَدة. استلقى على قطع الجليد التي تفوح منها رائحة الطين والطحلب والتي صَغُرَ حجمها وبدأت تذوب خلال الصيف، وضغطَ وجهه بامتنان إلى شيء بارد ولَيِّن بدا وكأنه بدن سمكة وتجمد، مستمتعاً بالبرودة المنشودة...

* * *

ومنذ ذلك اليوم توقف عن متابعة آنتشي ولم يعد يحاول إبقاءها. فبدأت تجري أيَّما وحيثما أرادت إلى أعماق الغابة وعلى طول شواطئ الفولغا صعوداً وهبوطاً لكنها كانت تعود دائماً قبل غروب الشمس. يبدو أنَّ شوقها للصبي المختفي تلاشى وضعفت حركته، وبدأ خروجها من المنزل وتجوالها اليومي يمنحها متعة وسروراً: كانت تعود راكضةً من الغابة متوردة الخدين وبعينين حالمتَين.

لم يعرف باخ كيف يشغل نفسه أثناء غيابها، الأفكار لم تطرق رأسه، والأشياء تسقط من يديه ولهذا كان يذهب إلى المَجلَدة: يخلع حتى الملابس التحتية ويستلقي على الجليد، ويرقد هناك بلا حراك. إلى أنْ يتشبَّع جسمه بالبرودة، ويستريح رأسه من الأفكار التي تعذبه. كانت ملابسه تفوح برائحة السمك والقشور تملأ جيوبه، لكنه لم يولِ انتباهاً إلى هذه التفاهات.

وفي المساء، عندما كانت آنتشي تعود من هروبها تتسلّق زاحفة على ركبتيها إلى باخ، وتبتسم بخجل وتلتصق على صدره. ولكن، مع ذلك، لم يكن في عينيها ثمة ندم، بل بَهْجَة متعَبَة وسكينة فحسب. وكان باخ يحمل الصبية بين ذراعيه إلى البستان ويتجول بين أشجار التفاح، لم تقاوم، سمحت له بذلك. قبِلَ بامتنان عاطفتها القصيرة. وكان يعيش بفعل هذه الدقائق القصيرة فقط.

وفي إحدى الأمسيات، بعد أن طَافَ في البستان ثلاث مرات ووقف طويلاً أمام حجر شاهد قبر كلارا، حمل آنتشي التي هدأت عند الغسق وعاد إلى المنزل، فرأى أنَّ الباب الأمامي مفتوح قليلاً والضوءَ يشعّ في النوافذ. صحيح، لا بدّ للمرء أنْ يخاف، لكن روح باخ قد استنفدت في الآونة الأخيرة ومرضت وأُرهِقَت لدرجة أنه لم يعد ثمة المزيد من القوة لمخاوف أخرى. صعد إلى شرفة المدخل وآنتشي بين ذراعيه ودخل إلى المنزل.

كان مصباح الشموع يضيء على حافة النافذة. وأحدهم يعبث على ركبتيه في وسط المطبخ يحرِّك المكنسة تحت الطاولة ويجرف القمامة.

– المنزل وسخ، قال فاسكا بجسارة وهو ينهض على قدميه. – أهملتم المزرعة بغيابي.

اشتدَّ عوده خلال الصيف على الرغم من أنَّ طوله لم يزدَد. وأصبح صوته أكثر خفوتاً وهمساً؛ ووجهه خشُن بفعل الريح واسودَّ بتأثير الشمس؛ كان شعره الطويل مضفوراً في جديلة على قفاه، مما منح الصبي شكل الشاب البالغ تماماً.

اختلجت آنتشي وقفزت من يَدَي باخ. وهرعت إلى فاسكا، لكنها لم تتجاسر على احتضانه تجمَّدت على بعد نصف خطوة.

- فاسيا! قالت بوضوح. - فاسيا!

- نعم، ومن أكون سواه، أكد فاسكا، وهو يجمع القمامة في المجرفة.

- فاسيا. كرّرت آنتشي. - فاسيا. فاسيا...

-23-

ومرة أخرى بدأ يعيش الثلاثة معاً.

لم يغادر فاسكا بعد الآن بقي في المزرعة من دون أنْ يطلب الإذن ومن دون أنْ يفسّر غيابه الذي استمرّ عدة أشهر، كما لو كان هنا سيداً مطلق الصلاحية. استلقى لينام على الدكة بجانب الموقد. لم يطلب طعاماً أو ملابس نظيفة أو وسادة ولحافاً، وعندما استلمها من باخ، أخذها بدون امتنان، وكأنّها مستحقات له. اكتشف باخ في خزانة المطبخ في وقت لاحق عدة قطع من الشوكولاتة ملتصقة بعضها ببعض، ولسبب ما ملفوفة في غطاء وسادة من الحرير ممزقة. وعلى خزانة الأدراج كومة من الأسطوانات غير المألوفة في أظرف دهنية، بعضها بحواف مشقوقة ومسارات صوتية مخدوشة، وكلّها بتسجيلات لقصائد وأغانٍ ألمانية.

لقد تغير فاسكا خلال الصيف. وازدادت على وجهه ندبة أخرى (علامة بيضاء قصيرة تلمع على جبهته الداكنة، بالضبط بين حاجبيه السوداوين، كأنها مرسومة بالطباشير) وانحنت قصبة أنفه المسطح، ربما كُسِرَت في عِراك. أصبح جسمه أقوى وعظامه أوسع، وحركاته أكثر دقة، وتعابير وجهه أكثر شُحّاً؛ كما لو أنه كلّه قد كبر ونضج ولاحت من خلال خفته الصبيانية قوته وصلابته. كان ينتمي إلى أولئك المراهقين الذين يكتسب مظهرهم في وقت مبكر ملامح الكبار، بينما قصر قامتهم يجعل من الصعب تحديد أعمارهم: إنْ نظرَ إليه المرء من الخلف بسهولة يحسبه قاصِراً، في حين إنَّ وجهه المغولي الحازم يمكن أن يُنسَب إلى

شاب. وبجوار فاسكا المليء بالحيوية، بدت آنتشي التي كبرت خلال الصيف، مُربَكةً وعزلاء كسائر الأطفال، على الرغم من أنها صارت الآن أطول قليلاً.

لم يعرف باخ كيفية التعامل مع هذه العودة المفاجئة. ولم يعرف كذلك كيف يتعامل مع هذا الصبي الغريب الأطوار. على ما يبدو، كان فاسكا بسيطاً مثل خطاف صيد مصنوع من الحديد، أو مثل دلو من الماء أو حصاة رمادية من نهر الفولغا: إنْ قُدِّمَ له الطعام أكل، وإنْ لم يُعطَ أخذه بنفسه؛ إذا أوكل إليه عمل يتقاعس، وإذا عاقبته على الكسل ينفِّذ؛ إنْ يشعر بالسوء يصرخ، وإنْ أحسَّ بالراحة يستلقي على الدكة وينام نوماً عميقاً ولا يستيقظ حتى لو ضُرِبَ بمدفع. ولكن كان فيه ثمة شيء، نوع من السجايا الروحية المخفية، والتي اختفى خلفها ما هو غير مرئي ومُصان بحرص عن الآخرين وهو ما بدا فاسكا نفسه خائفاً أو خجلاً منه. إنَّ هذه الإرهاصات بحب الناس التي بالكاد يمكن إدراكها، والتي تلوح أحياناً من خلال العادات الوحشية، هي التي وفَّقت بين باخ والصبي.

وعندما حرَّك فاسكا بعناية شفتيه الجافَّتين وأشار للمرة المئة بإصبعه إلى شيء ما ولفظ اسمه بصوت عالٍ حتى تتمكن آنتشي من تمييز كلّ حرف، كان باخ مستعداً لمعانقته في نوبة من الامتنان. وبعد دقيقة واحدة من ذلك عندما شخر فاسكا نفسه من أجل اللهو واللعب بصوت مثل قبع الخنزير وكشط بطنه بأصابعه الخمس، ورداً عليه شخرت آنتشي وخدشت نفسها، بالكاد استطاع باخ أنْ يمسك نفسه حتى لا يرميهما كليهما خارج المنزل.

وفي المساء عندما يوضع الغراموفون (الحاكي) على الطاولة، وتبدأ الأسطوانات البالية تدور بالترتيب يلصق فاسكا عينيه على الإبرة التي تهتزّ ويستوعب بشغف مقاطع أشعار غوته وشيللر، كان باخ يشعر بالدفء في روحه. ولكن ما إن يحوِّل باخ عينيه إلى آنتشي، التي كانت

تلهو وتستمتع بحركة الضوء فقط على الأقراص الدوارة، حتى تنتابه الرغبة على الفور بأنْ يكسر هذه الأسطوانات كلّها وهذا الغراموفون ويطرد الوقح الذي شعر بعظمة الشعر الألماني حتى من دون أنْ يفهم معناه بعكس ابنته.

وعندما كانت آنتشي تنفجر بالضحك من حركات فاسكا الشيطانية وتنظر إليه بعينين سعيدتين ورطبتين من الضحك يشعر باخ بسعادة غامرة. وفي الصباح عندما تستيقظ وتركض على الفور ليس إلى باخ، بل إلى الدكة بجوار الفرن وتنتظر استيقاظ فاسكا كان باخ يحنّ إلى الأيام السابقة، إلى حياة العزلة التي عاشاها معاً.

***

الصراع، الذي بدأ مع الظهور الأول للصبي في المزرعة، استمرّ بقوة متجدّدة الآن، بعد عودته. الصراع الذي سيدوم لسنوات والذي كانت نتائجه محدّدة سلفاً: الأكبر محكوم عليه أنْ يخسر، والأصغر سيفوز. إنه الصراع من أجل آنتشي.

إلى جانب فاسكا كان كلّ شيء: الشباب والمرح الروحي واللسان الذي ينطق باستمرار بجميع أنواع الهراء؛ وفي نهاية المطاف كانت آنتشي نفسها إلى جانبه. بينما لم يكن ثمة أحد إلى جانب باخ، هو وحده، فقط.

الجزء الأكثر حكمة من روحه اعترف بالفعل بالهزيمة المستقبلية، بل وافق عليها. لكن الجزء الآخر، فهيهات! الجزء الآخر كان يعتزم القتال بشراسة، وإذا لم ينتصر، فسيطيل هذه المعركة قدر الإمكان: وبقدر استمرارها تقاس الآن المدة الباقية من حياة باخ المشتركة مع آنتشي.

الضربة الأولى وجهها فاسكا من دون أنْ يقصد. فقد استيقظ في آنتشي وازدهر فجأةً مع عودته الكثير من الأشياء التي كانت قد خمدت فيها للتوّ ونضجت، وفي غضون بضعة أيام عُرِفَت نواياها بالتأكيد: امتلأت عيناها بالفرح بسبب ظفرها بصديقها الذي طال انتظاره، ولكنهما امتلأتا أيضاً

بوقاحة غير مألوفة وبجسارة وتهور؛ وظهرت على وجهها إلى جانب التعبير عن المتعةِ تعبيراتٌ صغيرة جديدة الحيلة والعبث، والجرأة الصبيانية اللامبالية، وأحياناً حتى التهريج. وأصبحت حركات يديها أوسع وأكثر حدة، واستقامت كتفاها، وفي الوقت نفسه كأنّما امتزجت حركتهما بحركة المفاصل. وحتى رأسها اكتسب وضعية مستقلة أخرى: بين الحين والآخر تنحني إلى الوراء وتنظر حولها بتحدٍّ، كما لو كانت تقوم بمسح العالم المحيط بها ليس من ارتفاع جسم طفل صغير، بل شخص بالغ طويل. كلّا، لم تستنسخ آنتشي بوعي مشية فاسكا وإيماءاته، ولم تحاول تكرار حركاته، بل نما فاسكا فيها بنفسه، بشكل طبيعي ولا رجعة فيه.

وبعد أسبوع من عودته، عندما تذكرت الألعاب بسكين المطبخ، رمت تلك السكين إلى شجرة ووقعت ضربتها بالضبط في منتصف العلامة المرسومة بالطين (على عكس فاسكا نفسه، الذي أخطأ في كثيرٍ من الأحيان). وبعد أسبوعين، بصقت بشكل ممتاز، ليس أقل من معلِّمها في دقة البصق. وبعد ثلاثة أسابيع، لاحظ باخ كيف أنَّ آنتشي، في إحدى المشاجرات الودية، هزمت فاسكا لأول مرة جلست فوقه ولم تسمح لها بالوقوف لمدة طويلة وهي تضحك وتدفع وجهه على الأرض، حتى غضب الولد بجدّ وصرخ بأعلى صوته.

وحتى إنَّ باخ أحبَّ هذا إلى حدٍّ ما: أحبَّ قوتها وبراعتها المفاجئة، وتعطشها لمهارات جديدة واستعدادها الشديد لإتقانها، وسعيها الحثيث نحو الفوز وهو شيء حُرم منه باخ منذ ولادته ولم يستطع أبداً تعليمه لآنتشي بنفسه، كلّ هذه الميزات استيقظت الآن فيها، كما تستيقظ في الربيع بكلّ تأكيد البذرةُ التي أُودِعَت في الأرض. لكن سرعة التحول التي حدثت أثارت الفزع فيه: فكم كانت قوية على آنتشي سلطة هذا الضال القذر ذي العينين الضيّقَتَين والمائلتَين! وكم كان ضئيلاً تأثير باخ نفسه!

كان ينبغي بطريقة أو بأخرى تأخير هذا التغيير السريع وإعاقته. فقرّر

باخ استخدام أداة ساعدته ذات مرة في التعامل مع الصبي الضال، أي استخدام العمل. العمل الشاق إلى حدّ الإرهاق وإلى الألم في الأطراف وانعدام الأفكار في الرأس، هذا هو العلاج الصحيح للعديد من المشاكل. بما في ذلك علاج النموّ السريع.

كان هناك دائماً الكثير من العمل في المزرعة، فبدأ باخ في تكليف الأطفال بمهام كانت قبل هذا تُعَدّ من شأن البالغين: فقد علّمهما قطع الأخشاب، وصيد الطيور في الأُحبولة (الشَّرَك)، وطلي القارب بالقار، وإصلاح السقف المبني من القش، وطلي جذوع أشجار التفاح المتشققة بالجير في بداية العام ولفّها بالخِرَق والقش في نهاية العام. وفكّر: إذا ما كان لسانه الأبكم غير قادر على أنْ يعلّمهما الحياة فدع البستان والغابة يعلّمانهما. دع أزهار التفاح تمنع آنتشي من أنْ تنسى الرقة والحنان، وخشب البلوط والقيقب الذي لا يتزعزع يعلّمها الصلابة الروحية، والقار اللزج الإخلاص، والقش الخفيف البساطة والتواضع، والطين المرونة، وتبدّل الفصول وقوانين الحياة الأخرى.

عمل الأطفال بجدّ. وحتى إنَّ فاسكا، البائس المتململ، عمل بدقة، كما لو أنَّ أشهر الغياب الصيفي قد علمته الطاعة. ومع ذلك، من المستحيل إخفاء الطبع في العمل فهو يتجلّى فيه بكلّ قوته كذلك. وهكذا ظهر طبع فاسكا وشقّ طريقه من خلال جميع المهام بعد أنْ شطب نوايا باخ بالكامل وبالطريقة نفسها التي نفَّذ بها فاسكا دروس العمل، دخل في حياة المزرعة الرتيبة مزيج من الحدة والتهور والجنون الخفيف.

لم يرفض فاسكا أنْ يمسح الأرضية ولكن قبل ذلك كان يرتدي ثياب آنتشي ويستعمل المكنسة بدقة مبالغ فيها، ويقلِّد امرأة غبية. وكان ينظّف خرزة البئر وهو يغني بصوت عالٍ في خليط وحشي من اللغة الروسية واللغة القرغيزية وبعض اللغات الأخرى غير المعروفة لباخ، بعض الأغاني الحزينة التي سمعها في مكان ما (ذُهِلَ باخ عندما سمع في أحد

الألحان المشوّهة بلا رحمة أغنية مفستوفيليس[1] المنفردة من أوبرا «فاوست»)[2]. وضمَّخ الجذوع المثمرة بالجير لكنه لم يكن يأخذ الفرشاة في يده، بل في فمه. جرَّ الخشب من الغابة وهو يسير وظهره إلى الوراء. كان يقطف التفاح، وهو يقف أحياناً على يديه ويصفق بقدميه الحافيتين في الهواء. نفّذ جميع الأعمال بعناية وكما ينبغي، وحتى ليس أبطأ مما بالطريقة المعتادة. لم يكن ثمة ما يشكو منه.

شاهدت آنتشي الصغيرة وكرّرت ما فعله. وسرعان ما لم تعد تكرّر فحسب، بل ابتكرت بهلوانيات مسلية بنفسها، مخفِّفةً العمل باللعب والمزاح. وأدركت فجأة أنه يمكن للمرء النظر إلى العالم وهو واقف على رأسه: وهذا ما يضفي على المكان ظرافة. وأنَّ الأشياء يمكن أن تُستعمَل ليس فقط للغرض المقصود منها: إذ تبدو القباقيب جميلة جدّاً على اليدين وعلى أغصان التفاح؛ وقلنسوة الدانتيل التي يمكن الحصول عليها من أسفل الخزانة ذات الأدراج يمكن أن تُوضَع على اليقطين في الحديقة؛ وقشور سمك الشبوط الملونة يمكن أنْ تزيِّن عتبات النوافذ المملة، والشراشف، إذا لزم الأمر، تحلّ بسهولة محل ثوبٍ أو شبكةِ صيد.

لاحظ باخ بحذر كيف غزت الفوضى نظام الحياة الثابت في المزرعة

1- مفستوفيليس – اسمٌ يُعطى غالباً للشخصية التي تُمثل الشيطان، كما أنه اسم الشيطان في أسطورة فاوست. بعكس الشيطان الذي يُمثل عادةً في المخيلة الغربية في هيئة شبه حيوانية بحوافر وقرون، فإن مفستوفيليس أكثر إنسانية حيث إنه يظهر في هيئة رجلٍ طويلٍ مسربل بالسواد عادة، ويحمل في الصور كتاباً أحمر يوقع فيه الأشخاص الذينَ يبيعوَن أرواَحهم له، ويبدو أنه أوثق علاقة بهيئة الجحيم من الشكل الشبيه بالعنزة. غالباً ما يظهر مفستوفيليس في هيئة راهب فرانشسكاني، وبهذه الهيئة يظهر في نصَّي مارلو 1616 وغوته 1725. (المترجم من ويكيبيديا بتصرف).

2- فاوست – هي مسرحية تراجيدية، من تأليف الكاتب المسرحي الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته. تقع في فصلين. وعلى الرغم من أن المسرحية حققت نجاحاً باهراً إلّا أنها نادراً ما كانت تؤدّى على المسرح، لكنها حصدت أكبر جمهور في المسارح الألمانية. وتعتبر «فاوست» عمل غوته الأكثر شهرة ويضعه الكثيرون ضمن أعظم الأعمال الأدبية في تاريخ الأدب الألماني. (المترجم).

بدا بريئاً ومثيراً للشفقة مثل جرو بأسنان لبنية. غير أنَّ الجراء في العادة تكبر وتغدو شبيهة بالكلاب الغاضبة. ومن يدري، ما إذا كانت الرغبة في رؤية المتعة واللعب في كلّ شيء ستهزأ من آنتشي وتجعل منها مضحكة للآخرين؟

وسرعان ما ظهرت الحاجة الماسة إلى سلاح ضد هذه الفوضى قبل أنْ تملأ المزرعة وقبل أنْ تتشرَّب بها جدران المنزل والمباني وتنبت كالأعشاب الضارة في البستان وحديقة الخضروات. ووجد باخ هذا السلاح: إنها الأشياء القديمة من صناديق تيلدا التي لا قعر لها، الكامنة هناك بلا حراك طوال سنوات عديدة والتي أُتلِفَت تماماً بفعل الزمن والعثة. ما الذي يمكن أن يقف بوجه الاخْتِلال والفوضى بشكل أكثر موثوقية من العمل الدقيق والمُتعِب لإعادة إنشاء قصة بالية؟

أمر الأطفال أن يقوموا بفرز وإصلاح محتويات الصندوقين. وفكّر: إذا ما كان لسانه الأبكم غير قادر على أنْ يعلّمهما الحياة دع الأشياء تعلّمهم. سراويل الجوخ القصيرة حتى الركبة؛ والسترات الصوفية الرجالية والنسائية ذات الأزرار الملونة؛ والكنزات الصوفية المطرزة بالشرائط وذات الياقات المخملية؛ والجوارب المخططة؛ والقلانس القطنية الناعمة؛ والتنانير المتعدّدة الطبقات... كلّ شيء قد أتلفته العثة وغمره الغبار كان لا بدّ من ترقيع كلّ شيء ورفئه بمَهارَة، وغسله وتجفيفه بعناية. لم تكن المهمة لمدة أسبوع أو أسبوعين ربما، يستمرّ الدرس لعدة شهور.

وكم كانت دهشة باخ كبيرة عندما رأى تأثير سلاحه الماكر ليس على آنتشي (التي كانت تهدف إليها كلّ الجهود)، بل على فاسكا.

منظر الصناديق المفتوحة جعله يقف ساكناً؛ وعندما استُخرِجَت الأشياء الصوفية والحريرية نصف البالية واحدة بعد الأخرى من الأعماق المُترِبة إلى النور سحب فاسكا المقعد المنحوت نحوه، ووجهه متجمد وفمه نصف مفتوح، من دون أن ينظر، وجلس إلى جانب الصندوق ولم ينهض حتى وقت متأخر من الليل.

آنتشي، التي شوَّشها الدرس العملي الواسع النطاق، جلست لمدة ساعة أو ساعتين عند خزائن تيلدا، تفرز سقط المتاع، ثم تعبت وبدأت تتذمّر وهزَّت فاسكا من كمّه، مطالِبةً إياه بالحركة أو اللعب. لم يستجب لها. واتَّخذ تعبير وجهه تماماً، وهذا ما لاحظه باخ، التعبير الذي يحدث عنده عندما تسقط إبرة الغراموفون على الأسطوانة: خليط من سوء الفهم والإعجاب والرعب.

أيّ نوابض خفية تلك التي حفزت روح القرغيزي الصغير؟ وأيّ كلاليب وعجلات تلك التي دارت في أعماق القلب المُشَرَّد؟

وعلى كلّ حال، منذ ذلك اليوم أصبح فاسكا أكثر هدوءاً وأكثر انضباطاً. وإذا ما تحول تفريغ محتويات الصناديق بالنسبة إلى آنتشي إلى واجب غير سارّ، فقد كان بالنسبة له متعة يومية، لا تقل عن الساعات التي يقضيها بجانب الغراموفون. في تلك الأيام نفسها، لأول مرة في حياته، طلب فاسكا من باخ شيئاً بالحسنى: وقف أمامه لمدة طويلة وتمتم بتجهّم، وهو يومئ برأسه نحو غرفة تيلدا. أخيراً، أدرك باخ: طلب فاسكا النوم في غرفة تيلدا الصغيرة. فأومأ باخ بالسماح له.

لو عرفَ ما سيحدث بعد ذلك، لما سمح له بذلك أبداً، بل لكان قد دفعه إلى خارج المزرعة.

بدأت آنتشي تهرب مرة أخرى. ولكن الآن برفقة فاسكا. وذات مرة، بعد أن فقدت صبرها من العمل الروتيني والصمت الطويل لصديقها الذي افتُتِنَ بفرز الخِرَق، قفزت وهرعت من الباب بوجهٍ مستاءٍ وشاحب. وعندما لاحظ فاسكا استياءها المكشوف اندفع على أثرها. واختفى كلاهما في الغابة حتى قبل أن يسع الوقت باخ ليرمش بعينه. وعادا عند الغروب مبتسمَينِ وراضيين. ومنذ ذلك الحين جرى مرة أخرى: الهروب، الانتظار، الهروب...

اعتاد باخ أنْ يقضي مدة غيابهما في المجلدة؛ ولكنٍ حتى البرد الجليدي لم يساعده في التغلب على الخوف الجديد من أنّ روح فاسكا

المشردة قد ترغب فجأة في الحرية وتحلّق بعيداً عن المزرعة، وستتبعها روح آنتشي السريعة الثقة بالناس. وعندما كان الهاربان يعودان إلى المنزل مضطربَين ويلهثان من الحركة والفرح يشعر باخ باسترخاء شبيه بالألم وبامتنانٍ لفاسكا غريبٍ وشبيه بالألم كذلك: إما لأنه عاد إلى المنزل وأحضر آنتشي معه أو لأنها لم تكن وحدها في الغابة.

أجل، صار باخ الآن تابعاً لهذا الصبي، لهذا الضال المتشرّد الذي أمسكَ به ذات مرة في شبكة صيد وجرّه إلى المنزل بنفسه وآواه وأطعمه وتركه يقضي فصل الشتاء هنا بنفسه.

أجل، الآن هما الاثنان معاً ضد باخ، الطفلان اللذان وحّدَهُما الشباب وجمعتهما حياة النسك.

بماذا يمكن أنْ يقف ضدهما؟ وأيّ سلاح آخر يستعمل لمواجهتهما؟

بدأ يقودهما إلى الجرف في المساء للاستمتاع بغروب الشمس. وفكّر: ماذا لو لامس جمال الفولغا الأبدي فجأة قلبيهما وفاض عليهما بالسكينة؟ وقد دعا النهر ليكون حليفه ليس لأنه كان يتأمّل ذلك منه، بل بسبب غياب أصدقاء غيره. فردّ عليه النهر: بأنْ سكب الفجر على سطحه الناعم وطرّزَ عليه بالموج زخارف وخزت ببهجتها عينَي باخ الذي كان واقفاً على الجرف. لم يُقاسمه الأطفال الإعجاب فقد شغلتهما أكثر أضواء غنادينتال البعيدة. وعندما لاحظ باخ هذا الاهتمام الخطير، أمسك نفسه وأوقف جولات المساء.

لم يكن ثمة سلاح آخر في ترسانة باخ. بينما كان لدى فاسكا السلاح الأكثر رعباً من بين جميع الوسائل والأكثر غدراً، إنه اللسان.

* * *

بدأت آنتشي تتكلم مباشرة بعد عودة فاسكا بعبارات وجمل كاملة، بسرعةٍ، مختنقةً بالمشاعر. عندما كان فاسكا يستيقظ تتوجه إليه وتحدثه بحماس عن شيء ما، وتسأله، وتطلب منه الإجابة وتكرّر بعده أو تجادله.

وعندما ينام تتوجه إلى سحلية جارية أو إلى طائر يطير أو إلى أشجار التفاح في البستان وإلى العشب تحت الشرفة وإلى الأسماك المجمدة في المجلدة. وغالباً ما تتمتم بالشيء نفسه بطرق مختلفة وتجرب نمط التنغيم والجرس. وبدا لها أنه لم يكن ثمة فرق كبير، عمّا تتكلم ومع مَن، المهم أنْ تحرك لسانها وتصفع بشفتيها، فتولِّد الأصوات (الحروف)، وتربطها في كلمات، والكلمات في جمل. وفي كثير من الأحيان قبل الذهاب إلى الفراش أو عند العزلة خلف المنزل كانت تتحدث إلى نفسها، وحتى هذه التمارين غير المسموعة منحتها البهجة.

ولكنها لم تتحدث مع باخ. هل لأنَّ الصمت الذي يربطهما لم يكن عبئاً ولا عقبة، بل العكس، شكلاً من أشكال الفهم، وإنَّ أيّ كلمة منطوقة تنتهك هذا الارتباط؛ أو لأنها كانت تخشى الإساءة إلى باخ؛ أو لأنها لم تكن متأكدة مما إذا كان سيفهمها.

إنه حقّاً لم يفهمها. كان يتمتع برؤية شفتيها المتحركتين ووجهها الذي يتوهج بالفرح أثناء الكلام. كان مستعدّاً للاستمتاع إلى ما لانهاية بأصوات نطقِها عندما تهمهم واعظةً بشيء ما لعرمة الحطب أو لخرزة البئر (كان يتنصّت وهو مختبئ خلف ركن المنزل أو السقيفة، مثل تلميذ صغير؛ وما يكاد أن يسمع خطوات أحدهم، حتى يهرع مسرعاً إلى المنزل). ولكنه لم يفهم كلمة واحدة.

نشأت لغة غريبة لدى ابنته كما نشأت فيها بالتدريج ملامح الشخص الغريب، فاسكا المتشرد.

ماذا كانت تلك اللغة؟ عندما ظهر الصبي المتشرد الضيق العينين في المزرعة للتوّ، اعتقد باخ أنه يصرخ باللغة الروسية بلعناته التي لا تنتهي. غير أنَّ كلمات فاسكا وعباراته كانت تختلف كثيراً عن بضع مئات من كلمات اللغة الروسية الأدبية التي يعرفها باخ لدرجة أنها على الأرجح تنتمي إلى لهجة غير مألوفة. تَلَقَّمَ، رَغا، دَلَفَ، شَلَّح، لَقَفَ، أَوْهَطَ، اِنْكَتَلَ، تَرَنَّحَ - ما هذه الأفعال الغريبة؟ والأفعال، تناطَحَ، اغْتَاظَ، اهتاجَ؟ تكَيَّسَ،

استعتمَ، استنفَعَ؟... طغمة، جَمْهَرَة، مُفَقَّع، مَحْشَد، طَيَّاش، زحّاف – ما هذه الأسماء السخيفة؟ بيرم (عيد الأضحى) – ما هذا؟ غافريك (البطّال) – من هذا؟ وماذا عن خايدوك (الراعي)؟ دوندوك (الأحمق)؟ بالابولا[1] (الثرثار)؟ منشفي؟ شكورنيك (المهتم بنفسه)؟ بصمجي؟... آيدوكوم (هيّا بنا) – هذه كيف تكون؟ وآلديروم (بالمغرفة)؟... السلوقي – ما هذا؟ وماذا عن اليساري، التروتسكي، اليميني الاشتراكي الثوري؟ الدفاعي، الباي (إقطاعي في آسيا الوسطى)، والعميل؟...

في البداية قاوم باخ هذه اللغة الغريبة. وفي الليل، وهو يتقلّب على سرير أودو غريم العريض، كان يحلم بالوسيلة التي يمكن بها أنْ يطرد الصبي الضال: أنْ يخرجه من الباب، بعد أنْ يحشو حقيبته بالطعام، ولا يفتح ذلك الباب حتى تصمت خطوات فاسكا إلى الأبد في الغابة الكثيفة الأشجار. وفي الصباح، لا يجد ما يكفي من العزم لتنفيذ الخطة...

وعندما أصبح واضحاً أنَّ الصبية ستتمكن من الحديث عمّا قريب، فزع باخ للغاية. وفي الوقت نفسه فرح فرحاً شديداً قلَّما فرح مثله في الحياة. فعبء الذنب الذي كان يحمله معه طوال السنوات الماضية الإحساس بذنب التسبب بعدم قدرة آنتشي على الكلام، بسبب عزلتها اللاإرادية بدأ يخفُّ عنه يوماً بعد يوم.

وبمجرد أنْ تحدَّثَت آنتشي أدرك باخ أنه ليس ثمة طريق عودة. فقد أصبحت لغة آنتشي الأم اللغة المجهولة التي لا يجيدها في المزرعة سوى فاسكا. ولو اختفى غداً لن يكون لديها أحد لتنطق بكلمة معه، ولن يكون لديها مَن تنشأ معه وتتشارك معه أفكارها. إنْ يختفي فاسكا إلى الأبد سوف تتجمد آنتشي في طفولتها، ولن تعود قادرة على النموّ من دون لغة. لذلك، ينبغي على باخ أن يضع عنه سلاحه: ولا يتصارع مع المشاغِب الصغير، بل أنْ يَقبله كحتمية لا مفرّ منها، والأصح كحتمية لا بدّ منها.

1– المفردات التي يستعملها فاسكا – كلمات دارجة ومحلية الاستعمال، وقد عفا عليها الزمن. (المترجم).

وتراجع باخ. كلّا، لم يوافق الجزء المتمرد والفخور من روحه وطالب بنتيجة مختلفة: أنْ يربط الوقح الصغير (في الليل، حتى لا ترى آنتشي، بعد أنْ يسدّ فمه بقطعة قماش وأنْ يلفه كلّه بشبكة الصيد تلك نفسها)، ويرميه في الزورق ويدعه يذهب مع التيار إلى المصب؛ أو أنْ يصفع آنتشي على خديها ويأمرها بالصمت إلى الأبد، وأنْ تنسى الكلمات التي تعلمتها؛ أو أنَّ باخ نفسه ينعزل في المجلدة ويتجمد هناك حتى الموت حتى يبقى الأطفال وحدهما ويدركان خطأهما. طالبته كبرياؤه، وطالبته، وطالبته... لكنَّ باخ أمرها أنْ تصمت.

أنْ يصمت عندما يعود الأطفال من الغابة، ويبدآن بمناقشة شيء، ويضحكان ويتبادلان النظرات بشكل تآمري، وبمجرد أنْ يَرَيا باخ يصمتان ويختصران الحديث.

أنْ يصمت عندما بدأت آنتشي تفلت من تحت يد باخ، وتنزلق من ذراعيه، مُحرَجةً من المظاهر النادرة لمشاعره (كانت تهرع إليه بنفسها في الليل لتستلقي على يديه المنهكتين لمدة وجيزة وتهرب عائدة إلى مكانها كما لو أنها تعتذر عن تعاملها الفاتر معه أثناء النهار).

أنْ يصمت عندما لاحظ باخ أنَّ آنتشي تنسى لغتهما في التنهدات والحركات: أصبحت اللغة اللفظية لها هي الشكل الوحيد للتواصل.

أنْ يصمت.

أنْ يصمت.

حاول باخ نفسه أنْ يتعلم اللغة التي يتحدث بها الأطفال، من أجل فهم القليل أو على الأقل تخمين معنى محادثاتهما. ولكن إما لأنَّ تلك اللغة كانت معقدة للغاية، أو لأنَّ باخ قد شاخ للغاية: كانت الكلمات تفلت من ذاكرته مثلما تفلت حبّات البازلاء من جيبٍ مثقوب.

لقد سلَّم حتى بهذه الهزيمة وهي واحدة من سلسلة من العديد من الهزائم. ولكن هل كانت هذه حقّاً هزيمة؟ ربما هي مجرد مسار طبيعي للأشياء؟

وفي النهاية، فكَّر: دعهما. دعهما يكبران، هذان الطفلان. فليكن كلامهما غريباً، لكن حركات الفكر غير مفهومة. دقائق التقارب معهما قليلة جدّاً، وتلك التي تحدث قصيرة جدّاً. دعهما.

دعهما ينشآن فحسب، مثل أشجار التفاح في البستان، ومثل أشجار البلوط في الغابة. ليتغذيا على ثمار جهوده وهمومه، دعهما يتنفسان ويناما ويأكلان ويضحكان. وسيقوم هو بتربيتهما بأكبر قدر ممكن من العناية والحرص: وبقدر استطاعته سيصيد لهما الأسماك ويجمع الجوز وعصارة أشجار البتولا ويحتفر الجزر والبطاطا. وينقِّع لهما الأعشاب إذا ما مرضا. ويدير لهما الأسطوانات إذا ما شعرا بالملل. ويشعل الموقد في المنزل وينتظرهما إذا ما طالت مدة هروبهما إلى الغابة.

وقد حدث كلّ شيء بالضبط مثلما قرّر له.

-24-

ربما كانت هذه أسعد سنواته.

حملت أشجار التفاح ثماراً كثيرة. ونهر الفولغا كان يتجمَّد ويُقَيِّد الجليد حركته، ثم يستمرّ في التدفق من دون عجل إلى بحر قزوين. وكانت الرياح تهبّ على الأسطح في فصل الشتاء ثقيلة، ممزوجة بكثافة بالثلج وبحبّات الجليد، وفي الربيع مرنة وتتنفس بالرطوبة وبشحنات الكهرباء السماوية، وفي الصيف فاترة وجافة ومخلوطةً بالغبار وببذور الأعشاب البرية الخفيفة.

في مكان ما بعيد تدفقت حياة أخرى. كان ثمة شيء ما يحدث في غناديتنال، وفي بوكروفسك، وفي جميع أنحاء حوض الفولغا، لكن أصداء هذه الحياة لم تصل من هناك إلى المزرعة المنعزلة: وأبحرَ باخ، كما كان يحلم، كالسفينة في وسط المحيط، ولم يعد بحاجة إلى الشواطئ.

وبعد ذلك بوقت طويل، سيعرف باخ عن ماهية السنوات التي جرت من جانبه وسيعطيها أسماءً. في هذه السنوات الأربع، اكتسب العالم خاصية مذهلة ومخيفة، كلّ ما حدث فيها حدث بالتأكيد على نطاق واسع: شمل مساحات شاسعة، وضمّ جماهير واسعة من الناس، وأنتج حقائق وظواهر هائلة. لقد أصبح العالم *كبيراً* حقّاً، كما لو أنه أعاد إلى الوجود فيه العمالقة والمردة وحدهم. ويمكن تسمية جميع السنوات الجارية فيه *السنوات الكبيرة*.

أطلق باخ على العام ألف وتسع مئة وواحد وثلاثين عام *الكذبة*

الكبرى: في ذلك العام، كذب الجميع، العاملون الحزبيون المحليون، والقيادة في مركز الجمهورية، والصحف كذبوا من أجل هدف وحيد هو: إكمال مهمة «استكمال إشاعة المزارع الجماعية المكثفة» في الجمهورية الألمانية؛ وعندما تحقق الهدف المنشود بحلول الصيف، «لوحِظَت في المستوطنات حقائق عن جوع عدد من العائلات»، وقام الفلاحون بانتفاضة وفرّوا إلى مناطق أخرى بالآلاف.

عام ألف وتسع مئة واثنين وثلاثين *عام السد الكبير* جرى تحت تهديد الفيضانات في بوكروفسك والعديد من مستوطنات الضفة اليسرى، بما في ذلك غنادينتال: كاد أنْ يبدأ العمل في بناء سدّ عملاق على مجرى نهر الفولغا باتجاه المصب. لم يبدأ البناء، ومع ذلك، لم تكتمل الفرحة أيضاً: في القرى كانت لا تزال هناك «حقائق عن المجاعة»، وخُفِّضَ المعدل الشهري لتوزيع الحنطة ثلاث مرات في السنة.

بعد ذلك حتماً جاء *عام المجاعة الكبرى* وحصد أرواح أربعين ألفاً من سكان الجمهورية الألمانية (في حوض نهر الفولغا) (ومع ذلك، كان هذا قليلاً جدّاً مقارنة بسبعة ملايين قتيل في جميع أنحاء البلاد). وبعد ذلك حتماً أيضاً بدأ عام *النضال الكبير*، الداعي إلى التغلب على آثار المجاعة ومنع عودتها: لقد ناضلوا من أجل مكافحة الأمية والتشرد وسرقة الخبز، وضد عدم الانتماء إلى الحزب بين صفوف التدريسيين في المعاهد العليا والجامعات، ومن أجل القضاء على تلوث المؤسسات الاقتصادية بالمخربين، وضد النزعة القومية الألمانية، وحتى ضد الفاشية التي ظهرت إلى حيّز الوجود في المستوطنات بعد وصول أدولف هتلر إلى السلطة في الرايخ...

لم يعرف باخ شيئاً من هذا. فقد سارت حياته وحياة أبنائه *الصغيرة* وفقاً لقوانينهم. والوقت تدفق فيها بطريقة مختلفة: بشكل غير ملحوظ، وببطء. وكان باخ يودّ أن يتوقف الزمن تماماً، وهذا فقط ما لم يكن في سلطته.

* * *

لم يعد تغيير فصول السنة يثير القلق في باخ. وهذا لا يعني أنه أصبح غير مبالٍ تجاه التناوب بين الحرارة والبرودة والألوان الزاهية وغيابها وسير الحياة السريع وتباطئها. بل العكس من ذلك: أصبحت روحه التي أضناها الخوف على طفلته الحبيبة خائرة إلى درجة أنَّ العلامات الخارجية درجة الحرارة واللون والسرعة فقدت أيَّ سلطة عليه. وأَضْحى قلب باخ يستجيب لشيء واحد فقط هو آنتشي: التي بحضورها يتعيَّن إنْ كان ما يراه من حوله هو الربيع أو الشتاء.

ما إنْ يجلس في الليل لبضع دقائق وآنتشي بين يديه، حتى يتجلى له بهاء العالم كلّه مرة أخرى، في كلّ مرة من جديد: كان يشعر كيف تنزُّ الأرض المياه العذبة والمالحة، وكيف تغذي الأشجار والأعشاب بالقوة، فتنمو بهناء من خلال الأوراق والأزهار؛ ويشعر كيف يتحوّل أخف زغب على أجنحة الطيور إلى ريش، وكيف تكتسي بطون صغار الحيوانات الرقيقة في الجحور والأجواف بالصوف والشعر؛ وكيف تحتكّ فرحاً قرون الغزلان وهي تزداد طولاً، وكيف تتغطى أجسام الأسماك الصغيرة في نهر الفولغا باللحم والقشور. وعندما تنسلُّ آنتشي من بين يديه وتجري إلى غرفتها تختفي هذه المشاعر وهذه المعرفة كلّها: ينظر باخ من النافذة فيجد أنَّ الثلج يتساقط خلف الزجاج، أو أنَّ الأوراق البنية الأخيرة تحلق في الريح، أو أنَّ مطراً جليديّاً يهطل إلى ما لانهاية.

وبحلول الصباح، ينسى مرة أخرى أيّ فصل من فصول السنة الآن في الفناء فكان عليه أن ينظر من النافذة مرة أخرى لكي يرتدي ملابسه حسب الطقس. كان بإمكانه ألّا يمتلك معطفاً من جلد الغنم وقبّعة فرو تغطي الأذنين لكي يلبسهما في الشتاء، بل يبقى طوال الشهور كلّها يمشي في كنزة واحدة بلا أكمام وقبعة شعر مثلثة، إذ إنَّ جسد باخ، الذي تصلب بسبب تواجده في المجلدة، لم يعد يشعر بألم البرد من مدة طويلة. لكن العادة تغلَّبت.

ومع ذلك، اتضح أنَّ السعادة بدرجة الحرارة خارج النافذة ليست مهمة

للغاية. ويثير الدهشة مدى الفرح الذي تعلم باخ أنْ يستمدّه من الأشياء اليومية التي كانت تبدو مرهقة: طبخ الطعام لآنتشي وترقيع الأحذية وتنظيف المنزل الذي تعيش فيه ورَفـء أغراضها وإشعال الموقد الذي يدفئها وغلي الماء في الغلاية لإرواء عطشها وخَفقِ الوسادة ليلاً (خلسةً حتى لا تغضب آنتشي) كلّ هذا غَدا ممتعاً. وكم من المتعة بدأ يرى الآن في رعاية أشجار التفاح! وكيف يشتغل بسرور في صفوف المغارس، وهو يشتل الجزر ويطمر البطاطا! بهذه البهجة المذهلة كان يراقب آنتشي التي كانت تلتهم هذا التفاح وهذا الجزر والبطاطا، والتوت الذي يقطفه، والسمك الذي يصطاده! وحتى في إطعام فاسكا الصبي الضال، بدأ باخ مع مرور الوقت يجد معنى وفرحاً فكان يسكب حساء السمك أو يقدم العصيدة ليس لصبي قرغيزي، وقح ومشاكس وسيئ الطبع، بل لمعلم آنتشي ومسلّيها وحاميها.

ها هو باخ الآن يتذكر تيلدا المجتهدة، التي لم تتوقف للحظة عن اهتمامها بأهل المزرعة! وها هو الآن قد فهم أخيراً أسباب حماسها الدؤوب! إنه نفسه الآن في المزرعة يؤدي دور تيلدا الصامتة التي عاش الباقون بفضل جهودها. وذات مرة، وقع مئزرها القديم المخطط في يديه أخرجه الأطفال من قعر الصندوق وهما يرتبان الحاجيات وبدأ باخ يرتدي هذا المئزر في المطبخ وفي الحديقة، ولم يكن محرجاً على الإطلاق من تبعيته النسائية.

* * *

كبرت آنتشي بسرعة وباندفاعٍ: ذراعاها ورجلاها مع ذلك نحيفة وتتكون من عظام هشة فقط مغطاةً بجلد شفاف، وفي كلّ عام تطول أكثر فأكثر، مما أعطى الصبية قواماً شبيهاً بساق القصبة. وسرعان ما تجاوزت طول فاسكا القصير القامة العريض المنكبين بمقدار ارتفاع رأس، وأصبح من الواضح أنه لم يكن مُقدَّراً له اللحاق بها. وإضافة إلى هذا كانت حركات آنتشي وتصرفاتها خفيفة وسريعة لدرجة أنَّ جسدها بدا عديم الوزن؛ مما جعل باخ، وهو يراقبها خلسة أثناء العمل في البستان

أو في الفناء، يرتجف في كلِّ مرة عندما تهب نفحات الريح لم يستطع التخلص من فكرة مفادها أنَّ نسمة مفاجئة يمكن أن ترفع الصبية فوق الأرض وتحملها بعيداً. وهي نفسها كانت خفيفة كالهواء، كالرياح، كتحليق أوراق الخريف فوق مياه الفولغا. وعزّز هذا الانطباع شعرها: كانت آنتشي تلفُّ خصلات شعرها الأشقر على شكل عُقَد وبتسريحة الكعكة على الهامة، لكن تبرز باستمرار على جبهتها وصدغيها خصلات ناعمة وتتأرجح كسحابة متحركة حول رأسها.

استطال وجه آنتشي الطفولي المستدير تدريجيّاً، وبرز عظما الوجنتين من خلال امتلاء الخدين الذي كان في السابق، وتحول أنفها إلى شكل مستقيم. رأى باخ أن ملامح البلوغ الصارمة هذه تشبه ملامحه، ويزداد هذا الشبه في كلّ عام. إنه من مدة طويلة لم يحلق لحيته فنمت إلى حدّ العينين، ولكن لم يحتج إلى أنْ يكشف وجهه؛ فبدون ذلك رأى أنَّ تشابههما كليّ: قلّما نجد الابنة تشبه الأب أكثر. لقد بقيت من المرحومة كلارا على وجه آنتشي العينان الزرقاوان فقط.

لكن التعابير التي اكتسبها هذا الوجه العزيز عليه، وحركاته وملامحه كلّها، والحياة كلّها التي تجسدت فيه، كانت غريبة على باخ. فالثغر الصغير ذو الشفتين الأنيقتين يمكن أن يتحول في أيّ لحظة إلى بقباقٍ عريض يكيل اللعنات الفاحشة غير المفهومة لباخ أو يكشّر بابتسامة ساخرة جريئة أو ينقبض باحتقار. والحاجبان الرقيقان، كما لو أنهما مرسومان بقلم الرصاص على جبينها الأبيض يمكن أن يرتفعا بشكل ساخر أو يتلاقيا على جسر الأنف ويدفعا الجلد الرقيق إلى طيات غاضبة. والأنف من حين إلى آخر يقوم بحركات دائرية، تشبه اهتزاز فنطيسة خنزير، ويستنشق بصوت عالٍ بمصاحبة الكلمات التي تطير من الشفتين. والمثير للدهشة، أنَّ وجه فاسكا، الذي تعلمت منه آنتشي هذا التقطيب، أصبح على مرّ السنين أكثر هدوءاً وألطف، وكأنه أعطاها كلّ ما تراكم خلال سني التشرد، وبقي هو بوجهه النظيف والخالي من الأقنعة التي حاز عليها في وقت مضى.

كانت آنتشي تتحدث كثيراً. وقد أحبَّ باخ الذي كان كلام الأطفال بالنسبة له ليس سوى موسيقى، صُدَاح صوتها القوي والرنان، الشبيه بزعيق النورس. وبالمقارنة معها، بدا صوت فاسكا، الذي أصبح أجشَّ قليلاً مع التقدم في السن، أكثر همساً وهدوءاً. غير أنَّ باخ، حتى وإنْ كان لا يفهم معنى محادثات الطفلين، لاحظ كيف أنَّ كلام فاسكا غير السريع طويل ومنمق، وكيف أنَّ كلام آنتشي متقطع: تحدثت الصبية بعبارات قصيرة متقطعة، كانت تبعثرها بعد أنْ تزيّن كلّ واحدة منها بتنغيم ساطع، ولكنها لم تكن قادرة على أنْ تجمعها في استرسالٍ موحَّدٍ، وكأنها تزقزق بصعوبة، ولهذا لم تتعلم الغناء أبداً... وقد نسيت تماماً لغة التنهدات والحركات التي تكوَّنت بينها وبين باخ. لم يلُمها باخ على ذلك. فحريٌّ به أنْ يفرح لاستبدالها خطاب مَن لا لغة لهم بالكلام الحقيقي.

وكان من المفروض أن يبتهج بأشياء أخرى كثيرة: إنَّ جسم آنتشي الرقيق قلّما يتعرض للإصابة بالأمراض؛ وإنها، تبدو هشّة في المظهر، قوية وصبورة في الجري عبر الغابة والسباحة في النهر تغلب فاسكا بسهولة؛ وإنه، على الرغم من أنَّ بعض القلق غير المألوف كان يقرأ في عينيها، ينمو في الربيع ويزدهر في الصيف ويخمد في الشتاء، إلّا أنها كانت لا تزال هنا، لا تزال في المزرعة، بجوار باخ.

وكان فاسكا إلى جانب آنتشي. الحقيقة، لم يقتنص باخ اللحظة التي تحولت فيها النظرات الساخرة القصيرة التي كان فاسكا يلقيها على تلميذته إلى نظرات طويلة وجادة. عندما، لأول مرة، لم تعد آنتّشي تركض خلف فاسكا، وهي تزعق بالكلمات الأولى من دون معرفة وتطلب الحديث أو لعبة، بل هو مَن يركض خلفها. هل حدث هذا عندما بدآ في الهروب إلى الغابة معاً؟ أم بعد ذلك بكثير، عندما بدأت تتكلم بشكل حقيقي؟ في بعض الأحيان بدا لباخ أنَّ الصبي الضال أكبر من آنتشي ليس بعام أو عامين، بل بخمس سنوات كاملة بقدر ما كان وجهه يتنفس بحنان الكبار عندما يحول بصره إلى الصبية.

صحيح، أنَّ هذا الحنان غير المُباح كان ينبغي أن يغضِب باخ ويثير امتعاضه ويجعله متيقظاً. ولكنه لم يفعل: نظر إلى وجه آنتشي ورأى في عينيها الزرقاوين أحلام اليقظة وأسئلة لم تُطرَح وترقُّباً فحسب، ولكن لم يرَ الشعور المتبادل. كانت آنتشي تميل إلى فاسكا ميلاً وثيقاً وبشدة مثلما تميل إلى حيوان أليف في المنزل. كانت بحاجة إليه بوصفه صديقها ومحاورها الوحيد، ولكن ليس أكثر. بقيت لا تشاطر فاسكا اختلاجه مثلما كانت، كذلك، مشاعر باخ نفسه. كلاهما، الرجل العجوز والصبي، أصبحا الآن رفيقان في الحب لآنتشي غير المتبادَل.

كثيراً ما فكّر باخ في اليوم الذي تريد فيه آنتشي مغادرة المزرعة. هل ستغادر خلف فاسكا، الذي ستستيقظ فيه الرغبة في التشرد التي خمدت لسنوات؟ أو باندفاعة شخصية منها وتجرّ خلفها فاسكا الولهان بحبها؟ هل ستمشي عبر الغابة أم تبحر في قارب؟ هل ستكون في ذلك اليوم مراهقة طويلة الساقين أم فتاة بالغة؟

لقد وعد نفسه بعدم عرقلة خيارها (ومع ذلك، فإن مقاومة باخ من المستبعد أنْ تجني نفعاً: فآنتشي تتجاوز العقبات بسهولة). ووعد باحتضان الطفلين عند الوداع، ولن يدعهما يعرفان ألمه، وسيجمع لهما الطعام اللازم للطريق. ووعد... وفجأة أحبَّ الشتاء: لا يمكن للطفلين أنْ يغادرا المزرعة في الصقيع وفي أوان نزول الثلج. وكان يكره الربيع كلّ هذه الجداول وأصوات الطيور التي ترنّ في الغابة والرياح الدافئة ووهج الشمس على المساحات الخضراء النضرة. وفي كلّ صيف، كان ينتظر الخريف بلهفة، لينظر إلى سقوط أول ثلج طال انتظاره ويفكر: كلّا، لم يحن الوقت بعد. ليس في هذا العام أيضاً.

ومع مرور كلّ عام أصبح التريث حتى انتهاء الربيع والصيف أكثر إيلاماً، وتوصّل باخ إلى وسيلة لتخفيف الألم. في الليل، عندما يكون الطفلان نائمَين، وتكون المصاريع مُغلَقَة حتى الصباح، يخرج إلى شرفة المدخل ويغلق الباب الأمامي بقفل. ويجلس على الدرجات الحجرية،

ملتحفاً بالكنزة الصوفية، ويستند بكتفه على حاجز أطراف الدرج، ويطبق على المفتاح في يده ويغفو حتى الفجر. هذه الساعات القصيرة والحلوة، التي يكون الأطفال فيها تحت سيطرته بالكامل لن يتمكنا من مغادرة المنزل، ناهيك عن الهرب، تملأ قلبه بفرحة هادئة ومخجِلَة. كان يعلم أنه يخدع نفسه: فهو ليس لديه سلطة على الأطفال. ولكن، يا ترى، هل ثمة أيُّ سوء في هذا الخداع؟... ومع أشعة الشمس الأولى كان يستيقظ بحذر حتى لا يصرّ المفتاح فيفتح القفل ويشق طريقه إلى غرفته.

وفي كثير من الأحيان، بدلاً من الجلسات الليلية على شرفة المدخل، كان يذهب إلى الشاطئ إلى القارب. ويأخذ معه فأساً. يجلس في القارب من دون أنْ يُنزِله إلى الماء ويبقى رابضاً فيه لساعات. يجلس ويتخيل أنه بضربة واحدة من الفأس يمكن أن يفتح قعر القارب المتهالك، ويقطع على الأطفال طريق الهروب من خلال النهر. كان يعلم أنه لن يفعل ذلك لن يعطب القارب، ولن يتصارع مع الأطفال ولكن كلّ تلك السلطة الوهمية عليهم منحت باخ قوة. وهذا كلّه مهمّ له: لأنّ قوته مع مرور كلّ عام غدت أقل.

* * *

ذات مرة (حدث هذا في بداية الخريف)، قضى باخ، وفقاً للعادة الثابتة، الليلة في الزورق. لم ينَم: جلس ببساطة، وهو يمسد على جوانب القارب التي بردت من رطوبة الصباح ويتأمّل كم كبرت آنتشي خلال الصيف الماضي: لقد بلغت سن العاشرة، ولكن من خلال طولها يمكن أنْ يعتقد المرء أنها تجاوزت سن الثالثة عشرة وعمّا قريب ستهدّد بتجاوز باخ النحيف الضئيل. في هذه اللحظة التي ستحين، عندما تنظر إليه آنتشي من الأعلى إلى الأسفل، خُيِّلَ لباخ معنى خفيّ أو حدٌّ. أليس خلف هذا الحدّ ينتظر الفراق؟ تململ على الضفة، وطرد لمدة طويلة صور وداع الأطفال: الوداع على طرف الغابة، الوداع في المنزل، الوداع على الجرف... ثم تناول الفأس من المقبض الناعم وهوى به على متن القارب

الخشبي الرخو. فتناثرت جُـذاذات الخشب. وضرب مرة أخرى... وعندما تكوَّن ثقب على متن القارب بما يكفي لدسّ اليد فيه، رمى الفأس على الحجارة، وبعد أن شم رائحة سترته على صدره، هوى على القارب. ودفن وجهه في يديه إمّا من الأسف الذي استولى عليه أو من الشعور بالخجل وتجمد في مكانه...

أيقظته صيحة عالية.

– إيه، يا مَن على الشاطئ!

رفع باخ رأسه، ونظر بعينيه، شبه العمياوتين من النوم. كانت الشمس عالية في السماء. ورأى في النهر على بعد عشرة أرشين[1] من الشاطئ قارباً. في القارب يجدّف، صبيٌّ شاب يرتدي قميصاً عسكريّاً بهتَ لونه من دون كتّافيات ويعتمر صدارة من الجوخ.

– مرحباً، يا جدي! ابتسم الشاب بفرح، كأنما يبتسم لصديق حميم (وحتى من الشاطئ، لاحظ باخ أسنانه البيضاء). – هل تقضي الوقت هنا وحدك أم أنَّ هناك مواطنين قريبين؟

تحدث الرجل باللغة الروسية، ولكن، بعد أنْ لاحظ ارتباك باخ، كرّر ما قاله باللغة الألمانية. ولـمّا لـم يلمح على وجه محاوره علامة على الفهم، تحول مرة أخرى إلى اللغة الروسية.

نهض باخ في القارب ولوح بيديه، كما لو كان يطرد سرباً من البعوض عن نفسه: اذهب بعيداً! اغرب!

– لماذا أنت متحفِّظ هكذا! ضحك الشاب، ثم حرَّك المجاديف بالاتجاه المعاكس، وأدار مقدمة القارب، فاستدار باتجاه الشاطئ. – إني لم آتي لأضيف عندك. أنا موظف حكومي أُؤدي مهام حكومية عامة مختلفة!

فهم باخ بعض الكلمات، وحتى إنه أدرك معنى العبارات، لكن الإثارة منعته من التركيز. اقترب القارب الغريب، وصاح الرجل بصوت أعلى

1- أرشين وحدة روسية قديمة لقياس الطول تبلغ ما يقارب 71 سم. (المترجم).

ربما اعتقد أنَّ المحاور يعاني من فقدان السمع. اندفع باخ ذهاباً وإياباً على طول الشاطئ من دون أنْ يعرف كيف يُقنع الزائر غير المتوقع أنْ ينصرف، أو على الأقل يجبره أنْ يسكت. وبعد أنْ أدرك أنَّ الغريب على وشك أنْ يرسو، التقط حجراً وألقى به على المركب المقتَرِب.

- أوه، يا لك من عدواني! أنزلَ الرجل المجاديف في الماء، وأوقفَ حركة القارب إلى الشاطئ. - إننا نكافح الأمية حتى يعيش أحفادك في ظل التنوير والازدهار العقلي. وأنت ترمي الصخرة في وجهي. هذا معيب، يا جدّ!

رفع باخ حجراً آخر أكبر وأثقل من الأول.

- قل لي شيئاً واحداً فقط. لم يستسلم الرجل، وهو يتمايل في القارب ذي المجاذيف المرفوعة من دون أن يقترب، ولكن من دون أن يبتعد أيضاً. - هل تعلمت الكتابة والحساب؟ هل يمكنك أنْ تمسك القلم بيديك؟ وهل تستطيع أنْ تكتب لقبك؟ وهل تستطيع أنْ تجمع العشرات والآحاد؟ أم أنك لا تقدر إلّا على قذف الحجارة؟

وقف باخ مهدّداً برمي الحصى.

- لا تخف، لن أسبّك! ولن أعلمك الأبجدية في هذه الساعة أيضاً! لدينا أناس آخرون للقيام بذلك العمل. الكاتب والداعية هذا كلّ شيء! عملي يقتصر على وضع إشارة في القائمة: هل أنت متعلم أو غير متعلم. هذا كلّ ما في الأمر! لا بأس، اعترف بذلك: هل تعرف القراءة والكتابة؟ أم جاهل؟

صاح الرجل بصوت عالٍ، ربما، سُمِع في المزرعة. لم يعرف باخ كيف يقطع هذا الكلام الصاخب. مدَّ يديه المرتعشتين، ورفع حجراً فوق رأسه: كلمة أخرى وسأرميه!

- لا بأس، اذهب إلى الجحيم! انزعج الداعية. - ابقَ جاهلاً كالدب الذي يمصّ مخالبه! ستتدبر الإنسانية التقدمية بطريقة ما أمورها من دونك!

وأمسك المجاديف وضربها في الماء، واستدار عندما صدح من الجرف صوت ممدود:

- إيه!

كانت آنتشي تجري مسرعةً على الدرب الضيّق نحو الأسفل، رافعةً ذراعيها ولم تكد تلامس الأرض بأقدامها. وخلفها فاسكا، ينزلق على كعبيه على طول المنحدر المتفتِّت وهو يمسك الشجيرات وقد ملأ الجوّ بالغبار.

تجمد باخ من الخوف: ربما، ستتعثر! وربما، ستسقط على المنحدر الحادّ! لكن قدَمَي آنتشي كانتا خفيفتين وماهرتين: بعد أن حملتا جسدها على طول المنحدر، حلَّقتا عبر الحجارة إلى الشاطئ وقفزتا في الماء. وها هي آنتشي الآن تقف إلى ركبتيها في الماء وتتشبَّث بيديها بمتن قارب الرجل الغريب، ووجهها يتوهج دهشةً وفرحاً وشفتاها تارة تضحكان وتارة تصيحان للرجل الغريب بشيء متسرع وانفعالي. يا ترى، بماذا يصرخان؟

وصل فاسكا بعدها وأمسك بالقارب من الجانب الآخر، وتكلم بسرعة بشيء متحمس أيضاً إما يسأل أو يتجادل. بماذا يتكلم؟

وقف باخ على الشاطئ، وهو يضم إلى صدره حجراً ثقيلاً مدركاً أنَّ شيئاً خطيراً ومهمّاً يحدث الآن ولكن من دون أنْ يفهم ما هو.

- اسمع، أيها العنصر الدخيل، - صاح الداعية من جديد، ولكن لم يعد في صوته اللطف والبهجة السابقَان، بل مجرد خليط من فتور وشدة. - لماذا تُخفي الأطفال السوفيتيين عن المدرسة السوفييتية؟ وتختبئ عن المشاركة في العمل التعاوني؟ هل تريد أن تسحبهم معك إلى الظلامية ومستنقع الماضي؟

ضمّ باخ الحجر إليه أقوى. كان الحجر ثابتاً لا يتزعزع لا يريد أن يسقط. وشعر بألم في أصابعه من التوتر.

- ولكن لن يتسنّى لك شيء من هذا القبيل، أيها العدوّ! ليس عبثاً أن

يجوب الدعاة جميع أنحاء البلاد لتحرير أمثال هؤلاء الأطفال من أسر الجهل! وسيُقَدَّم أمثالك إلى القصاص وسينالون جزاءهم العادل!

شعر بألم في صدره أيضاً: فقد ضغط باخ الحجر عليه بشدة لدرجة أنَّ عظم القص والأضلاع كادا أنْ يتصدعا.

ركض الأطفال إليه وقالا له شيئاً بتضرع وصرخا والتفّا حوله وهما ينظران في عينيه بتوسّل. مسّدا عليه، وهما يلمسان بأصابعهما كتفيه ويبتسمان بوجل ويومئان برأسهما لمدة طويلة حتى ابتسم وأومأ برأسه ردّاً عليهما. لم يعد قادراً على فعل أيّ شيء آخر سوى أنْ يبتسم ويومئ برأسه من دون توقّف. ضحكا بسعادة، واحتضناه للحظة وهرعا إلى القارب المنتظر. استمرّ باخ يومئ برأسه. لم يعودا يرونه فقد تسلّقا القارب.

جدّف الداعية مبتعداً عن الشاطئ.

صاح الأطفال لباخ بشيء مُدَوٍّ ولوحا بأيديهما.

أومأ باخ ردّاً عليهما وابتسم.

- آه، يا جد! صاح صوت الداعية. - سآخذهما إلى بوكروفسك، إلى دار الأيتام والمدرسة الداخلية التي تحمل اسم كلارا زيتكِن[1]. ربما لن يقبلوهما بعد. ملجأ الأيتام مكتظّ الآن! إذا لم يُقبَلا، فسوف يعودان إليك غداً. انتظر!

أومأ باخ وابتسم.

يبدو أنَّ الغسق كان يتكاثف عندما أدرك أنَّ القارب مع الأطفال قد اختفى وراء الأفق. وأدرك أنه لا يزال يحمل الحجر على صدره فوضعه بعناية تحت قدميه.

ولكن لسبب ما، لم ينجح باخ في فهم ما يفكِّر فيه هو أو يشعر به. لم

1- كلارا زيتكِن (1857-1933) سياسية ألمانية يسارية ومدافعة عن حقوق المرأة، اشتغلت مدرّسة في الثانويات، شاركت منذ 1875 في أوائل المجموعات النسويّة التي كانت تناضل من أجل الحرّيات العامة. وساهمت في رفع الوعي السياسي والطبقي لدى مئات العاملات الألمانيات. (المترجم).

تكن ثمة أفكار أو مشاعر. كان رأسه فارغاً مثل الدلو. وحتى جسده كان فارغاً أيضاً.

ضرب باخ نفسه على رأسه، على ما يبدو، صدح هناك رنين. ضرب على صدره يبدو أنَّ الرنين صدح مرة أخرى.

ولأنه لم يكن يعرف ما يجب عليه القيام به بعد ذلك مع هذا الفراغ الرنان وإلى أين يحمله، قرّر أن يجلس على جلمود ويبقى قاعداً ينظر فقط إلى جريان نهر الفولغا الأبدي.

فجلس وبدأ ينظر.

-25-

في وسط العاصمة السوفيتية، محاطةً بأشجار الزيزفون العوجاء في بولفارنويي كولتسو (حلقة الشوارع المشجّرة)[1] والشبكة الكثيفة من أزقة موسكو القديمة، ومتواريةً خلف الجدار الممتد بين فتحات سور الكرملين، في أعماق غرف مجلس الشيوخ، كانت ثمة طاولة بليارد. أرجلها الجبارة التي تشبه أفخاذ النساء مصنوعة من بلوط الشرق الأقصى الذي جُلِبَ كاملاً (من دون تقطيع) إلى ورشة بالقرب من موسكو، في عربة قطار شحن مغلقة ومختومة. وجوانبها المرتفعة والإطار من خشب المُران الموردوفي الرنّان. وبِلاطة سطح المنضدة مصنوعة من صخرة أردواز جبلية غير مقطّعة أيضاً، مستخرَجة في مناجم منطقة بحيرة بايكال. والقماش الذي يكسو البلاطة منسوج من صوف أغنام الميرينوس في ستافروبول، ذوات الأرقام القياسية في طول الصوف؛ بعد بضع سنوات، خلال المعرض الزراعي الأول لعموم الاتحاد السوفيتي، ستُمنَح ميدالية لهذا المؤشر بالذات.

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام أربعة وثلاثين عندما كانت

1- بولفارنويي كولتسو (حلقة الشوارع المشجّرة) – هي سلسلة متواصلة من الشوارع المُشَجَّرة والساحات في المنطقة الإدارية المركزية في موسكو، بطول إجمالي يبلغ 9 كم. تشمل 10 شوارع مُشَجَّرة. وعلى عكس الاسم، لا تشكل الحلقة دائرةً مغلقة، وفي الغرب تنتهي عند ساحة بوابة بريتشيستينسكيي، وفي الشرق عند جسر أوستينسكي الكبير. (المترجم).

أصابع أندريه بيتروفيتش تشيمودانوف[1] تستمتع بطولِ وبمتانةِ الألياف الصوفية انزلقت ببطء على القماش وهي تتفحّص توتره وتماسكه. جثا تشيمودانوف على ركبتيه أمام الطاولة، وقف مدة طويلة تارة يمسِّد على القماش، وتارة ينقر بمفاصل أصابعه على الجوانب المصقولة ويستمع إلى الأصوات الخارجة من الخشب الجاف. أصابع تشيمودانوف فريدة من نوعها: إنها تشعر بالنقطة الممسوحة الناشئة في مكان ما في زاوية الطاولة، وعلى الطيّة في جيب البليارد، وأصغر صدع في الإطار وفي المتن. دعْكَ من أصابعه! إنَّ تشيمودانوف نفسه فريد من نوعه، كلّه: من عينيه المشرقتين ببصرهما الحادّ بشكل خارق، المغروستين بعمق تحت حاجبيه الأشعثَين، ومن شاربه القمحي الشهير، الذي يغطي فمه المُطْبَق بإحكام (لا يفهم المرء إنْ كان الرجل يبتسم أم هكذا يجعِّد شفتيه في حالة من الاستياء)، إلى اليدين الأسطوريتين ذواتا الكفّين الكبيرتين واللتين (إذا كان في مزاج رائق وبين شلة حسنة المعشر) تُظهِران المعجزات على القماش بشكل يستحق التصوير السينمائي. تطير كرات البليارد فوق القماش وهي تتلألأ في العيون، أما الجيوب كما لو أنها تمتصّ الكرات، واحدة تلو الأخرى بشكل لا يقدر معه المرء أن يلتفت برأسه. يجتمع الناس لمشاهدة ضربات تشيمودانوف الشهيرة كما يجتمعون للاحتفال بالعيد. طبعاً، ليس الجميع، بل المدعوّون حصراً. باختصار إنه مُعَلِّم حاذق.

والركبتان لدى تشيمودانوف قويتان ومتعودتان، يزحف عليهما كلّ يوم تقريباً عندما يجوب غرف البليارد في الكرملين التي تقع جميعها تحت مسؤوليته. لا بدّ له من زيارة كلّ طاولة مرة واحدة في الشهر، مع إجراء فحص وقائي: شد القماش، حالة الإطار، تناسب الجوانب... يمكنه، بالطبع أنْ يمرّر راحته على سطح الطاولة وهو واقف، ولكن، يا

1- أندريه بيتروفيتش تشيمودانوف (1881-1970) - خبير بليارد روسي وسوفيتي، مدرب البليارد ليوسف ستالين. (الملاحظة من الكاتبة).

ترى، هل يمكن للمرء أن يرى كلّ شيء ويسمعه من الأعلى؟ فالركوع على الركبتين أصحّ وأكثر احتراماً للطاولة. الطبيب البيطري يجلس على مقعد لكي يستمع إلى جنب البقرة. ولكن طاولة البليارد ليست بقرة إنها عمل فني. وآلة أكثر تعقيداً من أيِّ آلة موسيقية. إنها تقنية عالية!

عندما كان تشيمودانوف، الذي لا يزال راكعاً، يدحرج كرات البليارد على الطاولة واحدة بعد الأخرى ويراقب دورانها البطيء، دخل أحدهم إلى الغرفة بهدوء وثقة. أدرك تشيمودانوف من دون أن يدير رأسه: ظهر تلميذٌ. التلميذُ الوحيد، الرئيس. ويمكن للمرء أيضاً أنْ يقول الفريد.

– طيب، ماذا بشأن فيلتنا؟ سأل الطالب بدلاً من التحية.

– لا بأس، ليست عصبيةً. ردَّ عليه تشيمودانوف.

كانا يطلقان اسم الفيلة مزاحاً فيما بينهما على كرات البليارد. ذات مرة، ذكر أندريه بيتروفيتش أنها تُنحَت من أنياب إناث الفيل حصريّاً (كذلك تُصنَع من أنياب ذكور الفيل، ولكن الكرات من الدرجة الثانية، والتي لا تُقتنى، بكلّ تأكيد، في الكرملين)، ومنذ ذلك الحين مشى هذا الاسم عليها.

– بدا لي بالأمس أن الحادية عشرة تُشاكس.

أخرج تشيمودانوف الكرة الحادية عشرة ودحرجها مرة أخرى: طافَ العظم الأبيض السكري على الملعب الزمردي دارت الكرة حول محورها تماماً مثلما تلتفّ راقصة الباليه ليبيشينسكايا، عندما تقدم اثنين وثلاثين دوراناً حول محورها على رجل واحدة على خشبة مسرح البولشوي.

– سآخذها إلى الورشة، وأتحقق منها، وضع تشيمودانوف الكرة في الحقيبة؛ وأخرج كرة احتياطية من الحقيبة اللباد ووضعها على الطاولة.

– نلعب دوراً؟ تناول التلميذ، من دون أنْ ينتظر إجابة، من الجدار عصا بليارد من خشب أشجار الشرد الأرمني.

– يمكن أنْ نلعب دوراً، وافق تشيمودانوف؛ فهو لديه أيضاً عصاه الخاصة في غرفة البليارد هذه.

عادة ما تجري دروسهما في وقت متأخر من المساء مرة واحدة في الأسبوع، بدقة في الوقت المحدّد، بغضّ النظر عن وجود أعضاء المكتب السياسي أو الجنرالات المتميزين الذين ينتظرون في قاعة الاجتماعات، ويجلسون بصبر في غرفة الاستقبال، ساعة بعد أخرى، بظهور مستقيمة دائماً ووجوه رزينة. في البداية، شعر أندريه بيتروفيتش بالحرج بسبب إدراكه بأنَّ تمارينه البطيئة هو وتلميذه («دعنا نكرّر هذا *المقطع الصغير* ثلاثين مرة أخرى! وفي كلّ مرة وجِّه الضربة أرقّ قليلاً!») تتسبب في تأخير اتخاذ قرارات سياسية مهمة. ثم توقف عندما أدرك أنَّ كلّ شيء كان عكس ذلك تماماً: فقد أحبَّ التلميذ البليارد، وكان يخرج بعد الحصة إلى العالم مرتاحاً، وفي حالة معنوية عالية. وهل يمكن أن يكون ثمة شيء أكثر أهمية للبلد من نضارة فكر وروح قائده؟ وإذا ما فكَّرنا بطريقة مدروسة، فإنَّ البليارد ساهم، بلا شك، بطريقة غير مباشرة كثيراً في البناء الاشتراكي، وكان شرطاً أساسيّاً له.

الآن، من الواضح، أنَّ الزعيم لم يكن بحاجة إلى الدرس على الإطلاق، بل بحاجة إلى لعبة حقيقية، وقتالية، من دون إضافات إلى المهارة وتخفيضات منها. ففي بعض الأحيان غالباً بعد منتصف الليل، أو حتى قُبيل الفجر كان الزعيم يشعر فجأة بالحاجة إلى التفكير في شيء معقد بشكل خاص، غير قابل للحلّ في صمتِ مكتب الكرملين. فَيَرِنُّ على الفور في غرفة نوم تشيمودانوف الهاتفُ الجديدُ الذي نُصِبَ خصيصاً لمثل هذه الحالات، وتظهر سيارة سوداء عند المدخل، جاهزة للاندفاع بالمعلم الذي كان يسحب بنطلونه والتوجه بسرعة إلى التلميذ المنتظر ليلعب. لم يعرف تشيمودانوف أين طافت أفكار الزعيم عندما كانت يداه تضرب بالعصا على الكرات. لكنه أحبَّ هذه الزيارات الليلية، بل كان ينتظرها: إذ من الممتع المشاركة بشكل مباشر في حلّ قضايا الدولة. اليوم أسعفته الصدفة السعيدة أنْ يكون هو نفسه إلى جانب الزعيم في الوقت المناسب.

– لعبة تحدّ، أمر على نحو جديّ، وهو يجمع الكرات على القماش في المثلث ويقدّم كرتَين على الجانبين لتحديد تسلسل اللاعبين.

وضربا. كانت يد المعلم أكثر دقة: بعد أنْ وثبت كرته من الجانب الخلفي اجتازت الطاولة طائعةً وتدحرجت عائدة إلى الجانب الأمامي؛ وتسمَّرت هناك كأنما التصقت، من دون أنْ تترك أيَّ فرصة لكرة الخصم ذهبت الخطوة الأولى إلى تشيمودانوف. لا بأس، لِيَبدأ اللعب.

لعبا بجدية، وبتريّثٍ. ومع ذلك، لم يستعجل الزعيم أبداً. ما الحاجة للعجلة بوجود القدرة على كبح الانفعال، والتفكير بعناية في الحركة، واللعب على أعصاب الخصم وكأنَّ خاصية التأني المُتَعَمَّد لديه تكفي لثلاثة وتزيد. مشى حول الطاولة ببطء؛ ووضع يده المتيبسة منذ الطفولة على القماش ببطء؛ ورفع عليها ببطء كذلك أصابعه الملتوية قليلاً، ووضعها على شكل قوس؛ وصوَّب بتأنٍّ وفجأة سدّد إلى الكرة بالعصا، بقوة وبصوت عالٍ، كما لو كان يطلق النار من مسدس. هكذا هو طبعه دائماً.

لم يَرَ تشيمودانوف الزعيم مضطرباً قط بأن أهمل قطعاً جيداً أو وجَّه ضربة فاشلة باستعجال. بل حتى تهوّر حقيقي لم يحدث له ولو مرة واحدة، على الرغم من أنه كان مغرماً باللعبة منذ سبع سنوات بالفعل. وحتى من دون ذلك يا له من لاعب بليارد؟! فاللاعب من الدرجة الثانية تكون لعبته ميتة دائماً: لا جمال فيها ولا رهبة. أما التهور فليس فيه سوى الخطأ بالغطرسة أو العجلة، لذا، فإنَّ اللعب الحيوي هو اللعب الجميل...

الجسارة في البليارد تأتي مع الخبرة. يلعب المرء عشرة أدوار، مئة، ومئتين ويدرك فجأة: هذا هو اللعب! كان تشيمودانوف يحدّد على وجوه اللاعبين بدقة مَن يلعب بتوهّج، ومَن يلعب من دون توهّج، باستخدام التقنية البحتة. أكثر الذين يستلهمون الوحي من

اللعب هم الشعراء (لعبة ماياكوفسكي[1] المتهورة وحدها كم كلفته!) والعسكريون، والغريب في الأمر ليس جنرالات المواقع الخلفية، بل المقاتلون الحقيقيون. على ما يبدو، الدم الساخن يعلن عن نفسه هنا. فمثلاً، بوديني وفوروشلوف أوه، كيف كانا يضربان: بجرأة، وبشدة، يكادان يكسران العصا ويمزقان القماش! سيقول أحدهم: هذه وقاحة وتهور، وتجاسر فارغ من محارب. لكن تشيمودانوف، هيهات، ما كان ليقول هكذا، إنه رأى في هذه الجرأةِ جمالَ ونَفَسَ عبقريةِ البليارد. وكم أراد مساعدة التلميذ ليس لإتقان قواعد اللعبة فحسب، بل *لاقتناص اللعبة* كي يتمكن لمرة واحدة على الأقل ألّا يلكز العصا، بل أنْ يتفنن بحق، لا أنْ يدفع الكرة في الجيب وإنّما يتمثّل بها، *ويقطعها*، *ويضعها*!... ولكن أنْ يعلمه الشجاعة المصطنعة، هيهات، لا يجوز. وأنْ يشرح له بالكلمات أيضاً لا يجوز. كان تشيمودانوف قد حاول بمفرده، فالغباوة تخرج وحدها، مثل سردٍ لأعراض مرضٍ معيّن من كتابٍ مرجعي في الطب: برودة في الأصابع، طفح في الصدر، خواء في الرأس، انعدام الوزن في الجسم... وإذا ما حاول المرء أنْ يصف ذلك بطريقة أخرى؟ العصا هي فرشاة رسم وقوسُ كمانٍ وريشةٌ. والكرات هي الطلاء والأوتـار. قماش طاولة البليارد هو اللوحة. تلويحٌ، وضربة، وإذا بالموسيقى تصدح!... كلّا، يستحيل فعل ذلك بالكلام، ولا بالوصف. يستحيل.

إنَّ عجز تشيمودانوف التربوي –عدم قدرته على أنْ يكشف للتلميذ

1- فلاديمير ماياكوفسكي (1893–1930)، كاتب وشاعر روسي. كرّس ماياكوفسكي كل طاقاته ومواهبه، وعمل في كل الاتجاهات، من أجل ترسيخ مبادئ الثورة الاشتراكية الفتية، فشارك في كل نشاطات الحزب، وألقى القصائد الحماسية في منظمات الشباب والعمال والفلاحين، وضمَّن قصائده شعارات الثورة التي لم يألفها الشعر الروسي من قبل، ودافع عنها بقوة وحزم، مبرراً ذلك بأن الفن يجب أن يكون في خدمة المجتمع والشعب، مستجيباً لمتطلبات المرحلة وقضايا جماهير الكادحين العادلة والمصيرية. مات منتحراً. (المترجم).

عن السر الرئيس لفن البليارد قد أنهكه. وبدا أنه يحجب هذه المعرفة المهمة، ولكن ما عسى المرء أن يفعل...

اليوم، لعبَ الزعيم لعباً ضعيفاً. ماذا جرى! لقد لعبَ لعباً سيئاً، بصراحة تامة، بشكل سيئ جدّاً. شيء ما أعاقه، قيَّد يديه البطيئتين أصلاً، منعه من توجيه الضربات على الأقل بالدقة المعتادة. أما تشيمودانوف، الذي لا ينظر خلال اللعبة القتالية في وجه منافسه، وكان يكتسح الجميع: السفير ومفوض الشعب (الوزير)، وحتى الزعيم نفسه، سرعان ما أصاب الكرة الأولى: واحد – صفر. فتنحنح من الإحباط: كان يلعب لنفسه، لكنه يشجّع تلميذه.

تنحنح الزعيم أيضاً: لم يعجبه أنْ يبتدئ الخصم بتسجيل النقاط أولاً لا في اللعب ولا في السياسة. فالابتداء بتسجيل النقاط يجرّ ما بعده ويؤدي إلى فرض منطقه ووتيرته. إنه واثق من أفضليته ويبثّها للمحيطين به، وهذا أمر خطير: ربما، يفتتن الجمهور بمثل هذا اللاعب.

ضرب تشيمودانوف مرة أخرى من دون أن ينظر إلى الطاولة تقريباً. نقر العصا على الكرة المستهدفة وبعد أن رسمت وميضاً أبيض على القماش الأخضر، ضربت بقية الكرات المكوّمة في وسط الطاولة، وسرعان ما تبعثرت على السطح: واحدة مباشرة في الجيب (اثنان – صفر!)، وتسمرت بضع كرات أخرى في زوايا الطاولة، على بعد نصف إصبع من إطارات الجيوب. كان من الممكن أخذ الكرات المكشوفة بكلّ بساطة المبتدئ الذي يمسك العصا لأول مرة بإمكانه أنْ يصيبها أيضاً. أخذها تشيمودانوف أيضاً ولم يكن سعيداً بهذا الإنجاز، ولكن ما عساه أنْ يفعل؟! فيدا الشيطان هما اللتان تضربان! غرز الكرات في الجيوب واحدة مكان الأخرى: ثلاثة – صفر... أربعة – صفر... لم يعد ينظر إلى الزعيم بعد ذلك وشعر بالزعيم كيف تجهَّم وخيّم الثقل على وجهه.

اختار بالضربة الخامسة كرة صعبة تقف بإحكام عند الجانب، تاركاً بعض الكرات البسيطة في اللعب (التي بإمكان *المنافس* أن *يفعلها* بسهولة

في حال انتقال اللعبة إليه). وبعد أن وضع تشيمودانوف كفّه كالجسر على الجانب ورفع العصا عالياً، فكَّر أنْ يضرب أكثر قليلاً من اللازم حتى ترتد الكرة بضعة مليمترات أبعد من الهدف وعد نفسه لكنه لم يصب الهدف. أغمض عينيه من الخجل أمام نفسه، وضرب العصا بقوة من كلّ قلبه، مثل طالب في السنة الأولى في الكلية العسكرية يستعرض جرأته: تُك! حفيف العظم على الصوف. ضربة مهموسة على شفة الجلد. اهتزَّت الكرة جانباً، والتفَّت على شكل قوس هلالي رقصت بتشنّج وبقيت في الهواء لجزء من اللحظة التي سمحت به الطاقة الموصلة إليها، وهوت في الجيب. خمسة – صفر.

راقب الزعيم بتجهم كيف *يطلق النار عليه* تشيمودانوف. كلّ شيء صحيح: طالما أنّك لم تسجِّل أولاً، إذن، ادفع الثمن. هكذا بالضبط، شعر قبل عام ونصف عندما جاء الاشتراكيون القوميون (الحزب النازي) إلى السلطة في ألمانيا. كان ذلك في بداية عام ثلاثة وثلاثين. الفوهرر الذي ترقى بلا استحقاق، والذي حتى قبل أنْ يُتاح له الوقت ليعتاد على منصب مستشار الرايخ، هاجم على الفور كما بدا، آنذاك بشكل غير مؤذٍ تماماً: اتخذت السفارة الألمانية في موسكو مبادرة بإيصال طرود الطعام من الأقارب في الرايخ إلى الألمان الذين تعرضوا للمجاعة في منطقة حوض الفولغا (كان هتلر يلعب منذ مدة طويلة على موضوع «الأخوّة»: منذ أيام حملته الانتخابية، اتهم الحزب الحاكم بـ«تركِ الإخوة يموتون من الجوع في روسيا البربرية»). في البداية، لم يدرك الزعيم خطورة هذه الخطوة. كانت الأمور تسير على ما يرام في منطقة حوض الفولغا إذ كانت واجهة الاشتراكية التي بُنِيَت بعناية للمجتمع العالمي تتألق بالنجاحات والإنجازات: كانت الجمهورية الألمانية هي الأولى في البلاد التي أكملت الانتقال إلى الكلخزة (التنظيم الجماعي التعاوني) الفعلية؛ وأُنتِجَ فيها أول جرار متسلسل في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (صحيحٌ أنَّ إنتاج جرار «كارليك» (القزم) قد توقَّف لكن هذا لا يمنعه من

دخول التاريخ). كان تأصيل[1] السكان يجري على قدم وساق، فالمناهج المدرسية والكتب باللغة الألمانية وحدها اشتُرِيَت من ألمانيا ذاتها مقابل ثلاث مئة ألف روبل ذهبي! وفي استوديو نيمكينو صُوِّرَ وأُنتِجَ وعُرِض على شاشات العَرض الفيلم الروائي الخاص «عند نقطة التحول»[2] أليست هذه ثمار ثورة ثقافية متحققة؟ وتطورت وازدهرت في الجمهورية الألمانية (جمهورية ألمان الفولغا) حركة الرواد (الطلائع) وجمعية مساندة الدفاع والطيران والبنية الكيميائية واتحاد الملحدين المقاتلين... نعم، اتضح أنّ سنة اثنتين وثلاثين لم تكن السنة الأكثر إنتاجاً للمحاصيل في منطقة الفولغا، ولكن التقارير التي وردت من تلك الأصقاع كانت مطَمْئنة: كانت المجاعة تسمى «حالات فردية»، «مبالغات زائدة»، «أداة لتدمير طبقة الكولاك». ومُنِعَت السفارة الألمانية من الحق في إرسال طرود الطعام إلى الألمان السوفيتيين «بسبب عدم وجود مجاعة في روسيا السوفيتية». فثارت ثائرة الصحافة الألمانية حول هذا الموضوع بعناوين غاضبة ومقالات سامة. وبعد أنْ نظر الزعيم فيما بعد إلى الماضي أدرك: أنَّ حكاية طرود الطعام كانت الضربة الأولى لحملة مخطَّط لها بعناية. وكانت أول كرة للخصم تقع في الجيب.

سرعان ما حدثت (وكان هذا متوقعاً) سلسلة كاملة من الضربات: من دون أنْ يبتعد الخصم عن الطاولة دقّ بالعصا أربع كرات أخرى على التوالي. فقد نُشِر بنسخ كثيرة في برلين كتيب وثائقي بعنوان: «إخوة معوزين!» وأُعلِن عنه في الصحف الألمانية الكبرى، يتحدث عن المصير المأساوي للألمان السوفيتيين (ضربة!). كما افتتح هناك معرض يضمّ

1- التأصيل – هي حملة سياسية وثقافية انتهجتها الحكومة السوفيتية لحلّ القضايا القومية في العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشرين تهدف إلى تخفيف التناقضات بين الحكومة المركزية والسكان الأصليين في الجمهوريات ذات الطابع القومي غير الروسي في الاتحاد السوفيتي. (المترجم).
2- في الأدبيات التاريخية الروسية، يُعرف هذا الفيلم الذي أُنتِج في عام 1927 أكثر بعنوان عمالي هو «بساط ستينكا رازين» (الملاحظة من الكاتبة).

رسائل من الألمان السوفيتيين إلى الأقارب الذين يعيشون في الخارج. كانت زيارة هذا المعرض لسكان برلين تعادل الذهاب إلى السينما لمشاهدة فيلم رعب، بقدر ما كانت تُحبَس الأنفاس عند قراءة تلك الأسطر القصيرة مما فيها من إحساس بالموت الوشيك (ضربة!). أصدرت وكالة وولف برس للأنباء مناشدة مناهضة للاتحاد السوفيتي من «رابطة ألمان الخارج»، تدعو العالم المستنير بأكمله أنْ يساهم في مساعدة الألمان الذين يتضورون جوعاً في الاتحاد السوفييتي (ضربة أخرى!). في بنوك الرايخ افتُتِح حساب خاص بعنوان: «الإخوة المعوزون»؛ كان أدولف هتلر وبول فون هيندنبورغ من بين أوائل من قدم مساهمات، من كلّ واحد منهما ألف مارك (وهذه ضربة أخرى!). وفي متنزّه لوشتغارتن في برلين، كانت الاستعدادات تسير على قدم وساق لعقد تجمّع جماهيري مناهض للاتحاد السوفيتي أُطلِقَ عليه «طريق الألمان إلى الاتحاد السوفييتي، طريق إلى الموت». وبعد التجمع خُطط لمظاهرة وحملة تبرعات.

- الـدورُ لكَ في اللعب، قال تشيمودانوف بهدوء وهو يبتعد عن الطاولة.

لقد ضرب للتوّ عبثاً، محاولاً من دون جدوى أنْ يأخذ قَطعاً صعباً وترك على الطاولة الكرتين اللتين وضِعَتا بمهارة في الزوايا. ذهبت هذه الخطوة إلى الزعيم.

- الدور في اللعب لي، قال موافقاً. - ولكن هذه الكرات المجهزة بالرقم خمسة وسبعة لك. أنت حضَّرتها بنفسك - إذن، استخدمها أنت بنفسك. لست بحاجة إلى ترتيب مساعدة أخوية هنا.

بينما كانا يطرقان بعصيّ البليارد، حلَّ الظلام في الخارج. ذهب تشيمودانوف إلى الباب ونقر على الزر فتوهَّج فوق الطاولة مصباح كهربائي منتشر بعشرة مخاريط مسطحة، وغمر الملعب بالضوء الساطع كما لو وضِعَت حزمة ذهبية في منتصف الغرفة. اختفت جميع الأشياء خارج الحزمة وتحولت إلى سوداء مظلِمة، وأصبحت ظلمة متحدة:

كراسي اللاعبين وأريكة المتفرجين الجلدية ومنفضة السجائر المخصصة للوقوف وواجهة عرض العصي والنافذة والصور الفوتوغرافية المعلقة على الجدران، والجدران نفسها وكلّ ما كان وراءها. لم يبقَ شيء في العالم باستثناء هذا القماش الأخضر والكرات البيضاء عليه وشخصان يدوران بحذر حول ظلَّين باهتين. ولم يعد يُرى بالكامل سوى اللاعب الذي خرج من الظلام وانحنى على الطاولة لكي يضرب. الآن كان هو الزعيم.

لا يزال لا يستطيع التخلص من الذكريات غير السارة عن كيفية بدء الفوهرر الألماني اللعب بمهارة ضده. كلّ هذه الحملة الجامحة لمساعدة «الإخوة الألمان الجائعين»، التي فاحت منها على بعد فيرست رائحة الحالة السياسية، كانت مزيفة كليّاً ومُعَدَّة بفظاظة لدرجة أنها أثارت الدهشة في البداية أكثر مما أثارت الانتباه. وحتى إنَّ الجانب السوفييتي ذُهِل من مثل هذه الكذبة الوقحة والقوية. ثم اجتمع ورفض واحتج رسميّاً. واشتبكت (الصحف السوفيتية) «برافدا»، «إيزفستيا»، «ترود»، «أوغونيوك»، «النجم الأحمر» مع (الصحف الألمانية) «برلينر تجبلات»، «لوكال أنزيغر»، «فولكي شير بيوباختر»، «دويتشه ألجماينه زيتونغ». كانت النتيجة خاسرة، لكن الميزة الواضحة كانت بالفعل إلى جانب الخصم.

تساءل الزعيم، وهو يهزّ العصا قليلاً في الهواء، في نفسه أيّ كرة سيضرب. الأفضل بالنسبة إليه أنْ يطلق الكرة الرئيسة ليس إلى الجيب، بل إلى فنطيسة الزعيم الألماني ذات الشارب والأنف الكبير. واختار أخيراً، فقد وجد قطعاً ليضربه. فدحرج الكرة، ولعب بارتداد. لم يلعب لعباً نظيفاً جدّاً وفق قواعد اللعبة، بل إن لعبه كان ضعيفاً إلى حدّ ما. ولكن الكرة، التي تدحرجت على مضض نحو الجيب، زحفت إليه على كلّ حال، كما لو أنها قد تقلَّبت على خط المحاذاة، ثم سقطت في الشبكة. وسجلت كرة الزعيم الأولى الهدف.

كتم الزعيم ابتسامته. وبعد أن فرك بدقة الملصقَ الجلدي على طرف

العصا بالطباشير، سدَّد إلى هدفه بإتقان ولمدة طويلة. وفي هذه المرة ضربَ بشدة وطَرَقَ. ثم سحب الزعيم العصا بصمت وغاص في الظلام المحيط بالطاولة.

أما الخصم فخرجَ من الظلمة. الأصح، في البداية برزت كفّا يديه: صغيرتان وملتويتان قليلاً، ورقدتا على الجانب الملمَّع وبدأتا تنقران بالأصابع على الخشب. امتدَّ المعصمان الرقيقان في أكمام البدلة الصوفية (من قماش التويد) ذات التفصيل الإنكليزي الباهظ الثمن، والقَلبَات العريضة للغاية. بان من البدلة (في خطّ المحاذاة) قميص فاتح اللون مشدود تحت الياقة بربطة عنق مجعدة منزلقة قليلاً إلى الجانب، وبسبب الشَّد القوي تشكلت طيات صغيرة على عنقه المترهل. الجزء السفلي من الوجه، العريض والقوي، تهدَّل فوق ربطة العنق، والجزء العلوي، كما لو أنه كلّه يتألف من خصلات الشعر الدهني الملتصق بشكل مائل على الجبهة المنحدرة. وبرز بين الجبهة والفك، بالضبط في المنتصف، شارب مربع صغير أسود.

وبعد أنْ فحص الفوهرر الطاولة بعناية أَهْوى فجأة عليها بصدره وقوَّس ذراعيه مثل العنكبوت الضخم، محاولاً أنْ يجد وضعية مناسبة للضربة. وأخيراً، هزَّ شاربه وبعد ذلك بلحظة قصيرة حرَّك العصا على الكرة ورمى بتحدٍّ، من ثلاثة جوانب، لكنه لم يقطع حتى النهاية. وبدأ يتنفس بكثافة وبخيبة أمل ويرمش، وتجهَّم وجهه. وسحبَ من القماش إلى الظلمة بالترتيب يده اليسرى ثم يده اليمنى والعصا التي يمسكها بها ومن ثم جسمه الصغير. وآخر ما اختفى في الظلام رأسه؛ كان الفوهرر يهزّ رأسه بانزعاج ومن جرّاء هذا ارتجفت قليلاً خصلة الشعر المائلة التي تلألأت بسبب مستحضر تلميع الشعر المدهونة به.

كان الزعيم هنا بالفعل، على أهبة الاستعداد. اقتحم دائرة الضوء متناسياً تأنّيه المعتاد. عثرت عيناه على الفور في التناثر العشوائي للكرات على الكرتين اللتين يحتاجهما. إحدى يديه جثمت بثبات على القماش،

بينما وجدت اليد الأخرى على الفور الزاوية المناسبة للضربة. تحسس العصا بطريقة مختلفة إما أخفّ، أو بالعكس، أكثر ثقلاً: وكأنَّ شيئاً حيّاً كان يتدحرج فيها، خاضعاً له فقط، للزعيم وحده. قام الزعيم بتوجيه زوج من الهجمات المستهدفة بطرف العصا ذهاباً وإياباً! وأطلقَ العصا على الكرة: بالضبط بمقدار شعرة فوق خط الوسط. اتضح أنها ضربة جميلة، ضربة قوية: مرّت الكرة فوق القماش كالرصاصة، وقرعت الهدف، وارتدت من الجانب اليمين، ومن الجانب اليسار ضربت كرتين أخريين، ثم تباطأت، وأخيراً تجمدت عند الاقتراب من الجيب دون أنْ تصل إلى أيّ من مسارات باطن اليد.

وزحف الآن وجه الفوهرر إلى حافة الطاولة. وبعد أنْ جلس الفوهرر القرفصاء والتصق بشاربه على الإطار ووضع أنفه الكبير عليه، تحرك ببطء حول المحيط، بحثاً عن أفضل هندسة للضربة. وفي هذه الأثناء تحركت مناخره قليلاً على ما يبدو، كان الفوهرر يتحسس بهما رائحة الخشب المطلي: ترك أنفُه أثراً رطباً على خشب المرّان المنقوش، وسرعان ما ذاب ذلك الأثر تحت أشعة الكهرباء الساخنة. وبعد أنْ عثر الفوهرر على الموضع المطلوب، زحف إلى الطاولة بشكل شبه كامل، وهَدْهَدَ على القماش صدره وبطنه البارز قليلاً من تحت البدلة التويد ووضع مرفقيه عالياً وضرب بكلّ قوته الكرة التي تركها الزعيم قبل دقيقة بتهور في اللعب.

– يا له من سافل! لم يتماسك الزعيم نفسه.

– اللعنة، ما هذا القرف![1] انفجر الفوهرر ردّاً عليه بشتائم غير مفهومة: فالكرة، التي بدت سهلة، ومجانية تقريباً، لم تسقط في الجيب بعد أنْ وجِّهَت لها الضربة غير الماهرة من موقع مناسب، ارتدت من الجانب وذهبت إلى وسط الملعب.

1– وردت هذه العبارة في النص الأصلي باللغة الألمانية: Verflucht! Was für ne Schweinerei (المترجم).

في الحقيقة، لم يكن ثمة أيّ سفالة في استغلال أخطاء الآخرين. فاللعبة هي اللعبة. وقرّر الزعيم أنْ يضرب كرتين، الخامسة والسابعة، اللتين وضِعَتا منذ مدة طويلة عند جيوب الأركان، ولكن اللاعبَين لم يوليا اهتماماً لهما. وبعد أن مسح العصا بلطف، التصق بجوار القماش الصوفي الدافئ، وأخذ نفساً عميقاً، وزفرَ ببطء، وانتظر ثانية ودحرج الكرة، بسرعة وبقوة لدرجة أنه هو نفسه لم يفهم ما إذا كانت يده قد وجَّهت الضربة أم العصا انطلقت بنفسها. إصابة دقيقة! الكرة الثانية خلال المباراة.

الكرة الثالثة تقف خلفها: إنْ لم يصِب الكرة الموضوعة في الزاوية بطريقة شهية سيكون أمراً مُخجِلاً له. أطلق الزعيم الكرة الرابعة بالطول، عبر الطاولة كلّها: طارت الكرة الرئيسة على طول الخط الوحيد الممكن بين الكرات الأخرى، من دون أنْ تضرب كرة واحدة؛ اصطدمت بالكرة التي لُعِبَت (حتى بدا أنّ عدة شرارات زرقاء قد ومضت أثناء التصادم)، وأرسلتها بضربة ثنائية إلى الجيب الأوسط (بعد اصطدامها بالحافة)، ودخلت هي في جيب الزاوية. صفِّين لكلّ ضربة! وكانت النتيجة: خمسة – خمسة.

– أكلتَ الآن، أيها الكلب؟ قال الزعيم بهدوء واثقاً من أنَّ الفوهرر يفهم بدون الترجمة.

كان الفوهرر لا يزال يجلس القرفصاء، وهو يضع أنفه على الطاولة ويحرك عينيه الرماديتين الرطبتين خلف الكرات المتعرجة بحدة. وكان يرافق كلّ ضربة من الخصم بصرخة حزينة، وكأنَّ عصا البليارد لا تضرب على الكرات، بل على رأسه.

وأخيراً عندما انتقل دور اللعب إليه، قفز من الفرح، وهزّ شعر كُشَّته. وبعد أنْ فتح فمه من الإثارة، مسح كفّيه المبلّلتين من العرق بالقماش لمدة طويلة فبقيت خطوط داكنة طويلة على القماش الأخضر؛ وبعد ذلك، عضَّ طرف لسانه من شدّة التركيز، ودهن طرف العصا بالطباشير، ولطَّخ جبهته وذقنه باللون الأبيض. وبسبب الذهول لم يضع قطعة

الطباشير في جيبه، بل في فمه (ولم يلاحظ الخطأ)، وبدأ يدحرجها في أسنانه مثل الكراميل وهو يفكِّر ويقيّم التوزيع في الملعب، وابتلعها من دون أنْ يمضغها وابتسم بفرح: لقد وجد القَطع.

ألقى على الطاولة رجله المحنية العوجاء في الجَورَب الصوفي الطويل (بدا للزعيم أنَّ رائحة القرف تنبعث من نعل الحذاء المربع بشكل واضح) وركبَ على الجانب. مدّد جسده بالجوار على شكل كعكة غريبة. ألصق بطنه وصدره وذقنه على القماش، وهو يخشخش بصوف البدلة ويطرق الأزرار العظمية على الإطار الخشبي. فرجَ بين مرفقيه وزحف بالعصا، مسدِّداً؛ وبدأ يترنَّم همساً بشيء رقيق وعاطفي:

- «صديق، صديق جيد، هذا أجمل ما يمكن أن يكون في العالم...»[1]

الاستعدادات الدقيقة لم تساعد في شيء: فالعصا بدلاً من الضرب انزلقت فحسب على طرفها فوق سطح الكرة وجَّه الفوهرر ضربة فاشلة بشكل مخجل. وبعد أنْ أدركَ ما حدث، انتحبَ بصوت خافت وبلفظ غير واضح، وخدش الطاولة ببراثنه منتزعاً الألياف الخضراء من القماش، وشَمَّرَ عن ساقيه في الهواء. استند الزعيم بطرف العصا على جسد الخصم الملتوي، وأزاحه عن الطاولة. ومن دون أنْ ينتبه إلى النباح القادم من الأسفل، بدأ في تطهير الملعب.

وبضربة ماهرة من الأعلى فصل كرتين كانتا ملتصقتين بعضهما ببعض دخلت واحدة على الفور في الجيب. ولعبَ بدقة الكرة التي في الزاوية البعيدة (آه، ليت تشيمودانوف المعلم الصارم يرى هذه الحركة الرائعة!). ومن ثم في الزاوية القريبة: لعب بشكل مثالي، كما يقال، بعد أنْ فرَّقَ الكرات الباقية على القماش للضربات التالية...

1- Ein Freund, ein guter Freund – das ist das Schönste، was es gibt auf der Welt «صديق، صديق جيد، هذا أجمل ما يمكن أن يكون في العالم...» (باللغة الألمانية) مقطع من الفيلم الناطق بالألمانية «ثلاثة من محطة بنزين» (1930). ألحان فيرنر ريتشارد هيمان، كلمات روبرت غيلبرت. (الملاحظة في النص الأصلي).

هكذا وقف الزعيم بحزم ضد الفوهرر في المجال السياسي أيضاً آنـذاك في عام ثلاثة وثلاثين من أجل الحدّ من «حملة المجاعة» الافترائية. ورداً على الكتيبات الألمانية الكاذبة أعدَّ كتيّبه الشخصي «هل حقّاً الإخوة معوَزون؟ شهادات الألمان السوفييت» (ضربة!). وظهرت على الصفحات الأولى من الجرائد أدلةَ دامغة على عدم وجود مجاعة في الاتحاد السوفييتي: فقد تواردت التقارير من وقت إلى آخر عن التدمير العلني لطرود المواد الغذائية المرسَلَة إلى منطقة حوض الفولغا من الأقارب في الخارج؛ ورسائل كثيرة من الألمان السوفيتيين تحمل مقترحات لأخذ أطفال المجاعات من ألمانيا «من أجل تسمينهم»؛ ومناشدة المزارعين التعاونيين، الذين أعادوا جميع المساعدات المادية المرسلة إليهم، إلى القنصل الألماني في سيبيريا، السيد غروسكوبفو، من أجل نقلها إلى «الألمان الذين يعانون من المجاعة في ألمانيا الفاشيّة» (ضربة! ضربة! ضربة!). قاومت برلين بفتور، وبقيت تحاول اللعب على موضوع «الأخوة»، لكن موسكو قد حولت مسار اللعبة. ففي الخريف من عام أربعة وثلاثين بوشِرَ بتنفيذ تعليمات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي «ضد المساعدات الفاشية»: ازداد نشاط مكافحة النزعة القومية الألمانية والخلايا الفاشية في المستوطنات الألمانية؛ وظهر صراع ثقافي قوي: فقد اعتُمِدت اللغة الروسية في دراسة المواد العامة في المدارس والجامعات في الجمهورية الألمانية (في حوض الفولغا) بدلاً من الألمانية، وأُلغِيَت حملة التأصيل (ضربة! ضربة! ضربة!). وتوقفت القنصليات الألمانية عن تقديم المساعدة المادية الموجهة إلى الألمان السوفيتيين؛ وتعرَّض للاعتقال مَن شوهِدوا في تنظيم «مساعدة هتلر»...

تناهَت من الجانب الخلفي طقطقة مرتجفة، فقد زحفت الأصابع الملتوية فوق القماش، أراد الفوهرر أنْ يدفع خِلسةً كرة من الملعب. لوَّح الزعيم بالعصا، كما يلوّح بالسيف، وضرب بكلّ قوته على الأنف المجعد البارز فوق القماش. فتناثر الدم، وبدأ الفوهرر يصرخ بشدة إلى

درجة كادت المصابيح أنْ تتكسّر وتوارى عن الأنظار تحت الطاولة وهو يدير عقب قدمه المتورّم (أوه، من المؤسف لم يقطعها!).

وقد لعب الزعيم الكرات الثلاث الباقية، أنهى *المباراة ببراعة*، كما سيقول تشيمودانوف لو كان موجوداً. أرسل إحدى الكرات في الجيب بضربة طويلة على طول الجانب. والثانية بضربة قصيرة، بارتداد. والأخيرة جلدها بضربة ثلاثية. ضربة على الجانب الأيمن. آه، الجانب الأيسر... ضربة! وفوز بالجولة.

... كانت غرفة البليارد هادئة. وكانت المصابيح الكهربائية تطقطق من حين إلى آخر. زحف تشيمودانوف ببطء من تحت الطاولة. ركع على ركبتيه وهو يمسك أنفه الدامي بيديه، ونظر حوله: لم يكن ثمة أحد في الغرفة، كان هناك عَصوان متقاطعتان على الطاولة الفارغة المضاءة بإنارة ساطعة. جسر أنفه أوجعه وجعاً لا يطاق، ربما، كُسِرَ الغضروف لكن تشيمودانوف لم يستطع أنْ يحبس ابتسامة سعيدة: اليوم، ولأول مرة منذ سبع سنوات من الدروس المنتظمة، أبدى التلميذ جسارة. لم يعرف تشيمودانوف، لماذا حدث هذا الآن بالذات في الجولة التي بدأت بداية غير موفقة، ولم تبشِّر بأيّ مفاجآت. لقد عرف شيئاً واحداً فقط: ما إنْ يُدرك لاعب البليارد الإلهام، لن يعود بإمكانه العيش بدون شجاعة. ومن هذا اليوم فصاعداً، سيلعب التلميذ لعباً أفضل وأفضل، وحتى إنه أحياناً يندهش من نجاحاته السريعة. ابتداءً من هذا اليوم ستبدأ لعبة مختلفة تماماً.

وابتسم تشيمودانوف السعيد في الظلام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأبناء

-26-

لم يعد الأطفال خلال يومٍ، ولا خلال يومين.

ولم تعد إلى باخ المشاعر أيضاً. كانت لا تزال تعيش في جسده المسن، لكنها عاشت بطريقة غريبة منفصلة عنه، من دون أنْ تتناسب بأيّ حال مع ما يحدث. ولسبب ما، كانت الريح تصفر في أذنيه إلى ما لانهاية في الوقت الذي يكون فيه الطقس هادئاً (ربما، كانت الرياح تعصف في تلك الأماكن التي تواجدت فيها آنتشي؟). وأنفه كان يشمّ روائحَ غريبة ومنفرة: كانت تنبعث من جميع أركان المنزل رائحة التبغ العفن وغبار الفحم. وأصابعه ما إنْ يرفعها إلى وجهه حتى تنبعث منها رائحة حمض الكربوليك، وملابسه تفوح برائحة جسم وسخ (ربما الصابون الكربوني والفحم والعرق تشمّه الآن آنتشي؟). وكلّ ما لامسه لسانه كالتفاح، ظهر يده، أو شفتيه تفوح منه رائحة شيء محروق بشكل لا يُطاق. لقد خذلت باخ حاسة الشم وحاسة السمع وحاسة الذوق، كما خذلته طفلته الحبيبة (نهى نفسه عن استخدام هذه الكلمة «الخذلان»، لكنها كانت بين حين وآخر تظهر في ذهنه). البصر وحده بقي وفياً لصاحبه وأراه العالم من دون تحريف.

في اليوم الأول الذي قضاه من دون الأطفال، جلس على الشاطئ، ينظر إلى سطح الماء الرمادي المغطى قليلاً بالرذاذ، ويستمع إلى صفير الرياح في رأسه. ربما، يمكن للمرء أنْ يجد فائدة في تغيير المشاعر: سقطت قطرات المطر على وجهه وملابسه، لكن جلده لم يشعر بالرطوبة ولم يحسّ بإزعاج ليس خلال النهار، ولا في الليل البارد الذي حلّ محلّه.

وفي اليوم الثاني، لاحظ باخ أن عينيه من حين إلى آخر كانتا تتوقفان على الزورق المشوّه كان ذلك الزورق ممدّداً على الشاطئ، معرِّضاً إلى المطر جانبه الذي حطّمَه الفأس.

وفي اليوم الثالث أحضر باخ الأدوات وبدأ في إصلاح القارب المعطل.

لمدة يومين كان ينشر الخشب ويسد الثقوب ويغطّي بالجلد، ويطلي بالقار ويلصق، ويسد الثقوب بنشارة الخشب ويلصق مرة أخرى، ويجفّف على شعلة نار، بعد أنْ شدَّ بطانية لباد فوق مكان العمل (بحلول ذلك الوقت توقف المطر، لكن السحب المنخفضة كانت لا تزال تتنفس الرطوبة). كان عليه العمل بيقظة: إذ يمكن لأصابعه التي فقدت القابلية على الإحساس أن تقع بطريق الخطأ تحت طرف الفأس أو تكتوي بالقار الذي يغلي. وفي اليوم الخامس، عندما أطلت الشمس الخافتة من السماء الرمادية الباهتة، جلس باخ في الزورق الذي أصلحه وانطلق يبحث عن آنتشي.

انبعثت من القارب ليس رائحة الدخان، بل رائحة الحديد الرطب والصدأ، وفاحت من الأمواج رائحة النحاس الحامض والزاج. وأصبح أنين الرياح في رأسه قويّاً لدرجة أنه أراد أنْ يضغط على أذنيه ويسدّهما. وفي بعض الأحيان من خلال الرياح غير الموجودة كانت تصخب أصوات العالم الحقيقي: صرخات طيور النورس فوق الأمواج، وصرير مسند المجذاف وسرعان ما توقف باخ عن التميز بين الأصوات الوهمية والأصوات الحقيقية. لكنّ هذا الارتباك لم يُخِفه ولم يمنعه من التحرك باتجاه بوكروفسك.

لم يعرف باخ ماذا سيفعل عندما يرى آنتشي. هل سيزمجر آمراً ويدعوها إلى العودة إلى المنزل؟ ويحاول أن يجعلها تتذكر لغة التنهدات والحركات ويأمرها ذهنيّاً: «تعالي معي»؟... وأكثر ما كان يخيفه ألّا يتمكن من كبح جماح نفسه: أنْ يمسكها من يدها ويجرّها إلى القارب. أو يضربها على خدِّها...

ولاح له أمل: ولكن ألا يمكن للسانه الذي خدر ذات مرة أنْ يتحرك بسبب المعاناة التي لا تطاق؟ ألن يقول ببساطة «عودي»؟ لا يهمّ أنْ يكون كلامه ببطء وببلاهة وبلغة لا تعرفها آنتشي. غالباً ما تكون الكلمات أقوى من الأيدي، لذا، ألا يتمكن باخ من إقناع طفلته؟

ترك المجاديف، ونقر بأصابعه على شفتيه. وحاول ألّا يضربهما بقوة شديدة، فقط لتمرين فمه غير المتحرك، ثم فتحه على نطاق أوسع، إلى أقصى حدّ لكنه لم يتمكن سوى أنْ يجأر. أمسك لسانه بأصابعه، وجذبه بعنف بكلّ قوته، كما لو كان يحاول قلعه من حلقه، لم ينفع ولم تخرج من حلقه سوى زمجرة منخفضة وبطيئة، مثل صوت كبش مضطرب. وبعد أنْ يئس، صفع نفسه على وجهه براحة يده المفتوحة: مرة، مرتين... على ما يبدو أن شيئاً دافئاً ولزجاً قد تدفق من شفتيه لم يمسحه.

وصل إلى بوكروفسك عند الظهر. أخفى القارب في أجمة قصب وتوجَّه إلى المدينة على طول ممرات دروب الشاطئ المتشابكة. سار بسرعة ليس لأنه كان يعرف الاتجاه، ولكن لم يكن قادراً على كبح قلقه المتزايد.

كانت المسارات تحت قدميه منتفخة من الأمطار، وصار لون أجرام أشجار الحور الرجراج والقيقب داكناً بفعل الرطوبة، ولكن بدا لباخ أنَّ ثمة رائحة حرق خانقة في الهواء: فقد حُمِلَت من شجيرات الشاطئ رائحة صوف محترق، ومن النهر أوراق بطاطا محترقة. وما إنْ يفتح فمه قليلاً، حتى تنفَذ رائحة الحرق إلى حلقه، وتغطّي حنكه ولسانه بالمرارة. كانت الرياح لا تزال ترنّ في أذنيه، على الرغم من أنَّ أغصان الأشجار وعذوق نبات البردي النامية على طول حافة الماء ظلّت بلا حراك.

لم يكن باخ يعرف كيف يسأل عن الطريق (ومن غير المرجّح أنه أراد ذلك) ولهذا قرّر أنْ يجوب بوكروفسك طولاً وعرضاً: كان ثمة وقت كافٍ حتى المساء، وبدا له أنَّ العثور على المدرسة الداخلية لا يمثل مهمة صعبة.

لم يخرج باخ إلى العالم من مدة خمس أو ست سنوات. لو كان الأمر بيده، لتمنى أنْ يتحول الآن إلى شبح غير مرئي أو إلى فأر لينزلق على الأرض من دون أنْ يلاحظه أحد. فقد استوحش من نظرات الآخرين الموجهة إليه ومن جلبة ازدحام الناس. غير أنه سرعان ما أدرك أنه لم يجذب الانتباه: لم يعد الناس فضوليين، ونظراتهم مركَّزة ومُطرِقة، حركاتهم سريعة وخفيفة. ربما، بدوا هم أنفسهم كالفئران: انطلقوا بسرعة من المداخل والأبواب، محاولين ألّا تلتقي نظراتهم. بالإضافة إلى ذلك، غدوا صامتين كالأسماك: لم يلاحظ باخ أنَّ المارة تبادلوا بضع كلمات، ولا حتى مرة واحدة على الأقل.

بدلاً من الناس، تحدثت الشعارات، كان هناك الكثير منها، على نحو غير معتاد: فقد كانت الحروف الكبيرة المكتوبة بالطلاء على قِطَع القماش تصرخ بشيء ما من كلّ منزل وبوابة أو عمود إنارة، وتلوِّح علامات التعجب وعلامات الاستفهام، وبدت في كلّ مكان ملصقات الدعاية بألوان مختلفة. التفَّت شعارات على أعمدة الكهرباء، ولفتت شعارات أخرى الانتباه بألوانها على أغطية السيارات وعلى مقاعد الحوذيين في العربات العابرة. استطاع باخ بصعوبة كبيرة أن يميّز الحروف الروسية التي لم تعتَد عيناه عليها، ولم يفهم سوى عدد قليل من الكلمات التي قرأها.

«لنقدّم!» دعت بعض الكتابات. «لنعزِّز!»، «لنبنِ!».

«سنضرب!» هدَّدت كتابات أخرى. «سنسحق!»، «سندمر!».

«بمكنسة القاذورات!» ردّدت كتابات ثالثة. «بالقبضة!»، «بالحذاء!».

ذُهِل باخ من كثرة التهديدات وانكمَش تحت إحدى البوّابات، لكن ملصقاً مُثبَّتاً على شجرة أمره: «تقدّم إلى الأمام، أيها الرفيق!» فمشى باخ.

مشى طويلاً في المدينة: شرقاً إلى الضواحي؛ ثم على طول الشارع التالي إلى الغرب؛ ومرة أخرى إلى الشرق. كانت المنازل مكدسة مثل الصخور. وتدفقت من جانبه تيارات من المواطنين الشبيهين بالفئران والأسماك. تصاعدت من خلف الزوايا رائحة القطران المحروق، وكانت

الريح تدوّي وتصفر في أذنيه. وفي بعض الأحيان من خلال الطنين اندلعت ضوضاء أخرى: قعقعة حوافر الجياد وعطسُ محركاتِ السيارات وصرير المكابح وصرير النوابض لم يُولِها باخ أهمية، لأنه كان يركّز على قراءة الواجهات والبوابات: كان يخشى أن يفوت مبنى دار الأيتام. لكنَّ خوفه كان عبثاً.

كان من المستحيل عدم الانتباه إلى وجود قصر مكوّن من طابقين، مشيَّد من الطوب الأحمر الداكن بنوافذ نصف دائرية، إطاراتها مطلية بطلاء أبيض وبمزهريات بيضاء موضوعة في فجوات الحائط، وبأبراج غريبة الشكل على طول حوافّ السقف وبشرفة ذات زخرفات حديدية فوق الباب الأمامي. ليس بسبب المظهر الأنيق للمنزل فحسب، بل وبسبب الوجوه التي تطلّ من النوافذ: كانت وجوه هؤلاء الأطفال تتنفس الطمأنينة والحيوية البهيجة، وكانت مختلفة بشكل لافت للنظر عن الأقنعة الجامدة لسكان البلدة البالغين التي فهمها باخ على الفور، لقد وصل. ومن دون أنْ يكلف نفسه عناء قراءة اللافتة على المدخل («دار مدرسة كلارا زيتكين الداخلية للأطفال»)، جرَّ الباب الثقيل ودخل.

* * *

واختفت رائحة الحرق والضوضاء التي في أذنيه والمرارة التي في فمه لا بدّ أنَّ آنتشي قريبة، في مكان ما هنا.

كانت تفوح هنا رائحة عصيدة الحليب والبياضات المكوية. وقف باخ في الردهة الصغيرة، لا يعرف إلى أين ينبغي له أنْ يتوجَّه. كانت قامته المتجمدة هي النقطة الثابتة الوحيدة في الفضاء كلّ شيء آخر في هذا المنزل كان يتحرك بلا توقف ويتنقَّل. اهتزَّ مصباح كهربائي متدلّ من السقف من خطى الماشين في الطابق الثاني، وتراقصت حوله انعكاسات صفراء رقيقة. الأبواب غير مقفلة بإحكام، مُغلَقَة نصف غلق فحسب، بين الحين والآخر تُفتح، وتصدح بعض الأصوات الرنانة ومقاطع أغاني وكذلك أصوات القاطنين هنا أنفسهم. الأطفال في ملابس متشابهة من

قماش قطني سميك رمادي اللون ورؤوسهم محلوقة حتى الصلَع كلهم (الأولاد والبنات على حدّ سواء) كانوا يركضون بحيوية ذهاباً وإياباً على السلّم الصَّرّار ذي الدرجات الخشبية الممسوحة إلى حدّ التقعّر. كانوا يحملون إلى الطابق العلوي: دلاء فيها ماء ولفافات من الورق ومكنسة مزينة بشرائط ملونة وسلَّماً متحرّكاً وأكواماً من الكتب وسماور صدئ وآلة كاتبة وعجلة سيارة ودبّاً محنَّطاً (أصلع من القِدَم، ولكنه لا يزال مرعباً للغاية). ويُنزِلون: أكواماً من الملابس وبوق ترومبون قديماً ومسند رسم مكسوراً وزِماماً ونيراً مطليّاً ولافتة تقطر بالطلاء الطازج وحضناً من الزهور والسنابل المجففة وذلك الدب المحنّط نفسه، وكانوا يضحكون ويركضون بسرعة ويصدمون بعضهم بعضاً بالجباه ويضحكون من جديد.

لم يكن هناك بالغون.

مشى باخ في هذا المنزل الضاحك، ينظر عبر كلّ باب ويبحث عن آنتشي بعينيه. رأى غرفة نوم فيها صفوف من الأسِرَّة الصغيرة الضيقة المفروشة على نحو مماثِل والتي كان فيها أطفال في سنّ ما قبل المدرسة يصفرون ويغنون الأناشيد. ورأى غرفة طعام بصفوف من أوعية الصفيح المتماثلة على الطاولات والتي كان الأطفال الأكبر سنّاً يعزفون فيها على آلة الهارمونيكا ويستحفظون ألحان مسيرات الطلائع. رأى مكتبة فيها رفوف تنزل من السقف مليئة بالكتب. ورأى غرفة الغسيل التي فيها حوض استحمام ضخم من الحديد الزهر وصهاريج تغلي فيها البياضات. وأخيراً عثر على طفلته في الطابق الثاني، في غرفة الفصل الدراسي الواسع.

كانوا يتمرنون في غرفة الفصل على أداء مسرحية. دُفِعَت الرحلات والكراسي إلى الباب، وفي المساحة الفارغة، أمام السبورة التي ما زالت عليها بقايا أحرف وأرقام نصف ممسوحة، عُرِضَ مشهد مسرحيّ. كانت آنتشي مرتدية ثوباً «من الموضة القديمة» مفصّلاً من الصحف وقلنسوة من الصحف أيضاً، واقفةً إلى جنب سلتين كبيرتين مملوءتين بالتفاح وتمسك بيد صبي نحيفٍ مرتدياً زيّاً من الورق أيضاً. صرخت بشيء

غاضب ودفعت بازدراء فاسكا بعيداً عنها (كان فاسكا يلصق على وجهه لحيةً من ألياف اللحاء ويعتمر قبعة أسطوانية سوداء من الورق المقوى)، أما الكومبارس في المشهد الذين يرتدون ملابس «قديمة الموضة» متنوعة الألوان فقد صفّروا استحساناً وهدّدوا فاسكا بالقبضات.

المشهد لم يَرُق للمخرج، وهو مراهق طويل ونحيف يبلغ من العمر اثني عشر عاماً تقريباً، فقفز بين الكومبارس، وصعَّرَ وجهه المتوحش وهو يبيّن لهم كيف يجب أنْ يكون الصفير والتهديد بالضبط. وأُعيد المشهد مراراً وتكراراً.

جلس باخ على كرسي عند الباب، وجعل ينظر إلى آنتشي من الرَّحلات (المقاعد) الموضوعة بعضها فوق بعض. تحرَّكت آنتشي وابتسمت لشريكها النحيل وللأطفال الآخرين وقدَّمت عبارات وتظاهرت بملامح مخيفة لفاسكا بحماسة صادقة لدرجة أنه كان لا يمكن معها ولا يجوز مقاطعة تدفق الفرح هذا.

كم تغيرت آنتشي في غضون أيام قليلة! لم يسبق لباخ أن رأى من قبل وجهها بمثل هذا الإلهام، وعينيها بمثل هذا البريق. كانت الابتسامة اللاإرادية ترتسم على فمها باستمرار، وكانت آنتشي تلوي شفتيها بجدّ لتصوّر الصرامة اللازمة في المشهد. وقد لبقت لها البدلة الورقية بشكل مدهش وجعلتها تبدو أكبر سنّاً. فاضت عناوين الصحف الكبيرة في كلّ مكان على صدرها وفوق كتفيها وعلى أذيال البدلة وعلى حاشية القلنسوة (لم يستطع باخ أن يميزها من بعيد رأى الكثير من علامات التعجب وعلامات الاستفهام المنتشرة عبر الفستان).

وفجأة، في نوبة من الارتجال، في منتصف عبارات الحوار هوت بقبضة يدها على القبعة الأسطوانية التي على رأس فاسكا فطارت القبعة على الأرض، وانكشف رأسه الأقرع. شهق الكومبارس مبتهجاً بحماس. قبل أنْ يكمل فاسكا المشهد سحب عن آنتشي القلنسوة الورقية انتقاماً منها. كذلك هي حُلق رأسها إلى حدّ الصلع. توهج رأسها الأبيض اللؤلئي

المشوب بزُرقة بلطف من خلال الزغب الذهبي، الذي تمكن من النموّ على صدغيها وعلى جبينها. ضحك فاسكا وآنتشي بدون توقف، وجأر حشد الكومبارس بحماس، فصرخ المخرج صرخة تحسّرٍ على الجميع، وهو يحرك عينيه إلى السقف...

محاولاً عدم إحداث ضوضاء، نهض باخ من كرسيه وخرج. وأغلق الباب بهدوء خلفه. سار في الممرّ وهو يستند إلى الجدران. نزل على الدرج. ضيَّقَ عينيه في ضوء المصباح الكهربائي وتلمَّس طريقه للخروج. وانحدر في الشارع المفعم برائحة الحرق النتنة، جرّ قدميه ببطء خطوات قليلة ودفن وجهه في أقرب زاوية.

وقف لمدة طويلة يفرك خديه على الطوب الخشن ويستمع إلى الريح في رأسه. ربما، كان عليه أن يفعل شيئاً: أن يحرّك ساقيه، أن يصفق بيديه، أن يتحوَّل إلى مكان ما ولسبب ما، أن يغمز، أنْ يتنفّس، أنْ يفكر... وكان آخر شيء أكثر إيلاماً: فقد كانت نتف نزيرة من الأفكار تومض وميضاً عشوائيّاً في ذهنه ثم تخمد، مستبدلةً بعضها ببعض ومن دون أنْ تخضع لإرادة باخ.

... ماذا بقي له الآن؟ أنْ يحب أطفاله فقط. أنْ يحبهم من بعيد. أنْ يحبهم من دون أنْ يراهم. أنْ يحب أطفاله الذين لم يسمعوا صوته أبداً ومن غير المحتمل أنْ يسمعوه. أطفاله الذين يتحدثون لغة أخرى. والذين هم على استعداد لتركه ونسيانه وخذلانه. هؤلاء الأطفال الغريبون والغرباء الذين لسبب ما تخيّل أنهم أبناؤه... مكتبة .. سُر مَن قرأ

والتفاح الموجود في السلال مزيف ومصنوع من الورق المعجن الملون...

... وماذا بقي بعد؟ أنْ يثق أنَّ كلّ شيء كان ليس عبثاً فحسب؟ الحكايات التي كتبها. الأطفال الذين ربّاهم. التفاح الذي زرعه...

... لكن كم تأسفَ على خصلات شعر آنتشي المجعَّدة التي حُلِقَت! هل أُلقيَ بها على الأرضية القذرة والباردة؟ وهل كُنِسَت مختلطةً مع

شعر الأطفال الآخرين بمكنسة خشنة؟ هل كُبَّت في بالوعة إلى القمامة المتعفنة ومياه الصرف الصحي؟...

... مع ذلك، ليس جميلاً أنْ يكون التفاح في المسرحية مزيفاً. هذا غير صحيح...

... وكم وَدَّ لو يبقى هنا إلى الأبد غباراً على الطوب البارد أو طيناً على أحجار الأساس...

... أو أنْ يشتغل بواباً في دار الأيتام؟ أنْ يعمل مقابل الغذاء. ويبيت الليل في غرفة الغسيل على المقعد أو في الفصل على الكراسي المتحركة، إذا لم يكن في البناية مكان للبواب...

... مما يثير السعادة أنَّ فاسكا بجانب آنتشي. سيحميها، ربما، أفضل من باخ. بلا شك، سيحميها أفضل من باخ، الذي لم يعرف أبداً كيف يحمي أيّ شخص...

... ينبغي جلب التفاح الحقيقي للأطفال، دعهم يمثلون المسرحية، ثم يأكلون بوفرة. ليأكل الجميع: ليس آنتشي وفاسكا فقط، بل حتى الصبي النحيف في الزي الورقي والمخرج الطويل الهزيل...

الفكرة السخيفة حول التفاح دارت بشكل دائم في دماغه، وأزاحت بالتدرج الأفكار الأخرى. وهذا أمر مناسب جدّاً: أنْ تكون لدى المرء فكرة غبية واحدة أسهل من أنْ تكون لديه اثنتا عشرة. وخضع لهذه الفكرة، رفع وجهه عن الجدار، ونفض غبار الطوب عن خديه وتوجه إلى الشاطئ لكي يركب الزورق إلى المزرعة ويعود إلى المدرسة الداخلية غداً مع التفاح.

* * *

واستمرت البروفة في غرفة الفصل. للمرة العاشرة اليوم، أداروا المشهد الأخير. وصل صبر الممثلين إلى حدوده، وقد فتَرت همتهم بانتظار جرس الغداء. المخرج وحده احتفظ بنشاطه وحماسه، ولم

يُثِره على الإطلاق أنَّ عصيدة أرز رائعة مطبوخة على نار هادئة بالحليب المخلوط إلى النصف مع الماء قد وصلت إلى غرفة الطعام.

- انتظروا دقيقة! صرخ فاسكا صرخة تراجيدية، مادّاً راحتي يديه المنشورتين إلى بقية الممثلين (كان العرق يتدحرج من تحت لحيته الملصوقة، وذقنه ورقبته تحكّانه بشكل لا يطاق، وكذلك قفاه الذي ضغطته القبعة الأسطوانية المصنوعة من الورق المقوى). - يا ابنتي العزيزة! كم أنا سعيد لاستعادتك! اسمحي لي أن أعتني بك حتى لا تعرفي من الآن وصاعداً الفقر والمتاعب!

- كلّا، يا أبي! تجهَّمت آنتشي بشدة من تحت قلنسوة ورق الجرائد التي نزلت على جبهتها (كان ينبغي، بالطبع، تثبيت غطاء الرأس، ولكن هذه الإيماءة الحرة ستستلزم حتماً جولة ثانية من المشهد). - الآن أنا بذاتي أستطيع الاعتناء بنفسي.

- دعيني على الأقل أن أجد لك زوجاً جديراً! قلَّب فاسكا عينيه المحملقتين وهو ينظر إلى الكومبارس كما لو كان يبحث بالفعل عن صهره المستقبلي بينهم. - سيسعد حاكم المدينة بمصاهرتي. صفق فاسكا نفسه بغرور على بطنه النحيف المنتفخ وابتسم مكشراً عن أسنانه. - إنَّكِ في المقابل، ستحصلين على حياة مريحة حتى نهاية العمر.

- كلّا، يا أبي! قالت آنتشي، وهي تضرب بقدمها على الأرض لمزيد من الإقناع (في العروض السابقة حتى إنها دفعت فاسكا في صدره، ولكن بعد ذلك قرّرت الامتناع عن الروح العدائية على المسرح). - لا أريد منك شيئاً! وسوف أعيش من خلال عملي فقط مع المعلم الحبيب. ومسكت كفّ شريكها الذي يرتدي بدلة من ورق الجرائد بكلّ قوتها، وهزّت يده إلى الأعلى، كما لو كانت تعلن عن الفائز في حلبة الملاكمة (كان الشريك الهزيل في كلِّ مرة يئنّ إما لأنه يصوّر الابتهاج، وإما من الألم فحسب). - هو سوف يعلِّم الأطفال، وأنا سأزرع التفاح!

- إي! زفر فاسكا بصوت عالٍ، كما لو أنَّ أحدهم لكمه بقبضته تحت

بطنه؛ ثم أمسك حنجرته، كما لو كان يخنق نفسه، ووقع على ظهره (لقد أمره المخرج أكثر من مرة أنْ يمسك قلبه وليس رقبته، ولكن اصطناع الأداء المسرحي المكشوف كان يثير اشمئزاز فاسكا، وفي كلّ مرة كان يغرز أصابعه بعناد في حلقه النحيل).

أدّى فاسكا مشهد الموت أفضل من جميع المشاهد الأخرى. كان بإمكانه أن يشخر ويدير عينيه ويتلوّى على الأرض في تشنجات ما قبل الموت لمدة طويلة إلى ما لانهاية، من المؤسف أنه وفقاً لخطة المخرج، حُجِب مقصد الأب البرجوازي بسرعة من خلال الكومبارس الذين أنشدوا أغنية الذروة. على الرغم من أنَّهم لم يصلوا في هذه المرة إلى الأغنية: فقد رنّ جرس الغداء، وهرع الأطفال إلى غرفة الطعام، وهم يرمون أدوات التمثيل.

-27-

بدأ باخ يسافر إلى بوكروفسك مرة واحدة في الأسبوع، في أيام الأحد. وفي واحدة من زياراته الأولى، ملأ بعض الأوراق التي كتب فيها لقب عائلة آنتشي وسنة ولادتها وكذلك اسم والدتها كلارا غريم. وكان يرغب في إعداد وثائق فاسكا أيضاً، ولكن لسبب ما لم تُعطَ له.

عادة، بعدما يصل باخ إلى باب دار الأيتام، يقف عند المدخل متردِّداً وينتظر بفارغ الصبر أنْ ينتبه إلى وجوده أحد سكان الدار الصغار.

– باخ! صاح أحدهم أخيراً، بعد أنْ لاحظ العجوز المنزوي عند المدخل. – آنكا! لقد جاء *أبوكِ*!

أو:

– فولغين[1]! فاسكا! وصل *أبوكَ*!

لم يدرك باخ على الفور أنَّ فولغين هو اللقب الذي اختاره فاسكا لنفسه بنفسه: على الأرجح، لا يمكن في *العالم الكبير* الاستغناء عن الألقاب. كان بإمكانه أنْ يمنح فاسكا لقبه بكلّ سرور، لكنَّ فاسكا قرّر خلاف ذلك. ومع ذلك، فإنَّ اللقب هو آخر شيء يشغل تفكير باخ.

والآن هرع الأطفال – أطفاله – من مكان ما في أعماق المنزل. في كلّ مرة أكثر طولاً وأكثر نضجاً. تألّقت في عيونهما فرحة اللقاء، لكنهما لم يسمحا للعواطف: وفقاً لعادة جديدة غير مألوفة، صافحا يد باخ (فرجف

1– الترجمة الحرفية للقب (فولغين) – ابن الفولغا. (المترجم).

بحنان عندما لامست أصابع آنتشي الدافئة كفّه)، جلسوا هناك، على مقعد عند المدخل.

حدَّث فاسكا باخ بأشياءٍ، وفي بعض الأحيان كان يريه بعض الرسومات أو الكتب المدرسية أو دفاتر على أوراقها خربشات. فكان باخ يومئ برأسه ويستمع إليه مستمتعاً برصانة فاسكا وحكمته المتزايدة. وقد أدركَ كم كان مخطئاً بحقه: وخُدِع بفظاظته واستقلاليته المُتَصَنَّعَتَين ولم ينظر إلى روحه وموهبته. ولكن كان يوجد كلّ شيء في الصبي، الروح المُرْهَفة والقدرات الفائقة في إتقان اللغات والتعطّش للحب... وسرعان ما نَقِيَ خطاب فاسكا من الكلمات الفاحِشة وأصبح شبيهاً بخطاب اللغة الروسية الأدبية، وفجأة بدأ باخ يفهم في هذا الخطاب بعض المفردات. وتبقى في ذاكرته بعد المحادثة ليست جملاً ولا عبارات، بل بعض الفُتات من الأفكار. بضع كلمات مفهومة، وكم هذا كثير! كانت كافية له ليتأمّل بها بعد العودة إلى المزرعة؛ وفي الليل وهو مستلقٍ في البيت الفارغ؛ ثم طوال الأسبوع حتى اللقاء التالي.

آنتشي، لم تتحدث كثيراً. كانت تجلس على المقعد صامتةً، وهي تتراجع قليلاً وتنظر إلى باخ نظرة مُكْفَهِرّةً، أو تلتفت تماماً. لم يلاحظ أحد، باستثناء باخ أنَّ أصابعها في ذلك الوقت كانت تتلمَّس يده وتضغطها بشدة ليس ضغط مصافحة رسمية جافة، كما هي الحال عند اللقاء، بل ضغطاً حقيقيّاً، لمدة طويلة، وبكلّ قوتها. فكان باخ يضغط على أصابع البنت ردّاً على ذلك ولا يجرؤ على النظر إلى آنتشي حتى لا يخيفها. ربما، كانت تتمنى هذه المودة وتخجل منها. فوافق باخ على هذه المودة، وعلى هذه الرقة من دون رؤية...

أحضر للأطفال الجوز والسمك المجفف ودقيق الجزر. والتفاح: أكياساً وحقائب وسلالاً من دون أنْ يقلق على الإطلاق من حقيقة أنَّ الإمدادات في المزرعة يمكن أن تنتهي قريباً. وقد حرم نفسه من الادخار الأبدي، وتوقف عن توفير الطعام لفصل الشتاء. كيف تمكن أن يحفظ

هذا التفاح لنفسه، إذا استطاع أن يُشبع به الأطفال الآن! أخذ آنتشي وفاسكا الهدايا، لكنهما لم يأكلا هناك، على المقعد أبداً: كان ينقلان الطعام كلّه إلى المطبخ، فيُقَسَّم بالتساوي ويوزَّع على جميع الأطفال. كان من المؤسف بعض الشيء أنَّ باخ لم يتمكن من مشاهدة ذلك، إذ لم يجرؤ على النظر إلى نافذة غرفة الطعام، خشيَ أن يُحرِج آنتشي وفاسكا. لقد فهمَ من حمرة خدودهما أنهما لم يتضورا جوعاً. وشعر من البريق في عينيهما: أنهما سعيدَين هنا.

كانت لقاءاتهم قصيرة. فما إنْ يأتي باخ سواءً في الصباح أو بعد الظهر أو عند غروب الشمس، دائماً ما يحدث شيء ما للأطفال، ويتطلب حضورهما الفوري: صنع شخصيات بالحجم الطبيعي، ولافتات للمظاهرات وتدريبات الأوركسترا الضوضائية دروس مهمة في الأدب ومشاهدة فيلم واجتماع حلقة الدعاة الصغار، والاستماع إلى برنامج إذاعي والإعداد لمسيرة للأطفال واجتماع حلقة جمعية الدفاع والطيران والبناء الكيميائي... وها قد تناهى الآن السؤال المُلِحّ:

– فولغين! إلى أين ذهبت؟

– آنتشي! تعالَي إلى هنا بسرعة! من دونك لا يمكن!

فكانا يهرعان بعد أنْ يصافحا باخ على عَجل. فيبقى جالساً على المقعد لمدة قصيرة، يستمع إلى الصراخ والضحك الذي يتناهى إلى سمعه من وراء جميع الأبواب ثم ينهض ويغادر...

* * *

صارت حياته الآن تُقاس بزياراته إلى بوكروفسك: من الأحد إلى الأحد. هل كان ثمة أيّ شيء في هذه الحياة سوى دقائق اللقاء القصيرة مع الأطفال؟ كان البستان الذي يجب الاعتناء به ليُؤتي ثماره للأطفال. وكان هناك نهر الفولغا الذي لم يبخل بالأسماك للأطفال. وكان جسد باخ نفسه الذي شاخ كثيراً خلال المدة الأخيرة والذي اكتسى بتغضنات بنية في بعض الأماكن وتحولت إلى طيات مترهلة، ولكنه لا يزال يتحرك، لا

يزال على قيد الحياة. ولأنَّ باخ يعلم أنَّ ساقيه أو ظهره لو خذلتاه، لن يعود قادراً على زيارة آنتشي وفاسكا، فلهذا بدأ يعتني بجسده عناية أكبر: جعلَ يرتدي ملابس أكثر دفئاً، ويلفّ جسده في الليل بغطاء ريش البط القديم، ولا ينسى أنْ يطعم نفسه جيداً.

الأصوات الدخيلة في الرأس والرائحة الدخيلة في الأنف توقفت عن إزعاج باخ. في بعض الأحيان فقط كانت العاصفة المُتَخَيَّلَة تعوي في رأسه، والحرق ينفث في أنفه لكن باخ عرف الآن طريقة لمقاومة الهوس: جعل يفكر في التفاح. حول كيفية انتقاء أكبر الثمار في المخزن ووضعها في سلة؛ وفي كيفية نقل هذه السلة إلى الأطفال؛ وكيف سيأكل الأطفال هذا التفاح ويرشون العصير ويقضمون اللب بصوت عالٍ فتهدأ الريح في رأسه، وتفسح رائحة الحرق المكان لرائحة التفاح. وسرعان ما فقدت حاستا الشم والسمع لديه حدّتهما، وكذلك حاسّتا البصر واللمس: وأصبح العالم أكثر اكتنازاً إلى حدّ ما، وأكثر شحوباً تقريباً، وأكثر غموضاً بعض الشيء.

في صباح عذَّبت باخ الذكريات الكاذبة: كان يتذكر بوضوح كيف طُرق الباب الليلة الماضية (كان قد أغلق المصاريع في الليل وأطفأ المصباح). إنهم الأطفال قد عادوا. جاؤوا متعبين من الطريق، جائعين ولكن مبتسمين نفضوا قطرات المطر عن ملابسهم وهرعوا إلى الموقد للبحث عن الطعام. كانوا يطقطقون بالقدور والأواني بعنف لدرجة أنَّ أحد الأغطية من المعدن، منحنٍ قليلاً من الحافة سقط على الأرض وتدحرج تحت أقدام باخ... عقل باخ يعرف أنَّ هذا لم يحدث. ولكن الذاكرة تدَّعي أنَّ ذلك حدث. الخلاف بين الذاكرة والعقل لم يدم طويلاً، وبعد بضع دقائق عاد كلّ شيء إلى مكانه. وافقت الذاكرة: الأطفال لم يعودوا. وكلّما مرّ الوقت، أصبحت الذاكرة أكثر خضوعاً، واستسلمت أسرع.

حاجيات الأطفال (السراويل، والقمصان، والفساتين) جمعها باخ وأخذها إلى المدرسة الداخلية، لكن آنتشي وفاسكا رفضا أخذها: لم

يرغبا في ارتداء أيّ شيء سوى الملابس الرسمية (الحكومية)، المتماثلة لدى جميع التلاميذ. فسُرَّ باخ لهذا: وأعاد الأشياء معه يجرّها، ونشرها في المنزل على ظهور الكراسي والأسرة، وفوق الموقد كما لو أن الأطفال استمروا يعيشون في المزرعة.

لم يُملأ الفراغ الذي تشكل في حياته؛ لكن باخ اعتاد على هذا الفراغ، كما يعتاد المرء على كلّ شيء: على فقدان ساق أو ذراع، أو وفاة الوالدين أو الحياة في أرض أجنبية بعيدة. وتحول هذا الفراغ في بعض الأحيان إلى شعور غير مألوف وممتع للغاية: نظر إلى العفن الذي يزحف على خشب (جذوع) المنزل، وللمرة الأولى لم يكن يعاني من الخجل بسببه، ولم يركض على الفور لكشطه بسكين ويدهنه بالملح؛ نظر إلى الأعشاب الطفيلية التي ملأت الحديقة، وإلى الغبار الذي يغطي الأثاث، وإلى الثقوب الموجودة في ملابسه ولم يعانِ من شيء سوى اللامبالاة. لا يجب عليه الآن إزالة الأعشاب والتنظيف والطهي والرتق. لا يجب عليه أن يستيقظ مبكراً ويضجّ ويقلق. لم يعد مديناً بشيء لأحد ولا يجب عليه فعل شيء.

والعالم كذلك غير مدينٍ لباخ. ولم يعد مجبراً أن يمنحه دقائق وساعات وسنوات من السعادة. ولا أن يمنحه الإلهام والعاطفة، ولا نساء يحببنه ولا أطفالاً يحبونه. لم يعد العالم مديناً له بأيّ شيء. حقق باخ والعالم حالة التعادل.

هذا الشعور بالتوازن، غير المعروف لباخ حتى الآن، يمكن أنْ يسمى تسميات مختلفة: اللامبالاة أو ضبط المشاعر، أو برودة الروح المفاجئة، أو الكسل ورباطة جأش الشيخوخة. وكلّ شيء صغير: العفن، والأعشاب الطفيلية، والغبار، كلّ شيء انحسر، وكلّ شيء ذهب، سقط عن كتفيه واختفى في البحر. وبقي الشيء الوحيد الأكثر أهمية فقط الأطفال. وما عليه إلّا الذهاب ليراهم في أيام الأحد ويجلب لهم التفاح ويصافحهم. والوقت المتبقي كلّه يمكنه فيه الاستلقاء تحت الغطاء المُبطّن بريش البط وانتظار اللقاء التالي.

واستلقى يستمع إلى همسات المطر خارج النافذة وحفيف أغصان التفاح في البستان. وفي بعض الأحيان، وهو ينظر إلى المسيل الرمادي الذي يتدفق إلى الأسفل على زجاج النافذة، ويطبق جفنيه ليرمش وبمجرد أن يفتح عينيه وإذا بالليل قد حلّ. وفي أحيان أخرى يكون العكس ما إنْ يغمض عينيه للحظة حتى يتحول السواد خارج النافذة إلى فجر. كان في هذا التقلّب السريع للأيام والليالي بحركة رمش واحدة ثمة سحر خاص: فقد جعل من السهل عليه أنْ يعيش الأسبوع ويعجّل قدوم يوم الأحد المطلوب.

تدهورت المزرعة مع باخ، كذلك ببطء وبلامبالاة. مثل رفيق قديم. مثل أخٍ. مثل انعكاس في المرآة. وكان باخ سعيداً بهذه الرفقة غير المزعِجة. تلاشت حياتهما هو والمزرعة تدريجيّاً، لكن حياة الأطفال توهجت أكثر إشراقاً وقوة. وبذلك صار يبدو له مع كلّ يوم صواب قرار رحيلهما أكثر فأكثر...

* * *

وذات ليلة، استيقظ باخ وهو يشعر بخفة لا تصدق. الفكرة الأولى التي خطرت له أنه قد مات. ولكن كلّا: لقد شعر بذراعيه وساقيه، وكان بإمكانه تحريك أصابعه وسحب طرف أنفه. ومع ذلك، كانت أعضاء جسمه خفيفة بشكل غريب ولا يمكن تصوره كما لو أنها مليئة بالهواء. وامتلأت بالهواء نفسه أحشاء باخ الداخلية وحلقه ورأسه؛ وحتى الشعر بدا وكأنه ارتفع قليلاً فوق الوسادة، وليس له وزن. شيء ما ترك جسدَه، شيءٌ ملموسٌ، وكبيرٌ، تبخر مثل العرق من جبينه وخرج مع التنفس.

هرع إلى المصباح، أضاء الشمعة. وفحص جسده: من أصابع القدمين الملتوية بأظافرها ذات الطبقات المتراصّة إلى أصابع يديه الخشنة ذات الجلد المتجعد. كان الجسد هو نفسه، ولكن شعرَ به بشكل مختلف.

ها هنا، في الرقبة، طوال عمره كان شيء يتمدّد ويضغط، يضغط إلى الأرض، مقوّساً الظهر وداعكاً الرأس على كتفيه. ولكنه الآن لا يوجد.

وفي الأحشاء الداخلية كان هناك دائماً شيء ما يقبع، عميقاً جدّاً، شابكاً بكتلة واحدة الأمعاء والمعدة والكبد مع الطحال. ولكنه الآن غير موجود.

وكانت جميع العضلات والأوردة والمفاصل تقشعرّ، كما لو أنَّ الصقيع اجتاحها. لكن الآن كلّا.

لم يكن ثمة حجر الرحى على الرقبة.

لم تكن ثمة إبرة جليدية في الأمعاء.

لم يكن ثمة صقيع في العضلات.

لقد غادر الخوف باخ.

أدرك ذلك الآن بالذات، في هذا الوقت المتأخر من الليل، وهو ينظر إلى جسده في ضوء الشمعة الخافت. لقد أدرك بوضوح أنه لم يعد يخاف من أبناء قريته ذوي القلوب القاسية أو القرغيزيين الأجلاف. ولا يخاف المجاعة، ولا الحرب، ولا الأشرار المتسكعين. ولا خسارة المرأة الحبيبة، ولا عبثية عمله. ولا حتى ارْتِحال الأطفال. كلّ هذا كان بالفعل في حياته. حدث ذلك ورحل، أصبح رملاً، وانجرف إلى نهر الفولغا.

ولم يعد ثمة خوف.

لأول مرة منذ نصف قرن من الحياة.

نفخ باخ الشمعة وجلس لبعض الوقت في الظلام. كانت الخفة في جسمه غير عادية بشكل مذهل وغير مريح لدرجة أنه فضَّل إعادة جزء صغير على الأقل من الخوف المختفي من أجل أن يمسك الأعضاء والعضلات معاً بطريقة أو بأخرى، ويلصقها مرة أخرى معاً، ويمنح الجسم بعض الوزن على الأقل...

خرج إلى الليل، وفتح جميع المصاريع كلّ الفتح. وجلس على شرفة المدخل، يراقب القمر الخافت المتواري خلف الغيوم. ثم ارتدى ملابس أكثر دفئاً وأغلق الباب وانطلق يتسكع في الضواحي.

رِجلا باخ غير المعتادتين على خفة الجسم حملتاه بسرعة، وكانتا

بين الحين والآخر تسعيان للركض، لكنه خفف من سرعتهما، راغباً في الاستماع إلى الغابة. لم يكن ثمة مطر، فدوَّت أصوات الليل بوضوح: صرَّت الجذوع الرطبة، وطبطبت تحت خطوات القبقاب البِرَك والأوراق الثقيلة من جراء الرطوبة، وأحياناً كانت تتساقط على البِرَك القطرات العالقة على الفروع محدِثَةً بقبقة عالية. وتهادى من بعيد صوت حزين لطائرٍ؟ أو لحيوان؟ كان من غير الممكن تحديد المسار في الظلام، ولكن إما أنَّ الجسم وجد المسار الصحيح بنفسه، أو أنَّ الغابة انشقَّت، لم يسقط باخ مرة واحدة ولم يتعثر أو حتى يُخدش.

وبعد أنْ أدرك أنَّ ساقيه حملتاه إلى الجرف، نزل إلى النهر. جلس قليلاً قرب القارب ممسِّداً على جوانبه الزلقة من الرطوبة، وسحبه إلى الماء وأبحر إلى غنادينتال.

ربما تغيرت غنادينتال على مرّ هذه السنين، وربما لا. اعتاد باخ بالتدريج على خفة الحركة اللطيفة، وسار في الشوارع. ولكن لم تُثِر الأحاسيس في روحه لا البيوت المألوفة، ولا الساحة الرئيسة، حيث كانت أشباح الدردار المحترقة تحوم، ولا مجلس القرية، الذي كان هوفمان يتحرك فيه طوال الليل.

اجتاز باخ غنادينتال وخرج إلى السهوب. مشى في الوادي الجاف إلى جدول الجنود. على طول شاطئ عرق السوس إلى وادي الثيران الثلاثة. وعبر حفرة العلّيق ووهدة البعوض إلى تل المطاحن وبحيرة القَسّ وقبر الشيطان الذي يقبع في مكان قريب. وواصل سيره.

سار في السهب، وكانت سيقان الغلال البرية تمسّد ركبتيه وساقيه. لم تتعب ساقاه من حمل جسده، وكان ظهره مستقيماً، ومشيته خفيفة ورأسه مرفوعاً. الليل لم ينتهِ بعد، والسماء الملبَّدة بالغيوم هبطت إلى الأسفل كثيراً واعدةً بعاصفة رعدية.

في مكان ما أمامه، تحركت الأرض نحوه. وفي تلك اللحظة بالذات أدرك باخ أنَّ الأرض لم تتدفق وإنما قطيع من الذئاب. فقد شمّ رائحتها قبل

أن يراها بعينيه، العشرات والعشرات من العيون، ربما الصفراء، أو ربما بدون لون. أحاطت به العيون وتدفقت من خلاله. تدفقت أظهُر الذئاب على طول فخذيه، روَّحَت ذيول الذئاب على راحتيه. سحابة أنفاس الذئاب الجائعة والساخنة دخلت في باخ وخرجت منه. ثم تدفق القطيع على السهوب بعيداً. ومرة أخرى بقي بمفرده في السهب من دون خوف.

رفع باخ وجهه إلى الأعلى. كانت قبة السماء فوقه تمتلئ بحمل أرجواني، والهواء مشبع بالشحنات الكهربائية حتى إنَّ إغماض الرموش بدا وكأنه يسبب شرارات زرقاء. حفَّت الغيوم المنتفخة وتصدَّعَت وفرقعت مدويَّةً. برقت غيمة فجأة باللون الأبيض ولهثت بحماس وهي تنخفض وسقطت على باخ كعملاق بارد من ماء. فجلدت التدفقات جسده، وشعرت قدماه بارتعاش الأرض مع كلّ صفعة رعد جديدة. ازداد توهج البرق الأصفر والأزرق والأرجواني الداكن أكثر، واقترب أكثر حتى وصل على بعد باع منه.

ولكن لم يكن ثمة خوف أو إيحاء في قلب باخ، نظر إلى احتدام قوى الطبيعة بلامبالاة، ومن دون أيّ خوف.

لم يكن ثمة خوف.

استدار باخ عن العاصفة الرعدية وعاد إلى المنزل.

-28-

بعد تلك الليلة حاول باخ طويلاً العثور على الخوف. ذهب إلى حظيرة المزرعة التعاونية إلى زرائب الثيران الهائجة وأعلفها الملح بيديه. وذهب إلى مستشفى بوكروفسك إلى ردهة التيفوئيد ومسح على جباه المحتضرين التي تتلظى من الحمّى. وصعد إلى برج جرس كنيسة غنادينتال، وانحنى بعيداً عن النافذة، وتفحص الأرض من منظور عين الطائر. ولم يكن ثمة خوف. يبدو أنَّ الخوف قد غادر باخ إلى الأبد.

ومع ذلك، فإنَّ غياب الخوف لم يكن يعني الشجاعة على الإطلاق: لم يُستبدَل بالشجاعة، بل بالسكينة. صارت النظرة الخالية من التعبير ترى أكثر من ذي قبل، كما لو أُزيحَ السِّتار عن جميع الأشياء والأشخاص والآن فقط، وللمرة الأولى، رأى باخ العالم على أرض الواقع. تلاشى شغب الألوان وثراء الظلال بقي الأسود والأبيض فقط، الشيء الرئيس فقط، الجوهر فقط. إنه لم يَرَ هذا المظهر الجديد فحسب، بل أدركه.

نظر باخ بتمعّنٍ إلى المارة في شوارع بوكروفسك وأدرك أنَّ صمتهم الذي يشبه صمت الأسماك وحركتهم التي تشبه حركة الفئران لم يكونا ناتجين عن التحمّس للعمل ولا عن الاجتهاد أو عن القلق، بل عن الخوف، كانوا جميعاً خائفين من شيء ما، وكانوا جميعهم يهربون من شيء ما.

انتشر هذان الطبعان، طبع الأسماك وطبع الفئران، بسرعة في جميع

أنحاء المنطقة ينتقلان من شخص إلى آخر، مثلما ينتقل المرض المعدي أو الشائعة الدنيئة. ووصل الوباء حتى إلى غنادينتال. زارها باخ هناك بضع مرات ولاحظ مدى تغير أهل قريته.

عَبسَت وجوه بعضهم وأصبحت أكثر بروزاً، وامتدَّت أفواههم وشُدَّت تحت أنوفهم، ونتأت أنوفهم إلى الأمام واكتسبت عادة الشم بلا انقطاع. وصَغُرَت عيونهم وغدت نظراتها عابرة، وكبرت آذانهم؛ وعلى ما يبدو، أَضْحت أجسادهم أضأل، وقصُرَت أيديهم وقُبِضَت إلى صدورهم. آل غراس الدؤوبون، وآل لانغ الشحيحون وآل فينديرس المتَّقون المتدينون وعائلة بريخت الكثيرة الأطفال، من ربّ العائلة ذي الشعر الشائب وحتى أصغر النسل، هؤلاء الناس الفئران جميعهم بدوا الآن وكأنهم مرتبطون بقرابة الدمِ، وأصبحوا متشابهين لدرجة يصعب معها أحياناً التمييز بينهم. انسَلَّ الجميع بسرعة لا تُدركها العين العادية من بوابة خارجية إلى أخرى ومن باب إلى باب من دون أن يرفعوا أعينهم ومن دون أنْ يمكثوا أطول من ثانية.

ووجوه البعض الآخر من سكان غنادينتال، سَمُنَت الخدود فيها وتجمدت مثل الأقنعة؛ والعيون استدارت وجحُظَت إلى درجة القبح؛ والأفواه انكمشت إلى طيات رقيقة غير واضحة تقريباً وزوايا متدلية الشفاه لم تفتح أبداً، وقد تكون لدى البعض قد كبرت والتأمت بالجلد. والحدقات الكبيرة بالكاد كانت تتحرك في مقل العيون، وأصبحت حركتها بطيئة وغير مبالية. آل مان والرسام أنطون فروم والحداد بينتس والأرملة العظمية كوخ ورئيس المزرعة الجماعية ديتريخ وحتى إمّي البطيخة الحمراء نفسها الذين كانوا في وقت ما لا يعرفون التذمّر، هؤلاء الناس الأسماك صاروا يطفون بحذر على طول شوارع غنادينتال، وبالكاد يحركون رؤوسهم إشارة إلى التحية.

ماذا كانوا يخشون؟ ما القلق الذي حول الناس إلى أسماك وفئران؟ لم يسعَ باخ للعثور على إجابة كان يعرف أنه لم يتأثر بهذا الوباء فحسب: لقد

سار عبر مخاوف الآخرين بسكينة، وكأنه مرَّ من خلال مخاضة صغيرة من دون أنْ يتبلّل.

لم يتأثر بوباء الخوف الأطفال أيضاً ليس آنتشي وفاسكا فقط، بل جميع سكان دار الأيتام: السمراء الشاحبة ماملاكات ذات المبسم الأبيض السكري؛ وكلاوس ذو العينين الزرقاوين؛ وليننس ذو الحاجبين الكثيفين؛ ومانيا النمشاء ذات الغمازات على الخدين؛ وبيتونيا المشاكس؛ وأسخات النحيف؛ وأنغيلسينا الضئيلة ذات العينين السوداوين الضيّقتين الشبيهتين بشريطين من الكحل.[1]

لم يخشَ الأطفال أيَّ شيء. وقد عرف باخ في نظراتهم الساذجة ووجوههم المكشوفة الجرأة نفسها التي لاحظها في عينَي آنتشي منذ ولادتها. كانت أصوات الأطفال مليئة بالثقة والإصرار، وابتساماتهم مليئة بالحب والأمل. وكانت حركاتهم طليقة ومبهجة، وحملوا هذه البهجة وهذه الحرية معهم إلى شوارع بوكروفسك، إلى المساحات الضيقة لنوادي العمال المحلية والمسارح وقاعات القراءة. لم تُخِف الأطفالَ سحناتُ الفئران والأسماك الكبار، ربما، حتى لم يلاحظهم الأطفال: لقد

1- ماملاكات ناخانغوفا (1924-2003) - مؤسِّسَة حركة طلائع ستاخانوف، وهي الأولى من بين الطلائع الذين حصلوا على أعلى جائزة دولة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية - وسام لينين. انتشرت صور ماملاكات البالغة من العمر أحد عشر عاماً إلى جانب يوسف ستالين في جميع أنحاء البلاد. وإنغليسينا تشيشكوفا (1928-2004) اشتهرت على نطاق واسع في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية بفضل الصورة التي يحملها فيها ستالين وهي في السادسة من عمرها بين ذراعيه. وبعد سنة ونصف من ذلك، ألقي القبض على والد إنغيلسينا، عضو اللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ومفوض الشعب (وزير) للزراعة في الجمهورية البورياتية المنغولية الاشتراكية السوفيتية ذات الحكم الذاتي، بتهمة أنشطة مضادة للثورة والتجسس؛ وقد أُعدِمَ فيما بعد رمياً بالرصاص. وألقي القبض على أمها أيضاً وسُجنت؛ وبعد ذلك نُفِيَت مع إنغلسينا إلى مدينة تركستان في مقاطعة جنوب كازاخستان. (الملاحظة من الكاتبة).

مرّوا من خلال خوف الآخرين وكأنهم مرَّوا من خلال مخاضة صغيرة من دون أنْ يتبلّلوا.

قُسِّمَ العالم إلى قسمين: عالم الكبار الخائفين وعالم الأطفال الجريئين موجودان جنباً إلى جنب ولم يتقاطعا.

* * *

لسبب غير مفهوم، قُسِّم الوقت كذلك. بدا أنه يتدفق، كما كان من قبل، من الفجر إلى الغسق، ومن النهار إلى الليل. ولكن حدث فيه نوع من التحطيم، نوع من الخلل الغريب، الذي إما لاحظه الجميع أو لاحظه باخ وحده: لم ينتهِ الخريف. بل الأصح، لم ينتهِ مطلقاً شهره الأخير نوفمبر لكي يفسح المجال للشتاء ليحلّ محلّه.

كان نهر الفولغا يعاني، ولم يكن يعرف كيف يمسك بالجليد. حفَّت الأمواج برمل الشواطئ وبأحجارها ودحرجت كِسَر الجليد بدلاً من الرغوة. وتلألأت البلورات في المياه الخضراء الشفافة، تارةً تَبْيَضُّ وتلتحم على شكل صفائح ثم تذوب وتتحلّل مرة أخرى. طفت ثفالة الجليد في تدفق لا ينتهي على سطح النهر مثلما طافت فوقه السحب في السماء. تساقط الماء من السحب. وفي الطريق إلى الأسفل، تمكنت القطرات من التجمد وتحولت إلى ثلج، ثم استحالت مرة أخرى إلى رطوبة، وسقطت على الأرض مطراً: ثلجيّاً يخدش الوجه. وضربت الرياح بتيارات متدفقة الأشجارَ والصخورَ، والسهبَ والمنازل، وهي تهبّ بلا كلل من الشمال فقط، لا من غيره من الجهات لأيام أو أسابيع أو شهور.

تدفقت الرطوبة الموجودة في كلّ مكان (متجمدةً على شكل صقيع ومتحولةً مرة أخرى إلى ماء) على النوافذ والمصاريع والأعمدة والبوابات وعلى جدران حقول الدواجن وحظائر الخنازير وعلى طول الألواح الحمراء والسوداء مزيلةً مؤشرات المنافسة الاجتماعية المكتوبة بالطباشير. وعلى وجوه الفلاحين وعلى قرون الخراف والمعاز في المزرعة الجماعية، وعلى أجساد الأبقار والجرارات وعلى هلب

الخنازير وريش الدجاج. وأخمدت المصابيح الكهربائية في المنازل. واختلطت بالتبن وقرقشت ثلجاً في أسنان الجِمال والخيول. وتغلغلت في ريش طيور النورس الذي سقط كالأحجار في نهر الفولغا بعد أنْ لم تعد أجسامها التي ثقُلت به تحملها في الهواء.

باخ، الذي لم يكن لديه تقويم والذي اعتاد على قياس السنوات من خلال تبدّل الحرارة والبرودة والثلج والعشب، فقدَ حساب الزمن. وفقده الناس أيضاً: في غنادينتال وبوكروفسك وفي جميع مناطق حوض الفولغا. جاء عيد الميلاد (كان لا يزال الناس يحتفلون به سرّاً في المستوطنات). ثم حلَّت الذكرى السنوية للجيش الأحمر. ويوم المرأة العالمي. وجاء الربيع. ونوفمبر (تشرين الثاني) لم ينتهِ.

دخل الحرّاثون الأسماك والحرّاثون الفئران السهوب الموحلة من الأمطار. فعلقَت جراراتهم، المريضة منذ مدة طويلة من الصدأ الذي يغطي أجسادها، في الوحل وتجمدت إلى الأبد، ولم تستجب لجهود الميكانيكيين. وسرعان ما امتلأت السهوب بالجرارات الميتة، كما كانت في غابر الزمان أكداساً.

بدؤوا يحرثون بالطريقة القديمة على الخيول. يجرّون المحراث بعد أن يغوصوا في الطين ويفقدوا قباقيبهم فتُجرَح أقدامهم الحافية بالجليد الذي تكوَّن على البِرَك. لم يحرثوا الأرض، بل عصيدة الجليد. لكنهم زرعوا وبذروا بعناد البذور الرطبة في تلك العصيدة. ونبتت البذور براعم بيضاء تشبه الشَّعر الشائب. وحُصِدَ. ونوفمبر (تشرين الثاني) لم ينتهِ.

فلاحو المزرعة التعاونية، الشاحبون من قلة أشعة الشمس وذوو الخدود الرمادية الضاربة للزرقة والأصابع المجعدة من الرطوبة المستمرة، خرجوا ليقطفوا الثمار. جمعوا الرقي (البطيخ الأحمر) والشمام (البطيخ الأصفر) كانت الحبّة بحجم قبضة اليد واللفت والبنجر بحجم الجوزة، وخيوط رفيعة من الجزر، والتفاح بحجم البازلاء. كانت الثمار متشابهة اللون ومتشابهة الطعم، اللون لون الماء والطعم طعم الماء.

جاء الخريف: سبتمبر (أيلول) وبعده أكتوبر (تشرين الأول). ونوفمبر (تشرين الثاني) لم ينتهِ.

لقد آن أوان نوفمبر الأبدي.

* * *

ومع ذلك، لم يضايق باخ لا المطر الذي يصبّ باستمرار ولا الهواء الموحل المشبع بالرطوبة، الذي كان يتحول إما إلى ضباب أبيض أو إبر جليدية صغيرة؛ ولم تزعجه لا قدميه المبلّلتين دائماً ولا ملابسه الرطبة والتي لم يعد بالإمكان تجفيفها الآن حتى على الموقد الساخن، عاش باخ من دون أن يلاحظ نوفمبر (تشرين الثاني).

تجمدت المزرعة، غارقة في البرد والرطوبة الشديدة. جذوع المباني، السوداء واللامعة من الرطوبة، لم تجف ولكنها لم تتعفن. والقش الذي يغطي السقف اسوَدَّ لونه والتصق بعضه ببعض ولكنه لم يسرِّب الماء. كانت المواقد في المنزل تدخّن، وتعطي القليل من الحرارة، لكنها ما زالت تعمل. وزجاج النوافذ اكتسى عند الحوافّ بأوراق الشجر المتعفّنة، لكنها لا تزال تسمح بدخول الضوء. تجمدت الأسوار المتداعية في أوضاع لا تسرّ. وتحولت الأعشاب الطفيلية التي غمرت الحديقة إلى هياكل عظمية بنية. وسطعت بينهما غابة البلوط الصغيرة المتناثرة التي توقفت عن النموّ.

لم تعد المزرعة القديمة تتطلب القوة أو الاهتمام من باخ. وهذا كان في محلّه: إذ لم يعد باخ قادراً على منحها لا القوة ولا الاهتمام. صفق بامتنان على الجدران الخشبية المتشققة وعلى الطلاء الكلسي المتقشّر على الموقد. ولمس أشجار التفاح بامتنان على الرغم من أنها لم تعد تثمر بعد الآن، لكنها لا تزال حيّة. وما زالت تحرس كلارا. كان يأتي إليها قليلاً، احتفظ بقوته للرحلات إلى الأطفال.

بقي كسابق عهده يحمل إليهم التفاح في أيام الأحد. ولعدم وجود تقويم، كان يعدّ ببساطة ستة أيام بعد تاريخ الزيارة الأخيرة، وفي اليوم

السابع يذهب مرة أخرى إلى بوكروفسك. ومن الأمور الغريبة، بل والغريبة جدّاً أنَّ التفاح في المخزن لم ينتهِ. لم يكن باخ ينظر إليه كما كان من قبل، حين قام بفرز القش وتبديله بعناية، وصار يأتي ببساطة ويهيل منه في الكيس ويحمله إلى دار الأيتام. وبعد أسبوع يعود مرة أخرى ويهيل ويحمل. وهكذا كلّ مرة... وخلافاً لمنطق الرياضيات والحسّ السليم، كان التفاح في المخزن لا نهاية له وبقي طازجاً، كما لو أنّه قُطِف يوم أمس من الأغصان.

لم يهتمّ باخ بطبيعة هذه الظاهرة إلّا قليلاً. الشيء الوحيد الذي أحرجه قليلاً هو الشعور بالسقوط من الوقت. ولكن كيف يشعر بحركته من دون دليل من العلامات الطبيعية؟ لم يكن بمقدور الغابة ولا البستان أن يساعدا باخ: أشجار التفاح مثل أشجار البلوط وكذلك القيقب في الغابة بقيت صامتة ومندهشة من الزمهرير الممتد؛ ومن حين إلى آخر تظهر بقع من العفن الأبيض على الفروع المسوَدَّة والتي سرعان ما تختفي، هذه هي حياة الشجرة بأكملها (سيندهش باخ جدّاً لو عرف أنَّ ذلك لم يكن عفناً، بل زهوراً صغيرة غير مثمِرة). ولم يستطع نهر الفولغا أيضاً أن يساعده: مياهه المتعَبة، التي لم تتحول إلى جليد والتي ازدادت كثافتها من قشور الأسماك، تدفقت على طول الشواطئ بذهول وبحزن؛ والسمك نفسه توارى إلى مكان ما ولكن قشوره بقيت وارتفعت في رياح قوية من القاع وحولت النهر إلى نوع من الهلام الفوار.

بدأ باخ بحساب الوقت وفقاً للتغيرات في جسده: وفق التموجات البنية على ظهر يديه، ووفق الشعر الشائب الذي يظهر في لحيته. ومع ذلك، حتى هذا التقويم كان غير موثوق به أيضاً: فقد كان نمش الشيخوخة يظهر على يديه ويختفي، مازحاً مع باخ، والشعر الشائب شوَّش عليه ولم يستسلم للعدّ الدقيق. ووجد مخرجاً: أنْ يقيس الوقت من خلال نموّ الأطفال.

كان جسَدا صبيته وصبيه أفضل تقويم. تغيّر الوجوه والطّول في

الذراعين والساقين والأصابع على اليدين هذا هو قياس وقت باخ الآن. درنة الثدي التي بالكاد يمكن ملاحظتها تحت قميص آنتشي السميك (القطني). والسواد الذي بالكاد يمكن ملاحظته على شفة فاسكا العليا. والتورم الطفيف في الشفاه واستدارة الكتفين عند آنتشي. انتفاخ الحنجرة الحادّ على رقبة فاسكا...

هذا التقويم الجميل لم يتطلب الكتابة بقي نفسه في الذاكرة. ولكنه، مثل أيّ تقويم آخر، يجب أن تكون فيه صفحة أخيرة. سأل باخ نفسه: أين تلك الصفحة الأخيرة؟ وأجاب بنفسه: ربما في اليوم الذي سيتخطى فيه الأطفال طوله. عندما يصبح كلاهما أطول منه حتى ولو بسمك شعرة، فإن ذاك سيمكنهما أنْ يريا أبعد مما يرى هو وأفضل، سيكونان أقوى وأصلب عوداً وأكثر صحة منه. وآنذاك، ربما، لن تكون ثمة حاجة به. وآنذاك، على الأرجح، سيتعين عليه المغادرة. وسينتهي التقويم الرائع. هل سيبدأ تقويم آخر بعده؟...

بفرح هادئ، انتظر باخ اليوم الذي تبلغ فيه آنتشي طوله. وقد حان ذلك اليوم. عندما نظرت إليه آنتشي، وهي تضغط على يديه في المصافحة، لأول مرة، ليس من الأسفل إلى الأعلى، ولكن مباشرة من المستوى نفسه، أدرك: هذا ما انتظره، لقد حدث ذلك.

بقي عليه أنْ ينتظر اليوم الذي سيطول فيه فاسكا ويتجاوز طول باخ.

منذ ذلك اليوم، استقر في قلبه ليس القلق، كلّا، ولكن نوع من نفاد الصبر الطفيف. ربما يمكن أن يسمى هذا رغبة حقيقية، رغبته الأولى خلال السنوات القليلة الماضية.

ولم يفكر باخ بما سيحدث بعد ذلك معه نفسه. لكنه فكر في ما سيحدث للمزرعة. الصاحب الطيب، والرفيق والصديق المزرعة القديمة كيف ستعيش بدون باخ؟

لم يكن فاسكا ولا آنتشي بحاجة إلى المزرعة. لقد أحباها ذات مرة، ولكن بعد انتقالهما إلى المدينة، لم يرغبا أبداً في القدوم، ولم يرغبا في

زيارة المنزل والبستان. بعد سنوات عديدة بعد النضوج، مع ظهور علامات الشيخوخة الأولى على وجهيهما قد يعودان إلى هنا للقاء الذكريات. ومع ذلك، من غير المرجح أن تنتظر المزرعة تلك المدة الطويلة: سوف تتدمّر وتنمو كالغابة.

ماذا سيفعل باخ بهذا المنزل المتداعي ولكن الذي لا يزال دافئاً؟ ومع أشجار التفاح هذه السوداء من القِدَم؟ ومع هذه السقائف والحظائر المتداعية؟ ومع المجلدة المغمورة بالماء؟ ومع البئر المليئة بالطحالب؟

جاء الجواب من تلقاء نفسه بسيطاً وصحيحاً وحده. فبعد أن استلقى باخ تحت الغطاء المحشوّ بريش البط يستمع إلى المطر، أدرك أنَّ الجواب أعطي له منذ زمن طويل، منذ سنوات عديدة قبل وقت طويل من ظهور السؤال. وبعد أنْ أدرك نهض من السرير، وأضاء المصباح وبدأ العمل في تلك اللحظة من دون أنْ ينتظر الصباح.

* * *

كان يعلم أنَّ أمامه ثمة الكثير من العمل. وأنَّ نوفمبر (تشرين الثاني) اللامتناهي سوف يعقّد العمل إلى حدّ كبير. وقد لا يكون لديه الوقت الكافي لتأديته. لكن باخ أراد حقّاً أنْ يكمل العمل في الوقت المناسب. وهذا يمكن أن يسمى الرغبة الحقيقية الثانية له خلال السنوات القليلة الماضية.

أحضر الأدوات من سقيفة المخزن الفأس والقضيب الحديدي (الهيم) وسكاكين معالجة الجذور والمَساحج والمثاقب والمطارق والكاشطات والأزاميل والمخارِز أحضر كلّ ما يمكن أنْ يحتاجه. وعمل على تنظيفها لمدة طويلة مزيلاً السواد من الخشب والصدأ من المعدن إلى أنْ أصبحت السحب السوداء في السماء رمادية، معلنةً عن بداية النهار.

بدأ بأهم شيء. زحفَ على طول الجدار وفحصه محاولاً لمس كلّ حجر ألا ينخلع؟ ألا يتصدع؟ ألا يتطلب استبدالاً؟ بدا كأنه يعانق الأحجار ويمسِّدها. كانت الحجارة أكثر دفئاً من رذاذ المطر. جلب كمية كبيرة من

الحصى من الشاطئ وحفر الرمل. رصفَ الحصى وهال الرمل فوقه، ثم رصفه من جديد وهال الرمل ثانية، وفركه بالطين في بعض الأماكن قام بتقوية الأساس.

استغرق هذا الأمر أسبوعاً كاد باخ أنْ يتخلّف عن موعد الأحد مع الأطفال. وبعد أنْ عاد من بوكروفسك، تولى الهيكل الخشبي.

تلمَّسَ بأصابعه كلَّ جذع كلّ انتفاخ وكلّ تجويف. أخرجَ القنّب المتعفن خيطاً بعد خيط، ووضع بدلاً منه خيوطاً جديدة جافة. طرقَ الطحلب الجاف في الشقوق وطلاه بالراتنج. استغرق العمل أسبوعاً آخر.

عمل على إصلاح السقف لمدة طويلة. كان الاحتياطي الجاهز من القش والقصب ينتظر ساعة الحاجة إليه في سقيفة المخزن لسنوات عديدة، ولكن من حسن حظ باخ لم يعطّن ولم يتعفّن. فرز السنابل الفارغة ورشها بالملح ولفّها في حُزَم. ثم صعد على السلَّم النقّال إلى السطح وتسلق فوقه بالكامل مقلِّصاً جسده من قطرات الرذاذ، وأزال بالمجرفة أوراق الأشجار والأغصان المتساقطة عليه وقطع بعنايةٍ القِطَعَ المترهلة. ووضع الحُزم الجديدة الجافة والمملَّحة من أعلى رأس السقف إلى المنحدر (المَيْل). ووجد زوجاً من أعشاش الطيور على السطح فأخذها إلى الغابة.

أزال جميع إطارات النوافذ والأبواب ونجرها من جديد، فبدت زاهيةً صفراءَ ناعمة على خلفية الجدران البنية. ونجرَ الباب الأمامي ودرابزين شرفة المدخل. ووضع الزجاج في كلتا النافذتين المسدودتين في المطبخ وفي غرفة البنت.

وبعد أنْ أكمل الأعمال الخارجية انتقل إلى الأعمال الداخلية. وهنا فركَ وكشطَ، وبدّل نسالة القنّب، ونظَّف المدخنة، وبيَّضَ الموقد. وغسلَ السجاد والحصائر في نهر الفولغا. وفتح رفوف النوافذ بالسكين.

فكّر طويلاً في ما ينبغي عليه أنْ يعمل مع جدران غرفة البنت. كان يحزّ في نفسه أنْ يمسَّ الكتابات التي خُطَّت ذات مرة بظفر كلارا الرقيق. وفي

الوقت نفسه كان يستحيل أنْ يتركها. أراد مسحها بالرمل برفق من دون أنْ يؤذي نفسه أو الجذوع لكنه لم يستطع: لم يرفع يده إليها. فذهب إلى غناديننتال، وأحضر دلواً من الطلاء ودهن الجدران: إذ لم يؤلمه كثيراً أنْ يمرّر الفرشاة على الكلمات ويبقيها تحت الطبقة غير الشفافة.

كتب باخ ببقايا ذلك الطلاءِ على الباب الأمامي: «دار الأطفال باسم الأممية الدولية الثالثة». لم يكن باخ يعرف مَن كانت هذه الأممية الثالثة وبماذا اشتهرت. سمّى الدار بناءً على أمنية هوفمان، فليكن تحقيقها بعد سنوات عديدة.

كثيراً ما كان باخ يتذكر هوفمان في هذه الأيام. بقيت في غناديننتال ثمة مبانٍ شُيِّدَت من خلال جهوده في عام المحصول غير المسبوق (الحصاد الوفير). كان كلّ شيء في مكانه، وكلّ شيء شغّال: كوخ القراءة والنادي (بأركانه: السياسية، والعسكرية، والزراعية، والثقافية) وروضة الأطفال والحضانة والفندق والمسكن الجماعي والوحدة الطبية وإدارة المزرعة الجماعية ومحطة المكائن والجرارات ومزرعة الحيوانات وحقل الدواجن والمستودع الزراعي والإسطبلات العامة وحظائر الخنازير الملحقة بها ودار المزارعين الضيوف ودار الصيادين. وحتى المنازل التي على العجلات (ثلاثة للحاصدين والباذرين، واثنان لأصحاب الطيور المتنقلين) وقد استُخدِمَت كلّها بشكل صحيح ولغرضها المقصود. ولكن، يا ترى، هل يتذكر أحد في غناديننتال الأحدب الغريب الأطوار؟

ولكن باخ تذكره. الآن بالذات، في الوقت الذي كان يتحرك في المنزل بنشاط من الصباح إلى الليل: ينشر الألواح ويدقّها ويطرق عليها ويقطعها ويجرّها وينجرها وينعّمها بالرمل، وفجأة شعر وكأنه هوفمان. الآن فقط أدرك ما هو الإلهام الذي يمكن أن يملأ به القلبَ كرسيٌّ مصلَّحٌ أو سقفٌ مرتَّب، إذا ما كان ذلك التصليح والترتيب لشخص آخر، لا تعرفه...

بقي في المنزل النظيف والمجدَّد أنْ تُجَهَّز الغرف فقط. لم يكن باخ يعرف بالضبط عدد الأطفال الذين سيستقرون هنا، لكنه يرغب في تقديم

أماكن لأكبر عدد ممكن من السكان. ولذا، قرّر أنْ يحطّم الأسرة القديمة الواسعة والكبيرة وبدلاً عنها يصنع أسرَّة أضيق. وبعد شهرين، لم يكن من الممكن التعرف على غرفة البنت وغرفة نوم صاحب الدار: كانتا مجهَّزَتَين على طول الجدران بأسرَّة أنيقة من ثلاثة طوابق. بعض الأسِرَّة أقصر للصغار، والبعض الآخر أطول للمراهقين. لم يصنع باخ أسرّة بالغين (هو نفسه ينام الآن على أحد أسرة المراهقين، بعد أنْ يثني ساقيه ويلتصق بقوة على الحائط حتى لا يسقط على الأرض). أما غرفة تيلدا السابقة فقد جعل منها مستودعاً وأخرج منها الأثاث وترك الصناديق فقط.

كانت مائدة الطعام قد عَرجت من مدة طويلة وانحرفت جانباً قطع لها باخ سيقاناً جديدة. ونجر كراسي جديدة بالإضافة إلى الكراسي الموجودة. وعلَّقَ على جدران غرفة الضيوف رفوفاً للكتب: لسبب ما كان على يقين من أنه سيكون ثمة الكثير من الكتب في هذا المنزل (الآن وضع على الرفّ الكتاب الأول والوحيد حتى الآن مجلَّد أشعار غوته بغلافه المتهرئ تماماً). وخاط أفرشةً ووسائد وحشاها بالقش. وصنع من الخشب ملاعق وأوعية، وأعدَّ بعناية درجة للموقد. وقطَّع الحطب وخزَّنه من أجل المستقبل ملأ عرمة الحطب حتى لم تعد تستوعب المزيد وكدّس الحطب الباقي في السقيفة وفي الفجوة بين الموقد والحائط...

* * *

حدث في المدة التي قضاها باخ في ترتيب المزرعة شهراً تلو شهر أنْ غاب أحياناً عن اللقاء مع الأطفال: إذا ما لاحظ صباح يوم الأحد فجأة أنَّ اليوم يعد بعدم هطول المطر، يبقى في المزرعة ويعمل. كانت الأيام الجافة قليلة، وبدا له قضاء الساعات الثمينة في الطريق ترفاً لا مسوِّغ له.

وبذلك كان اللقاء التالي أكثر بهجة. بحلول ذلك الوقت، بدأ الأطفال في المدرسة يتعلمون اللغة الألمانية. كانت اللغة الأجنبية صعبة بالنسبة لآنتشي، أما فاسكا المعروف بقوة عزيمته فقد بدأ بعد بضعة أسابيع يلغط بالجمل الأولى: يصوغ الكلمات بذكاء بعضها مع بعض من دون أنْ يهتم

بالترتيب وبأدوات التعريف والتنكير، ومن حين إلى آخر يدمج في الكلام مقتطفات من الأغاني التي حفظها من أسطوانات الغراموفون. لأول مرة، فهم باخ الصبي، فهمه تماماً، حتى لو كانت محادثاتهما تقتصر على مواضيع المدرسة: تناولا حصريّاً جني المحاصيل، ومحاربة الدين وأيام عمل الطلائع.

كان باخ ينظر إلى آنتشي من الأسفل إلى الأعلى مستغرباً لم يتمكن من التعود عليها، في كلّ مرة يندهش ويقيس طولها. وينظر إلى فاسكا بشعور مشوّش، كان ينتظر طوال الوقت: متى؟ متى؟... كان فاسكا يكبر أيضاً ولكن إلى حدّ بالكاد يمكن ملاحظته، كما لو كان على مضض.

وعندما انتهى باخ من الأعمال في المنزل، وتوجه إلى مباني الفناء: نظّف البئر وجرف المياه من المجلدة وجدّد السقف وأصلح المخزن والسقيفة والحظيرة ورفعَ الأسيجة وعدَّلَ البروز فوق عرمة الحطب، بلغ طول فاسكا بمستوى ذقنه.

وبعدما اشتغل أخيراً بالحديقة المقفرة: اقتلع أكواماً من الأعشاب وبراعم الأشجار وحرث الأرض ونبشها بيديه وأعاد رصف صفوف المغارس وبذر بقية البذور، أصبح فاسكا بمستوى خط فمه.

وعندما أعاد حراثة البستان وشذّبه ونظفه وقطع عشرات أشجار التفاح القديمة وزرع المكان الشاغر بشتلات صغيرة، طال إلى مستوى عينيه.

وعندما مسح باخ من على حجر قبر كلارا اسمها وسنوات حياتها (حتى لا يقوم أحدهم بتحريك شاهد القبر من مكانه)، تساوى فاسكا معه بالطول.

في ذلك اليوم، بقي باخ مع الأطفال لمدة أطول من المعتاد. وعلى ما يبدو، إنَّ الرفاق نادوا فاسكا وآنتشي إلى مكان ما وهم يمرّون من جانبهم ويصرخون بأسمائهما بلهفة لكنه أبقاهما كليهما، واضعاً كفّي يديه على أكتافهما. فأطاعاه وبقيا بجانبه.

جلس على المقعد غير عارف متى يمكنه أنْ يرفع راحتيه عن أكتاف الأطفال الهشّة.

كان الأطفال ينتظرون وهو ينتظر.

كانت كفّاه خفيفتان ولكنَّ الأطفال لسبب ما لم يستطيعا تحريكهما أو رفعهما.

كان الأطفال ينتظرون وهو ينتظر.

أغمض عينيه ورفع يديه.

وعندما فتحتهما لم يعد الأطفال موجودين.

عاد باخ إلى المزرعة، وسحب القارب من الماء، ووضعه بين الحجارة بحيث يمكن رؤيته من المسار.

تسلّق الجرف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اجتاز الفناء والبستان.

دخل إلى المنزل.

وضع الأطباق والملاعق على الطاولة الطويلة وكأنه يعدّ سفرة العشاء.

وضع الملابس على الأسرَّة كلّ ما كان في الصناديق.

ثم استلقى، ولفّ نفسه في غطاء الريش وبدأ يستمع إلى المطر الذي يهطل...

حلم باخ بالأطفال. ليس بآنتشي وفاسكا فقط، بل وبأطفال آخرين سُمر البشرة وبيض البشرة، ذوي شعر مجعد وحَليقين إلى حدّ الصلع، ذوي عيون ملونة وذوي عيون داكنة، حلم بأولئك الذين سيأتون يوماً ما ليعيشوا في هذا المنزل.

لم يحلم باخ بالبالغين. أصبح الكبار بالنسبة له مملين: أناس فئران ضئيلون ومهتاجون؛ وأناس أسماك رزينون وجاحظو العيون، يشبهون أسماك الكارب الكسولة.

-29-

كانت أسماك الكارب ضخمةً وكسولة. دارت ببطء في البركة الدائرية مُبرِزةً بين الحين والحين أنصالَ زعانفِها كالإبَر الصغيرة فوق سطح الماء. وكانت أزهارٌ من شجرة اليوسفي تحوِّم فوق الماء فتهرع الأسماك نحوها وتفغر بجشعٍ شفاهها البيضاء المتحركة؛ وتمزِّقها إلى أجزاء في حالة من الاهتياج، ثم تبصق بخيبة أمل ومرة أخرى تدور على مهلٍ دورة احتفال. وقد حلّ الصمت إلى درجة بدا فيها مسموعاً حتى صوت انزلاق البتلة في الهواء وطبطبة سقوطها على الماء؛ بينما كان غليان الماء في كلّ اكتظاظ للأسماك يصمّ الآذان.

جلس الزعيم على حافة البِركة، بعد أنْ وضع تحته لبّاداً مطويّاً أربع طيات، وجعل ينظر إلى الأسماك. كان قاع البِركة مرصوفاً بخزف فيروزي اللون؛ وعلى خلفيته بدت أجسام أسماك الكارب الفضية ضاربةً إلى اللون الذهبي. كانت جوانبها المغطاة بصفائح من قشور كالمرايا، تومض في الشمس بلا انقطاع، فوجَبَ على الزعيم أنْ يغمض جفنيه. هذا الوميض يبقى متوهجاً بعد ذلك لمدة طويلة على الشبكية ويحرق جفنيه ومقلَتَيه ودماغه، ولكن من المستحيل أنْ يرفع بصره. لم يفارقه الشعور بأن رقص حلقة الأسماك مرتبط بنوع من التحريك داخل جسده، إما في صدره أو في معدته؛ كان من الواضح أنَّ ثمة شيئاً يتقلَّب، بارداً وخشناً. ربما، هذه قوافٍ لم تولد بعد.

الدفء كان رقيقاً وخفيفاً، دفء الربيع. فاحت رائحة أشجار التنوب

(الشوح) والبحر وقداح اليوسفي، وشيء قليل من دخان حلو (أضيفت جُذاذات من خشب التفاح إلى القُرَم في المدفأة الحائطية من أجل الرائحة) ورائحة الشاي المحلول الطازج. ويبدو أيضاً أنَّ من خلف الأشجار تنسَّمت رائحة جسم قوي وساخن، رائحة غريبة، إما بارود أو معدن رطب. هذا لا يمكن أن يكون: الداتشا[1] الحكومية هي المبنى الوحيد على الجبل، الذي يحرسه ست مئة جندي، متوزعين الآن كالأشباح عند سفح ذيل السلسلة الجبلية، ويقود إلى هنا طريق جبلي معقَّد بمنعطفات حادة عرضه يتسع لسيارة واحدة. لم يكن ثمة أحد خلف الأشجار.

قامةُ الطباخ (لمحها الزعيم بنظرة جانبية) تلوح باضطراب منذ مدة طويلة في التعريشة المخرّمة التي بُسِطَت فيها مائدة لشخص واحد: كوب شاي من الخزف العاجي اللون، وطقم شاي فضي، وطبق مع الكعك مغطى بعناية بمنديل من الكتان. بردت الفطائر. عَرفَ الزعيم أنَّ في الفرن الوجبة الثانية من الفطائر المحشوّة بالفطر وفطائر الكورنِك[2] إذا ما بردت الوجبة الأولى قبل أن يجلس لشرب الشاي، ووضِعت العجينة للوجبة الثالثة على طاولة التقطيع. هرع الطاهي إلى المطبخ من أجل الوجبة البديلة، لكن الزعيم، الذي لم يرفع عينيه عن البِركة، رفع يده ولوح بها بانزعاج: أحضِر طعامك إلى هنا واختفِ. أمسك الرجل الطبق بفرح وركض إلى المسبح، بدأ فتات الجرانيت يصرّ صريراً مُزعِجاً تحت حذائه.

– لماذا الحجارة على الممرّ؟ سأل الزعيم بتعب. – حوافّها حادة، يمكن أن تجرحك.

أومأ الطاهي قليلاً برأسه موافقاً، ثم هزّه ممتعضاً. ووضع الطبق بعناية

1- الداتشا – هو منزل موسمي أو دائم (دار استراحة)، يقع في العادة في ضواحي المدن الروسية والبلدان الأخرى في الاتحاد السوفيتي السابق. (المترجم).

2- كورنك – والمعروف أيضاً باسم «بيروك الزفاف» هو فطيرة روسية مالحة على شكل قبة، عادة ما يُحشى بالدجاج أو الديك الرومي والبيض والبصل والحنطة السوداء أو الأرز وغيرها من المكونات الاختيارية. (المترجم).

على الجانب، وسحب المنديل، فاحت رائحة الفطر المسلوق الكثيفة وبعد أن انتظر لحظات، اختفى من المكان.

كان لون الفطائر ساطعاً جدّاً: فقد دُهِنَت العجينة بصفار البيض بشدة قبل وضعها في الفرن، وتحولت إلى اللون الأحمر. أخذ الزعيم الفطيرة بيده كانت ثقيلة وهشَّة، وسالت على أصابعه الزبدة الدافئة فرماها في البركة.

وسرعان ما فار الماء وتمزقت الفطيرة إلى قطع واختفت؛ تقاتلت أسماك الكارب وهي ترتجف من الإثـارة، وانتظرت صدقة جديدة، وجلدت بعضها بعضاً بذيولها فاقدةً القشور. في فورة الماء، ميَّزَ الزعيم بوضوح صوت التمَطُّق الذي فُتحت به أفواه الأسماك. ألقى فطيرة أخرى، ثم أخرى...

طُرِحَ على الطاولة في مكتبه تقريرٌ عن *العملية الألمانية* بالانتظار. فقد أخذ الزعيم الأوراق معه إلى داتشا (دار استراحة) البحر الأسود، ولكنه إلى حدّ الآن لم يلمس مشبَك الإضبارة الرقيق. لا حاجة، كان يعرف المحتوى من دون النظر إلى النص.

كانت ألمانيا تستعد للحرب، وتتحضر لها من مدة طويلة. وفي ترسانتها الثرية، من بين أشياء أخرى، كان ثمة سلاح غير مجرَّب ولكنه خطير: الألمان العرقيون سربٌ من أحصنة طروادة المنتشرة في جميع أنحاء العالم الذين ينتظرون ساعة الحاجة إليهم. هتلر مجنون، هستيري ولكنه مما لا شك فيه ديماغوجي عبقري، فقد كان خلال خطاباته التي تمتد لساعات طويلة يغوص في نشوة خطابية عندما يتحدث عن الموقف غير العادل للدول الأخرى تجاه «أبناء الأمة الآرية المخلصين» الذين يعيشون على أراضيهم. وكان يتوق إلى أنْ يقف هؤلاء الأبناء تحت راية الرايخ: أعلن بداية النضال (حتى الآن نضال فقط) من أجل إنشاء ألمانيا النازية في الخارج وطرحَ مفهوم «الألماني المطلق»، الذي حوَّل تلقائيّاً أيَّ شخص يتدفق فيه الدم الآري النبيل إلى نازي، لأنَّ «الدم أقوى من الجنسية».

ثلمت أصابع الزعيم العجين الناعم ورمته في الماء. في ذلك اليوم من شهر مايو (أيار) من عام ألف وتسع مئة وثمانية وثلاثين كان مليون وثلاث مئة ألف من الألمان العرقيين يعيشون في الاتحاد السوفيتي.

عمل الرايخ بلا كلل، وأعدَّ «أحصنة طروادة» للحرب القادمة ولم يُخفِ نواياه. فقبل خمس سنوات من ذلك، قام ثالث أهم شخص في الرايخ ومفوض الفوهرر لشؤون فولكستومسبوليتيك[1] رودولف هيس بإنشاء مجلس فولكس دويتشه[2]. رأى هتلر نجاحات هيس في هذا المجال متواضعة، وبعد ذلك بعامين نُقِلَ موضوع فولكس دويتشه إلى مكتب العلاقات مع الألمان في الخارج، تحت جناح إدارة ريبنتروب[3]. ومع ذلك، حتى هذا الإجراء سرعان ما عُدَّ غير فعال بما يكفي، وفي العام الذي قبله أُنشِئت مؤسسة خاصة تحت راية الرايخ لتوحيد أبناء الأمة الآرية فولكس دويتشه متلشتله[4] اختصاراً فومي، وأُنيط الإشراف على الدائرة إلى أوبر غروبن فوهرر فيرنر لورينز[5]. شاهد الزعيم صورة لورينز هذا: إنه رجل وسيم ذو ذقن حازم وعينين شفافتين معتمتين ربما تعرض للضرب كثيراً في مرحلة الطفولة. بدأ أوبر غروبن فوهرر العمل بحماس: بعد مرور عام، كان لدى فومي ثلاثون موظفاً؛ كانت ميزانيتها مماثلة لميزانية وزارة الخارجية الألمانية. تحت شعار («إلى الوطن، إلى

1- السياسة الشعبية الاشتراكية الوطنية. (الملاحظة في النص الأصلي).

2- في المصطلحات الألمانية النازية، فولكس دويتشه هم «الأشخاص الذين لغتهم وثقافتهم من أصول ألمانية لكنهم لا يحملون الجنسية الألمانية». (المترجم).

3- يواخيم فون ريبنتروب (1893–1946) – من أبرز قيادات ألمانيا النازية، وزير الخارجية من 1938 إلى 1945 كما شغل منصب سفير ألمانيا لدى بريطانيا من 1936 إلى 1938. أدين بجرائم ضد الإنسانية في محكمة نورنبيرغ وأعدم. عرف عنه دوره في وضع معاهدة عدم الاعتداء الألمانية السوفيتية قبل الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

4- الدائرة التي نفذت الدعاية النازية بين الألمان العرقيين خارج ألمانيا. (الملاحظة في النص الأصلي).

5- فيرنر لورينز – هو سياسي ألماني، ولد 1891 في بولندا، وتوفي 1974 في هامبورغ في ألمانيا. وأحد الناشطين في الحزب النازي. (المترجم).

الرايخ!») وأُطلِقَت حملة فعّالة لإعادة السكان الآريين إلى الوطن الأم. وكانت الخطط بعيدة المدى لدرجة أنها بدت خيالية إلى حدّ ما، على سبيل المثال، فكرة «ألْمَنَة»[1] الشباب والأطفال من البلدان الأخرى.

لم تَمسّ مؤسسة فومي الألمان السوفيتيين، أو على الأقل، تكونت مثل هذه الرؤية. إذ أوضح هتلر بعد «النطح» السياسي النشيط أثناء المجاعة في حوض الفولغا وبعدها أنَّ موضوع الألمان الروس لن يكون حجر عثرة فقد مُنِحَت البطاقة، التي لعبت لمدة عشرين عاماً تقريباً، إلى الاتحاد السوفيتي. وهذه علامة سيئة: يبدو أنَّ النضال من أجل الألمان السوفيتيين صار يُخَطَّط لخوضه الآن ليس على طاولة الألعاب، كما كان من قبل، بل تحت الطاولة. وليس من باب العبث أنْ يُعيَّن الألماني الروسي السابق مكسيميليان ماير هايدنهاغن، الذي يعرف اللغة الروسية بطلاقة، قنصلاً ألمانيّاً في مدينة نوفوسيبيرسك.

أكدت البيانات الواردة من الميدان مخاوف الزعيم، وقد كشفت المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية على مدى السنوات القليلة الماضية، عن العديد من الجماعات المضادة للثورة وعن المؤامرات المناهضة للاتحاد السوفيتي التي بدأها الألمان السوفيتيون: «قضية (الأصدقاء)» (يا ترى، من يعطي للمتابعات الجادة مثل هذه الأسماء؟!)، «قضية (الآريين)»، «قضية معلمي المعهد التربوي الألماني»، والمؤامرات في مستوطنَتَي بالتسير وفارينبورغ (في محافظة ساراتوفسكايا) وفي مصانع «كارل ليبكنيخت»، «كلارا تسيتكين»، «روزا لوكسيمبورغ» في منطقة حوض الفولغا...

1- الألْمَنة أو الجرمنة (جعل كل شيء ألمانيّاً) هي نشر اللغة الألمانية والشعب والثقافة (المقصود بالشعب هنا الألمان وتجري عملية الألمنة بنقل الألمان إلى منطقة معينة لجعل غالبيتها منهم بهدف تغيير ميزانها الديمغرافي وإلغاء هوية المنطقة). لقد كان ذلك بمثابة لبنة أساسية في التفكير الألماني في القرنين التاسع عشر والعشرين، خلال حقبة تلاشت فيها النزعة المحافظة والقومية الإثنية. (المترجم من ويكيبيديا بتصرف).

أسماك الكارب التي أكلت بالفعل معظم الفطائر أصبحت أكثر عدوانية مع كلّ دقيقة، إما أنْ تكون شهيتها قد توقّدَت أو أدركت أنَّ العَلَف سينتهي قريباً. وقفزت بعض الأسماك بلهفة من الماء وخبطت بظهرها على سطح الماء وعادت ثانية إلى كتلة الأفواه والخياشيم والعيون الجاحظة المتحركة من أبناء جنسها. برزت إحدى الأسماك بشكل خاص: كانت طويلة وذات عضلات وكان عُرفُ زعنفتها أشعث قد تضرّر أثناء العراك كانت مقاتلاً حقيقيّاً. ذات مرة، بعد أن قفزت فوق الأسماك الأخرى، تمكنت من أنْ تمسك بفكّها سبابة الزعيم الملطخ بغبار الدقيق فتأوّه وسحب يده؛ ثم بدأ يرمي أكبر القطع إلى هذه السمكة الوقحة: لا بدّ من مكافأة المتحمسين.

ولهذا السبب عيَّنَ الزعيمُ الرئيسَ الحالي للمفوضية الشعبية للشؤون الداخلية، نيكولاي يجوف. نشأ يجوف بدون أم في ضواحي بطرسبورغ ابناً لعامل مدمن على الكحول بالوراثة؛ غير متعلم إلى حدّ الابتذال ومخلص إلى حدّ الابتذال كذلك؛ ضئيل القامة وبسيط، مثل القطعة الباقية من الصابونة. ربما بفضل هذه الصفات بالتحديد، أثبت نفسه بعد تعيينه «مفوضاً حديديّاً» حيث أمسك البلاد بيدين من حديد[1]. تصور الزعيمُ يجوفَ (الطول متر ونصف المتر بالإضافة إلى سنتيمتر واحد) بجوار أوبر غروبن فوهرر لورينز الممشوق القامة والمكتنز. وضحك ضحكة ساخرة: القصير يساوي دراهم كثيرة، إنه ضئيل ولكنه ثمين. اليوم القسوة والولاء الذي لا يتزعزع لمفوض الشعب ضروريّان أكثر من أيّ وقت مضى: عشية الحرب، ينبغي للبلاد الكبيرة أن *تطهر الدم*.

تتكون خطة التطهير الرئيسة من ثلاثة «أجنحة»: اثنان مكشوفان وواحد خفيّ. الجناح الأول مخصص لإخلاء الاتحاد السوفييتي من *أتباع النظام السابق*: فلول الكولاك الذين لم يُقضَ عليهم قضاءً كاملاً في وقت

1- هنا تستعمل الكاتبة اللعب بالكلمات: الترجمة الحرفية لعبارة أمسك بيد من حديد – أمسك بقفازات قنفذ، ولقب يجوف مأخوذ من كلمة يوج التي تعني قنفذ. (المترجم).

الكلخَزة (إشاعة المزارع الجماعية)، والمسؤولون في الحكومة القيصرية والضباط البيض الذين تكيّفوا مع الحياة الجديدة كالحرباء وتغلغلوا حتى في صفوف النشاط الحزبي على مختلف المستويات، وأعضاء الحزب الاشتراكي الثوري والمناشفة والكهنة والمجرمون. والجناح الثاني كان من المفترض أن يكافح قاعدة التجسس والتخريب في بلدان الطوق الرأسمالي (في المقام الأول ألمانيا وبولندا واليابان). أما الجناح الثالث فملامحه لا يراها سوى الزعيم نفسه: فقد خُطِّطَ له من أجل مباعدة النخبة الحزبية وتجديدها بشكل جوهري رفاق السلاح السابقين، الذين تزعزع قليلاً ولاؤهم على مدى عقدين من الزمان بعد الثورة. ومن خلال تطهير الجسد فقط من القروح والعِلل يمكن الوثوق بتحقيق النصر في الحرب التي تقترب لا محال.

شارك مفوض الشعب الزعيمَ قلقه، وفي منتصف العام الماضي، شنَّ هجوماً قويّاً على الجبهات الداخلية التي أُشير عليه أنْ يقتحمها. ومن بين عمليات أخرى، بدأت *العملية الألمانية* أيضاً. وقد افتُتِحَت بأمر من يجوف يحمل الرقم 00439 الذي دعا إلى «التوصل إلى كشف كامل عن عملاء المخابرات الألمانية الذين لم يُكشَف عنهم لحدّ الآن»، وأمر بالقبض الفوري على «الجواسيس وعملاء المخابرات الألمانية والمخربين والإرهابيين الذين يُكشَف عنهم خلال التحقيق». وقد تبيّن أنَّ عددهم في البلاد مثير للدهشة. كلّ يوم ظهراً يستلم يجوف تقارير بالتلغراف من الميدان حول تقدم العملية؛ توضع التقارير الموجزة المؤقتة بانتظام على طاولة الزعيم، الذي يؤكد مع تلقي كلّ وثيقة جديدة أكثر فأكثر على صحة قرار «هرش الألمان».

العملية التي أعدَّت أصلاً لمدة خمسة أيام استمرت ثمانية أشهر ونصفاً. فبعد أنْ بدأت باعتقال بعض المواطنين من التبعية الألمانية نمت لتصبح مطاردة للجماعات التخريبية الكبيرة والمنظمات الإرهابية التي تتكون من الألمان السوفيتيين. أعدَّت المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية بدقةٍ

ألمانية حقيقيةٍ قائمةً بالمجموعات «التي تستغلها المخابرات الألمانية» وبالتالي تخضع للتحقق: حدّدت القائمة جميع من يمكن أن يكون لديهم على الأقل أدنى علاقة بالموضوع، بما في ذلك عنصر «الاتصال» المبهم الذي يسمح بأكثر التفسيرات حرية. وامتدّ التحقق في جميع أنحاء البلاد، في المقام الأول في المؤسسات الصناعية والدفاعية والسكك الحديدية، وكذلك في أماكن الإقامة الألمانية الكثيفة: بدءاً من أوكرانيا وساحل بحر أزوف والبحر الأسود وشبه جزيرة القرم وانتهاءً بكازاخستان وسيبيريا والجمهورية الألمانية في منطقة حوض الفولغا. حدثَ اكتشاف وتحييد «الاتحاد الوطني للألمان في أوكرانيا» و«منظمة التجسس والتخريب الألمانية في وسائط النقل بالسكك الحديدية» و«مجموعة الطلاب الألمان في معهد ساراتوف الطبي»؛ ودوَّت في جميع أنحاء البلاد قضايا «الأعداء» و«الأقارب» و«الورثة»... بلغ عدد المعتقلين عشرات الآلاف.

تطلَّبَ النطاق الواسع غير المتوقع الذي اكتسبته المؤسسة تغييراً في آليات العملية: سرعان ما بدأ النظر في قضايا الخط القومي ليس في ترتيب أحادي، بل في شكل «ألبومات» إذ جُمِعَت وثائق المتهمين الأفراد، بما في ذلك العقوبة التي اقترحتها القيادة المحلية للمفوضية الشعبية للشؤون الداخلية ومكتب المدعي العام، ووُحِّدَت وخيطت في «ألبومات» سميكة وأُرسِلَت إلى موسكو، لكي ينظر فيها يجوف مفوّض الشعب للشؤون الداخلية وفيشينسكي المدعي العام لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، ومن أجل السرعة أُقِرَّت الأحكام على شكل ألبومات، أي بالجملة.

لم يأمر أحد لا الزعيم نفسه ولا يجوف بالانتقال إلى مبدأ «الألبومات» في العملية الألمانية: المنظومة نفسها هي التي فعلت ذلك، وفق مبادرة من الأسفل. وهذا ما أثار قلق الزعيم. بالإضافة إلى حماسة الهوس التي تطورت في الأشهر الأخيرة على الأرض: إذ دائماً ما حدث تجاوز للأطر المحدَّدة للتطهير في الخط القومي، وطالب مسؤولو المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية المحليّون بإلحاح بزيادة تلك الأطر؛ ووسّعوا بشكل

تعسفي قائمة الخاضعين للمتابعة؛ وزوَّروا الوثائق واعتقلوا ووصموا بالنازية مجموعات أخرى (المستوطنين العمال والسجناء السابقين)؛ وبدؤوا بشكل مستقل، من دون أيّ أوامر من الأعلى، عمليتين قوميتين لم تُطرَحا في الأصل في الخطة العامة: العملية *الفنلندية* في مقاطعة لينينغراد وكاريليا، والعملية *الرومانية* في أوكرانيا... ماذا كان ذلك؟ هل هو ركود في الملاكات وغباء جماعي حوَّل الحماسة الوظيفية إلى أكاذيب واستبداد؟ هل هو التكالب على السلطة المحلية، الذي زعزع المنظومة بشكل غير محسوس من الأسفل والذي ينذر بالخروج عن السيطرة؟

رفع الزعيم نظره عن كتلة الأسماك الهائجة ونظر حوله. ماذا حدث هناك، خلف إبر التنوب (الشوح) التي بالكاد تتحرك في الريح، خلف سلسلة التلال القوقازية، خلف سهوب كالميكيا، في البلاد كلّها؟ عاش لعدة أشهر الآن من دون أنْ يفهم ذلك، والأهم، من دون أن يشعر به. كما لو أنَّ عضواً غير مرئي من أعضائه ولكنه مهم جدّاً قد تخدَّر. أو كما لو أنَّ حصاناً مفتول العضلات تحت السرج تحول فجأة إلى ظل أثيري: إنْ حاول المرء لمْسَه ستسقط يده في الفراغ. على الرغم من أنَّ مشاعره قد توترت مؤخراً إلى أقصى حدّ فقد استوعب بشدة ليس العالم المحيط به وألوانه وأصواته وروائحه فحسب، بل وحتى الإشارات داخل جسده: التقلصات الحادة في عضلة القلب، تدفق الدم النابض عبر الشرايين والأوردة، احتكاك رأس العظام حول الغضروف، انزلاق كتلة من اللعاب على طول المريء. اليوم، على سبيل المثال، شعر أنَّ شيئاً ما يتحرك باستمرار وألم تحت الحجاب الحاجز. في البداية عزا السبب إلى ألم الإبداع، ثم إلى العشاء السيّئ الهضم أو إلى ورم في المعدة، والآن خطر على باله: ربما، هذا مجرد قلق؟ هل تقلقه البلاد التي أصبحت فجأة غير محسوسة وغير مطيعة؟

ألقى الزعيم القطعة الأخيرة لسمكة الكارب المقاتلة التي أثارت إعجابه؛ وشطف يديه بالماء الذي ما زال يفور في البِركة، ونفض من ركبتيه الفُتات، ونهض على قدميه. أعطى إشارة بإصبعه، وبعد بضع

لحظات ظهر الطباخ إلى جانبه (هذه المرة ركض إما على حافة الممر، أو حتى في الهواء؛ ومهما كان الأمر، فإنَّ الحصى تحت حذائه لم يقرقش). فاحت رائحة المطبخ بشكل حادّ، رائحة الخردل وزيت عباد الشمس الساخن بإفراط. فحرَّك الزعيم منخريه بتقزز.

– ستطهو لي هذا البطل للغداء بزعنفته الممزقة. قال وهو يشير إلى المقاتل.

ودخل إلى البيت لكي يعمل.

مجموع ما في البِركَة من أسماك الكارب ثلاث وعشرون. تبين أنَّ أربع سمكات من بينها كانت كبيرة وذات زعانف ظهْرٍ مكسورة. كيف يمكن تحديد أيّ سمكة بالذات ظهرت للزعيم؟ واتخذ الطاهي قراراً حكيماً أنْ يقلي الأربع جميعاً.

في الوقت الذي كانت فيه الأسماك المَتْبولة بسخاء بالثوم المفروم والفلفل المطحون تحترق في مقلاة الآهين (الحديد الزهر) وهي ترشح دهنها الشفاف كان الزعيم يقرأ التقرير النهائي عن العملية الألمانية. أُدينَ وفق الترتيب بالألبوم في الخط الألماني 55005 أشخاص. ثلاث خمسات قافية جميلة. ومن بين هؤلاء، حُكمَ على 41898 شخصاً بالإعدام. سيكون من الأفضل أن تكتب 77 في المئة: سبعتان اثنتان قافية أخرى، لا تقل رنيناً. أغلق الزعيم المجلد. في الوثيقة، كان كلّ شيء تماماً كما توقع. لم يتميَّز مفوض الشعب يجوف بالخيال، وهذا ما طمأن الزعيم. لكنه تميّز بقدرته الخيالية تماماً على العمل بالنسبة لجسده النحيل ذي العفن الوراثي: لقد خاض بالتوازي مع العملية الألمانية عمليتين اثنتين أخرَيَين لا تقلّان عنها بالمستوى هما، العملية البولندية والهاربنية[1] اليابانية؛ بالإضافة إلى حفنة أخرى من العمليات الأصغر منها: الإستونية، اللاتفية، الصينية، البلغارية، المقدونية، الأفغانية...

1– نسبةً إلى مدينة هاربن الصينية التي تقع في شمال شرق الصين والتي تقطنها جالية روسية كبيرة. (المترجم).

بفضل الحماس الدؤوب لمفوض الشعب، امتلأت جميع سجون الاتحاد السوفيتي في نهاية الربيع من عام ثمانية وثلاثين بالمعتقلين السياسيين؛ ولم تعد الأماكن تكفي للمجرمين العاديين إلى حدّ كبير. وكانت توجد في الجهاز المركزي للمفوضية الشعبية للشؤون الداخلية أكثر من مئة ألف قضية معلقة، تنتظر ساعتها، عدة أطنان من الألبومات المتعلقة بالخط القومي. لا يمكن للمنظومة الإصلاحية (السجون) أن تستوعب: ابتلعت أكثر مما يمكنها هضمه، وسرعان ما هدّدت بالاختناق. لقد حان الوقت للإبطاء منح البلاد الفرصة أنْ تهدأ وتتعافى بعد الإجراءات الصحية، ومن ثم تكتسب الحساسية للسيطرة والتوجيه.

بشكل عام، كان الزعيم راضياً عن نتائج العملية الألمانية، على الرغم من أنها أدّت إلى تعقيد العلاقات مع ألمانيا: فقد أُغلِقَت خمس من القنصليات الألمانية السبع منذ العام الماضي، وبحلول مارس (آذار) من هذا العام أعلنت السفارة الألمانية إغلاق الاثنتين الأخريين، في نوفوسيبيرسك وكييف، وردّاً على ذلك طالبت ألمانيا بغلق القنصليات السوفيتية في هامبورغ وكونيغسبرغ وستيتين. وأكدت الأرقام صحة وضرورة أعمال القيادة السوفييتية: فإذا ما أدين ما يقارب الواحد بالمئة فقط من السكان في البلاد بأكملها خلال العام ونصف العام الماضي وحُكِمَ عليهم بعقوبات مختلفة، فإنَّ نسبتهم في الكيان الذاتي الألماني بقدر واحد ونصف. حتى بين مواطنينا الألمان السوفيتيين المُدَجَّنين، كان هناك أعداء أكثر مرة ونصفاً، ها هو ذا امتنان الجمهورية الألمانية (في حوض الفولغا) لعرابها! فما بالك بالألمان الحقيقيين...

قُدِّمَت سمكة الكارب إلى الزعيم، وهي لا تزال تتبخر، مع شريحة من الليمون مضغوطة في فمها باستخفاف. على الموقد انتظرت ثلاث سمكات أخرى مغطاة بأغطية زجاجية في حالة عدم معرفة السيد جثة السمكة المختارة الموضوعة بمهارة على الطبق. ولكن لم يحدث شيء: تناول الزعيم الأدوات وتجمد على بدن السمكة متأمِّلاً. أخرج

الليمون من شفتيها الساخنتين اللتين كانت قبل ساعة مفتوحتين بجشع وتتحركان؛ دسَّ إصبعه في الداخل وتلمّسَ الأسنان الصلبة الصغيرة. انتزع الجلد المقلي الذهبي بالشوكة وكشف ألياف العضلات البيضاء اللؤلئية. لم يكن يرغب في تناول الطعام على الإطلاق: استمرت الحركة تحت الحجاب الحاجز كان يستحيل وضع سمكة الكارب، الثقيلة الوزن والكثيرة الدهن، في المعدة أيضاً.

– لفَّها، لنأخذها معنا، قال الزعيم بصوت منخفض في المكان من دون أن يفهم هو نفسه لماذا يجرّ معه الغداء البارد إلى موسكو، لكنه متأكد أنهم سيسمعونه.

وطبعاً سمع الطباخ وأومأ برأسه علامة على الفهم، مخفياً دهشته؛ ولفَّها في ورق مشمَّع، ثم في ورق عادي، ثم وضعه في علبة من ورق مقوى؛ وربطها بإحكام بخيط خشن على شكل عقدتين بحريتين. أراد الزعيم أن يضع سمكة الكارب في المقصورة، في المقعد المجاور.

* * *

جلس الزعيم في السيارة الليموزين باكارد 12 السوداء اللماعة ذات العجلات البيضاء المبهرة وضغط نفسه ضغطة تعبانٍ على الكرسي الناعم ونظر نظرة شاردة في الزجاج الثلاثي الطبقات الذي ومضت من خلاله أشجار التنوب والزان والكستناء والشمشاد المعمّرة لأكثر من قرن من الزمان؛ وأخيراً ظهر فجأة سطح البحر كالفولاذ المصقول. الأبواب المدرعة عزلت الصوت جيداً: لم يسمع الزعيم أيّ شيء باستثناء همهمة المحرك المكتومة ونبضات قلبه. سمكة الكارب كانت بقربه، في علبة الورق المقوى. اختلطت رائحتها مع رائحة تنجيد الصالون الجلدي، لكن الغريب في الأمر أنَّ هذا لم يزعجه، بل العكس من ذلك، كان مُدهِشاً ومبهِجاً له أنَّ حاسة الشم صارت تقبل باستكانة رائحة السمك الكريهة بالنسبة لها عادة. ربما، أنَّ الحساسية غير الطبيعية التي لاحظها الزعيم مؤخراً هائجةً في نفسه فقدت حدَّتها وعاد جسده

إلى حالته الهادئة السابقة؟ وضع الزعيم راحة يده على علبة السمك. كانت لا تزال دافئة.

اندفع الموكب الحكومي على طول الطريق السريع، محذراً من بعيد من خلال صفارات الإنذار بقرب وصوله. السيارات القليلة التي زحفت على طريق سوخومي السريع مساء الأحد التصقت بجانب الصخور وتسمرت في مكانها تاركةً الطريق للموكب.

لم يَبقَ سوى بضعة كيلومترات حتى يصلوا إلى القاعدة الجوية بالقرب من غوداوتا على بعد خمس دقائق تقريباً عندما صدر أمر فجائي بالتوقف. وقفت سيارة «باكارد» الزعيم لعدة ثوانٍ بالضبط في منتصف الطريق، ثم من دون أنْ تستدير سارت إلى الوراء. واضطرت سيارات الفورد المرافقة واحدة من الأمام واثنتان من الخلف أن تحذو حذوها.

تراجعت السيارات لبعض الوقت حتى عادت إلى المكان الذي أطلَّ فيه الطريق على الشاطئ الضيق الذي تتناثر فيه بشكل عشوائي الكتل الحجرية. فُتح باب «الباكارد»، وخرج الزعيم من السيارة حاملاً علبة الورق المقوى بيديه وبدأ في النزول بعناية على المنحدر الناعم إلى البحر. انهالت الأحجار من تحت الحذاء الجلدي الخفيف. ألقى مسؤول الحماية نظرة تساؤل على السائق في السيارة «الباكارد» (فهزَّ الرجل كتفيه إشارة إلى عدم معرفته)؛ فأمرَ بحركة عصبية من فكّه السفلي بالإشارة أنْ يبقى نصف المرافقين إلى جانب السيارات وأنْ يلتحق النصف الآخر على بعد مسافة محترمة بالشخص المحروس.

سار الزعيم ببطء على الشاطئ، وهو ينظر إلى مخلوق ما ويلاحظ في الوقت نفسه بسرور أنه للمرة الأولى منذ عدة أسابيع لم يعد يزعجه صوت صرير الحصى تحت نعل الحذاء، وكذلك ملامسة الريح لجلده. أخيراً، رأى خلف صخرة كبيرة المخلوق الذي لاحظه من الأعلى إنه كلب رمادي كبير. كان الكلب متجهماً وأجرب، شعره المتساقط على شكل خصلات تعلّقَ على جوانبه المضلعة والمجوفة. بقي الكلب جالساً وبوزه

نحو البحر وجعل يحدِّق إلى الشخص المقترب منه بعينيه الصفراوين غير المباليتين.

– هاك، إنه لك، كُلْ، مزق الزعيم العلبة والطبقات المتعدّدة من الورق واقتطع قطعة من لحم السمك بأصابعه وألقى بها إلى الكلب. – يحزّ في نفسي أنْ تذهب سُدى. إنها سمكة جيدة.

اختطف الكلب الطعام على الطاير وابتلعه من دون مضغ، أنيابه فقط تصطكّ بصوت عالٍ وحرك بلعومه بصوت خافت قصير وهو يرسل الطعام إلى المعدة. ثم وقف على براثنه وهزّ ذيله بتردّد.

وظهر من خلف الصخرة في تلك اللحظة خطم ثانٍ، طويل وأحمر، كأنه ثعلب – كلب آخر جاء يعرج إلى الزعيم وبعد أن ضوى على ساقه المشوّهة، بدأ يطرق بذيله كالمكنسة على جنبيه. ألقى إليه الزعيم قطعة أيضاً.

اندفع الرمادي نحو الأحمر فجأة من دون سابق إنذار. عوى الأحمر بأعلى صوته، والتحما في كرة تعوي وتهرّ وتدحرجا على الشاطئ تاركَيْن الدماء وخصل الشعر على الحجارة.

لهثت بحرارة عند أقدام الزعيم ثمة أفواه أخرى، فقد خرج قطيع من الكلاب الضالة من العدم، جذبتها الرائحة، وبدأت تحتك الآن بالجوار، وهي تتدافع وتهِرّ. رفع الزعيم العبوة فوق رأسه وألقى بشكل عشوائي إلى الفُكُوك المفتوحة كلّ شيء: السمك والعظام والليمون المنقوع بالدهون وقطع البقدونس اللزجة والورق الشمعي والورق العادي والعلبة نفسها والخيط الخشن. التُهِمَ كلّ شيء على الفور، وبعد بضع ثوانٍ أصبحت يد الزعيم فارغة وازداد عدد الكلاب. جعلت الكلاب تعضّ بعضها بعضاً وهي تعوي من الألم وتزمجر مطالبةً بإصرار والتصق بعضها ببعض متراصةً أكثر فأكثر من دون أنْ تفهم لماذا كان الإطعام قصيراً جدّاً.

شعر الزعيم كيف التوى فجأة ما تحت الحجاب الحاجز وحرقه بقشعريرة، إنها الخشونة نفسها التي أزعجته في الصباح. ليس ورماً ولا

قرحة ولا قلقاً بشأن البلد ولا حدساً سيئاً حيالها، كان هذا خوفاً، كبيراً وثقيلاً: كان يدور في البطن مثل سمكة جليدية كبيرة، تمزق المعدة بالزعانف، وتلفّ الأمعاء على ذيلها وتكشط العظام بحراشفها.

وبعد أن صُمَّت أذناه تقريباً بسبب النباح والعواء غطى الزعيم أذنه بيده اليسرى، وفي محاولة منه للتخلص من رائحة قطيع الكلاب الكريهة وضع يمينه المدهّنة أمامه، فهرع عليها على الفور كلب أرقط بعد أن حرّك بشدة الجلد حول أنفه. لم يكن لدية الوقت ليعضّها إذ قضت عليه رصاصة، فانهار الكلب على الحصى. فقد أطلق عليه النار أحد أفراد الحماية؛ وقبل تلك اللحظة كان مندهشاً وهو يشاهد ما يحدث ولم يجرؤ على مقاطعة المضيف إطعامه الغريب.

اندفع القطيع في جميع الاتجاهات، وأُطلِقَ المزيد من الطلقات. أمسكت يدا شخص قويتان الزعيمَ من تحت مرفقيه وغطَّت عليه أكتاف عريضة لأحدهم من دخان البارود الخانق ومن شمس الغروب الساطعة بشدة ومن نباح الكلاب الذي يصمّ الآذان ومن رياح البحر المثيرة للغثيان، التي كان الهواء ممزوجاً فيها بكثافة مع الملح، ومن حوافّ الأحجار الحادة والقاطعة، ومن الصرير في الأسنان، ومن طقطقة الحصى. وقع الزعيم بامتنان في هذه الأيدي الكثيرة العناية والأمينة، أخذ نفساً عميقاً وحرَّك رجليه حركة سطحية لا سباحة ولا تحليق إلى مكان ما قبل أنْ يشعر ببرودة صالون السيارة حوله.

- اخرجوا، اذهبوا، همس للأشخاص القلقين المنحنين عليه: أراد أنْ يكون بمفرده. - لكن انتظر، قليلاً! أمسك أحدَهم من ياقته الصلبة ذات الطوق المعدني. - من أطلق النار أولاً هناك، على الشاطئ، المقاتل الطويل القامة؟

ذكروا له اللقب.

- تحققوا منه من جميع المجالات. كان بإمكانه أنْ يُرديني قتيلاً، كما ترى...

- مفهوم! ردَّ عليه صاحب الياقة وهو يتمايل. - سنتحقق منه! اليوم! ما إنْ نُجلِسَكَ على متن الطائرة! سوف نتحقق منه على كلّ حال!...

- أيّ طائرة؟! تخيل الزعيم لثانية الكوة المستديرة (على جانب الطائرة) وهي ترتفع مبتعدةً عن الأرض، وطرقت السمكة الكبيرة الجليدية بنوبة من الهستيريا في معدته، وأثارت فيه الغثيان. - لا طائرات، أبداً... لنعُد، إلى الداتشا، الآن...

أُغلِق الباب المدرع، بعد أنْ تركه في صمت طال انتظاره. استدار الموكب بحذر، وسرعان ما اكتسب السرعة اللازمة، واندفع من غوداوتا. بقيت عشرات الكلاب الميتة على الشاطئ: عشرة على شكل كومة، واثنان الرمادي والأحمر على مسافة منها، على حافة المياه. أصابهما الرصاص خلال العراك، وهكذا رقد الكلبان متماسكَيْن بإحكام.

لم يرَ الزعيم ذلك: اتّكأ على المقعد منهكاً، بعد أنْ أغمض عينيه وأسند خده إلى جلد الوسائد الناعم. كان الجلد يفوح قليلاً برائحة السمكة المقلية.

-30-

في ذلك الصباح الأخير، استلقى باخ لمدة طويلة تحت الغطاء المحشوّ بريش البط، يستمع إلى المطر الذي يخفق على النوافذ. وكانت الريح، التي تحاول هزّ المنزل، تارة تضرب هذا الجدار وتارة تضرب الجدار الآخر. فكانت العوارض الخشبية تئنّ، والمدخنة تصفر، والمصاريع تقعقع بالمزالج المعدنية.

لطالما كان الضجيج المفرط في نوفمبر (تشرين الثاني) الأبدي غير سارّ بالنسبة لباخ. ولكن الآن، أثناء انتظار الشيء المهم الذي كان على وشك الحدوث أو أنه حدث بالفعل، هذا الهدير وهذا العواء منعاه من الإحساس والإصغاء والانتظار. لم يكن باخ يعرف بالضبط ما سيحدث اليوم، لكنه يودّ استقباله بعينين مفتوحتين وبمشاعر متأهبة تماماً. كان يتمنى الصمت الآن.

عبس بانزعاج ومدَّ ساقيه الملتويتين واستقام من تحت غطاء الريش ونهض من سرير الأطفال الضيّق، وكاد أنْ يضرب يافوخه بالسرير الذي في الأعلى. لم يشعل مصباح الشموع: الشموع ستنفع سكان المنزل القادمين. وعدَّل في الظلام فراش القش المجعد ودسَّ غطاء الريش تحت إبطه وخرج. لم يرتدِ معطف جلد الغنم ولم يعتمر قبعة الفرو ولم يسحب حتى غطاء اللباد الأبدي، ترك كلّ شيء للأطفال. ذهب كما كان: في قميصه التحتي وحده وألقى فوقه الكنزة القرغيزية التي من دون أكمام.

خرج إلى شرفة المدخل وأغلق الباب خلفه بدقة، وطرح المزلاج.

قرّر ألّا يقفل الباب بالقفل. استند بظهره إلى الباب، ممسكاً بغطاء الريش في الزوايا ونشرها على ذراعيه الممدودتين.

ضربت المياه السماوية على وجهه وصدره. تجاهل باخ القميص والكنزة اللذين أصبحا ثقيلين من الرطوبة ونفض غطاء الريش مرة، ثم مرة ثانية وثالثة فرفرف في يديه كالسحابة الضخمة. سقت قطرات المطر سطحه الخارجي، ولكن لم تُمتَص، ارتدّت مثل الخرز. خبطت كتلة الريش طائعةً في الداخل بعد أنْ أُشبِعَت بالهواء وتورمت.

طافت من أعماق غطاء الريش ومع كلّ صفقة جديدة تصبح أكثر وضوحاً روائحُ الماضي: الروائح الرقيقة لجسم الطفلة وشعرها، ورائحة كلارا المنسية منذ مدة طويلة، ورائحة بناية المدرسة وشقة العزوبية الملحقة بها والحبر والورق والكتب. وطار جنباً إلى جنب مع الروائح من خلال الغطاء المتهالك ريشٌ وزغبٌ: في البداية، قليلاً، ثم أكثر فأكثر وفرة.

بدا الزغب الناعم مثل الطحين، مثل البودرة، مثل مسحوق الطباشير وابتعد كالضباب الأبيض عن غطاء الريش. والزغب الأكبر حجماً كان يشبه غبار الثلج. وطار الريش شبه الشفاف والذي بلا وزن تقريباً مثل رقاقات الثلج المتساقط الكبيرة. أصبح الجوّ أكثر إشراقاً إما بسبب قرب حلول الفجر أو بسبب بياض الزغب الذي تناثر كالأمواج في جميع الاتجاهات. هدأت الأمطار والرياح.

تعبت كتفاه ويداه ولكن كان يستحيل عليه التوقف، واستمر باخ ينفض غطاء الريش، وأخرج منه تيارات جديدة من الغبار الأبيض. طار الريش على وجهه ومسَّد خديه، وعَلِقَ الزغب في شعره. لم يدرك باخ على الفور أنه لم يعد بإمكانه سماع سقوط قطرات المطر ولا صفير الرياح ولا حفيف الأغصان: حلَّ صمت طال انتظاره. دوّى صوت واحد هو خفقات غطاء الريش الرتيبة. ومع كلّ دقيقة أصبح الغطاء أخفّ وزناً لأنه عندما فقدَ الزغب فقدَ معه الوزن أيضاً، وبالتالي لم يصعب عليه هزّه. وجعل باخ يرتجف أكثر تكراراً وأكثر حِدَّةً.

سرعان ما أصبحت سحابة الزغب قرب شرفة المدخل كثيفة لدرجة أنه لم يعد يرى مباني الفناء ولا قمم الأشجار خلفها ولا السماء المظلمة المرتفعة فوق المزرعة. أحسَّ فقط بصلابة الباب خلف ظهره وصلابة شرفة المدخل تحت قدميه. وكلّ ما سواهما من حوله صار ناعماً ويتكون من الزغب فقط الذي يحوم حوله.

عندما فرِغ الغلاف وصار بلا وزن وبقي من غطاء الريش القماش وحده فقط أخفض باخ يديه. هدأت تدريجيّاً زوابع الزغب التي رفعها وسقطت على الأرض. لا تزال عاصفة الريش تدور دوراناً مضطرباً في الفناء وعلى منحدرات الأسقف ولكن ببطء أكثر، وبمستوى أخفض. نشر باخ بعناية غلاف الغطاء على درابزين شرفة المدخل سيكون بمثابة منشفة أو خرقة لمسح الأرض ونظر حول المزرعة.

غطى الزغب الأبيض كلّ شيء: الأرض والجدران والأسقف والأبواب والمصاريع والحواجز ومغارس الحديقة والأسوار. وانتصبت تحت الستارِ الأبيض أشجارُ التفاح في الحديقة والبلوط في الغابة والبتولا وأشجارُ الصنوبر. انهال الزغب الخفيف من الأعلى إما من الأسطح أو من السماء نفسها. أينما وجّه باخ نظره، كان ثمة زغب، زغب أبيض متواصل. يا ترى، هل هو زغب؟ مشى باخ من شرفة المدخل إلى ذلك البياض الكثيف الذي غطى الفناء وقد بدأ يصرِف ويتكوم. فجمعه براحة يده ووضعه على لسانه: إنه ليس زغباً بل ثلج.

والهواء، لأول مرة منذ سنوات عديدة، لا تفُوح منه رائحة الرطوبة، بل رائحة الثلج. هطل من السحب، لأول مرة منذ سنوات عديدة، ليس المطر، بل الثلج. وتراءت للصقيع من هذه السحب شمس الشروق كبيرة وقرمزية.

توجه باخ إلى نهر فولغا وهو غارق إلى ركبتيه في ركام الثلج ومعرِّضاً وجهه إلى النُّدَف المتساقطة. من دون أنْ يعرف لماذا يفعل ذلك. فقد بدا له: أنَّ هذا هو الصحيح.

كانت قدماه المنتعلتان جزمة منزلية من اللباد تصفقان في الثلج. استنشقت مناخره بكلّ سرورٍ الهواءَ القارس والحلو قليلاً من البرد المتزايد وزفَرَت بخاراً أبيض.

توقف باخ على المنحدر وألقى نظرة على نهر الفولغا. سطع سطحه الرمادي المائل إلى اللون الرصاصي أمام عينيه، وسرعان ما تغطى ببقع من قِطَع الجليد الموحل. انجرَّت عصيدة الجليد على طول النهر، ملتحمة بأرغفة كبيرة وهي تلمع في أشعة الفجر الوردية. امتدت قطع الجليد كأنها فطائر من مختلف الأشكال والأحجام على طول المجرى. وفي مكان ما بعيداً، ربما، بالقرب من غنادينتال، لاحت نقطة سوداء معتمةً في الماء: إنه قارب.

كيف تمكن باخ من رؤيته بعينيه شبه العمياوتين من خلال الثلج المتساقِط؟ لكنه رآه. بل الأصح، القول: عرفه. لم يكن لديه شك لثانية واحدة: أنَّ القارب جاء إليه.

رفع يديه ولوح له بالتحية: أنا هنا! بالكاد ارتفعت فوق رأسه يداه اللتان تعبتا من نفض غطاء الريش وأوجعته كتفاه، لكن باخ استمرّ في التلويح.

تحرك الزورق ببطء. كان عدد المجدّفين على ما يبدو، اثنين يعملان بانسجام وسرعة، لكن عصيدة الجليد تحت المجاديف والرياح القوية جعلت المركب يتحرك بصعوبة.

ضيَّقَ باخ عينيه من الثلوج الكثيفة وخلع كنزته وهزَّها مثل العلم حتى يمكن أنْ يُلاحَظ بشكل أوضح. ثم قرّر النزول إلى الماء باتجاه القارب القادم.

انزلق على الأحجار المغطاة بالجليد وتشبث بالعشب المتجمد وكاد أنْ يسقط على الدرب الضيق المؤدي إلى الشاطئ. وفي الطريق أسقط الكنزة، فقد طوَّح بها الهواء على الفور إلى الجانب، لكنه لم يضيع الوقت في البحث عنها. وقفَ على صخرة عالية بالقرب من الماء وأشَّر مرة أخرى بيديه: ها أنا ذا!

رأى ظهور المجذفين فقط، أقوياء ويرتدون معاطف رسمية رمادية، تمايلوا في القارب موافقين: جدفة وسنصل! جدفة أخرى! فخرجت المجاذيف من الماء وغاصت فيه مرة أخرى: دفعة! دفعة أخرى!

كان الثلج يتساقط بكثافة لدرجة أنه لم يعد من الممكن رؤية القارب والأشخاص الجالسين فيه. لكن المجدفين لم يستديروا. كيف شقّوا طريقهم؟ كيف لم ينحرفوا عن الطريق في الثلج؟ أم أنهم انحرفوا؟

زمجر بشيء، محاولاً جذب انتباه المجذفين، لكنهم لا يسمعون.

زمجر بصوت أعلى، لا يسمعون.

مشى من الصخرة إلى النهر وذهب لملاقاته، محرِّكاً رجليه بصعوبة في الأمواج الجليدية. سار في الماء بعمق رسغه، ذهب بعمق في الركبة. انزلق على حجر منحدر وسقط في نهر الفولغا.

***

اجتاحه الماء على الفور دفعة واحدة. وجرّه إلى مكان ما، صفعه أولاً على قفاه، ثم على خده بالحجارة الحادة. وانتزع جزمته اللباد من قدميه ونفخ قميصه وسرواله ومسَّد عليه من أخمص قدميه إلى خُنصُرَي يديه ومن سرّته إلى أمِّ رأسه (يافوخه). ودخل في أذنيه وفي فمه وفي عينيه. وجرَّه وسحبه أبعد فأبعد.

لم يكن يشعر بالألم. ولم يشعر بالخوف. ولم يشعر بالبرد على الإطلاق. بقي البرد هناك، في الأعلى، حيث طرطشت على سطح الماء بقع الضوء الفضية. أما هنا في الأعماق، فهو مستريح.

الأصوات هنا مهموسة وممدودة، والحركات سلسة وبطيئة. الضوء قليل، لكن لم تكن ثمة حاجة للكثير منه: لم يكن عالم الماء ساطعاً، وكان التأمّل فيه أكثر متعة في الإضاءة الخافتة. هل أضاءت المياه نفسها قليلاً؟ أم الطحالب المتطاولة من القاع الموحل؟ أم أنَّ الضوء الأصفر المرتجف جاء من قشور الأسماك العائمة؟ مهما كان الأمر، ولكن في

النهاية بعد أن فتح عينيه، أدرك باخ أنه يرى بوضوح. وأدركَ أيضاً أنَّ الماء لا يعيق التنفس: فقد دخل فيه، مثل الهواء، وخرج بالسهولة نفسها؛ فبعد أنْ أُشبِعَت رئتاه بالسوائل اشتغلتا بشكل صحيح وملأتا جسمه بالطاقة.

نظر إلى راحتيه الشاحبتَين والمخضرَّتَين؛ ونظر إلى ساقيه في السروال الممزق عند الركبتَين؛ ونظر إلى قدميه الحافيتَين، كان جسده سليماً. تلمَّسَ لحيته والضفيرة على قفاه التي شَعَّثَتها تيارات الماء، كان رأسه سليماً.

نظر حوله. وجلس، مغموراً قليلاً في الطمي، في مكان ما في قاع الفولغا. امتدّ الماء فوقه على ارتفاع قامات عديدة. وانبسطت على اليمين وعلى اليسار، في جميع الاتجاهات، طبقة سميكة خضراء، تتمايل قليلاً مع تيار الماء، وتلألأت جوانب الأسماك ذات القشور. ارتعشت ملامح الأشياء، الحجارة وجذوع الأشجار، شجيرات المياه قليلاً وسبحت في البعد، لكنها في القرب اكتسبت وضوحاً. دفعه الماء في ظهره دفعاً خفيفاً ووديّاً فنهض وسار ببطء في القاع، متكيفاً مع التمهّل في هذا العالم.

كلّ خطوةٍ ترفعُ من القاعِ سحابةً من الثفالة السوداء، فكانت آثار خطى باخ تبقى عالقة في الماء لمدة طويلة بعد مروره في الجوار: من جانب الصخور التي ضخّمَها تراكم الطمي، ومن جانب أكوام الحجارة الأصغر ومسايل القاع، ومن جانب تلال الأصداف وأجمات الطحالب.

تعثرت رجله بجسم مجوف خفيف إما علبة من الصفيح أو قطعة من الأنابيب. قذفها برجله وواصل سيره. وبعد خطوتين تعثَّر مرة أخرى: يبدو أنَّ هذه القصاصات متناثرة بكثرة حوله. التقط باخ واحدة وفحصها: حلقة صغيرة حمراء حتى في إضاءة المياه الخضراء، ربما مصنوعة من البرونز متلألئة بأناقة مدهشة، كما لو كانت قد خرجت للتوّ من ناقل المصنع. ألقى بها، ثم واصل السير بعناية أكبر.

بدأت تقع تحت قدميه فعلاً أنواع القمامة، الصغير منها والكبير: قطع من شِباك الصيد ذات أطراف خيوط متقطعة، وشظايا مجاديف، وأطباق

مكسورة، ومجموعة من الرسائل مربوطة بشريط، وزوجان من مراسي السفن، وأكياس أمتعة، وحقائب سفر بكميات كبيرة، وزجاجات، وسلَّم نقّال مكسور، والعديد من الفساتين النسائية، ومنفضة سجائر، وطاولة بليارد مقلوبة، وخزانة أدراج متداعية وحتى عارضة أزياء لملابس السيدات من مَشْغَل خياطة. وقد تجاوز باخ شيئاً منها، وداس فوق شيء ما. ولاحظ أن جميع الأشياء لسبب غريب لم تتأثر بالنهر: على الرغم من أنها مدفونة في الطمي، إلّا أنها نفسها لم تتغطَّ بهذا الطمي، ولم تصدأ، ولم تغمق، ولم تتغطَّ بزنجار زمردي.

برز من رمال القاع جانب مطلي باللون الأصفر من قارب أحد تلك المراكب الواهنة التي تُستعمل للنزهات والتي يركبها سكان المدينة أيام الأحد على طول شواطئ الضواحي.

وليس بعيداً رقد جسر يغمره الفيضان، يسطع بخشبه المقشوط للتوّ، إنه جسر متين يبلغ طوله خمس أو ست قامات، مع درابزين سميك ودعّامات أنيقة.

يا له من جسر! ارتفع إلى جانبه منزل كامل، ربما، حمله الفيضان نفسه. على الجدران الخشبية، يمكن للمرء أنْ يرى أصغر زخارف خشبية، بدت على مقاطع الأطواق قطرات من الراتنج بلون ذهبي، وبدت الإطارات المنقوشة بيضاء، كما لو قُطِعَت قبل دقيقة.

واصل باخ المشي ببطء مندهشاً من تنوع عالم المياه وقدرته المذهلة على حماية الأشياء من تأثيرات الزمن والطبيعة. حدث آخر فيضان كبير، وفقاً لذاكرة باخ، في عام الحصاد الوفير. هل يمكن للمنزل أن يبقى في قاع الفولغا لمدة عشر سنوات دون أنْ يتغير على الإطلاق؟

ومشى من أمام تماثيل بيضاء ثلجية في أردية الجص (هل رمت بها في النهر إرادة أحدهم، أم حدث ذلك صدفة؟)؛ ومن جانب سبورة صفٍّ دراسي عليها أمثلة حسابية مكتوبة بالطباشير؛ ومن جانب أكوام من الكتب والمجلات (آه، لو يجلس هنا ويقرأ إلى ما لانهاية...)؛ ومن جانب

نخلات مائلة في سنادين كبيرة من السيراميك؛ ومن جانب ستائر حريرية تتمايل بفعل تيارات الماء وثريات برونزية غارقة في الرمل؛ ومن جانب مَنسَج (منول) بقماش منقوش لم تكتمل حياكته بعد؛ ومن جانب عربات رفعت عريشتها باتجاه السماء؛ ومن جانب قطيع نائم من «الأقزام»[1] (ها، قد تبيَّنَ أنكم هنا، أيها الأصدقاء الأعزاء الضائعون!)...

على مقعد أحد «الأقزام» لاحظ وجود مخلوق نائم إما سمكة كبيرة أو حيوان. اقترب لكي يستجلي الأمر فصُعِقَ من الذهول: ليس سمكة أو حيواناً، جثا هناك عجل جنين (لم يولد بعد)، مسدِلاً أرجله ومُغمِضاً عينيه العمياوين. وقد تمدّد في القاع كذلك عدد كبير من العجول الأخرى: رؤوسٌ كبيرةُ الجباه ذات آذان صغيرة كالبراعم وشفاه تشبه شفاه البشر تقريباً، وأرجل طويلة السيقان ذات حوافر متباعدة، وأضلاع رقيقة تحت جلد وردي فيه خطوط زرقاء من الأوردة. هذا هو المكان الذي أحضرها إليه نهر الفولغا من ذلك الربيع الرهيب من عام عشرين. هذا هو المكان الذي أخفاها فيه في القاع. كيف يمكن أن ترقد العجول هنا منذ ما يقرب من عقدين من الزمان من دون أنْ تمسَّها أسماك الكراكي الرمحية والجرّي (القرموط)؟ ومن دون أنْ تنتفخ أو تتفكك بالماء؟

لم تكن العجول وحدها ما حافظ عليه نهر الفولغا. فبعد ذلك، اكتشف باخ أيضاً أول إنسان، كانت امرأة. غارقة بإرادتها الحرة، وهذا ما مكتوب على وجهها: الحزن في عينيها، وشفَتاها مضغوطتان ضغطة شَجَن. كلّ ملامحها، شعرها الأسود المُرَفرِف، ورقبتها الرقيقة في خط العنق من فستان من الدانتيل كلّ شيء يتنفس نضارة، كما لو أنَّ المرأة لم تمُت، بل نائمة. كانت تتمايل، متكئة في سحابة من النباتات، تارة ترتفع قليلاً إلى مضجعها وتارة تغوص ثانيةً في السيقان الخضراء. وكان الفستان الطويل يتمايل على أثرها، وبدت من تحت أذياله ركبتاها الشاحبتان. سحب باخ التنورة وغطى ساقيها العاريتين.

1- تقصد الكاتبة جرّارات «كارليك». (المترجم).

هل يستحق الأمر أنْ يمشي أبعد؟ أم أنَّ من الأفضل له أن يبقى في الأرض التي يعرفها في مجتمع الكتب المُمْتِع والتماثيل الكلاسيكية والمنازل الفارغة؟ أراد باخ الجلوس على جانب أحد الجرارات «كارليك» للتفكير في هذا الأمر، لكن المياه دفعته من الخلف بسلاسة وبرَوِيَّة وباستمرار. حملت المياه باخ رويداً رويداً، أسفل فأسفل. فأطاع وواصل السير.

وصار الناس حوله أكثر.

ثمة جندي يرقد في وادي القاع مغموراً إلى نصفه في الأرض وهو يمسك ببندقيته في يديه.

وكان ثلاثة يجلسون في سيارة ظاهرة من الطمي كلهم متشابهون يرتدون سترات جلدية ويضعون على عيونهم نظارات شمسية دائرية. انسكب الرمل في النظارات ولم تكن عيونهم تُرى.

جَثَمَت زلاجة على جانبها وهي غارقة في رواسب القواقع. الخيول المشدودة إليها حامت في المياه، ملجومة بالعدّة، وأعرافها وذيولها ترفرف مع التيار. وبالقرب منها في القاع رقد ركّاب يرتدون معاطف سميكة ذات ياقات أستراخان[1] وقبعات أستراخان سميكة وناعمة، وكان مدفع رشاش ملقى بحزام خرطوشة نصف فارغ.

لم ينظر باخ في وجوه الغرقى، الوجوه الحية تماماً التي لم يمسها الماء ولا الأسماك على الإطلاق مشى إلى جانبهم فحسب. أراد أنْ يسرع الخُطى، ولكن هذا الأمر كان صعباً في العالم المائي المتمهِّل وبسبب ذلك مشى ببطء وتحاشى النظر إلى عيون المرحومين وتجنب المرور

1- الأستراخان هو جِلد ذو صوف قصير ومجعَّد مأخوذ من خراف صنف كاراكول المولود ميتاً، والذي يعطيه خصوصية في طريقة تجعده. كان هذا الجلد ينتقل عن طريق مدينة أستراخان روسيا، وقد كانت عاصمة خانات منغوليا ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر. هذا الجلد مطلوبٌ جدّاً في المصنوعات الموضة ذات الجودة العالية، لصنع القبعات والمعاطف وغيرها. (المترجم من ويكيبيديا بتصرف).

من جانبهم بقدر الإمكان. بدا بعض أولئك الذين قابلهم معروفاً له، على ما يبدو أنَّ هؤلاء التعساء دُفِنوا في الثغرة (فتحة في جليد النهر) في عام الجياع. ولم يتوقف للتحقق من الافتراض.

غير أنَّ جسدين، جسد رجل كبير وجسد أنثى ضئيلة جذبا انتباهه. يا ترى، مَن هذا الذي تكوَّم على المنحدر؟ البطن مثل صخرة كبيرة من صخور الفولغا والأصابع بسُمْكِ الحنكليس (ثعبان الماء) واللحية مثل حُزمة من الشمبلان أليس أودو غريم؟ ومَن انزوى بجانبه وجه متجعد وشعر أبيض مثل بطن سمك أليست تيلدا؟

نعم، هما.

هل كانا يغادران ساراتوف وهما يلعنان كلارا الهاربة؟ أم يعودان إلى المزرعة للبحث عن البنت الضائعة؟ لم يغادرا ولم يصلا، إنهما يرقدان الآن في القاع مجردين من الملابس إلى حدّ القمصان التحتية وحافيَيْن، لا بدّ أنَّ قطاع الطرق قد سرقوهما وألقوا بهما في النهر.

لم يكن ثمة غطاء على رأس باخ ليرفعه ويكرّم ذكرى الراحلين. وقف للحظة في مكان قريب، ولكن التيار العنيد دفعه في ظهره وضغط تحت ركبتيه وسحبه إلى الأمام. ولم يكن هناك جذمور غارق أو حجر ليتشبَّث به ويبقى قرب المرحومَين، جُرَّ باخ أبعد. وبعد أن اغتمَّ وغضبَ من المياه القاسية التي لا تسمح له حتى لدقيقة واحدة أنْ يبقى بالقرب من أناس مهمين بالنسبة إليه أغمضَ عينيه ومشى كالأعمى.

لكن شخصاً أو شيئاً لم يُرِد أنْ يبقى من دون أن يلاحظه أحد سبح باتجاه باخ وطوَّقه، كما لو كان يعانقه. فاختلجَ باخ وكاد أنْ ينقلب إلى الخلف، ودفعه بعيداً، كان الشيء ناعماً وبارداً وثقيلاً. فتح عينيه: إنه شاب. جسمه العاري جميل، مثل واحد من التماثيل التي خلَّفها باخ وراءه: جلد أبيض وعضلات مفتولة وتناسُبٌ مثالي. الوجه ليس وجهاً، بل مُحَيًّا دقيق ورقيق، لا يوجد مثله إلّا في صور القديسين على الأيقونات. تلألأت على هذا الوجه ليست عينين، بل مقلتان. ولم تكن شفاه تلك التي بدت على هذا

الوجه بلونها الأحمر، بل مُقَبِّل عذبٌ. وليس خدوداً ما بدا بلونه الوردي الرقيق، بل وجنات ناعمة. كانت نظرة الشاب بالغة وحزينة يمكن أنْ تُنسَب إلى رجل عجوز. نظر هوفمان الميّت إلى باخ وهو يعوم في الظلام. وفجأة تذكَّره باخ متأخراً، ومدّ ذراعيه، وقفز وراءه ولكن كلّا، لم يمكنه اللحاق ولا الارتباط. فقد ابتعد جسد هوفمان الشاب والجميل، حملته تيارات غير مرئية. وحملت التيارات نفسها باخ في الاتجاه الآخر بعيداً.

لماذا تغير جسد هوفمان؟ هل هذه علامة على استشهاد؟ أو لعبة خيال من باخ؟ أم أنَّ الآن فقط، في الحياة الآخرة، ظهر هوفمان أمام باخ بهيئته التي كان عليها دائماً؟

أيّ نوع من الماء هذا؟ ناعم وودود، ولكنه يسحب إلى الأمام بقساوة؟ الذي يبقي الناس والحيوانات والأشياء في الحالة نفسها التي غرقوا فيها؟ والذي يحرس نوم الموتى بعناية شديدة والذي يمنع من البقاء معهم لأكثر من لحظة؟ ولماذا عليه هو، باخ، أنْ يكون في الماء إذا لم يكن نفسه قد مات بعد؟

دفع باخ نفسه من القاع وجدَّف بيديه حاول أنْ يطفو إلى السطح. لكنه لم يستطع الصعود أكثر من قامة لقد غابت قوة الطفو التي تعمل عادة في الماء: سرعان ما لامست قدماه القاع مرة أخرى، واستولى التيار على الجسم الذي رفعته القفزة وسحبه.

إلى أين سحبه؟ ماذا كان الغرض من هذه الرحلة الغريبة؟

توقف عن تحريك ساقيه، ولم يعد يريد مساعدة الماء بعد الآن، لكن التدفقات البطيئة حركت جسم باخ بانتظام على طول القاع وفق سرعة خطوته المعتادة. وتدحرج قليلاً في التيار، متقلباً على جنبه ثم على بطنه ثم على ظهره كما يتقلّب الناس في السرير الوثير؛ أخيراً وجد موضعاً ملائماً وقرّر الإذعان: ليكُن ما يكون. كان بإمكانه أنْ يغمض عينيه وينتظر انتظار الأعمى حتى نهاية المسار؛ لكن باخ قرّر السفر بعينين مفتوحتين حتى لا يفوّت شيئاً مهمّاً مرة أخرى، مثلما كادت تفوته لحظة لقاء هوفمان.

رأى سفينة حربية غارقة مليئة بالبنادق.

رأى عربة قطار شحن بداخلها خيول لا يعرف أحد من أين أتت.

رأى مركباً نهرياً سطحه مليء بأكياس الحبوب.

وشعر بأنَّ ما يحدث له مغزى معيَّن، ولكن المغزى ضمنيّ ومخفيّ عن باخ لا بسماكة المياه الخضراء ولا برواسب الرمل من حوله ولا بتلال الطمي. إذن، بأيّ شيء يكمن ذلك المغزى؟ ما الذي يجب أن يراه باخ خلف مجموعة من الرجال الغارقين والأشياء المدفونة في النهر؟ ماذا عليه أن يفهم؟

وبعد أنْ توقف باخ عن الاهتمام بالأشياء القريبة والمضاءة، بدأ ينظر إلى الأمام، في ظلمة الأعماق البنية. وجعل يسير ببطء فوسِعَه الوقت لرؤية المسافات البعيدة الموحلة، ولكن حتى هناك لم يكن شيء، باستثناء جميع الناس والأشياء نفسها، التي تومض فيما بينها الأسماك الفضية أحياناً.

صوَّب بصره نحو الأعلى ولكن من هنا، من القاع، بدا سطح الماء وكأنه السماء البعيدة فحسب التي يتسرب منها ضوء أخضر باهت.

ولأنَّ باخ لا يعرف ما يجب القيام به وإلى أيّ مكان آخر يوجِّه بصره، نظر إلى القاع تحته، إلى الأحجار المترسبة على الرمال الصفراء التي انزلق عليها ظلّ باخ الآن بلا صوت.

وهل هذه حجارة؟ هل يبدو هذا لِباخ أَم من خلال استدارة الحصى تظهر بعض الملامح: أفواه فاغرة وعيون وأسنان؟ هل هذه طحالب تنمو من تحت الأحجار أم هي شعر يتحرك على الرؤوس؟ هل هذه طيات الرمل والأرض ترقد بشكل غريب أم هي أجساد ملقاة في القاع؟

كلّا، هذه ليست رؤيا، بل واقع.

ليست حجارة، بل وجوه.

لا طمي ولا أرض، بل أجساد.

أجساد الصغار والشباب والكبار، الرجال والنساء، الشيوخ والأطفال،

التي ترتدي الجلابيب والفساتين الباهظة الثمن، والكتان والجنفاص، والحديد والجلود، والأجساد العارية التي ترتدي الدروع والخوذ. التقى الجميع واختلطوا في كتلة واحدة لا انفصام لها: الرؤوس الشقراء، والرؤوس السوداء والتي غزاها المشيب، وضفائر العذارى وضفائر المحاربين القرغيزيين، والقمصان المُطرَّزَة بالصلبان، والأحذية التي من جلود العجول والتي من جلود الخنازير، وشرائط الرتب العسكرية، والجزمات المطاطية، والأحذية المصنوعة من الحبال، والمهاميز،[1] والرُّكَب والمتون، والجزمات المبطّنة بالفرو، والأقـدام الحافية، وسراويل الخيالة، والخوذات والواقيات، والجباه، والأنوف، والذقون، والمناجل، والجراميق، وقبعات فرو السمور المدببة من الأعلى، والأكفّ والسواعد، والأطواق، والأخفاف التترية، والدروع والكنانات (جُعَب وضع السِّهام)، والسترات الشركسية من الصوف الناعم، والنظارات والصدارات (الكاب)... كان الناس يرقدون بعضهم على صدور بعض وعلى بطونهم وعلى ظهورهم متداخلين بالأصابع ومتشابكين باليدين، الخدّ إلى الخدّ، والفم على الفم، كما لو لم يكن لديهم أعز من بعضهم بعضاً. كانوا يرقدون إلى الأعلى باتجاه التدفق وباتجاه المصب مع التدفق، يميناً ويساراً إلى كلّ مكان استطاع بصرهم الوصول إليه. غطّت الأجساد قاع الفولغا أو بالأحرى شكّلت القاع. العيون الفاتحة، والداكنة، والبنية، والزرقاء، المفتوحة، وذات الأهداب الطويلة الرموش، والضيقة التي بالكاد يمكن رؤيتها من تحت الجفون المنغولية البارزة، كلّها نظرت بهدوء إلى باخ من جميع الجهات. ومن خلال هذا كلّه، من خلال الأقمشة والدروع الحديدية والدروع والخوذ الخشبية والعظمية والمعاطف الرسمية والقمصان العسكرية والعباءات القوقازية والقبعات الفرو الأستراخانية ومن خلال الأجسام والأطراف والوجوه والشعر والأسنان

1- جمع مِهْمَازُ: حديدةٌ في مؤَخَّر حذاء الفارس أو الرائض. (المترجم، من معجم المعاني الجامع).

والأظافر، وتحركت السهام والرماح والحراب وتراءت بلونها الغامق ثقوب الرصاص وجروح السكاكين. مثل الدبابيس أو الغرز أو المسامير.

وبعد أن ارتجف باخ مما رآه، فتح فمه، راغباً في الصراخ ولكن في عالم الماء لم تكن الصرخات ممكنة. خفق بحركات تشنجية، محاولاً ترك القاع، لكنَّ الجاذبية كانت أقوى: ارتفع باخ في الماء، على مسافة ذراع من الأجساد المتجمدة، من دون أنْ يعرف كيف يبتعد عنها.

هل يُعقَل أن يعيش هذه السنوات كلّها من *دون أنْ يعرف*؟ وأنَّ الناس في الأعلى، في كلتَا ضفّتي النهر أيضاً يعيشون *من دون أنْ يعرفوا*؟ يشربون هذا الماء ويستحمون فيه ويعمِّدون أطفالهم به ويشطفون ملابسهم من دون أنْ يعرفوا؟

وعن أيٍّ شيء لا يعرف؟ عن أنَّ هذا النهر مليء بالموت؟ وأنَّ قاعه مليء بالموتى، وأنَّ الماء يتكون من دم ومن لعنات الاحتضار؟ أَم عكس ذلك، هو مليء بالحياة؟ لدرجة أنه حتى أولئك الذين أكملوا رحلتهم نجوا من التحلّل؟

وعن أنَّ هذا النهر هو القسوة المطلقة؟ مقبرة للأسلحة ولآخر الأدلة؟ أو العكس، هو الرحمة الحقيقية؟ رحمةٌ جَلُودٌ، تغمر بالموجة وتجرف بالتدفّق كلّ شيء وحشي وقاسٍ وهمجي؟

وأنَّ هذا النهر خدعة مطلقة؟ جمال خدّاع يخفي قبحاً لا مثيل له؟ أو، العكس، هو حقيقة مَحض؟ حقيقة نقية، محفوظة بعناية ينتظر لقرون أولئك الذين بلا خوف سيمشون على قاعه وعيونهم مفتوحة؟

أذعن باخ، الذي أذهلته الأسئلة التي لم يُقَيَّض له أنْ يجد إجابة عنها، لدافع ليس له تفسير ومدَّ يده وأمسك بشيء ما. اتضح أنه بندقية. وبعد أنْ تمسك بالماسورة بإحكام، سحب باخ نفسه، وانحدر إلى الأسفل ووضع وجهه وصدره على معطف قوقازي. فدُفِنَت جبهته في كتفية الرتبة. والتفَّ شيء طويل ورقيق بجانب خده إما سوط جَلد أو جديلة فتاة. وتمايلت أمام عينيه لحية حمراء شعثاء.

ولمّا شعر باخ بصواب ما يحدث ورضيَ به أجمع أمره على أنْ يشق طريقه نحو القاع ويبقى هنا إلى الأبد. غير أنَّ التيار لم يسمح له ودفعه أبعد. فقاوم لبعض الوقت، لكن لا يمكن التغلب على الفولغا. وبعد أن تعب من الصراع، فتح باخ أصابعه فغمره التيار البطيء مرة أخرى.

أصبح الماء أكثر عطاءً وأشدّ لطفاً. صار الماء الآن مثل الزيت الدافئ، مثل التنفس، مثل الحرير. مسَّد على التجاعيد على جبين باخ، وحلَّ شعره ومَشَّطَه. وانتزع من قميصه التحتي قصاصات الطحالب وقشور الأسماك الملتصقة به وغسل قدميه السوداوين من الطمي. فشعر بالارتياح وتناسى نيته الأخيرة وتمدّد بانشراح على تدفقات المياه، ناشراً ذراعيه على نطاق واسع ومنكساً رأسه إلى الخلف مثلما يفعل الأطفال في المهد. سحبه الماء ولولا أنه حمله بسلاسة إلى مكان ما، لكان قد مدّد جسمه المتراخي في الطول.

وشعر كيف أصبحت ساقاه وذراعاه طويلة ومرنة، وكيف يكبر صدره ويستقيم. وكيف يستقيم عموده الفقري فقرة بعد فقرة وكيف تنتظِم أضلاعه. وكيف تتضخم عضلاته المليئة بالماء. وكيف تنفتح رئتاه وتستقيم أحشاؤه الداخلية المضغوطة، والآن يذوب الجلد غير الضروري في الأمواج. جسد باخ، الذي لم يعد مقيداً بحدود الجسم، تمدّد بالعرض والطول حمله التيار في العمق، من منبع الفولغا إلى مصبّه.

وصلت أصابع قدميه إلى الخُلجان الهادئة في شكسنا ومولغا، وإلى الشواطئ المنحدرة تدريجيّاً في دوبنا وكوستروما. وامتدت ركبتاه وساقاه في رافد أوكا، وانبسط فخذاه في المياه الزرقاء لرافد سفياغا. وتمطَّت يداه إلى كاما، وانتشرت عبر انحناءات فياتكا وتشوسوفا وفيشيرا[1]. وانبسط جذعه على طول جبال جيغوليفسيي وجبال زيميوفي في مَصَبِّ نهر إيرغيز ومصَبِّ يروسلان. وشعره انتشر على طول نهر أختوبا وانغمست أطرافه (أطراف الشعر) في بحر قزوين.

1- هذه كلها أسماء لروافد وأنهار تصب في نهر الفولغا. (المترجم).

ذاب باخ في الفولغا. بقي القليل جدّاً حتى توشك اللحظة التي يحل فيها تدفق دمه محل تدفق النهر، وتصبح عظامه رملاً وحجارة، وشعره طحالب، عندما فجأة أمسكته قوة خشنة وحادة من صدره وجرَّت لحيته، وجذبته إلى الأعلى.

***

سفعَ وجهه الهواء البارد. وتغلغل ذلك الهواء نفسه في منخريه كذلك، بدلاً من الماء الذي اعتاد عليه. سعل باخ، الذي كفّ عن التنفس، واختلج راغباً بالعودة إلى النهر بأسرع وقت ولكن لم يُسمح له: أمسكت به يدَا أحدهم بإحكام. شدَّته بقوة وجرَّته من جلده، من موضِع الحزام، وها هو الآن في قاع القارب: فاغراً فمه بتشنج والماء يتدفق منه.

فوقه وجهان قرغيزيان حمراوان من الصقيع. أحدهما شاب يعتمر خوذة من الصوف بذؤابتين متدليتَين على الأذنين. والثاني مخطط بالتجاعيد في صدارة زرقاء بشريط قرمزي اللون.

– أردت الذهاب، قال الشاب الغريب.

لم يردّ الثاني. عرف باخ ملامحه، على الرغم من تغضنات السنين: إنه قيصر، المراكبي المتجهّم من مزرعة غريم.

اختفى الوجهان، بدأ القرغيزيان يجدّفان. باخ مستلقٍ في قاع القارب المتأرجح، وقد اعتاد على التنفس مرة أخرى. تتساقط ندف الثلج على جبهته وعلى خديه. ويُسمَع كيف تحتكُّ قطع الجليد على جوانب القارب الخارجية.

– هل نمضي؟ صدح صوت قيصر.

باخ يستنشق الهواء اللاسع الممزوج بالثلج ويجيب:

– أنا مستعدّ.

الخاتمة

اعتُقِل ياكوب إيفانوفيتش باخ في عام 1938 وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً في معسكر العمل الإصلاحي. وفي عام 1939 نُفِيَ إلى مكان قضاء عقوبته في معسكر قراغندي للعمل الإصلاحي من جمهورية كازاخستان الاشتراكية السوفيتية. في البداية، عمل في بناء وحدة جيزكازغان الصناعية، ثم في استخراج الخام لمصانع تعدين كارلاغ. وفي عام 1946، توفي في انهيار المنجم مع أحد عشر سجيناً.

في 11 سبتمبر (أيلول) 1941، وفقاً لمرسوم هيئة رئاسة مجلس السوفيت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الذي يقضي بـ«نقل الألمان الذين يعيشون في منطقة حوض الفولغا»، هُجِّرَ جميع سكان مستوطنة غنادينتال إلى جمهورية كازاخستان الاشتراكية السوفيتية. وسُلِّمَت غنادينتال لتوطين اللاجئين من مناطق الخطوط الأمامية وغُيِّرَ اسمها إلى غيناديفو. هُجِّرَ من حوض الفولغا في سبتمبر (أيلول) 1941 ما مجموعه 438 ألف ألماني سوفيتي.

تلقت آنا ياكوبوفنا باخ (آنتشي) التعليم الثانوي في المدرسة الداخلية التي تحمل اسم كلارا زيتكين في مدينة إنجلس (بوكروفسك سابقاً). كانت تحلم بالالتحاق بمدرسة إنجلس للطيران الحربي، وقدمت وثائقها، لكنها لم تنجح في اجتياز امتحانات القبول فقد بدأت الحرب. وفي سبتمبر (أيلول) 1941، رُحِّلَت من منطقة حوض الفولغا مع غالبية السكان الألمان في المنطقة وأرسِلَت إلى مستوطنة خاصة في قرية كارساكباي،

على بعد 50 كيلومتراً من قرية جيزكازغان التابعة لمقاطعة قراغندي من جمهورية كازاخستان الاشتراكية السوفيتية. في نوفمبر (تشرين الثاني) 1942، استُدعيت للخدمة في جيش العمل ضمن تشكيلات «طوابير الشغيلة» وعملت بها في مرافق المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية في منظومة قراغندي. وفي عام 1946 تعرضت لإعاقة (بُترت ساقاها إلى منتصف الفخذ بسبب إصابة في العمل)، وعادت إلى المستوطنة في جيزكازغان وحصلت على وظيفة كاتبة في سوفخوز (مزرعة حكومية).

تخرج فاسيلي فاسيليفيتش فولغين (فاسكا) عام 1941 في كلية اللغات الأجنبية بمعهد ساراتوف التربوي. لم يسعفه الوقت للحصول على دبلوم مدرس لغة ألمانية، فقد تطوع للجبهة. استقبل 8 مايو (أيار)[1] من عام 1945 في غنادينتال ساكسونيا على جبال الألب. وبعد ستة أشهر عاد إلى منطقة حوض الفولغا. عمل لمدة أربعة أشهر في المزرعة الجماعية في قرية غيناديفو (غنادينتال السابقة)، وخمسة أشهر أخرى بمثابة عامل في دار الأيتام التي تحمل اسم الأممية الثالثة (في موقع مزرعة غريم السابقة). وفي نهاية عام 1946، ذهب إلى كازاخستان بحثاً عن ياكوب إيفانوفيتش باخ، الذي كان عنوان مكان احتجازه معروفاً من البطاقة البريدية التي استلمها في الجبهة. وفي عام 1947، بدلاً من العثور على المرحوم ياكوب باخ عثر على آنا باخ. وبقي في جيزكازغان وتزوج آنا باخ، وعمل مدرساً للغة الألمانية في مدرسة محلية.

أصدرت دار نشر «الحرس الفتي» (مولودايا غفارديا) مجموعة «حكايات الألمان السوفيتيين» في عام 1933 (بحجم 640 صفحة، محرّر ومؤلف المقدمة إ. فيخته، الترجمة إلى الروسية ل. فوندتا). أُشير في الطبعة الأولى إلى المراسل من الأرياف غوباخ بوصفه مؤلف الحكايات؛ وفي الطبعة الثانية ذكِرَ غوباخ معدّاً للكتاب، وفي الطبعات اللاحقة اختفى ذكره تماماً. أُعيد طبع الكتاب 5 مرات، وبلغ إجمالي تداوله 300 ألف

1- يوم استسلام ألمانيا النازية وانتهاء الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

نسخة. وعُرِضَت أشهر حكاية في المجموعة «العذراء السجينة» على مسرح الطفل في ساراتوف في عام 1934، وفي السنوات اللاحقة، في 49 مسرحاً للأطفال في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، بما في ذلك موسكو ومسرح لينينغراد للشباب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تقويم ياكوب إيفانوفيتش باخ

1918 – عام المنازل المدمَّرة

1919 – عام الجنون

1920 – عام العجول التي لم تولد

1921 – عام الجياع

1922 – عام الأطفال الموتى

1923 – عام الصمت

1924 – عام العائدين

1925 – عام الضيوف

1926 – عام المحصول غير المسبوق (الحصاد الوفير)

1927 – عام الإرهاصات الخبيثة

1928 – عام القمح المخفي

1929 – عام الفرار

1930 – عام السخط

1931 – عام الكذبة الكبرى

1932 – عام السدّ الكبير

1933 – عام المجاعة الكبرى

1934 – عام النضال الكبير

1935–1938 – أعوام نوفمبر الخالد، أعوام الأسماك والفئران

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الخالص لكلّ مَن ساعد بدعمه وتفهمه في ظهور هذا الكتاب: لزوجي ووالديَّ وحماتي، لصبرهم وتفهمهم اللامتناهي؛ ولابنتي العزيزة - موقفها الشبيه بموقف الكبار. *وليلينا كوستيوكوفيتش* - استحسانها وإيحاءها؛ *وليوليا دوبروفولسكايا* - دعمها المستمرّ في اللحظات الصعبة، سواء بالكلام أو بالفعل، وروحها الودية، وتوجيهاتها؛ *ولساشا كليمينا* - مساعدتها في المعركة مع الأخطاء والحماقات في النص. *وليلينا شوبينا* - صبرها وحكمتها: كانت أول من أخبرتُها بفكرة الكتاب قبل البدء بالكتابة. *ولغالينا بافلوفنا بيلييفا* - تحريرها المتناهي الدقة؛ *لآنا كوليسنيكوفا وتاتيانا ستويانوفا* والزملاء الآخرين في «هيئة تحرير يلينا شوبينا» والرسام *أندريه بوندارينكو*. *ولكريستينا لينكس* - نظرتها «الألمانية» القيمة إلى النص ودعمها في ألمانيا؛ *وليخلموت إتينغير ومارليس يونكيه* - مشورتهما المهنية؛ *ولآندريا دوبيرينتس*- ثقته ومساعدته في تنظيم العمل في رابطة كتّاب ل.س.ب.؛ وللزملاء في دار نشر «آوفباو» (برلين). *ولأولو فالينا* - مساعدتها في تنظيم العمل في رابطة كتّاب بي. سي. دبليو. تي.؛ وللزملاء الآخرين في دار نشر «إرزاتس» (ستوكهولم). *ولأركادي أدولفوفيتش غيرمان* - رؤيته العلمية للرواية والملاحظات القيمة؛ *ولريكاردو فان فينسينتي* - تواصله غير المباشر المهم جدّاً؛ *ولفيرا كوستروفا وإيفيتا ليتفينوفا* - قراءتهما المتأنية. *ولناتاليا بوريسوفنا كوشكاريفا وأولغا ريبكوفيتس* ولجميع أعضاء مجلس خبراء رابطة «الإملاء التام» - ثقتهم ورؤيتهم اللغوية لبعض المقتطفات

من الرواية (على وجه الخصوص، نقاشهم الذي لا يُنسى حول الرياح). وللمترجمين الأعزاء – متعة التواصل، والاحتراف العالي والدفء الذين غمروا النصوص به. وللناشرين والقراء الأعزاء في جميع أنحاء العالم: لولا دعمهم واهتمامهم لما فكّرتُ بهذه القصة ولما كتبتها.

مع خالص الاحترام

غوزيل ياخينا

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

هذه التفاصيل كلّها - من أين أتيتَ بها؟! فقد تشنّجت معدتي تقريباً بسببها. هذا كلّه - كأنّي أراه بأم عيني، أنت ابن كلب! أنت شكسبير أشعث! شيللر مغبَرّ! ما الذي يحدث هناك - في هذا الرأس الأصمّ المُوبِر، ها، قل؟ أيّ شياطين موجودة في داخلك؟ - وبعد أنْ قفز إلى باخ، قرَّب هوفمان منه حسب العادة وجهه الجميل كثيراً وهزَّ منخريه فجأة وخفق برموشه.

هذه هي المرة الثانية التي نقول فيها هذا بأعلى أصواتنا لغوزيل ياخينا، ونحن نقرِّب حسب العادة وجوهنا الجميلة إلى السطور التي كتبَتْها. ولا يمكننا التوقف عن القراءة. وكلّما نقرأ أكثر نندهش أكثر. في الرواية الأولى التي اشتهرت بسرعة بعد عام واحد من ظهورها لأول مرة، والتي صدرت في ثلاثين ترجمة ونالت أفضل الجوائز الأدبية العالمية، أخذتنا ياخينا إلى سيبيريا وفي الوقت نفسه أظهرت لنا الروحية التترية في داخلها، وفي روسيا، ويمكن للمرء أن يقول في داخلنا جميعاً. والآن تغمر القارئ في ماء نهر الفولغا البارد، في الطحلب الجليدي والخث، وفي التماوج والوحل، في إتيل - بولغو - سو، و «فكره الشعبي»، إنها مثل نهر الفولغا، العميق، تتلمَّس أيضاً الروحية الألمانية في داخلها وفي روسيا، ويمكن أنْ نقول، في داخلنا جميعاً.